# الرافدين على الجلالين

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨

002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

# الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء السابع والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣).

{الَّذِي خَلَقَ سَبْع سَمَاوَات طِبَاقًا} بَعْضهَا فَوْق بَعْض مِنْ غَيْر مُمَاسَّة {مَا تَرَى فِي خلق الرحمن} لَهُنَّ أَوْ لِغَيْرِهِنَّ {مِنْ تَفَاوُت} تَبَايُن وَعَدَم تَنَاسُب {فَارْجِعْ الْبَصَر} أَعِدْهُ إلَى السَّمَاء {هَلْ تَرَى} فِيهَا {مِنْ فُطُور} صُدُوع وَشُقُوق.

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤).

{ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَر كَرَّتَيْنِ} كَرَّة بَعْد كَرَّة {يَنْقَلِب} يَرْجِع {إلَيْك الْبَصَر خَاسِئًا} ذَلِيلًا لِعَدَمِ إدْرَاك خَلَل {وَهُوَ حَسِير} مُنْقَطِع عَنْ رُؤْيَة خلل[1].

---

(١) قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} [الملك: ٣]، أي:"الذي خلق سبع سموات متناسقة، بعضها فوق بعض".

**قال الطبري**: "يقول تعالى ذكره: مخبرا عن صفته: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} طبقا فوق طبق، بعضها فوق بعض".

**قال الزجاج**:"معنى {طباقًا} مطبق بعضها عَلَى بَعْض، «طباق» مصدر: طوبقت طباقا".

**قال ابن كثير**:"أي: طبقة بعد طبقة، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهم على بعض، أو متفاصلات بينهن خلاء؟ فيه قولان، أصحهما الثاني، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره".

عن ابن عباس: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}، قال: "بعضها فوق بعض". وروي عن ابن جريج مثله.

=

=

قال الحسن:"بعضهنّ فوق بعض، بين كلّ أرض وسماء خلْقٌ وأمْر".

قوله تعالى: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ} [الملك: ٣]، أي:"ما ترى في خلق الرحمن -أيها الناظر- من اختلاف ولا تباين".

**قال الطبري**: "يقول جل ثناؤه: ما ترى في خلق الرحمن الذي خلق لا في سماء ولا في أرض، ولا في غير ذلك من تفاوت، يعني من اختلاف".

**قال ابن كثير**:"أي: بل هو مصطحب مستو، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة، ولا نقص ولا عيب ولا خلل".

قال قتادة:"ما ترى فيهم من اختلاف".

قال عطاء الخراساني:"يقال: لا يَفُوت بعضه بعضًا".

وقرئ: «مِنْ تَفَوُّتٍ»، بتشديد الواو بغير ألف.

قوله تعالى: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} [الملك: ٣]، أي:"فأعد النظر إلى السماء: هل ترى فيها مِن شقوق أو صدوع؟".

**قال الطبري**: "يقول: فرد البصر، هل ترى فيه من صُدوع؟ وهي من قول الله: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ}، بمعنى: يتشققن ويتصدّعن".

**قال الزجاج**:"أي: هل ترى فيها فروجًا أو صَدُوعًا".

**قال ابن كثير**:"أي: انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيبًا أو نقصًا أو خللا؛ أو فطورًا؟".

عن سفيان: "{هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}، قال: من شقوق".

عن قتادة: "{مِنْ فُطُورٍ}، قال: من خلل".

**وقال السدي**:"{هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}، أي: من خُروق".

قال قتادة:"يقول: هل ترى من خلل يا ابن آدم".

عن ابن عباس:"{هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}، قال: الفطور: الوهي".

=

=

عن عطية العوفي: "{هَلْ تَرى مِن فُطُورٍ} عَيب".
قال محمد بن كعب القُرَظيّ: "{هَلْ تَرى مِن فُطُورٍ} فُروج".
وقوله تعالى: (الذي خلق سبع سماوات طباقا) أي: طبقة بعد طبقة، لكن من غير مماسة إذ ما بين كل سماء وأخرى هواء فارغ مسيرة خمسمائة عام.
والمعنى: أي أوجد سبع سماوات (طباقا) أي: كل واحدة فوق الأخرى، طبقة فوق طبقة، وكل واحدة منفصلة عن الأخرى لا متلصقة بها كما دل على ذلك حديث الإسراء (أنه يعرج به ﷺ من سماء إلى سماء حتى انتهى إلى السابعة).
- **قال ابن عطية**: والمعنى بعضها فوق بعض، وما ذكر بعض المفسرين في السماوات من أن بعضها من ذهب وفضة وياقوت ونحو هذا ضعيف كله، ولم يثبت بذلك حديث، ولا يعلم أحد من البشر حقيقة لهذا.
(ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) أي: من اختلاف أو تضاد أو تنافر، وإنما التناسق والانتظام، بل كلها محكمة، جارية على مقتضى نهاية الانتظام والإبداع.
**قال ابن كثير**: أي بل هو مصطحب مستو ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ولا نقص ولا عيب ولا خلل.
- **قال الرازي**: حقيقة التفاوت عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضه ولا يلائمه.
- **وقال القرطبي**: المعنى ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاج ولا تناقض ولا تباين بل هي مستقيمة مستوية دالة على خالقها وإن اختلفت صوره وصفاته.
- **وقال الشوكاني**: والمعنى ما ترى في خلق الرحمن من تناقض ولا تباين، ولا اعوجاج ولا تخالف، بل هي مستوية مستقيمة دالة على خالقها، وإن اختلفت صورها وصفاتها، فقد اتفقت من هذه الحيثية.
- **وقال ابن عاشور**: والتعبير بوصف (الرحمن) دون اسم الجلالة إيماء إلى أن
=

=

هذا النظام مما اقتضته رحمته بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام عيشهم، لأنه لو كان فيما خلق الله تفاوت لكان ذلك التفاوت سببا لاختلال النظام فيتعرض الناس بذلك لأهوال ومشاق، قال تعالى: (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) وقال: (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق).

وأيضا في ذلك الوصف تورك على المشركين إذ أنكروا اسمه تعالى: (الرحمن) (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا).

(لطيفة): قال ابن عقيل في الواضح ٢/ ٣٧٧: (وقد نفى سبحانه التفاوت عن أفعاله بقوله: {ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت} [الملك:٣]، فكان ذلك تنبيها على نفي النقائص عن صفاته).

(فارجع البصر هل ترى من فطور) أي انظر إلى السماء وتأمل فيها جيدا هل ترى فيها عيبا أو نقصا أو خلالا.

والذي عليه أهل السنة والجماعة أن نفي النقص عن أفعال الله أو صفاته هو إثبات لكمال ضده؛ لأن النفي الخالص لا مدح فيه.

**قال ابن القيم**: (كل ما نفاه الله عن نفسه هو لإثبات كمال ضده).

وقال ابن أبي العز: (كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده، كقوله تعالى: {ولا يظلم ربك أحدا (٤٩)} [الكهف:٤٩] لكمال عدله، {لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض} [سبأ:٣] لكمال علمه، وقوله تعالى: {وما مسنا من لغوب (٣٨)} [ق:٣٨] لكمال قدرته، {لا تأخذه سنة ولا نوم} [البقرة:٢٥٥] لكمال حياته وقيوميته، {لا

=

=

تدركه الأبصار} [الأنعام:١٠٣] لكمال جلاله وعظمته وكبريائه، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه).

لأن النفي قد يكون عن عجز، كما يمثل على نفي الفعل لعدم القدرة عليه بقولهم: الجدار لا يظلم، والله جل وعلا منزه عن ذلك. والله تعالى أعلم.

قال ابن عاشور: والفطور: جمع فطر بفتح الفاء وسكون الطاء، وهو الشق والصدع، أي لا يسعك إلا أن تعترف بانتفاء الفطور في نظام السماوات فتراها ملتئمة محبوكة لا ترى في خلالها انشقاقا، ولذلك كان انفطار السماء وانشقاقها علامة على انقراض هذا العالم ونظامه الشمسي، قال تعالى (وفتحت السماء فكانت أبوابا) وقال (إذا السماء انشقت) وقال (إذا السماء انفطرت).

**قال الطبري**: يقول:"ثم ردّ البصر يا ابن آدم كرّتين، مرة بعد أخرى، فانظر {هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} أو تفاوت".

**قال الزمخشري**:"أمره بتكرير البصر فيهنّ متصفحا ومتتبعا يلتمس عيبا وخللا".

عن ابن عباس:"{ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ} مَرّة بعد مَرّة".

عن ابن عباس: "{ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ}، يقول: هل ترى في السماء من خَلل؟".

قوله تعالى: {يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا} [الملك: ٤]، أي:"يرجع إليك البصر ذليلا صاغرًا عن أن يرى نقصًا".

**قال الطبري**: يقول: يرجع إليك بصرك صاغرًا مُبْعَدا من قولهم للكلب: اخسأ، إذا طردوه، أي: أبعد صاغرا".

**قال الزمخشري**:"أي: إن رجعت البصر وكررت النظر لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل وإدراك العيب، بل يرجع إليك بالخسوء، أى: بالبعد عن إصابة الملتمس. كأنه يطرد عن ذلك طردا بالصغار والقماءة".

=

=

**قال ابن كثير**:"معنى الآية: إنك لو كررت البصر، مهما كررت، لانقلب إليك، أي: لرجع إليك البصر، {خَاسِئًا} عن أن يرى عيبًا أو خللا".
قال يحيى بن سلام:"يعني: فاترا منقطعا".
**قال الزمخشري**: أي: "بالإعياء والكلال لطول الإجالة والترديد".
عن ابن عباس، قوله: "{خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}، يقول: ذليلا".
عن قتادة، قوله: "{يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا}، أي: حاسرا". وفي رواية:"صاغرا".
قوله تعالى: {وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك: ٤]، أي:"وهو متعب كليل".
**قال الطبري**: يقول: وهو مُعْيٍ كالّ".
**قال الزجاج**:"قد أَعْيَى من قبل أَنْ يَرَى في السَّمَاءِ خَلَلًا".
**قال ابن كثير**:"أي: كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر، ولا يرى نقصًا".
قال يحيى بن سلام:"يعني: وهو كليل قد حسر، أي: قد كلَّ، قد أعيَا".
عن قتادة، قوله: "{وَهُوَ حَسِيرٌ}، أي: يقول: مُعْيٍ لم ير خَلَلا ولا تفاوتا".
عن ابن عباس، قوله: {وَهُوَ حَسِيرٌ}، يقول: مرجف".
عن ابن عباس: "{يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}، بسواد الليل".
وقال ابن زيد:"الخاسئ، والخاسر واحد؛ حَسَر طرفه أن يَرى فيها فَطْرًا فرجع وهو حسير قبل أن يرى فيها فَطْرا؛ قال: فإذا جاء يوم القيامة انفطرت ثم انشقت، ثم جاء أمر أكبر من ذلك انكشطت".
(ثم ارجع البصر كرتين) أي: مرتين.
- **قال القرطبي**: وإنما أمر بالنظر مرتين لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى، فأخبر تعالى أنه وإن نظر في السماء مرتين لا يرى فيها عيبا بل يتحير بالنظر إليها؛ فذلك قوله تعالى (ينقلب إليك البصر خاسئا) أي
=

=

خاشعا صاغرا متباعدا عن أن يرى شيئا من ذلك.

- **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمراد ب "كرتين" ها هنا التكثير، والدليل على ذلك (ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) وذلك دليل على كثرة النظر.

- **وقال الشوكاني**: ووجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة، أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب في النظرة الأولى ولا في الثانية، ولهذا قال أولا (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) ثم قال ثانيا (فارجع البصر) ثم قال ثالثا (ثم ارجع البصر كرتين) فيكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة، وأقطع للمعذرة.

- **وقال ابن عاشور**: وتثنية (كرتين) ليس المراد بها عدد الاثنين الذي هو ضعف الواحد إذ لا يتعلق غرض بخصوص هذا العدد، وإنما التثنية مستعملة كناية عن مطلق التكرير فإن من استعمالات صيغة التثنية في الكلام أن يراد بها التكرير.

(ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) أي: يرجع إليك البصر ذليلا مبعدا كالا تعبا صاغرا، قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ولا يرى نقصا.

(خاسئا) ذليلا صاغرا، (حسير) بمعنى كليل ومتعب.

ومعنى الآية: أنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجود الخلل والعيب، بل رجع خاسئا مبعدا.

- **قال الرازي**: والمعنى أنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بما طلبته من وجود الخلل والعيب، بل رجع خاسئا مبعدا لم ير ما يهوى مع الكلاء والإعياء.

- **وقال القرطبي**: أي اردد طرفك وقلب البصر في السماء (مرتين) أي: مرة بعد أخرى، يرجع إليك البصر خاشعا صاغرا، متباعدا عن أن يرى شيئا من ذلك العيب والخلل، وإنما أمر بالنظر كرتين، لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عيبه، ما لم ينظر إليه مرة أخرى، والمراد بالكرتين التكثير.

**وقال ابن كثير**: ومعنى الآية: أنك لو كررت البصر مهما كررت، لانقلب إليك،

=

أي: رجع إليك البصر (خاسئا) عن أن يرى عيبا أو خللا (وهو حسير) أي: كليل وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ولا يرى نقصا.

• وخلق السماوات من أعظم مخلوقات الله.

كما قال تعالى (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) وقال تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه).

وقال تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج).

وقال تعالى (والسماء ذات الحبك).

وقال تعالى (وإلى السماء كيف رفعت).

وقد أخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض إلا بالحق.

كما قال تعالى (ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أي: وليس عبثا، فإن الله منزه عن العبث، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة، فالحق ضد الباطل، فالله خلقهما لحكم باهرة، لم يخلقهما باطلا ولا عبثا ولا لعبا.

كما قال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا)، وقال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين).

- **قال ابن القيم**: الرب تبارك وتعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

**أحدهما**: النظر في مفعولاته، والثاني: التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة.

فالنوع الأول كقوله (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس...) وقوله (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) وهو كثير في القرآن.

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥).

{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا} الْقُرْبَى إلَى الْأَرْض {بِمَصَابِيح} بِنُجُومٍ {وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا} مَرَاجِم {لِلشَّيَاطِينِ} إذَا اسْتَرَقُوا السَّمْع بِأَنْ يَنْفَصِل شِهَاب عَنْ الْكَوْكَب كالقبس يؤخذ من النار فيقتل الجني أن يَخْبِلهُ لَا أَنَّ الْكَوْكَب يَزُول عَنْ مَكَانه {وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاب السَّعِير} النَّار الْمُوقِدَة[1].

---

=

والثاني كقوله (أفلا يتدبرون القرآن) وقوله (أفلم يدبروا القول) وقوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته).

(١)قوله تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} [الملك: ٥].

**قال الطبري:**"وهي النجوم، وجعلها مصابيح لإضاءتها، وكذلك الصبح إنما قيل له صبح للضوء الذي يضئ للناس من النهار".

**قال ابن كثير:**"ولما نفى عنها في خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت".

**قال الزمخشري:**"{الدُّنْيا}: القربى، لأنها أقرب السماوات إلى الناس، ومعناها: السماء الدنيا منكم. والمصابيح السرج، سميت بها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بأثقاب المصابيح، فقيل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها بِمَصابِيحَ أى بأى مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} [الملك: ٥]، أي:"وجعلناها شهبًا محرقة لمسترقي السمع من الشياطين".

**قال الطبري:**"يقول: وجعلنا المصابيح التي زيَّنا بها السماء الدنيا رجوما

=

=

للشياطين تُرْجم بها".

**قال ابن كثير**:"عاد الضمير في قوله: {وَجَعَلْنَاهَا} على جنس المصابيح لا على عينها؛ لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها".

**قال الزمخشري**:"الرجوم: جمع رجم: وهو مصدر سمى به ما يرجم به. ومعنى كونها مراجم للشياطين: أنّ الشهب التي تنقض لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها، لأنها قارة في الفلك على حالها. وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار، والنار ثابتة كاملة لا تنقص. وقيل: من الشياطين المرجومة من يقتله الشهاب. ومنهم من يخبله. وقيل: معناه وجعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الإنس وهم النجامون".

قال قتادة:"إن الله جلّ ثناؤه إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء الدنيا، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدي بها؛ فمن يتأوّل منها غير ذلك، فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلّف ما لا علم له به".

عن محمد بن كعب: "والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنهم يتبعون ويتخذون النجوم علة فهو كما أخبرنا الله: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [الصافات: ١٠]، قال: {عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينِ} [الشعراء: ٢٢١]، إلى قوله: {وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} [الشعراء: ٢٢٣]".

عن عبد الله بن حفص قال: "خصت العرب بخصال: بالكهانة والقيافة والعيافة والنجوم والحساب، فهدم الإسلام الكهانة، وثبت الباقي بعد ذلك".

قوله تعالى: {وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} [الملك: ٥]، أي:"وأعتدنا لهم في الآخرة عذاب النار الموقدة يقاسون حرها".

**قال الطبري**: يقول:"وأعتدنا للشياطين في الآخرة عذاب السعير، تُسْعَر عليهم

=

=

فتُسْجَر".

**قال القرطبي**:"أي: أعتدنا للشياطين أشد الحريق، يقال: سعرت النار فهي مسعورة وسعير".

**قال الزمخشري**:"في الآخرة بعد عذاب الإحراق بالشهب في الدنيا".

**قال ابن كثير**:"أي: جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى، كما قال: في أول الصافات: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [الصافات: ٦- ١٠]".

عن سعيد بن جبير، قال: "السعير: وادي من فيح في جهنم".

قال الآلوسي: الآية كلام مسوق للحث على النظر قدرة وامتنانا وفي الإرشاد بيان لكون خلق السموات في غاية الحسن والبهاء أثر بيان خلوها عن شائبة العيب والقصور.

(ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الواو للاستئناف، واللام للقسم، و (قد) للتحقيق، أي: والله لقد جملنا السماء الدنيا القريبة منكم التي تشاهد (بمصابيح) وهي الكواكب النيرة التي تنير الكون الثابتة والسيارة كالشمس والقمر والنجوم.

- **قال السعدي**: (ولقد زينا) أي: ولقد جملنا (السماء الدنيا) التي ترونها وتليكم (بمصابيح) وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم لكانت سقفا مظلما لا حسن فيه ولا جمال، ولكن جعل الله هذه النجوم زينة وجمالا ونورا.

- **قال الشوكاني**: بين سبحانه بعد خلق السموات، وخلوها من العيب والخلل أنه زينها بهذه الزينة، فصارت في أحسن خلق وأكمل صورة وأبهج شكل،

=

=

والمصابيح جمع مصباح، وهو السراج، وسميت الكواكب مصابيح؛ لأنها تضيء كإضاءة السراج وبعض الكواكب.

• قوله تعالى (السماء الدنيا) أي: السماء القربى، وذلك لأنها أقرب السموات إلى الناس ومعناها السماء الدنيا من الناس، والمصابيح السرج سميت بها الكواكب.

(وجعلناها رجوما للشياطين) أي: وجعلنا لها فائدة أخرى وهي رجم لأعدائكم الشياطين الذين يسترقون السمع.

- **قال ابن عاشور**: والشياطين هي التي تسترق السمع فتطردها الشهب كما تقدم في سورة الصافات.

- قال الخازن: فإن قيل: كيف تكون زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وكونها زينة يقتضي بقاءها، وكونها رجوما يقتضي زوالها، فيكف الجمع بين هاتين الحالتين؟

**فالجواب**: أنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن تنفصل من الكواكب شعلة وترمى الشياطين بتلك الشعلة وهي الشهب، ومثلها كمثل قبس يؤخذ من النار وهي على حالها، أقول: ويؤيده قوله تعالى (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) فعلى هذا، الكواكب لا يرجم بها؛ وإنما يكون الرجم بالشهب.

- **قال الشوكاني**: أي: شهبها وهي نارها المقتبسة منها لا هي أنفسها لقوله (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) ووجه هذا أن المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا لا تزول ولا يرجم بها.

- قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر.

=

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦).

{وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَاب جَهَنَّم وَبِئْسَ الْمَصِير} هي.

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧).

{إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا} صَوْتًا مُنْكَرًا كَصَوْتِ الْحِمَار {وَهِيَ تَفُور} تَغْلِي.

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨).

{تَكَاد تَمَيَّز} وَقُرِئَ تَتَمَيَّز عَلَى الْأَصْل تَتَقَطَّع {مِنْ الْغَيْظ} غَضَبًا عَلَى الْكَافِر {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْج} جَمَاعَة مِنْهُمْ {سَأَلَهُمْ خَزَنَتهَا} سُؤَال تَوْبِيخ {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِير} رَسُول يُنْذِركُمْ عَذَاب الله تعالى.

قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩).

{قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِير فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِنْ شَيْء إِنْ} مَا {أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَال كَبِير} يَحْتَمِل أَنْ يَكُون مِنْ كَلَام الْمَلَائِكَة لِلْكُفَّارِ حِين أُخْبِرُوا بالتكذيب وأن يَكُون مِنْ كَلَام الْكُفَّار لِلنَّذْرِ.

---

=

زينة للسماء كما في هذه الآية.

رجوما للشياطين: كما في هذه الآية.

وعلامات يهتدي بها كما في قوله تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون).

(وأعتدنا لهم عذاب السعير) أي: وهيأنا وأعددنا للشياطين في الآخرة- بعد الإحراق بالشهب في الدنيا- العذاب المستمر وهو النار الموقدة.

فالضمير في قوله (لهم) للشياطين.

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠).

{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَع} أَيْ سَمَاع تَفَهُّم {أو نعقل} أي عقل تفكر {ما كنا في أصحاب السعير}.

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١).

{فَاعْتَرَفُوا} حَيْثُ لَا يَنْفَع الِاعْتِرَاف {بِذَنْبِهِمْ} وَهُوَ تَكْذِيب النُّذْر {فَسُحْقًا} بِسُكُونِ الْحَاء وَضَمّهَا {لِأَصْحَابِ السَّعِير} فَبُعْدًا لَهُمْ عَنْ رَحْمَة الله(١).

---

(١) قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ} الذي خلقهم في الدنيا {عَذَابَ جَهَنَّمَ} في الآخرة".

**قال الزمخشري:**"أي: ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم {عَذابُ جَهَنَّمَ} ليس الشياطين المرجومين مخصوصين بذلك".

قوله تعالى: {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الملك:٦]، أي:"وساء المرجع لهم جهنم".

**قال الطبري:**"يقول: وبئس المصير عذاب جهنم".

**قال ابن كثير:**"أي: بئس المآل والمنقلب".

عن ابن أبي نجيح، قوله: "{وبئس المصير}، قال: مصير الكافر إلى النار، قال ابن أبي نجيح: سمعته من عكرمة فعرضته على مجاهد فلم ينكره".

(وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم) أي وللكافرين بربهم عذاب جهنم أيضا، فليس العذاب مختصا بالشياطين بل هو لكل كافر بالله من الإنس والجن.

- قوله تعالى (كفروا بربهم) أي: جحدوا وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشريعته أو شيئا من ذلك.

- وسميت جهنم بهذا الاسم: قيل: لبعد قعرها، وقيل: لغلظ أمرها.

(وبئس المصير) أي وبئست النار مرجعا ومصيرا للكافرين.

قوله تعالى: {إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا} [الملك: ٧]، أي:"إذا طُرِح هؤلاء =

=

الكافرون في جهنم سمعوا لها صوتًا شديدًا منكرًا".

عن ابن جريج:"{سَمِعُوا لَها شَهِيقًا}، قال: صِياحًا".

**قال الطبري:**"يعني إذا ألقى الكافرون في جهنم {سَمِعُوا} لجهنم {شَهِيقًا}، يعني بـ «الشهيق»: الصوت الذي يخرج من الجوف بشدّة كصوت الحمار، كما قال رؤبة في صفة حمار:

**حَشْرَجَ فِي الجَوْفِ سَحِيلا أَوْ شَهَقْ... حَتَّى يُقَالَ نَاهِقٌ وَمَا نَهَقْ".**

**قال الزمخشري:**"أي: طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة، ويرمى به. ومثله قوله تعالى: {حَصَبُ جَهَنَّمَ}، {سَمِعُوا لَها شَهِيقًا} إمّا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها. أو من أنفسهم، كقوله: {لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} وإما للنار تشبيها لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق".

قوله تعالى: {وَهِيَ تَفُورُ} [الملك: ٧]، أي:"وهي تغلي غليانًا شديدًا".

**قال الطبري:**"يقول: تَغْلِي".

**قال الزمخشري:**"تغلى بهم غليان المرجل بما فيه".

قال مجاهد:"يقول: تغلي كما يغلي القدر". وفي رواية:"تفور بهم، كما يفور الحَبُّ القليل في الماء الكثير".

قال الثوري: "تغلي بهم كما يغلي الحَبّ القليل في الماء الكثير".

عن أبي يحيى، قال: "إنّ الرجل لَيُجرّ إلى النار، فتنزوي ويَنقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لكِ؟ قالت: إنّه كان يستحي مني. فيقول: أرسِلوا عبدي. قال: وإنّ العبد ليُجرّ إلى النار، فيقول: يا ربّ، ما كان هذا الظنّ بك. قال: فما كان ظنّك؟ قال: كان ظني أن تَسعني رحمتكَ. فيقول: أرسِلوا عبدي. قال: وإنّ الرجل ليُجرّ إلى النار، فتَشهق إليه النار شَهيق البَغلة إلى الشّعير، ثم تَزفر زَفرة لا يبقى أحدٌ إلا خاف".

=

=

(إذا ألقوا فيها) أي إذا قذفوا وطرحوا في جهنم على وجه الذل والإهانة كما يطرح الحطب.

كما قال تعالى (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد).

وقال تعالى (الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد).

ويساقون إليها سوقا، ويدفعون إليها دفعا بعنف كما قال تعالى (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا).

وقال تعالى (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا).

(سمعوا لها شهيقا) أي سمعوا لجهنم صوتا منكرا فظيعا كصوت الحمار، لشدة توقدها وغليانها.

(وهي تفور) تغلي بهم.

قوله تعالى: {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ} [الملك: ٨]، أي:"تكاد جهنم تتمزق مِن شدة غضبها على الكفار".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: {تَكَادُ} جهنم تتفرّق وتتقطع {مِنَ الْغَيْظِ} على أهلها".

**قال ابن كثير**:"أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم".

**قال الزمخشري**:"جعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم، ويقولون: فلان يتميز غيظا ويتقصف غضبا، وغضب فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء: إذا وصفوه بالإفراط فيه. ويجوز أن يراد: غيظ الزبانية".

عن ابن عباس، قوله: "{تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ}، يقول: تتفرّق".

قال الضحاك:"يقول: تفرّق".

قال فُضَيل بن عِياض: "تَقَطَّع".

=

=

قال ابن عباس:"تكاد يفارق بعضها بعضا وتنفطر".

قال ابن زيد:"التميز: التفرّق من الغيظ على أهل معاصي الله غضبا لله، وانتقاما له".

قوله تعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} [الملك: ٨]، أي:"كلما طُرح فيها جماعة من الناس سألهم الموكلون بأمرها على سبيل التوبيخ: ألم يأتكم في الدنيا رسول يحذركم هذا العذاب الذي أنتم فيه؟".

**قال الطبري**:"يقول جلّ ثناؤه: كلما ألقي في جهنم جماعة، سأل الفوجَ خزنة جهنم، فقالوا لهم: ألم يأتكم ي الدنيا نذير ينذركم هذا العذاب الذي أنتم فيه؟".

**قال الزمخشري**:"{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ}، توبيخ، يزدادون به عذابا إلى عذابهم وحسرة إلى حسرتهم. وخزنتها: مالك وأعوانه من الزبانية".

قال مجاهد: "الرسل من الإنس. والنذير من الجن، ثم قرأ: {وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} [الأحقاف: ٢٩]".

قال ابن عباس: "هم الذين استمعوا القرآن وأبلغوه قومهم".

قال الكلبي: "كانت الرسل قبل أن يبعث النبي ﷺ يبعثون إلى الجن والإنس جميعا".

قال عبيد بن سليمان: "سئل الضحاك عن الجن هل كان فيهم مؤمن قبل أن يبعث النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله تعالى: {مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ}".

(تكاد تميز من الغيظ) أي يكاد ينفصل بعضهما من بعض من شدة غيظها عليهم وحقنها على أعداء الله.

- **قال ابن عاشور**: (وتميز) أصله تتميز، أي تنفصل، أي تتجزأ أجزاء تخييلا لشدة الاضطراب بأن أجزاءها قاربت أن تتقطع، وهذا كقولهم: غضب فلان

=

=

فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء.

(كلما ألقي فيها فوج) أي كلما طرح فيها جماعة من الكفرة.

(سألهم خزنتها) أي سألتهم الملائكة الموكلون على جهنم _ وهم الزبانية _ سؤال توبيخ.

- **قال ابن عاشور**: وخزنة النار: الملائكة الموكل إليهم أمر جهنم وهو جمع خازن للموكل بالحفظ وأصل الخازن: الذي يخزن شيئا، أي يحفظه في مكان حصين، فإطلاقه على الموكلين مجاز مرسل.

(ألم يأتكم نذير) أي ألم يأتكم رسول ينذركم ويخوفكم من هذا اليوم الرهيب؟

- قال المفسرون: وهذا السؤال زيادة لهم في الإيلام ليزدادوا حسرة فوق حسرتهم وعذابا فوق عذابهم.

- **قال الشوكاني**: أي: كلما ألقي في جهنم جماعة من الكفار سألهم خزنتها من الملائكة سؤال توبيخ وتقريع (ألم يأتكم) في الدنيا (نذير) ينذركم هذا اليوم، ويحذركم منه.

قوله تعالى: {قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا} [الملك: ٩]، أي:"أجابوهم قائلين: بلى قد جاءنا رسول مِن عند الله وحذَّرنا، فكذَّبناه".

**قال الطبري**:"فأجابهم المساكين {قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ} ينذرنا هذا، فَكَذَّبْناهُ".

**قال الزمخشري**:"{قالُوا بَلى} اعتراف منهم بعدل الله، وإقرار بأن الله عز وعلا أزاح عللهم ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه".

قوله تعالى: {وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ} [الملك: ٩]، أي:"وقلنا فيما جاء به من الآيات: ما نزَّل الله على أحد من البشر شيئًا".

**قال الطبري**: أي: "وَقُلْنَا له {مَا نزلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ}".

=

=

عن أبي الضحى، قال: جاء ابن الأزرق وعطية إلى ابن عباس، فقالا له: أرأيت قول الله ﷻ: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات: ٣٦]، وقال: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر: ٣١] وقال في مكان آخر: {وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا} [النساء: ٤٢] وقال: {وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]، فقال له ابن عباس: «ويحك يا ابن الأزرق، إنه يوم طويل فيه مواقف كثيرة، فيأتي عليهم ما شاء الله وهم لا ينطقون، ثم يؤذن لهم فيختصمون، ثم يأتي عليهم حال فيجحدون شركهم، ويظنون أن ذلك ينفعهم فيختم الله على ألسنتهم، وتنطق جوارحهم فتشهد عليهم بأعمالهم، ثم تنطق ألسنتهم، فتقر بما عملوا فلا يكتمون الله حديثا»، فيقولون: {قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ} [الملك: ٩]".

قوله تعالى: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ} [الملك: ٩]، أي: "ما أنتم -أيها الرسل- إلا في ذهاب بعيد عن الحق".

**قال الطبري**: "يقول: في ذهاب عن الحقّ بعيد".

**قال السعدي**:"فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله ولم يكفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم، ضلالا كبيرًا، فأي عناد وتكبر وظلم، يشبه هذا؟".

**قال الزمخشري**:"هو من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين.. ويجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول: أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلالهم في الدنيا. أو أرادوا بالضلال: الهلاك. أو سموا عقاب الضلال باسمه. أو من كلام الرسل لهم حكوه للخزنة، أي: قالوا لنا هذا فلم نقبله".

**قال ابن كثير**:"يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة

=

=

عليه وإرسال الرسول إليه، كما قال: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} [الإسراء: ١٥] وقال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الزمر: ٧١]".

(قالوا بلى قد جاءنا نذير) أي أجابوا، نعم لقد جاءنا رسول منذر، وتلا علينا آيات الله، ولكننا كذبنا وأنكرنا رسالته

(وقلنا ما نزل الله من شيء) أي وقلنا تماديا في التكذيب: ما أنزل الله من الوحي على أحد.

(إن أنتم إلا في ضلال كبير) وقلنا لهم ما أنتم أيها الرسل إلا في ضلال واضح عميق وبعد عن الحق. وقيل: إنه بقية كلام خزنة جهنم.

١- فجمعوا بين أمور ثلاثة كل واحد منها أسوأ مما قبله: فأولا: كذبوا رسولهم، وثانيا: نفوا أن يكون الله نزل شيئا من الوحي على الرسل لهداية الخلق، وثالثا: رموا الرسل الهداة المهتدين المبعوثين لهداية الخلق بالضلال الكبير.

٢- وفي هذا دليل على أن الله لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسل إليه:

كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا).

وقال تعالى (حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين).

وفي هذا أن عذاب الكفار في جهنم عذاب معنوي وحسي، فالحسي يؤلم البدن، والمعنوي يؤلم القلب.

قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ} [الملك: ١٠]، أي:"وقالوا معترفين:

=

=

لو كنا نسمع سماع مَن يطلب الحق، أو نفكر فيما نُدْعى إليه".

عن ابن عباس:"{لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ} الهُدى أو نعقله؛ فنعمل به".

**قال الطبري**: يقول:"وقال الفوج الذي ألقي في النار للخزنة: {لَوْ كُنَّا} في الدنيا {نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ} من النذر ما جاءونا به من النصيحة، أو نعقل عنهم ما كانوا يدعوننا إليه".

قال القشيري:"فأخبر أنهم لم يكن لهم سمع قبول، فاستوجبوا العقوبة لأجله، لم يسمعوا نصيحة الناصحين ولا وعظ الواعظين، ولا ما فيه لقلوبهم حياة".

**قال السعدي**:"فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع لهم ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله، علمًا ومعرفة وعملا.

والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم -في الإيمان- بحسب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير".

قوله تعالى: {مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: ١٠]، أي:"ما كنا في عداد أهل النار".

**قال الطبري**:"يعني: أهل النار".

**قال ابن كثير**:"عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، فقالوا: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}، أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر

=

=

بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم".

(وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) أي: وقال الكافرون بربهم- على سبيل الحسرة والندامة- لو كنا في الدنيا نسمع ما يقال لنا على لسان رسولنا، سماع طاعة وتفكر واستجابة، أو نعقل ما يوجه إلينا من هدايات وإرشادات... لو كنا كذلك، ما صرنا في هذا اليوم من جملة أصحاب النار المسعرة، الذين هم خالدون فيها أبدا.

وقدم- سبحانه- السماع على التعقل، مراعاة للترتيب الطبيعي، لأن السماع يكون أولا، ثم يعقبه التعقل والتدبر لما يسمع.

- فقولهم (لو كنا نسمع) أي: سماع انتفاع لما جاءت به النذر (أو نعقل) أيضا تعقل انتفاع لذلك، فنفوا عن أنفسهم أعظم طرق الهداية وهما السمع والعقل لعدم انتفاعهم بهما.

- **قال ابن عاشور**: فانتفاء السمع بإعراضهم عن تلقي دعوة الرسل مثل ما حكى الله عن المشركين (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن) وانتفاء العقل بترك التدبر في آيات الرسل ودلائل صدقهم فيما يدعون إليه، ولا شك في أن أقل الناس عقلا المشركون لأنهم طرحوا ما هو سبب نجاتهم لغير معارض يعارضه في دينهم.

قوله تعالى: {فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ} [الملك: ١١]، أي:"فاعترفوا بتكذيبهم وكفرهم الذي استحقوا به عذاب النار".

**قال الطبري**:"يقول: فأقرّوا بذنبهم ووحَّد الذنب".

قال القشيري:"اعترفوا بذنبهم ولكن في غير وقت الاعتراف".

قوله تعالى: {فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: ١١]، أي:"فبعدًا لأهل النار

=

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢).

{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهمْ} يَخَافُونَهُ {بِالْغَيْبِ} فِي غَيْبَتهمْ عَنْ أَعْيُن النَّاس فَيُطِيعُونَهُ سِرًّا فَيَكُون عَلَانِيَة أَوْلَى {لَهُمْ مَغْفِرَة وَأَجْر كَبِير} أَيْ الجنة[1].

=

عن رحمة الله".

**قال الطبري**:"يقول: فبُعدا لأهل النار".

**قال الزمخشري**:"أي: فبعدا لهم، اعترفوا أو جحدوا، فإنّ ذلك لا ينفعهم".

**قال السعدي**:"أي: بعدًا لهم وخسارة وشقاء، فما أشقاهم وأرداهم، حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسعير، التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم!".

عن ابن عباس، قوله: "{فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ}، يقول: بُعدا".

قال سعيد بن جبير:"«سُحقا» واد في جهنم".

عن أبي البَخْتَرِيّ الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: "لن يهلك الناس حتى يُعذِروا من أنفسهم".

وفي حديث آخر: "لا يدخل أحد النار إلا أرى مقعده من الجنة"".

(فاعترفوا بذنبهم) فأقروا بإجرامهم وتكذيبهم للرسل.

لكن حين لا ينفع الندم (أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين. أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين. أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين).

(فسحقا لأصحاب السعير) أي فبعدا وهلاكا لأهل النار.

**قال ابن كثير**: عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة.

(١) قال الطبري: يقول:"إن الذين يخافون ربهم وهم لم يرَوْه".

قال ابن أبي زمنين: أي:"في السر بذكر ذنوبه في الخلاء الله منها".

=

قال الواحدي: أي:"قبل مُعاينة العذاب وأحكام الآخرة".
قال السمعاني:"أي: بالوعد والوعيد الذي غاب عنه، ويقال: بالجنة والنار، ويقال: في الخلوات".
**قال ابن كثير**:"يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن الناس، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله".
قال النحاس:"من أحسن ما قيل فيه أن المعنى إن الذين يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس لأنه الوقت الذي تكثر فيه المعاصي فإذا خشوا ربهم جلّ وعزّ عند غيبة الناس عنهم فاجتنبوا المعاصي كانوا بحضرة الناس أكثر اجتنابا".
قال القشيري:"الخشية توجب عدم القرار، فيكون العبد أبدا- لانزعاجه- كالحبّ على المقلى لا يقرّ ليله أو نهاره، يتوقّع العقوبات مع مجارى الأنفاس، وكلّما ازداد في الله طاعة ازداد لله خشية".
قوله تعالى: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الملك: ١٢]، أي:"لهم عفو من الله عن ذنوبهم، وثواب عظيم وهو الجنة".
**قال الطبري**: "يقول: لهم عفو من الله عن ذنوبهم وثواب من الله لهم على خشيتهم إياه بالغيب جزيل".
**قال ابن كثير**:"أي: يكفر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: "سبعة يظلهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله"، فذكر منهم: «رجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلا تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» ".
عن ابن جريج، في قوله: "{لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ}، قال: كل شيء في القرآن: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ}، {ورِزْقٌ كَرِيمٌ} فهو الجنة".

=

عن قتادة: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}، قال: "مغفرة لذنوبهم ورزق كريم في الجنة".

(إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) يقول تعالى مخبرا عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائبا عن الناس فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى بأنه له مغفرة وأجر كبير أي تكفر عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل.

فقوله تعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) أي: وهم غائبون عن أعين الناس لا يراهم أحد من الناس.

كما جاء في الحديث عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله:.. وذكر منهم: ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه). متفق عليه

وقال تعالى (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب).

ويحتمل (يخشون ربهم بالغيب) أي: أنهم يخشون ربهم وهم لم يروه.

كما في الحديث (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم.

- **قال ابن عطية:** قوله تعالى (بالغيب) يحتمل معنيين:

أحدهما (بالغيب) الذي أخبروا به من الحشر والصراط والميزان والجنة والنار، فآمنوا بذلك، وخشوا ربهم فيه، ونحا إلى هذا قتادة.

والمعنى الثاني: أنهم يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس، أي في خلواتهم، ومنه تقول العرب: فلان سالم الغيب، أي لا يضر، فالمعنى يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعباداتهم، وانفرادهم، فالاحتمال الأول: مدح بالإخلاص والإيمان، والثاني: مدح بالأعمال الصالحة في الخلوات، وذلك أحرى أن

=

=

يعملوها علانية.

(لهم مغفرة) أي: أجرهم: أن يغفر لهم سيئاتهم بأن يسترها عن الخلق ويتجاوز عنها.

- **قال ابن عاشور**: وتنكير (مغفرة) للتعظيم بقرينة مقارنته بـ (أجر كبير) وبقرينة التقديم.

(وأجر كبير) أي: ولهم ثواب كبير وهو الجنة كما قال تعالى (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب).

• فجمع تعالى لهم بين مغفرة ذنوبهم وإثابتهم بالجنة، فزال مرهوبهم وحصل مطلوبهم.

• قوله تعالى (وأجر كبير) سمى تعالى ثوابهم أجرا لبيان أنه سبحانه متكفل به وأنه لا يضيع عنده.

• وفي هذا فضل عبادة الله في الخلوات بعيدا عن أعين الناس، وخشيته في الغيب.

- فضائل خشية الله في الخلوة.

**أولا**: لهم مغفرة وأجر كبير.

قال تعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير).

**ثانيا**: أن الله مدح من يخافه بالغيب.

قال تعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير).

وقال تعالى (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب).

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب).

**ثالثا**: هم أهل من ينتفع الإنذار.

قال تعالى (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما

=

يتزكى لنفسه).

- **قال السعدي**: أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة وينتفعون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهى عن الفحشاء والمنكر.

**رابعا**: من علامات المتقين.

قال تعالى (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون).

قال السعدي (الذين يخشون ربهم بالغيب) أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم (وهم من الساعة مشفقون) أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

**خامسا**: من أسباب النجاة.

قال ﷺ (ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى).

وقال المناوي: إن خشية الله رأس كل خير، والشأن في الخشية في الغيب لمدحه تعالى من يخافه بالغيب.

وقال: وقدمها الرسول ﷺ على خشية العلن في الحديث، فقدم عليه الصلاة والسلام الخشية في السر؛ لأن تقوى الله فيه أعلى درجة من العلن؛ لما يخاف من شوب رؤية الناس، وهذه درجة المراقبة، وخشيته فيهما تمنع من ارتكاب كل

=

منهي وتحثه على فعل كل مأمور.

**سادسا**: أن النبي ﷺ كان يدعو ربه بذلك.

ففي حديث عمار. (أن النبي ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات:...، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة). رواه أحمد

قال ابن رجب:... فإن أكثر الناس يرى أنه يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن في خشيته في الغيب إذا غاب عن أعين الناس وقد مدح الله من يخافه بالغيب... ثم ذكر الآيات المتقدمة.

**سابعا**: من الذين يظلهم الله في ظله.

قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله:... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله). متفق عليه

**ثامنا**: وخشية الله في السر والعلانية هي الوصية النبي ﷺ.

فقد قال ﷺ لمعاذ (اتق الله حيثما كنت) أي: في السر والعلانية، حيث يراك الناس وحيث لا يرونك، في الليل والنهار، في الغيب والشهادة، في كل وقت وعلى كل حال.

**تاسعا**: لقد كان النبي ﷺ أشد الناس خشية لله.

فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي، فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها).

وقال عبد الله بن مسعود: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا.

- ما يعين على خشية الله بالغيب والشهادة.

**أولا**: أن يعلم العبد أن الله يراه، ومطلع عليه.

=

=

قال ابن رجب -رَحِمَهُ اللَّهُ- مبينا لذلك: فإن من علم أن الله يراه حيث كان، وأنه مطلع على باطنه وظاهره، وسره وعلانيته، واستحضر ذلك في خلواته؛ أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر.

وقد كان بعض السلف يقول لأصحابه: "زهدنا الله وإياكم في الحرام زهد من قدر عليه في الخلوة، فعلم أن الله يراه فتركه من خشيته.

وقال الشافعي: أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف.

وقال رجل لوهب بن الورد: عظني؟ فقال له: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك.

ودخل بعضهم غيضة ذات شجر فقال: لو خلوت هاهنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع هاتفا بصوت ملأ الغيضة: ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

وراود بعضهم أعرابية، وقال لها: ما يرانا إلا الكواكب، قالت: أين مكوكبها؟!

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ** خلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ** ولا أن ما يخفى عليه يغيب

**ثانيا**: قوة الإيمان بوعده ووعيده على المعاصي.

**ثالثا**: النظر في شدة بطشه وانتقامه، وقوته وقهره، وذلك يوجب للعبد ترك التعرض لمخالفته.

- **وقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن هنا عظم ثواب من أطاع الله سرا بينه وبينه، ومن ترك المحرمات التي يقدر عليها سرا.

فأما الأول: فمثل قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون).

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل ذكر الله

=

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣).

{وَأَسِرُّوا} أَيّهَا النَّاس {قَوْلكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ} تَعَالَى {عَلِيم بِذَاتِ الصُّدُور} بِمَا فِيهَا فَكَيْفَ بِمَا نَطَقْتُمْ بِهِ وَسَبَب نُزُول ذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالَ بَعْضهمْ لِبَعْضٍ أَسِرُّوا قَوْلكُمْ لَا يَسْمَعكُمْ إِلَه مُحَمَّد.

أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤).

{أَلَا يَعْلَم مَنْ خَلَقَ} مَا تُسِرُّونَ أَيْ أَيَنْتَفِي عِلْمه بِذَلِكَ {وَهُوَ اللَّطِيف} فِي عِلْمه {الخبير} فيه[1].

---

=

خاليا ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

وأما الثاني: فمثل قوله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله).

(١) قوله تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ} [الملك: ١٣]، أي:"وأخفوا قولكم -أيها الناس- في أي أمر من أموركم أو أعلنوه، فهما عند الله سواء".

**قال الطبري**: يقول: "وأخفوا قولكم وكلامكم أيها الناس أو أعلنوه وأظهروه".

قوله تعالى: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الملك: ١٣]، أي:"إنه سبحانه عليم بمضمرات الصدور، فكيف تخفى عليه أقوالكم وأعمالكم؟".

قال النحاس:"أي: بحقيقتها".

**قال ابن كثير**:"أي: بما خطر في القلوب".

**قال الطبري**: "يقول: إنه ذو علم بضمائر الصدور التي لم يُتكَلَّم بها، فكيف بما نطق به وتكلم به، أخفي ذلك أو أعلن، لأن من لم تخف عليه ضمائر الصدور فغيرها أحرى أن لا يخفي عليه".

=

=

قال الحسن: "يعلم من السر ما يعلم من العلانية، ويعلم من العلانية ما يعلم من السر".

قال القشيري:"خوّفهم بعلمه، وندبهم إلى مراقبته، لأنه يعلم السّرّ وأخفى، ويسمع الجهر والنجوى".

(وأسروا قولكم أو اجهروا به) الخطاب لجميع الخلق أي أخفوا قولكم وكلامكم أو أعلنوه وأظهروه، فالسر والعلانية عنده- سبحانه- سواء.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن السر والجهر عنده سواء، وأن الاختفاء والظهور عنده أيضا سواء ؛ لأنه يسمع السر كما يسمع الجهر، ويعلم الخفي كما يعلم الظاهر:

كما قال تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار).

وقال تعالى (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى).

وقال تعالى (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور).

وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه).

والله تعالى يعلم السر وما هو أخفى من السر.

كما قال تعالى (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى).

وقال تعالى (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون).

(تنبيه): أظهر القولين في المستخفي بالليل والسارب بالنهار: أن المستخفي هو المختفي المستتر عن الأعين، والسارب هو الظاهر البارز الذاهب حيث يشاء.

تنبيه آخر:

المراد بقوله تعالى (وأخفى) أوجه معروفة كلها حق ويشهد لها قرآن:

=

- قال بعض أهل العلم يعلم السر: أي ما قاله العبد سرا وأخفى أي ويعلم ما هو أخفى من السر، وهو ما توسوس به نفسه. كما قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد).

- وقال بعض أهل العلم: فإنه يعلم السر: أي ما توسوس به نفسه وأخفى من ذلك، وهو ما علم الله أن الإنسان سيفعله قبل أن يعلم الإنسان أنه فاعله.

كما قال تعالى (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون).

وكما قال تعالى (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) فالله يعلم ما يسره الإنسان اليوم. وما سيسره غدا. والعبد لا يعلم ما في غد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة (وأخفى) صيغة تفضيل كما بينا، أي: ويعلم ما هو أخفى من السر.

- قال أبو السعود (وأسروا قولكم أو اجهروا به) بيان لتساوي السر والجهر بالنسبة إلى علمه تعالى كما في قوله: (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به)... وتقديم السر على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدر منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية.

(إنه عليم بذات الصدور) أي بما يخطر في القلوب. والذي في الصدور هو القلب، أي: بما تخفيه وتنطوي عليه القلوب من المكنونات والخواطر والاعتقادات والإرادات.

- **قال الشوكاني**: وذات الصدور هي مضمرات القلوب.

- **قال ابن عاشور**: (ذات الصدور) ما يتردد في النفس من الخواطر والتقادير والنوايا على الأعمال.

=

وفي هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان أن ينوي في قلبه كل خير، وأن يحرص أن يكون مخلصا لله في جميع أعماله، وأن يحذر كل الحذر أن يخفي الرياء والسمعة أو الحسد والبغض وغيرها من الصفات القلبية الذميمة، فإنه مطلع عليها.

وفي هذا دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يصلح قلبه وأن يهتم بإصلاحه، لأن في صلاح القلب صلاح للجسد كما في الحديث (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) متفق عليه.

فالله لا يخفى عليه شيء:

كما قال تعالى (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى).

وقال تعالى (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون).

وقال تعالى (إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى).

وقال تعالى (يوم تبلى السرائر).

**قال الطبري**: يقول:"{أَلا يَعْلَمُ} الربّ جلّ ثناؤه {مَنْ خَلَقَ} من خلقه؟ يقول: كيف يخفي عليه خلقه الذي خلق".

قال ابن أبي زمنين:"على الاستفهام؛ أي: هو خلقكم، فكيف لا يعلم سركم وعلانيتكم؟!".

قال السمعاني:"{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} استفهام بمعنى الإنكار والتوبيخ، والمعنى: ألا يعلم من في الصدور من خلق الصدور، ويقال: «من»، بمعنى: «ما»، وهو مثل قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا} [الشمس: ٥]، أي: ومن بناها".

**قال ابن كثير**:"أي: ألا يعلم الخالق. وقيل: معناه ألا يعلم الله مخلوقه؟ والأول أولى، لقوله: {وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}".

قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: ١٤]، أي:"وهو اللطيف بعباده،

=

=

الخبير بهم وبأعمالهم".

عن قتادة، قوله: "{خَبِيرٌ}، قال: "خبير بخلقه".

**قال الطبري**: يقول:"{وَهُوَ اللَّطِيفُ} بعباده {الْخَبِيرُ} بهم وبأعمالهم".

قال ابن أبي زمنين:"{وَهُوَ اللَّطِيفُ} بلطفه خلق الخلق، {الْخَبِيرُ} بأعمال العباد".

قال السمعاني:"أي: اللطيف في علمه، يعلم ما يظهر وما يسر وكل ما دق، يقال لطيف، ويقال: الخبير هو العالم".

قال القشيري:"وفي كل جزء من خلقه- من الأعيان والآثار- أدلة على علمه وحكمه".

عيسى بن إسماعيل بن عيسى بن المسيّب، قال: "بينا رجل واقف بالليل في شجر كثير وقصفت الريح فوقع في نفس الرجل فقال: أترى الله يعلم ما يسقط من هذه الورق؟ فنودي من خلفه: {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}؟!".

وروى محمد بن فضيل عن زرين، عن ابن أبي أسماء:"أنّ رجلا دخل غيضة فقال: لو خلوت هاهنا للمعصية من كان يراني؟ قال: فسمع صوتا ملأ ما بين لابتي الغيضة، {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}؟!".

(ألا يعلم من خلق) أي: ألا يعلم الخالق مخلوقاته؟ كيف لا يعلم من خلق الأشياء وأوجدها سر المخلوق وجهره.

وهناك أقوال أخرى:

قيل: ألا يعلم السر والجهر من خلق الخلق؟

وقيل: ألا يعلم الله سبحانه وتعالى مخلوقاته التي خلقها؟ وهذا التفسير أعم من الأول، فالأول داخل فيه.

وقيل: ألا يعلم المخلوق من خلقه، ويتفكر ويتدبر في قدرته وسعة علمه.

=

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥).

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْض ذَلُولًا} سَهْلَة لِلْمَشْيِ فِيهَا {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبهَا} جَوَانِبهَا {وَكُلُوا مِنْ رِزْقه} الْمَخْلُوق لِأَجْلِكُمْ {وَإِلَيْهِ النُّشُور} مِنْ

---

=

(وهو اللطيف) الذي له اللطف التام بمعنييه، وهما:

الأول: اللطف بمعنى معرفة أسرار الأمور وحكمها الدقيقة الخفية، فهو أخص من الخبير، ولهذا قدم عليه في جميع المواضع التي اقترن فيها بالقرآن كما في قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وكما في قوله تعالى (إن الله كان لطيفا خبيرا).

**الثاني**: اللطف بمعنى الإحسان إلى عباده والتيسير عليهم والتخفيف عنهم كما قال تعالى (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز).

- **قال السعدي**: ومن معاني اللطيف: الذي يسوق عبده إلى الخير ويعصمه من الشر بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقا إلى أعلى الدرجات وأعلى المنازل.

(الخبير) الذي يعلم بواطن الأشياء، وهو أخص من العليم، وإذا كان الله عالما بالبواطن والخفيات والدقائق فعلمه بالظواهر والجليات وجلائل الأمور من باب أولى.

- وفي الآية يجب على الإنسان أن يحذر من كتم النفاق أو الحسد أو غيرها من أمراض القلوب، لأن الله مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية.

القبور للجزاء[١].

---

(١) قال الطبري: يقول:"الله الذي جعل لكم الأرض ذَلُولا سَهْلا سَهَّلها لكم".
قال ابن أبي زمنين:"أي: سهل لكم السلوك فيها وذللها لكم".
قال الثعلبي: أي:"سهلا مسخّرة لا تمتنع".
قال النحاس:"أي: سهلة تمشون عليها. يقال: ذلول بيّنة الذلّ، وذليل بيّن الذّل".
قال السمعاني:"أي: مذللة، وتذليلها: تسهيل السير فيها والقرار عليها".
**قال ابن كثير**:"ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأها فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار".
قوله تعالى: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا} [الملك: ١٥]، أي:"فامشوا في نواحيها وجوانبها".
اختلف أهل العلم في معنى: مَنَاكِبِهَا} [الملك: ١٥]، على أقوال:
**أحدها**: أن مناكبها: جبالها. قاله ابن عباس، وقتادة.
عن قتادة، عن بشير بن كعب:"أنه قرأ هذه الآية: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا} فقال لجارية له: إن دَريْت ما مناكبها، فأنت حرة لوجه الله؛ قالت: فإن مناكبها: جبالها، فكأنما سُفِع في وجهه، ورغب في جاريته، فسأل، منهم من أمره، ومنهم من نهاه، فسأل أبا الدرداء، فقال: الخير في طمأنينة، والشرّ في ريبة، فَذرْ ما يريبك إلى ما لا يريبك".
**الثاني**: أن مناكبها: أطرافها ونواحيها. قاله ابن عباس-أيضا-، والكلبي.
قال النحاس:"{مَنَاكِبِها}، جمع: «منكب»، وهو الناحية".
قال الثعلبي:"أصل «المنكب»: الجانب، ومنه منكب الرجل، والريح النكاب، =

=

وتنكب فلان".

قال ابن عباس:"يقول: امشوا في أطرافها".

عن قتادة:"أن بشير بن كعب العدويّ، قرأ هذه الآية: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا}، فقال لجاريته: إن أخبرتني ما مناكبها، فأنت حرّة، فقالت: نواحيها؛ فأراد أن يتزوّجها، فسأل أبا الدرداء، فقال: إن الخير في طمأنينة، وإن الشرّ في ريبة، فدع ما يَريبك إلى ما لا يريبك".

**الثالث**: طرقها وفجاجها. قاله مجاهد، والسدي.

**الرابع**: في منابت زرعها وأشجارها، قاله الحسن.

**الخامس**: سهلها. قاله الحسن -أيضا-.

**السادس**: آكامها. قاله الضحاك.

**قال الطبري**:"الصواب قول من قال: معنى ذلك: فامشوا في نواحيها وجوانبها، وذلك أن نواحيها نظير مناكب الإنسان التي هي من أطرافه".

**قال ابن كثير**:"أي: فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئًا، إلا أن ييسره الله لكم".

قوله تعالى: {وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} [الملك: ١٥]، أي:"وكلوا من رزق الله الذي يخرجه لكم منها".

**قال الطبري**:"يقول: وكلوا من رزق الله الذي أخرجه لكم من مناكب الأرض".

وقال الثعلبي: أي:"الحلال".

**قال ابن كثير**:"فالسعي في السبب لا ينافي التوكل... كنا روي عن عمر بن الخطاب، إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تَغْدُو خِمَاصًا وتَرُوح بِطَانًا».

=

=

فأثبت لها رواحا وغدوا لطلب الرزق، مع توكلها على الله، ﷻ، وهو المسَخِّر المسير المسبب".

قوله تعالى: {وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك: ١٥]، أي:"وإليه وحده البعث من قبوركم للحساب والجزاء".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: وإلى الله نشركم من قبوركم".

قال السمعاني:"أي: في الآخرة".

**قال ابن كثير:**"أي: المرجع يوم القيامة".

(هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا) أي الله جل وعلا جعل لكم الأرض لينة سهلة المسالك.

كما قال تعالى (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون).

وسبلا، وهو جمع سبيل بمعنى الطريق.

وقال تعالى (وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون).

وقوله تعالى (والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا).

وقوله تعالى (قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا).

وقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون).

وقال تعالى (الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون).

- **قال الشوكاني:** ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون فيها والمشي عليها، والذلول في الأصل: هو المنقاد الذي يذل لك ولا يستصعب عليك.

=

=

- **قال الرازي**: وفي وصف الأرض بالذلول أقوال:

**أحدها**: أنه تعالى ما جعلها صخرية خشنة بحيث يمتنع المشي عليها، كما يمتنع المشي على وجوه الصخرة الخشنة.

وثانيها: أنه تعالى جعلها لينة بحيث يمكن حفرها، وبناء الأبنية منها كما يراد، ولو كانت حجرية صلبة لتعذر ذلك.

وثالثها: أنها لو كانت حجرية، أو كانت مثل الذهب أو الحديد، لكانت تسخن جدا في الصيف، وكانت تبرد جدا في الشتاء، ولكانت الزراعة فيها ممتنعة، والغراسة فيها متعذرة، ولما كانت كفاتا للأموات والأحياء.

ورابعها: أنه تعالى سخرها لنا بأن أمسكها في جو الهواء، ولو كانت متحركة على الاستقامة، أو على الاستدارة لم تكن منقادة لنا.

(فامشوا في مناكبها) أي فاسلكوا أيها الناس في جوانبها وأطرافها.

- قال ابن كثير: أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها للمكاسب والتجارات.

(وكلوا من رزقه) أي وانتفعوا بما أنعم به جل وعلا عليكم من أنواع الكسب والرزق.

- قال الآلوسي: وكثيرا ما يعبر عن وجوه الانتفاع بالأكل لأنه الأهم الأعم.

(وإليه النشور) أي المرجع يوم القيامة إلى الله لا إلى غيره كما قال تعالى (إن إلينا إيابهم. ثم إن علينا حسابهم).

- **قال الرازي**: قوله تعالى (وإليه النشور) يعني ينبغي أن يكون مكثكم في الأرض، وأكلكم من رزق الله مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله، وأكل من يتيقن أن مصيره إلى الله، والمراد تحذيرهم عن الكفر والمعاصي في السر والجهر.

- **وقال ابن عاشور**: ومناسبة ذكر النشور هو ذكر خلق الأرض فإن البعث يكون

=

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦).

{أَأَمِنْتُمْ} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهمَا وَبَيْن الْأُخْرَى وَتَرْكه وَإِبْدَالهَا أَلِفًا {مِنْ فِي السَّمَاء} سُلْطَانه وَقُدْرَته {أَنْ يَخْسِف} بَدَل مِنْ مَنْ {بِكُمْ الْأَرْض فَإِذَا هِيَ تَمُور} تَتَحَرَّك بِكُمْ وَتَرْتَفِع فَوْقكُمْ.

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧).

{أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاء أَنْ يُرْسِل} بَدَل مِنْ مَنْ {عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} رِيحًا تَرْمِيكُمْ بِالْحَصْبَاءِ {فَسَتَعْلَمُونَ} عِنْد مُعَايَنَة الْعَذَاب {كَيْفَ نَذِير} إنْذَارِي بِالْعَذَابِ أَيْ أَنَّهُ حَقّ.

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨).

{وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ} مِنْ الْأُمَم {فكيف كان نكير} إنْكَارِي عَلَيْهِمْ بِالتَّكْذِيبِ عِنْد إهْلَاكهمْ أَيْ أَنَّهُ حق(١).

=

من الأرض.

- وفي هذا دليل على أن الدنيا ليست دار قرار وبقاء، وأن الناس فيها غير مستوطنين ولا مقيمين، بل هم عابرو سبيل يتزودون فيها للدار الباقية دار القرار.

- **قال ابن القيم**: نبه تعالى بقوله (وإليه النشور) على أنا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل، فلا يحسن أن نتخذه وطنا ومستقرا، وإنما دخلناه لنتزود منه إلى دار القرار، فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن ومستقر.

(١) قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} أيها الكافرون {أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأرْضَ}".

وفي قوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ} [الملك: ١٦]

=

=

أي: من على السماء يعني: على العرش. فإنه تعالى في السماء على العرش فوق سبع سموات من غير مماسة ولا تكييف كما قال أهل العلم، فإن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله فوق جميع مخلوقاته، مستو على عرشه، في سمائه، عاليا على خلقه، بائنا منهم، يعلم أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم وسكناتهم لا تخفى عليه خافية، قال تعالى: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِم} [النحل: ٥٠]، وقال: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠] وقال لعيسى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: ٥٥] وقال: {بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ} [النساء: ١٥٨] وقال: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ} [الأنبياء: ١٩] وقال: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ} [الأنعام: ١٨] وقال: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ} [غافر: ١٥]، وقال ﷻ: {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ} [السجدة: ٥] وقال: {ذِي الْمَعَارِجِ، تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ} [المعارج: ٤].

ومنه قوله-ﷺ-: "ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟! "، ووقوله-ﷺ-: "أين الله؟". قالت: في السماء. قال: "من أنا؟ "، قالت: أنت رسول الله ﷺ. قال: "أعتقها؛ فإنها مؤمنة".

وللصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم آثار كثيرة عن علو الله وفوقيته، جمعها الذهبي في "العلو"، وحققه واختصره: الألباني- رَحِمَهُ اللَّهُ -، وابن قدامة في "اثبات صفة العلو".

قال الذهبي:"السموات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السموات، وكل ما علا فهو سماء، يعني: جميع السموات، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السموات".

قوله تعالى: {فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} [الملك: ١٦]، أي:"فإذا هي تضطرب بكم حتى

=

=

تهلكوا؟".

**قال الطبري:**"يقول: فإذا الأرض تذهب بكم وتجيئ وتضطرب".

**قال ابن كثير:**"أي: تذهب وتجيء وتضطرب".

قال أبو عبيدة:"كما يمور السحاب".

قال ابن قتيبة:"أي تدور، كما يمور السحاب: إذا دار وجاء وذهب".

**قال الزجاج:**"معنى «تمور»: تَدُور".

قال أبو أحمد السامري بإسناده إلى ابن عباس:"يعني: تنشق بلغة قريش".

قال الحسن: "تحرّك بأهلها".

قال الضحّاك: "تدور بهم وهم في قعرها".

قال ابن كيسان: "تهوى بهم".

وقوله (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض) انتقال من الاستدلال إلى التخويف لأنه لما تقرر أنه خالق الأرض ومذللها للناس وتقرر أنهم ما رعوا خالقها حق رعايته فقد استحقوا غضبه وتسليط عقابه بأن يصير مشيهم في مناكب الأرض إلى تجلجل في طبقات الأرض، فالجملة معترضة والاستفهام إنكار وتوبيخ وتحذير. [قاله ابن عاشور]

• ومعنى الآية كما تقدم: أي هل أمنتم يا معشر الكفار ربكم العلي الكبير أن يخسف بكم الأرض فيغيبكم في مجاهلها.

• قوله تعالى (أأمنتم من في السماء) قد يتوهم واهم أن الله تعالى داخل السماء، وأن السماء تحيط به، كما لو قلنا: فلان في الحجرة، فإن الحجرة تحيط به.

ومنشأ الوهم: ظنه أن (في) التي للظرفية تكون بمعنى واحد في جميع مواردها، وهذا ظن فاسد، فإن (في) يختلف معناها بحسب متعلقها.

فقوله (أأمنتم من في السماء) هذا عند أهل التفسير من أهل السنة على أحد

=

=

وجهين:

**الوجه** الأول: أن تكون السماء بمعنى العلو، فإن السماء يراد بها العلو، كما في قوله تعالى (وأنزل لكم من السماء ماء) والمطر ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض لا من السماء نفسها.

**الوجه** الثاني: أن تكون (في) بمعنى (على)، كما جاءت بمعناها في مثل قوله تعالى (فسيروا في الأرض) أي على الأرض، وقوله عن فرعون (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي على جذوع النخل.

والأدلة كثيرة جدا على علوه سبحانه وتعالى، من الكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع.

أما أدلة الكتاب والسنة فقد تنوعت دلالتهما بطرق كثيرة:

**أحدها**: التصريح بالفوقية.

كقوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم).

وكقوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده).

**الثاني**: التصريح بالعروج إليه.

كقوله تعالى (تعرج الملائكة والروح إليه).

وقوله ﷺ (يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم.).

**الثالث**: التصريح بالصعود إليه.

كقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب).

**الرابع**: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه.

كقوله تعالى (بل رفعه الله إليه).

وقوله تعالى (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي).

**الخامس**: التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو.

=

كقوله تعالى (وهو العلي العظيم).
وقوله تعالى (وهو العلي الكبير).
وقوله تعالى (إنه علي حكيم).
وقوله تعالى (إن الله كان عليا كبيرا).
**السادس**: التصريح بنزيل الكتاب منه.
كقوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم).
وقوله تعالى (تنزيل من الرحمن الرحيم).
وقوله تعالى (تنزيل من حكيم حميد).
وقوله تعالى (قل نزله روح القدس من ربك بالحق).
وقوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة مباركة).
السابع: التصريح بأن الله تعالى في السماء.
كقوله تعالى (أأمنتم من في السماء).
وقال الرسول ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود.
الثامن: التصريح بالاستواء على العرش.
كقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى).
التاسع: التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى.
كقوله ﷺ (إن الله يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا).
والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط باطل بالضرورة والفطرة، وهذا يجده من نفسه كل داع.
العاشر: التصريح بنزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا، والنزول المعقول عند جميع الأمم، إنما يكون من علو إلى أسفل.

=

الحادي عشر: الإشارة إليه حسا إلى العلو.

كما أشار إليه من هو أعلم به وبما يجب له، لما كان بالجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليوم الأعظم، في المكان الأعظم، قال لهم: (أنتم مسؤولون عني، فما ذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فرفع إصبعه الكريمة إلى السماء، رافعا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء، قائلا: اللهم اشهد).

الثاني عشر: التصريح بلفظ (الأين).

كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأفصحهم بيانا عن المعنى الصحيح، بلفظ لا يوهم باطلا بوجه: (أين الله).

الثالث عشر: شهادته ﷺ لمن قال: إن ربه بالسماء بالإيمان.

الرابع عشر: إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى، فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السموات.

فقال: (يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا) فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني، ومن أثبتها فهو موسوي محمدي.

الخامس عشر: إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة.

من العقل: أن العلو صفة كمال والسفل صفة نقص، فوجب لله تعالى صفة العلو وتنزيهه عن ضده.

وأما الفطرة:

قال شارح الطحاوية: وأما ثبوته بالفطرة فإن الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع

=

=

إلى الله.

وأما الإجماع:

فقد أجمع الصحابة والتابعون والأئمة على أن الله فوق سمواته مستو على عرشه.

• وقيل: خص السماء وإن عم ملكه تنبيها على أن الإله الذي تنفذ قدرته في السماء لا من يعظمونه في الأرض.

وقيل: هو إشارة إلى الملائكة.

وقيل: إلى جبريل وهو الملك الموكل بالعذاب.

(فإذا هي تمور) أي تذهب وتجيء وتضطرب وتتزلزل، فلا يمكن العيش والحياة عليها، بعد أن كانت ذلولا ثابتة مستقرة مهيأة للاستقرار والحياة.

قوله تعالى: {أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} [الملك: ١٧]، أي:"هل أمنتم الله الذي فوق السماء أن يرسل عليكم ريحا ترجمكم بالحجارة الصغيرة".

**قال الطبري**: يقول:"{أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} وهو الله، {أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} وهو التراب فيه الحصباء الصغار".

**قال ابن كثير**:"أي: ريحا فيها حصباء تدمغكم، كما قال: {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلا} [الإسراء: ٦٨]".

**قال الزجاج**:"أي: كما أرسل على قومِ لُوطٍ الحجَارَة التي حَصَبَتْهُمْ".

وفي قوله تعالى: {أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} [الملك: ١٧]، وجهان:

**أحدهما**: يعني حجارة من السماء، قاله قتادة.

**الثاني**: إن «الحاصب»: الريح العاصف، سميت بذلك لأنها ترمي بالحصباء، و

=

=

«القاصف» الريح التي تقصف الشجر فتكسره، قاله الفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والسجستاني، ومنه قول الفرزدق:

**مُسْتَقْبِلِينَ شَمالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا... بِحاصِبٍ كنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ**

أي: بصقيع.

قال النحاس:"هو التراب والحصى، ويكون السحاب الذي فيه البرد والصواعق".

قال الثعلبي:"ريحا ذات حجارة كما فعل بقوم لوط وأصحاب الفيل".

قوله تعالى: {فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: ١٧]، أي:"فستعلمون -أيها الكافرون- كيف تحذيري لكم إذا عاينتم العذاب؟ ولا ينفعكم العلم حين ذلك".

**قال الطبري:**"يقول: فستعلمون أيها الكفرة كيف عاقبة نذيري لكم، إذ كذبتم به، ورددتموه على رسولي".

قال الثعلبي:"أي: إنذاري بالعذاب".

**قال ابن كثير:**"أي: كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه وكذب به".

قال السمعاني:"أي: إنذاري، والمعنى: كنت محقا في إنذاري إياكم العذاب".

(أم أمنتم من في السماء) أي الله الذي في العلو.

(أن يرسل عليكم حاصبا) أي ريحا فيها حصباء تدمغكم.

- **قال الرازي**: والحاصب ريح فيها حجارة وحصباء، كأنها تقلع الحصباء لشدتها، وقيل: هو سحاب فيها حجارة.

(فستعلمون كيف نذير) أي فستعلمون عند معاينة العذاب، كيف يكون إنذاري.

- **قال ابن عطية**: قوله تعالى (فستعلمون كيف نذير) أي إنذاري، وقيل: النذير بمعنى المنذر، يعني محمدا ﷺ فستعلمون صدقه وعاقبة تكذيبكم.

=

- **وقال الشوكاني**: قوله تعالى (فستعلمون كيف نذير) أي: إنذاري إذا عاينتم العذاب، ولا ينفعكم هذا العلم، وقيل: النذير هنا محمد، قاله عطاء، والضحاك. والمعنى: ستعلمون رسولي وصدقه، والأول أولى.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الملك: ١٨]، أي:"ولقد كذَّب الذين كانوا قبل كفار «مكة» كقوم نوح وعاد وثمود رسلهم".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: ولقد كذّب الذين من قبل هؤلاء المشركين من قريش من الأمم الخالية رسلهم".

**قال ابن كثير**:"أي: من الأمم السالفة والقرون الخالية".

قوله تعالى: {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} [الملك: ١٨]، أي:"فكيف كان إنكاري عليهم، وتغييري ما بهم من نعمة بإنزال العذاب بهم وإهلاكهم؟".

قال الأخفش:"أيْ: إِنكارِي".

قال مقاتل:"يعني: تغييري وإنكاري، ألم يجدوا العذاب حقا، يخوف كفار مكة".

**قال الطبري**:"يقول: فكيف كان نكيري تكذيبهم إياهم".

**قال ابن كثير**:"أي: فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟ أي: عظيمًا شديدًا أليمًا".

عن قتادة، قوله: {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}، قال:"شديد والله لقد عجل لهم عقوبة الدنيا ثم صيرهم إلى النار".

(ولقد كذب الذين من قبلهم) أي من الأمم السالفة والقرون الخالية قبل كفار مكة.

- **قال الشوكاني**: أي: الذين قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الرس، وقوم فرعون.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩).

{أو لم يَرَوْا} يَنْظُرُوا {إِلَى الطَّيْر فَوْقهمْ} فِي الْهَوَاء {صَافَّات} بَاسِطَات أَجْنِحَتهنَّ {وَيَقْبِضْنَ} أَجْنِحَتهنَّ بَعْد الْبَسْط أَيْ وَقَابِضَات {مَا يُمْسِكهُنَّ} عَنْ الْوُقُوع فِي حال البسط والقبض {إلا الرحمن} بِقُدْرَتِهِ {إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْء بَصِير}

=

(فكيف كان نكير) أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟ أي عظيما شديدا أليما.

كما قال تعالى (قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين).

وقال تعالى (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين).

وقال تعالى (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات).

- والقرون الماضية كانت أقوى عدة وعتادا من كفار مكة:

كما قال تعالى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى).

وقال تعالى (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا).

وقال تعالى (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق).

- وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، وتهديد شديد للكفار.

الْمَعْنَى أَلَمْ يَسْتَدِلُّوا بِثُبُوتِ الطَّيْر فِي الْهَوَاء عَلَى قُدْرَتنَا أَنْ نَفْعَل بِهِمْ مَا تَقَدَّمَ وَغَيْره مِنْ العذاب[1].

---

(١) قال الطبري:"يقول: أو لم ير هؤلاء المشركون إلى الطير فوقهم صافات أجنحتهنّ، ويقبضن أجنحتهنّ أحيانا. وإنما عُنِي بذلك أنها تصُفُّ أجنحتها أحيانا، وتقبض أحيانا".

**قال ابن كثير**:"أي: تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحًا وتنشر جناحًا".

**قال القرطبي**:"أي: كما ذلل الأرض للآدمي ذلل الهواء للطيور. و {صَافَّاتٍ}، أي: باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها، لأنهن إذا بسطنها صففن قوائمها صفا. و {وَيَقْبِضْنَ}، أي: يضربن بها جنوبهن".

عن مجاهد، قوله: "{صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ}، بسطهنّ أجنحتهنّ وقبضهنّ".

عن قتادة، قوله: "{صَافَّاتٍ}، قال: الطير يصفّ جناحه كما رأيت، ثم يقبضه".

قال مقاتل:"وعظهم ليعتبروا في صنع الله فيوحدونه".

**قال الزجاج**:"بيّن لهم بخلق السَّمَاوَات والأرْضِينَ مَا دَلَّهم على توحيده، وبَين لهم بتسخير الطيْرِ في جو السماء صَافَّاتٍ أَجْنِحَتهُنَّ وقابضاتها".

قال القشيري:"أولم يروا كيف خلق الطيور على اختلاف أجناسها، واختصاصها بالطيران لأن لها أجنحة- بخلاف الأجسام الأخر".

قوله تعالى: {مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ} [الملك: ١٩]، أي:"ما يمسكهن في الجو عن السقوط في حال البسط والقبض، إلا الخالق الرحمن الذي وسعت رحمته كل ما في الأكوان".

**قال الطبري**:"يقول: ما يمسك الطير الصافات فوقكم إلا الرحمن. يقول: فلهم بذلك مذكر إن ذكروا، ومعتبر إن اعتبروا، يعلمون به أن ربهم واحد لا شريك =

=

له".

قال الثعلبي:"{ما} يحبسهنّ في حال القبض والبسط أن يسقطن، {إِلَّا الرَّحْمنُ}".

قال البيضاوي:"ما يمسكهن في الجو على خلاف الطبع، {إِلَّا الرَّحْمَنُ} الشامل رحمته كل شيء بأن خلقهن على أشكال وخصائص هيأتهن للجري في الهواء".

**قال ابن كثير:**"{مَا يُمْسِكُهُنَّ}، أي: في الجو {إِلا الرَّحْمَنُ}، أي: بما سخر لهن من الهواء، من رحمته ولطفه.. وهذه كقوله: {أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل: ٧٩]".

**قال الزجاج:**"بِقُدْرَتِهِ".

**قال الزمخشري:**"بقدرته وبما دبر لهن من القوادم والخوافي، وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد تأتى منها الجري في الجو".

قال النحاس:"لأنه جلّ وعزّ خلق الجو فاستمسكن فيه".

قال السمعاني:"يعني: ما يمسكهن عن الوقوع إلا الرحمن، قالوا: الهواء للطير بمنزلة الماء للسابح، فهو يسبح في الهواء بجناحيه كما يسبح الإنسان في الماء بأطرافه".

قال القشيري:"من الذي يمسكهن ويحفظهن وهن يقبضن ويبسطن أجنحتهن في الفضاء؟ وما الذي يوجبه العقل حفظ هذه الطيور أم بقية الأجسام الأخر؟".

قوله تعالى: {إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ} [الملك: ١٩]، أي:"إنه بكل شيء بصير لا يُرى في خلقه نقص ولا تفاوت".

**قال الطبري:**"يقول: إن الله بكل شيء ذو بصر وخبرة، لا يدخل تدبيره خلل، ولا يرى في خلقه تفاوت".

قال السمعاني:"أي: عليم".

=

=

**قال ابن كثير**:"أي: بما يصلح كل شيء من مخلوقاته".

قال البيضاوي:"يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبر العجائب".

(أولم يروا إلى الطير فوقهم) أي: أولم ينظروا إلى الطير فوقهم في السماء.

قال ابن عاشور: قوله تعالى (أولم يروا إلى الطير فوقهم) عطف على جملة (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا) استرسالا في الدلائل على انفراد الله تعالى بالتصرف في الموجودات، وقد انتقل من دلالة أحوال البشر وعالمهم، إلى دلالة أعجب أحوال العجماوات وهي أحوال الطير في نظام حركاتها في حال طيرانها إذ لا تمشي على الأرض كما هو في حركات غيرها على الأرض، فحالها أقوى دلالة على عجيب صنع الله المنفرد به.

(صافات ويقبضن) أي: تارة يصففن أجنحتهن في الهواء وتارة تجمع جناحا وتنشر جناحا.

(ما يمسكهن) أي: في الجو.

(إلا الرحمن) أي: بما سخر لهن من الهواء، من رحمته ولطفه.

وهذا كقوله تعالى (ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون).

- **قال الرازي**: قوله تعالى (ما يمسكهن إلا الرحمن) وذلك لأنها مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك الله.

- **قال ابن عاشور**: ومعنى إمساك الله إياها: حفظها من السقوط على الأرض بما أودع في خلقتها من الخصائص في خفة عظامها وقوة حركة الجوانح.

- **قال القرطبي**: أي كما ذلل الأرض للآدمي ذلل الهواء للطيور.

- **قال السعدي**: فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد.

=

=

(إنه بكل شيء بصير) بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته.

- البصير: الذي يبصر كل شيء وإن دق وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السموات السبع.

- **قال ابن القيم:**

**وهو البصير يرى دبيب النملة... السوداء تحت الصخر والصوان**

**ويرى مجاري القوت في أعضائها... ويرى عروق بياضها بعيان**

**ويرى خيانات العيون بلحظها... ويرى كذلك تقلب الأجفان**

وصفة البصر من صفات الكمال كصفة السمع، فالمتصف بها أكمل ممن لا يتصف بذلك، قال تعالى (قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون).

وقد أنكر إبراهيم على أبيه عندما عبد ما لا يبصر ولا يسمع (إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا).

- والله بصير بأحوال عباده خبير بها، بصير بمن يستحق الهداية منهم ممن لا يستحقها، بصير بمن يصلح حاله بالغنى والمال، وبمن يفسد حاله بذلك (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير).

- وهو بصير بالعباد شهيد عليهم، الصالح منهم والطالح، المؤمن والكافر (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير) (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا).

- ومن علم أن الله مطلع عليه استحى أن يراه على معصية أو فيما لا يحب، ومن علم أنه يراه أحسن عمله وعبادته وأخلص فيها لربه وخشع، فقد جاء في حديث

=

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠).

{أَمَّنْ} مُبْتَدَأ {هَذَا} خَبَره {الَّذِي} بَدَل مِنْ هَذَا {هُوَ جُنْد} أَعْوَان {لَكُمْ} صِلَة الَّذِي {ينصركم} صفة الجند {من دون الرحمن} أَيْ غَيْره يَدْفَع عَنْكُمْ عَذَابه أَيْ لَا نَاصِر لَكُمْ {إنْ} مَا {الْكَافِرُونَ إلَّا فِي غُرُور} غَرَّهُمْ الشَّيْطَان بِأَنَّ الْعَذَاب لَا يَنْزِل بهم.

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١).

{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقكُمْ إنْ أَمْسَكَ} الرَّحْمَن {رِزْقه} أَيْ الْمَطَر عَنْكُمْ وَجَوَاب الشَّرْط مَحْذُوف دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْله أَيْ فَمَنْ يَرْزُقكُمْ أَيْ لَا رَازِق لَكُمْ غَيْره {بَلْ لَجُّوا} تمادوا {في عتو} تكبر {ونفور} تباعد عن الحق[1].

---

=

جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال ﷺ (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تن تراه فإنه يراك).

(١) قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: للمشركين به من قريش: من هذا الذي هو جند لكم أيها الكافرون به، ينصركم من دون الرحمن إن أراد بكم سوءا، فيدفع عنكم ما أراد بكم من ذلك".

قال النحاس:"أي: يدفع عنكم إن أراد بكم سوءا".

قال ابن أبي زمنين:"على الاستفهام إن أراد عذابكم، أي: ليس أحد ينصركم من دونه".

**قال ابن كثير**:"يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره، يبتغون عندهم نصرًا ورزقًا، مُنكرًا عليهم فيما اعتقدوه، ومُخبرا لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه، فقال: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ}، أي: ليس لكم من

=

=

دونه من ولي ولا واق، ولا ناصر لكم غيره".

قوله تعالى: {إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ} [الملك: ٢٠]، أي:"ما الكافرون في زعمهم هذا إلا في خداع وضلال من الشيطان".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: ما الكافرون بالله إلا في غرور من ظنهم أن آلهتهم تقربهم إلى الله زلفى، وأنها تنفع أو تضر".

قال النحاس:"أي: ما الكافرون في ظنهم، أي: عبادتهم غير الله جلّ وعزّ ينفعهم إلا في غرور".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: في غرور الشيطان".

(أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) أي: من هذا الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله من الأنصار والأعوان.

- **قال السعدي**: أي من الذي ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبد، لم ينفعوه بمثقال ذرة على أيدي أي عدو كان، فاستمرار الكافرين على كفرهم بعد أن علموا، أنه لا ينصرهم أحد دون الرحمن غرور وسفه.

(إن الكافرون إلا في غرور) (إن) بمعنى (ما) أي: ما الكافرون في اعتقادهم أن آلهتهم تنفع أو تضر إلا في جهل عظيم وضلال مبين.

كما قال تعالى (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا).

وقال تعالى (وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا).

فهم في غرور من الشيطان حيث زين لهم عبادة غير الله، واعتقادهم فيها النصر، وهي لا تملك نصر أنفسها فكيف تنصر غيرها كما قال تعالى (أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون. ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون).

وقال تعالى (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم

=

=

ينصرون).

قوله تعالى (إلا في غرور) والغرور: ظن النفس وقوع أمر نافع لها بمخائل تتوهمها، وهو بخلاف ذلك أو هو غير واقع.

قوله تعالى: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ}.

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: أم من هذا الذي يطعمكم ويسقيكم، ويأتي بأقواتكم إن أمسك بكم رزقه الذي يرزقه عنكم".

قال النحاس:"أي: إن أمسك رزقه فهل يرزقكم من تعبدون من دونه".

**قال ابن كثير**:"أي: من هذا الذي إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده؟! أي: لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق، وينصر إلا الله، ﷻ، وحده لا شريك له، أي: وهم يعلمون ذلك، ومع هذا يعبدون غيره".

قوله تعالى: {بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ} [الملك: ٢١]، أي:"بل استمر الكافرون في طغيانهم وضلالهم في معاندة واستكبار ونفور عن الحق، لا يسمعون له، ولا يتبعونه".

**قال الطبري**:"يقول: بل تمادوا في طغيان ونفور عن الحق واستكبار".

**قال ابن كثير**:"أي: استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم {فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ}، أي: في معاندة واستكبارًا ونفورًا على أدبارهم عن الحق، أي: لا يسمعون له ولا يتبعونه".

عن ابن عباس، قوله: "{بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ}، يقول: في ضلال".

قال مجاهد:"النُّفُورُ: الْكُفُور".

قال ابن أبي زمنين:"{فِي عُتُوٍّ} وهو الشرك، {وَنُفُورٍ} عن الإيمان".

(أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه) أي من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده؟ أي لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله وحده.

=

=

فالرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم الرزق فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرزاق المنعم الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة.

كما قال تعالى (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين).

وقال تعالى (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون).

وقال تعالى (وما من دآبة في الأرض إلا على الله رزقها).

وقال تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر).

وقال تعالى (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز).

- قال بعض المفسرين: كان الكفار يمتنعون عن الإيمان ويعاندون الرسول معتمدين على سبيلين:

الأول: اعتمادهم على مالهم وعددهم.

والثاني: اعتقادهم أن الأوثان توصل إليهم جميع الخيرات وتدفع عنهم جميع السيئات، فرد الله عليهم الأول بقوله (أمن هذا الذي هو جند لكم...) ورد عليهم الثاني بقوله (أمن هذا الذي يرزقكم...).

- **قال ابن القيم:** فجمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزقه، فلابد له من ناصر ورازق، والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين، ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره، وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

(بل) الكافرون.

(لجوا) أي: استمروا في طغيانهم. و (بل) للإضراب.

=

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢).

{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا} وَاقِعًا {عَلَى وَجْهه أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا} مُعْتَدِلًا {عَلَى صِرَاط} طَرِيق {مُسْتَقِيم} وَخَبَر مِنْ الثَّانِيَة مَحْذُوف دَلَّ عَلَيْهِ خَبَر الْأُولَى أَيْ أَهْدَى وَالْمَثَل فِي الْمُؤْمِن وَالْكَافِر أَيّهمَا عَلَى هُدَى[1].

=

(في عتو) أي: في معاندة واستكبار ونفور على إدبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه.

(ونفور) أي: شرود وبعد عن الحق بقلوبهم وأبدانهم لا يستمعون إليه ولا يفقهونه ولا يتبعونه، كما قال تعالى (وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا).

- **قال ابن عاشور**: والعتو: التكبر والطغيان، والنفور: هو الاشمئزاز من الشيء والهروب منه.

وقال تعالى (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا).

وكما قال نوح فيما حكى الله عنه (قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا. فلم يزدهم دعائي إلا فرارا. وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا).

(١) قوله تعالى: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا} [الملك: ٢٢].

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: {أَفَمَنْ يَمْشِي} أيها الناس {مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ} لا يبصر ما بين يديه، وما عن يمينه وشماله أشدّ استقامة على الطريق، وأهدى له،

=

=

{أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا} مشي بني آدم على قدميه".

قال ابن أبي زمنين: "{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ} لا يبصر موضع قدميه؛ وهذا مثل للكافر، {أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سويًّا} عدلا يبصر حيث يسلك، وهذا مثل المؤمن؛ أي: أن المؤمن أهدى من الكافر".

**قال الزجاج**:"أعلم الله ﷻ أن المؤمن سالك الطريقة المستقيمة، وأن الكافر في ضلالته بمنزلة الذي يمشي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ. وجاء في التفسير أن الكافر يمشي على وجهه في الآخرة".

**قال ابن كثير**:"وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مُكبّا على وجهه، أي: يمشي منحنيا لا مستويا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى {أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا}، أي: منتصب القامة".

قال ابن عباس:"يقول: من يمشي في الضلالة أهدى، أم من يمشي مهتديا؟".

عن مجاهد، قوله: "{مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ}، قال: في الضلالة".

عن الضحاك قوله: "{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ}، يعني: الكافر. أهدى {أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا} المؤمن؟ ضرب الله مثلا لهما".

وعن قتادة: "{يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، قال المؤمن عمل بطاعة الله، فيحشره الله على طاعته".

قال قتادة:"هو الكافر أكبّ على معاصي الله في الدنيا، حشره الله يوم القيامة على وجهه، فقيل: يا نبيّ الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يحشره يوم القيامة على وجهه»".

عن نُفَيع قال: "سمعت أنس بن مالك يقول: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: "أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادرًا على أن

=

=

يمشيهم على وجوههم".

قوله تعالى: {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الملك: ٢٢]، أي:"على طريق واضح لا اعوجاج فيه؟".

**قال الطبري**:"يقول: على طريق لا اعوجاج فيه".

**قال ابن كثير**:"أي: على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة. هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة. فالمؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم، مُفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم، {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ}".

عن قتادة: "{عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، أي: على الإسلام".

عن قتادة:"{إنك على صراط مستقيم): أي الإسلام".

عن مجاهد: {إن ربي على صراط مستقيم} [هود: ٥٦]، يعني: «على الحق».

وعن مجاهد:"{أمن يمشي سويا على صراط مستقيم} [الملك: ٢٢]، يعني: «على الحق المستقيم».

عن مجاهد، قوله: "{عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، قال: حقّ مستقيم".

عن مجاهد، {صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}: "يعني: الإسلام: الدين الحق".

عن مجاهد في قوله: "{صراط مستقيم}، قال: الحق".

عن عاصم الأحول، عن أبي العالية:"الصراط المستقيم، قال: هو النبي ﷺ وصاحباه من بعده. قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن. فقال صدق أبو العالية ونصح".

(أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى) هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر،

=

=

فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من (يمشي منكبا على وجهه) أي يمشي منحيا لا مستويا (على وجهه) أي لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب بل تائه حائر ضال أهذا أهدى:

(أمن يمشي سويا) أي منتصب القامة.

(على صراط مستقيم) أي على طريق واضح بين وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيم؟ هذا مثلهم في الدنيا وكذلك يكونون في الآخرة.

فالمؤمن يحشر يمشي سويا على صراط مستقيم مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم.

- فمثل الله الكافر بمن يمشي مكبا على وجهه لأنه ليس على هدى، بل يتخبط في ظلمات الكفر والشك والجهل مخالفا لفطرة الله التي فطر الناس عليها، ومثل المؤمن بمن يمشي مستوي القامة منتصبا على رجليه على فطرة الله، لأنه يمي على طريق معتدل وهدى ونور من الله وعلى صراطه المستقيم.

- **قال القرطبي**: قوله تعالى (أفمن يمشي مكبا على وجهه) ضرب الله مثلا للمؤمن والكافر (مكبا) أي منكسا رأسه لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله؛ فهو لا يأمن من العثور والانكباب على وجهه كمن يمشي سويا معتدلا ناظرا ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله.

وهذا كما قال تعالى (وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون).

وقال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون).

وقال تعالى (وما يستوي الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع

=

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣).

{قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ} خَلَقَكُمْ {وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْع وَالْأَبْصَار وَالْأَفْئِدَة} الْقُلُوب {قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} مَا مَزِيدَة وَالْجُمْلَة مُسْتَأْنَفَة مُخْبِرَة بِقِلَّةِ شُكْرهمْ جِدًّا عَلَى هَذِهِ النِّعَم(١).

---

=

من في القبور).

(١) قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قل يا محمد للذين يكذّبون بالبعث من المشركين. الله الذي أنشأكم فخلقكم".

**قال ابن كثير**:"أي: ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا".

قوله تعالى: {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} [الملك: ٢٣]، أي:"وجعل لكم السمع لتسمعوا به، والأبصار لتبصروا بها، والقلوب لتعقلوا بها".

**قال الطبري**: يقول:"{وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ} تسمعون به، {وَالأبْصَارَ} تبصرون بها {وَالأفْئِدَةَ} تعقلون بها".

**قال السعدي**:"يقول تعالى- مبينًا أنه المعبود وحده، وداعيًا عباده إلى شكره، وإفراده بالعبادة-: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ} أي: أوجدكم من العدم، من غير معاون له ولا مظاهر، ولما أنشأكم، كمل لكم الوجود بالسمع والأبصار والأفئدة، التي هي أنفع أعضاء البدن وأكمل القوى الجسمانية".

**قال ابن كثير**:"{وَالأفْئِدَةَ}، أي: العقول والإدراك".

قوله تعالى: {قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} [الملك: ٢٣]، أي:"قليلا -أيها الكافرون- ما تؤدون شكر هذه النعم لربكم الذي أنعم بها عليكم".

=

**قال الطبري**:"يقول: قليلا ما تشكرون ربكم على هذه النعم التي انعمها عليكم".
**قال ابن كثير**:"أي: ما أقل تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم، في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره".
**قال السعدي**:"ولكنه مع هذا الإنعام {قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ} الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر".
(قل هو الذي أنشأكم) أي ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا من غير معاون له ولا مظاهر.
(وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) وأنعم عليكم هذه النعم.
- قال أبو السعود (وجعل لكم السمع) لتسمعوا آيات الله وتمتثلوا بما فيها من الأوامر والنواهي وتتعظوا بمواعظها (والأبصار) لتنظروا بها إلى الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله ﷻ (والأفئدة) وهي القلوب، لتتفكروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه من الآيات التنزيلية والتكوينية وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة.
- فذكر الله سبحانه وتعالى طريق الفهم ومكان الفهم، فطريق الفهم هو: السمع والبصر، ومحل الفهم والوعي: هو القلب.
- لماذا لم يذكر ألم والذوق واللمس؟ الجواب: لأن الاتعاظ بالآيات يكون بالسمع والبصر.
- وبدأ بالسمع لأنه أشمل وأعم، لأنك تسمع ما لا تراه.
وخص هذه الجوارح بالذكر لأمرين:
**أولا**: لأنها أداة العلم والفهم.
**ثانيا**: هي أفضل أعضاء البدن، وأكمل القوى الجسمانية.
- ولكنكم مع هذا الإنعام:

=

(قليلا ما تشكرون) أي: قليلا ما تشكرون ربكم على هذه النعم التي أنعمها عليكم، وقيل: المراد نفي الشكر، والعرب تطلق القلة ويريدون بها العدم المحض.

- في الآية حث على الشكر، وذم من لم يشكر نعم الله.

- والشكر: هو القيام بطاعة المنعم اعترافا بالقلب، وثناء باللسان، وطاعة بالأركان.

وفي ذلك يقول الشاعر: أفادتكم النعماء مني ثلاثة... يدي ولساني والضمير المحجبا

فنعمة العين: أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة الرجل أن لا يمشي بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة المال: أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي الله.

كيف يتحقق الشكر؟

**أولا**: سؤال الله ذلك.

كما قال تعالى عن سليمان: (وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي).

وقال ﷺ لمعاذ: (يا معاذ، لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك). رواه أبو داود

**ثانيا**: أن يعلم الإنسان أن النعم إذا شكرت قرت وزادت.

قال تعالى: (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم).

**ثالثا**: أن يعلم الإنسان أن الله سيسأله يوم القيامة عن شكر نعمه.

قال تعالى: (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم).

- قال ابن كثير: أي ثم لتسألن عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن

=

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤).

=

والرزق وغير ذلك، ما ذا قابلتم به نعمه من شكر وعبادة.

**رابعا**: أن ينظر إلى من هو دونه في أمور الدنيا، فإذا فعل ذلك استعظم ما أعطاه الله.

قال ﷺ: (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم)

الشكر يكون من الله لعبده ومن العبد لربه.

فشكر العبد لربه كقوله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله). وقوله تعالى (كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون).

وتعريفه كما سبق وهو أن يستعمل نعمه في طاعة الله.

وشكر الله لعبده كقوله تعالى (ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم) وقوله تعالى (إن ربنا لغفور شكور).

ومعنى شكر الله لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، وإذا ترك له شيئا أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئا رده عليه أضعافا مضاعفة.

لما عقر سليمان الخيل غضبا له إذ شغلته عن ذكره، فأراد ألا تشغله مرة أخرى، أعاضه عنها متن الريح.

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته، أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

{قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ} خَلَقَكُمْ {فِي الْأَرْض وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} لِلْحِسَابِ[1].

---

(١)قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد، الله الذي خلقكم في الأرض".

**قال ابن كثير**:"أي: بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وحلاكم وأشكالكم وصوركم".

**قال السعدي**:"أي: بثكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم، ونهاكم، وأسدى عليكم من النعم، ما به تنتفعون".

قوله تعالى: {وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الملك: ٢٤]، أي:"وإليه وحده تُجمعون بعد هذا التفرق للحساب والجزاء".

**قال الطبري**:"يقول: وإلى الله تحشرون، فتجمعون من قبوركم لموقف الحساب".

**قال ابن كثير**:"أي: تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم".

**قال السعدي**:"ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة".

(قل هو الذي ذرأكم) أي بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها.

- **قال ابن عاشور**: والذرء: الإكثار من الموجود، فهذا أخص من قوله (هو الذي أنشأكم) أي: هو الذي كثركم على الأرض كقوله (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) أي أعمركم إياها.

(وإليه تحشرون) أي إليه وحده مرجعكم للحساب والجزاء كما قال تعالى (قل إن الأولين والآخرين. لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) وقال تعالى (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن).

- وفي هذا أن الإنسان أوجده الله ليعمر الأرض ثم بعد ذلك مرجعه وحشره إلى =

=

الله، ففي التنبيه على ذلك فوائد:

**أولا**: أن يعمر الأرض عمرانا يتقوى به على طاعة الله لأن المرجع إليه.

**ثانيا**: أن يحذر من أن يعمر الأرض عمران من سيخلد فيها، فيكون عابدا لها منشغلا بها عن طاعة الله.

**ثالثا**: أن يكون عمرانه للأرض على قدر وجوده وما يغنيه عن الناس.

**رابعا**: أن الأرض ليست دار قرار، بل هي دار عبور وممر.

- وفي هذا إثبات الحشر.

- تعريف الحشر:

لغة الجمع.

واصطلاحا: جمع الخلائق يوم القيامة لحسابهم والقضاء بينهم.

- والحشر ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

قال تعالى (قل إن الأولين والآخرين. لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم).

وقال تعالى (واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون).

وقال تعالى (وإذا الوحوش حشرت).

وقال تعالى (وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون).

وقال تعالى (وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون).

وقال تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون).

وقال ﷺ: (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد) متفق عليه.

- ويحشر كل شيء حتى البهائم ودل على حشر البهائم عدة أدلة:

أ- قوله تعالى (وإذا الوحوش حشرت).

ب- وقوله تعالى (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم

=

ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون).

ج- وحديث أبي ذر. (أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: يا أباذر أتدري فيما ينتطحان؟ قال: قلت: لا، قال: لكن الله يدري وسيقضي بينهما) رواه أحمد.

د- وحديث (مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطأوه بأظلافها) متفق عليه.

هـ- الآثار الواردة في قوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) وأن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني ترابا، فتكون ترابا، فعندها يقول الكافر (يا ليتني كنت ترابا).

- كيف يحشر الناس؟

يحشرون حفاة عراة غرلا.

لحديث عائشة. قالت: قال رسول الله ﷺ: (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا، قالت: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) متفق عليه.

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال (إنكم تحشرون حفاة عراة غرلا، ثم قرأ: كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم) متفق عليه.

حفاة: جمع حاف وهو من ليس عليه نعال.

عراة: جمع عار وهو من ليس عليه ثياب.

غرلا: أي غير مختونين.

- أول من يكسى إبراهيم.

للحديث السابق (وأول من يكسى إبراهيم عليه السلام).

والحكمة في ذلك:

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥).

{وَيَقُولُونَ} لِلْمُؤْمِنِينَ {مَتَى هَذَا الْوَعْد} وَعْد الْحَشْر {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فِيهِ.

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦).

{قُلْ إِنَّمَا الْعِلْم} بِمَجِيئِهِ {عِنْد الله وَإِنَّمَا أَنَا نَذِير مُبِين} بَيِّن الْإِنْذَار.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧).

{فَلَمَّا رَأَوْهُ} أَيْ الْعَذَاب بَعْد الْحَشْر {زُلْفَة} قَرِيبًا {سِيئَتْ} اسْوَدَّتْ {وُجُوه الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ} أَيْ قَالَ الْخَزَنَة لَهُمْ {هَذَا} أَيْ الْعَذَاب {الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ}

---

=

قيل: لم يكن في الأولين والآخرين لله ﷻ عبد أخوف من إبراهيم فتعجل له كسوته أمانا له ليطمئن قلبه.

وقيل: لأنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر.

وقيل: أن الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس، فلما صبر واحتسب وتوكل على الله جازاه على ذلك بأن جعله أول من يدفع عنه العرى يوم القيامة، وهذا أحسنها.

- أرض المحشر الشام.

عن سهل بن سعد. قال: قال رسول الله ﷺ: (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، ليس فيها معلم لأحد) رواه البخاري.

عفراء: أي ليس بياضها ناصع.... كقرصة النقي: الدقيق الخالص من الغش.... ليس فيها معلم لأحد: أي: شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات كالجبل والصخرة والبناء.

بِإِنْذَارِهِ {تَدَّعُونَ} أَنَّكُمْ لَا تُبْعَثُونَ وَهَذِهِ حِكَايَة حَال تَأْتِي عَبَّرَ عَنْهَا بِطَرِيقِ الْمُضِيّ لِتَحَقُّقِ وُقُوعهَا(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} [الملك: ٢٥]، أي:"ويقول الكافرون: متى يتحقق هذا الوعد بالحشر يا محمد؟ أخبرونا بزمانه أيها المؤمنون".

**قال الطبري**:"يقول جلّ ثناؤه: ويقول المشركون: متى يكون ما تعدنا من الحشر إلى الله".

**قال ابن كثير**:"ثم قال مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، أي: متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق؟".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الملك: ٢٥]، أي:"إن كنتم صادقين فيما تدَّعون".

**قال الطبري**: أي:"إن كنتم صادقين في وعدكم إيانا ما تعدوننا".

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أي متى يكون الحشر والجزاء الذي تعدوننا به؟ إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من مجيء الساعة والحشر، وهذا استهزاء منهم.

وقيل: المراد أنهم يستعجلون العذاب، أي متى هذا العذاب الذي تهددنا به، فالكفار دائما يستعجلون العذاب استبعادا وتكذيبا به.

كما قال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون).

وقال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده).

وقال تعالى (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات).

وقال تعالى (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة =

=

من السماء أو ائتنا بعذاب أليم).

وقال تعالى عنهم (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب).

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ} [الملك: ٢٦]، أي:"قل -أيها الرسول- لهؤلاء: إن العلم بوقت قيام الساعة اختصَّ الله به".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المستعجليك بالعذاب وقيام الساعة: إنما علم الساعة، ومتى تقوم القيامة عند الله لا يعلم ذلك غيره".

قال السمعاني:"أي: علم الساعة عند الله".

**قال ابن كثير**:"أي: لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله، ﷻ، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه".

قوله تعالى: {وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الملك: ٢٦]، أي:"وإنما أنا نذير لكم أخوِّفكم عاقبة كفركم، وأبيِّن لكم ما أمرني الله ببيانه غاية البيان".

**قال الطبري**:"يقول: وما أنا إلا نذير لكم أنذركم عذاب الله على كفركم به، {مُبِينٌ} : قد أبان لكم إنذاره".

قال السمعاني:"أي: منذر بين النذارة".

**قال ابن كثير**:"وإنما علي البلاغ، وقد أديته إليكم".

(قل إنما العلم عند الله) أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ﷻ لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة، كما قال تعالى (قل إنما علمها عند ربى).

(وإنما أنا نذير مبين) أي وإنما علي البلاغ وقد أديته إليكم (الإنذار هو الإخبار مع التخويف).

- **قال ابن عطية**: أمر الله تعالى نبيه أن يخبرهم بأن علم القيامة والوعد الصدق

=

=

هو مما تفرد الله به، وأن محمدا إنما هو نذير يعلم ما علم ويخبر بما أمر أن يخبر به.

- فيه أن الحكمة من إرسال الرسل النذارة، ولإرسال الرسل عدة حكم:

**أولا**: التبشير للمؤمن والإنذار للكافر.

قال تعالى (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين).

وقال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل).

وقال تعالى (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

وقال تعالى (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا).

**ثانيا**: رحمة للناس.

قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

**ثالثا**: البلاغ المبين.

قال تعالى (وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد).

وقال تعالى (ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون).

وقال تعالى (فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين).

**رابعا**: الدعوة إلى الله.

قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت).

وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون).

**خامسا**: إقامة الحجة.

قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل).

=

=

وقال تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى).

وعندما يصيحون بالنار بعد أن يحيط بهم العذاب من كل جانب وينادون ويصرخون تقول لهم خزنة جهنم:

كما قال تعالى (قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال).

قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً} [الملك: ٢٧]، أي:"فلما رأى الكفار عذاب الله قريبًا منهم وعاينوه".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: فلما رأى هؤلاء المشركون عذاب الله قريبا، وعاينوه".

**قال ابن كثير**:"أي: لما قامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريبا؛ لأن كل ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنه".

**قال السعدي**:"ساءهم ذلك وأفظعهم، وقلقل أفئدتهم، فتغيرت لذلك وجوههم، ووبخوا على تكذيبهم، وقيل لهم هذا الذي كنتم به تكذبون، فاليوم رأيتموه عيانًا، وانجلى لكم الأمر، وتقطعت بكم الأسباب ولم يبق إلا مباشرة العذاب".

عن الحسن، قوله: "{فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ}، قال: لما عاينوه".

عن أبي رجاء، قال: "سألت الحسن، عن قوله: {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً}، قال: معاينة".

قال قتادة:"لما عاينت من عذاب الله". وفي رواية:"لما رأوا عذاب الله زلفة".

عن مجاهد، قوله: "{فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً}، قال: قد اقترب".

قال ابن زيد:"قيل: الزلفة حاضر قد حضرهم عذاب الله ﷻ".

قوله تعالى: {سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الملك: ٢٧]، أي:"ظهرت الذلة والكآبة على وجوههم".

=

=

**قال الطبري**:"يقول: ساء الله بذلك وجوه الكافرين".

قال السمعاني:"أي: تبين السوء والكآبة في وجوهم. ويقال: اسودت وجوههم".

**قال ابن كثير**:"فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي: فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الزمر: ٤٧، ٤٨]؛ ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ: {هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ}، أي: تستعجلون".

قال قتادة:"يقول: سيئت وجوههم حين عاينوا من عذاب الله وخزيه ما عاينوا".

قوله تعالى: {وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ} [الملك: ٢٧]، أي:"وقيل توبيخًا لهم: هذا الذي كنتم تطلبون تعجيله في الدنيا".

**قال الطبري**:"يقول: وقال الله لهم: هذا العذاب الذي كنتم به تذكرون ربكم أن يعجله لكم".

قال الحسن البصري: "{الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ} تدّعون أن لا جنة ولا نار".

قال ابن زيد:"استعجالهم بالعذاب".

قال النحاس:"أصحّ ما قيل فيه أنه «تفتعلون»، من: «الدعاء»، ثم أدغم".

قال ابن قتيبة:"أي: تَدْعون. وهو «تفتعلون»، من الدعاء".

**قال الفراء**:"يريد: «تَدْعُونَ»، وهو مثل قوله: تَذْكُرون، وتَذَّكّرون، وتخبرون وتختبرون، والمعنى واحد والله أعلم".

القراءة المشهورة: {تَدَّعُونَ}، بتشديد الدال بمعنى: تفتعلون من الدعاء، وذكر عن قتادة والضحاك أنهما قرءا ذلك: «تَدعُونَ» بالتخفيف، بمعنى: تفعلون في الدنيا.

=

=

**قال الزجاج**:"فَأَمَّا {تَدَّعُونَ}، فجاء في التفسير تُكَذِبُونَ، وتأويله -في اللغة-: هذا الذي كنتم من أجله تَدَّعُونَ الأباطيل والأكاذيب، أي: تدعون أنكم إذَا مِتُّم وكنتم ترابًا وعظامًا أَنَّكُمْ لا تُخْرَجُونَ، ومن قَرَأَ «تَدْعُونَ»، بالتخفيف، فالمعنى: هذا الذي كنتم به تستعجلون وتدعون الله في قولكم: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}. ويجوز أن يكون معنى: {تَدَّعُونَ} هذا أيضًا «تَفْتَعِلُونَ»، من: الدعاء. و «تفتعلون» من: الدِعوى، يجوز ذلك- والله أعلم".

عن قتادة: "أنه قرأها: {الذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ}، خفيفة؛ ويقول: كانوا يدعون بالعذاب، ثم قرأ: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}".

(فلما رأوه زلفة) اختلف العلماء في مرجع الضمير في قوله (فلما رأوه).

- **قال القرطبي**: أكثر المفسرين على أن المعنى: فلما رأوه يعني العذاب، وهو عذاب الآخرة.

وقد اختار هذا القول: ابن جرير الطبري، وأبو حيان، والبغوي ونسبه لأكثر المفسرين، وابن عطية، وابن الجوزي، وابن جزي، والقاسمي، والسعدي.

- قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: فلما رأى هؤلاء المشركون عذاب الله (زلفة) يقول: قريبا، وعاينوه (سيئت وجوه الذين كفروا) يقول: ساء الله بذلك وجوه الكافرين.

وأما قول من قال: إن المراد عذاب بدر فقول ضعيف.

والمعنى: أي فلما رأوا العذاب (زلفة) قريبا منهم وعاينوا أهوال القيامة.

**قال ابن كثير**: (فلما رأوه زلفة) أي: لما قامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريبا، لأن كل ما هو آت وإن طال زمنه.

=

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨).

=

(سيئت وجوه الذين كفروا) أي ساءهم ذلك لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، وظهر عليها آثار الاستياء من الكآبة والغم والانكسار والحزن وخابت ظنونهم، وأيقنوا بالخيبة والخسران المبين (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون).

- وخص الوجوه بالذكر لأن الوجه هو الذي يظهر عليه أثر المسرة والمساءة.

(وقيل) لهم تبكيتا وتقريعا وتوبيخا

(هذا الذي كنتم به تدعون) أي يقال لهم على وجه التوبيخ هذا البعث والحشر والحساب والعذاب الذي كنتم تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه استهزاء وتكذيبا.

- **قال القرطبي**: (هذا الذي كنتم به تدعون) أي تفتعلون من الدعاء وهو قول أكثر العلماء: أي تتمنون وتسألون.

ورجح هذا القول الطبري والبغوي وابن عطية وأبو حيان وابن عاشور.

- وقال أبو السعود (هذا الذي كنتم به تدعون) أي: تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكارا واستهزاء على أنه تفتعلون من الدعاء، وقيل هو من الدعوى أي تدعون أن لا بعث ولا حشر. وقرئ تدعون، هذا وقد روي عن مجاهد أن الموعود عذاب يوم بدر، وهو بعيد.

وقيل: إنه من الدعوى معناه: هذا الذي كنتم تبطلونه أي تدعون أنه باطل لا يأتيكم أو هذا الذي كنتم بسببه وتدعون أنكم لا تبعثون.

وقيل: أن يكون هذا استفهاما على سبيل الإنكار، والمعنى أهذا الذي تدعون، لا بل كنتم تدعون عدمه.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ الله وَمَنْ مَعِيَ} مِنْ الْمُؤْمِنِينَ بِعَذَابِهِ كَمَا تُقْصَدُونَ {أَوْ رَحِمَنَا} فَلَمْ يُعَذِّبنَا {فَمَنْ يُجِير الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَاب أَلِيم} أَيْ لَا مُجِير لَهُمْ مِنْهُ.

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩).

{قل هو الرحمن آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء عِنْد مُعَايَنَة الْعَذَاب {مَنْ هُوَ فِي ضَلَال مُبِين} بَيِّن أَنَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ أَمْ هُمْ.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠).

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَح مَاؤُكُمْ غَوْرًا} غَائِرًا فِي الْأَرْض {فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِين} جَارٍ تَنَالهُ الْأَيْدِي وَالدِّلَاء كَمَائِكُمْ أَيْ لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا الله تَعَالَى فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ أَنْ يَبْعَثكُمْ وَيُسْتَحَبّ أَنْ يَقُول الْقَارِئ عَقِب مَعِين الله رَبّ الْعَالَمِينَ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيث وَتُلِيَتْ هَذِهِ الْآيَة عِنْد بَعْض الْمُتَجَبِّرِينَ فَقَالَ تَأْتِي بِهِ الْفُؤُوس وَالْمَعَاوِل فَذَهَبَ مَاء عَيْنه وَعَمِيَ نَعُوذ بِاَللَّهِ مِنْ الْجَرَاءَة عَلَى الله وعلى آياته[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا} [الملك: ٢٨].

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قُلْ} يا محمد للمشركين من قومك، {أَرَأَيْتُمْ} أيها الناس {إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ} فأماتني {وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا} فأخّر في آجالنا".

**قال الماتريدي**:"أي: قل إن أهلكني الله ومن معي بما سبق من الأجرام والزلات، أو رحمنا بما سبق منا من الإيمان به والانقياد لأمره والخضوع لطاعته".

قال السمعاني:"قال أهل التفسير: كان الكفار يقولون: إن محمدا وأصحابه أكلة رأس، يهلكون عن قريب، وكل يرجون الأباطيل في حق الرسول وأصحابه، فقال الله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا} يعني: إن نجونا أو =

=

هلكنا".

قوله تعالى: {فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الملك: ٢٨]، أي:"فمَن هذا الذي يحميكم، ويمنعكم من عذاب أليم موجع؟".

قال أبو العالية:"الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

قال السمعاني:"أي: فمن يجيركم من عذاب الله تعالى وقد كفرتم به".

**قال الطبري**: أي: "{فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ} بالله {مِنْ عَذَابٍ} موجع مؤلم، وذلك عذاب النار. يقول: ليس ينجي الكفار من عذاب الله موتُنا وحياتنا، فلا حاجة بكم إلى أن تستعجلوا قيام الساعة، ونزول العذاب، فإن ذلك غير نافعكم، بل ذلك بلاء عليكم عظيم".

**قال الماتريدي**:"أي: أي شيء يجير الكافرين من عذابه، ولم يسبق منهم إلى ربهم حسنة يرحمون لأجلها، ولا طاعة يستوجبون الغفران بها؟! أو فمن يجيرهم من عذاب الله تعالى إن حل بهم؟! فكأنه قيل له: قل لهم: هذا لأنهم كانوا يعبدون الأصنام؛ رجاء أن تنصرهم من العذاب الأليم، فيقول: لا تجيرهم تلك الأصنام من العذاب الأليم".

**قال ابن كثير**:"أي: خَلِّصوا أنفسكم، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة، والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنَّكَال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم".

قال الزمخشري في الآية:"كان كفار مكة يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأمر بأن يقول لهم: نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين: إما أن نهلك كما تتمنون فننقلب إلى الجنة، أو نرحم بالنصرة والإدالة للإسلام كما نرجو، فأنتم ما تصنعون؟ من يجيركم- وأنتم كافرون- من عذاب

=

=

النار؟ لا بدّ لكم منه، يعنى: إنكم تطلبون لنا الهلاك الذي هو استعجال للفوز والسعادة، وأنتم في أمر هو الهلاك الذي لإهلاك بعده، وأنتم غافلون لا تطلبون الخلاص منه. أو إن أهلكنا الله بالموت فمن يجيركم بعد موت هداتكم، والآخذين بحجزكم من النار، وإن رحمنا بالإمهال والغلبة عليكم وقتلكم فمن يجيركم، فإنّ المقتول على أيدينا هالك. أو إن أهلكنا الله في الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون، فمن يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم، وإن رحمنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له".

قال ابن الجوزي:"معنى الآية: إنا مع إيماننا، بين الخوف والرّجاء: فمن يجيرُكم مع كفركم من العذاب؟! أي: لأنه لا رجاء لكم كرجاء المؤمنين".

فقوله (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه. (أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا) أي إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين: أو رحمنا بتأخير آجالنا. (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) أي فمن يحميكم من عذاب الله الأليم.

قال المفسرون: كان الكفار يتمنون هلاك النبي ﷺ والمسلمين، فأمره الله أن يقول لهم: إن أهلكني الله بالإماتة وأهلك من معي، فأي راحة وأي منفعة لكم فيه، ومن الذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم؟ هل تظنون أن الأصنام تخلصكم وتنقذكم من العذاب الأليم.

- قال ابن كثير: أي: خلصوا أنفسكم، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا بالتوبة والإنابة، والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من عذابه ونكاله الواقع بكم.

- وقال السعدي: ولما كان المكذبون للرسول ﷺ الذين يردون دعوته ينتظرون هلاكه، ويتربصون به ريب المنون، أمره الله أن يقول لهم: إنكم إن حصلت لكم

=

=

أمنيتكم، وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك بنافع لكم شيئا، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتم العذاب، فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم؟ فإذا تعبكم وحرصكم على هلاكي غير مفيد، ولا مجد لكم شيئا.

- والمراد بالعذاب: إما الدنيوي وهو خزيهم بالانتصار عليهم، ودحور ضلالهم، أو الأخروي، وهو أشد وأبقى.

قوله تعالى: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ} [الملك: ٢٩]، أي:"قل: الله هو الرحمن صدَّقنا به وعملنا بشرعه، وأطعناه".

**قال الطبري**: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد: ربنا {الرَّحْمَنُ} صدّقنا به".

**قال ابن كثير**:"أي: آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم".

**قال السعدي**:"الإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة".

قوله تعالى: {وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [الملك: ٢٩]، أي:"وعليه وحده اعتمدنا في كل أمورنا".

**قال الطبري**: "يقول: وعليه اعتمدنا في أمورنا، وبه وثقنا فيها".

**قال ابن كثير**:"أي: وعليه توكلنا في جميع أمورنا، كما قال: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [هود: ١٢٣]".

**قال السعدي**:"ولما كانت الأعمال، وجودها وكمالها، متوقفة على التوكل، خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه كما قال تعالى: {وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} فإذا كانت هذه حال الرسول وحال من اتبعه، وهي الحال التي تتعين للفلاح، وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدها، فلا إيمان لهم ولا توكل، علم بذلك من هو على هدى، ومن هو في ضلال مبين".

=

=

**قال الزمخشري**:"فإن قلت: لم أخر مفعول آمنا وقدم مفعول {تَوَكَّلْنَا} ؟ قلت: لوقوع {آمَنَّا} تعريضا بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم، كأنه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصا لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم".

قوله تعالى: {فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الملك: ٢٩]، أي:"فستعلمون -أيها الكافرون- إذا نزل العذاب: أيُّ الفريقين منا ومنكم في بُعْدٍ واضح عن صراط الله المستقيم؟".

**قال الطبري**: "يقول: فستعلمون أيها المشركون بالله الذي هو في ذهاب عن الحقّ، والذي هو على غير طريق مستقيم منا ومنكم إذا صرنا إليه، وحشرنا جميعا".

قال السمعاني:"أي: خطأ بين، وتباعد من الحق وضلال عنه".

**قال ابن كثير**:"أي: منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة؟".

عن سعيد بن جبير:"المبين: البين".

فقوله (قل هو الرحمن آمنا به) أي قل لهم: آمنا بالله الواحد الأحد. (وعليه توكلنا) لا على غيره، توكلنا في جميع أمورنا.

- **قال ابن عاشور**: وتقديم معمول (توكلنا) عليه لإفادة الاختصاص، أي توكلنا عليه دون غيره تعريضا بمخالفة حال المشركين إذ توكلوا على أصنامهم وأشركوها في التوكل مع الله، أو نسوا التوكل على الله باشتغال فكرتهم بالتوجه إلى الاصنام.

- في الآية وجوب التوكل على الله.

كما قال تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي: وعلى الله وحده فليعتمد وليثق المؤمنون.

=

وقال تعالى (فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين).

- وحقيقة التوكل هو: صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه. أ. هـ

- **قال السعدي**: وحقيقة التوكل على الله: أن يعلم أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

(فستعلمون من هو في ضلال مبين) أي فسوف تعلمون عن قريب من هو في الضلالة نحن أم أنتم؟ وفيه تهديد للمشركين.

قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا} [الملك: ٣٠].

**قال الطبري**: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قُلْ} يا محمد لهؤلاء المشركين: {أَرَأَيْتُمْ} أيها القوم العادلون بالله {إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ} غائرا لا تناله الدلاء".

**قال الزجاج**:"معنى مَعِين جارٍ من العُيونِ، وجاء في التفسير: ظاهر، والمعنى: أَنَّه يظهر من العُيُون".

**قال ابن كثير**:"أي: ذاهبا في الأرض إلى أسفل، فلا يُنَال بالفئوس الحداد، ولا السواعد الشداد، والغائر: عكس النابع".

عن سعيد بن جُبير، قوله: "{إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا}، لا تناله الدلاء".

قال قتادة والضحاك:"أي: ذاهبا".

وقيل: "إن الآية نزلت في بئر زمزم وبئر ميمون، وهما بمكة".

قوله تعالى: {فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ} [الملك: ٣٠]، أي:"فمَن غير الله يجيئكم بماء جارٍ على وجه الأرض ظاهر للعيون؟".

**قال الطبري**: "يقول: فمن يجيئكم بماء تراه العيون ظاهرا".

=

**قال ابن كثير**:"أي: نابع سائح جار على وجه الأرض، لا يقدر على ذلك إلا الله، ﷻ، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة".

قال السمعاني:"يعني: أن الله هو القادر أن يأتي به، ولا تصلون إليه بأنفسكم".

**قال السعدي**: أي:"تشربون منه، وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ وهذا استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدر أحد على ذلك غير الله تعالى".

عن ابن عباس، قوله: "{فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ}، يقول: بماء عذب".

عن سعيد بن جُبير، قوله: "{فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ}، قال: الظاهر".

قال قتادة، والضحاك:"الماء المعين: الجاري".

**قال الزمخشري**:"عن بعض الشطار أن هذه الآية تليت عنده، فقال: تجيء به الفئوس والمعاول، فذهب ماء عينيه، نعوذ بالله من الجرأة على الله وعلى آياته".

(قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا) أي ذاهبا في الأرض إلى أسفل فلا ينال بالفؤوس الحداد ولا السواعد الشداد.

- **قال القرطبي**: أي غائرا ذاهبا في الأرض لا تناله الدلاء.

(فمن يأتيكم بماء معين) أي نابع سائح جار على وجه الأرض، تشربون منه، وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ أي لا يقدر على ذلك إلا الله، فمن فضله أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض.

**قال القرطبي**: (فمن يأتيكم بماء معين) أي جار؛ قاله قتادة والضحاك، فلا بد لهم من أن يقولوا لا يأتينا به إلا الله؛ فقل لهم لم تشركون به من لا يقدر على أن يأتيكم.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ

=

## سورة ن[1]

=

يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) (الملك: ١٦- ١٧)، للسائل أن يسأل عن وجه تقديم التوعد (بخسف الأرض على التوعد) بإرسال الحاسب من السماء؟ ولم اختير تقديم الوعيد بالخسف؟ وما الفرق بين الوارد هنا والوارد في قوله تعالى: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) (الأنعام: ٦٥)؟.

والجواب: والله أعلم: أنه لما تقدم ما اتصل به التوعد من قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) (الملك: ١٥) فحضر في النفوس عند ذلك وتقرر تذكرة هذه النعمة وجليل الامتنان بها شاهدًا حاضرًا للمتذكر وعليها قراره حال تذكرة وتنعمه بالتقلب فيها حين خطابه متصلًا غير منفصل وملتصقًا غير متباعد كان أنسب شئ لهذه في الموعظة تذكيرة اتعاظًا بخسفها من تحته، حتى كأن ذلك الأمر جاء منه لا من خارج عنه.

أما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) (الأنعام: ٦١)، فصرف هذا الخطاب تفكر النفس في عين الجهة التى ذكر منها القهر، فكان أنسب شئ ذكر التخويف من تلك الجهة بخلاف آية الملك. فكل آية من هاتين (الآيتين) تبين حال الأخرى، وإن التناسب إنما هو فيما وردت عليه كل آية منهما، وإن العكس غير مناسب، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٧٩).

(١) السّورة مكّيّة قاله ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر.

عن ابن عباس قال: نزلت سورة {ن والقلم} بمكة".

**الثاني**: أنها مكية إلا قوله ﷻ: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ} [القلم: ١٧] إلى قوله ﷻ: {لَوْ كَانُوا

=

=

يَعْلَمُون} [القلم: ٣٣]، نزلت بالمدينة. حكي هذا القول عن ابن عباس، وقتادة. وذكر الماوردي عن ابن عباس:"من أولها إلى قوله سبحانه: {سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} [القلم: ١٦] مكي، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون} [القلم: ٣٣]، مدني، ومن بعد ذلك إلى قوله: {يَكْتُبُونَ} [القلم: ٤٧] مكي، ومن بعد ذلك إلى قوله: {مِنَ الصَّالِحِين} [القلم: ٥٠] مدني، وباقي السورة مكي.

قال السمعاني:"هي مكية في قول الأكثرين".

قال ابن عطية:"هي مكية، ولا خلاف فيها بين أحد من أهل التأويل".

* آياتها اثنتان وخمسون. وكلماتها ثلاثمائة. وحروفها ألف ومائتان وستّ وخمسون. فواصل آياتها (من).

* أسماء السورة:

سميت «سورة القلم» في كتب السنة وكتب التفسير والمصاحف، ووجه تسميتها لافتتاحها بما أقسم الله تعالى به وهو قوله تعالى: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

وتسمى «سورة "ن"» سميت سورة «ن»، وعنونت بها في بعض المصاحف وبعض كتب التفسير، فسميت هذه السورة بالحرف المفرد الذي افتتحت به مثل ما سميت سورة «ص»، وسورة «ق».

وسميت «سورة "ن والقلم"» وردت هذه التسمية في كلام ابن عباس-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما عنون لها بعض المفسرين في كتبهم، وترجم لها البخاري في صحيحه، وكذلك الحاكم في مستدركه.

* معظم مقصود السّورة: الذَّبّ عن النبىّ ﷺ، وعذابُ ما نعى الزَّكاة، وتخويف الكفَّار بالقيامة، وتهديد المجرمين بالاستدراج، وأَمر الرّسول ﷺ بالصّبر، والإِشارةُ إِلى حال يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ فى قلَّة الصّبر، وقصد الكفَّار رسولَ الله ﷺ

=

مكية وآياتها اثنتان وخمسون آية .

## بسم الله الرحمن الرحيم[(١)]

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١).

{ن} أَحَد حُرُوف الْهِجَاء الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِهِ {وَالْقَلَم} الَّذِي كَتَبَ بِهِ الْكَائِنَات فِي اللَّوْح الْمَحْفُوظ {وَمَا يَسْطُرُونَ} أَيْ الْمَلَائِكَة مِنْ الخير والصلاح

مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢).

{مَا أَنْتَ} يَا مُحَمَّد {بِنِعْمَةِ رَبّك بِمَجْنُونٍ} أَيْ انْتَفَى الْجُنُون عَنْك بِسَبَبِ إنْعَام رَبّك عَلَيْك بِالنُّبُوَّةِ وَغَيْرهَا وَهَذَا رَدّ لِقَوْلِهِمْ إنَّهُ مجنون.

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣).

{وإن لك لأجرا غير ممنون} مقطوع.

وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤).

{وإنك لعلي خلق} دين {عظيم} .

---

=

ليصيبوه بالعين فى {لَيُزْلِقُوْنَكَ بِأَبْصَارِهِمْ} الآية.

* المتشابهات قوله تعالى: {حَلاَّفٍ مَّهِينٍ} إلى قوله: {زَنِيم} تسعة أوصاف، ولم يدخل بينها واو العطف ولا بعد السابع فيدلّ على ضعف القول بواو الثمانية.

{فَأَقْبَلَ} بالفاءِ سبق. {فَاصْبِر} بالفاءِ سبق ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٧٦).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥).

{فستبصر ويبصرون}.

بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦).

{بأيكم الْمَفْتُون} مَصْدَر كَالْمَعْقُولِ أَيْ الْفُتُون بِمَعْنَى الْجُنُون أي أبك أم بهم

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧).

{إنَّ رَبّك هُوَ أَعْلَم بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيله وَهُوَ أَعْلَم بِالْمُهْتَدِينَ} له وأعلم بمعنى عالم[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن جريج؛ قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: إنه لمجنون به شيطان؛ فنزلت: {مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢٤٢)، و"لباب النقول" (ص ٢١٨) ونسبه لابن المنذر.

وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال: "لبيك"؛ ولذلك أنزل الله ﷻ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)}.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٩٣) من طريق حسين بن علوان الكوفي نا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ الحسين بن علوان؛ متروك الحديث، بل كذبه ابن معين. انظر: "الجرح والتعديل" (٣/ ٦١). وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢١٨): "بسند واهٍ".

* قوله تعالى: {ن} [القلم: ١]، أي:"نون حرف من الحروف المقطعة، ذكر للتنبيه على إعجاز القرآن".

=

=

وذكروا في قوله تعالى: {ن} [القلم: ١]، أقوال:

**أحدها**: أن «النون» الحوت الذي عليه الأرض، قاله ابن عباس من رواية أبي الضحى عنه، وبه قال مقاتل.

قال مقاتل:"يعني بـ«نون» الحوت وهو في بحر تحت الأرض السفلى".

قال مجاهد:"كان يقال النون: الحوت الذي تحت الأرض السابعة".

**الثاني**: أن «النون» الدواة، رواه أبو هريرة عن النبي -ﷺ-. وبه قال ابن عباس في رواية ثابت البناني عنه، وقتادة-في رواية-.

**الثالث**: أنه حرف من حروف الرحمن، قاله ابن عباس في رواية الضحاك عنه.

عن ابن عباس: "{آلر} و {حم} و {ن}، حروف الرحمن مقطعة".

**الرابع**: هو لوح من نور، رواه معاوية بن قرة عن أبيه عن النبي -ﷺ-.

عن معاوية بن قرّة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: "{ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} : "لوح من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة".

وقال مقاتل:"قلم من نور يكتب به، طوله كما بين السماء والأرض كتب به اللوح المحفوظ".

**الخامس**: أنه اسم من أسماء السورة، وهو مأثور.

**السادس**: أنه قسم أقسم الله به، ولله تعالى أن يقسم بما يشاء، قاله قتادة-في رواية أخرى-، وابن زيد.

قال ابن زيد:"هذا قسم أقسم الله به".

السابع: أنه: اسم من أسماء الله.

قال سالم بن عبد الله: "{الم}، و {حم}، و {ن} ونحوها، اسم الله مقطعة".

عن ابن عباس في قوله: "{الم}، و {حم}، و {ن}، قال: اسم مقطع".

قال سهل التستري:"النون اسم من أسماء الله تعالى، إذا جمعت بين أوائل

=

=

السور: «الر» و «حم» و «ن» فهو اسم: «الرحمن».

الثامن: أنه حرف من حروف المعجم. حكاه الطبري.

التاسع: أن «نون» بالفارسية: «أيذون كن»، قاله الضحاك.

العاشر: إن لم يثبت به نقل أن يكون معناه: تكوين الأفعال والقلم وما يسطرون، فنزل الأقوال جميعًا في قسمه بين أفعاله وأقواله، وهذا أعم قسمة. أفاده الماوردي.

الحادي عشر: أن يريد بـ «النون»: النفْس، لأن الخطاب متوجه إليها بغير عينها بأول حروفها، والمراد بـ «القلم» ما قدره الله لها وعليها من سعادة وشقاء، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ. أفاده الماوردي -أيضا.

قلت والصواب أنه من الحروف المقطعة وقد تقدم بيان الخلاف فيها في أول تفسير سورة البقرة.

قوله تعالى: {وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم: ١]، أي:"أُقسم بالقلم وما يكتبه الكاتبون على صدق محمد وسلامته مما نسبه إِليه المجرمون من السفه والجنون".

أما قوله تعالى: {وَالْقَلَمِ} [القلم: ١]، ففيه ثلاثة وجوه:

**أحدها**: أنه القلم الذي يكتبون به لأنه نعمة عليهم ومنفعة لهم، فأقسم بما أنعم، قاله عمر بن واصل، وابن بحر.

قال عمر بن واصل: "{وَمَا يَسْطُرُونَ}، أي: وما تولى الله لعباده من الكتابة التي فيها منافع الخلق ومصالح العباد والبلاد".

**الثاني**: أنه القلم الذي يكتب به الذكر على اللوح المحفوظ. قاله مجاهد.

وقال ابن جُرَيج:"أخبرت أن ذلك القلم من نور طوله مائة عام".

**الثالث**: أنه القلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق

=

=

السموات والأرضين بخمسين ألف سنة.

عن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: دعاني أبي حين حضره الموت فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد".

**قال ابن كثير:**"قوله: {والقلم} الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العاق: ٣- ٥]. فهو قسم منه تعالى، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم".

وفي قوله تعالى: {وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم: ١]، ثلاثة أقوال:

**أحدها:** وما يعلمون، قاله ابن عباس.

**الثاني:** وما يكتبون، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

عن قتادة: "{وَمَا يَسْطُرُونَ}، قال: وما يَخُطُّون".

عن ابن عباس، قوله: "{وَمَا يَسْطُرُونَ}، يقول: يكتبون".

**قال الطبري:**"يقول: والذي يخُطُّون ويكتبون".

**قال الزجاج:**"معناه: وما تكتب الملائكة".

**الثالث:** أنهم الملائكة الكاتبون يكتبون أعمال الناس من خير وشر. وهذا قول السدي، ومقاتل.

وقوله تعالى: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم: ١]، قرئت بإدغام النون في الواو، وقرئت بتبيين النون عند الواو، وقرئت نُونَ والقلم- بفتح النون.

قال النحاس:"قرأ أكثر الناس: «ن وَالْقَلَمِ»، ببيان نون".

فقوله تعالى: (والقلم) الواو للقسم، والقلم مقسم به، والقلم هو أداة الكتابة المعروفة.

=

=

(وما يسطرون) (ما) موصولة: أي والذي يسطرون، والضمير عائد إلى أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره، ويجوز أن تكون (ما) مصدرية أي: وسطرهم.

وفي افتتاحه تعالى السورة بقوله (ن) ومن الإقسام بالقلم فضل العلم وأهله، بل إن أول آية نزلت وأول سورة نزلت من القرآن على النبي ﷺ بالأمر بذلك، قال تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم).

قوله تعالى: {مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} [القلم: ٢]، أي:"ما أنت -أيها الرسول- بسبب نعمة الله عليك بالنبوة والرسالة بضعيف العقل، ولا سفيه الرأي".

قال عطاء عن ابن عباس: "يريد: بنعمة ربك عليك بالإيمان والنبوة".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ما أنت بنعمة ربك بمجنون، مكذِّبا بذلك مشركي قريش الذين قالوا له: إنك مجنون".

**قال ابن كثير**:"أي: لست، ولله الحمد، بمجنون، كما قد يقوله الجهلة من قومك، المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين، فنسبوك فيه إلى الجنون".

**قال الزجاج**:"المعنى: انتفى عنك الجنون بِنِعْمَةِ رَبِّكَ، كما تقول: أنت بنعمة الله فَهِمٌ، وما أنت بنعمة الله جاهل. وتأويله: فارقك الجهل بِنِعْمَةِ رَبِّكَ، وهذا جواب لقولهم: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر: ٦]".

قال مقاتل:"وذلك حين قال كفار مكة، أبو جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وغيرهم: إن محمدا مجنون، فأقسم الله- تعالى- بالحوت {وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم: ١]- الملائكة- من أعمال بنى آدم، فقال: {مَا أَنْتَ} [القلم: ٢] يا محمد {بِنِعْمَةِ رَبِّكَ} [القلم: ٢]، يعني: برحمة ربك، {بِمَجْنُونٍ} [القلم: ٢]".

=

=

قوله تعالى: {وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ} [القلم: ٣]، أي:"وإن لك على ما تلقاه من شدائد على تبليغ الرسالة لَثوابًا عظيمًا غير منقوص ولا مقطوع".
قال ابن قتيبة:"أي: غير مقطوع ولا منقوص".
**قال الطبري:**"وإن لك يا محمد لثوابا من الله عظيما على صبرك على أذى المشركين إياك غير منقوص ولا مقطوع".
**قال ابن كثير:**"أي: بل لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم. ومعنى {غَيْرُ مَمْنُونٍ}، أي: غير مقطوع كقوله: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: ١٠٨] {فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [التين: ٦] أي: غير مقطوع عنهم. وقال مجاهد: {غَيْرُ مَمْنُونٍ}، أي: غير محسوب، وهو يرجع إلى ما قلناه".
عن مجاهد، قوله: "{غَيْرُ مَمْنُونٍ}، قال: محسوب".
فقوله (وإن لك لأجرا غير ممنون) أي: بل لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم، فمعنى غير ممنون: أي غير مقطوع.
- **قال الرازي:**... ثم اختلفوا في أن هذا الأجر على أي شيء حصل؟
قال قوم معناه: إن لك على احتمال هذا الطعن والقول القبيح أجرا عظيما دائما.
وقال آخرون: المراد إن لك في إظهار النبوة والمعجزات، في دعاء الخلق إلى الله، وفي بيان الشرع لهم هذا الأجر الخالص الدائم، فلا تمنعك نسبتها إياك إلى الجنون عن الاشتغال بهذا المهم العظيم، فإن لك بسببه المنزلة العالية عند الله.
قال الآلوسي: (وإن لك) بمقابلة مقاساتك ألوان الشدائد من جهتهم وتحملك أعباء الرسالة (لأجرا) لثوابا عظيما لا يقادر قدره (غير ممنون) أي مقطوع مع عظمه أو غير ممنون عليك من جهة الناس فإنه عطائه تعالى بلا واسطة أو من

=

=

جهته تعالى لأنك حبيب الله تعالى وهو ﷻ أكرم الأكرمين ومن شيمة الأكارم أن لا تمنوا بإنعامهم لا سيما إذا كان على أحبابهم.

قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، أي:"وإنك -أيها الرسول- لعلى أدب رفيع جم وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكر لنبيه محمد ﷺ: وإنك يا محمد لعلى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدّبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه".

**قال الزجاج:**"قيل: على الإسلام، وقيل: على القرآن. والمعنى- والله أعلم- أَنت على الخلق الذي أَمرك الله به في القرآن".

**قال ابن كثير:**"ومعنى هذا أنه، عليه السلام، صار امتثالُ القرآن، أمرًا ونهيًا، سجية له، وخلقًا تَطَبَّعَه، وترك طبعه الجِبِلِّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جَبَله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل. كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: «خدمتُ رسولَ اللهِ ﷺ عشر سنين فما قال لي: "أف" قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا ولا مَسسْتُ خزًا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شَمَمْتُ مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عَرَق رسول الله ﷺ» ".

عن مجاهد، قوله: "{خُلُقٍ عَظِيمٍ}، قال: الدين".

عن ابن زيد، قوله: "{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}، قال: على دين عظيم".

عن ابن عباس، قوله: "{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}، يقول: دين عظيم".

قال ابن عباس:"يقول: إنك على دين عظيم، وهو الإسلام".

قال الضحاك:"يعني: دينه، وأمره الذي كان عليه، مما أمره الله به، ووكله إليه".

=

عن قتادة، قال: "سألتُ عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن، تقول: كما هو في القرآن".

قال قتادة:"ذُكر لنا أن سعيد بن هشام سأل عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: قلت: بلى، قالت: فإن خُلُق رسول الله ﷺ كان القرآن".

عن سعيد بن هشام، قال: "أتيت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، فقلت: أخبريني عن خُلُق رسول الله، فقالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم}".

عن جُبير بن نُفَير قال: "حجبت فدخلت على عائشة، فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن".

عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجها، وأحسن الناس خلقًا، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير".

عن عائشة-رضي الله عنها- قالت: "ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله. ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا، فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله، عز وجل".

عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: "إنما بُعِثتُ لأتمم صالح الأخلاق".

- وقال الآلوسي: (وإنك لعلى خلق عظيم) لا يدرك شأوه أحد من الخلق ولذلك تحتمل من جهتهم ما لا يحتمله أمثالك من أولي العزم وفي حديث مسلم وأبي داود والإمام أحمد والدارمي وابن ماجة والنسائي عن سعد بن هشام قال قلت لعائشة رضي الله تعالى عنها يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ قالت ألست تقرأ القرآن قلت بلى قالت فإن خلق نبي الله كان القرآن وأرادت بذلك على ما قيل إن ما فيه من المكارم كله كان فيه ﷺ وما فيه من الزجر عن

سفساف الأخلاق كان منزجرا به عليه الصلاة والسلام لأنه المقصود بالخطاب بالقصد الأول.

(فائدة): الخلق يطلق على معنيين:

**أحدهما**: عام، وهو الدين كله. كما في هذه الآية (وإنك لعلى خلق عظيم) قال مجاهد: أي دين عظيم. والآخر: خاص، وهو المعاشرة والمعاملة بين الخلق والعبد.

- **قال القرطبي**: قوله تعالى (خلق عظيم) قال القرطبي: قيل: سمي خلقه عظيما لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى.

وقيل: سمي خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه؛ يدل عليه قوله عليه السلام: إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق.

وقيل: لأنه امتثل تأديب الله تعالى إياه بقوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقد روي عنه عليه السلام أنه قال (أدبني ربي تأديبا حسنا) إذ قال (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فلما قبلت ذلك منه قال (وإنك لعلى خلق عظيم).

وفي هذا تزكية عظيمة للنبي ﷺ، وقد زكى الله بصره فقال (ما زاغ البصر وما طغى) وزكى لسانه فقال (وما ينطق عن الهوى).

-استحباب تحلي المسلم بالأخلاق الفاضلة اقتداء بالنبي ﷺ، وحسن الخلق له فضائل:

**أولا**: أن النبي ﷺ حصر دعوته في حسن الخلق.

قال ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

**ثانيا**: أن الله أثنى على نبيه بحسن خلقه.

كما في هذه الآية (وإنك لعلى خلق عظيم).

**ثالثا:** كان النبي ﷺ يدعو الله أن يهديه لأحسن الأخلاق.
قال ﷺ: (اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت) رواه مسلم.
**رابعا:** أن من حسن خلقه أحبه الرسول ﷺ.
قال ﷺ: (إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا) رواه البخاري.
**خامسا:** أمر النبي ﷺ بحسن الخلق.
قال ﷺ: (... وخالق الناس بخلق حسن) رواه الترمذي.
**سادسا:** حسن الخلق أثقل شيء في الميزان.
قال ﷺ: (ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق) رواه أبو داود.
**سابعا:** حسن الخلق يدل على كمال الإيمان.
قال ﷺ: (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا) رواد أبو داود.
**ثامنا:** أن حسن الخلق من أسباب دخول الجنة.
قوله تعالى: {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ} [القلم: ٥]، أي:"فسوف ترى يا محمد، ويرى قومك ومخالفوك كافر مكة إذا نزل به العذاب".
**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: فسترى يا محمد، ويرى مشركو قومك الذين يدعونك مجنونا".
قال مقاتل:"يعني: سترى يا محمد ويرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر".
قال الضحاك:"يقول: ترى ويرون".
قوله تعالى: {بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ} [القلم: ٦]، أي:"في أيكم الفتنة والجنون".
وفي قوله تعالى: {بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ} [القلم: ٦]، وجوه من التفسير:
**أحدها:** يعني: بأيكم الجنون، قاله ابن عباس، والضحاك.
قال ابن عباس:"بأيكم الجنون".

=

وروي عن مجاهد: "{بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ}، قال: المجنون". وفي رواية:"بأيكم المجنون".

قال مقاتل:"يعني: المجنون، فهذا وعيد، العذاب ببدر، القتل وضرب الملائكة الوجوه والأدبار".

**قال الفراء:**"المفتون -هاهنا- بمعنى: الجنون، وهو فِي مذهب الفتون، كما قالوا: ليس له معقول رأى، وإن شئت جعلته بأيكم: فِي أيكم أي: فِي أي الفريقين المجنون، فهو حينئذ اسم ليس بمصدر".

**قال الزمخشري:**"{الْمَفْتُونُ}: المجنون، لأنه فتن: أى محن بالجنون. أو لأن العرب يزعمون أنه من تخبيل الجن، وهم الفتان للفتاك منهم، والباء مزيدة. أو المفتون مصدر كالمعقول والمجلود، أي: بأيكم الجنون. أو بأى الفريقين منكم الجنون «١»، أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين؟ أي: في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم:

وهو تعريض بأبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما، وهذا كقوله تعالى: {سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ}".

**الثاني**: الضال، قاله الحسن.

**الثالث**: الشيطان، قاله مجاهد.

عن مجاهد، قوله: "{بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ}، قال: الشيطان".

**الرابع**: أيكم أولى بالشيطان. قاله قتادة.

**الخامس**: المعذب، من قول العرب: فتنت الذهب بالنار إذا أحميته، ومنه قوله تعالى: {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} [الذاريات: ١٣]، أي: يعذبون. حكاه الماوردي.

**قال الطبري:**"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معنى ذلك:

=

=

بأيكم الجنون، ووجه المفتون إلى الفتون بمعنى المصدر، لأن ذلك أظهر معاني الكلام، إذا لم ينو إسقاط الباء، وجعلنا لدخولها وجها مفهوما".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ} [القلم: ٧]، أي:"إن ربك- سبحانه- هو أعلم بالشقي المنحرف عن دين الله وطريق الهدى".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: إن ربك يا محمد هو أعلم بمن ضل عن سبيله، كضلال كفار قريش عن دين الله، وطريق الهدى".

**قال الزمخشري:**"{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ} بالمجانين على الحقيقة، وهم الذين ضلوا عن سبيله".

قوله تعالى: {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القلم: ٧]، أي:"وهو أعلم بالتقي المهتدي إلى دين الحق".

**قال الطبري:**"يقول: وهو أعلم بمن اهتدى، فاتبع الحقّ، وأقرّ به، كما اهتديت أنت فاتبعت الحقّ، وهذا من معاريض الكلام. وإنما معنى الكلام: إن ربك هو أعلم يا محمد بك، وأنت المهتدي وبقومك من كفار قريش وانهم الضالون عن سبيل الحقّ".

**قال الزمخشري:**"{وَهُوَ أَعْلَمُ} بالعقلاء وهم المهتدون. أو يكون وعيدا ووعدا، وأنه أعلم بجزاء الفريقين".

قال الكرماني -في الآية-:"أي: سيميز بعضهم عن بعض في الآخرة".

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى: {ن والقلم وما يسطرون (١) ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢)} [القلم: ١- ٢].

الصحيح أن "ن" و"ق" و"ص" من حروف الهجاء التي يفتتح الرب- سبحانه- بها بعض السور، وهي: أحادية، وثنائية، وثلاثية، ورباعية، وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر -قط- في أول سورة إلا وعقبها يذكر القرآن؛ إما مقسما به،

=

=

وإما مخبرا عنه، ما خلا سورتين: سورة "كهيعص"، و"ن". كقوله تعالى: {الم (١) ذلك الكتاب} [البقرة: ١- ٢]، {الم (١) الله لا إله إلا هو الحي القيوم (٢) نزل عليك الكتاب بالحق} [آل عمران: ١- ٣]، {المص (١) كتاب أنزل إليك} [الأعراف: ١- ٢]، {المر تلك آيات الكتاب} [الرعد: ١]، وهكذا إلى آخرها.

ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالتها؛ إذ هي مباني كلامه، وكتبه التي تكلم- سبحانه- بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده، وعرفهم بواسطتها نفسه، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، ووعده، ووعيده، وعرفهم بها الخير والشر، والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم، بأسهل طريق، وأقله كلفة ومشقة، وأوصله إلى المقصود، وأدله عليه، وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته.

ولهذا عاب- سبحانه- على من عبد إلها لا يتكلم، وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالكلام. فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه، فهي أولى أن يقسم بها من الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والنجوم، وغيرها من المخلوقات، فهي دالة- أظهر دلالة- على وحدانيته، وقدرته، وحكمته، وكماله، وكلامه، وصدق رسله.

وقد جمع- سبحانه- بين الأمرين- أعني: القرآن، ونطق الإنسان- وجعل تعليمهما من تمام نعمته وامتنانه، كما قال تعالى: {الرحمن (١) علم القرآن (٢) خلق الإنسان (٣) علمه البيان (٤)} [الرحمن: ١- ٤]، فبهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها تميز الحق من الباطل، والصحيح من الفاسد،

=

=

وبها جمعت أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان؛ وكم جلب بها من نعمة، ودفع بها من نقمة، وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدي بها من ضلال، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل!

فآياته- سبحانه- في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان، ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت ... تلك الفضائل في لحم ولا عصب

فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة "الرئة"، فينضم في "الحلقوم"، ثم ينفرش في أقصى "الحلق"، ووسطه، وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط "اللسان"، وأطرافه، وبين "الثنايا"، وفي "الشفتين"، و"الخيشوم"، فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له؛ فإذا هو: "حروف".

فألهم- سبحانه- الإنسان نظم بعضها إلى بعض، فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها، ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض فإذا هي كلام دال على أنواع المعاني: أمرا، ونهيا، وخبرا، واستخبارا، ونفيا، وإثباتا، وإقرارا، وإنكارا، وتصديقا، وتكذيبا، وإيجابا، واستحبابا، وسؤالا، وجوابا، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب: نظمه، ونثره، ووجيزه، ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق. كل ذلك صنعته تبارك وتعالى في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره، جار في مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم لتأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين، فهذا شأن الحرف المخلوق.

وأما الحرف الذي تكون به المخلوقات فشأنه أعلى وأجل، وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور كما افتتحت بالأقسام؛ لما فيها من آيات الربوبية، وأدلة الوحدانية. فهي دالة على كمال قدرته سبحانه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال رحمته، وعنايته بخلقه، ولطفه، وإحسانه.

=

=

وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدللت بها على المبدأ، والمعاد، والخلق، والأمر، والتوحيد، والرسالة؛ فهي من أظهر أدلة شهادة "أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله"، وأن القرآن كلام الله، تكلم به حقا، وأنزله على رسوله وحيا، وبلغه كما أوحي إليه صدقا. ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف، واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها. وبالله التوفيق.

فصل: ثم أقسم- سبحانه- بـ "القلم وما يسطرون"، فأقسم بالكتاب وآلته وهو "القلم" الذي هو إحدى آياته، وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد؛ فوطدت به الممالك، وأمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه، وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظا تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيبا يبريء- بإذن بارئه- من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تدبر الأقاليم، وتساس الممالك.

و"القلم" لسان الضمير، يناجيه بما استتر عن الأسماع، فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشي المرقوم، ويودعها حكمه فتصير موارد الفهوم، والأقلام نظاما للأفهام.

وكما أن "اللسان" بريد "القلب" فـ "القلم" بريد "اللسان"، وتولد الحروف المسموعة عن "اللسان" كتولد الحروف المكتوبة عن "القلم"، و"القلم" بريد "القلب"، ورسوله، وترجمانه، ولسانه الصامت.

فصل: والأقلام متفاوتة في الرتب، فأعلاها وأجلها قدرا: قلم القدر السابق؛ الذي كتب الله به مقادير الخلائق، كما في "سنن أبي داود" عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب،

=

=

قال: يا رب؛ وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة".
واختلف العلماء: هل "القلم" أول المخلوقات أو "العرش"؟ على قولين، ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمذاني، أصحهما أن "العرش" قبل "القلم"؛ لما ثبت في "الصحيح" من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: "قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء". فهذا صريح في أن التقدير وقع بعد خلق "العرش"، والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا.
ولا يخلو قوله: "إن أول ما خلق الله القلم"... إلى آخره؛ إما أن يكون جملة أو جملتين:
فإن كان جملة- وهو الصحيح- كان معناه: أنه عند أول خلقه قال له: "اكتب"، كما في اللفظ [الآخر]: "أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب" بنصب "أول"، و"القلم".
وإن كان جملتين- وهو مروي برفع "أول" و"القلم"- فيتعين حمله على أنه أول [الـ] ـمخلوقات من هذا العالم، ليتفق الحديثان؛ إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن "العرش" سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: "لما خلق الله القلم قال له: اكتب".
فهذا "القلم" أول الأقلام، وأفضلها، وأجلها. وقد قال غير واحد من أهل التفسير إنه "القلم" الذي أقسم الله- تعالى- به.
فصل: القلم الثاني: قلم الوحي، وهو الذي يكتب به وحي الله ﷻ إلى أنبيائه ورسله.
وأصحاب هذا "القلم" هم الحكام على العالم، والعالم خدم لهم، وإليهم الحل والعقد، والأقلام كلها خدم لأقلامهم.

=

=

وقد رفع النبي ﷺ ليلة أسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام. فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي.

فصل: والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله، وهو قلم الفقهاء والمفتين.

وهذا "القلم"- أيضا- حاكم غير محكوم عليه، فإليه التحاكم في الدماء، والأموال، والفروج، والحقوق. وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده، وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام، وأقلام العالم خدم لهذا "القلم".

فصل: القلم الرابع: قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها به صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها.

وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان، وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة.

فصل: القلم الخامس: قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم

، وبه تساس الممالك، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام، المشاركون للملوك في تدبير الدول، فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة، وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

فصل: القلم السادس: قلم الحساب، وهو "القلم" الذي تضبط به الأموال، مستخرجها، ومصروفها، ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل، الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب. ومبناه على الصدق والعدل، فإذا كذب هذا "القلم" وظلم فسد أمر المملكة.

فصل: القلم السابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية، فترد إلى اليد المحقة،

=

=

وتثبت به الأنساب، وتنقطع به الخصومات.

وبين هذا "القلم" وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص، فهذا له النفوذ واللزوم، وذاك له العموم والشمول، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

فصل: القلم الثامن: قلم الشهادة، وهو "القلم" الذي تحفظ به الحقوق، وتصان عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويشهد للمحق بحقه، وعلى المبطل بباطله. وهو الأمين على الدماء، والفروج، والأموال، والأنساب، والحقوق، ومتى خان هذا القلم فسد أمر العالم أعظم فساد، وباستقامته يستقيم أمر العالم، ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

فصل: القلم التاسع: قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام، وتفسيره، وتعبيره، وما أريد به. وهو قلم شريف جليل، مترجم للوحي المنامي، كاشف له. وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته، وأمانته، وتحريه للصدق، وللطرائق الحميدة، والمناهج السديدة، مع علم راسخ، وصفاء باطن، وحس مؤيد بالنور الإلهي، ومعرفة بأحوال الخلق، وهيئاتهم، وسيرهم.

وهو من ألطف الأقلام، وأعمها جولانا، وأوسعها تصرفا، وأشدها تشبثا بسائر الموجودات: علويها وسفليها، وبالماضي والحال والمستقبل.

فتصرف هذا "القلم" في المنام هو محل ولايته، وكرسي مملكته وسلطانه.

فصل: القلم العاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه. وهو "القلم" الذي تضبط به الحوادث، وتنقل من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال، وينقشه في النفس، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده، فهو قلم المعاد الروحاني.

وهذا "القلم" قلم العجائب؛ فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال، فتراه بقلبك،

=

=

وتشاهده ببصيرتك.

فصل: القلم الحادي عشر: قلم اللغة وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها المفردة، ونحوها، وتصريفها، وأسرار تراكيبها، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها، وأنواع دلالاتها على المعاني، وكيفية الدلالة.

وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ، وأعذبها، وأسهلها، وأوضحها.

وهذا "القلم" واسع التصرف جدا بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها.

فصل: القلم الثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين

، ورفع سنة المحقين، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم، وتهافتهم، وخروجهم عن الحق، ودخولهم في الباطل.

وهذا "القلم" في الأقلام نظير الملوك في الأنام، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم، وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال. وأصحاب هذا "القلم" حرب لكل مبطل، عدو لكل مخالف للرسل. فهم في شأن، وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن.

فهذه الأقلام التي بها انتظام مصالح العالم.

ويكفي في جلالة "القلم" أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأن الله- سبحانه- أقسم به في كتابه، وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة "القلم". ولقد أبدع أبو تمام إذ يقول في وصفه:

لك القلم الماضي الذي بشباته ... تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

له ريقة طل، ولكن وقعها ... بآثاره في الغرب والشرق وابل

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه ... وأري الجنى اشتارته أيد عواسل

=

=

له الخلوات اللاء لولا نجيها ... لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا، وتقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت ... أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخنصران وشددت ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ... ضنى، وسمينا خطبه وهو هازل

فصل: والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله ﷺ عما يقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: {ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢)} [القلم: ٢].

وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالا عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون، ولا تصدر إلا ممن له عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم! بل العلوم التي تضمنها ليس في قوى البشر الإتيان بها، ولاسيما من أمي لا يقرأ كتابا، ولا يخطه بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة، سليما من الاختلاف، بريا من التناقض، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله، ولو كانوا على عقل رجل واحد منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان، وأظهر الإفك.

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم به عليه، ودلالته عليه أتم دلالة.

ولو أن رجلا أنشأ رسالة واحدة بديعة، منتظمة الأول والآخر، متساوية الأجزاء، يصدق بعضها بعضا، أو قال قصيدة كذلك، أو صنف كتابا كذلك؛ لشهد له

=

=

العقلاء بالعقل، ولما استجاز أحد رميه بالجنون، مع إمكان- بل وقوع- معارضتها، ومشاكلتها، والإتيان بمثلها أو أحسن منها، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم- قاطبة- عن معارضته ومماثلته، وعرفهم من الحق ما لا تهتدي إليه عقولهم، بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الألباء، وتلاشت في جنب ما جاء به، بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والإذعان طائعة مختارة، وهي ترى عقولها أشد فقرا وحاجة إلى ما جاء به، ولا كمال لها إلا بما جاء به؟! فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي.

ولهذا أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق، وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في جميع الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها. ويكفي في عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل، والقلوب بالإيمان والتقوى. فكيف يكون متبوعهم مجنونا وهذا حال كتابه، وهديه، وسيرته، وحال أتباعه؟!

وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم، فنفى عنه الجنون بنعمته عليه.

وقد اختلف في تقدير الآية:

فقالت فرقة: "الباء" في {بنعمة ربك} باء القسم، فهو قسم آخر اعترض بين المحكوم به والمحكوم عليه، كما تقول: ما أنت بالله بكاذب.

وهذا التقدير ضعيف جدا؛ لأنه قد تقدم القسم الأول، فكيف يقع القسم الثاني في جوابه؟! ولا يحسن أن تقول: والله ما أنت بالله بقائم، وليس هذا من فصيح الكلام، ولا عهد به في كلامهم.

وقالت فرقة: العامل في {بنعمة ربك} أداة معنى النفي، أو معنى: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك.

=

=

ورد أبو عمرو بن الحاجب وغيره هذا القول بأن الحروف لا تعمل معانيها، وإنما تعمل ألفاظها.

وقال الزمخشري: "يتعلق بـ "مجنون" منفيا، كما يتعلق بعاقل مثبتا في قولك: أنت بنعمة الله عاقل، مستويا في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمرا، وما ضرب زيد عمرا، تعمل الفعل مثبتا ومنفيا إعمالا واحدا، ومحله النصب على الحال، أي: ما أنت بمجنون منعما عليك بذلك. ولم تمنع "الباء" أن يعمل (مجنون) فيما قبله؛ لأنها زائدة لتأكيد النفي".

واعترض عليه بأن النفي إذا تسلط على محكوم به، وله معمول، فإنه يجوز فيه وجهان:

**أحدهما**: نفي ذلك المعمول فقط، نحو قولك: ما زيد بذاهب مسرعا، فإنه ينتفي الإسراع دون القيام، ولا يمتنع أن يثبت له ذهاب في غير إسراع.

والثاني: نفي المحكوم به، فينتفي معموله بانتفائه، فينتفي "الذهاب" في هذا الحال، فينتفي الإسراع بانتفائه.

فإذا جعل {بنعمة ربك} معمولا لـ "مجنون" لزم أحد الأمرين، وكلاهما منتف جزما.

وهذا الاعتراض- هنا- فاسد؛ لأن المعنى إذا جعل "ما أنت بمجنون منعما عليك" لزم من صدق هذا الخبر نفيهما قطعا، ولا يصح نفي المعمول وثبوت العامل في هذا الكلام، ولا يفهمه منه من له آلة الفهم، وإنما يفهم الآدمي من هذا الكلام أن الجنون انتفى عنك بنعمة الله عليك، وانتفى عنا ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا.

ثم أخبر- سبحانه- عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وأخراه فقال تعالى: {وإن لك لأجرا غير ممنون (٣)} [القلم: ٣]، أي: غير مقطوع، بل هو دائم مستمر.

=

=

ونكر الأجر تنكير تعظيم، كما قال تعالى: {إن في ذلك لعبرة} [النور: ٤٤]، و {إن في ذلك لآية} [البقرة: ٢٤٨]، و {إن في ذلك لذكرى} [الزمر: ٢١]، و {إن للمتقين مفازا (٣١)} [النبأ: ٣١]، و {وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب (٢٥)} [ص: ٢٥]، وهو كثير، وإنما كان التنكير للتعظيم؛ لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف، ولا يناله التعبير.

ثم قال تعالى: {وإنك لعلى خلق عظيم (٤)} [القلم: ٤]، وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته، لمن منحه الله فهمها. ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه ﷺ، فأجابت بما شفى وكفى، فقالت: "كان خلقه القرآن"، فهم سائلها أن يقوم ولا يسألها شيئا بعد ذلك.

وقال ابن عباس وغيره: "أي: على دين عظيم".

وسمى "الدين" خلقا؛ لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة، وإرادات زاكية، وأعمال- ظاهرة وباطنة- موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقا هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها.

فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن، فكان كلامه مطابقا للقرآن؛ تفصيلا له وتبيينا، وعلومه علوم القرآن، وإراداته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، وتبليغه، والجهاد في إقامته.

فترجمت أم المؤمنين- لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ، وحسن تعبيرها- عن هذا كله بقولها: "كان خلقه القرآن"، وفهم السائل عنها هذا المعنى، فاكتفى به واشتفى.

=

=

وإذا كانت أخلاق العباد، وعلومهم، وإراداتهم، وأعمالهم مستفادة من "القلم" وما يسطرون، وكان في خلق "القلم" والكتابة إنعاما عليهم، وإحسانا إليهم، إذ وصلوا به إلى ذلك، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى الأخلاق، وأفضل العلوم، والأعمال، والإرادات، التي لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة؟! فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته، وشواهد صدق رسالته؟! وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون، هو أم هم؟ وقد علموا- هم والعقلاء- ذلك في الدنيا، ويزداد علمهم به في البرزخ، وينكشف ويظهر كل الظهور في الآخرة، بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به.

وقد اختلف في تقدير قوله: {بأيكم المفتون (٦)}:

فقال أبو عثمان المازني: هو كلام مستأنف، و"المفتون" عنده مصدر، أي: بأيكم الفتنة. والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعا، فتعين حصوله للآخر.

والجمهور على خلاف هذا التقدير، وهو عندهم متصل بما قبله، ثم لهم فيه أربعة أوجه:

**أحدها**: أن "الباء" زائدة، والمعنى: أيكم المفتون. وزيدت في المبتدأ كما زيدت في قولك: بحسبك أن تفعل. قاله أبو عبيدة.

**الثاني**: أن "المفتون" بمعنى: الفتنة، أي: ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة، و"الباء" على هذا ليست بزائدة. قاله الأخفش.

**الثالث**: أن "المفتون" مفعول على بابه، ولكن هنا مضاف محذوف تقديره: بأيكم فتون المفتون، وليست "الباء" زائدة. قاله الأخفش أيضا.

**الرابع**: أن "الباء" بمعنى "في"، والتقدير: في أي فريق منكم النوع المفتون، و"الباء" على هذا ظرفية.

=

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨).

{فلا تطع المكذبين}.

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)

{وَدُّوا} تَمَنَّوْا {لَوْ} مَصْدَرِيَّة {تُدْهِن} تَلِينَ لَهُمْ {فَيُدْهِنُونَ} يَلِينُونَ لَك وَهُوَ مَعْطُوف عَلَى تُدْهِن وَإِنْ جَعَلَ جَوَاب التَّمَنِّي الْمَفْهُوم مِنْ وَدُّوا قَدْر قَبْله بَعْد الْفَاء هُمْ

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠).

{وَلَا تُطِعْ كُلّ حَلَّاف} كَثِير الْحَلِف بِالْبَاطِلِ {مهين} حقير.

هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١).

{هماز} غياب أي مغتاب {مشاء بنميم} سَاعٍ بِالْكَلَامِ بَيْن النَّاس عَلَى وَجْه الْإِفْسَاد بينهم.

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢).

{مَنَّاع لِلْخَيْرِ} بَخِيل بِالْمَالِ عَنْ الْحُقُوق {مُعْتَدٍ} ظَالِم {أَثِيم} آثِم.

عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣).

{عُتُلّ} غَلِيظ جَافٍ {بَعْد ذَلِكَ زَنِيم} دُعِيَ فِي قُرَيْش وَهُوَ الْوَلِيد بْن الْمُغِيرَة ادَّعَاهُ أبوه بعد ثماني عشرة سنة قال بن عَبَّاس لَا نَعْلَم أَنَّ الله وَصَفَ أَحَدًا بِمَا

---

=

وهذه الأقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه، و {فستبصر} مضمن معنى: تشعر وتعلم، فعدي بـ "الباء"، كما تقول: ستشعر بكذا، وتعلم به. قال تعالى: {ألم يعلم بأن الله يرى (١٤)} [العلق: ١٤]، وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد.

وَصَفَهُ بِهِ مِنْ الْعُيُوب فَأَلْحَقَ بِهِ عَارًا لَا يُفَارِقهُ أَبَدًا وَتَعَلَّقَ بِزَنِيمٍ الظَّرْف قبله.

أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤).

{أَنْ كَانَ ذَا مَال وَبَنِينَ} أَيْ لِأَنَّ وَهُوَ مُتَعَلِّق بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ.

إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥).

{إذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتنَا} الْقُرْآن {قَالَ} هِيَ {أَسَاطِير الْأَوَّلِينَ} أَيْ كَذَّبَ بِهَا لِإِنْعَامِنَا عَلَيْهِ بِمَا ذُكِرَ وَفِي قِرَاءَة أَأَنْ بِهَمْزَتَيْنِ مَفْتُوحَتَيْنِ.

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦).

{سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُوم} سَنَجْعَلُ عَلَى أَنْفه عَلَامَة يُعَيَّر بِهَا مَا عَاشَ فَخُطِمَ أَنْفه بِالسَّيْفِ يوم بدر[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: {عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)}؛ قال: رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٩١٧).

وعن السدي في قوله -تعالى-: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠)}؛ قال: نزلت في الأخنس بن شريق.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢١٨)، و"الدر المنثور" (٨/ ٢٤٨) ونسبه لابن أبي حاتم.

وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وذكر أن ابن المنذر أخرج عن الكلبي نحوه. والكلبي كذاب، ورأينا عبد الرزاق قد أخرجه في "تفسيره" (٢/ ٣٠٨)، والطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ١٥) عن معمر عنه به. ونسبه في "الدر المنثور" (٨/ ٢٤٨) لهما.

=

=

وعن مجاهد؛ قال: هو الأسود بن عبد يغوث.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢٤٨)، و"لباب النقول" (ص ٢١٨) ونسبه لابن أبي حاتم.

وهذا مرسل.

وعن أبي عثمان النهدي؛ قال: قال مروان بن الحكم لما بايع الناس ليزيد: سنة أبي بكر وعمر؛ فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: إنها ليست بسنة أبي بكر وعمر، ولكنها سنة هرقل، فقال مروان: هذا الذي أنزلت فيه: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا} [الأحقاف: ١٧]، قال: فَسَمِعَتْ ذلك عائشة، فقالت: إنها لم تنزل في عبد الرحمن، ولكن نزلت في أبيك: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (١/ ٢٤٦) ونسبه لابن مردويه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ يعني: الأسود بن عبد يغوث.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" ونسبه لابن مردويه. وهو عند الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٢٤٨) بنحوه، وسنده ضعيف جدًا؛ لأنه مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن الشعبي؛ قال: هو رجل من ثقيف يقال له: الأخنس بن شريق.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" ونسبه لعبد بن حميد.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ}؛ قال: نزل على النبي ﷺ: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١)}، قال: فلم نعرفه حتى نزل على النبي ﷺ: {بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ}، قال: فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٩/ ١٧): ثنا الحسين بن علي الصدائي ثنا علي بن عاصم ثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس به. وعلي بن

=

=

عاصم؛ صدوق يخطئ ويصر.

* قوله تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ} [القلم: ٧].

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {فَلا تُطِعِ} يا محمد {الْمُكَذِّبِينَ} بآيات الله ورسوله".

**قال الزمخشري**:"تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم، وكانوا قد أرادوه على أن يعبد الله مدة، وآلهتهم مدة، ويكفوا عنه غوائلهم".

(فلا تطع المكذبين) أي: فلا تطع رؤساء الكفر والضلال الذين كذبوا برسالتك وبالقرآن.

- قال ابن الجوزي: وذلك أن رؤساء أهل مكة دعوه إلى دين آبائه فنهاه الله أن يطيعهم.

- وقال الرازي: اعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمر الرسول ونسبته إلى الجنون مع الذي أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق، أتبعه بما يدعوه إلى التشدد مع قومه وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال (فلا تطع المكذبين) يعني رؤساء أهل مكة، وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائه فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله إلهاب وتهييج التشدد في مخالفتهم.

- وقد نهاه الله عن طاعتهم في مواضع:

قال تعالى (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما).

وقال تعالى (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا).

وقال تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا).

=

=

قوله تعالى: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم: ٩]

وفي تفسير الآية، أقوال:

**أحدها**: معناه: ودوا لو تكفر فيكفرون، قاله ابن عباس، والضحاك، وسفيان، والسدي.

قال مقاتل:"يقول: ودوا لو تكفر يا محمد فيكفرون فلا يؤمنون".

**قال الفراء**:"أي: فيتبعونك عَلَى الكفر".

**الثاني**: ودوا لو تلينُ فِي دينك، فيلينون فِي دينهم، قاله الكلبي، والفراء، وابن قتيبة.

**قال الزمخشري**: أي: "لو تلين وتصانع {فَيُدْهِنُونَ}".

قال ابن قتيبة:"وكانوا أرادوه على أن يعبد آلهتَهم مدة، ويعبدوا الله مدة".

**الثالث**: ودُّوا لو تصانعهم دينك فيصانعون في دينهم. قاله الحسن، والزجاج.

**الرابع**: لو تَرْكَن إلى آلهتهم، وتترك ما أنت عليه من الحقّ فيمالئونك. قاله مجاهد.

روي عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: "{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا} [هود: ١١٣]، قال: لا تركنوا إلى المشركين فتمسكم النار. قال: الإركان: الإدهان، وقرأ: {تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}، قال: تركن إليهم ولا تنكر عليهم الذي قالوا، والركون: أن يقوله بما قال الإدهان".

**الخامس**: لو تكذب فيكذبون، قاله الربيع بن أنس، والعوفي.

**السادس**: لو تنافق وترائي فينافقون. قاله زيد بم أسلم، وأبو عمر.

قال السجستاني:"يقال: أدهن الرجل في دينه وداهن إذا كان منافقا، وأظهر خلاف ما أضمر".

السابع: لو تحابهم فيحابوك. قاله أبان ابن تغلب.

=

=

الثامن: لو ترخص لهم فيرخصون لك، قاله ابن عباس -أيضا-.

قال النحاس: والمعنى على هذا: ودّوا لو تلين لهم فلا تنكر عليهم الكفر والمعاصي فيلينون لك وينافقونك ويجترءون على المعاصي، وفي اللين في مثل هذا فساد الدين، وهو مأخوذ من الدّهن شبّه التليّن به".

التاسع: لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم. قاله الحسن.

العاشر: لو تقاربهم فيقاربوك. قاله ابن كيسان.

الحادي عشر: أن تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك، وهو معنى قول قتادة.

قال قتادة:"يقول: ودّوا يا محمد لو أدهنت عن هذا الأمر، فأدهنوا معك". وفي رواية:"ودّوا لو يُدهن رسول الله ﷺ فيُدْهنون".

**قال الطبري**:"الصواب قول من قال: معنى ذلك: ودّ هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم، فيلينون لك في عبادتك إلهك، كما قال جلّ ثناؤه: {وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلا إِذًا لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ} وإنما هو مأخوذ من الدُّهن شبه التليين في القول بتليين الدُّهن".

**قال الماتريدي**: المعنى:"هو أنك لو تركت ذكر آلهتهم بسوء، ولم تسفه أحلامهم؛ لامتنعوا هم أيضًا عما هم عليه من نسبتهم إياك إلى الجنون والسحر والكذب وغير ذلك، ولكنه كان يذكرهم بما يذكرهم وهو في ذلك محق، وهم كانوا يذكرونه بما قالوا بالباطل والزور؛ فيكون قوله: {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ} فيما يدعونك إلى المداهنة، ثم هم لو داهنوا كانوا في مداهنتهم محقين، فإذا تركوا ذلك فقد تركوا الحق الذي كان عليهم، ورسول الله ﷺ لو داهنهم، لم يكن في مداهنتهم محقًّا؛ فلذلك نهي عن المداهنة".

قال سيبويه: "زعم هرون أنها في بعض المصاحف: «ودوا لو تدهن فيدهنوا»".

=

=

وفي أصل «المداهنة»، وجهان:

**أحدهما**: مجاملة العدو وممايلته، قال الشاعر:

**لبَعْضُ الغَشْم أحزْم أمورٍ... تَنوبُك مِن مداهنةِ العدُوِّ.**

**الثاني**: أنها النفاق وترك المناصحة، قاله المفضل، فهي على هذا الوجه مذمومة، وعلى الوجه الأول غير مذمومة.

قوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ} [القلم: ١٠]، أي:"ولا تطع -أيها الرسول- كلَّ إنسانٍ كثير الحلف كذاب حقير".

**قال الطبري**: يقول:"ولا تطع يا محمد كلّ ذي إكثار للحلف بالباطل؛ وهو الضعيف".

قال مقاتل:"يعنى: الوليد ابن المغيرة المخزومي، يقول، كان تاجرا ضعيف القلب، وذلك أنه كان عرض على النبي- ﷺ- المال على أن يرجع عن دينه وذلك قوله- تعالى-: {وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}، يعنى: الوليد وعتبة".

**قال السدي**:"نزلت في الأخنس بن شريق".

قال مجاهد: هو الأسود بن عبد يغوث".

**قال الفراء**:"المهين-هاهنا-: الفاجر".

عن ابن عباس: "{وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ}، والمهين: الكذاب".

عن مجاهد، قوله: "{حَلافٍ مَهِينٍ}، قال: ضعيف".

قال الثعلبي:"الرجل إنّما يكذّب لمهانة نفسه عليه".

قال قتادة:"وهو المكثار في الشرّ".

عن الحسن وقتادة: "{وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ}، قال: هو المكثار في الشرّ".

قال الحسن:"يقول: كلّ مكثار في الحلف مهين ضعيف".

(ولا تطع كل حلاف) أي: لا تطع يا محمد كثير الحلف بالحق والباطل.

=

=

وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ومثله قوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم).

ونهاه عن ذلك لأمور:

**أولا**: لأن ذلك يدل على الاجتراء على الله.

وثانيا: ولأنه استهانة بأسمائه وصفاته.

**ثالثا**: وهو من صفات المنافقين كما قال تعالى (اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله).

- **قال ابن عاشور**: والحلاف: المكثر من الأيمان على وعوده وأخباره، وأحسب أنه أريد به الكناية عن عدم المبالاة بالكذب وبالأيمان الفاجرة فجعلت صيغة المبالغة كناية عن تعمد الحنث، وإلا لم يكن ذمه بهذه المثابة.

(مهين) حقير فاجر.

قوله تعالى: {هَمَّازٍ} [القلم: ١١]، أي:"مغتاب للناس".

قال مقاتل:"يعنى: مغتاب".

**قال الفراء**:"الهماز: الذي يهمز الناس".

**قال الطبري**:"يعني: مغتاب للناس يأكل لحومهم".

**قال السعدي**:"أي: كثير العيب للناس والطعن فيهم بالغيبة والاستهزاء، وغير ذلك".

عن ابن عباس، قوله: "{هَمَّازٍ}، يعني: الاغتياب".

عن قتادة: "{هَمَّازٍ}، يأكل لحوم المسلمين".

قال ابن زيد:"الهماز: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، وليس باللسان وقرأ: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} الذي يلمز الناس بلسانه".

قوله تعالى: {مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} [القلم: ١١]، أي:"يمشي بين الناس بالنميمة، وينقل

=

=

حديث بعضهم إلى بعض على وجه الإفساد بينهم".

قال مقاتل:"كان يمشي بالنميمة".

**قال الطبري**:"يقول: مشاء بحديث الناس بعضهم في بعض، ينقل حديث بعضهم إلى بعض".

**قال السعدي**:"أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهي: نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء".

قال قتادة:"ينقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض".

قال ابن عباس:"يمشي بالكذب".

قال الكلبي:"هو الأخنس بن شريق، وأصله من ثقيف، وعداده في بني زُهْرة".

والغيبة عرفها النبي ﷺ حينما قال (ذكرك أخاك بما يكره) وهي حرام ومن كبائر الذنوب.

ويدل على تحريمها: قوله تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه).

وهذا التشبيه التمثيلي من أروع الأساليب القرآنية وأشدها تأثيرا في نفس المكلف، ولهذا التشبيه أوجه عدة بين المشبه والمشبه به:

أولها: أن الذي يغتاب لا يعلم أن أخاه يغتابه تماما، كما أن الميت لا يعلم من يأكل لحمه.

ثانيها: أن الذي يغتاب أخاه الحي قد هتك حرمة أخيه تماما كما أن آكل لحم أخيه ميتا قد هتك حرمته.

ثالثها: أن الغيبة أمر مستقذر في الطبائع السليمة تماما كما أن أكل لحم الميت أمر مستقذر طبعا.

قال تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك

=

=

كان عنه مسؤولا).

وقال تعالى: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت) متفق عليه.

وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين فخذيه أضمن له الجنة) متفق عليه.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب). متفق عليه.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا- قال بعض الرواة: يعني قصيرة- فقال: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته). رواه أبو داود

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم). رواه أبو داود

وعن أبي موسى. قال: قال رسول الله ﷺ (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله). رواه مسلم

وقال ﷺ (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه...).

- كيفية التخلص من الغيبة؟

**أولا**: تذكر أن الغيبة تذهب الحسنات وتجعلك فقيرا يوم القيامة.

كما قال ﷺ (أتدرون ما المفلس. قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

=

=

فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار) متفق عليه.

**ثانيا**: عدم الجلوس مع الغيبة وكثرة الكلام.

قال الزهري: إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب.

- من أقوال السلف:

- قال وهب: نذرت أني كلما اغتبت إنسان أن أصوم يوما فأجهدني، فكنت أغتاب وأصوم فنويت أني كلما اغتبت إنسانا أن أتصدق بدرهم، فمن حب الدراهم تركت الغيبة.

- وقال يحيي بن معاذ: ليكن حظ المؤمن منك ثلاثا: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

اغتاب رجل عند معروف الكرخي فقال له: اذكر القطن إذا وضع على عينيك.

- وقيل للربيع: ما نراك تغتاب أحدا؟ قال: لست عن نفسي راضيا فأتفرغ لذم الناس.

- وقال ابن المبارك: لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت والدي لأنهما أحق بحسناتي.

- من أقوال السلف في حفظ اللسان:

- قال يونس بن عبيد: خصلتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما: صلاته ولسانه.

- وقال الحسن بن صالح: فتشت الورع، فلم أجده في شيء أقل من اللسان.

- وقال الحسن: اللسان أمير البدن، فإذا جنى على الأعضاء شيئا جنت، وإذا عفا عفت.

=

=

- وقال عمرو بن العاص: الكلام كالدواء، إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه قتل.

وقيل: الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإذا تكلم بها صار في وثاقها.

قال الشاعر:

**احفظ لسانك أيها الإنسان... لا يلدغنك إنه ثعبان**

**كم في المقابر من قتيل لسانه... كانت تهاب لقاءه الشجعان**

(مشاء بنميم) أي: يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم.

والنمام الذي ينقل الكلام بين الناس من أجل الإفساد بينهم.

وهي محرمة ومن كبائر الذنوب. ولها عقوبات:

لا يدخل الجنة صاحبها.

لحديث حذيفة. قال: قال ﷺ (لا يدخل الجنة نمام) متفق عليه.

ومن أسباب عذاب القبر.

كما في حديث ابن عباس. قال (مر النبي ﷺ بقبرين فقال:... وكان الآخر يمشي بالنميمة) متفق عليه.

- قال ابن بطال: ومعنى الحديث: الحض على ترك النميمة.

- وقال ابن دقيق العيد: في الحديث دليل على عظم أمر النميمة، وأنها سبب العذاب، وهو محمول على النميمة المحرمة.

- **وقال الشوكاني**: الحديث يدل على نجاسة البول من الإنسان، ووجوب اجتنابه، وهو إجماع، ويدل أيضا على عظم أمره وأمر النميمة، وأنهما من أعظم أسباب عذاب القبر.

ونهى الله عن طاعة النمام.

قال تعالى (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم).

=

=

من أقوال السلف بالنميمة:

قال علي: يعمل النمام في ساعة فتنة شهر.

وقال الشافعي: من نم لك نم عليك.

وقال يحيي بن أكتم: النمام شر من الساحر.

وقال الحسن: من نقل إليك حديثا، فاعلم أنه ينقل إلى غيرك حديثك.

وقال يحيي بن أبي كثير: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة.

وكان يقال: "عمل النمام أضر من عمل الشيطان؛ لأن عمل الشيطان بالخيال والوسوسة، وعمل النمام بالمواجهة".

وقال أبو حاتم: هذا وأمثاله من ثمرة النميمة لأنها تهتك الأستار، وتفشي الأسرار، وتورث الضغائن، وترفع المودة، وتجدد العداوة، وتبدد الجماعة، وتهيج الحقد، وتزيد الصد.

- ماذا تفعل مع النمام؟

قال النووي- نقلا عن الغزالي -: وكل من حملت إليه نميمة، وقيل له: فلان يقول فيك، أو يفعل فيك كذا، فعليه ستة أمور:

الأول: ألا يصدقه لأن النمام فاسق.

**الثاني**: أن ينهاه عن ذلك، وينصحه ويقبح له فعله.

**الثالث**: أن يبغضه في الله تعالى فإنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من أبغضه الله تعالى.

**الرابع**: ألا يظن بأخيه الغائب السوء.

**الخامس**: ألا يحمله ما حكي له على التجسس والبحث عن ذلك.

**السادس**: ألا يرضى لنفسه ما نهي النمام عنه؛ فلا يحكي نميمته عنه، فيقول: فلان حكى كذا فيصير به نماما، ويكون آتيا ما نهي عنه. هذا آخر كلام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ.

=

=

ثم قال النووي: وكل هذا المذكور في النميمة إذا لم يكن فيها مصلحة شرعية فإن دعت حاجة إليها فلا منع منها؛ وذلك كما إذا أخبره بأن إنسانا يريد الفتك به، أو بأهله، أو بماله، أو أخبر الإمام، أو من له ولاية بأن إنسانا يفعل كذا، ويسعى بما فيه مفسدة.

قوله تعالى: {مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ} [القلم: ١٢]، أي:"بخيل بالمال ضنين به عن الحق، شديد المنع للخير".

قال قتادة:"فلا يُعطي خيرًا".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: بخيل بالمال ضنين به عن الحقوق".

**قال السعدي:**"الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك".

قال مقاتل:"يعني: الإسلام، منع ابن أخيه وأهله الإسلام".

**قال الزمخشري:**"الخير: المال. أو مناع أهله الخير وهو الإسلام، فذكر الممنوع منه دون الممنوع، كأنه قال: مناع من الخير. قيل: هو الوليد بن المغيرة المخزومي: كان موسرا، وكان له عشرة من البنين، فكان يقول لهم وللحمته: من أسلم منكم منعته رفدي".

قوله تعالى: {مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} [القلم: ١٢]، أي:"ظالم متجاوز في الظلم والعدوان، كثير الآثام والإجرام".

**قال الطبري:**"يقول: معتد على الناس، ذي إثم بربه".

قال مقاتل:"{مُعْتَدٍ}، يعني: في الغشم، والظلم، {أَثِيمٍ}، يعني: أثيم بربه لغشمه وظلمه، نظيرها في «وَيْلٌ للمطففين".

**قال السعدي:**"{مُعْتَدٍ} على الخلق في ظلمهم، في الدماء والأموال والأعراض، {أَثِيمٍ} أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى".

=

=

عن قتادة، قوله: "{مُعْتَدٍ} في عمله، {أَثِيمٍ} بربه".

قال ابن عطية: قال كثير من المفسرين: الخير هنا المال، فوصفه بالشح، وقال آخرون: بل هو على عمومه في المال والأفعال الصالحة، ومن يمنع إيمانه وطاعته لله تعالى فقد منع الخير.

- وقال الشوكاني (مناع للخير) أي: بخيل بالمال لا ينفقه في وجهه، وقيل: هو الذي يمنع أهله وعشيرته عن الإسلام، قال الحسن: يقول لهم من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدا.

- **قال ابن عاشور**: شديد المنع، والخير: المال، أي شحيح، والخير من أسماء المال قال تعالى (وإنه لحب الخير لشديد) وقال (إن ترك خيرا)، وقد روعي تماثل الصيغة في هذه الصفات الأربع وهي (حلاف، هماز، مشاء، مناع) وهو ضرب من محسن الموازنة.

ويحتمل المراد بمنع الخير: منعه عمن أسلم من ذويهم وأقاربهم، يقول الواحد منهم لمن أسلم من أهله أو مواليه: من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدا، وهذه شنشنة عرفوا بها من بعد، قال الله تعالى في شأن المنافقين (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا).

وأيضا فمن منع الخير ما كان أهل الجاهلية يعطون العطاء للفخر والسمعة فلا يعطون الضعفاء وإنما يعطون في المجامع والقبائل قال تعالى (ولا يحضون على طعام المسكين).

(معتد) أي ظالم للناس معتد على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم.

(أثيم) أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله.

قوله تعالى: {عُتُلٍّ} [القلم: ١٣]، أي:"جاف غليظ، قاسي القلب عديم الفهم".

وفي قوله تعالى: {عُتُلٍّ} [القلم: ١٣]، وجوه من التفسير:

=

=

**أحدها**: أن العُتُلّ: الفاحش اللئيم، به قال الحسن، وقتادة، وهو مأثور عن النبي -ﷺ-، ومنه قول الشاعر:

**يعتل من الرجال زنيم... غير ذي نجدةٍ وغير كريم**

عن القاسم، مولى معاوية قال: سُئل رسول الله ﷺ عن العُتُلّ الزنيم، قال: "الفَاحِشُ اللَّئِيمُ".

قال الحسن:"فاحش الخُلق، لئيم الضريبة".

قال: الحسن وقتادة: هو الفاحش اللئيم الضريبة".

**الثاني**: أنه الكافر اللئيم، قاله عكرمة.

وقال إبراهيم النخعي:"العُتُلّ: الفاجر".

**الثالث**: أنه الجافي الشديد في كفره. قاله أبو عبيدة، والطبري، ومنه قول ذي الإصبع العدوانىّ:

والدَّهْرُ يَغْدُو مِعْتَلا جَذَعا

قال أبو عبيدة:"«العتلّ»: الفظّ الكافر -في هذا الموضع-، وهو الشديد في كل شيء".

**قال الطبري**:"يقول: وهو عُتُلّ، والعتلّ: الجافي الشديد في كفره، وكلّ شديد قويّ فالعرب تسميه عُتُلا".

**الرابع**: أن «العاتل»: الشديد المنافق. قاله ابن عباس.

**الخامس**: أنه شديد الأشَر. قاله مجاهد.

وقال الضحاك:"العتلّ: الشديد".

**السادس**: أنه صحيح الجسم الشديد، قاله أبو رزين.

قال أبو رزين:"العتلّ: الشديد". وفي رواية:"العتلّ: الصحيح". وفي رواية:"الصحيح الشديد".

=

=

وحكي الماوردي عن الحسن: "أنه الوفير الجسم".

**قال ابن كثير:**"العتل: فهو الفظ الغليظ الصحيح، الجموع المَنُوعُ".

السابع: أنه الجافي الشديد الخصومة بالباطل، قاله الكلبي، والفراء.

**قال الفراء:**"{عُتُلٍّ} -فِي هَذَا الموضع-: هُوَ الشديد الخصومة بالباطل".

**قال الزجاج:**"هو في اللُّغَةِ الغليظ الجافي".

الثامن: أنه العتل هو الدعي، قاله ابن عباس.

التاسع: أنه الذي يعتِل الناس، أي: يجرهم إلى الحبس أو العذاب، مأخوذ من العتل وهو الجر، ومنه قوله تعالى: {خذوه فاعتِلوه} [الحاقة: ٣٠]. حكاه الماوردي.

العاشر: ما رواه شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غَنْم عن النبي -ﷺ- أنه قال: «لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظري ولا العتل الزنيم، فقال له رجل من المسلمين: ما الجواظ والجعظري والعتل الزنيم فقال رسول الله ﷺ: أما الجواظ فالذي جمع ومنع تدعوه لظى نزاعة للشوى وأما الجعظري فالفظ الغليظ قال الله: فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وأما العتل الزنيم فشديد الخلق رحيب الجوف مصحح شروب واجد للطعام والشراب ظلوم للناس».

عن شَهْر بن حَوْشَب، قال: "العُتُلّ: الصحيح، الأَكُول، الشَّرُوب".

عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَضَعَّف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عُتل جَوّاظ مستكبر". وقال وَكِيع: "كل جَوَّاظ جعظري مستكبر".

عن عبيد بن عمير، قال: العتلّ: الأكول الشروب القويّ الشديد، يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة، يدفع المَلَكُ من أولئك سبعين ألفا دفعة في جهنم".

=

=

عن وهب الذّمارِيّ، قال: "تبكي السماء والأرض من رجل أتمّ الله خلقه، وأرحب جوفه، وأعطاه مقضما من الدنيا، ثم يكون ظلوما للناس، فذلك العتلّ الزنيم".

عن زيد بن أسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: "تَبْكي السَّماءُ مِنْ عَبْدٍ أصَحَّ اللهُ جِسْمَهُ، وأرْحَبَ جَوْفَهُ، وأعْطاهُ مِنَ الدُّنْيا مِقْضَما فكانَ للنَّاس، ظَلُوما، فَذلكَ العُتُلُّ الزَّنِيمُ".

قال مقاتل: يعني:"رحيب الجوف موثق الحلق، أكول شروب غشوم ظلوم".

قوله تعالى: {بَعْدَ ذَلِكَ} [القلم: ١٣]، أي:"بعد تلك الأوصاف الذميمة التي تقدمت".

قال أبو عبيدة: أي: "مع ذلك".

**قال الطبري**:"أي مع العتلّ".

قوله تعالى: {زَنِيمٍ} [القلم: ١٣]، أي:"منسوب إلى غير أبيه".

وفي تفسير «الزنيم»، وجوه:

**أحدها**: أنه الظلوم، قاله ابن عباس -في رواية ابن طلحة عنه-.

**الثاني**: أن الزنيم: هو المريب الذي يعرف بالشر. قاله ابن عباس-في رواية سعيد بن جبير-، وبه قال سعيد بن جبير.

وقال ابن عباس:"الزنيم: هو الرجل يمر على القوم فيقولون رجل سوء".

قال سعيد بن جبير:"الزنيم: الذي يعرف بالشرّ، كما تعرف الشاة بزنمتها؛ الملصق".

**قال الزجاج**:"قيل إن الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها، والزنمتان المعلقتان عند حلوق المِعْزَى".

**الثالث**: أنه الذي يُعرف بالأُبنة. قاله ابن عباس -في رواية ثانية لسعيد بن جبير

=

=

عنه-.

**الرابع**: أنه الجلف الجافي الأكول الشروب من الحرام. قاله شهر بن حَوْشب.

قال مقاتل: يعني:"رحيب الجوف موثق الحلق، أكول شروب غشوم ظلوم".

**الخامس**: أن الزنيم: الفاجر. قاله أبو رزين.

**السادس**: أنه الفاحش، قاله إبراهيم.

السابع: أنه الذي له زنمة كزنمة الشاة. قاله ابن عباس في إحدى الروايات-.

قال ابن عباس:"رجل من قريش كانت له زنمة زائدة مثل زنمة الشاة يعرف بها".

قال مقاتل:"معنى «زنيم» أنه كان في أصل أذنه مثل زنمة الشاة مثل الزنمة التي تكون معلقة في لحى الشاة زيادة في خلقه".

عن ابن عباس، في قوله: "{بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ}، قال: نزل على النبيّ ﷺ {وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ}، قال: فلم نعرفه حتى نزل على النبي ﷺ {بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ}، قال: فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة".

قال الضحاك:"كانت له زنمة في أصل أذنه، يقال: هو اللئيم الملصق في النسب".

قال محمد بن إسحاق: "نزلت في الأخنس بن شريق لأنه حليف ملحق ولذلك سمي زنيمًا".

قال مسلم بن خالد الزنجي:"يعرف الزنيم بما وصفه الله ﷻ كما تعرف الشاة الزنماء من التي ليست بزنماء".

قال مجاهد:"الزنيم يُعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة".

قال الشعبي:"الزّنيم: الذي له زنمة من الشرّ يعرف بها، كما تعرف الشاة بالزّنمة".

قال ابن قتيبة:"أراد الشّعبي: أنه قد لحقته سبّة من الدّعوة عرف بها كزنمة الشّاة".

الثامن: هو الذي يعرف باللؤم، كما تُعرف الشاة بزنمتها. قاله عكرمة.

=

=

التاسع: أنه الدعيّ، أي: الملصق بالقوم، وليس منهم، وهذا مروي عن ابن عباس -أيضا-، وعكرمة، وسعيد بن المسيب، وبه قال أبو عبيدة، والفراء، ومنه قول حسان بن ثابت:

**وأنت زنيم نيط في آل هاشم... كما نيط خلف الراكب القدح الفرد**

وقوله أيضا:

**زنيمٌ تَداعاه الرجالُ زيادةً... كما زِيدَ في عَرْضِ الأديمِ الأكارعُ**

ومنه قول الآخر:

**زنيم ليس يعرف من أبوه... بغي الأم ذو حسب لئيم**

قال أبو عبيدة:"الزنيم: المعلّق في القوم ليس منهم.. ويقال للتيس: زنيم له زنمتان".

**قال الزجاج:**"الزنيم: جاء في اللغة أنه الملزق في القوم وليس منهم".

قال معمر:"هو ولد الزنا في بعض اللغة".

عن عامر بن قدامة، قال: "سئل عكرمة عن الزنيم، قال: هو ولد الزنا".

العاشر: أنه علامة الكفر كما قال تعالى: {سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} [القلم: ١٦]، قاله أبو رزين.

قال أبو رزين:"الزنيم: علامة الكافر".

وروي ن قتادة ، عن علي، قال: "الزنيم: هو الهجين الكافر".

قال ابن كثير-بعد أن سرد بعض تلك الأقوال-:"الأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو: المشهور بالشر، الذي يعرف به من بين الناس، وغالبًا يكون دعيًا وله زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره، كما جاء في الحديث: «لا يدخل الجنة ولد زنا»، وفي الحديث الآخر: «ولد الزنا شَرُّ الثلاثة إذا عمل بعمل أبويه» ".

=

=

- **قال ابن عطية**: والعتل: القوي البنية الغليظ الأعضاء المصحح القاسي القلب، البعيد الفهم، الأكول الشروب، الذي هو بالليل جيفة وبالنهار حمار، فكل ما عبر به المفسرون عنه من خلال النقص فعن هذه التي ذكرت بصدر... وهذه الصفات كثيرة التلازم.

وقد قال ﷺ: (ألا أنبئكم بأهل النار: كل عتل جواظ مستكبر) رواه أحمد.

قوله تعالى: {أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ} [القلم: ١٤]، أي:"ومن أجل أنه كان صاحب مال وبنين طغى وتكبر عن الحق".

**قال ابن كثير**:"يقول تعالى: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله وأعرض عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين، كقوله: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ} قال الله تعالى: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [المدثر: ١١- ٢٦]".

قوله تعالى: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [القلم: ١٥]، أي:"فإذا قرأ عليه أحد آيات القرآن كذَّب بها، وقال: هذا أباطيل الأولين وخرافاتهم".

**قال الطبري**:"يقول: إذا تقرأ عليه آيات كتابنا، قال: هذا مما كتبه الأوّلون استهزاء به وإنكارًا منه أن يكون ذلك من عند الله".

قال مقاتل:"{إِذا تُتْلى عَلَيْهِ}، يعني: الوليد، {آياتُنا}، يعني: القرآن {قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، يقول: أحاديث الأولين وكذبهم وهو حديث رستم واسفندباز".

عن قتادة، قوله: "{أساطير الأولين}، أي: أحاديث الأولين وباطلهم". وروي عن الضحاك نحو ذلك.

=

=

عن السدي، قوله: {إن هذا إلا أساطير الأولين} : أساجيع الأولين".

قال السعدي-في الآية-:"وحاصل هذا، أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب، خسيس النفس، سيئ الأخلاق، خصوصًا الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر على الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات- وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره لقوله عنه: {أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها- فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة".

قوله تعالى: {سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} [القلم: ١٦]

وفي تفسير الآية وجوه:

**أحدها**: معناه: سنخطمه بالسيف، فنجعل ذلك علامة باقية، وسمة ثابتة فيه ما عاش. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"فقاتل يوم بدر، فخُطِم بالسيف في القتال".

**الثاني**: سنشينه شينا باقيا لا يفارقه آخر ما عليه. قاله قتادة.

قال النحاس:"وهذا من أحسن ما قيل فيه أي سنبيّن أمره ونشهره حتى يتبيّن ذلك ويكون بمنزلة الموسوم على أنفه".

وحكي الماوردي عن بعضهم:"أنه إشهار ذكره بالقبائح، فيصير موسومًا بالذكر لا بالأثر".

=

=

قال ابن قتيبة: "تقول العرب للرجل يسبّ الرجل سبّة قبيحة، أو ينثو عليه فاحشة: وقد وسمه بميسم سوء. يريدون: ألصق به عارا لا يفارقه، كما أنّ السّمة لا تنمحي ولا يعفو أثرها.

وقال جرير:

**لما وضعت الفرزدق ميسمي... وعلى البعيث، جدعت أنف الأخطل**

يريد: أنه وسم الفرزدق وجدع أنف الأخطل بالهجاء، أي أبقى عليه عارا كالجدع والوسم.

وقال أيضا:

**رفع المطيّ بما وسمت مجاشعا... والزّنبريّ يعوم ذو الإجلال**

يريد: أن هجاءه قد سارت به المطيّ، وغنّي به في البر والبحر.. وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، ولا نعلم أن الله ﷻ وصف أحدا وصفه له، ولا بلغ من ذكر عيوبه ما بلغه من ذكرها منه لأنه وصفه بالخلف، والمهانة، والعيب للناس، والمشي بالنّمائم، والبخل، والظلم، والإثم، والجفاء، والدّعوة. فألحق به عارا لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة، كالوسم على الخرطوم، وأبين ما يكون الوسم في الوجه".

**الثالث**: سيمَى على أنفه. قاله قتادة أيضا-.

قال قتادة: "سنسم على أنفه". وفي رواية: "«سيما على أنفه».

**الرابع**: أنها سمة سوداء تكون على أنفه يوم القيامة يتميز بها الكافر، كما قال تعالى: {يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم} [الرحمن: ٤١]. وهذا قول أبي العالية، ومجاهد، ومقاتل، والفراء، والزجاج.

قال مقاتل: "{سَنَسِمُهُ} بالسواد {عَلَى الْخُرْطُومِ}، يعني: على الأنف، وهو الوليد وذلك أنه يسود وجهه وتزوق عيناه ويصير منكوس الوجه مغلولا في

=

=

الحديد قبل دخول النار".

**قال الفراء**:"أي: سنسمه سِمَة أهل النار، أي سنسوّد وجهه، فهو وإن كَانَ الخرطوم قَدْ خص بالسمة فإنه فِي مذهب الوجه [لأن بعض الوجه] «٤» يؤدّى عنْ بعض. والعرب تَقُولُ: أما والله لأسمنّك وسمًا لا يفارقك. تريد: الأنفَ، وأنشدني بعضهم:

**لَأعْلِطَنَّكَ وَسْمًا لا يفارقه... كما يُحَزّ بِحُمى المِيسمِ البَحَرُ**

فَقَالَ: الميسم ولم يذكر الأنف، لأنه موضع السمة، والبحر: البعير إذا أصابه البحر، هوداء يأخذ البعير فيوسم لذلك"

**قال الزجاج**:"معناه سَنَسِمُهُ عَلَى أنفه، والخرطوم الأنف، ومعنى سنسمه سنجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل النار من اسوداد وجوهِهِمْ. وجائز- والله أعلم- أذا يفرده بِسمَةٍ لمبالغته في عداوة النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ. فيخصُّ من التشويه بما يتبين به من غيره كما كانت عداوته لرسول الله ﷺ عداوةً يُتَبَين بها من غيره".

وقال الضحاك والكسائي: "يشكونه على وجهه".

**الخامس**: أنه يضرب في النار على أنفه يوم القيامة، قاله الكلبي.

**السادس**: معناه: سنحدّه على شربه الخمر، والخرطوم: الخمر، وجمعه: خراطيم، وهذا قول النضر بن شميل. ومنه قول الشاعر:

**تَظَلُّ يومَك في لهو وفي لَعِبٍ... وأنتَ بالليل شَرَّابُ الخَراطيمِ**

قال الفخر الرازي:"قيل للخمر: الخرطوم كما يقال لها: السلافة، وهي ما سلف من عصير العنب، أو لأنها تطير في الخياشيم".

قال السمين الحلبي:"قد استبعدَ الناسُ هذا التفسيرَ".

السابع: هو ما يبتليه الله به في الدنيا في نفسه وماله وولده من سوء وذل وصَغار، قاله ابن بحر، واستشهد بقول الأعشى:

=

**فدَعْها وما يَغنيك واعمد لغيرها... بشِعرك واغلب أنف من أنت واسم**

**قال الطبري**:"معنى ذلك: سنبين أمره بيانا واضحا حتى يعرفوه، فلا يخفى عليهم، كما لا تخفي السمة على الخرطوم، وقد يحتمل أيضا أن يكون خطم بالسيف، فجمع له مع بيان عيوبه للناس الخطم بالسيف.. يعني بقوله: {سَنَسِمُهُ} سنكويه".

قال الواحدي:"الوسم: أثر كية. يقال: وسمته فهو موسوم بسمة يعرف بها، إما بكية، وإما قطع في أذن علامة له.. واختلفوا في معنى هذا الوسم، فالأكثرون على أنه وعيد له بذلك في الآخرة".

قال ابن العربي:"كان الوسم في الوجه لذوي المعصية قديما عند الناس حتى أنه روي كما تقدم أن اليهود لما أهملوا رجم الزاني واعتاضوا عنه بالضرب وتحميم الوجه، وهذا وضع باطل، ومن الوسم الصحيح في الوجه ما رأى العلماء من تسويد وجه شاهد الزور علامة على قبح المعصية، وتشديدا لمن يتعاطاها لغيره ممن يرجى تجنبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته، وقد كان عزيزا بقول الحق، وقد صار مهينا بالمعصية؛ وأعظم الإهانة إهانة الوجه، وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سببا لحياة الأبد، والتحريم له على النار؛ فإن الله قد حرم على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، حسبما ثبت في الصحيح".

قال المبرد: "الخرطوم هو من الناس الأنف، ومن البهائم الشفة".

**قال الزمخشري**:"الوجه: أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة. وقالوا الأنف في الأنف، وحمى أنفه، وفلان شامخ العرنين. وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورغم أنفه، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧).

{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ} امْتَحَنَّا أَهْل مَكَّة بِالْقَحْطِ وَالْجُوع {كما بلونا أصحاب الجنة} الْبُسْتَان {إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا} يَقْطَعُونَ ثَمَرَتهَا {مُصْبِحِينَ} وَقْت الصَّبَاح كَيْ لَا يَشْعُر بِهِمْ الْمَسَاكِين فَلَا يُعْطُونَهُمْ مِنْهَا مَا كَانَ أَبُوهُمْ يَتَصَدَّق بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْهَا.

وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨).

{وَلَا يَسْتَثْنُونَ} فِي يَمِينهمْ بِمَشِيئَةِ الله تَعَالَى وَالْجُمْلَة مُسْتَأْنَفَة أَيْ وَشَأْنهمْ ذَلِكَ.

فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩).

{فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِف مِنْ رَبّك} نَار أَحْرَقَتْهَا ليلا {وهم نائمون}.

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠).

{فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} كَاللَّيْلِ الشَّدِيد الظُّلْمَة أَيْ سَوْدَاء.

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١).

{فتنادوا مصبحين}.

أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢).

{أَنْ اُغْدُوَا عَلَى حَرْثكُمْ} غَلَّتكُمْ تَفْسِير لِتَنَادَوْا أَوْ أَنْ مَصْدَرِيَّة أَيْ بِأَنْ {إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ} مُرِيدِينَ الْقَطْع وَجَوَاب الشَّرْط دَلَّ عَلَيْهِ ما قبله.

فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣).

---

=

شين وإذالة، فكيف بها على أكرم موضع منه، ولقد وسم العباس أباعر في وجوهها، فقال له رسول الله ﷺ «أكرموا الوجوه»، فوسمها في جواعرها وفي لفظ «الخرطوم»: استخفاف به واستهانة".

{فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ} يَتَسَارُّونَ.

أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤).

{أَنْ لَا يَدْخُلَنهَا الْيَوْم عَلَيْكُمْ مِسْكِين} تَفْسِير لِمَا قَبْله أَوْ أَنْ مَصْدَرِيَّة أَيْ بِأَنْ.

وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥).

{وَغَدَوْا عَلَى حَرْد} مَنْع لِلْفُقَرَاءِ {قَادِرِينَ} عَلَيْهِ في ظنهم.

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦).

{فَلَمَّا رَأَوْهَا} سَوْدَاء مُحْتَرِقَة {قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ} عَنْهَا أَيْ لَيْسَتْ هَذِهِ ثُمَّ قَالُوا لَمَّا علموها.

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧).

{بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} ثَمَرَتها بِمَنْعِنَا الْفُقَرَاء مِنْهَا.

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨).

{قَالَ أَوْسَطهمْ} خَيْرهمْ {أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا} هَلَّا {تُسَبِّحُونَ} الله تَائِبِينَ.

قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩).

{قَالُوا سُبْحَان رَبّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} بِمَنْعِ الفقراء حقهم.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠).

{فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون}.

قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١).

{قالوا يا} للتنبيه {ويلنا} هلا كنا {إنا كنا طاغين}.

عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢).

{عسى ربنا أن يُبْدِلنَا} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف {خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبّنَا رَاغِبُونَ} لِيَقْبَل تَوْبَتنَا وَيَرُدّ عَلَيْنَا خَيْرًا مِنْ جَنَّتنَا رُوِيَ أَنَّهُمْ أُبْدِلُوا خَيْرًا مِنْهَا.

كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣).

{كَذَلِكَ} أَيْ مِثْل الْعَذَاب لِهَؤُلَاءِ {الْعَذَاب} لِمَنْ خَالَفَ أَمْرنَا مِنْ كُفَّار مَكَّة وَغَيْرهمْ {وَلَعَذَاب الْآخِرَة أَكْبَر لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} عَذَابهَا مَا خَالَفُوا أَمْرنَا وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا إنْ بَعَثَنَا نعطى أفضل منكم[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن جريج: أن أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذًا فاربطوهم في الحبال ولا تقتلوا منهم أحدًا؛ فنزلت: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}، يقول: في قدرتهم عليهم كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢١٩)، و"الدر المنثور" (٨/ ٢٥٠) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ} [القلم: ١٧]، أي إنا اختبرنا أهل «مكة» بالجوع والقحط، كما اختبرنا أصحاب البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه".

**قال الطبري:** "يقول: امتحنا مشركي قريش فاختبرناهم، كما امتحنا أصحاب البستان".

**قال الزجاج:** "الجنَّة: البستان".

عن ابن جريج: "أن أبا جهل قال: يوم بدر: خذوهم أخذا واربطوهم في الجبال، ولا تقتلوا منهم أحدا، فنزل: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}، يقول: في قدرتهم عليهم كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة".

قال ابن عباس: "هم ناس من الحبشة كانت لأبيهم جنة وكان يطعم منها السائلين، فمات أبوهم فقال بنوه: إن كان أبونا لأحمق يطعم المساكين، فأقسموا ليصرمنها مصبحين وأن لا يطعموا مسكينا".

=

=

قال عكرمة:"هم ناس من الحبشة كانت لأبيهم جنة كان يطعم المساكين منها، فلما مات أبوهم، قال بنوه: والله إن كان أبونا لأحمق حين يُطعم المساكين، فاقسموا ليصرمنها مصبحين، ولا يستثنون، ولا يطعمون مسكينا".

قال سعيد بن جبير:"هي أرض باليمن يُقال لها: ضَرَوان، بينها وبين صنعاء ستة أميال".

قال قتادة:"هؤلاء ناسٌ قصّ الله عليكم حديثهم، وبيّن لكم أمْرهم.

قال قتادة:"كانت الجنة لشيخ، وكان يتصدَّق، فكان بنوه ينهونه عن الصدقة، وكان يمسك قوت سنته، وينفق ويتصدَّق بالفضل؛ فلما مات أبوهم غدوا عليها فقالوا: {لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ}".

**قال الزجاج**:"هؤلاء قوم بناحية اليمن كان لهم أب يتصدق من جنته على المساكين، فجاء في التفسير أنه كان يأخذ منها قوت سنته، ويتصدق بالباقي وجاء أيضًا أنه كان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل، وما كان في أسفل الأكداس، وما أخطاه القطاف من العنب وما خرج عن البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صُرِمَتْ، فكان يجتمع من ذلك شيء كثير، فقال بنوه: نحن جماعة، وإن فعلنا بالمساكين ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر فحلفوا {لَيَصْرِمُنَّهَا} بِسُدْفة من الليل".

قوله تعالى: {إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ} [القلم: ١٧]، أي:"حين حلفوا ليقطعن ثمرها وقت الصباح، قبل أن يخرج اليهم المساكين".

**قال الطبري**:"يقول: إذ حلفوا ليصرمُنّ ثمرها إذا أصبحوا، والصرم: القطع".

**قال ابن كثير**:"أي: حلفوا فيما بينهم لَيَجُذّنَ ثَمرها ليلا لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء".

عن أبي مالك:"{لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ}، قال: ليَحْضُرُنّها".

=

=

(إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) قال ابن كثير: هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثه محمد ﷺ إليهم فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة.
قال المفسرون: كان لرجل مسلم بستان فيه أنواع النخيل والزروع والثمار، وكان إذا حان وقت الحصاد دعا الفقراء فأعطاهم نصيبهم وافرا منه، وأكرمهم غاية الإكرام، فلما مات الأب ورثه أبناؤه الثلاثة فقالوا: عيالنا كثير والمال قليل ولا يمكننا أن نعطي المساكين كما يفعل أبونا، فتشاوروا فيما بينهم وعزموا على ألا يعطوا أحدا من الفقراء شيئا وأن يجنوها وقت الصباح خفية.
قوله تعالى (إنا بلوناهم) تكلم ﷻ عن نفسه بضمير العظمة لأنه العظيم سبحانه وتعالى، والابتلاء: الاختبار والامتحان، ويكون بالخير والشر كما قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون).
(كما بلونا أصحاب الجنة) أي: كما امتحنا أصحاب الجنة، أي: أصحاب البستان، وسمي البستان جنة، لأنه يجن، أي: يستر من بداخله بأشجاره الملتفة الكثيرة وثماره كما قال تعالى (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا. كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا).
والمعنى: أي امتحناهم فيما أنعمنا عليهم من الخير من بعثة محمد ﷺ وبما أوجبنا عليهم من التكاليف ليثابوا عليها كما امتحناهم بما أغدقنا عليهم من النعم وبما أمددناهم به من الأموال والأولاد والإمهال استدراجا لهم.
- **قال القرطبي**: والمعنى أعطيناهم أموالا ليشكروا لا ليبطروا؛ فلما بطروا وعادوا محمدا ﷺ ابتليناهم بالجوع والقحط كما بلونا أهل الجنة المعروف خبرها عندهم.

=

=

وأصحاب الجنة كما سبق هم نفر من بني إسرائيل امتحنهم الله ﷻ بأن ملكهم هذه الجنة التي ورثوها عن والدهم.

- قال في التسهيل: ووجه تشبيه قريش بأصحاب الجنة؛ أن الله أنعم على قريش ببعث محمد ﷺ، كما أنعم على أصحاب الجنة بالجنة، فكفر هؤلاء بهذه النعمة كما فعل أولئك، فعاقبهم الله كما عاقبهم، وقيل: شبه قريشا لما أصابهم الجوع بشدة القحط، حين دعا عليهم رسول الله ﷺ بأصحاب الجنة لما هلكت جنتهم.

- **قال ابن عاشور**: فالبلوى المذكورة هنا بلوى بالخير، فإن الله أمد أهل مكة بنعمة الأمن، ونعمة الرزق، وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسر لهم سبل التجارة في الآفاق بنعمة الإيلاف برحلة الشتاء ورحلة الصيف، فلما أكمل لهم النعمة بإرسال رسول منهم ليكمل لهم صلاح أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدائم فدعاهم وذكرهم بنعم الله أعرضوا وطغوا ولم يتوجهوا إلى النظر في النعم السالفة ولا في النعمة الكاملة التي أكملت لهم النعم.

ووجه المشابهة بين حالهم وحال أصحاب الجنة المذكورة هنا هو الإعراض عن طلب مرضاة الله وعن شكر نعمته.

وهذا التمثيل تعريض بالتهديد بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البؤس بعد النعيم.

(إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) أي: حين حلفوا فيما بينهم ليجزن ثمرها في الصباح الباكر قبل أن يعلم المساكين حتى لا يعطوهم شيئا.

قوله تعالى (ليصرمنها) الصرم: الجذاذ والقطع.

قوله تعالى: {وَلَا يَسْتَثْنُونَ} [القلم: ١٨]، أي:"ولم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا، كأنهم واثقون من الأمر".

قال مقاتل:"فيقولون: إن شاء الله".

=

=

**قال الطبري**: أي:"ولا يقولون إن شاء الله".
**قال الزجاج**:"فحلفوا ولم يقولوا: إن شاء الله".
**قال ابن كثير**:"{وَلا يَسْتَثْنُونَ}، أي: فيما حلفوا به. ولهذا حنثهم الله في أيمانهم، فقال: {فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ}".
قال أبو صالح:"كان استثناؤهم: سبحان الله".
فقوله (ولا يستثنون) قيل: أي لا يقولوا إن شاء الله، وهذا قول الأكثر. وقيل: لا يستثنون حق المساكين.
- **قال الرازي**: واختلفوا في قوله (ولا يستثنون) فالأكثرون أنهم إنما لم يستثنوا بمشيئة الله تعالى لأنهم كانوا كالواثقين بأنهم يتمكنون من ذلك لا محالة، وقال آخرون: بل المراد أنهم يصرمون كل ذلك ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذي كان يدفعه أبوهم إلى المساكين.
- قال في التسهيل (ولا يستثنون) في معناه ثلاثة أقوال:
**أحدها**: لم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا ليصرمنها.
والآخر: لا يستثنون شيئا من ثمرها إلا أخذوه لأنفسهم.
والثالث: لا يتوقفون في رأيهم ولا ينتهون عنه لا يرجعون عنه.... (التسهيل)
(فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) أي: أصابتها آفة سماوية.
قوله تعالى: {فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ} [القلم: ١٩]، أي:"فأنزل الله عليها نارًا أحرقتها ليلا وهم نائمون".
**قال الطبري**: يقول:"فطرق جنة هؤلاء القوم ليلا طارق من أمر الله وهم نائمون، ولا يكون الطائف في كلام العرب إلا ليلا ولا يكون نهارا، وقد يقولون: أطفت بها نهارا".
قال مقاتل:"فسمع الله- تعالى- قولهم فبعث نارا من السماء في الليل على جنتهم

=

=

فأحرقتها حتى صارت سوداء".

**قال الزجاج**:"أي: أرسل عليها عذابًا من السماء فاحترقت كُلها".

قال القشيري:"أرسل عليها من السماء آفة فأحرقت ثمارهم".

**قال ابن كثير**:"أي: أصابتها آفة سماوية".

عن قابوس، عن أبيه، قال: "سألت ابن عباس، عن الطوَفان {فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ}، قال: هو أمر من أمر الله".

قال ابن عباس:"طاف عليها أمر من أمر الله وهم نائمون".

قال قتادة:"أتاها أمرُ اللهِ ليلًا". وروي عن قطر بن ميمون مثله.

قال السمعاني:"أي: طرق طارق من العذاب، وهي النار التي أرسلها الله تعالى، والعرب لا تستعمل الطائف إلا في العذاب".

وفي بعض التفاسير: "أن الله تعالى أمر ملكا حتى اقتلع تلك الجنة بأشجارها وغروسها فوضعها في موضع الطائف اليوم".

**قال الفراء**:"لا يكون الطائف إِلَّا ليلا، ولا يكون نهارًا، وَقَدْ تكلم بِهِ العرب، فيقولون: أطفت بِهِ نهارًا وليس موضعه بالنهار، ولكنه بمنزلة قولك: «لو ترك القطا ليلا لنام»، لأنَّ القطا لا يسري ليلًا، قَالَ أنشدني أَبُو الجراح العقيلي:

**أطفت بها نهارًا غير ليلٍ... وألهى ربَّها طلبُ الرّخال**

والرَّخِل: ولد الضأن إذا كان أنثى".

قوله تعالى (طائف من ربك) أي: عذاب من ربك، والطائف لا يكون إلا ليلا أي طرقها طارق من عذاب الله.

- **قال ابن عاشور**: ولم يعين جنس الطائف لظهور أنه من جنس ما يصيب الجنات من الهلاك، ولا يتعلق غرض بتعيين نوعه لأن العبرة في الحاصل به.

والمصائب والبليات والرزايا أكثر ما تصيب الناس وهم على غرة غافلون.

=

=

قال تعالى (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نآئمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون).

وقال تعالى (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون. أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين. أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم).

قوله تعالى: {فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} [القلم: ٢٠]، أي:"فأصبحت محترقة سوداء كالليل المظلم".

وفي قوله تعالى: {فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} [القلم: ٢٠]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: كالرماد الأسود -بلغة حذيم-، قاله ابن عباس.

**الثاني**: أي: مثل الليل الأسود. قاله ابن عباس -أيضا-، ومقاتل، والفراء، قال الشاعر:

**تَطاوَلَ لَيْلُكَ الجَوْنُ البَهِيمُ... فَمَا يَنْجابُ، عَنْ ليلٍ، صَريمُ**

قال أبو عبيدة:"انصرم في الليل وهو الليل وكل رملة انصرمت من معظم الرمل فهى الصريمة".

قال ابن قتيبة:"أي سوداءَ كالليل مُحْتَرِقَةً. و «الليل» هو: الصّريم؛ و «الصبح» أيضًا: صريم، لأن كل واحد منهما ينصرم من صاحبه".

قال الأخفش: "كالصبح انصرم من الليل".

قال ابن كيسان: "كالجرة السوداء".

قال الواحدي:"شبه سوادها بسواد الليل الدامس، وهو آخر ليالي الشهر، وهو أشد ما يكون ظلمة".

قال المبرد: "قيل: كالنهار لا شيء فيها، كما يقال: لك سواد الأرض وبياضها. فالسواد العامر، والبياض الغامر".

=

=

قال السمعاني:"العرب تسمي العامر من الأرض نهارا لبياضه، والغامر ليلا لسواده وخضرته، والصريم من الأضداد، هو اسم لليل والنهار جميعا؛ لأن كل واحد منهما يقطع عن صاحبه".

**الثالث**: فأصبحت كأرض تدعى الصريم، وهي أرض باليمن يقال لها ضَرْوان من صنعاء على ستة أميال. وهذا قول سعيد بن جبير.

**الرابع**: مثل الزرع إذا حُصِد، أي: هشيمًا يبسًا. وهذا قول الثوري، والسدي، ونحوه عن قتادة، وبه قال النحاس.

قال قتادة: "{كَالصَّرِيمِ}، كأنها صرمت".

قال النحاس:"أي: كالشيء المصروم المقطوع.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "إياكم والمعاصي، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقًا قد كان هُيِّئ له"، ثم تلا رسول الله ﷺ: {فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} قد حرموا خير جنّتهم بذنبهم".

وقال الحسن: صرم عنها الخير فليس فيها شيء".

قال ابن زيد: "كالأرض المصرومة".

وقال المروّج: "كالرملة انصرمت من معظم الرمل".

قال الأصمعي: "الصريم من الرمل: قطعة ضخمة تنصرم عن سائر الرمل، وتجمع الصرائم".

قال الواحدي:"على هذا شبهت الجنة وهي محترقة لا ثمر فيها ولا خير بالرملة المنقطعة عن الرمال، وهي لا تنبت شيئًا ينتفع به".

فقوله (فأصبحت كالصريم) أي: فأصبحت كالليل الأسود المظلم من شدة الاحتراق. وهذا المعنى مروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وعكرمة. وبه قال الفراء،

=

=

وأبو عبيدة معمر بن المثنى، والأزهري.

وذكر بعض المفسرين أن المراد بالصريم: الرماد الأسود، يقول ابن جزي الكلبي عند ذكره للأقوال في معنى الصريم: (أي الرماد الأسود بلغة بعض العرب).

وروي عن قتادة أن المراد بالصريم: المصروم، أي كأنها صرمت فلم يبق فيها ثمر.

قال العز بن عبدالسلام في تفسيره: ٣/ ٣٤٩: (كالصريم): الرماد الأسود، أو الليل المظلم، أو كالمصروم الذي لم يبق فيه ثمر).

وقال الفراء: يريد كالليل المسود، ويقال: فأصبحت كالصريم أي: كالشيء المصروم).

قال ابن عاشور: وعجل العقاب لهم قبل التلبس بمنع الصدقة لأن عزمهم على المنع وتقاسمهم عليه حقق أنهم مانعون صدقاتهم فكانوا مانعين.

قوله تعالى: {فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ} [القلم: ٢١]، أي:"فنادى بعضهم بعضًا حين أصبحوا ليمضوا على الميعاد إلى بستانهم".

**قال الطبري**: يقول: "فنادى بعضهم بعضا بعد أن أصبحوا".

**قال ابن كثير**:"أي: لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضًا ليذهبوا إلى الجَذَاذ".

أي لما كان وقت الصباح نادى بعضهم بعضا ليذهبوا إلى الجذاذ أي: القطع.

قوله تعالى: {أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ} [القلم: ٢٢]، أي:"أن اذهبوا مبكرين إلى زرعكم، إن كنتم مصرِّين على قطع الثمار".

**قال الطبري**: يقول: "{أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ} وذلك الزرع، إن كنتم حاصدي زرعكم".

**قال الزجاج**:"أي: إن كنتم عازمين على صرام النخل".

=

=

قال السمعاني:"يقال: في العنب الصرام، وفي الزرع الحصاد".

قال مجاهد: "كان حرثهم عِنبًا".

أي اذهبوا مبكرين إلى ثماركم وزروعكم إن كنتم صارمين: أي حاصدين للثمار.

والحرث: شق الأرض بحديدة ونحوها ليوضع فيها الزرع أو الشجر وليزال منها العشب، ويطلق الحرث على الجنة لأنهم يتعاهدونها بالحرث لإصلاح شجرها، وهو المراد هنا. [قاله ابن عاشور].

قوله تعالى: {فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ} [القلم: ٢٣]، أي:"فاندفعوا مسرعين، وهم يتسارُّون بالحديث فيما بينهم".

**قال الطبري**: "يقول: فمضَوا إلى حرثهم وهم يتسارّون بينهم".

**قال ابن كثير**:"أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحدًا كلامهم".

قال قتادة:"يقول: يُسرون".

قال ابن عباس:"الإسرار، والكلام الخفِيُّ".

**قال الزجاج**:"التخافِتُ: إسرار الكلام".

أي: فانطلقوا نحو البستان يتشاورون في صوت خافت حتى لا يفطن لهم فقراء البلد ومساكينها.

قوله تعالى: {أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ} [القلم: ٢٤]، أي:"قائلين: لا تدخلوا في هذا اليوم أحدًا من الفقراء إلى البستان ولا تمكنوه من الدخول".

**قال الطبري**: "يقول: وهم يتسارّون يقول بعضهم لبعض: لا يدخلنّ جنتكم اليوم عليكم مسكين".

**قال ابن كثير**:"ثم فسر الله عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به، فقال: {فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ}، أي: يقول

=

=

بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخلها عليكم!".
قال قتادة:"لما مات أبوهم غدوا عليها، فقالوا: {لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ}".
قوله تعالى: {وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥)} [القلم: ٢٥]
اختلف أهل التفسير في معنى «الحرْد» -في هذا الموضع-، على أقوال:
**أحدها**: معناه: على قُدْرة في أنفسهم وجدّ. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد.
قال ابن عباس:"ذوي قدرة".
قال مجاهد وابن زيد:"على جدّ قادرين في أنفسهم".
عن الحسن، قال:"على جهد، أو قال على جِدّ".
قال قتادة:"غدا القوم وهم محردون إلى جنتهم، قادرون عليها في أنفسهم".
وقال قتادة:"على جِدّ من أمرهم".
**الثاني**: على أمر مجمع، أي: على أمر قد أسسوه بينهم. وهذا قول مجاهد-أيضا-، وعكرمة، وبه قال الطبري.
قال مجاهد:"كان حرث لأبيهم، وكانوا إخوة، فقالوا: لا نطعم مسكينا منه حتى نعلم ما يخرج منه، {وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ}: على أمر قد أسسوه بينهم".
قال مجاهد وعكرمة:"على أمر مجمع".
**قال الطبري**:"الذي هو أولى بتأويل الآية قول من قال: وغدوا على أمر قد قصدوه واعتمدوه، واستسرّوه بينهم، قادرين عليه في أنفسهم".
**الثالث**: على منع، قاله أبو عبيدة، والزجاج، ومنه قول الشاعر:
**فإذَا ما حارَدَتْ أوْ بَكأَتْ... فَتَّ عَنْ حاجِب أُخْرَى طِينُها**
قال السمعاني:"معنى «المنع»: هو ما عقدوه من منع المساكين".

=

=

قال أبو عبيدة:"بمعنى: «حاردت الناقة» فلا لبن لها".

**قال الزجاج:**"من قولهم: حاردت السنة إذا منعت خيرها".

قال الثعلبي:"المحاردة: المنع، تقول العرب: حاردت السنة، إذا لم يكن فيها مطر، وحاردت الناقة إذا لم يكن لها لبن".

وضعفه الطبري قائلا:"وهذا قول لا نعلم له قائلا من متقدمي العلم قاله وإن كان له وجه".

**الرابع:** على قصد، ذكره الفراء، وأبو عبيدة، والطبري، ومنه قول الشاعر:

**قد جاء سيل كان من أمر الله... يَحْرُدُ حَرْدَ الجنَّةِ المُغِلَّهْ**

أُي: يقصد قصد الجنة المغلة.

**قال الفراء:**"الحرد -أيضًا-: القصد، كما يَقُولُ الرجل للرجل: قَدْ أقبلت قِبلك، وقصدت قصدك، وحَرَدْتُ حَردك".

**قال الطبري:**"المعروف من معنى الحرد في كلام العرب القصد من قولهم: قد حرد فلان حرد فلان: إذا قصد قصده".

**الخامس:** على فاقة وحاجة. قاله الحسن.

**السادس:** على حنق وغضب، قاله سفيان، والشعبي، والسدي، ومنه قول الأشهب بن رُميلة:

**أُسُودُ شَرًى لاقَتْ أُسُودَ خِفيَّةٍ... تَساقَوْا على حَرْدٍ دِماءَ الأساوِدِ**

وحكي عن عكرمة، قال: على غيظ".

وقال الشعبي:"{عَلَى حَرْدٍ} على المساكين".

وقال مقاتل:"على حدة في أنفسهم".

السابع: على حرص. قاله الحسن.

الثامن: أن القرية تسمى: حردًا، قاله السدي.

=

=

وحكي الثعلبي عن السدي، قال:"أن الحرد: اسم الجنّة".

**قال ابن كثير**:"فأبعد السدي في قوله هذا!".

وفي قوله: {قَادِرِينَ} [القلم: ٢٥]، أربعة وجوه:

**أحدها**: يعني: قادرين على المساكين، قاله الشعبي.

**الثاني**: قادرين على جنتهم عند أنفسهم، قاله قتادة، ومقاتل.

**الثالث**: أن موافاتهم إلى جنتهم في الوقت الذي قدروه، قاله ابن بحر.

**الرابع**: أي: على أمر أسسوه بينهم. حكاه السمعاني.

**قال ابن كثير**:"أي: عليها فيما يزعمون ويَرومون".

قوله تعالى (قادرين) أي: جازمين بقدرتهم على ذلك حسب زعمهم واعتقادهم.

قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ} [القلم: ٢٦].

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: فلما صار هؤلاء القوم إلى جنتهم، ورأوها محترقا حرثها، أنكروها وشكوا فيها، هل هي جنتهم أم لا؟ فقال بعضهم لأصحابه ظنا منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم، وأن التي رأوا غيرها: إنا أيها القوم لضالون طريق جنتنا".

**قال ابن كثير**:"أي: فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها، وهي على الحالة التي قال الله، ﷻ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مُدْلَهِمَّة، لا ينتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطئوا الطريق؛ ولهذا قالوا: {إِنَّا لَضَالُّونَ}، أي: قد سلكنا إليها غير الطريق فتُهنا عنها".

قال الثعلبي:"لمخطئوا الطريق فليس هذه بجنتنا".

قال قتادة:"أي: أضللنا الطريق".

قال قتادة:"يقولون أخطأنا الطريق ما هذه بجنتنا".

أي فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهي على الحالة التي قال الله ﷻ قد

=

=

استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بها فاعتقدوا أنهم قد أخطئوا الطريق ولهذا قالوا:
(إنا لضالون) أي قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هي فقالوا: (بل نحن محرومون) أي: بل هي هذه ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب.
قوله تعالى: {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} [القلم: ٢٧]، أي:"فلما عرفوا أنها هي جنتهم، قالوا: بل نحن محرومون خيرها؛ بسبب عزمنا على البخل ومنع المساكين".
**قال الطبري:**"فقال من علم أنها جنتهم، وأنهم لم يخطئوا الطريق: بل نحن أيها القوم محرومون، حُرِمنا منفعة جنتنا بذهاب حرثها".
**قال ابن كثير:**"ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقنوا أنها هي فقالوا: {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}، أي: بل هذه هي، ولكن نحن لا حَظّ لنا ولا نصيب".
قال الثعلبي:"حرمنا خيرها ونفعها لمنعنا المساكين وتركنا الاستثناء".
قال قتادة:"بل جُوزينا فحُرِمنا".
قال قتادة:"فقال بعضهم: {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} حرمنا جنتنا".
عن محمد بن كعب القرظي قال: "المحروم الذي تصيبه الجائحة؛ قال الله: {وغدوا على حردٍ قادرين فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون}، وقال: {فظلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون}، قال: المحروم الذي تصيبه الجائحة".
- قال الرازي (فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون) فيه وجوه:
**أحدها:** أنهم لما رأوا جنتهم محترقة ظنوا أنهم قد ضلوا الطريق فقالوا (إنا لضالون) ثم لما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا (بل نحن محرومون) حرمنا خيرها
=

=

بشؤم عزمنا على البخل ومنع الفقراء.

وثانيها: يحتمل أنهم لما رأوا جنتهم محترقة قالوا: إنا لضالون حيث كنا عازمين على منع الفقراء، وحيث كنا نعتقد كوننا قادرين على الانتفاع بها، بل الأمر انقلب علينا فصرنا نحن المحرومين.

- قوله تعالى (بل نحن محرومون) أي: استفاقوا من غفلتهم ورجعوا على أنفسهم باللائمة على بطرهم وإهمال شكر النعمة التي سيقت إليهم، وعلموا أنهم أخذوا بسبب ذلك، قال تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون).

- قال ابن عاشور (بل نحن محرومون) إضراب للانتقال إلى ما هو أهم بالنظر لحال تبييتهم إذ بيتوا حرمان المساكين من فضول ثمرتهم فكانوا هم المحرومين من جميع الثمار، فالحرمان الأعظم قد اختص بهم إذ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم.، ويحتمل: أن يكون الضلال حقيقيا، أي ضلال طريق الجنة، أي قالوا: إنا أخطأنا الطريق في السير إلى جنتنا لأنهم توهموا أنهم شاهدوا جنة أخرى غير جنتهم التي عهدوها، قالوا ذلك تحيرا في أمرهم.

قوله تعالى: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ} [القلم: ٢٨]، أي:"قال أعدلهم".

**قال الطبري**:"قَالَ أَوْسَطُهُمْ) يعني: أعدلهم".

**قال الزمخشري**:"أعدلهم وخيرهم، من قولهم: هو من سطة قومه، وأعطنى من سطات مالك. ومنه قوله تعالى: {أُمَّةً وَسَطًا}".

عن ابن عباس، قوله: "{قَالَ أَوْسَطُهُمْ}، قال: أعدلهم، ويقال: قال خيرهم، وقال في البقرة: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}، قال: الوسط: العدل".

عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، ومحمد بن كعب، والربيع بن أنس: "{قَالَ أَوْسَطُهُمْ}: أعدلهم".

=

=

قال قتادة:"أي: أعدلهم قولا، وكان أسرع القوم فزعا، وأحسنهم رَجْعة".
قال الثعلبي:"قال أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم".
قوله تعالى: {أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} [القلم: ٢٨]، أي: "ألم أقل لكم هلا تستثنون وتقولون: إن شاء الله؟".
**قال الطبري**:"يقول: هلا تستثنون إذ قلتم {لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ}، فتقولوا: إن شاء الله".
قال الثعلبي: أي: "هلّا تستثنون، وقيل: هلا تسبحون الله وتقولون: سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم. وقيل: هلّا تستغفرونه من فعلكم".
**قال الزمخشري**:"لولا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم، كأن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وانتقامه من المجرمين، وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة، فعصوه فعيرهم. والدليل عليه قولهم سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على أثر مقارفة الخطيئة، ولكن بعد خراب البصرة. وقيل: المراد بالتسبيح. الاستثناء لالتقائهما في معنى التعظيم لله، لأنّ الاستثناء تفويض إليه، والتسبيح تنزيه له، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم".
**قال ابن كثير**:"وقيل معناه: هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم".
عن مجاهد: "{لَوْلا تُسَبِّحُونَ}، قال: بلغني أنه الاستثناء".
قال مجاهد:"يقول: تستثنون، فكان التسبيح فيهم الاستثناء".
**قال السدي**: "وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحًا".
قال أبو صالح: "استثناءهم: سبحان الله".
وعن الحسن: "هو الصلاة"، قال الزمخشري:"كأنهم كانوا يتوانون في الصلاة،
=

=

وإلا لنهتهم عن الفحشاء والمنكر، ولكانت لهم لطفا في أن يستثنوا ولا يحرموا".
وقال ابن جريج: "هو قول القائل: إن شاء الله".
- **قال ابن عاشور**: والوسط: يطلق على الأخير الأفضل، قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)، وقال تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) ويقال هو من سطة قومه، وأعطني من سطة مالك.
(ألم أقل لكم لولا تسبحون) أي: هلا (تسبحون): قيل: المراد تستثنون: وهو قول إن شاء الله عند قولهم ليصرمنها مصبحين، وإنما قيل: للاستثناء تسبيحا، لأن التسبيح في اللغة تنزيه الله عن كل سوء، والاستثناء تعظيم الله.
وقيل: لولا تسبحون أي هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم، بأداء حق الله تعالى فيه، ومنه حق المساكين، لأن النعم إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت كما قال تعالى (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد).
- في الآية ثلاثة أقوال:
الأول: (لولا تسبحون) تقولون سبحان الله.
ورجحه ابن جزي، والنسفي.
**الثاني**: التسبيح هنا الاستثناء، وهو أن يقول: إن شاء الله.
قاله الزجاج، والشوكاني.
**الثالث**: هو عبارة عن طاعة الله وتعظيمه والعمل بطاعته.
وبه قال البغوي، وابن عاشور.
قوله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} [القلم: ٢٩]، أي:"قالوا بعد أن عادوا إلى رشدهم: تنزَّه الله ربنا عن الظلم فيما أصابنا، بل نحن كنا الظالمين لأنفسنا بترك الاستثناء وقصدنا السيِّئ".

=

=

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: قال أصحاب الجنة: {سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} في تركنا الاستثناء في قسمنا وعزمنا على ترك إطعام المساكين من ثمر جنتنا".

**قال الزمخشري**:"سبحوا الله ونزهوه عن الظلم وعن كل قبيح".

**قال ابن كثير**:"أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع".

أي: نزهوا الله أن يكون ظالما فيما صنع، وأقروا على أنفسهم بالظلم فقالوا إنا كنا ظالمين: بمنعنا المساكين من حقهم.

قوله تعالى: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ} [القلم: ٣٠]، أي:"فأقبل بعضهم على بعض، يلوم كل منهم الآخر على تركهم الاستثناء وعلى قصدهم السيِّئ".

**قال الطبري**: يقول: "فأقبل بعضهم على بعض يلوم بعضهم بعضا على تفريطهم فيما فرّطوا فيه من الاستثناء، وعزمهم على ما كانوا عليه من ترك إطعام المساكين من جنتهم".

**قال الزمخشري**:"يلوم بعضهم بعضا، لأنّ منهم من زين، ومنهم من قبل، ومنهم من أمر بالكف وعذر ومنهم من عصى الأمر، ومنهم من سكت وهو راض".

**قال ابن كثير**:"أي: يلوم بعضهم بعضًا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب".

**قال الفراء**:"يَقُولُ بعضهم لبعض: أنت الَّذِي دللتنا، وأشرت علينا بما فعلنا. ويقول الآخر: بل أنت فعلت ذَلِكَ، فذلك تلاومهم".

أي: يلوم بعضهم بعضا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ثم نادوا على أنفسهم بالويل: (قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين)

=

=

قوله تعالى: {قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ} [القلم: ٣١]، أي:"قالوا: يا ويلنا إنَّا كنا متجاوزين الحد في منعنا الفقراء ومخالفة أمر الله".

**قال الطبري**: "يقول: قال أصحاب الجنة: يا ويلنا إنا كنا مُبْعَدين: مخالفين أمر الله في تركنا الاستثناء والتسبيح".

**قال ابن كثير**:"أي: اعتدينا وبَغَينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا".

قال ابن كيسان: "طغينا نعم الله فلم نشكرها".

قوله تعالى: {عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا} [القلم: ٣٢]، أي:"عسى ربنا أن يعطينا أفضل من حديقتنا؛ بسبب توبتنا واعترافنا بخطيئتنا".

**قال الطبري**: "يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل أصحاب الجنة: {عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا} بتوبتنا من خطأ فعلنا الذي سبق منا خيرا من جنتنا".

قال بكر بن سهل الدمياطي: "حدّثني أبو خالد اليمامي أنه رأى تلك الجنّة، وقال: رأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم".

سئل قتادة عن أصحاب الجنة: أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتنى تعبا".

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه: "بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان: فيها عنب يحمل البغل منه عنقودا".

قرأ الحسن وعاصم والأخفش وابن محيص: «يُبْدِلَنَا» بالتخفيف، وغيرهم بالتشديد، وهما لغتان وفرق قوم بينهما، فقال: التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم، والإبدال رفع الشيء ووضع شيء آخر مكانه.

قال ابن عاشور: واللوم: إنكار متوسط على فعل أو قول وهو دون التوبيخ وفوق العتاب.

(عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها) أي: لعل الله أن يعطينا أفضل منها بسبب توبتنا

=

=

واعترافنا بخطيئتنا.

- قال ابن جزي: يحتمل أنهم طلبوا البدل في الدنيا، أو في الآخرة. والأول أرجح لأنه روي عن ابن مسعود أن الله أبدلهم جنة يحمل البغل منها عنقودا.

وهذا القول: اختاره الطبري، وابن عطية، والقرطبي، والشوكاني.

وقيل: (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها) أي: يعوضنا ربنا في الآخرة.

(إنا إلى ربنا راغبون) أي: راجعون لعفوه طالبون لإحسانه وفضله.

قوله تعالى: {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ} [القلم: ٣٢]، أي:"إنا إلى ربنا وحده راغبون، راجون العفو، طالبون الخير".

**قال الطبري**: "يقول: إنا إلى ربنا راغبون في أن يبدلنا من جنتنا إذ هلَكت خيرا منها".

**قال ابن كثير**:"قيل: رغبوا في بذلها لهم في الدنيا. وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة.. ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن- قال سعيد بن جبير: كانوا من قرية يقال لها ضروان على ستة أميال من صنعاء. وقيل: كانوا من أهل الحبشة- وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة، وكانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليها ويدّخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل. فلما مات ورثه بنوه، قالوا: لقد كان أبونا أحمقَ إذ كان يصرف من هذه شيئًا للفقراء، ولو أنَّا منعناهم لتوفر ذلك علينا. فلما عزموا على ذلك عُوقِبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية، رأس المال الربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ الْعَذَابُ} [القلم: ٣٣]، أي:"مثل ذلك العقاب الذي عاقبنا به أهل الحديقة يكون عقابنا في الدنيا لكل مَن خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله من النعم فلم يؤدِّ حق الله فيها".

=

=

**قال الطبري**: يقول: "كفعلنا بجنة أصحاب الجنة، إذ أصبحت كالصريم بالذي أرسلنا عليها من البلاء والآفة المفسدة، فعلنا بمن خالف أمرنا وكفر برسلنا في عاجل الدنيا".

**قال ابن كثير**:"أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقراء وذوي الحاجات، وبدل نعمة الله كفرا".

قال ابن عباس:"يعني بذلك عذاب الدنيا".

قال قتادة:"أي: عقوبة الدنيا".

قال ابن زيد:"عذاب الدنيا، هلاك أموالهم: أي عقوبة الدنيا".

قوله تعالى: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ} [القلم: ٣٣]، أي:"ولَعذاب الآخرة أعظم وأشد مِن عذاب الدنيا".

**قال الطبري**: "يعني: عقوبة الآخرة بمن عصى ربه وكفر به، أكبر يوم القيامة من عقوبة الدنيا وعذابها".

**قال ابن كثير**:"أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشق".

قوله تعالى: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [القلم: ٣٣]، أي:"لو كانوا يعلمون لانزجروا عن كل سبب يوجب العقاب".

**قال الطبري**:"يقول: لو كان هؤلاء المشركون يعلمون أن عقوبة الله لأهل الشرك به أكبر من عقوبته لهم في الدنيا، لارتدعوا وتابوا وأنابوا، ولكنهم بذلك جهال لا يعلمون".

روي عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن الجداد بالليل، والحصاد بالليل".

(كذلك العذاب) أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير وبدل نعمة الله كفرا.

=

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤).

{إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم}.

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥).

{أَفَنَجْعَل الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} أَيْ تَابِعِينَ لَهُمْ فِي العطاء.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦).

{مالكم كَيْفَ تَحْكُمُونَ} هَذَا الْحُكْم الْفَاسِد.

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧).

{أَمْ} أَيْ بَلْ أَ {لَكُمْ كِتَاب} مُنَزَّل {فِيهِ تَدْرُسُونَ} أي تقرؤون.

إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨.

{إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ} تَخْتَارُونَ.

أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩).

{أَمْ لَكُمْ أَيْمَان} عُهُود {عَلَيْنَا بَالِغَة} وَاثِقَة {إِلَى يَوْم الْقِيَامَة} مُتَعَلِّق مَعْنَى بِعَلَيْنَا وَفِي هَذَا الْكَلَام مَعْنَى الْقَسَم أَيْ أَقْسَمْنَا لَكُمْ وَجَوَابه {إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ} بِهِ لِأَنْفُسِكُمْ.

سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠).

{سَلْهُمْ أَيّهمْ بِذَلِكَ} الْحُكْم الَّذِي يَحْكُمُونَ بِهِ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَنَّهُمْ يُعْطُونَ فِي الْآخِرَة أَفْضَل مِنْ الْمُؤْمِنِينَ {زَعِيم} كَفِيل لَهُمْ.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١).

---

=

(لو كانوا يعلمون) علما ينفعهم أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فيعملون على اتقائه والخلاص منه ولكنهم بذلك جهال لا يعلمون.

{أَمْ لَهُمْ} أَيْ عِنْدهمْ {شُرَكَاء} مُوَافِقُونَ لَهُمْ فِي هَذَا الْقَوْل يَكْفُلُونَ بِهِ لَهُمْ فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ {فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ} الْكَافِلِينَ لَهُمْ بِهِ {إن كانوا صادقين}(١).

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [القلم: ٣٤]

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ} الذين اتقوا عقوبة الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه {عِنْدَ رَبِّهِمْ} بساتين النعيم الدائم".

قال الشوكاني:"أي: للمتقين ما يوجب سخطه- من الكفر والمعاصي- عنده ﷻ في الدار الآخرة جنات النعيم الخالص الذي لا يشوبه كدر ولا ينغصه خوف زوال".

**قال الزمخشري**:"{عِنْدَ رَبِّهِمْ}، أي: في الآخرة، {جَنَّاتِ النَّعِيمِ} ليس فيها إلا التنعم الخالص، لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنان الدنيا".

قال القشيري:"الذين يتقون الشّرك والكفر، ثم المعاصي والفسق، لهم عند الله الثواب والأجر".

**قال ابن كثير**:"لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله، ﷻ، وخالفوا أمره، بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تَبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها".

عن السدي:"{جنات}، قال: البساتين".

قال مجاهد:"الجنات: حوائط".

قال مالك بن دينار: "جنات النعيم بين جنان الفردوس وبين جنات عدن، وفيها جواري خلقن من ورد الجنة، قيل: فمن يسكنها؟ قال: الذين عملوا بالمعاصي فلما ذكروا عظمتي راقبوني والذين انثنت أصلابهم من خشيتي وعزتي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب".

=

=

* لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله وخالفوا أمره، بين ما للمتقين فقال (إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم) أي: أن للمتقين -الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه- في الآخرة حدائق وبساتين ليس فيها إلا النعيم الخالص الذي لا يشوبه كدر ولا هم ولا غم كما هو حال الدنيا.

وقال تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار...).

وقال تعالى (لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط هل مر بك شدة قط فيقول لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط) رواه مسلم.

وعن أبى سعيد الخدري وأبى هريرة عن النبي ﷺ قال «ينادى مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبدا» فذلك قوله ﷻ (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) متفق عليه.

وعن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال (من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه) رواه مسلم.

وقال ﷺ: (قال تعالى: أعددت لعبادي الصالحين: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر).

- ومن أعظم النعيم رؤية الله تبارك وتعالى:

قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) الحسنى: الجنة، والزيادة: رؤية الله

=

=

تبارك وتعالى.

وعن صهيب عن النبي ﷺ قال (إذا دخل أهل الجنة الجنة- قال- يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار- قال- فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ، ثم تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) رواه مسلم.

**قال ابن القيم**: إن أفضل نعيم الآخرة وأجله وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله وسماع خطابه، ثم ذكر صهيب السابق وقال: فبين النبي ﷺ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة، لم يعطهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحب إليهم لأن ما يحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين البتة، ولهذا قال سبحانه وتعالى في حق الكفار (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم) فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار وعذاب الحجاب عنه سبحانه.

- قوله تعالى (إن للمتقين) التقوى مأخوذة من الوقاية، وهي: أن يجعل الإنسان لنفسه وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وهذا من أجمع التعاريف، وقد جاء في معناها آثار عدة عن السلف كلها داخلة تحت هذا المعنى.

قال علي: التقوى: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضى بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقال ابن مسعود: حقيقة تقوى الله: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وقال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب

=

=

الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله.

**قال ابن القيم**: وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى.

وروي أن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت؟ قال: تشمرت وحذرت، قال: فذاك التقوى.

قال ابن المعتز:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

كن مثل ماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

قال بعض العلماء: سمي المتقون بذلك: لأنهم اتقوا ما لا يتقى.

وفي الآية فضل التقوى وأنها من أسباب دخول الجنة.

كما قال تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين).

وقال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين).

وقال تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار).

وقال تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا).

وقال تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد).

وسئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: (تقوى الله وحسن الخلق) رواه الترمذي.

قوله تعالى: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} [القلم: ٣٥]، أي:"أفنجعل

=

=

الخاضعين لله بالطاعة كالكافرين؟".
**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: أفنجعل أيها الناس في كرامتي ونعمتي في الآخرة الذين خضعوا لي بالطاعة، وذلوا لي بالعبودية، وخشعوا لأمري ونهيي، كالمجرمين الذي اكتسبوا المآثم، وركبوا المعاصي، وخالفوا أمري ونهيي؟ كَلا ما الله بفاعل ذلك".
**قال ابن كثير**:"أي: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء".
قال مقاتل:"قال كفار مكة للمسلمين إنا نعطى في الآخرة من الخير أفضل مما تعطون يقول الله ﷻ: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ في الآخرة كَالْمُجْرِمِينَ} في الخير".
قال السمعاني:"أي: نسوي بين المسلمين والمشركين في إعطاء جنات النعيم، وهو مذكور على طريق الإنكار، أي: لا يفعل كذلك".
**قال الزمخشري**:"كان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين قالوا: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالهم وحالنا إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساوونا، فقيل: أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين".
قال الشوكاني:"الاستفهام للإنكار".
(أفنجعل المسلمين كالمجرمين) الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي أفنساوي بين المطيع والعاصي؟ أي: لا يمكن أن نساوي بينهم، لأن حكمة الله ﷻ تأبى ذلك وكذا عدله، فللمسلمين النعيم والثواب، وللمجرمين العذاب والعقاب.
**قال ابن كثير**: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء.

=

=

قوله تعالى (كالمجرمين) المجرمين: جمع مجرم، وهو مرتكب الجريمة، والجريمة الذنب الذي يستحق صاحبه العذاب والنكال.

قوله تعالى: {مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} [القلم: ٣٦]، أي:"ما لكم كيف حكمتم هذا الحكم الجائر، فساويتم بينهم في الثواب؟".

**قال ابن كثير**:"أي: كيف تظنون ذلك؟".

قال السمعاني:"أي: كيف تقضون؟ والمراد من الحكم هو حكمهم في أنفسهم بالجنة".

قال مقاتل:"يعني: تقضون إن هذا الحكم لجور أن تعطوا من الخير في الآخرة ما يعطى للمسلمين".

**قال الطبري**:"أتجعلون المطيع لله من عبيده، والعاصي له منهم في كرامته سواء. يقول جلّ ثناؤه: لا تسوّوا بينهما فأنهما لا يستويان عند الله، بل المطيع له الكرامة الدائمة، والعاصي له الهوان الباقي".

**قال الزمخشري**:"ثم قيل لهم على طريقة الالتفات: {ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} هذا الحكم الأعوج؟ كأنّ أمر الجزاء مفوّض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم".

(ما لكم كيف تحكمون) يعجب منهم حيث أنهم يسوون المطيع بالعاصي والمؤمن بالكافر، فإن مثل هذا لا يصدر عن عاقل.

قوله تعالى: {أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ} [القلم: ٣٧]، أي:"أم لكم كتاب منزل من السماء تجدون فيه المطيع كالعاصي، فأنتم تدرسون فيه ما تقولون؟".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره للمشركين به من قريش: ألكم أيها القوم بتسويتكم بين المسلمين والمجرمين في كرامة الله كتاب نزل من عند الله أتاكم به رسول من رسله بأن لكم ما تَخَيَّرون، فأنتم تدرسون فيه ما تقولون".

قال النحاس:"أي: هل لكم كتاب جاءكم من عند الله تدرسون فيه".

=

=

**قال ابن كثير**:"يقول: أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف، مُتضمن حكما مؤكدًا كما تدعونه؟".

قال السمعاني:"أي: تدرسون ما تحكمون به. وقيل: ترددون النظر فيه، فتحكمون منه لأنفسكم ما حكمتم".

**قال الزمخشري**:"{أَمْ لَكُمْ كِتابٌ} من السماء، {تَدْرُسُونَ} في ذلك الكتاب أنّ ما تختارونه وتشتهونه لكم، كقوله تعالى: {أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ}".

قال الشوكاني:"أي: تقرؤون فيه فتجدون المطيع كالعاصي".

قال ابن زيد:"فيه الذي تقولون تقرءونه: تدرسونه، وقرأ: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ}... إلى آخر الآية".

عن ابن جريج:"{تَدْرُسُونَ}، قال: تَقرؤون".

(أم لكم كتاب فيه تدرسون) (أم) هي المنقطعة التي بمعنى (بل) والمعنى يقول تعالى: أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف متضمنا حكما مؤكدا كما تدعونه؟

قوله تعالى: {إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ} [القلم: ٣٨]، أي:"تدرسون في هذا الكتاب أن لكم ما تشتهون وتطلبون؟".

**قال الطبري**: يقول:"إن لكم في ذلك الذي تخيرون من الأمور لأنفسكم، وهذا أمر من الله، توبيخ لهؤلاء القوم وتقريع لهم فيما كانوا يقولون من الباطل، ويتمنون من الأمانيّ الكاذبة".

قال السمعاني:"أي: تختارون، وهو بيان لذلك الحكم".

قال القشيري:"المقصود من هذه الأسئلة نفى ذلك".

قرأ الضحاك: "«أن لكم» بفتح الألف".

=

=

أي ألكم في هذا الكتاب فتختارون وتشتهون وتطلبون؟

قوله تعالى: {أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [القلم: ٣٩]، أي:"أم لكم عهود ومواثيق مؤكدة من جهتنا ثابتة إلى يوم القيامة؟".

**قال الطبري**:"يقول: هل لكم أيمان علينا تنتهي بكم إلى يوم القيامة".

قال مقاتل:"قل لهم: يا محمد: ألكم عهود علينا حلفنا لكم على يمين، فهي لكم علينا بالغة لا تنقطع إلى يوم القيامة؟".

قال النحاس:"أي: أم لكم أيمان حلفنا لكم بها منتهية إلى يوم القيامة إنّ لكم حكمكم".

**قال ابن كثير**:"أي: أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة".

قال السمعاني:"أي: مؤكدة، ومعنى «البالغة» -في كلام العرب في مثل هذه المواضع-: هو بلوغ النهاية، يقال: هذا شيء جيد بالغ، أي: بلغ النهاية في الجودة. وقوله: {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، يعني: اللزوم والثبات، وقيل: ألكم أيمان مؤكدة ألا نعذبكم إلى يوم القيامة".

عن ابن جريج:"{أيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ}، قال: عَهْدٌ علينا".

وقرأ الحسن، وزيد بن علي: (بالغة) بالنصب على الحال.

قوله تعالى: {إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ} أي:"إن لكم الذي تريدونه وتحكمون به؟".

قال مقاتل:"يعني ما تقضون لأنفسكم في الآخرة من الخير".

**قال ابن كثير**:"أي: أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون".

**قال الطبري**: "أي: بأن لكم حكمكم، ولكن الألف كسرت من "إن" لما دخل في الخبر اللام: أي هل لكم أيمان علينا بأن لكم حكمكم".

وقال عطاء: "يريد ألكم عهد مني ألا أصيبكم بعذاب ولا عقوبة".

=

=

**قال السعدي:**"ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة".

قوله تعالى: {سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ} [القلم: ٤٠]، أي:"سل المشركين -أيها الرسول-: أيهم بذلك الحكم كفيل وضامن بأن يكون له ذلك؟".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: سل يا محمد هؤلاء المشركين أيهم بأن لهم علينا أيمانا بالغة بحكمهم إلى يوم القيامة كفيل به، و «الزعيم» -عند العرب-: الضامن والمتكلم عن القوم".

قال مقاتل:"يقول: أيهم بذلك كفيل بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين من الخير".

**قال ابن كثير:**"أي: قل لهم: من هو المتضمن المتكفل بهذا؟".

**قال الفراء:**"يريد: كفيل، ويقال له: الحميل والقبيل، والصبير، والزعيم في كلام العرب: الضامن والمتكلم عنهم، والقائم بأمرهم".

**قال الزجاج:**"الزعيم الكفيل والضَامِنِ. والمعنى: سلهم أَيُّهُمْ كَفَلَ بِذَلِك".

**قال الزمخشري:**"{أَيُّهُمْ بِذلِكَ} الحكم {زَعِيمٌ}، أي: قائم به وبالاحتجاج لصحته، كما يقوم الزعيم المتكلم عن القوم المتكفل بأمورهم".

**قال السعدي:**"أي: أيهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدر بها، ولا الزعامة فيها".

قال ابن قتيبة:"يقال: زَعَمْتُ به أزعُم زَعْمًا وزَعَامَةً؛ إذا كَفَلْت".

عن ابن عباس، وقتادة، قوله: "{أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ}، يقول: أيهم بذلك كفيل".

قال قتادة:"أيّهم كفيل بهذا الأمر".

عن الحسن، وابن كيسان:"الزعيم: الرسول -ها هنا-".

قال الثعلبي:"الزعيم: الرسول -ها هنا-- قاله الحسن وابن كيسان- قائم بالحجة والدعوى".

=

=

و(الزعيم) الكفيل، أي سل يا محمد هؤلاء المشركين أيهم المتكفل الضامن أن المسلمين كالمجرمين في الجزاء، وأن للمجرمين ما يتخيرون وما يحكمون حتى يتبين ضعف هذا الادعاء وهذا الظن، إذ لا أحد يتكفل لهم بهذا ويضمنه لهم.

قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} [القلم: ٤١]، أي:"أم لهم آلهة تكفُل لهم ما يقولون، وتعينهم على إدراك ما طلبوا، فليأتوا بها إن كانوا صادقين في دعواهم؟".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: ألهؤلاء القوم شركاء فيما يقولون ويصفون من الأمور التي يزعمون أنها لهم، فليأتوا بشركائهم في ذلك إن كانوا فيما يدّعون من الشركاء صادقين".

**قال الزجاج:**"أي: فليأتوا بشركائهم يوم القِيَامةِ".

**قال الزمخشري:**"{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ}، أي: ناس يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم عليه ويذهبون مذهبهم فيه فَلْيَأْتُوا بهم إِنْ كانُوا صادِقِينَ في دعواهم، يعنى: أنّ أحدا لا يسلم لهم هذا ولا يساعدهم عليه، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد لهم به عند الله، ولا زعيم لهم يقوم به".

**قال ابن كثير:**"{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ}، أي: من الأصنام والأنداد، {فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}".

**قال البغوي:**"أي: عندهم شركاء لله أرباب تفعل هذا. وقيل: شهداء يشهدون لهم بصدق ما يدعونه. {فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}".

قال السمعاني:"{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ}، هذا على توسع الكلام، ومعناه: عندهم وفي زعمهم. وقيل: أم بهذا شهد الشركاء بمعنى الشهداء، ذكره النقاش، {فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}، أي: بشركاء فيهم على زعمهم على القول الأول، وعلى القول الثاني بشهاداتهم إن كانوا صادقين".

=

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢).

اذكر {يَوْم يُكْشَف عَنْ سَاق} هُوَ عِبَارَة عَنْ شِدَّة الْأَمْر يَوْم الْقِيَامَة لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاء يُقَال كَشَفَتْ الْحَرْب عَنْ سَاق إذَا اشْتَدَّ الْأَمْر فِيهَا {وَيُدْعَوْنَ إلَى السُّجُود} امْتِحَانًا لِإِيمَانِهِمْ {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} تَصِير ظُهُورهمْ طَبَقًا وَاحِدًا.

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣).

{خَاشِعَة} حَال مِنْ ضَمِير يَدْعُونَ أَيْ ذَلِيلَة {أَبْصَارهمْ} لَا يَرْفَعُونَهَا {تَرْهَقهُمْ} تَغْشَاهُمْ {ذِلَّة وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ} فِي الدُّنْيَا {إلَى السُّجُود وَهُمْ سَالِمُونَ} فَلَا يَأْتُونَ بِهِ بِأَنْ لَا يُصَلُّوا.

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤).

---

=

قال الشوكاني:"وهو أمر تعجيز".

وفي قراءة عبد الله: «أم لهم شرك فليأتوا بشركهم».

**قال الفراء**:"والشرك، والشركاء في معنى واحد، تقول: في هذا الأمر شرك، وفيه شركاء".

(أم لهم شركاء) أي: أم لهم شركاء من الأصنام والأنداد يكفلون لهم بذلك.

(فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين) فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم وزعمهم.

وهذا تعجيز للكفار والمراد إن كان لكم شركاء يقدرون على شيء فأتوا بهم وأحضروهم حتى نرى حالهم.

- وكل ما ذكر منتف عنهم، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله، ولا لهم شركاء يستطيعون تحقيق ذلك لهم، فدعواهم فاسدة وحكمهم باطل.

{فَذَرْنِي} دَعْنِي {وَمَنْ يُكَذِّب بِهَذَا الْحَدِيث} الْقُرْآن {سنستدرجهم} نأخذهم قليلا قليلا {من حيث لا يعلمون}.

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥).

{وَأُمْلِي لَهُمْ} أَمْهِلْهُمْ {إِنَّ كَيْدِي مَتِين} شَدِيد لا يطاق.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦).

{أَمْ} بَلْ أَ {تَسْأَلُهُمْ} عَلَى تَبْلِيغ الرِّسَالَة {أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَم} مِمَّا يُعْطُونَكَهُ {مُثْقَلُونَ} فَلَا يُؤْمِنُونَ لِذَلِكَ.

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧).

{أَمْ عِنْدهمْ الْغَيْب} أَيْ اللَّوْح الْمَحْفُوظ الَّذِي فِيهِ الْغَيْب {فَهُمْ يَكْتُبُونَ} مِنْهُ مَا يَقُولُونَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ} [القلم: ٤٢]، أي:"اذكر ذلك اليوم الذي يكشف عن ساق-وهو يوم القيامة-".

قال شيخ الإسلام -ابن تيمية-: "وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة وما رووه من الحديث ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف إلا في مثل قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ} [القلم: ٤٢]، فروي عن ابن عباس وطائفة أن المراد به الشدة أن الله يكشف عن الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في الصفات للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين، ولا ريب أن ظاهر القرآن لا يدل على أن هذه من الصفات فإنه قال: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ} [القلم: ٤٢]، نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله، ولم =

=

يقل عن ساقه، فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف".

لما ذكر تعالى أن للمتقين عنده جنات النعيم، بين متى ذلك كائن وواقع، فقال (يوم يكشف عن ساق) اختلف في تفسير قوله تعالى (عن ساق) على أقوال أهماها قولين:

القول الأول: عن ساق، أي: أمر عظيم، يعني: يكشف عن شدة وأمر عظيم.

قال ابن عباس: (يوم يكشف عن ساق) هو الأمر الشديد المقطع من الهول يوم القيامة.

فيكون المعنى: اذكر لهم- أي للمكذبين المشركين- ذلك المشهد من مشاهد يوم القيامة وما فيه من الهول حيث (يدعون إلى السجود) إلى الرحمن (فلا يستطيعون).

القول الثاني: أن المراد بالساق ساق الله تبارك وتعالى.

كما في الحديث الذي في البخاري عن أبي سعيد قال: قال ﷺ (يكشف ربنا عن ساق، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رئاء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا).

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: أما الأول فيؤيده اللفظ، وأما الثاني فيؤيده حديث أبي سعيد الطويل حيث ذكر النبي ﷺ أن الله يكشف عن ساقه.

فهل نأخذ بظاهر اللفظ، أو نقول: إن السنة تبين الظاهر وتحدد المعنى؟

هل نأخذ بظاهر اللفظ ونقول: المراد بالساق هنا الشدة، أو أن ساق الله ثبتت في الحديث والحديث تثبت به الصفات كما تثبت بالقرآن، أو نقول: إن الآية تفسر بما يطابق الحديث؟

=

=

نقول: لولا الحديث الذي فيه أن الله يكشف عن ساقه جل وعلا لحرم أن نفسر الساق بأنها ساق الله، لماذا؟

لأن الله لم يضفها إلى نفسه، وكل شيء لا يضيفه إلى نفسه لا يجوز أن تضيفه أنت إلى الله، لكن ما دامت السنة جاءت بالسياق المطابق للآية، وأن الساق هو ساق الرب ﷻ، فإننا نرجح أن المراد بالساق هنا ساق الله تبارك وتعالى.

والساق والرجل والقدم صفة من صفات الله الذاتية الخبرية.

قال الإمام ابن القيم في الصواعق المرسلة (١/ ٢٥٢، ٢٥٣): "والصحابة متنازعون في تفسير هذه الآية: هل المراد الكشف عن الشدة؟ أو المراد بها أن الرب تعالى يكشف عن ساقه؟ ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيها يذكر أنه من الصفات أم لا في غير هذا الموضوع، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفة لله؛ لأنه سبحانه لم يضف الساق إليه، وإنما ذكره مجردًا عن الإضافة منكرًا، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين والأصبع لم يأخذ ذلك من ظاهر القرآن، وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته، وهو حديث الشفاعة الطويل وفيه: "فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجدًا".

ومن حمل الآية على ذلك قال: قوله تعالى: "يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود" القلم: ٤٢: مطابق لقوله ﷺ: "فيكشف عن ساقة فيخرون له سجدًا".

وتنكيره للتعظيم والتفخيم كأنه قال: يكشف عن ساق عظيمة، جلت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثل أو شبيه، قالوا: وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجه؛ فإن لغة القوم في مثل ذلك أن يقال: كشف الشدة عن القوم لا كشف عنها كما قال تعالى: "فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون" الزخرف: ٥٠، وقال "ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر" المؤمنون: ٧٥، فالعذاب والشدة هو المكشوف لا المكشوف عنه، وأيضًا فهناك تحدث الشدة وتشتد، ولا تزال

=

=

إلا بدخول الجنة، وهناك لا يدعون إلى السجود، وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة" ا. هـ

**وقال العلامة** العثيمين في شرح العقيدة السفارينية (ص ٢١٧): فإن قال قائل: نوافقك على أن ما لم يضفه الله إلى نفسه فإننا لا نضيفه إليه، لكنك نقضت قاعدتك، فقلت في قوله تعالى: {يوم يُكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون} (القلم ٤٢). قلت: إن المراد بذلك ساق الله مع أن الله لم يضفه إلى نفسه فكيف تؤصل قاعدة ثم تنقضها؟ الجواب: فأقول: أنا لم أنقض القاعدة وأقول في الآية: {يوم يُكشف عن ساق}: يحتمل أن يراد بذلك ساق الله، ويحتمل أن يراد بالساق الشدة، وقد قال بهذين القولين السلف، فليس علي جناح إذا قلت: إن المراد بالساق في قوله تعالى: {يوم يُكشف عن ساق} أن المراد به الشدة، يعني يوم تتبين الشدة ويكشف عنها حتى تظهر كما يكشف عن الوجه حتى يتبين، فإذا قلت بهذا فإنه لا يصح أن تورد عليّ هذه الآية، لأنها جارية على القاعدة، أنا لم أضف الساق إلى الله لأن الله ما أضافه إلى نفسه، بل المراد بالساق هو الشدة، ولو ذهبت إلى أن المراد بالساق ساق الله، فإنني لم أذهب إلى ذلك إلا بدليل كما هو القول الثاني للسلف في الآية، والدليل: حديث أبي سعيد الطويل وفيه: (أن الله يأتي ﷻ فيكشف عن ساقه فيسجد له كل من كان يسجد لله تعالى في الدنيا)، فإن سياق الحديث يجاري سياق الآية تمامًا فتحمل الآية على ما جاء في الحديث، وتكون إضافتنا الساق لله في الآية بناء على الحديث، ومن المعلوم أن الحديث يفسر القرآن، وبهذا تكون القاعدة مضطردة ليس فيها نقص ا. هـ

(تنبيه): ليس مقصود الإمامين الجليلين أن الصحابة اختلفوا في إثبات صفة الساق لله ﷻ مع ورودها صراحة في حديث أبي سعيد المتقدم، بل مقصودهما

=

=

أنهم اختلفوا في تفسير الآية هل المراد بها الكشف عن الشدة، أو المراد الكشف عن ساق الله؟ والله أعلم.

**وقال العلامة** الألباني في الصحيحة تحت الحديث (٥٨٣): نعم ليس كمثله شيء و لكن لا يلزم من إثبات ما أثبته الله لنفسه من الصفات شيء من التشبيه أصلا كما لا يلزم من إثبات ذاته تعالى التشبيه، فكما أن ذاته تعالى لا تشبه الذوات و هي حق ثابت، فكذلك صفاته تعالى لا تشبه الصفات و هي أيضا حقائق ثابتة تتناسب مع جلال الله و عظمته و تنزيهه، فلا محذور من نسبة الساق إلى الله تعالى إذا ثبت ذلك في الشرع و أنا و إن كنت أرى من حيث الرواية أن لفظ " ساق " أصح من لفظ " ساقه " فإنه لا فرق بينهما عندي من حيث الدراية لأن سياق الحديث يدل على أن المعنى هو ساق الله تبارك و تعالى و أصرح الروايات في ذلك رواية هشام عند الحاكم بلفظ: "هل بينكم و بين الله من آية تعرفونها؟ فيقولون: نعم الساق، فيكشف عن ساق...". قلت: فهذا صريح أو كالصريح بأن المعنى إنما هو ساق ذي الجلالة تبارك و تعالى. فالظاهر أن سعيد بن أبي هلال كان يرويه تارة بالمعنى حين كان يقول: "عن ساقه". و لا بأس عليه من ذلك ما دام أنه أصاب الحق. و أن مما يؤكد صحة الحديث في الجملة ذلك الشاهد عن ابن مسعود الذي ذكره البيهقي مرفوعا و إن لم أكن وقفت عليه الآن مرفوعا و قد أخرجه ابن خزيمة في " التوحيد " (ص ١١٥) من طريق أبي الزعراء قال: "ذكروا الدجال عند عبد الله، قال: تقترفون أيها الناس عند خروجه ثلاث فرق... فذكر الحديث بطوله: و قال: ثم يتمثل الله للخلق، فيقول: هل تعرفون ربكم؟ فيقولون: سبحانه إذا اعترف لنا عرفناه فعند ذلك يكشف عن ساق، فلا يبقى مؤمن و لا مؤمنة إلا خر لله ساجدا". قلت: و رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الزعراء و اسمه عبد الله ابن هانئ الأزدي و قد وثقه ابن سعد و

=

=

ابن حبان و العجلي و لم يرو عنه غير ابن أخته سلمة ابن كهيل، و وجدت للحديث شاهدا آخر مرفوعا و هو نص في الخلاف السابق في " الساق " و إسناده قوي، فأحببت أن أسوقه إلى القراء لعزته و صراحته و هو: "إذا جمع الله العباد بصعيد واحد نادى مناد: يلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ويبقى الناس على حالهم، فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا و أنتم ههنا؟

فيقولون: ننتظر إلهنا، فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: إذا تعرف إلينا عرفناه فيكشف لهم عن ساقه، فيقعون سجدا و ذلك قول الله تعالى: (يوم يكشف عن ساق و يدعون إلى السجود فلا يستطيعون) و يبقى كل منافق، فلا يستطيع أن يسجد، ثم يقودهم إلى الجنة)".

**وقال العلامة** العثيمين أيضا في مجموع فتاواه (٨/ ٤١٣): قوله: «حتى يضع رب العزة فيها رجله» وفي رواية: "عليها قدمه " في هذا الحديث أن لله تعالى رجلا وقدما حقيقية، لا تماثل أرجل المخلوقين، ويسمي أهل السنة هذه الصفة: الصفة الذاتية الخبرية؛ لأنها لم تعلم إلا بالخبر، ولأن مسماها أبعاض لنا وأجزاء، لكن لا نقول بالنسبة لله: إنها أبعاض وأجزاء؛ لأن هذا ممتنع على الله ﷻ.

وخالف الأشاعرة وأهل التحريف في ذلك، فقالوا: "يضع عليها رجله "؛ يعني: طائفة من عباده مستحقين للدخول، والرجل تأتي بمعنى الطائفة؛ كما في «حديث أيوب عليه الصلاة والسلام؛ أرسل الله إليه رجل جراد من ذهب؛» يعني: طائفة من جراد، وهذا تحريف باطل؛ لأن قوله: "عليها ": يمنع ذلك.

وأيضا؛ لا يمكن أن يضيف الله ﷻ أهل النار إلى نفسه؛ لأن إضافة الشيء إلى الله تكريم وتشريف. وقالوا في القدم: قدم؛ بمعنى: مقدم؛ أي: يضع الله تعالى عليها مقدمه؛ أي: من يقدمهم إلى النار. وهذا باطل أيضا؛ فإن أهل النار لا يقدمهم

=

=

الباري ﷻ، ولكنهم {يوم يدعون إلى نار جهنم دعا} [الطور:١٣]، ويلقون فيها إلقاء، فهؤلاء المحرفون فروا من شيء ووقعوا في شر منه؛ فروا من تنزيه الله عن القدم والرجل، لكنهم وقعوا في السفه ومجانبة الحكمة في أفعال الله ﷻ، والحاصل أنه يجب علينا أن نؤمن بأن لله تعالى قدما، وإن شئنا؛ قلنا: رجلا؛ على سبيل الحقيقة؛ مع عدم المماثلة، ولا نكيف الرجل؛ لأن النبي ﷺ أخبرنا بأن لله تعالى رجلا أو قدما، ولم يخبرنا كيف هذه الرجل أو القدم، وقد قال الله تعالى: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [الأعراف:٣٣] ا. هـ

وقال الشيخ عبد الله الغنيمان في شرحه لكتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٥٥): قوله: "لا يزال يلقى فيها" الضمير "فيها" يعود إلى جهنم، والمعنى أنه يستمر إلقاء من يستحق النار فيها، وهي تطلب الزيادة منهم، قال الله-تعالى-: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ}. قال ابن كثير: "يخبر -تعالى- أنه يقول لجهنم: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو -سبحانه- يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى {فيها} وهي تقول: هل من مزيد؟ أي: هل بقي شيء تزيدني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث".

يقصد بالأحاديث مثل هذا الحديث، فإن ظاهره أن الاستفهام لطلب الزيادة، وهو الصحيح الذي يدل على ظاهر القرآن، والأحاديث الصحيحة.

قوله: "حتى يضع فيها رب العالمين قدمه"، في رواية: "حتى يضع رب العزة فيها قدمه" وهذه الرواية هي المناسبة لهذا الباب، ولكن البخاري اكتفى بالإشارة إليها على عادته، وفي رواية أبي هريرة: "يقال لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل

=

=

من مزيد؟ فيضع الرب -تبارك وتعالى- قدمه عليها"، وفي رواية: "حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ"، وفي أخرى: "حتى يضع رجله، فتقول: قط قط" وهذه الروايات كلها في البخاري، واتفق معه مسلم عليها.

وعند الدارقطني في "الصفات": "فأما النار فيلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ - ثلاث مرات- حتى يأتيها -تبارك وتعالى- فيضع قدمه عليها، فتنزوي، وتقول: قدني قدني".

وفي رواية: "لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الجبار - تبارك وتعالى- فيها قدمه، فهناك تنزوي"، وأخرج حديث أنس هذا أبو نعيم في "المستخرج" بلفظ: "حتى يضع الله فيها قدمه".

ففي مجموع هذه الروايات البيان الواضح بأن القدم والرجل -وكلاهما عبارة عن شيء واحد -صفة لله- تعالى- حقيقة على ما يليق بعظمته.

كما فيها إبطال تأويل المؤولة، نحو قولهم: "إن القدم: عبارة عن إذلال جهنم إذا بلغت في الطغيان، وقولهم: إن المراد بالقدم: الفرط السابق من المعذبين، أي يضع الله فيها ما قدمه لها من أهل العذاب، وقولهم: المراد بالقدم: قدم بعض المخلوقين، وقولهم: يجوز أن يكون مخلوقًا اسمه القدم، وقولهم: المراد بالقدم: الأخير من أهل النار، وقولهم: إنه اسم مكان عصي الله فيه، فيلقى في النار.

وقول الداودي: إن المراد بالقدم: قدم صدق، وهو محمد -ﷺ- والإشارة بذلك إلى شفاعته، وقال بعضهم: إن المراد بالقدم: قدم إبليس، إلى غير ذلك من السخافات المضحكة، الدالة على ضلال قائليها.

وزعم ابن الجوزي، وابن فورك: أن لفظ الرجل محرف من بعض الرواة عن القدم، وذهب مرة إلى تحريف المسمى بالتأويل، فقال: يحتمل أن يراد بالرجل:

=

=

الجماعة"، فهذه التأويلات الباردة يكفي العاقل المنصف مجرد ذكرها عن تكلف ردها بالدليل لظهور بطلانها، فهي في الحقيقة تحريف للكلام الواضح البين، كتحريف اليهود حينما قيل لهم: "ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة" فدخلوا يزحفون على أعجازهم وقالوا: حبة حنطة.

فبطلان قول هؤلاء المعطلة -الذين جعلوا صفات الله-تعالى- نوعًا من المخلوقات، وحاولوا إبطالها بالتأويلات البعيدة السخيفة-واضح وظاهر، وذلك من وجوه:

"الأول: أن النبي -ﷺ- قال: حتى يضع، ولم يقل: حتى يلقى {فيها} كما في قوله: "لا يزال يلقى في النار".

**الثاني**: أن قوله: "قدمه" لا يفهم منه هذا {الذي قالوه} لا حقيقة، ولا مجازًا، كما تدل عليه الإضافة.

**الثالث**: أن أولئك المؤخرين، إن كانوا من الأصاغر المعذبين، فلا وجه لانزوائها واكتفائها بهم، فإن ذلك إنما يكون بأمر عظيم، وإن كانوا من الأكابر المجرمين، فهم في الدرك الأسفل من النار، وفي أول المعذبين، لا في أواخرهم.

**الرابع**: أن قوله: "فينزوي بعضها إلى بعض" دليل على أنها تنضم على من فيها فتضيق بهم، من دون أن يلقى فيها شيء.

**الخامس**: أن قوله: "لا يزال يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها قدمه" جعل وضع القدم الغاية التي إليها ينتهي الإلقاء، ويكون عند ذلك الانزواء، فيقتضي أن تكون الغاية أعظم مما قبلها، وليس في قول {هؤلاء} المعطلة معنى للفظ {قدمه} إلا وقد اشترك فيه الأول والآخر، والأول أحق به من الآخر".

يضاف إلى ذلك: أن هذا الكلام الواضح البين الذي إذا سمعه السامع لم يتبادر

=

=

إلى ذهنه إلا ظاهره اللائق بجلال الله -تعالى-؛ فلو كان ظاهره غير مراد للمتكلم، وأن المراد منه ما ذكره هؤلاء المحرفون، لصار إلى الألغاز والتعمية أقرب، ولا يكون المتكلم بذلك قد أدى ما وجب عليه من البلاغ والبيان؛ وهذا من أبطل الباطل.

وقد علم أن المتكلم بهذا الكلام أفصح الناس وأقدرهم على الإيضاح والبيان لما يريد، وهو أيضًا أنصحهم لأمته، وأعلمهم بالله وبما يجب له، وما يمتنع عليه، وهو أيضا أحرصهم على إيصال الخير والنفع إلى الخلق، ودفع الشر عنهم، فيستحيل مع هذه الأمور أن يكون ظاهر كلامه باطلًا يدل على الكفر والتشبيه -كما زعم المعطلة المؤولة {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا}، فظهر بذلك بطلان قول المعطلة، والحمد لله رب العالمين.

قال أبو سعيد الدارمي: "وما دعوى المعطل بأن القدم: أهل الشقوة الذين تقدم في علم الله أنهم يلقون في جهنم، واستدلاله بما روي عن ابن عباس، في قوله- تعالى-: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ} (قال: ما قدموا من أعمالهم.

فيقال: من المشهور عن ابن عباس، أنه قال: "الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله"، وهذا صحيح مشهور عن ابن عباس، ودعوى المعطل أنها لا تمتلئ حتى يلقى الله فيها الأشقياء، الذين هم قدم الجبار -عند أهل التأويل- دعوى باطلة، وهل استزادت إلا بعد مصير الأشقياء إليها؟ أفيلقيهم فيها ثانية؟ أو أنه -تعالى- حبس عنها الأشقياء، وألقى فيها السعداء، فلما استزادت ألقى فيها أهل الشقوة؟

وأما ردهم الحديث بقوله- تعالى: {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}، قالوا: إن جهنم لا تمتلئ بغير الجن والإنس، ومن زعم غير ذلك فقد

=

=

كفر.

فيقال: إن هذه الآية لا تخالف قوله: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ} (، ويصح في الكلام أن يقال للممتلئ: استزاد، كما يمتلئ الرجل من الطعام، والشراب، وهو يقدر أن يستزيد، ويقال: امتلأ المسجد من الناس، وفيه فضل وسعة، وامتلأ الوادي ماء، وهو يحتمل أكثر مما فيه، وكما في الحديث: "يخرج المهدي، فيملأ الأرض قسطًا وعدلًا، كما ملئت جورًا وظلمًا" وفي الأرض سعة لأكثر من ذلك، فكذلك جهنم تمتلئ بما يلقى فيها من الجن والإنس، وتقول هل من مزيد؟ لفضل فيها، غضبًا لله -تعالى- على الكفار، حتى يفعل الجبار بها ما أخبر به رسوله، من وضعه قدمه فيها كما يشاء، وكما عنى رسول الله، فحينئذ تقول: حسبي حسبي، ولها خزنة يدخلونها غير معذبين بها، وفيها حيات، وعقارب.

وقال -تعالى-: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ {٣٠} وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}.

فقوله -تعالى-: {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}، لا يخالف هذه الآية، كما أنه لا يخالف قول الرسول -ﷺ-: "يضع الجبار فيها قدمه"، وإذا كانت جهنم لا تضر الخزنة الذين يدخلونها، ويقومون عليها، فكيف يستنكر وضع رب العالمين عليها قدمه؟".

(ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون) أي: ويطلب من المجرمين -تبكيتا لهم- أن يسجدوا كالمؤمنين فلا يقدرون عليه ولا يستطيعون الانحناء -لتصلب ظهورهم- لأنهم امتنعوا عن السجود لله وتوحيده في الدنيا يوم أن كان ذلك باستطاعتهم وينفعهم فعوقبوا بهذا، والجزاء من جنس العمل.

- قال ابن جزي: فإن قيل: كيف يدعون في الآخرة إلى السجود وليست الآخرة

=

=

دار تكليف؟

**فالجواب**: أنهم يدعون إليه على وجه التوبيخ لهم على تركهم السجود في الدنيا لا على وجه التكليف والعبادة.

قال ابن عاشور: وعدم استطاعتهم السجود لسلب الله منهم الاستطاعة على السجود ليعلموا أنهم لا رجاء لهم في النجاة.

قوله تعالى: {وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [القلم: ٤٢]، أي:"ويدعى أهل النفاق إلى السجود لله عند ظهور الأمر الشديد فلا يستطيعون السجود".

**قال الطبري**:"يقول: ويدعوهم الكشف عن الساق إلى السجود لله تعالى فلا يطيقون ذلك".

قال الخازن:"يعني: الكفار والمنافقين تصير أصلابهم كصياصي البقر أو كصفيحة نحاس فلا يستطيعون السجود".

قال مكي بن أبي طالب:"ودعاؤهم إلى السجود إنما هو على طريق التوبيخ لهم ليوقفوا على فعلهم في الدنيا إذا دعوا إلى السجود وهم سالمون لينتفعوا به فلم يفعلوا. روي أن أصلابهم تجف عقوبة فلا يطيقون السجود".

قال إبراهيم: "ولا يبقى مؤمن إلا سجد، ويقسو ظهر الكافر فيكون عظما واحدا".

قوله تعالى: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ} [القلم: ٤٣]، أي:"منكسرة أبصارهم لا يرفعونها".

قال ابن أبي زمنين:"أي: ذليلة".

قال السمعاني:"أي: ذليلة أبصارهم، والمراد منه ذل الندامة والحسرة".

قال ابن عباس: "يعني: حين أيقنوا بالعذاب وعاينوا النار".

عن قتادة: "{خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ} بسواد الوجوه".

=

=

قال الثعلبي:"وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم ووجوههم أشد بياضا من الثلج، وتسوّد وجوه الكافرين والمنافقين".

قوله تعالى: {تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} [القلم: ٤٣]، أي:"تغشاهم ذلة شديدة مِن عذاب الله".

قال ابن عباس: "يلحقهم ذل الندامة والحسرة".

**قال الطبري:**"يقول: تغشاهم ذلة من عذاب الله".

**قال الزجاج:**"معناه: تَغشاهم ذِلَّة".

قال السمعاني:"أي: يغشاهم الذل والهوان".

**قال ابن كثير:**"أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه. ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب، ﷻ، فيسجد له المؤمنون، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجُد، بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا، كلما أراد أحدهم أن يسجد خَرّ لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون".

قوله تعالى: {وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} [القلم: ٤٣]، أي:"وقد كانوا في الدنيا يُدْعَون إلى الصلاة لله وعبادته، وهم أصحَّاء قادرون عليها فلا يسجدون؛ تعظُّمًا واستكبارًا".

**قال الطبري:**"يقول: وقد كانوا في الدنيا يدعونهم إلى السجود له، وهم سالمون، لا يمنعهم من ذلك مانع، ولا يحول بينه وبينهم حائل. وقد قيل: السجود في هذا الموضع: الصلاة المكتوبة".

قال مقاتل:"يقول: كانوا معافون في الدنيا فتصير أصلابهم مثل سفافيد الحديد".

قال ابن عباس:"هم الكفار كانوا يدعون في الدنيا وهم آمنون، فاليوم يدعوهم

=

=

وهم خائفون، ثم أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فإنه قال: {مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ}، وأما في الآخرة فإنه قال: {فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم}".

عن قتادة، قوله: "{وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ}، ذلكم والله يوم القيامة. ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: "يُؤْذَنُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمُ الْقِيامَةِ فِي السُّجُودِ، فَيَسْجُدُ المؤمِنُونَ وَبَينَ كلِّ مُؤْمَنْيِن مُنَافِقٌ، فَيَقْسُو ظَهْرُ الْمُنَافِقِ عَنِ السُّجُودِ، وَيَجْعَلُ اللهُ سُجُودَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ تَوْبِيخا وَذُلا وَصَغارًا، وَنَدَامَةً وَحَسْرَةً".

قال قتادة:"بلغني أنه يُؤْذَن للمؤمنين يوم القيامة في السجود بين كل مؤمنين منافق، يسجد المؤمنون، ولا يستطيع المنافق أن يسجد؛ وأحسبه قال: تقسو ظهورهم، ويكون سجود المؤمنين توبيخا عليهم، قال: {وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ}".

عن إبراهيم التيمي: "{وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ}، قال: إلى الصلاة المكتوبة".

قال إبراهيم التيمي: "يدعون إلى الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة فيأبونه"..

قال سعيد بن جبير:"يَسْمَعُ المنادي إلى الصلاة المكتوبة فلا يجيبه". وفي رواية:"كانوا يسمعون حيّ على الفلاح فلا يجيئون".

عن سعيد بن جبير:"{وقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ}، قال: الصلوات في الجماعات".

قال كعب الأحبار: "والله ما نزلت هذه الآية إلّا في الذين يتخلّفون عن الجماعات".

عن كعب الأحبار، قال: "والذي أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على

=

=

عيسى، والزّبور على داود، والفرقان على محمد؛ لنَزَلَتْ هذه الآية في الصلوات المكتوبات حيث يُنادى بهن: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ} إلى قوله: {وقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ وهُمْ سالِمُونَ} الصلوات الخمس إذا نُودِي بها".

ويروى:"أنّ ربيع بن الجثم عرض له الفالج فكان يتهادى بين رجلين إلى المسجد، فقيل له: يا أبا يزيد لو جلست فإن لك رخصة، قال: من سمع حي على الفلاح فليجب ولو حبوا".

قيل لسعيد بن المسيب: "إنّ طارقا يريد قتلك فتغيّب، فقال: أحيث لا يقدره عليّ الله، فقيل له: فاجلس، فقال: أسمع حيّ على الفلاح فلا أجيب".

(خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) أي: هذه حال وجوه الكفار وأبصارهم يوم القيامة، إذ يدعون إلى السجود فلا يستطيعون فحينئذ تخشع أبصارهم، أي تذل وتهان (وترهقهم) أي تغشاهم (ذلة) ذل وخوف وهوان وصغار، كما قال تعالى (وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة).

- **قال ابن عطية**: جوارحهم كلها خاشعة، أي ذليلة ولكنه خص الأبصار بالذكر لأن الخشوع فيها أبين منه في كل جارحة.

- **وقال ابن عاشور**: وخشوع الأبصار: هيئة النظر بالعين بذلة وخوف، استعير له وصف (خاشعة) لأن الخاشع يكون مطأطئا مختفيا.

(وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) أي والحال أنهم كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود وهم أصحاء الجسم معافون فيأبون.

- **قال القرطبي**: قوله تعالى (وقد كانوا يدعون إلى السجود) أي: في الدنيا (وهم سالمون) معافون أصحاء.

قال بعض العلماء: لا يدعون إلى السجود تعبدا وتكليفا، ولكن توبيخا وتعنيفا على تركهم السجود في الدنيا، ثم إنه تعالى يسلب عنهم القدرة على السجود

=

ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندمهم على ما فرطوا فيه حين دعوا إليه في الدنيا وهم سالمون الأطراف والمفاصل.

قوله تعالى: {فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ} [القلم: ٤٤]، أي:"فذرني -أيها الرسول- ومَن يكذِّب بهذا القرآن، فإن عليَّ جزاءهم والانتقام منهم".

قال الثعلبي:"أي: فدعني والمكذبين بهذا القرآن".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كِلْ يا محمد أمر هؤلاء المكذبين بالقرآن إليّ، وهذا كقول القائل لآخر غيره يتوعد رجلا دعني وإياه، وخلني وإياه، بمعنى: انه من وراء مساءته".

**قال ابن كثير:**"يعني: القرآن. وهذا تهديد شديد، أي: دعني وإياه مني ومنه، أنا أعلم به كيف أستدرجه، وأمده في غيه وأنظر ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر".

**قال الزمخشري:**"يقال: ذرني وإياه، يريدون كله إلىّ، فإني أكفيكه، كأنه يقول: حسبك إيقاعا به أن تكل أمره إلىّ وتخلى بيني وبينه، فإني عامل بما يجب أن يفعل به مطيق له، والمراد: حسبي مجازيا لمن يكذب بالقرآن، فلا تشغل قلبك بشأنه وتوكل علىّ في الانتقام منه تسلية لرسول الله ﷺ، وتهديدا للمكذبين".

قوله تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [القلم: ٤٤]، أي:"سنمدهم بالأموال والأولاد والنعم؛ استدراجًا لهم من حيث لا يشعرون أنه سبب لإهلاكهم".

**قال السدي:** "يعني: القرآن".

**قال الطبري:**"يقول جلّ ثناؤه: سنكيدهم من حيث لا يعلمون، وذلك بأن يمتعهم بمتاع الدنيا حتى يظنوا أنهم متعوا به بخير لهم عند الله، فيتمادوا في طغيانهم، ثم يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون".

**قال ابن كثير:**"أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في

=

نفس الأمر إهانة، كما قال: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وقال: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام: ٤٤]".

قال التستري:"يعني: نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها، فإذا سكنوا وحجبوا عن المنعم أخذوا".

قال الكلبي: "نزين لهم أعمالهم فنهلكهم".

قال الضحاك: "كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة".

قال عطاء: "سنمكر بهم من حيث لا يعلمون".

قال سفيان الثوري: "نسبغ عليهم النعمة وننسيهم الشكر".

**قال السدي**:"سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون".

قال الحسن:"نتبع النعمة السيئة وننسيهم التوبة".

وقال الخليل بن أحمد: سنطوي وإن أعمارهم في اغترار منهم".

**قال السعدي**:"بأن يدر لهم الأرزاق".

قال العباد: "لم نعاقبهم في وقت مخالفتهم فيستيقظوا بل أمهلناهم ومددنا لهم في النعم حتى زال عنهم خاطر التدبير، فكانوا منعّمين في الظاهر مستدرجين في الحقيقة".

روي إبراهيم بن حماد، عن الحسن، قال: "كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مغبون بالثناء عيه ، وكم من مغرور بالستر عليه!".

قيل لذي النون: "ما أقصى ما يخدع به العبد؟ قال: بالألطاف والكرامات، لذلك قال سبحانه وتعالى: {سنستدرجهم من حيث لا يعلمون}، نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر، وأنشدوا:

=

=

**أَحسنتَ ظنَّك بالأَيَّام إِذْ حَسُنت... ولم تخَفْ سُوءَ ما يأتي به القَدَرُ**
**وسالَمَتْكَ اللَّيالي فاغتررتَ بها... وعند صفْو الليالي يحدُث الكَدَرُ"**

قال الأزهري: "الاستدراج: هو الأخذ قليلا قليلا، ومنه درج الكتاب".

قال الشوكاني:"الاستدراج: ترك المعاجلة، وأصله النقل من حال إلى حال، ويقال: استدرج فلان فلانا، أي: استخرج ما عنده قليلا قليلا، ويقال: درجه إلى كذا واستدرجه، بمعنى، أي: أدناه إلى التدريج فتدرج هو".

قال ابن عطية: "الاستدراج هو: الحمل من رتبة إلى رتبة، حتى يصير المحمول إلى شر وإنما يستعمل الاستدراج في الشر، وهو مأخوذ من الدرج".

وأصل "الاستدراج": اغترارُ المستدرَج بلطف من استدرجه، حيث يرى المستدرَج أن المستدرِج إليه محسنٌ، حتى يورِّطه مكروهًا.

وفي اشتقاق «الاستدراج»، قولان:

**أحدهما**: أنه مشتق من الدرج لانطوائه على شيء بعد شيء.

والثاني: أنه مشتق من الدرجة لانحطاطه من منزلة بعد منزلة.

قال الثعلبي:"قال أهل المعاني: الاستدراج أن ندرج إلى الشيء في خفية قليلا قليلا ولا يباغت ولا يجاهر. يقال: استدرج فلانا حتى تعرف ما صنع أي لا يجاهر ولا يهجم عليه، قال: ولكن استخرج ما عنده قليلا قليلا وأصله من: «الدرج»، وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مرقاة مرقاة فاستعير هذا عنه. ومنه: الكتاب إذا طوى شيئا بعد شيء، ودرج القوم، إذا مات بعضهم في دار بعض، ودرج الصبي، إذا قارب من خطاه في المشي".

**قال الزمخشري**:"استدرجه إلى كذا: إذا استنزله إليه درجة فدرجة، حتى يورطه فيه. واستدراج الله العصاة أن يرزقهم الصحة والنعمة، فيجعلوا رزق الله ذريعة ومتسلقا إلى ازدياد الكفر والمعاصي مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ أى: من الجهة التي لا

=

=

يشعرون أنه استدراج وهو الإنعام عليهم، لأنهم يحسبونه إيثارا لهم وتفضيلا على المؤمنين، وهو سبب لهلاكهم".

(فذرني ومن يكذب بهذا الحديث) أي القرآن، وهذا تهديد شديد، أي دعني وإياه، أنا أعلم به كيف استدرجه وأمده في غيه وأنظره ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر.

- **قال الرازي**: اعلم أنه تعالى لما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد في التخويف فخوفهم بما عنده، وفي قدرته من القهر، فقال: ذرني وإياه، يريد كله إلي، فإني أكفيكه، كأنه يقول: يا محمد حسبك انتقاما منه أن تكل أمره إلي، وتخلي بيني وبينه، فإني عالم بما يجب أن يفعل به قادر على ذلك.

والمراد بـ (الحديث) القرآن وتسميته حديثا لما فيه من الإخبار عن الله تعالى، وما فيه من أخبار الأمم وأخبار المغيبات، وقد سمي بذلك كما في قوله تعالى (فبأي حديث بعده يؤمنون) وقوله تعالى (أفمن هذا الحديث تعجبون)، وقوله (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون).

- **قال القرطبي**: وهذا تسلية للنبي ﷺ؛ أي فأنا أجازيهم وأنتقم منهم.

(سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) أي سنأخذهم لطريق الاستدراج بالنعم إلى الهلاك والدمار من حيث لا يشعرون.

- قال ابن كثير: (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) وقال تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون).

- **قال ابن عاشور**: والاستدراج: استنزال الشيء من درجة إلى أخرى في مثل السلم، وكان أصل السين والتاء فيه للطلب أي محاولة التدرج، أي التنقل في

=

=

الدرج، والقرينة تدل على إرادة النزول إذ التنقل في الدرج يكون صعودا ونزولا، ثم شاع إطلاقه على معاملة حسنة لمسيء إلى إبان مقدر عند حلوله عقابه.

- قال الحسن: كم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه.

- وقال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر.

- وقال أبو روق: أي كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار.

- **قال الرازي**: الاستدراج إنما حصل لهم من الإنعام عليهم لأنهم يحسبونه تفضيلا لهم على المؤمنين وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم.

قوله تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ} [القلم: ٤٥]، أي:"وأُمهلهم وأُطيل أعمارهم؛ ليزدادوا إثمًا".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: وأنسئ في آجالهم ملاوة من الزمان، وذلك برهة من الدهر على كفرهم وتمرّدهم على الله لتتكامل حجج الله عليهم".

**قال ابن كثير**:"أي: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم".

**قال الزمخشري**:"وأمهلهم، كقوله تعالى: {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا}، والصحة والرزق والمدّ في العمر: إحسان من الله وإفضال يوجب عليهم الشكر والطاعة، ولكنهم يجعلونه سببا في الكفر باختيارهم، فلما تدرجوا به إلى الهلاك وصف المنعم بالاستدراج".

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن الله تعالى ليُمْلي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه". ثم قرأ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢]".

قوله تعالى: {إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [القلم: ٤٥]، أي:"إن كيدي بأهل الكفر قويٌّ شديد".

**قال الطبري**:"يقول: إن كيدي بأهل الكفر قويّ شديد".

=

=

**قال ابن كثير**:"أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي".

قال ابن عباس: "يريد: إن مكري شديد".

عن ابن عباس، قال: "كيد الله العذاب والنقمة".

قال ابن عطية: "الكيد: عبارة عن العقوبة التي تحل بالكفار من حيث هي: على كيد منهم، فسمى العقوبة باسم الذنب، والمتين: القوي الذي له متانة، ومنه المتن الظهر".

عن السدي: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}، قال:"كف عنهم وأخرجهم على رسلهم ان مكري شديد ثم نسخها الله فأنزل الله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم} [التوبة: ٥]، الآية".

فقوله: (وأملي لهم) أي أؤخرهم وأنظرهم وأمدهم وذلك من كيدي ومكري بهم.

(إن كيدي متين) أي عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي واجترأ على معصيتي، والكيد: المكر بخفية.

قال تعالى (إنهم يكيدون كيدا. وأكيد كيدا. فمهل الكافرين أمهلهم رويدا).

وقال تعالى (يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

قوله تعالى: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا} [القلم: ٤٦]، أي:"أم تسأل -أيها الرسول- هؤلاء المشركين أجرا دنيويا على تبليغ الرسالة".

قال ابن زيد:"يقول: أسألتَهم على هذا أجرا".

قال ابن جريج:"يقول: أسألتَ هؤلاء القوم على الإسلام أجرًا".

قل قتادة:"يقول: هل سألتَ هؤلاء القوم أجرًا".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أتسأل يا محمد هؤلاء

=

=

المشركين بالله على ما أتيتهم به من النصيحة، ودعوتهم إليه من الحقّ، ثوابا وجزاء".

**قال ابن كثير**:"المعنى: أنك يا محمد تدعوهم إلى الله، ﷻ، بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله، ﷻ، وهم يكذبون بما جئتهم به، بمجرد الجهل والكفر والعناد".

قوله تعالى: {فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ} [القلم: ٤٦]، أي:"فهم معرضون عن الإيمان بسبب ذلك التكليف الثقيل ببذلهم المال؟".

قال ابن زيد:"فأثقلهم الذي يُبْتَغَى أخذُه منهم".

قال ابن جريج:"فمنعهم مِن أن يسلموا الجُعل؟!".

قل قتادة:"يجهدهم [أي الأجر]، فلا يستطيعون الإسلام؟!".

**قال الطبري**:"يعني: من غرم ذلك الأجر مثقلون، قد أثقلهم القيام بأدائه، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك، وتجنبوا لعظم ما أصابهن من ثقل الغرم الذي سألتهم على ذلك الدخول في الذي دعوتهم إليه من الدين".

(أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون) أي: أتسألهم يا محمد غرامة مالية على تبليغ الرسالة، فهم معرضون عن الإيمان بسبب ذلك التكليف الثقيل ببذلهم المال؟

الغرض توبيخهم في عدم الإيمان فإن الرسول ﷺ لا يطلب منهم شيئا من الأجر.

**قال ابن كثير**: والمعنى في ذلك أنك يا محمد تدعوهم إلى الله ﷻ بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجوا ثواب ذلك عند الله تعالى وهم يكذبون بما جئتهم بمجرد الجهل والكفر والعناد.

قوله تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ} [القلم: ٤٧]، أي:"بل أعندهم علم الغيب، فهم يكتبون عنه ما يحكمون به لأنفسهم مِن أنهم أفضل منزلة عند الله مِن

=

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨).

{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبّك} فِيهِمْ بِمَا يَشَاء {وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوت} فِي الضَّجَر وَالْعَجَلَة وَهُوَ يُونُس عَلَيْهِ السَّلَام {إِذْ نَادَى} دَعَا رَبّه {وَهُوَ مَكْظُوم} مَمْلُوء غَمًّا فِي بَطْن الْحُوت.

لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩).

{لولا أن تداركه} أدركه {نعمة}.

فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠).

{فاجتباه ربه} بالنبوة {فجعله من الصالحين} الأنبياء.

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١).

{وَإِنْ يَكَاد الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ} بِضَمِّ الْيَاء وبفتحها {بِأَبْصَارِهِمْ} يَنْظُرُونَ

---

=

أهل الإيمان به؟".

عن ابن جريج: "{أَمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ}، قال: القرآن".

قال عباس: "أم عندهم اللوح المحفوظ؟".

**قال الطبري:** "يقول: أعندهم اللوح المحفوظ الذي فيه نبأ ما هو كائن، فهم يكتبون منه ما فيه، ويجادلونك به، ويزعمون أنهم على كفرهم بربهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به".

قال الحسن: "الغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

أي أم هل عندهم اللوح المحفوظ الذي فيه الغيب، فهم ينقلون منه أنهم خير من أهل الإيمان، فلذلك أصروا على الكفر والطغيان؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ.

إِلَيْك نَظَرًا شَدِيدًا يَكَاد أَنْ يَصْرَعك وَيُسْقِطك مِنْ مَكَانك {لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْر} الْقُرْآن {وَيَقُولُونَ} حَسَدًا {إنَّهُ لَمَجْنُون} بِسَبَبِ الْقُرْآن الَّذِي جَاءَ بِهِ.

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢).

{وَمَا هُوَ} أَيْ الْقُرْآن {إلَّا ذِكْر} مَوْعِظَة {لِلْعَالَمِينَ} الْجِنّ وَالْإِنْس لَا يَحْدُث بِسَبَبِ جُنُون(١).

---

(١) قوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [القلم: ٤٨]، أي:"فاصبر -أيها الرسول- لما حكم به ربك وقضاه، ومن ذلك إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فاصبر يا محمد لقضاء ربك وحكمه فيك، وفي هؤلاء المشركين بما أتيتهم به من هذا القرآن، وهذا الدين، وامض لما أمرك به ربك، ولا يثنيك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تكذيبهم إياك وأذاهم لك".

قال النحاس:"أي: اصبر على أداء الرسالة واحتمل أذاهم ولا تستعجل لهم العذاب".

**قال ابن كثير**:"يقول تعالى: {فَاصْبِرْ} يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم؛ فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة".

قوله تعالى: {وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ} [القلم: ٤٨]، أي:"ولا تكن كصاحب الحوت، وهو يونس -عليه السلام- في غضبه وعدم صبره على قومه".

**قال الطبري**:"الذي حبسه في بطنه، وهو يونس بن مَتَّى ﷺ فيعاقبك ربك على تركك تبليغ ذلك، كما عاقبه فحبسه في بطنه".

قال النحاس: أي: "في ما عمله من خروجه عن قومه وغمّه بتأخر العذاب عنهم".

**قال ابن كثير**:"يعني: ذا النون، وهو يونس بن متى، عليه السلام، حين ذهب مُغَاضِبًا =

=
على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يُرَدّ ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات. {أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٨٧]. قال الله {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء: ٨٨]".

قال قتادة:"يقول: لا تعجل كما عَجِل، ولا تغضب كما غضب".

قال ابن جريج:"لا تُغاضِب كما غاضب يونس".

عن وهب بن منبه:"إنّ يونس بن مَتّى كان عبدًا صالحًا، وكان في خُلُقِه ضيق، فلما حملت عليه أثقال النبوة -ولها أثقال لا يحملها إلا قليل- تَفَسَّخَ تحتها تَفَسُّخَ الرُّبَعِ تحت الحِمْل، فقذفها بين يديه، وخرج هاربًا منها. يقول الله لنبيه ﷺ: {فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل} [الأحقاف: ٣٥]، {فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت} [القلم: ٤٨]، أي: لا تُلْقِ أمري كما ألقاه".

قوله تعالى: {إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ} [القلم: ٤٨]، أي:"حين نادى ربه، وهو مملوء غمًّا طالبًا تعجيل العذاب لهم".

**قال الطبري**:"يقول: إذ نادى وهو مغموم، قد أثقله الغمّ وكظمه".

**قال الزجاج**:"أي: مملوء غَمًّا وكربًا".

عن ابن عباس، ومجاهد، قوله: "{إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}، يقول: مغموم".

وقال عطاء الخراساني، وأبو مالك:"مكروب".

قال النحاس: "المكظوم -في كلام العرب-: الذي قد اغتمّ لا يجد من يتفرّج إليه فقد كظم غيظه، أي: أخفاه".

(فاصبر) يقول تعالى: فاصبر يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم، فإن الله سيحكم لك عليهم ويجعل العاقبة لك كما قال تعالى (فاصبر كما صبر أولوا
=

=

العزم من الرسل) أي: على تكذيب قومهم لهم، وأولوا العزم: أي أرباب الثبات والحزم فإنك منهم.

والصبر: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وإنما أمره بالصبر لأمور:

**أولا**: لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر).

**ثانيا**: أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات.

**ثالثا**: وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون).

**رابعا**: وليكون قدوة لغيره.

(ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) صاحب الحوت هو يونس عليه السلام، كما قال تعالى (وإن يونس لمن المرسلين. إذ أبق إلى الفلك المشحون... فالتقمه الحوت وهو مليم).

(إذ نادى) نداءه أخبر الله عنه كما قال سبحانه (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

وقوله تعالى (ولا تكن كصاحب الحوت) نهى عن مشابهته في الضجر والعجلة والغضب على قومه، الذي آل به إلى تركهم وركب السفينة فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم، وليس المراد: ولا تكن كصاحب الحوت في دعائه وندائه.

قال قتادة: إن الله تعالى يقوي نبيه ﷺ ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت.

=

=

قوله تعالى (كصاحب الحوت) قال ابن عاشور: والصاحب: الذي يصحب غيره، أي يكون معه في بعض الأحوال أو في معظمها، وإطلاقه على يونس لأن الحوت التقمه ثم قذفه فصار (صاحب الحوت) لقبا له لأن تلك الحالة معية قوية.

(وهو مكظوم) أي مملوء غما وهما.

قوله تعالى: {لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [القلم: ٤٩]، أي:"لولا أن تداركه نعمة مِن ربه بتوفيقه للتوبة وقَبولها".

**قال الطبري:**"يقول جلّ ثناؤه: لولا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من ربه، فرحمه بها، وتاب عليه من مغاضبته ربه".

قال سهل:"يعني: لولا ما حفظ الله له ما سلف من عمله الصالح، بما جرى به من اجتبائه في الأزل، فاستنقذه به وتداركه".

وفي قراءة ابن مسعود: «لولا أن تداركته» على تأنيث النعمة والتذكير: لأنه تأنيث غير حقيقي وروي عن الأعرج «لولا أن تدّاركه» بتشديد الدال، والأصل تتداركه أدغمت التاء في الدال.

قوله تعالى: {لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ} [القلم: ٤٩]، أي:"لَطُرِح مِن بطن الحوت بالأرض الفضاء المهلكة، وهو آتٍ بما يلام عليه".

قال مقاتل:"ولكن تداركه {نعمة} يعني: رحمة من ربه، فنبذناه بالعراء وهو سقيم".

**قال الزجاج:**"المعنى: أنه قد نبذ بالعراء وهو غير مذموم، ويدل على ذلك أن النعمة قد شَمِلته".

**قال الفراء:**"العراء: الأرض".

**قال الزجاج:**"العراء: المكان الخالي".

=

=

قال أبو عبيدة:"لألقى بوجه الأرض، قال رجل من خزاعة يقال له قيس ابن جعدة أحد الفزارين:

**دفعت رجالا لا أخاف عثارها... ونبذت بالبلد العراء ثيابى".**

وقال سهل:"العراء: أرض القيامة، إذ لا زرع فيها، ولا نبت، ولم يكن له ذنب سوى أنه شغل قلبه بتدبير ما لم يكن تدبيره إليه، كما فعل آدم عليه السلام".

(لولا أن تداركه نعمة من ربه) اختلف العلماء في المراد بالنعمة:

فقيل: النبوة، والمعنى: لولا أن الله قد جعله نبيا.

وقيل: هو فضل الله عليه ونعمته عليه بعبادته السابقة، أي فلولا عبادته السابقة التي تفضل الله بها عليه.

وقيل: لولا أن رحمه الله.

(لنبذ بالعراء وهو مذموم) أي: لولا أن أدركته رحمة الله حيث ألهمه الله التوبة ووفقه لها (لنبذ) أي: لطرح بالفضاء الواسع وهو مذموم لكن لما تاب الله عليه طرح على ساحل البحر وهو غير مذموم بل محمود.

اعلم أن المنفي هو الذم لا نبذه بالعراء، فمعنى الآية: لولا نعمة ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم لكنه نبذ وهو غير مذموم.

قال الشنقيطي: بين تعالى أنه لم ينبذ بالعراء على صفة مذمومة، بل إنه تعالى أنبت عليه شجرة تظله وتستره كما قال تعالى: وأنبتنا عليه شجرة من يقطين.

قوله تعالى: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ} [القلم: ٥٠]، أي:"فاصطفاه ربه لرسالته".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: فاجتبى صاحبَ الحوت ربُّه، يعني: اصطفاه واختاره لنبوّته".

قال ابن عباس:"فاستخلصه واصطفاه الله".

**قال الزجاج:**"هذا تخليصٌ له من الذَّم".

=

=

قوله تعالى: {فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} [القلم: ٥٠]، أي:"فجعله من الصالحين الذين صلحت نياتهم وأقوالهم وأعمالهم".

**قال الطبري**:"يعني: من المرسلين العاملين بما أمرهم به ربهم، المنتهين عما نهاهم عنه".

قال النحاس:"قيل: المعنى: فوصفه جلّ وعزّ أنه من الصالحين. وقد حكى سيبويه «جعل» بمعنى: «وصف»، وقيل: وفّقه الله تعالى لطاعته حتى صلح".

**قال ابن كثير**:"لما قال: {لا إِلَـهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} خرجت الكلمة تَحُفّ حول العرش، فقالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال الله: أما تعرفون هذا؟ قالوا: لا. قال: هذا يونس. قالوا: يا رب، عبدك الذي لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة؟ قال: نعم. قالوا: أفلا ترحم ما كان يعمله في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء؛ ولهذا قال تعالى: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}".

قال ابن عباس: "رد إليه الوحي وشفعه في قومه وفي نفسه".

عن عوف، عن سعيد بن أبي الحسن، قال: "بلغني أن يونس لما أصاب الذنب، انطلق مغاضبا لربه، واستزلَّه الشيطان، حتى ظن أن لن نقدر عليه، قال: وكان له سلف وعبادة وتسبيح، فأبى الله أن يدعه للشيطان، فأخذه فقذفه في بطن الحوت، فمكث في بطن الحوت أربعين من بين ليلة ويوم، فأمسك الله نفسه فلم يقتله هناك، فتاب إلى ربه في بطن الحوت، وراجع نفسه، قال: فقال {سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، قال:

فاستخرجه الله من بطن الحوت برحمته، بما كان سلف من العبادة والتسبيح، فجعله من الصالحين، قال عوف: وبلغني أنه قال في دعائه: وبنيت لك مسجدا في مكان لم يبنه أحد قبلي".

=

=

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى".

(فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) أي: اصطفاه مرة ثانية بعد الأولى فجعله من الصالحين أي الكاملين الصلاح من الأنبياء والمرسلين وأرسله مرة ثانية إلى أهل بلاده بعد ذلك الانقطاع كما قال تعالى (وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون).

قوله تعالى: {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ} [القلم: ٥١]، أي: "وإن يكاد الكفار حين سمعوا القرآن ليصيبونك -أيها الرسول- بالعين؛ لبغضهم إياك، لولا وقاية الله وحمايته لك".

اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على قولين:

**أحدهما:** أن الكفار قصدوا أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين، وكان فيهم رجل يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل شيئًا، ثم يرفع جانب خبائه، فتمرُّ به النَّعم، فيقول: لم أر كاليوم إبلًا ولا غنمًا أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلًا حتى يسقط منها عدة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين، فعصم الله نبيَّه، وأنزل هذه الآية، وهذا قول الكلبي، وتابعه قوم من المفسرين تلقَّفوا ذلك من تفسيره، منهم الفراء.

**قال الفراء:**"أي: ليلقونك بأبصارهم، وذلك أن العرب كان أحدهم إذا أراد أن يعتان المال، أي: يصيبه بالعين تجوع ثلاثا، ثم يتعرض لذلك المال، فيقول: تالله مالا أكثر ولا أحسن، يعني: ما رأيت أكثر، فتسقط منه الأباعر، فأرادوا برسول الله ﷺ مثل ذلك فقالوا: ما رأينا مثل حججه، ونظروا إليه ليعينوه، فقالوا: ما رأينا مثله، وإنه لمجنون.. ويقال: «وإن كادوا ليزلقونك»، أي: ليرمون بك عن موضعك، ويزيلونك عنه بأبصارهم، كما تقول: كاد يصرعني بشدة نظره، وهو بين من كلام العرب كثير، كما تقول: أزهقت السهم فزهق".

=

=

**قال البغوي**:"قيل: كانت العين في بني أسد حتى كانت الناقة والبقرة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يا جارية خذي المكتل والدراهم فأتينا بشيء من لحم هذه فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر".

قال القشيري:"كانوا إذا أرادوا أن يصيبوا شيئا بأعينهم جاعوا ثلاثة أيام، ثم جاعوا ونظروا إلى ذلك الشيء قائلين: ما أحسنه من شئ! فكان يسقط المنظور في الوقت. وقد فعلوا ذلك بالنبي صلوات الله عليه، فقالوا: ما أفصحه من رجل! ولكنّ الله سبحانه حفظه، ومن بذكره عليه".

**قال ابن كثير**:"أي: ليعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم. وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله، ﷻ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة".

**الثاني**: أنهم كانوا ينظرون إليه بالعداوة نظرا سديدا يكاد يُزْلِقُه من شدته، أي: يلقيه إلى الأرض. وهذا مستعمل في كلام العرب. يقول القائل: نظر إليَّ فلان نظرًا كاد يصرعني. وأنشدوا:

يَتَقَارَضُون- إذا الْتَقَوْا في مَوْطِنٍ -... نظَرًا يُزِيلُ مَوَاطِئَ الأَقْدَامِ

أي: ينظر بعضهم إلى بعض نظرًا شديدًا بالعداوة يكاد يزيل الأقدام، وإلى هذا ذهب المحققون، منهم ابن قتيبة، والزجاج.

وعلّق ابن قتيبة على كلام الفراء قائلا:"قال الفراء: «يَعْتانونك أي يصيبونك بأعينهم»؛ وذكر: "أن الرجل من العرب كان يَمْثُل على طريق الإبل -إذا صَدَرَتْ عن الماء- فيُصيبُ منها ما أراد بعينه، حتى يُهلِكَه". هذا معنى قوله، وليس هو بعينه. ولم يرد الله جلّ وعزّ -في هذا الموضع- أنهم يصيبونك بأعينهم، كما يُصيبُ العائن بعينه ما يَسْتَحْسِنُه ويَعجَب منه. وإنما أراد: أنهم ينظرون إليك -إذا

=

=

قرأتَ القرآن- نظرًا شديدًا بالعداوة والبغضاء، يكاد يُزلِقك، أي يُسقطك".

**قال الزجاج**:"فأما مذهب أهل اللغة فالتأويل عندهم أنه من شدة إبغَاضِهِم لك وعدوانهم يكادون بِنَظَرهم نَظَر البغضاء أن يضروك، وهذا مستعمل في الكلام، يقول القائل: نظر إليَّ نظرًا يكاد يَصْرَعنِي بِهِ، ونظرًا يكاد يأكلني فيه. وتأويله كله أنه نظر إليَّ نظرًا لو أمكنه معه أكلي أَوْ أَن يَصْرَعَنِي لفعَلَ. وهذا بين واضح".

**قال الطبري**:"يقول جلّ ثناؤه: وإن يكاد الذين كفروا يا محمد يَنْفُذونك بأبصارهم من شدة عداوتهم لك ويزيلونك فيرموا بك عند نظرهم إليك غيظا عليك، لما سمعوا كتاب الله يتلى".

قال مقاتل:"يعني: المستهزئين من قريش {لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ}، يعني: يبعدونك، حين سمعوا القرآن كراهية له".

قال ابن الجوزي:"ويدل على صحته أن الله تعالى قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهو قوله تعالى: لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ والقوم كانوا يكرهون ذلك أَشَدَّ الكراهة، فيُحِدُّون النظر إليه بالبغضاء. وإصابةُ العين، إنما تكون مع الإعجاب والاستحسان، لا مع البغض فلا يُظن بالكلبي أنه فهم معنى الآية".

فأقوال المفسرين واللغويين تدل على أن مرادهم بالنظر إليه قتله ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة حتى يهلك، يقال: زلقه، يزلقه، أزلقه، إذا نحّاه وأبعده. فمعنى الكلمة إذا التنحية والإزالة، وذلك لا يكون في حقّ النبي ﷺ إلا بهلاكه وموته. والله أعلم.

قال ابن عباس:"يقول: يُنْفُذونك بأبصارهم من شدّة النظر، يقول ابن عباس: يقال للسهم: زَهَق السهم أو زلق".

عن ابن عباس، ومجاهد:"يقول: لَيَنْفُذونك بأبصارهم".

عن ابن عباس، وقتادة:"يقول: ليزهقونك بأبصارهم".

=

=

عن عبد الله أنه كان يقرأ: «وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْهِقُونَكَ»".
قال الحسن البصري: "{لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ} ليَقْتلونك".
وقال الكلبي:"ليصْرَعونك".
قال عطاء الخراساني:"ليزيلونك بأبصارهم".
قال زيد بن أسلم:"لَيمَسّوك".
قال عطية العوفي:"يرمونك".
**قال السدي**:"يُصيببونك بعيونهم".
قال قتادة:"ليرهقوك".
قال قتادة:"لينفذونك بأبصارهم معاداة لكتاب الله، ولذكر الله".
قال الضحاك:"يقول: يَنْفذونك بأبصارهم من العداوة والبغضاء".
قال محمد بن سائب الكلبي:"لَيَصْرعُونك". وفي رواية:"يَصْرفُونك عمّا أنت عليه من تبليغ الرسالة".
قال أبو عبيدة:"{لَيُزْلِقُونَكَ}، ولينقذونك، وكل ذاك إزلاق".
وقرئ: «لَيَزْلِقُونَكَ»، بفتح الياء.
قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} [القلم: ٥١]، أي:"ويقولون: -حسب أهوائهم- إنه لمجنون".
**قال الطبري**: يقول:"يقول هؤلاء المشركون الذين وصف صفتهم إن محمدا لمجنون، وهذا الذي جاءنا به من الهذيان الذي يَهْذِي به في جنونه".
**قال ابن كثير**:"أي: يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم، ويقولون: {إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ}، أي: لمجيئه بالقرآن".
**قال الزمخشري**: يقولون ذلك" حيرة في أمره وتنفيرا عنه، وإلا فقد علموا أنه أعقلهم. والمعنى: أنهم جننوه لأجل القرآن".

=

=

قال الحسن: "دواء إصابة العين أن يقرأ الإنسان هذه الآية".

عن أنس- قال: قال النبي ﷺ: "لا رقية إلا من عين أو حُمة أو دم لا يرقأ".

بُرَيدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: "لا رقية إلا من عين أو حُمة".

عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: "إن العين لتولع الرجلَ بإذن الله، فيتصاعد حالقا، ثم يتردى منه".

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "العين حق، العين حق، تستنزل الحالق".

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "العين حق، ولو كان شيء سَابَقَ القَدَرَ سَبَقَت العين، وإذا اغْتُسلتم فاغسلوا".

عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذ الحسن والحسين، يقول: "أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهَامَّة، ومن كل عين لامَّة"، ويقول هكذا كان إبراهيم يُعَوِّذ إسحاق وإسماعيل، عليهما السلام".

عن أبي أمامة ابن سهل بن حُنَيف قال: مر عامر بن ربيعة بسهل بن حُنَيف، وهو يغتسل، فقال: لم أر كاليوم ولا جلدَ مخبأة. فما لبث أن لُبِطَ به، فأتي به رسول الله ﷺ فقيل له: أدرك سهلا صريعًا. قال: "من تتهمون به؟". قالوا: عامر بن ربيعة. قال: "علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يُعجبه فَلْيَدعُ له بالبركة". ثُم دعا بماء فأمر عامرًا أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه، ودَاخِلة إزاره، وأمره أن يصب عليه. قال سفيان: قال مَعْمَر، عن الزهري: وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه".

عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس. فلما نزل المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك".

عن أبي سعيد: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال: اشتكيت يا محمد؟ قال:

=

=

"نعم". قال باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس و عين يشفيك، باسم الله أرقيك".

عن أبي سعيد- أو: جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ اشتكى، فأتاه جبريل فقال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من كل حاسد وعين والله يُشفيك".

عن أبي هُرَيرة عن رسول الله ﷺ: "إن العين حق".

عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ "العين حق، ويحضُرها الشيطانُ، وحسد ابن آدم".

عن عُبَيد بن رفاعة الزُرقي قال: قالت أسماء: يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: "نعم، فلو كان شيء يسبق القدرَ لسبقته العين".

عن عائشة:"أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين".

عن عائشة، قالت: "كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه المَعين".

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: "استعيذوا بالله فإن النفس حق".

عن أبي أمامة بن سَهل بن حُنَيف: أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة، حتى إذا كانوا بشعب الخَرَار- من الجحفة- اغتسل سهلُ بن حُنَيف- وكان رجلا أبيض حَسن الجسم والجلد- فنظر إليه عامر بن ربيعة، أخو بني عدي بن كعب، وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مُخَبَّأة. فلُبِطَ سهل، فأتي رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله، هل لك في سهل. والله ما يرفع رأسه ولا يُفيق. قال: "هل تتهمون فيه من أحد؟". قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة. فدعا رسول الله ﷺ عامرا، فتغيظ عليه، وقال: "علام يقتل أحدكم أخاه، هلا إذا رأيت ما يعجبك بَركت؟". ثم قال له: "اغتسل له"- فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه ودَاخلَة إزاره في قَدح- ثم صُب ذلك الماء عليه. يَصُبَه رجل على رأسه وظهره من خلفه، ثم يكفأ القدح وراءه. ففعل ذلك، فراح سهل

=

=

مع الناس، ليس به بأس".

عن عبد الله بن عامر قال: انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل، قال: فانطلقا يلتمسان الخمرَ- قال: فوضع عامر جُبَّة كانت عليه من صوف، فنظرت إليه فأصبته بعيني فنزل الماء يغتسل. قال: فسمعت له في الماء فرقعة، فأتيته فناديته ثلاثا فلم يجبني. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته. قال: فجاء يمشي فخاض الماء كأني أنظر إلى بياض ساقيه، قال: فضرب صدره بيده ثم قال: "اللهم اصرف عنه حرها وبردها ووصبها". قال: فقام. فقال رسول الله ﷺ: "إذا رأى أحدكم من أخيه، أو من نفسه أو من ماله، ما يعجبه، فَلْيُبَرِّك، فإن العين حق".

عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس". قال البزار: "يعني: العين".

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: "العين حق، لتُورِد الرجل القبر، والجمل القِدر، وإن أكثر هلاك أمتي في العين".

مسائل في العين.

المسألة الأولى: الدعاء المشروع من العائن لدفع العين.

الصحيح من السنة أن يبرك الإنسان- أي يدعو بالبركة- إذا رأى ما يعجبه، وخاف على صاحبه من العين، قال رسول الله ﷺ (إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة فان العين حق).

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال (مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل فقال: لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة، فما لبث أن لبط به فأتي به النبي ﷺ فقيل له: أدرك سهلا صريعا قال: من تتهمون به؟ قالوا: عامر بن ربيعة، قال:

=

=

علام يقتل أحدكم أخاه؟! إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة، ثم دعا بماء فأمر عامرا أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلة إزاره، وأمره أن يصب عليه).

أما قول بعض الناس إذا أعجبه شيء وخاف عليه من العين "ما شاء الله لا قوة إلا بالله "! فقد رود فيه حديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أنعم الله عز وجل على عبد نعمة، من أهل أو مال أو ولد، فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت». وكان يتأول هذه الآية: (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) غير أن الحديث المذكور ضعيف وقد تقدم تخريجه في أصل الكتابفي هذا الفصل.

وذهب بعض أهل العلم ومنهم المصنف رحمه الله إلى مشروعية مثل هذا الذكر، إذا رأى الإنسان ما يعجبه، إما خوفا من العين والآفة عليه، أو خوفا على صاحب ذلك الشيء من العجب والفخر، وتأولوا على ذلك معنى الآية، كما ذكر في آخر الحديث السابق، أنه كان يتأول الآية،

**قال العلامة** العثيمين كما في فتاوى نور على الدرب: "فإذا رأى الإنسان ما يعجبه وخاف من حسد العين فإنه يقول: ما شاء الله تبارك الله، حتى لا يصاب المشهود بالعين، وكذلك إذا رأى الإنسان ما يعجبه في ماله فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ لئلا يعجب بنفسه وتزهو به نفسه في هذا المال الذي أعجبه، فإذا قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فقد وكل الأمر إلى أهله تبارك وتعالى.

وقال أيضا كما في لقاء الباب المفتوح (٢٣٥/ ١٩): الأحسن إذا كان الإنسان يخاف أن تصيب عينه أحدا لإعجابه به أن يقول: تبارك الله عليك؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال للرجل الذي أصاب أخاه بعين: (هلا بركت عليه)، أما ما شاء الله لا قوة إلا بالله فهذه يقولها: من أعجبه ملكه، كما قال

=

=

صاحب الجنة لصاحبه قال: {ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله} [الكهف:٣٩] وفي الأثر: [من رأى ما يعجبه في ماله فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يصبه في ماله أذى] أو كلمة نحوها.

وفي فتاوى اللجنة (١/ ٥٤٧): وأما العين فهي مأخوذة من عان يعين إذا أصابه بعينه، والعين حق، كما ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»، وحكمها أنها محرمة كالسحر. وأما العلاج للعائن فإذا رأى ما يعجبه فليذكر الله وليبرك، كما جاء في الحديث «هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت»، فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ويدعو للشخص بالبركة". والله أعلم.

المسألة الثانية: أسباب دفع شر الحاسد.

يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب، أسوقها مختصرة من كلام المصنف رحمه الله تعالى في بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٨- ٢٤٦):

السبب الأول: التعوذ بالله من شره والتحصن به، واللجأ إليه

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه فمن اتقى الله حفظه ولم يكله إلى غيره

السبب الثالث: الصبر على عدوه وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه

السبب الرابع: التوكل على الله فإنه من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه، ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه.

السبب السادس: الإقبال على الله والإخلاص له وجعل محبته وترضيه والإنابة

=

=

إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها.

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح، وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه فيشتغل بها وبإصلاحها وبالتوبة منها فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد، فما أسعده من عبد وما أبركها من نازلة نزلت به وما أحسن أثرها عليه.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيرا عجيبا في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله وهو طفي نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرا وبغيا وحسدا ازددت إليه إحسانا، وله نصيحة، وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون، فضلا عن أن تتعاطاه! واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به: اعلم أن لك ذنوبا بينك وبين الله تخاف عواقبها وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك، ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه وتقابل به إساءتهم ليعاملك الله هذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل فكما تعمل مع الناس في اساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقا. فانتقم بعد ذلك أو اعف وأحسن، أو اترك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك، فمن تصور هذا المعنى وشغل به فكره هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه.

=

=

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله وعليه مدار هذه الأسباب وهو تجريد التوحيد وإخلاصه للعزيز الحكيم، فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه. وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده. وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل. والله يتولى حفظه والدفع عنه. وبحسب إيمانه يكون دفاعه عنه. فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج مزج له وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر.

المسألة الثالثة: كيفية التعامل مع الحاسد.

١ - الابتعاد عنه قدر المستطاع، قيل لعبد الله بن عروة: لم لزمت البدو وتركت قومك؟ قال: وهل بقي إلا حاسد على نعمة أو شامت على نكبة؟

٢ - محاولة إخفاء النعم عنه، قال المصنف في بدائع الفوائد (٣/ ٩): وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد وأن لا يقصد إظهارها له، وقد قال يعقوب ليوسف: (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين) [يوسف:٥] وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار فأصبح يقلب كفيه، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وأن لا يطلعوا عليه أحدا ويتكتمون به غاية التكتم ا.هـ

وينبغي التنبه إلى أن المبالغة في إخفاء النعم ومداومة التفكير في ذلك ومراقبة تصرفات الناس خوفا من حسدهم قد تتحول إلى مرض يجلب لصاحبه الوساوس والمتاعب

٣- عدم إفشاء السر إليه، وقد قيل: إذا سرك أن تسلم من الحاسد فغم عليه

=

أمرك.

اكتم عن الجلساء بثك إنما * جلساؤك الحساد والشمات

قال ابن الجوزي في صيد الخاطر (ص:٥٨٢): فإن أردت العيش فأبعد عن الحسود... فإن اضطررت إلى مخالطته فلا تفش إليه سرك ولا تشاوره، ولا يغرنك تملقه لك، ولا ما يظهره من الدين والتعبد، فإن الحسد يغلب الدين.

٤- الدعاء له بالهداية والصلاح.

٥- استخدام (العزلة الشعورية) بإهمال التفكير فيه تماما وعدم محاولة الانتقام.

وكلمة حاسد من غير جرم * سمعت فقلت مري فانفذيني

وعابوها علي ولم تعبني * ولن يندى لها أبدا جبيني

٦- مداراته والتلطف معه اتقاء لشره، قال الجاحظ كمت في رسالة الحاسد والمحسود (ص ٢٢): فإذا أحسست رحمك الله من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته، فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته، وحصن سرك منه تسلم من شذاة شره وعوائق ضره، وإياك والرغبة في مشاورته، فتمكن نفسك من سهام مساورته، ولا يغرنك خدع ملقه وبيان زلقه فإن ذلك من حبائل ثقافه.

٧- نصحه ووعظه، وتخويفه بالله تعالى.

المسألة الرابعة: العلاج الشرعي للعين الحاسدة.

سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ١١٧): هل العين تصيب الإنسان؟ وكيف تعالج؟ وهل التحرز منها ينافي التوكل؟

**فأجاب**: رأينا في العين أنها حق ثابت شرعا وحسا قال الله -تعالى-: {وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم}. قال ابن عباس وغيره في تفسيرها: أي يعينوك بأبصارهم، ويقول النبي، ﷺ: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين وإذا استغسلتم فاغسلوا» رواه مسلم.

=

ومن ذلك ما رواه النسائي وابن ماجه «أن عامر بن ربيعة مر بسهل بن حنيف وهو يغتسل فقال: "لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة" فما لبث أن لبط به فأتى به رسول الله، ﷺ، فقيل له: أدرك سهلا صريعا فقال: "من تتهمون؟ "

» قالوا: عامر بن ربيعة فقال النبي، ﷺ: «علام يقتل أحدكم أخاه، إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة» ثم دعا بماء فأمر عامرا أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه وداخلة إزاره وأمره أن يصب عليه وفي لفظ: يكفأ الإناء من خلفه. والواقع شاهد بذلك ولا يمكن إنكاره.

وفي حالة وقوعها تستعمل العلاجات الشرعية وهي:

١ - القراءة: فقد قال النبي ﷺ: «لا رقيه إلا من عين أو حمة». وقد «كان جبريل يرقي النبي، ﷺ فيقول: "باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك"».

٢- الاستغسال: كما أمر به النبي، ﷺ، عامر بن ربيعة في الحديث السابق ثم يصب على المصاب.

أما الأخذ من فضلاته العائدة من بوله أو غائطه فليس له أصل، وكذلك الأخذ من أثره، وإنما الوارد ما سبق من غسل أعضائه وداخلة إزاره ولعل مثلها داخلة غترته وطاقيته وثوبه والله أعلم.

والتحرز من العين مقدما لا باس به ولا ينافي التوكل بل هو التوكل؛ لأن التوكل الاعتماد على الله -سبحانه- مع فعل الأسباب التي أباحها أو أمر بها وقد «كان النبي، ﷺ، يعوذ الحسن والحسين ويقول: "أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة" ويقول: هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام». رواه البخاري ا. هـ

(تنبيه): قال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٢٨): قال علماؤنا: إنما يسترقى من العين

=

=

إذا لم يعرف العائن؛ وإما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أمامة، والله أعلم.

المسألة الخامسة: هل يجوز التبخر بالشب أو الأعشاب لدفع العين؟

قال اللجنة الدائمة (١/ ٢١٢): "لا يجوز علاج الإصابة بالعين بما ذكر؛ لأنها ليست من الأسباب العادية لعلاجها، وقد يكون المقصود بهذا التبخر استرضاء شياطين الجن والاستعانة بهم على الشفاء، وإنما يعالج ذلك بالرقى الشرعية ونحوها مما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

(فرع): سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (١/ ٣٦٨): سائلة تقول: عند زيارتي لبيت جدتي أرى أنهم يعلقون خنجرا على الحائط؛ ظنا منهم أنه يمنع الحسد، ويسمى لدينا صبايون، ولقد أوضحت لجدتي أن هذا شرك بالله، وإنه يجب أن يكون التوكل على الله وحده ولا نستعين بغيره، إلا أنها لم تأخذ بنصيحتي، وبعد فترة وبدون علم منها أخذته وحطمته، وهي حتى الآن لا تعلم من أخذه، فهل علي إثم في عدم إخبارها بأني أنا فعلت ذلك، مع علمي بأنها ستغضب علي لو قلت لها: أنا فعلت ذلك، هل لي أجر فيما فعلت؟

**فأجاب**: قد أحسنت في هذا وجزاك الله خيرا ولا تخبريها، وقد أحسنت في نصيحتها والحمد لله، قد أفهمتيها ونصحتيها، ولا حاجة إلى إخبارها بمن أزاله، وهو يشبه التميمة التي تعلق على الأولاد، أو غير الأولاد من باب الشرك الأصغر؛ لأنهم يعتقدون أن الحرز يدفع عنهم العين أو الحسد، فهذا شيء لا أصل له، بل هو من جنس تعليق التمائم على الأولاد من حروز، واعتقاد أنها تدفع العين أو تدفع الجن، وهذا من الشرك الأصغر، فهو من المنكر وهذا يشبهه وقد أحسنت بإزالته، أما لو اعتقد الإنسان أن هذا الحجر أو هذه التميمة تتصرف بغير إذن الله ﷻ فهذا شرك أكبر، لكن في الغالب على الناس أنهم يقصدون أنها

=

=

خير، فهو باطل لا أصل له، لا في التميمة ولا في الأشياء التي تعلق على الأولاد أو غيرهم، ولا في الحجر أو الخنجر الذي يعلق على باب أو جدار، نسأل الله السلامة ا. هـ

**وقال العلامة** الألباني في الصحيحة (١/ ٢/ ٦٤٨- ٦٥٠): معلقا على قوله ﷺ (إن الرقى، والتمائم، والتولة شرك) " الرقى " هي هنا ما كان فيه الاستعاذة بالجن، أو لا يفهم معناها، مثل كتابة بعض المشايخ من العجم على كتبهم لفظة " يا كبيج " لحفظ الكتب من الأرضة زعموا.

و " التمائم " جمع تميمة، وأصلها خرزات تعلقها العرب على رأس الولد لدفع العين، ثم توسعوا فيها فسموا بها كل عوذة. قلت: ومن ذلك تعليق بعضهم نعل الفرس على باب الدار، أو في صدر المكان!

وتعليق بعض السائقين نعلا في مقدمة السيارة أو مؤخرتها، أو الخرز الأزرق على مرآة السيارة التي تكون أمام السائق من الداخل، كل ذلك من أجل العين زعموا.

وهل يدخل في "التمائم " الحجب التي يعلقها بعض الناس على أولادهم أو على أنفسهم إذا كانت من القرآن أو الأدعية الثابتة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، للسلف في ذلك قولان، أرجحهما عندي المنع كما بينته فيما علقته على " الكلم الطيب " لشيخ الإسلام ابن تيمية (رقم التعليق ٣٤) طبع المكتب الإسلامي.

و"التولة" بكسر التاء وفتح الواو، ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره قال ابن الأثير: "جعله من الشرك لاعتقادهم أن ذلك يؤثر، ويفعل خلاف ما قدره الله تعالى".

المسألة السادسة: الفرق بين العين والحسد:

وقع خلط كبير عند كثير من الناس في التفريق بين الحسد والعين، والفرق بينهما

=

=

واضح ولله الحمد. أولا: الحاسد أعم من العائن فليس كل حاسد عائن، فقد يحسد شخص آخر من غير أن يعينه أو يضره، بل هو مرض في القلب يقتضي استكثار النعمة على الغير وتمني زوالها، فالحسد يقع في نفس حاقدة خبيثة. لذلك جاء ذكر الاستعاذة في سورة الفلق من الحاسد، فإذا استعاذ المسلم من شر الحاسد دخل فيه العائن، وهذا من شمول القرآن وإعجازه، بينما العين قد تقع من رجل صالح، فمصدر الحسد. تحرق القلب واستكثار النعمة على المحسود وتمني زوالها عنه أو عدم حصولها. أما العائن فمصدره الإعجاب والاستعظام، لذا فقد يصيب بالعين من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وربما أصابت عينه أحد أبنائه أو أهله أو نفسه، فرؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه وتوجهها إليه تؤثر في المعين.

قال ابن القيم في الزاد (٤/ ١٤٩): العائن والحاسد يشتركان في شيء ويفترقان في شيء، فيشتركان في أن كل واحد منها تتكيف نفسه، وتتوجه نحو من يريد أذاه.

فالعائن: تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته، والحاسد يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضا، ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده، من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الزاد (٤/ ١٦٧): وكل عائن حاسد وليس كل حاسد عائنا... ثم قال: وأصله إعجاب العائن بالشيء ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين، وقد يعين الرجل نفسه، وقد يعين بغير إرادته، بل بطبعه، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: عن من عرف بذلك حبسه الإمام، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت، وهذا هو الصواب قطعا.

(فرع): هل يعين الأعمى.

=

=

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الطب النبوي (ص١٣٠، ١٣١): والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية كما يظن من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة، بل التأثير يكون تارة بالاتصال وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، ونفس العائن لايتوقف تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون أعمى، فيوصف له الشيء، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره، وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: {وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر}، وقال: {قل أعوذ برب الفلق*من شر ماخلق * ومن شر غاسق إذا وقب* ومن شر النفاثات في العقد*ومن شر حاسد إذا حسد}.

قوله تعالى: (لما سمعوا الذكر) أي: حين سمعوك تقرأ القرآن.

فالمراد بالذكر هو القرآن كما قال تعالى (ص والقرآن ذي الذكر) وقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال تعالى (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم).

وسمي القرآن ذكرا:

- قال ابن جرير في وجه تسميته بالذكر: إنه محتمل معنيين:

**أحدهما**: أنه ذكر من الله جل ذكره، ذكر به عباده، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه، وسائر ما أودعه من حكمه.

والآخر: أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه، كما قال جل ثناؤه (وإنه لذكر لك ولقومك) يعني أنه شرف له ولقومه.

- وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وسمي القرآن ذكرا:

**أولا**: لما فيه من التذكير والموعظة.

**ثانيا**: لما فيه من الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب).

=

=

**ثالثا**: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

**رابعا**: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم، كما قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون)

**خامسا**: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي.

(ويقولون إنه لمجنون) أي: ويقولون إن محمدا لمجنون، أي: مصاب بالجنون وفقدان العقل ومعتوه.

وهذا عادة أعداء الرسل، يتهمون الرسل وأتباعهم بالجنون.

كما قال تعالى (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون).

وقال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون).

وقال تعالى مدافعا عن رسوله (ما أنت بنعمة ربك بمجنون).

قوله تعالى: {وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)} [القلم: ٥٢]

قال ابن عباس: "موعظة للمؤمنين".

**قال الطبري**: يقول:"وما محمد إلا ذِكر ذَكَّر الله به العالَمِينِ الثقلين الجنّ والإنس".

قال مقاتل:"يعنى: ما القرآن إلا تذكرة للعالمين".

قال السمعاني:"أي: شرف للعالمين، وهو كناية عن الرسول. والأظهر أن القرآن ذكر للعالمين. وقيل: الرسول مذكر للعالمين".

**قال السعدي**:"أي: وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم".

**قال الزمخشري**: "{وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ} وموعظة {لِلْعالَمِينَ}، فكيف يجنن من

=

=

جاء بمثله".

واختُلِف أهل العلم في معنى «العالم»، على أقوال:

**أحدها**: أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذا قول قتادة، ومجاهد.

**الثاني**: أنّه الإنس، والجنِّ، وهذا قول سعيد بن جبير، ومجاهد.

**الثالث**: أنهم المرتزقون، قاله زيد بن أسلم، ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء: هم الروحانيّون.

**الرابع**: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق.

**الخامس**: أن «العالمين»: ألف أمة، فستمائة في البحر وأربعمائة في البر. رواه مغيث بن شمس عن تبيع.

**السادس**: ما رواه الربيع بن أنس عن أبي العالية، قال:"الإنس عالم والجن عالم، وسوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم من الملائكة على الأرض والأرض أربع زوايا ففي كل زاوية منها أربعة آلاف وخمسمائة عالم، خلقهم الله لعبادته تبارك وتعالى".

والظاهر أن {العالَمين}: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و (العالَم) جمع لا واحدَ له من لفظه، و (العوالم) أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والملائكة عالَم. والله أعلم.

أي: وما هذا القرآن المعجز إلا موعظة وتذكير للإنس والجن فكيف ينسب من نزل عليه إلى الجنون.

كما قال تعالى (قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين).

وقال تعالى (وما هو إلا ذكر للعالمين).

=

=

وقال تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين).
(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) (القلم: ١٠- ١١) إلى قوله: (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ*سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) (القلم: ١٥- ١٦)، وقال في سورة المطففين: (الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) (المطففين: ١١- ١٢) إلى قوله: (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (المطفيين: ١٣- ١٤)، للسائل أن يسأل عن التعقيب في الأولى بقوله: (سنسمه على الخرطوم) وفي الثانية بقوله: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) مع اتحاد وصف من اعقب بهذا المعقب حاله وحكي مقاله؟ وهل كان يجوز تعقيب آية سورة القلم (بما أعقبت به آية التطفيف وآية التطفيفي بما أعقبت به آية القلم)؟
والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية القلم نزلت في شخص بعينه، قيل هو الأخنس بن شريق، وقيل الوليد بن المغيرة وكان مظهرًا لعداوة رسول الله صلي الله عليه وسلم، وهو القائل: سأنزل مثل ما أنزل الله، وكان من أكثر قريش مالًا وولدا، فلهذا قيل فيه: (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) (القلم: ١٤)، وهو القائل يوم مات إبراهيم ابن النبي صلي الله عليه وسلم: أصبح محمد أبتر، أي لا ولد له، فأنزل الله تعالى علي رسوله صلي الله عليه وسلم: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) (الكوثر: ٣)، والشانئ المبغض. وأسلم ولده فقطعه الله بالإسلام عنه، فكان هو الأبتر كما أخبر الله نبيه، وصار أولاده في عداد المسلمين الذين هم أولاد رسول الله صلي الله عليه وسلم وأزواجه أمهاتهم، ففي هذا نزلت الآية من قوله: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) (القلم: ١٠- ١٢) إلى آخرها، فأغنى استيفاء صفاته المذمومة عن تعيين اسمه بقوله سبحانه:
=

# سُورَة الْحَاقَّة(١)

=

(سنسمه على الخرطوم) إخبار منه تعالى بأول عقاب ينزل بعدو الله المذكور- والخرطوم الأنف- فكان ذلك يوم بدر، فهذا وعيد لخاص معين أنزل به معجلة، ولعذاب الآخرة أكبر.

وأما آية المطففين فليست في معينين بغير مرتكباتهم قال تعالى: (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ) (المطففين: ١٢) أي بيوم الدين وهو يوم الجزاء (إلا كل معتد أثيم) مكذب بالوحي، (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (المطففين: ١٣) فقال تعالى: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (المطففين: ١٤) أي أن المانع لهم من فهم الوحي وأعلم بأنه منزل من عند الله ما غطى قلوبهم من الرين، وهو ما يغشى القلب ويمنعه من الوصول إلى ما ينفعه، وأعاد الضمير في قلوبهم على المعنى من حيث أن المراد هنا جميع من وقع عليهم: "كل " بخلاف أية القلم فإن " كل " فيها واقعة على مفرد، وعبر بكل ليعم المقصود بذلك المراد ومن كان على صفته إبلاغًا في ذمة، والضمير فى سنسمه لمفرد كما تقدم، ولفظ- كل- مطابق بمعناه، وقد تبين أنه لا يصح في كل موضع من السورتين إلا ما وقع به التعقيب به، فلا يناسب آية القلم ما أعقبت به آية سورة التطفيف ولا آية التطفيف ما أعقبت به آية سورة القلم، وأن كل آية منها أعقبت بما هو مناسب لا يلائم غيره، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٨٠-٤٨١).

(١) قال ابن عطية:"هي مكية بالإجماع".

وقال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".

وقال الفيروزآبادي: السّورة مكِّيّة.

❋ آياتها إِحدى وخمسون فى عدّ البصرة والشام، واثنتان فى عَدّ الباقين. وكلماتها =

=

مائتان وخمس وخمسون. وحروفها ألف وأربعمائة وثمانون. والمختلف فيها آيتان: {الحَآقَّةُ} الأُولى {بِشِمَالِهِ}. مجموع فواصل آياتها (نم له) على اللاَّم منها آية واحدة: {بَعْضَ الأقاويل}.

* أسماء السورة:

تسمى «سورة الحاقة» والحاقة من أسماء الساعة والقيامة، سميت «الحاقة»، لأنها تحق كل إنسان بعمله من خير وشر، وقيل سميت حاقة لأنه فيها حواق الأمور والثواب.

ووجه تسميتها «سورة الحاقة»، لافتتاحها بها وتكرارها فيها، قال تعالى: {الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ} [الحاقة: ١ - ٣]، إذ وقعت هذه الكلمة في أولها ولم تقع في غيرها من سور

وتسمى « سورة السلسة» وردت هذه التسمية عند الفيروزآبادي، معللا تسميتها بذلك لوقوع الكلمة: «سلسلة» في قوله تعالى: {ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ} [الحاقة: ٣٢]، ولم يرد عن هذا الاسم أثر صحيح.

وتسمى «سورة الواعية»: ذكر ابن عاشور أن الجعبري سماها في منظومته في ترتيب نزول السور «الواعية»، قال ابن عاشور:"ولعله أخذه من وقوع قوله: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة: ١٢]، ولم أر له سلفا في هذه التسمية".

* معظم مقصود السّورة: الخبر عن صعوبة القيامة، والإشارة بإِهلاك القرون الماضية، وذكر نَفْخة الصُّور، وانشقاق السّماوات، وحال السّعداءِ والأَشقياءِ وقت قراءة الكتب، وذلّ الكفَّار مقهورين فى أَيدى الزّبانية، ووصف الكفَّار القرآنَ بأَنه كِهانة وشعر، وبيان أَنَّ القرآن تذكِرة للمؤمن، وحسرة للكافر، والأَمر بتسبيح الرّكوع فى قوله: {فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم}.

* المتشابهات: قوله: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} بالفاءِ، وبعده: (وأَمَّا) بالواو؛

=

مَكِّيَّة وَآيَاتهَا اثْنَتَانِ وَخَمْسُونَ آيَة.

**بسم الله الرحمن الرحيم**(١)

الْحَاقَّةُ (١).

{الْحَاقَّة} الْقِيَامَة الَّتِي يَحِقّ فِيهَا مَا أُنْكِرَ مِنْ الْبَعْث وَالْحِسَاب وَالْجَزَاء أَوْ الْمُظْهِرَة لِذَلِكَ.

مَا الْحَاقَّةُ (٢).

{مَا الْحَاقَّة} تَعْظِيم لِشَأْنِهَا وَهُوَ مُبْتَدَأ وَخَبَر الحاقة.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣).

{وَمَا أَدْرَاك} أَعْلَمَك {مَا الْحَاقَّة} زِيَادَة تَعْظِيم لِشَأْنِهَا فَمَا الْأُولَى مُبْتَدَأ وَمَا

=

لأَنَّ الأَوّل متَّصل بأَحوال القيامة وأَهوالها، فاقتضى الفاءَ للتَّعقيب، والثَّانى متَّصل بالأَوّل، فأَدخل الواو؛ لأَنَّه للجمع.

قوله: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} خصّ ذكر الشِّعر بقوله: {مَّا تُؤْمِنُونَ} لأَنَّ مَن قال: القرآن شعر، ومحمّد ﷺ شاعر- بعد ما علم اختلاف آيات القرآن فى الطُّول والقِصَر، واختلافَ حروف مقاطعِه- فلكفره وقلَّة إِيمانه، فإِنَّ الشعر كلام موزون مقفًّى. وخصّ ذكر الكِهانة بقوله: {مَّا تَذَكَّرُونَ}؛ لأَنَّ مَن ذهب إِلى أَنَّ القرآن كِهانة، وأَنَّ محمَّدًا ﷺ كاهن فهو ذاهل عن ذكر كلام الكهَّان؛ فإِنَّه أَسجاع لا معانى تحتها، وأَوضاع تنبو الطِّباع عنها، ولا يكون فى كلامهم ذكرُ الله تعالى. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٧٨).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

بَعْدهَا خَبَره وَمَا الثَّانِيَة وَخَبَرهَا فِي مَحَلّ الْمَفْعُول الثَّانِي لأدرى.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤).

{كَذَّبَتْ ثَمُود وَعَاد بِالْقَارِعَةِ} الْقِيَامَة لِأَنَّهَا تَقْرَع القلوب بأهوالها

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥).

{فَأَمَّا ثَمُود فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ} بِالصَّيْحَةِ الْمُجَاوِزَة لِلْحَدِّ في الشدة

وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦).

{وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر} شديد الصوت {عَاتِيَة} قَوِيَّة شَدِيدَة عَلَى عَادٍ مَعَ قُوَّتهمْ وشدتهم.

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧).

{سَخَّرَهَا} أَرْسَلَهَا بِالْقَهْرِ {عَلَيْهِمْ سَبْع لَيَالٍ وَثَمَانِيَة أَيَّام} أَوَّلهَا مِنْ صُبْح يَوْم الْأَرْبِعَاء لِثَمَانٍ بَقِينَ مِنْ شَوَّال وَكَانَتْ فِي عَجُز الشِّتَاء {حُسُومًا} مُتَتَابِعَات شُبِّهَتْ بِتَتَابُعِ فِعْل الْحَاسِم فِي إعَادَة الْكَيّ عَلَى الدَّاء كَرَّة بَعْد أُخْرَى حَتَّى يَنْحَسِم {فَتَرَى الْقَوْم فِيهَا صَرْعَى} مَطْرُوحِينَ هَالِكِينَ {كَأَنَّهُمْ أَعْجَاز} أُصُول {نَخْل خَاوِيَة} سَاقِطَة فارغة

فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨).

{فهل ترى لهم من باقية} صفة نفس مقدرة أو التاء للمبالغة أي باق لا

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩).

{وَجَاءَ فِرْعَوْن وَمَنْ قَبْله} أَتْبَاعه وَفِي قِرَاءَة بِفَتْحِ الْقَاف وَسُكُون الْبَاء أَيْ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ الْأُمَم الْكَافِرَة {وَالْمُؤْتَفِكَات} أَيْ أَهْلهَا وَهِيَ قُرَى قَوْم لُوط {بِالْخَاطِئَةِ} بِالْفِعْلَاتِ ذَات الْخَطَأ.

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠).

{فَعَصَوْا رَسُول رَبّهمْ} أَيْ لُوطًا وَغَيْره {فَأَخَذَهُمْ أَخْذَة رَابِيَة} زَائِدَة فِي الشِّدَّة عَلَى غَيْرهَا.

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١).

{إنا لما طغا الْمَاء} عَلَا فَوْق كُلّ شَيْء مِنْ الْجِبَال وَغَيْرهَا زَمَن الطُّوفَان {حَمَلْنَاكُمْ} يَعْنِي آبَاءَكُمْ إذْ أَنْتُمْ فِي أَصْلَابهمْ {فِي الْجَارِيَة} السَّفِينَة الَّتِي عَمِلَهَا نُوح وَنَجَا هُوَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِيهَا وَغَرِقَ الْآخَرُونَ.

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢).

{لِنَجْعَلهَا} أَيْ هَذِهِ الْفَعْلَة وَهِيَ إنْجَاء الْمُؤْمِنِينَ وَإِهْلَاك الْكَافِرِينَ {لَكُمْ تَذْكِرَة} عِظَة {وَتَعِيهَا} وَلِتَحْفَظهَا {أُذُن وَاعِيَة} حَافِظَة لِمَا تَسْمَع[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي: "يا علي! إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك، وأن أعلمك وأن تعي، وحق على الله أن تعي"؛ قال: فنزلت: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٣٥، ٣٦)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤٤١)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٩٤) من طريق بشر بن آدم ثنا عبد الله بن الزبير ثني صالح بن الهيثم عن بريدة به. وهذا سند ضعيف؛ لضعف عبد الله بن الزبير والد أبي أحمد الزبيري.

والراوي عن بريدة لم نعرفه، ووقع اسمه عند الطبرى عبد الله بن رستم وهذا مشكل.

وأخرجه الطبري من طريق أبي داود الأعمى عن بريدة به.

=

=

وأبو داود الأعمى -اسمه نفيع بن الحارث-؛ متروك الحديث، وقد كذبه ابن معين.

فلا تقوي الطريقان بعضهما البعض.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢٦٧) وزاد نسبته لابن مردويه وابن عساكر.

قال الحافظ ابن كثير: "ولا يصح -أيضًا-". وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢١٩): "لا يصح".

وعن علي رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "يا علي! إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعي"؛ وأنزل هذه الآية: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}.

أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ٦٧) بالسند المركب بالآباء والأجداد عن علي. وسنده ضعيف جدًا.

* قوله تعالى: {الْحَاقَّةُ} [الحاقة: ١]، أي:"القيامة الواقعة حقًّا التي يتحقق فيها الوعد والوعيد".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: الساعة {الْحَاقَّةُ} التي تحقّ فيها الأمور، ويجب فيها الجزاء على الأعمال".

**قال الفراء:**"{الْحَاقَّةُ}: القيامة، سميت بذلك لأن فيها الثواب والجزاء، والعرب تقول: لما عرفت الحقة مني هربت، والحاقة. وهما في معنى واحد".

قال ابن قتيبة:"{الْحَاقَّةُ} القيامة؛ لأنها حَقَّتْ، فهي حاقة وحَقَّةٌ".

**قال الزجاج:**"{الْحَاقَّةُ}: السَّاعَةُ والقِيامة، وسميت «الْحَاقَّةُ»، لأنها تحق كل شيء يعمله إنسان من خير أو شر".

قال مقاتل:"يعني: الساعة التي فيها حقائق الأعمال، يقول: يحق للمؤمنين عملهم، ويحق للكافرين عملهم".

=

=

عن ابن عباس، في قوله: {الْحَاقَّةُ}، قال: من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذّره عباده".

عن عكرِمة، والضحاك، قوله: "{الْحَاقَّةُ}، يعني: القيامة".

قال قتادة:"يعني: الساعة أحقت لكل عامل عمله".

قال قتادة:"أحقت لكلّ قوم أعمالهم".

قال ابن جريج:"{الحاقَّةُ}، قال: حقَّقتْ لكل عامل عمَله؛ للمؤمن إيمانه، وللمنافق نفاقه".

عن ابن زيد، قوله: "{الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقة} و {الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ}، و {الواقِعةُ}، و {الطَّامَّة}، و {الصَّاخَّة}، قال: هذا كله يوم القيامة الساعة، وقرأ قول الله: {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ}، والخافضة من هؤلاء أيضا خفضت أهل النار، ولا نعلم أحدا أخفض من أهل النار، ولا أذل ولا أخزى؛ ورفعت أهل الجنة، ولا نعلم أحدا أشرف من أهل الجنة ولا أكرم".

قوله تعالى: {مَا الْحَاقَّةُ} [الحاقة: ٢]، أي:"ما القيامة الواقعة حقًّا في صفتها وحالها؟".

**قال الطبري:**"يقول: أيّ الساعة الحاقة".

قال مقاتل:"ثم قال للنبي- ﷺ-: {وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ} تعظيما لها لشدتها".

**قال الزجاج:**"المعنى: تفخيم شأنها، واللفظ لفظ استفهام كما تقول: زيد ما هو، على تأويل التعظيم لشأنه في مَدْح كان أَوْ ذَم".

قال النحاس:"مبتدأ وخبره وهما خبر عن الحاقة، وفيه معنى التعظيم. والتقدير: الحاقة ما هي؟ إلا أن إعادة الاسم أفخم".

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ} [الحاقة: ٣]، أي:"وأي شيء أدراك -أيها الرسول- وعَرَّفك حقيقة القيامة، وصَوَّر لك هولها وشدتها؟".

=

=

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وأيّ شيء أدراك وعرّفك أيّ شيء الحاقة".

**قال الزجاج**:"معناهُ: أَي شيء أعلمك ما الحاقة".

عن قتادة، قوله: "{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ} تعظيما ليوم القيامة كما تسمعون".

عن سفيان قال: "ما في القرآن: وما يدريك فلم يخبره، وما كان وما أدراك، فقد أخبره".

- **قال الرازي**: أجمعوا على أن الحاقة هي القيامة.

سميت بذلك، قيل: لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد، وتظهر الحقائق قال تعالى (ذلك اليوم الحق)، وقيل: لأنها محققة الوقوع، فهي واقعة لا محالة.

قال الألوسي: أي الساعة أو الحالة التي يحق ويجب وقوعها أو التي تحقق وتثبت فيها الأمور الحقة من الحساب والثواب والعقاب أو التي تحق فيها الأمور أي تعرف على الحقيقة من حقه يحقه إذا عرف حقيقته.

(ما الحاقة) هذا تعظيم لأمرها، وتفخيم لشأنها، أي: ماهي الحاقة، أمرها عظيم وشأنها كبير.

ولهذا عظم أمرها فقال: (وما أدراك ما الحاقة) فإن لها شأنا عظيما، وهولا جسيما، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ما أعلمك ما هي الحاقة، إن أمرها عظيم، وشأنها جسيم، وخطرها كبير، وشرها مستطير.

قال تعالى (القارعة. ما القارعة. وما أدراك ما القارعة. يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش).

وقال تعالى (يصلونها يوم الدين. وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين. يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله).

وقال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها

=

=

تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد).

وقال تعالى (فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى).

وقال تعالى (فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه).

- ثمرات الإيمان باليوم الآخر:

**أولا**: الحث على العمل الصالح والمبادرة لفعل الخيرات وترك المنكرات.

بل ما تكاسل المتكاسلون في عمل الصالحات سواء الواجب منها والمسنون إلا بسبب الغفلة عن الآخرة والانشغال عنها.

يقول تعالى في وصف عباده الصالحين (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة).

وقال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب).

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة).

وهو (سبحانه) كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل، قال تعالى (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون. والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون).

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها. قالت: سألت رسول الله ﷺ عن

=

=

هذه الآية، فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ قال: لا، يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات). والله (سبحانه) وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن).

وقال تعالى (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم).

- **قال ابن القيم**: فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات؟ وقال المغرورون: إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره الباغين المتجرئين على محارمه، أولئك يرجون رحمة الله.

**ثانيا**: الإخلاص لله (ﷻ) والمتابعة للرسول.

إن الموقن بلقاء الله ﷻ يوم الفزع الأكبر، لا تلقاه إلا حريصا على أعماله، خائفا من كل ما يحبطها من أنواع الشرك الأكبر أو الشرك الأصغر.

قال تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا).

**ثالثا**: الحذر من الدنيا والزهد فيها والصبر على شدائدها وطمأنينة القلب وسلامته.

إذا أكثر العبد ذكر الآخرة، وكانت منه دائما على بال، فإن الزهد في الدنيا والحذر منها ومن فتنتها سيحلان في القلب، وحينئذ لا يكترث بزهرتها، ولا يحزن على فواتها، ولا يمدن عينيه إلى ما متع الله به بعض عباده من نعم ليفتنهم فيها، وهذه الثمرة يتولد عنها بدورها ثمار أخرى مباركة طيبة منها: القناعة، وسلامة القلب من الحرص والحسد والغل والشحناء؛ لأن الذي يعيش بتفكيره في الآخرة وأنبائها العظيمة لا تهمه الدنيا الضيقة المحدودة، مع ملاحظة أن إيمان المسلم

=

=

باليوم الآخر وزهده في الدنيا لا يعني انقطاعه عنها وعدم ابتغاء الرزق في أكنافها؛ يقول تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة).

**رابعا**: اجتناب الظلم بشتى صوره.

لا شيء يمنع النفس من ظلم غيرها في نفس أو مال أو عرض: كاليقين بالرجوع إلى الله (ﷻ) وإعطاء كل ذي حق حقه، وإنصاف المظلوم ممن ظلمه، فإذا تذكر العبد هذا الموقف العصيب الرهيب، وأنه لا يضيع عند الله شيء، كما قال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقوله تعالى (وقد خاب من حمل ظلما) إذا تذكر هذه المواقف واتعظ بهذه الآيات، وأيقن بتحققها فلا شك أن ذلك سيمنعه من التهاون في حقوق الخلق، والحذر من ظلمهم في دم أو مال أو عرض، خاصة وأن حقوق العباد مبنية على المشاحة والحرص على استيفاء الحق من الخصم، وبالذات في يوم الهول الأعظم الذي يتمنى العبد فيه أن يكون له مظلمة عند أمه وأبيه وصاحبته وبنيه، فضلا عن غيرهم من الأباعد، ومعلوم أن التقاضي هنالك ليس بالدينار والدرهم ولكن بالحسنات والسيئات. خامسا: تقصير الأمل وحفظ الوقت:

إن من أخطر الأبواب التي يدخل منها الشيطان على العبد: طول الأمل، والأماني الخادعة التي تجعل صاحبها في غفلة شديدة عن الآخرة، واغترار بزينة الحياة الدنيا، وتضييع ساعات العمر النفيسة في اللهث وراءها حتى يأتي الأجل الذي يقطع هذه الآمال، وتذهب النفس حسرات على ما فرطت في عمرها، وأضاعت من أوقاتها. ولكن اليقين بالرجوع إلى الله (ﷻ) والتذكر الدائم لقصر الحياة وأبدية الآخرة وبقائها، هو العلاج الناجع لطول الأمل وضياع الأوقات. يقول ابن قدامة: واعلم أن السبب في طول الأمل شيئان: أحدهما: حب الدنيا، والثاني:

=

=

الجهل. أما حب الدنيا: فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع من الفكر في الموت، الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه. السبب الثاني: الجهل، وهو أن الإنسان يعول على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب، أو ليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشرة؟ وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب، وقد يغتر بصحته، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة، وإن استبعد ذلك).

**سادسا**: الفوز برضا الله (سبحانه) وجنته، والنجاة من سخطه والنار: وهذه ثمرة الثمار، وغاية الغايات، ومسك الختام في مبحث الثمار، قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور). يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) أي: حصل له الفوز العظيم بالنجاة من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم، التي فيها: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ ومفهوم الآية: أن من لم يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي، وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه).

قوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ} [الحاقة: ٤]

**قال الطبري**: يقول: "كذّبت ثمود قوم صالح، وعاد قوم هود بالساعة، التي تقرع قلوب العباد فيها بهجومها عليهم. والقارعة أيضا: اسم من أسماء القيامة".

عن قتادة، قوله: "{كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ}، أي: بالساعة".

قال ابن عباس: "القارعة: يوم القيامة".

=

=

قال ابن جريج:" {بِالقارِعَةِ} : يوم القيامة".

قال محمد بن سائب الكلبي:"القارعة: اسم من أسماء القيامة".

قال مقاتل:"وإنما سميت «القارعة»، لأن الله ﷻ يقرع أعداءه بالعذاب".

قال المبرد: "سميت القيامة «قارعة»؛ لأنها تقرع القلوب، وتهجم عليها بالشدة والكرب".

قال تاج القراء:"معنى القارعة: تقرع القلوب، وقيل: تكسر كل شيء".

**قال الزمخشري:**" {بِالْقارِعَةِ} التي تقرع الناس بالأفزاع والأهوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالدك والنسف، والنجوم بالطمس والانكدار. ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع.

في الحاقة: زيادة في وصف شدتها، ولما ذكرها وفخمها أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب، تذكيرا لأهل مكة وتخويفا لهم من عاقبة تكذيبهم".

أي: كذبت ثمود- وهم قوم صالح -، وعاد- وهم قوم هود- بالقارعة أي القيامة.

- وسميت القيامة قارعة: لأنها تقرع قلوب العباد بأهوالها وشدائدها، كما قال تعالى (القارعة ما القارعة. وما أدراك ما القارعة، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث..).

- **قال القرطبي**: والقارعة القيامة؛ سميت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها، يقال: أصابتهم قوارع الدهر؛ أي أهواله وشدائده، ونعوذ بالله من قوارع فلان ولواذعه وقوارص لسانه؛ جمع قارصة وهي الكلمة المؤذية، وقوارع القرآن: الآيات التي يقرؤها الإنسان إذا فزع من الجن أو الإنس، نحو آية الكرسي؛ كأنها تقرع الشيطان.

=

=

- وقال: المقصود من قصص هذه الأمم وذكر ما حل بهم من العذاب، زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول ﷺ.

قوله تعالى: {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ} [الحاقة: ٥]، أي:"فأما ثمود فأهلكوا بالصيحة العظيمة التي جاوزت الحد في شدتها".

**قال الطبري**: يقول: "{فَأَمَّا ثَمُودُ} قوم صالح، فأهلكهم الله بالطاغية".

واختلف أهلُ التفسير في معنى: «الطاغية» التي أهلك الله بها ثمود، على أقوال:

**أحدها**: أنها طغيانهم وكفرهم بالله. قاله مجاهد، وابن زيد.

قال مقاتل:"الطغيان: حملهم على تكذيب صالح النبي- ﷺ".

عن مجاهد، قوله:"{فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}، قال: بالذنوب".

قال ابن زيد:"هذه الطاغية طغيانهم وكفرهم بآيات الله. الطاغيَّة طغيانهم الذي طغوا في معاصي الله وخلاف كتاب الله".

**الثاني**: أنها الصيحة التي قد جاوزت مقادير الصياح وطغت عليها. قاله قتادة.

قال قتادة:"بعث الله عليهم صيحة فأهمدتهم". وفي رواية:"أرسل الله عليهم صيحة واحدة فأهمدتهم".

**الثالث**: بالصاعقة، قاله الكلبي.

**قال الطبري**:"الصواب قول من قال: معنى ذلك: فأُهلكوا بالصيحة الطاغية، لأن الله إنما أخبر عن ثمود بالمعنى الذي أهلكها به، كما أخبر عن عاد بالذي أهلكها به، فقال: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} ولو كان الخبر عن ثمود بالسبب الذي أهلكها من أجله، كان الخبر أيضا عن عاد كذلك، إذ كان ذلك في سياق واحد، وفي إتباعه ذلك بخبره عن عاد بأن هلاكها كان بالريح الدليل الواضح على أن إخباره عن ثمود إنما هو ما بينت".

ويرجح هذا القول ما قاله بعض العلماء: أنه لما ذكر في الجملة الثانية نوع الشيء

=

=

الذي وقع به العذاب، وهو قوله تعالى (بريح صرصر) وجب أن يكون الحال في الجملة الأولى كذلك حتى تكون المناسبة حاصلة.
ورجحه ابن عطية وقال: لأنه مناسب لما ذكر في عاد، إذ ذكر فيها الوجه الذي وقع به الهلاك، وعلى سائر الأقوال لا يتناسب الأمران لأن طغيان ثمود سبب والريح لا يناسب ذلك لأنها ليست سبب الإهلاك، بل هي آلة كما في الصيحة.
ورجحه الألوسي فقال: (بالطاغية) أي الواقعة المجاوزة للحد وهي الصيحة لقوله تعالى في هود (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) وبها فسرت الصاعقة في حم السجدة أو الرجفة لقوله سبحانه في الأعراف (فأخذتهم الرجفة وفي الزلزلة المسببة عن الصيحة فلا تعارض بين الآيات لأن الإسناد في بعض إلى السبب القريب وفي بعض آخر إلى البعيد والأول مروى عن قتادة قال أي بالصيحة التي خرجت عن حد كل صيحة.
قوله تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} [الحاقة: ٦].
**قال الطبري**: يقول:"وأما عاد قوم هود فأهلكهم الله بريح صرصر، وهي الشديدة العصوف، مع شدة بردها، {عَاتِيَةٍ} يقول: عتت على خزانها في الهبوب، فتجاوزت في الشدّة والعصوف مقدارها المعروف في الهبوب والبرد".
قال ابن عباس:"يقول: بريح مهلكة باردة، عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، دائمة لا تَفْتُرُ".
قال ابن عباس:""ما أرسل الله من ريح قطّ إلا بمكيال، ولا أنزل قطرة قطّ إلا بمثقال، إلا يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على خزانه، فلم يكن لهم عليه سبيل، ثم قرأ: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ}، وإن الريح عتت على خزّانها فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ: {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ}".
عن الضحاك، قوله: "{بِرِيحٍ صَرْصَرٍ}، يعني: باردة عاتية، عتت عليهم بلا رحمة

=

=

ولا بركة".

عن مجاهد، قوله: "{صَرْصَرٍ}، قال: شديدة".

قال قتادة: "الصرصر: الباردة عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم".

قال ابن زيد: "الصرصر: الشديدة، والعاتية: القاهرة التي عتت عليهم فقهرتهم".

(وأما عاد فأهلكوا بريح) أي: وأما هلاك قوم عاد بالريح.

قال تعالى (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم).

وقال تعالى (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين).

وقال تعالى (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون. فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون).

وقال تعالى (كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر).

(صرصر عاتية) أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف.

- **قال ابن عاشور**: الصرصر: الشديدة يكون لها صوت كالصرير.

(عاتية) أي: مجاوزة الحد في العصف والهبوب فتدمر كل ما تأتي عليه، وتنكير (ريح) يفيد التفخيم.

- **قال الرازي**: وأما العاتية ففيها أقوال:

=

=

الأول: عتت على خزنتها يومئذ، فلم يحفظوا كم خرج منها، ولم يخرج قبل ذلك، ولا بعده منها شيء إلا بقدر معلوم.

**الثاني**: قال عطاء عن ابن عباس: يريد الريح عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء أو (استناد إلى جبل) فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم.

**الثالث**: أن هذا ليس من العتو الذي هو عصيان، إنما هو بلوغ الشيء وانتهاؤه ومنه قولهم: عتا النبت، أي بلغ منتهاه وجف، قال تعالى (وقد بلغت من الكبر عتيا) فعاتية أي بالغة منتهاها في القوة والشدة.

- **قال القرطبي**: (عاتية) أي عتت على خزانها فلم تطعهم، ولم يطيقوها من شدة هبوبها؛ غضبت لغضب الله. وقيل: عتت على عاد فقهرتهم.

- وقال السعدي: (عاتية) أي: عتت على خزانها على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح.

قوله تعالى: {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} [الحاقة: ٧]، أي:"سلَّطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة، لا تَفْتُر ولا تنقطع".

**قال الطبري**: يقول:"سخر تلك الرياح على عاد سبع ليال وثمانية أيام حسوما؛ فقال بعضهم: عُني بذلك تباعا".

قال الثعلبي:"{سَخَّرَها}: أرسلها وسلطها عَلَيْهِمْ، و «التسخير»: استعمال الشيء بالاقتدار".

عن الربيع بن أنس في قوله: ": {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ}، قال: كان أولها الجمعة".

قال ابن أبي زمنين:"وكان ذلك من يوم الأربعاء إلى الأربعاء الآخر، والليالي سبع من ليلة الخميس إلى ليلة الأربعاء".

=

=

عن زر بن حبيش: "{فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ}، قال: يوم الأربعاء".

قال وهب: "هي الأيام التي سمّاها العرب: «أيام العجوز»، ذات برد ورياح شديدة، وإنما نسبت هذه الأيام إلى «العجوز»، لأن عجوزا دخلت سربا فتبعتها الريح فقتلها اليوم الثامن من نزول العذاب، وانقطع العذاب في اليوم الثامن".

قال ابن جريج:"كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الله من الريح فلما أمسوا اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر، فذلك قوله: {فهل ترى لهم من باقية}".

قال الثعلبي:"وقيل: سمّيت أيام العجوز لأنها في عجز الشتاء ولها أسامي مشهورة... أنشدنا أحمد بن يحيى ثعلب الشاعر في وصف أيام العجوز:

**كسع الشتاء بسبعة غبر... أيّام شهلتنا من الشهر**

**فبآمر وأخيه مؤتمر... ومعلّل وبمطفئ الجمر**

**ذهب الشتاء موليّا عجلا... وأتتك واقدة من النجر**

واسم اليوم الثامن: مكفي الظعن".

وفي تفسير قوله تعالى: {حُسُومًا} [الحاقة: ٧]، أقوال:

**أحدها**: متتابعات، قاله ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، وسفيان، والفراء، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

**وكم كنّا بها من فرط عام... وهذا الدّهر مقتبل حسوم**

**قال الفراء**:"الحسوم: التباع إذا تتابع الشيء فلم ينقطع أوله عن آخره، قيل فيه: حسوم، وإنما أخذ- والله أعلم- من حسم الداء إذا كوى صاحبه لأنه يكوى بمكواة، ثم يتابع ذلك عليه".

عن ابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، قوله: "{وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا}، يقول: تباعا".

=

=

عن ابن مسعود، ومجاهد، وعكرمة، قوله:"{وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا}، قال: متتابعة".

عن سفيان: {أَيَّامٍ حُسُومًا}، قال: متتابعة، و {أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ}، قال: مشائيم".

قال قتادة:"متتابعة ليس لها فترة". وفي رواية:"متتابعة ليس فيها تفتير".

عن قتادة:"{حُسُومًا}، قال: دائمات".

**قال الزجاج**:"معنى {حُسُومًا}: دَائِمَةً، وقالوا: مُتَابِعةً، فأمَّا ما توجبه اللغة فعلى معنى: تَحْسِمُهم حُسُومًا. أَي: تُذْهِبُهُمْ وتُفْنِيهِمْ".

**الثاني**: مشائيم، قاله عكرمة، والربيع، وعطية.

قال عطية:"شؤما كأنّها حسمت الخير عن أهلها".

**الثالث**: أنها حسمت الليالي والأيام حتى استوفتها، لأنها بدأت طلوع الشمس من أول يوم، وانقطعت مع غروب الشمس من آخر يوم، قاله الضحاك.

**الرابع**: لأنها حسمتهم ولم تبق منهم أحدًا، قاله ابن زيد، وفي ذلك يقول الشاعر:

**فَأَرْسَلْتِ رِيْحًا دَبُوْرًا عَقِيْمَا... فَدَارَتْ عَلَيْهِمْ فَكَانَتْ حَسُوْمَا**

وقال الخليل: "قطعا لدابرهم".

قال الثعلبي:"الحسم: القطع والمنع، ومنه: حسم الداء وحسم الدفاع، قال يمان والنظر بن شميل: حسمهم: فقطعهم وأهلكهم".

قال ابن زيد:"حسمتهم لم تبق منهم أحدا، قال: ذلك الحسوم مثل الذي يقول: احسم هذا الأمر؛ قال: وكان فيهم ثمانية لهم خلق يذهب بهم في كل مذهب؛ قال، قال موسي بن عقبة: فلما جاءهم العذاب قالوا: قوموا بنا نردّ هذا العذاب عن قومنا؛ قال: فقاموا وصفوا في الوادي، فأوحى الله إلى ملك الريح أن يقلع منهم كل يوم واحدًا، وقرأ قول الله: {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} حتى بلغ: {نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}، قال: فإن كانت الريح لتمرّ بالظعينة

=

=

فتستدبرها وحمولتها، ثم تذهب بهم في السماء، ثم تكبهم على الرءوس، وقرأ قول الله: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}، قال: وكان أمسك عنهم المطر، فقرأ حتى بلغ: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا}، قال: وما كانت الريح تقلع من أولئك الثمانية كلّ يوم إلا واحدًا؛ قال: فلما عذّب الله قوم عاد، أبقى الله واحدًا ينذر الناس، قال: فكانت امرأة قد رأت قومها، فقالوا لها: أنت أيضا، قالت: تنحيت على الجبل؛ قال: وقد قيل لها بعد: أنت قد سلمت وقد رأيت، فكيف لا رأيت عذاب الله؟ قالت: ما أدري غير أن أسلم ليلة: ليلة لا ريح".

**قال الطبري:**"الصواب قول من قال: عُنِي بقوله: {حُسُومًا}: متتابعة، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك".

قال النحاس:"{حُسُومًا}، أصحّ ما قيل فيه: متتابعة، لصحّته عن ابن مسعود وابن عباس".

قوله تعالى: {فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى} [الحاقة: ٧]، أي:"فترى القوم في تلك الليالي والأيام موتى".

**قال الطبري:**"يقول: فترى يا محمد قوم عاد في تلك السبع الليالي والثمانية الأيام الحسوم صرعى، قد هلكوا".

قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} [الحاقة: ٧]، أي:"كأنهم أصول نخل خَرِبة متآكلة الأجواف".

**قال الطبري:**"يقول: كأنهم أصول نخل قد خوت".

عن قتادة: "{كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}، وهي أصول النخل".

**قال السعدي:**"فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره!".

عن الحسن، قال: "لما أقبلت الريح قام إليها قوم عاد، فأخذ بعضهم بأيدي

=

=

بعض كما تفعل الأعاجم، وغمزوا أقدامهم في الأرض وقالوا: يا هود من يزيل أقدامنا عن الأرض إن كنت صادقا، فأرسل الله عليهم الريح فصيرتهم كأنهم أعجاز نخل مُنْقَعر".

(فترى القوم فيها) أي: فترى أيها المخاطب القوم.

(فيها) قيل: في تلك الليالي والأيام، وقيل: في البلاد وقيل: الضمير يعود على الريح.

-قال أبو حيان (فترى القوم فيها) أي: في الأيام والليالي، أو في ديارهم، أو في مهاب الريح، احتمالات أظهرها الأول، لأنه أقرب ومصرح به.

-قال الألوسي (فيها) أي في الأيام والليالي وقيل في مهاب الريح وقيل في ديارهم والأول أظهر.

(صرعى) موتى هلكى لا حراك لهم.

(كأنهم أعجاز نخل خاوية) أي: كأنهم جذوع وسيقان النخل التي قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض.

- (خاوية) ميتة منقلعة من منابتها هامدة ساقطة على الأرض فهم أجساد بلا رؤوس.

- قال ابن كثير: أي: جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض، فيخر ميتا على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة.

قوله تعالى: {فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} [الحاقة: ٨]، أي:"فهل ترى لهؤلاء القوم مِن نفس باقية دون هلاك؟".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فهل ترى يا محمد لعاد قوم هود من بقاء. وقيل: عُنِي بذلك: فهل ترى منهم باقيا".

قال ابن جريج:"... فلما أمسَوا اليومَ الثامن ماتوا، فاحتَملتْهم الريح، فألْقتْهم في

=

=

البحر، فذلك قوله: {فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِن باقِيَةٍ}".

أي: فهل ترى أحدا من بقاياهم؟ أو تجد لهم أثرا؟ لقد هلكوا عن آخرهم.

وهذه الآية كقوله تعالى (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) وقال تعالى (وثمود فما أبقى).

قال ابن عاشور: وابتدئ بثمود وعاد في الذكر من بين الأمم المكذبة لأنهما أكثر الأمم المكذبة شهرة عند المشركين من أهل مكة لأنهما من الأمم العربية ولأن ديارهما مجاورة شمالا وجنوبا.

قوله تعالى: {وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ} [الحاقة: ٩]، أي:"وجاء الطاغية فرعون، ومَن سبقه من الأمم التي كفرت برسلها".

عن ابن جريج:"«وجَآءَ فِرْعَوْنُ ومَن قِبَلَهُ»، قال: ومَن معه".

قال البيضاوي:"وجاء فرعون ومن تقدمه".

قال النسفي:"ومن تقدمه من الأمم".

قال الشوكاني:"أي: من الأمم الكافرة".

**قال السعدي:**"أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين عاد وثمود جاء غيرهم من الطغاة العتاة كفرعون مصر الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى ابن عمران -عليه الصلاة والسلام-، وأراه من الآيات البينات ما تيقنوا بها الحق ولكن جحدوا وكفروا ظلما وعلوا وجاء من قبله من المكذبين".

قرأ أبو عمرو والكسائي: «ومن قبله»، بكسر القاف وفتح الباء، أي: ومن معه وتبعه من جنوده. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم اعتبارا بقراءة عبد الله وأبيّ: «ومن معه». وقرأ أبو موسى الأشعري: «ومن تلقاءه». الباقون: «قبله»، بفتح القاف وسكون الباء، أي: ومن تقدمه من القرون الخالية والأمم الماضية.

قوله تعالى: {وَالْمُؤْتَفِكَاتُ} [الحاقة: ٩]، أي:"وأهل قرى قوم لوط الذين

=

=

انقلبت بهم ديارهم".

**قال الطبري:**"يقول: والقرى التي أتفكت بأهلها فصار عاليها سافلها".

عن ابن عباس، قوله: {وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ}، يعني: المكذّبين".

عن قتادة، قوله: "{وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ}، قرية لوط".

قال قتادة:"هم قوم لوط، ائتفكت بهم أرضُهم".

قال ابن زيد:"المؤتفكات: قوم لوط، ومدينتهم وزرعهم، وفي قوله: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى}، قال: أهواها من السماء: رمى بها من السماء؛ أوحى الله إلى جبريل عليه السلام، فاقتلعها من الأرض، ربضها ومدينتها، ثم هوى بها إلى السماء؛ ثم قلبهم إلى الأرض، ثم أتبعهم الصخر حجارة، وقرأ قول الله: {حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً} قال: المسوّمة: المُعَدَّة للعذاب".

قوله تعالى: {بِالْخَاطِئَةِ} [الحاقة: ٩]، أي:"بالفعلة الخائطة المنكرة، وهي الكفر والعصيان".

**قال الطبري:**"يعني: بالخطيئة. وكانت خطيئتها: إتيانها الذكران في أدبارهم".

عن مجاهد: "{بِالْخَاطِئَةِ}، قال: الخطايا".

قال قتادة: إنما سميت قرى قوم لوط "مؤتفكات" لأنها ائتفكت بهم، أي انقلبت.

- **قال ابن عاشور:** و (المؤتفكات) قرى لوط الثلاث، وأريد بالمؤتفكات سكانها وهم قوم لوط وخصوا بالذكر لشهرة جريمتهم ولكونهم كانوا مشهورين عند العرب إذ كانت قراهم في طريقهم إلى الشام، قال تعالى (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) وقال (ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها).

(بالخاطئة) أي: بالفعلة الخاطئة المنكرة، وهي الكفر والعصيان والتكذيب بما

=

=

أنزل الله.

الخاطئة التي أتى بها فرعون هي: قوله تعالى عنه (فقال أنا ربكم الأعلى) وقوله تعالى عنه (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري)، هذا فضلا عن جرائمه من ذبح الأطفال واستحياء النساء وتسخير الرجال.

والخاطئة التي أتى بها قوم عاد هي: كما قال تعالى (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة).

والخاطئة التي أتى بها قوم ثمود هي: كما قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى).

والخاطئة التي أتت بها المؤتفكات [قرى قوم لوط] هي: الكفر وجريمة إتيان الذكران من العالمين.

قوله تعالى: {فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِم} [الحاقة: ١٠]، أي:" فعصت كل أمة منهم رسول ربهم الذي أرسله إليهم".

**قال الطبري:**"يقول جلّ ثناؤه: فعصى هؤلاء الذين ذكرهم الله، وهم فرعون ومن قبله والمؤتفكات رسول ربهم".

قوله تعالى: {فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً} [الحاقة: ١٠]، أي:"فأخذهم الله أخذة بالغة في الشدة".

**قال الطبري:**"يقول: فأخذهم ربهم بتكذيبهم رسله أخذة، يعني: أخذة زائدة شديدة نامية، من قولهم: أربيت: إذا أخذ أكثر مما أعطى من الربا؛ يقال: أربيتَ فرَبا رِباك، والفضة والذهب قد رَبَوا".

**قال الفراء:**"أخذة زائدة، كما تقول: أربيت إذا أخذ أكثر مما أعطاه من الذهب والفضة، فتقول: قد أربيت فربا رباك".

قال أبو عبيدة:"نامية زائدة شديدة من الرباء".

=

=

قال ابن قتيبة:"عالية مذكورة".

**قال الزجاج**:"معنى {رَابِيَةً}: تَزِيد عَلَى الأَحْدَاثِ".

قال مقاتل:"يعني: شديدة ربت عليهم في الشدة، أشد من معاصيهم التي عملوها".

عن مجاهد: "{أَخْذَةً رَابِيَةً}، قال: شديدة".

قال ابن عباس:"يعني أخذة شديدة".

قال ابن زيد:"كما يكون في الخير رابية، كذلك يكون في الشرّ رابية، قال: ربا عليهم: زاد عليهم، وقرأ قول الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ}، وقرأ قول الله ﷻ: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}، يقول: ربا لهؤلاء الخير ولهؤلاء الشرّ".

(فعصوا رسول ربهم) وهذا جنس، أي: كل كذب رسول الله إليهم، كما قال تعالى (كل كذب الرسل فحق وعيد)، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل، كما قال تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين) وقال تعالى (كذبت عاد المرسلين) وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد.

(فأخذهم) أي: فأهلكهم الله.

(أخذة رابية) أي: عظيمة أليمة شديدة زائدة في الشدة زائدة في الشدة لازدياد كفرهم.

والمراد بالأخذة الرابية: إهلاك الاستئصال، أي ليس في إهلاكهم إبقاء قليل منهم.

قوله تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ} [الحاقة: ١١]، أي:"إنَّا لما جاوز الماء حدَّه، حتى علا وارتفع فوق كل شيء".

=

=

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: إنا لما كثر الماء فتجاوز حدّه المعروف كان له، -وذلك زمن الطوفان-".

**قال الزجاج**:"معنى {طَغَى الْمَاءُ}: طما وارتفع".

قال مقاتل:"وارتفع فوق كل شيء أربعين ذراعا".

قال قتادة: "بلغنا أنه طغى فوق كلّ شيء خمس عشرة ذراعا".

قال قتادة:"ذاكم زمن نوح، طغى الماء على كلّ شيء خمس عشرة ذراعا بقدر كل شيء".

قال سعيد بن جبير:"لم تنزل من السماء قطرة إلا بعلم الخزَّان، إلا حيث طغى الماء، فإنه قد غضب لغضب الله، فطغى على الخزان، فخرج ما لا يعلمون ما هو".

عن مجاهد، قوله: "{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ} -قال محمد بن عمرو في حديثه-: طما، -وقال الحارث-: ظهر".

قال الضحاك:"كثر وارتفع".

قال ابن عباس: "إنما يقول: لما كثر".

قال ابن عباس:"يعني: كثر الماء ليالي غرّق الله قوم نوح"

قوله تعالى: {حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [الحاقة: ١١]، أي:"حملنا أصولكم مع نوح في السفينة التي تجري في الماء".

**قال الطبري**: يقول:"حملناكم في السفينة التي تجري في الماء.. وقيل: حملناكم، فخاطب الذين نزل فيهم القرآن، وإنما حمل أجدادهم نوحا وولده، لأن الذين خوطبوا بذلك ولد الذين حملوا في الجارية، فكان حمل الذين حملوا فيها من الأجداد حملا لذريتهم".

قال مقاتل:"يقول: حملنا الآباء وأنتم في أصلابهم في السفينة".

=

=

**قال الزجاج**:"معنى {الْجَارِيَةِ}، أي: سفينة نوحٍ -عليه السلام-".
قال ابن عباس:"الجارية: السفينة". وروي عن السدي مثله.
قال ابن زيد:"والجارية: سفينة نوح التي حملتم فيها".
(إنا لما طغى الماء) أي: لما تجاوز الماء حده حتى علا كل شيء وارتفع على الوجود.
وذلك بسبب دعوة نوح على قومه حين كذبوه وخالفوه، حيث أنه دعاهم واجتهد بدعوتهم، كما قال تعالى (إني دعوت قومي ليلا ونهارا. فلم يزدهم دعائي إلا فرارا).
ولبث فيهم طويلا يدعوهم، كما قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون).
فلما لم يستجيبوا دعا عليهم، كما قال تعالى (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا...).
(حملناكم في الجارية) حملناكم على السفينة الجارية على وجه الأرض.
قوله تعالى (والجارية) يعني في السفينة التي تجري في الماء، وهي سفينة نوح عليه السلام ، والجارية من أسماء السفينة، ومنه قوله (وله الجوار).
والمحمول في الجارية نوح وأولاده، وكل من على وجه الأرض من نسل أولئك.
قال الألوسي: (في الجارية) في سفينة نوح عليه السلام والمراد بحملهم فيها رفعهم فوق الماء إلى انقضاء أيام الطوفان لا مجرد رفعهم إلى السفينة.
- فإن قال قائل: أنا لم أحمل في السفينة ولم أرها؟
**فالجواب**: أن حمل الآباء وإنجاء الآباء يعد إنجاء للأبناء وحملا لهم، كما قال تعالى لبني إسرائيل، والخطاب موجه للذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يسكنون
=

=

مدينته ومن حولها: {وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب} والذين أنجاهم إنما هم المعاصرون لفرعون، وهم أجداد من كانوا زمن النبي ﷺ.

قال الرازي: و (حملناكم) أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، ولا شك أن الذين خوطبوا بهذا هم أولاد الذين كانوا في السفينة.

قوله تعالى: {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً} [الحاقة: ١٢].

**قال الطبري**: "يقول: لنجعل السفينة الجارية التي حملناكم فيها لكم تذكرة، يعني عبرة وموعظة تتعظون بها".

**قال الفراء**:"لنجعل السفينة لكم تذكرة: عظة".

**قال الزجاج**:"معناه: لنجعل هذه الفعلة لكم تذكرة، أي: إغراق قوم نوح ونجاته والمؤمنين مَعَه".

قال قتادة:"فأبقاها الله تذكرة وعبرة وآية، حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعد سفينة نوح قد صارت رمادا".

(لنجعلها لكم تذكرة) اختلف العلماء في الضمير على من يعود؟

فقيل: على نفس السفينة، قالوا: فقد أبقاها الله حتى رآها أوائل هذه الأمة.

وقيل: الضمير يعود على جنس السفينة، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار. ورجح هذا القول ابن كثير، ويدل عليه: قوله تعالى (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون. وحملنا لهم من مثله ما يركبون).

وقيل: الضمير يعود إلى نفس القصة وما فيها من العبر.

قال الزجاج إنه عائد إلى الواقعة التي هي معلومة، وإن كانت ههنا غير مذكورة، والتقدير لنجعل نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة عظة وعبرة.

=

=

- قال الرازي مرجحا هذا القول: ويدل على صحته قوله (وتعيها أذن واعية) فالضمير في قوله (وتعيها) عائد إلى ما عاد إليه الضمير الأول، لكن الضمير في قوله (وتعيها) لا يمكن عوده إلى السفينة فكذا الضمير الأول.

- وقال القرطبي (لنجعلها لكم تذكرة) يعني سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، جعلها الله تذكرة وعظة لهذه الأمة حتى أدركها أوائلهم؛ في قول قتادة.

والمعنى: أبقيت لكم تلك الخشبات حتى تذكروا ما حل بقوم نوح، وإنجاء الله آباءكم؛ وكم من سفينة هلكت

وصارت ترابا ولم يبق منها شيء، وقيل: لنجعل تلك الفعلة من إغراق قوم نوح وإنجاء من آمن معه موعظة لكم؛ ولهذا قال الله تعالى (وتعيهآ أذن واعية) أي: تحفظها وتسمعها أذن حافظة لما جاء من عند الله، والسفينة لا توصف بهذا.

قوله تعالى: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة: ١٢]، أي:"وتحفظها كل أذن مِن شأنها أن تحفظ، وتعقل عن الله ما سمعت".

**قال الطبري**: "يعني: حافظة عقلت عن الله ما سمعت".

**قال الزجاج**:"معناه أُذُنٌ تحفظ ما سَمِعَتْ وَتَعْمَل به، أي: ليحفظ السامع ما سمع ويعمل به. تقول لكل شيء حفظته في نفسك: قَدْ وَعَيْته، يقال: قَدْ وَعَيْتُ".

**قال الفراء**:"يقول: لتحفظها كل أذن، لتكون عظة لمن يأتي بعد".

عن ابن عباس: "{وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}، يقول: حافظة".

قال ابن عباس:"يقول: سامعة، وذلك الإعلان".

قال قتادة:"أذن عقلت عن الله، فانتفعت بما سمعت من كتاب الله".

قال قتادة:"أذن سمعت، وعقلت ما سمعت".

قال الضحاك:"سمعتها أذن ووعت".

قال ابن زيد:"واعية يحذرون معاصي الله أن يعذّبهم الله عليها، كما عذّب من كان

=

=

قبلهم تسمعها فتعيها، إنما تعي القلوب ما تسمع الآذان من الخير والشرّ من باب الوعي".

عن عليّ بن حوشب، قال: "سمعت مكحولا يقول: قرأ رسول الله ﷺ: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}، ثم التفت إلى عليّ، فقال: «سأَلْتُ الله أنْ يَجْعَلَها أُذُنَكَ»، قال عليّ رضي الله عنه: فما سمعت شيئا من رسول الله ﷺ فنسيته".

عن عبد الله بن رستم، قال: سمعت بُرَيدة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعليّ: «يا عَلِيُّ؛ إنَّ اللهَ أمَرَني أنْ أُدْنِيَكَ وَلا أُقْصِيَكَ، وأنْ أُعَلِّمَكَ وأنْ تَعي، وحَقٌّ على اللهِ أنْ تَعِي»، قال: فنزلت: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}".

(وتعيها أذن واعية) أي: وتفهم هذه النعمة من نعمة إنجائنا لأهل الإيمان وإغراقنا لأهل الكفر والعصيان، وتعقلها أذن سامعة عاقلة منتفعة بسماع الأخبار ومنتفعة بالوعظ والتذكير.

- **قال السعدي**: وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة، وأهل البلادة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله لعدم وعيهم عن الله وتفكرهم بآياته.

(فائدة): قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٤٩):"وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم و جرائمهم، فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم، فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين، وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان، وأما ثمود فأهلكهم بالصيحة فماتوا في الحال... ومن اعتبر أحوال العالم قديمًا وحديثًا وما يعاقب به من يسعى في الأرض بالفساد وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن واستهان بحرمات الله علم أن النجاة في الدنيا والآخرة

=

=

للذين آمنوا وكانوا يتقون".

وقال ابن القيم في زاد المعاد (٤/ ٣٦٣): "وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لا بد منه، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغيث من السماء والقحط والجدب، وجعل ظلم المساكين والبخس في المكاييل والموازين وتعدي القوي على الضعيف سببًا لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا، ولا يعطفون إن استعطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم، فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها، فتارة بقحط وجدب، وتارة بعدو، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم والآم وغموم تحضرها نفوسهم، لا ينفكون عنها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزًا، لتحق عليهم الكلمة وليصير كل منهم إلى ما خلق له، والعاقل يسّير بصيرته بين أقطار العالم فيشاهده، وينظر مواقع عدل الله وحكمته".

وقال الشيخ عطيه سالم في تتمة أضواء البيان: نص تعالى هنا أن فرعون ومن قبله، والمؤتفكات جاءوا بالخاطئة، وهي: (فعصوا رسول ربهم)، وكذلك عاد وثمود كذبوا بالقارعة. فالجميع اشترك في الخاطئة، وهي عصيان الرسول (فعصى فرعون الرسول)، ولكنه قد أخذهم أخذة رابية.

ونوع في أخذهم ذلك: فأغرق فرعون وقوم نوح، وأخذ ثمود بالصيحة، وعادا بريح، وقوم لوط بقلب قراهم، كما أخذ جيش أبرهة بطير أبابيل، فهل في ذلك مناسبة بين كل أمة وعقوبتها، أم أنه للتنويع في العقوبة؛ لبيان قدرته تعالى وتنكيله بالعصاة لرسل الله.

الواقع أن أي نوع من العقوبة فيه آية على القدرة، وفيه تنكيل بمن وقع بهم،

=

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣).

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّور نَفْخَة وَاحِدَة} لِلْفَصْلِ بَيْن الْخَلَائِق وَهِيَ الثَّانِيَة.

وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤).

---

=

ولكن تخصيص كل أمة بما وقع عليها يثير تساؤلا، ولعل مما يشير إليه القرآن إشارة خفيفة هو الآتي.

أما فرعون، فقد كان يقول: (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي)، فلما كان يتطاول بها جعل الله هلاكه فيها، أي: في جنسها.

وأما قوم نوح، فلما يئس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عاما، وأصبحوا لا يلدون إلا فاجرا كفارا، فلزم تطهير الأرض منهم، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان.

وأما ثمود، فأخذوا بالصيحة الطاغية، لأنهم نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر، فلما كان نداؤهم صاحبهم سببا في عقر الناقة، كان هلاكهم بالصيحة الطاغية.

وأما عاد، فلطغيانهم بقوتهم، كما قال تعالى فيهم: (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد)، وسواء عماد بيوتهم وقصورهم، فهو كناية عن طول أجسامهم، ووفرة أموالهم، وتوافر القوة عندهم، فأخذوا بالريح، وهو أرق وألطف ما يكون، مما لم يكونوا يتوقعون منه أية مضرة ولا شدة.

وكذلك جيش أبرهة، لما جاء مدل بعدده وعدته، وجاء معه بالفيل أقوى الحيوانات، سلط الله عليه أضعف المخلوقات: الطيور (وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل).

أما قوم لوط، فلكونهم قلبوا الأوضاع بإتيان الذكور دون الإناث، فكان الجزاء من جنس العمل، قلب الله عليهم قراهم. والعلم عند الله تعالى. ولا شك أن في ذلك كله تخويفا لقريش.

{وحملت} رفعت {الأرض والجبال فدكتا} دقتا {دكة واحدة}.

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥).

{فَيَوْمئِذٍ وَقَعَتْ الْوَاقِعَة} قَامَتْ الْقِيَامَة.

وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦).

{وَانْشَقَّتْ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمئِذٍ وَاهِيَة} ضَعِيفَة.

وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧).

{وَالْمَلَك} يَعْنِي الْمَلَائِكَة {عَلَى أَرْجَائِهَا} جَوَانِب السَّمَاء {وَيَحْمِل عَرْش رَبّك فَوْقهمْ} أَيْ الْمَلَائِكَة الْمَذْكُورِينَ {يَوْمئِذٍ ثَمَانِيَة} مِنْ الْمَلَائِكَة أَوْ مِنْ صُفُوفهمْ.

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨).

{يَوْمئِذٍ تُعْرَضُونَ} لِلْحِسَابِ {لَا تَخْفَى} بِالتَّاءِ وَالْيَاء {مِنْكُمْ خَافِيَة} مِنْ السَّرَائِر(١).

---

(١) قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ} إسرافيل {نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ}، وهي النفخة الأولى".

أي: فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخة واحدة وهي النفخة الثانية، وتسبقها النفخة الأولى لصعق وموت كل من في السماوات والأرض إلا من شاء الله.

كما قال تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون).

اختلف العلماء ما المراد بالنفخة هذه؟

فقيل: هي النفخة الأولى [لخراب العالم].

وقيل: هي نفخة القيام لرب العالمين، ورجحه ابن كثير وقال: يقول تعالى مخبرا =

=

عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور، وهي هذه النفخة.

والأول أرجح، لأنه هو المناسب لما بعده.

قوله تعالى (نفخة واحدة) وقد أكدها هنا بأنها واحدة، لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع.

كما قال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر).

وقال تعالى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون).

وقال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون).

- وفي هذا إثبات النفخ في الصور وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

من الكتاب:

قوله تعالى: (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون).

وقال تعالى: (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون).

وقال تعالى: (ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا).

وقال تعالى: (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق).

ومن السنة:

عن عبد الله بن عمرو قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: (قرن ينفخ فيه).

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا، ثم لا يبقى أحد إلا صعق... ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون).

=

وأجمع المسلمون على ثبوته.

والنافخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام.

أجمع العلماء أن الذي موكل بنفخ الصور هو إسرافيل.

اختلف العلماء في عدد النفخات على قولين:

القول الأول: أنها نفختان: نفخة الصعق ونفخة البعث.

ويدل لهذا قوله تعالى: (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون).

وقال تعالى: (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون. فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون. ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون).

فقوله تعالى: (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم). هذه النفخة الأولى.

وقوله تعالى: (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) هذه هي النفخة الثانية.

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (ما بين النفختين أربعون) قالوا: يا أبى هريرة: أربعين يوما؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة: قال: أبيت). متفق عليه

القول الثاني: أنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث.

واحتجوا: في قوله تعالى: (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين) وهذه نفخة الفزع.

وقوله تعالى: (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات...) هذه نفخة الصعق.

وقوله تعالى: (فإذا هم قيام ينظرون) هذه نفخة البعث.

قالوا: إن الفزع مغاير للصعق.

=

صاحب الصور مستعد للنفخ.

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله (كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ، فينفخ) رواه الترمذي.

قوله تعالى: {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ} [الحاقة: ١٤]، أي:"ورُفعت الأرض والجبال عن أماكنها فكُسِّرتا".

قال مقاتل:"يقول: حمل ما على الأرض من ماء أو شجر أو شيء، وَحملت الْجِبالُ من أماكنها فضربت على الأرض".

**قال الزمخشري:**"{حُمِلَتِ}: ورفعت من جهاتها بريح بلغت من قوّة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال. أو بخلق من الملائكة. أو بقدرة الله من غير سبب".

قوله تعالى: {فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} [الحاقة: ١٤]، أي:"ودُقَّتا دقة واحدة".

**قال الطبري:**"يقول: فزلزلتا زلزلة واحدة".

قال مقاتل:"يعني: فكسرتا كسرة واحدة فاستوت بما عليها مثل الأديم الممدود".

قال ابن زيد:"صارت غبارا".

**قال الزمخشري:**"فضرب بعضها ببعض حتى تندقّ وترجع كثيبا مهيلا وهباء منبثا. والدك أبلغ من الدق. وقيل: فبسطتا بسطة واحدة، فصارتا أرضا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، من قولك: اندكّ السنام إذا انفرش. وبعير أدك وناقة دكاء. ومنه: الدكان".

عن الزهري:"{فدكتا دكة واحدة}، قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه»، ثم يقول: «لي الملك أين ملوك الأرض؟»".

أي: ورفعت الأرض والجبال عن أماكنها، فضرب بعضها ببعض حتى تندق وتتفتت وتصير كثيبا مهيلا.

=

=

- قال ابن كثير: فمدن مد الأديم، وتبدلت الأرض غير الأرض.
- وقال السعدي: أي: فتتت الجبال واضمحلت وخلطت بالأرض ونسفت فكان الجميع قاعصا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا.
كما قال تعالى (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا).
وقال تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار).
قال بعض العلماء: حملها ملك من الملائكة بأمر ربه سبحانه وتعالى.
- فإن قال قائل: الأرض مفردة، والجبال جمع، فإذا ضمت الجبال إلى الأرض فذلك جمع، فلماذا قال (فدكتا) بالتثنية؟
**فالجواب**: لأن الجبال عوملت كالشيء الواحد، فلما أضيفت إلى الأرض أصبحت مثنى، ولذا قيل: فدكتا.
قوله تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [الحاقة: ١٥]، أي:"ففي ذلك الحين قامت القيامة".
**قال الطبري**: يقول: "فيومئذ وقعت الصيحة الساعة، وقامت القيامة".
قال مقاتل:"وقعت الصيحة الآخرة، يعني: النفخة الآخرة".
قال الكلبي: "قامت القيامة".
قوله تعالى: {وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ} [الحاقة: ١٦]، أي:"وانصدعت السماء".
**قال الطبري**: "يقول تعالى ذكره: وانصدعت السماء".
قوله تعالى: {فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} [الحاقة: ١٦]، أي:"فهي يومئذ ضعيفة مسترخية، لا تماسُك فيها ولا صلابة".
**قال الطبري**: "يقول: منشقة متصدّعة".
قال ابن عباس:"يعني: متمزّقة ضعيفة".

=

=

**قال الزمخشري:**"مسترخية ساقطة القوّة جدّا بعد ما كانت محكمة مستمسكة".

- الواقعة من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها كما قال تعالى (فيومئذ وقعت الواقعة).
- **قال الشوكاني**: سميت واقعة لأنها كائنة لا محالة، أو لقرب وقوعها، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد.
- فإذا وقعت الواقعة والقيامة يحصل من الأهوال العظيمة والأحوال الفظيعة ما لا يخطر على البال.

(وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) أي: وانصدعت السماء فهي يومئذ ضعيفة ليس فيها تماسك ولا صلابة، بعد تلك القوة والصلابة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهاها وأضعفها.

كما قال تعالى (إذا السماء انشقت) وقال تعالى (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) وقال تعالى (وفتحت السماء فكانت أبوابا).

- والسماء كانت قوية متماسكة.

كما قال تعالى (والسماء ذات الحبك).

وقال تعالى (وبنينا فوقكم سبعا شدادا).

وقال تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج).

وقال تعالى (الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور.

قوله تعالى: {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا} [الحاقة: ١٧].

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: والملك على أطراف السماء حين تشقق

=

=

وحافاتها".

قال مقاتل:"يعني: نواحيها وأطرافها وهي السماء الدنيا".

**قال الزجاج**:"المعنى: الملائكة على جَوَانِبَها، ورَجَا كل شيء: نَاحِيَتُه، مقصور، والتثنيةُ: رَجَوان، والجمع: أَرْجَاءِ".

**قال الزمخشري**:"يعنى: أنها تنشق، وهي مسكن الملائكة، فينضوون إلى أطرافها وما حولها من حافاتها".

عن مجاهد، قوله: "{وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا}، قال: أطرافها".

قال سعيد بن جبير:"على حافات السماء".

قال سعيد بن المسيب: الأرجاء حافات السماء".

عن الأجلح، قال، قلت للضحاك: "ما أرجاؤها، قال: حافاتها".

عن قتادة: "{وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا}: على حافاتها".

قال قتادة، وسفيان: "على نواحيها".

قال معمر:"بلغني أنها أقطارها".

عن ابن عباس، وسعيد بن جبير:"على ما لم يَهِ منها".

قال ابن عباس:"يقول: والملك على حافات السماء حين تشقَّق؛ ويقال: على شقة، كل شيء تشقَّق عنه".

قوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: ١٧]، أي:"ويحمل عرش ربك فوقهم يوم القيامة ثمانية من الملائكة العظام".

وفي قوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: ١٧]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة. وهم الكروبيون، قاله ابن عباس، ومقاتل، وسهل بن عبد الله التستري، وحكاه الفراء.

=

=

قال سهل:"يعني: ثمانية أجزاء من الكروبيين، لا يعلم عدتهم إلا الله".

وقال الضحاك، عن ابن عباس: "الكَرُوبيّون ثمانية أجزاء، كل جنس منهم بقدر الإنس والجن والشياطين والملائكة".

**الثاني**: ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عدّتهن إلا الله. قاله ابن عباس، والضحاك، والكلبي.

قال ابن عباس:"هي الصفوف من وراء الصفوف".

**الثالث**: ثمانية من الملائكة. قاله العباس بن عبدالمطلب، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعبد الله بن عمرو، وشهر بن حوشب، والربيع بن أنس، وابن زيد.

قال قتادة:"هم اليوم أربعة مِن الملائكة، وهم يومئذ ثمانية".

قال الربيع بن أنس:"ثمانية من الملائكة".

وروي الثعلبي عن العباس بن عبد المطلب قال:"ثمانية أملاك على صورة الأوعال".

**قال الزجاج**:"يروى ثمانية أملاك، أرْجُلُهم في تخوم الأرض السابعة، والعَرْشُ فوق رُؤوسِهِم وَهُمْ مُطْرِقُونَ يُسَبِّحُونَ".

قال عبد الله بن عمرو: "حملة العرش ثمانية، ما بين موق أحدهم إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام".

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «وأذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش، بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه مخفق الطير سبعمائة عام".

قال ميسرة:"أرجلهم في التخوم لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم من شعاع النور".

قال ابن زيد: "لم يسم من حملة العرش إلا إسرافيل. وميكائيل ليس من حملة العرش".

=

=

**قال ابن كثير:**"أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم، أو: العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب".

وعن الحسن: "الله أعلم كم هم، أثمانية أم ثمانية آلاف؟".

**قال الزمخشري:**"ويجوز أن تكون الثمانية من الروح، أو من خلق آخر، فهو القادر على كل خلق، {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [يس: ٣٦]".

**مسألة:** في حملة العرش.

إن كون عرش الرحمن له حملة يحملونه هو أمر ثابت في الكتاب والسنة، فقد جاء ذكر حملة العرش في موضعين من القرآن الكريم، قال الله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}، وقال تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}.

فالآيتان تدلان على أن لعرش الله حملة يحملونه اليوم ويوم القيامة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض التأسيس (١/ ٥٧٥): "إن قوله: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ}، وقوله: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} يوجب أن لله عرشا يحمل، ويوجب أن ذلك العرش ليس هو الملك كما تقوله طائفة من الجهمية، فإن الملك هو مجموع الخلق، فهنا دلت الآية على أن لله ملائكة من جملة خلقه، يحملون عرشه، وآخرون يكونون حوله، وعلى أنه يوم القيامة يحمله ثمانية" ا. هـ.

وأما السنة فهي مليئة بالأحاديث والآثار الدالة على أن لعرش الرحمن حملة من الملائكة يحملونه: ففي حديث جابر بن عبد الله المتقدم قال: قال رسول الله

=

=

سكت: "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام".

وكذلك ما جاء في حديث الأوعال المتقدم: "ثم فوق ذلك ثمانية أملاك أوعال، ما بين أظلافهم إلى ركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش".

والقول بان حملة العرش هم من الملائكة هو قول السلف، الذين يثبتون العرش على أنه جسم عظيم خلقه الله فوق العالم، وأن الله استوى عليه بعد أن خلق السموات والأرض، وهذا ما جاء به القرآن والسنة، وأجمع عليه السلف من الصحابة والتابعين ومن تبعهم.

وأما الذين أنكروا استواء الله على عرشه وقالوا: إن استوى بمعنى: استولى، وأن المراد بالعرش: الملك، فإنهم أنكروا- أيضا- كون حملة العرش هم من الملائكة فقالوا: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، {وَيَحْمِلُ} بالجذب {عَرْشَ رَبِّكَ} ملك ربك للأرض والسموات، {فَوْقَهُمْ}، أي: فوق الملائكة الذين هم على أرجائها يوم القيامة، {ثَمَانِيَةٌ}، أي: السموات السبع والأرض، وقيل المراد بالثمانية: السموات والكرسي (١). فقد أولوا هذه الآية، كما أولوا آيات الاستواء التي جاء فيها ذكر عرش الرحمن- تبارك وتعالى-.

وأما الصنف الآخر الذين زعموا أن العرش المذكور في الآيات المراد به: الفلك التاسع، وهم الفلاسفة، فهم يقولون: إن المراد بالحملة الثمانية في قوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} الثمانية أفلاك التي تحت الفلك المحيط، أو ما يسمونه الفلك التاسع (٢)، وقد تقدم الرد على كلا الفريقين أثناء الكلام على الأقوال في العرش.

فمما تقدم تقرر أن لعرش الله حملة من الملائكة يحملونه بقدرة الله، وقد أخبرنا

=

=

الله- تعالى- أنهم يوم القيامة ثمانية، ولكن اختلف في هؤلاء الثمانية هل هم ثمانية أملاك، أم ثمانية أصناف، أم صفوف، وهل هم اليوم ثمانية، أم أقل، على عدة أقوال:

القول الأول: أن المراد بالثمانية: ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عدتهم إلا الله، وهذا القول مروي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، قال: "ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عدتهم إلا الله "، وهو- أيضا- مروي عن سعيد بن جبير، والشعبي، وعكرمة، والضحاك، وابن جريج١.

القول الثاني: أن المراد بالثمانية: أنهم ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة، وهذا القول مروي عن ابن عباس، وقال به مقاتل، والكلبي.

القول الثالث: أن حملة العرش هم اليوم ويوم القيامة ثمانية من الملائكة.

ويستدل لهذا القول بحديث العباس بن عبد المطلب المتقدم الذي جاء فيه: "ثم فوق ذلك ثمانية أملاك أوعال، ما بين أظلافهم إلى ركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش". فالحديث يدل على أن حملة العرش هم اليوم ثمانية.

وروي عن العباس بن عبد المطلب- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في قوله تعالى:: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، قال: "ثمانية أملاك في صورة الأوعال، بين أظلافهم وركبهم مسيرة ثلاث وستين أو خمس وستين سنة". وكذلك ما روي عن عبد الله بن عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أنه قال: "حملة العرش ثمانية ما بين موق أحدهم إلى مؤخرة عينه مسيرة مائة عام".

وعن الربيع بن أنس في قوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، قال: ثمانية من الملائكة.

=

=

وعن شهر بن حوشب قال: "حملة العرش ثمانية: أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك".

القول الرابع: أن حملة العرش اليوم أربعة من الملائكة، ويوم القيامة ثمانية، وهذا القول رجحه ابن كثير في تفسيره ٤/ ٧١)، وابن الجوزي، ونسبه للجمهور كما في "زاد المسير": (٧/ ٢٠٨، ٣٥٠).

ويستدل لهذا القول بعدة أدلة منها: ما رواه الطبري بسنده عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: "يحمله اليوم أربعة، ويوم القيامة ثمانية".

وروى الطبري- أيضا- بسنده عن ابن إسحاق قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: "هم اليوم أربعة"، يعني: حملة العرش، "وإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية".

واستدلوا أيضا بما جاء من ذكر أسماء حملة العرش في شعر أمية، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: "صدق أمية بن أبي الصلت في شيء من شعره فقال:

**رجل وثور تحت رجل يمينه... والنسر للأخرى وليث مرصد**

فقال النبي ﷺ: "صدق".

واستدلوا- أيضا- بما جاء في حديث الصور المشهور، فقد جاء فيه: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وهم اليوم أربعة، أقدامهم على تخوم الأرض السفلى، والسموات إلى حجزهم، والعرش على مناكبهم....". ولعل هذا القول هو الأقرب إلى الصواب، ولكن ليس هناك نص صريح ثابت عن النبي ﷺ في المسألة. و. الله أعلم.

انظر كتاب العرش وما رُوِي فيه، تحقيق محمد بن خليفة بن علي التميمي.

=

=

- قوله تعالى (فوقهم) الضمير في قوله (فوقهم) إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان الأول: وهو الأقرب أن المراد فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء والمقصود التمييز بينهم وبين الملائكة الذين هم حملة العرش.

**الثاني**: قال مقاتل: يعني أن الحملة يحملون العرش فوق رؤوسهم.

- قوله تعالى (ويحمل عرش ربك) الخطاب للنبي ﷺ، وأضاف ضميره إلى الرب تشريفا وتكريما له ﷺ، لأن المراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة

- وفي هذا إثبات عرش الرحمن.

والعرش: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو أعلى المخلوقات وأوسعها.

وقد وصفه الله بأوصاف:

- وصفه بالعظمة، فقال تعالى: {... ورب العرش العظيم}.

- ووصفه بأنه كريم، فقال تعالى: {... رب العرش الكريم}.

- ووصفه بأنه مجيد، فقال تعالى: {ذو العرش المجيد}.

قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ} [الحاقة: ١٨]، أي:"في ذلك اليوم تُعرضون على الله -أيها الناس- للحساب والجزاء".

**قال الطبري**: يقول:"يومئذ أيها الناس تعرضون على ربكم، وقيل: تعرضون ثلاث عرضات".

قال سهل:"أي: تعرضون على الحق ﷻ، فيحاسبكم بأعمالكم".

**قال ابن كثير**:"أي تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر".

**قال الزمخشري**:"العرض: عبارة عن المحاسبة والمساءلة. شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله".

=

=

عن أبي موسي الأشعري، قال: "تُعرض الناس ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير. وأما الثالثة، فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله".

عن عبد الله، قال: "يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: عرضتان معاذير وخصومات، والعرضة الثالثة تطيرّ الصحف في الأيدي".

قال قتادة:"تُعرضون ثلاث عَرَضاتٍ؛ فأمّا عَرْضتان ففيهما الخُصومات والمَعاذير، وأمّا الثالثة فتَطايُر الصُّحف في الأيدي".

قال قتادة ذُكر لنا: أنّ نبي الله ﷺ كان يقول: «يُعرَض الناس ثلاث عَرَضاتٍ يوم القيامة؛ فأمّا عَرْضتان ففيهما خُصومات ومَعاذير وجِدال، وأمّا العَرْضة الثالثة فتَطير الصُّحف في الأيدي». اللهم، اجعلنا ممن تؤتيه كتابه بيمينه. قال: وكان بعضُ أهل العلم يقول: إنّي وجدتُ أكْيس الناس مَن قال: {هاؤُمُ اقْرَءُوا كِتابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ} . قال: ظنّ ظنًّا يقينًا، فنَفَعه الله بظنّه. قال: وذُكر لنا: أنّ نبي الله ﷺ كان يقول: «مَن استطاع أن يموت وهو يُحسن الظنّ بالله فليفعل»".

قوله تعالى: {لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة: ١٨]، أي:"لا يخفى عليه شيء من أسراركم".

قال الكلبي:"لا يخفى على الله منكم شيء".

**قال الطبري:**"يقول جلّ ثناؤه: لا تخفى على الله منكم خافية، لأنه عالم بجميعكم، محيط بكلكم".

قال مقاتل:"يقول: لا يخفى الصالح منكم، ولا الطالح إذا عرضتم".

**قال الزمخشري:**"سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا بستر الله عليكم".

قال سهل:"لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، كل ذلك معروف محصي عليكم

=

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩).

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابه بِيَمِينِهِ فَيَقُول} خِطَابًا لجماعته لما سر به {هاؤم} خذوا {اقرؤوا كتابيه} تَنَازَعَ فِيهِ هَاؤُمُ وَاقْرَءُوا.

إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠).

{إني ظننت} تيقنت {أني ملاق حسابية.

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١).

{فهو في عيشة راضية} مرضية.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢).

{في جنة عالية}.

قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣).

{قُطُوفهَا} ثِمَارهَا {دَانِيَة} قَرِيبَة يَتَنَاوَلهَا الْقَائِم وَالْقَاعِد والمضطجع.

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤).

فَيُقَال لَهُمْ {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا} حَال أَيْ مُتَهَنِّئِينَ {بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّام

---

=

في علمه السابق، فيسأله عن جميع ذلك، يعني يسأله فيقول له: ألم تكن عارفًا بالساعات من أجلي؟ ألم يوسع لك حتى في المجالس من
أجلي؟ ألم تسألني أن أزوجك فلانة أمَتي أحسن منك فزوجناكها؟ فهذا سؤال نعمه عليك فكيف سؤاله عن معصيته".

قال عمر بن الخطاب، - رضي الله عنه -: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزَنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وَتَزَيَّنُوا للعرض الأكبر: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}".

الْخَالِيَة} الْمَاضِيَة فِي الدنيا.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥).

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابه بِشِمَالِهِ فَيَقُول يَا} للتنبيه {ليتني لم أوت كتابيه}.

وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦).

{ولم أدر ما حسابيه}.

يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧).

{يَا لَيْتَهَا} أَيْ الْمَوْتَة فِي الدُّنْيَا {كَانَتْ القاضية} القاطعة لحياتي بأن لا أبعث.

مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨).

{ما أغنى عني ماليه}.

هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩).

{هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ} قُوَّتِي وَحُجَّتِي وَهَاء كِتَابِيَهْ وَحِسَابِيَهْ وَمَالِيَهْ وَسُلْطَانِيَهْ لِلسَّكْتِ تَثْبُت وَقْفًا وَوَصْلًا اتِّبَاعًا لِلْمُصْحَفِ الْإِمَام وَالنَّقْل وَمِنْهُمْ مَنْ حَذَفَهَا وصلا.

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠).

{خُذُوهُ} خِطَاب لِخَزَنَةِ جَهَنَّم {فَغُلُّوهُ} اجْمَعُوا يَدَيْهِ إلَى عُنُقه فِي الْغُلّ.

ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١).

{ثُمَّ الْجَحِيم} النَّار الْمُحْرِقَة {صَلُّوهُ} أَدْخِلُوهُ.

ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢).

{ثُمَّ فِي سَلْسَلَة ذَرْعهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا} بِذِرَاعِ الْمَلَك {فَاسْلُكُوهُ} أَدْخِلُوهُ فِيهَا بَعْد إدْخَاله النَّار وَلَمْ تَمْنَع الْفَاء مِنْ تَعَلُّق الْفِعْل بِالظَّرْفِ الْمُتَقَدِّم.

إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ (٣٣).

{إنه كان لا يؤمن بالله العظيم}.

وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤).

{ولا يحض على طعام المسكين}.

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥).

{فليس له اليوم ها هنا حَمِيم} قَرِيب يَنْتَفِع بِهِ.

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦).

{وَلَا طَعَام إلَّا مِنْ غِسْلِين} صَدِيد أَهْل النَّار أَوْ شَجَر فِيهَا.

لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧).

{لَا يَأْكُلهُ إلَّا الْخَاطِئُونَ} الْكَافِرُونَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} [الحاقة: ١٩].

**قال الطبري:** "يقول تعالى ذكره: فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه، فيقول تعالى: {اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}".

**قال ابن كثير:** "يخبر تعالى عن سعادة من أوتى كتابه يوم القيامة بيمينه، وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}، أي: خذوا اقرؤوا كتابيه؛ لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة؛ لأنه ممن بَدل الله سيئاته حسنات".

**قال السعدي:** "هؤلاء هم أهل السعادة يعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزا لهم وتنويها بشأنهم ورفعا لمقدارهم، ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور ومحبة أن يطلع الخلق على ما من الله عليه به من الكرامة: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} أي: دونكم كتابي فاقرأوه فإنه يبشر بالجنات، وأنواع =

=

الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب".

قال ابن زيد، في قول الله: "{هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}، قال: تعالوا".

قال قتادة:"كان بعض أهل العلم يقول: وجدت أكيس الناس من قال: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}".

عن أبي عثمان قال: "المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله، فيقرأ سيئاته، فكلما قرأ سيئةً تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرؤها، فيرجع إليه لونه. ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات، قال: فعند ذلك يقول: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}".

قال ابن قتيبة:"يقال: «بمعنى: هاكُمُ اقرءُوا كتابيهْ»؛ أبدلتْ الهمزةُ من الكاف".

قال أبو حيان: "وهذا ضعيف. إلا إن كان عن أنها تحل محلها في لغة من قال: هاك وهاك وهاكما وهاكم وهاكن؛ فيمكن أنه بدل صناعي".

قال عبد الرحمن بن زيد: "معنى: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}، أي: ها اقرؤوا كتابيه، و "ؤم" زائدة". قال ابن كثير:"والظاهر أنها بمعنى: هاكم".

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه، لأنه من السعداء، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: (هاؤم اقرؤوا كتابيه) أي: خذوا اقرؤوا كتابية، لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات.

قال الرازي: ويدل قوله (هاؤم اقرؤوا كتابيه) على أنه بلغ الغاية في السرور، لأنه لما أعطي كتابه بيمينه، علم أنه من الناجين الفائزين بالنعيم، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله.

وقال السعدي: يقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومحبة أن يطلع الخلق على ما من الله به عليه من الكرامة (هاؤم اقرؤوا كتابيه) أي دونكم كتابي، فاقرؤوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب،

=

=

والذي أوصلني إلى هذه الحال، ما من الله به علي من الإيمان بالبعث والحساب والاستعداد له.

قوله تعالى: {إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ} [الحاقة: ٢٠]، أي:"إني أيقنت في الدنيا بأني سألقى جزائي يوم القيامة، فأعددت له العدة من الإيمان والعمل الصالح".

**قال الطبري:**"يقول: إني علمت أني ملاق حسابيه إذا وردت يوم القيامة على ربي".

**قال ابن كثير:**"أي: قد كنت موقنا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ} [البقرة: ٤٦]".

عن ابن عباس، قوله: "{إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ}، يقول: أيقنت".

قال قتادة:"يقول: إنِّي قد عَلمتُ".

قال قتادة:"ظنّ ظنا يقينا، فنفعه الله بظنه".

قال قتادة:"ما كان من ظنّ الآخرة فهو علم".

قال مجاهد:"كلّ ظنّ في القرآن {إِنِّي ظَنَنْتُ}، يقول: أي: علمت".

قال ابن زيد:"إن الظنّ من المؤمن يقين، وإن «عسى» من الله واجب، {فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}، {فعسى أن يكون من المفلحين}".

قال الحسن:"إنّ المؤمن أحسنَ الظنّ بربّه فأحسنَ العمل، وإنّ المنافق أساء الظنّ فأساء العمل".

عن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة قال: إن الله يقف عبده يوم القيامة فيبدي سيئاته في ظهر صحيفته فيقول له: أنت عملت هذا؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول له: إني لم أفضحك به، وإني قد غفرت لك فيقول عند ذلك: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ}، حين نجا من فضيحته يوم القيامة".

=

=

عن عمر بن ذرّ، في قوله:" {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه} قال: حَمل -وربّ الكعبة- ظنّه على اليقين، ثم نادى مُسفر وجهه، ثَلِجٌ قلبه، مُطلقة يداه. {وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه} أخذ ابن ذرّ يقول: صَدَقْتَ، يا كذاب، صدقت، يا كذاب، ينادي مُسْوَدٌّ وجْهُه، كاسفٌ باله، مُغلولة يداه إلى عنقه...".

عن أبي الضيف- وكان من أصحاب معاذ بن جبل- قال: "يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين قلت: لم سموا أصحاب اليمين قال: لأنهم عملوا بالحسنات والسيئات فأعطوا كتبهم بأيمانهم فقرأوا سيئاتهم حرفا حرفا قالوا يا ربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا؟ فعند ذلك محا الله السيئات وأبدلها حسنات فعند ذلك قالوا: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}، فهم أهل الجنة".

قوله تعالى: {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} [الحاقة: ٢١].

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: فالذي وصفت أمره، وهو الذي أوتي كتابه بيمينه، في عيشة مرضية، أو عيشة فيها الرضا، فوصفت العيشة بالرضا وهي مرضية، لأن ذلك مدح للعيشة، والعرب تفعل ذلك في المدح والذّم فتقول: هذا ليل نائم، وسرّ كاتم، وماء دافق، فيوجهون الفعل إليه، وهو في الأصل مقول لما يراد من المدح أو الذّم.

**قال السعدي:**"أي: جامعة لما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وقد رضوها ولم يختاروا عليها غيرها".

قال سعيد بن جبير: {عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ}، "يُرِيدُ: فيها الرضا".

قوله تعالى: {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} [الحاقة: ٢٢]، أي:"في جنة مرتفعة المكان والدرجات".

=

=

**قال الطبري**:"يقول: في بستان عال رفيع.

**قال ابن كثير**:"أي: رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها".

**قال الزمخشري**:" {عالِيَةٍ} : مرتفعة المكان في السماء. أو رفيعة الدرجات. أو رفيعة المباني والقصور والأشجار".

عن الضحاك:"أن الجنة أعلى من النار فسميت لذلك عالية".

قال عطاء: "والدرجة مثل ما بين السماء والأرض".

وقد ثبت في الصحيح: "إن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض".

(في جنة عالية) أي: رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها، فهي عالية ورفيعة من حيث كونها نعيمها في أعلى وأرفع درجات النعيم كيفا وكما ونوعا وأبدية.

قوله تعالى: {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} [الحاقة: ٢٣]، أي:"ثمارها قريبة يتناولها القائم والقاعد والمضطجع".

**قال الطبري**:"يقول: ما يقطف من الجنة من ثمارها دانٍ قريب من قاطفه.

**قال السعدي**:"أي: ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها قياما وقعودا ومتكئين".

عن الضحاك:" {قُطُوفُها} ، قال: ثِمارها".

قال قتادة:"دنت فلا يردّ أيديهم عنها بعد ولا شوك".

قال الحسن:"تَدْنو منه حتى يتناولها مِن حيثُ شاء".

عن خُثَيْمٍ، قال: "سمعت تُبَيْعًا وسُئل عن: {قُطُوفُها دانِيَةٌ} . فيقول: تَدْنو إليه وهو قائم، فيأخذ من فاكهتها ما أحبّ، ثم تَدْنو إليه وهو قاعد، فيأخذ من فاكهتها ما أحبّ، ثم تَرجع كما كانت".

=

=

عن أبي إسحاق، قال: "سمعت البراء يقول في هذه الآية: {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ}، قال: يتناول الرجل من فواكهها وهو نائم".

(قطوفها دانية) أي: ثمرها وجناها، من أنواع الفواكه قريبة سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها قياما وقعودا ومتكئين،

- **قال الرازي**: (قطوفها دانية) أي: ثمارها قريبة التناول يأخذها الرجل كما يريد إن أحب أن يأخذها بيده انقادت له، قائما كان أو جالسا أو مضطجعا.

- والقطوف: جمع قطف بكسر القاف وسكون الطاء، وهو الثمر، سمي بذلك لأنه يقطف.

- **قال ابن عاشور**: ومعنى دنوها: قربها من أيدي المتناولين لأن ذلك أهنأ إذ لا كلفة فيه، قال تعالى (وذللت قطوفها تذليلا).

قوله تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة: ٢٤]، أي:"يقال لهم: كلوا أكلا واشربوا شربًا بعيدًا عن كل أذى، سالمين من كل مكروه؛ بسبب ما قدَّمتم من الأعمال الصالحة في أيام الدنيا الماضية".

**قال الطبري**:"يقول لهم ربهم جل ثناؤه: كلوا معشر من رضيت عنه، فأدخلته جنتي من ثمارها، وطيب ما فيها من الأطعمة، واشربوا من أشْرِبتها، هَنِيئا لَكُمْ لا تتأذون بما تأكلون، ولا بما تشربون، ولا تحتاجون من أكل ذلك إلى غائط ولا بول، جزاء من الله لكم، وثوابا بما أسلفتم، أو على ما أسلفتم: أي على ما قدّتم في دنياكم لآخرتكم من العمل بطاعة الله، في أيام الدنيا التي خلت فمضت".

**قال ابن كثير**:"أي: يقال لهم ذلك؛ تفضلا عليهم، وامتنانا وإنعاما وإحسانا. وإلا فقد ثبت في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وَسَدِّدوا وقَاربُوا واعلموا أن أحدا منكم لن يدخلَه عملُه الجنةَ". قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدني الله برحمة منه وفضل» ".

=

=

**قال السعدي**:"وذلك الجزاء حصل لكم {بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} من الأعمال الصالحة -وترك الأعمال السيئة- من صلاة وصيام وصدقة وحج وإحسان إلى الخلق، وذكر لله وإنابة إليه".

عن ابن زيد، في قوله: "{بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}، قال: أيام الدنيا بما عملوا فيها".

وعن مجاهد: "أيام الصيام". قال الزمخشري:"أى: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله".

عن عبد العزيز بن رفيع: "{بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخالِيَةِ}، قال: الصوم".

قال الحسن:"سمعنا أنه الصيام".

قال الثعلبي:"قدّمتم لآخرتكم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية وهي الدنيا".

عن قتادة:"قال الله: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}، إن أيامكم هذه أيام خالية: هي أيام فانية، تؤدي إلى أيام باقية، فاعملوا في هذه الأيام، وقدّموا فيها خيرًا إن استطعتم، ولا قوّة إلا بالله".

(كلوا واشربوا) أي: من كل طعام لذيذ، وشراب شهي.

(هنيئا) أي: تاما كاملا من غير مكدر ولا منغص، وذلك الجزاء الحاصل لكم:

(بما أسلفتم في الأيام الخالية) أي: بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية، يعني أيام الدنيا، التي جعلها الله مزرعة للأخرة.

قال علي: ألا إن الدنيا أدبرت، وإن الآخرة أقبلت، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل.

وسميت صالحة لأنها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، وتزول بها عنه فساد الأحوال.

=

=

فالعمل الصالح هو الذي يدخل معك في قبرك. كما قال ﷺ (يتبع الميت ثلاثة أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله) متفق عليه.
وسبب للنجاة من الفتن. كما قال ﷺ (بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي كافرا ويصبح مؤمنا، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل) رواه مسلم.
وهو الذي يتمناه الكافر في موضعين: عند الاحتضار: كما قال تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون).
وفي النار: كما قال تعالى (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير).
وقد أمر الله به حتى المرسلين.
كما قال تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم).
فهنيئا لمن بادر هذه الدنيا وأكثر فيها من الأعمال الصالحات وأرضى رب الأرض والسماوات، واستغل الأيام بما يقربه إلى الله ﷻ).
- إن مصير الإنسان شقاوة أو سعادة يترتب على نوعية عمله صلاحا أو فسادا ولا يظلم ربك أحدا، كما قال تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون. وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون).
وقال تعالى (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره).

=

=

(فائدة): إن قيل: ما الجمع بين هذه الآية وأمثالها التي ظاهرها أن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة، وبين قوله ﷺ (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله)؟

قيل: أن مجرد دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله، كما في الحديث، وأما اقتسام منازل الجنة ودرجاتها فإن ذلك يتفاوت بتفاوت الأعمال.

وهذا مذهب ابن بطال، والقرطبي في تفسيره.

وقيل: إن دخول الجنة برحمة الله، ومن رحمة الله وفق العبد للعمل ويسره له حتى به الجنة، فهذا العمل من رحمة الله.

وهذا مذهب ابن حزم، والبيهقي، وابن العربي، والنووي، وابن رجب، والشوكاني.

- قال النووي:... وأما قوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون) ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة، فلا يعارض هذه الأحاديث، بل معنى الآيات: أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها، وقبولها برحمة الله تعالى وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل. وهو مراد الأحاديث، ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها، وهي من الرحمة. والله أعلم.

- وقال ابن رجب:... وفيه دليل على أن الأعمال سبب لدخول الجنة، كما قال تعالى (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون).

وأما قوله ﷺ (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله) فالمراد- والله أعلم- أن العمل بنفسه لا يستحق به أحد الجنة لولا أن الله جعله- بفضله ورحمته- سببا لذلك، والعمل نفسه من رحمة الله وفضله على عبده، فالجنة وأسبابها كل من فضل الله ورحمته.

=

=

وقيل: إن الباء في الآية ليست للسببية، بل للإلصاق أو المصاحبة، والمعنى: أورثتموها ملابسة أو مصاحبة لأعمالكم.

وهذا مذهب الكرماني، واختيار العيني.

وقيل: إن الآية في العمل المقبول، والحديث في العمل المجرد من القبول.

وهذا مذهب الحافظ ابن حجر، والشنقيطي.... (انظر: كتاب الأحاديث المشكلة).

ولما ذكر الله حال السعداء، ذكر حال الأشقياء فقال:

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ} [الحاقة: ٢٥]، أي:"وَأَمَّا من أعطي كتاب أعماله بشماله، فيقول نادمًا متحسرًا: يا ليتني لم أُعط كتابي".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: وأما من أعطي يومئذ كتاب أعماله بشماله، فيقول: يا ليتني لم أعط كتابيه".

قال سهل بن عبد الله:"أي: بما فيه من الأعمال الخبيثة والكفر، فيتمنى أن يكون غير مبعوث".

**قال ابن كثير:**"وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العَرَصات بشماله، فحينئذ يندم غاية الندم".

قال مجاهد:"تُجعل شماله وراء ظهره، فيأخذ بها كتابه".

قال مجاهد:"يخلع يده وراء ظهره".

(وأما من أوتي كتابه بشماله) هؤلاء هم أهل الشقاء يعطون كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة بشمالهم تمييزا لهم وخزيا وعارا وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والحزن:

(فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه) أي: فيقول إذا رأى قبائح أعماله: يا ليتني لم أعط

=

=

كتابي، لما يحصل له من الخجل والافتضاح، كما قال تعالى (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره. فسوف يدعو ثبورا. ويصلى سعيرا).

- **قال السعدي**: لأنه يبشر بدخول النار والخسارة الأبدية.

- **وقال ابن عاشور**: وتمني كل من أوتي كتابه بشماله أنه لم يؤت كتابه، لأنه علم من الإطلاع على كتابه أنه صائر إلى العذاب فيتمنى أن لا يكون علم بذلك إبقاء على نفسه من حزنها زمنا فإن ترقب السوء عذاب.

قوله تعالى: (ولم أدر ما حسابيه).

**قال الطبري**:"يقول: ولم أدر أيّ شيء حسابيه".

أي: ويا ليتني لم أدر ما هو حسابي، أي: لم أبعث ولم أحاسب، لأنه لا حاصل له في ذلك الحساب، إنما كله عليه.

قوله تعالى: {يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} [الحاقة: ٢٧]، أي:"يا ليت الموتة التي متُّها في الدنيا كانت القاطعة لأمري، ولم أُبعث بعدها".

**قال الطبري**:"يقول: يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت هي الفراغ من كلّ ما بعدها، ولم يكن بعدها حياة ولا بعث، والقضاء: وهو الفراغ".

قال سهل بن عبد الله:"يعني: يا ليت الموتة الأولى كانت عليّ فلم أبعث".

عن محمد بن كعب القرظي:"{يا لَيْتَها كانَتِ القاضِيَةَ}، قال: الموت".

قال الضحاك:"يا ليتها كانت موتة لا حياة بعدها".

قال قتادة:"تمنى الموت، ولم يكن في الدنيا شيء أكره عنده من الموت".

عن ابن زيد، قوله: "{يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ}: الموت".

أي: ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت هي الفراغ من كل ما بعدها، ولم يكن بعدها حياة ولا بعث، ومعنى القاضية: القاطعة للحياة.

- والمعنى: أنه تمنى داوم الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله وما

=

يصير إليه من العذاب، فالضمير في (ليتها) يعود إلى الموتة التي قد كان ماتها وإن لم تكن مذكورة، لأنها لظهورها كانت كالمذكورة. [قاله الشوكاني].

- تمنى الموت مع أنه في الدنيا كان لا يريده، وأصبح الموت له أمنية حينما رأى العذاب قال تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) وقال تعالى (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون).

قوله تعالى: {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ} [الحاقة: ٢٨]، أي:"ما نفعني مالي الذي جمعته في الدنيا".

**قال الطبري**:"يعني: أنه لم يدفع عنه ماله الذي كان يملكه في الدنيا من عذاب الله شيئا".

قال سهل بن عبد الله:"كثرة مالي، حيث لم أؤد منه حق الله، ولم أصل به القرابة".

**قال ابن كثير**:"أي: لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذابَ الله وبَأسه، بل خَلَص الأمر إليَّ وحدي، فلا معين لي ولا مجير".

أي: لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه، بل خلص الأمر إلي وحدي فلا معين لي ولا مجير.

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه أنه قال (أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) قال: يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت) رواه مسلم.

قوله تعالى: {هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ} [الحاقة: ٢٩]، أي:"ذهبت عني حجتي، ولم يَعُدْ لي حجة أحتج بها".

قال سهل بن عبد الله:"يعني: حجتي وعذري".

=

**قال الطبري**:"يقول: ذهبت عني حججي، وضلت، فلا حجة لي أحتجّ بها".
عن عكرِمة، ومجاهد:"{هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ}، قال: حُجتي". وروي عن القرظي مثله.
قال عكرمة:"يعني: حُجّته".
قال ابن عباس:"يقول: ضلت عني كلّ بينة فلم تغن عني شيئا".
قال الضحاك:"يقول: بينتي ضلَّت عني".
قال قتادة:"أما والله ما كلّ من دخل النار كان أمير قرية يجبيها، ولكن الله خلقهم، وسلطهم على أقرانهم، وأمرهم بطاعة الله، ونهاهم عن معصية الله".
وروي عن ابن زيد، في قوله: "{هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ}، قال: سلطان الدنيا".
أي: ذهب واضمحل، فلم تنفع الجنود ولا الكثرة، ولا العدد ولا العدد، ولا الجاه العريض، بل ذهب كله أدراج الرياح.
- قوله تعالى (سلطانية) فيها قولان:
قيل: حجتي. (وهو قول الأكثر كما ذكر ذلك البغوي والألوسي).
وقيل: سلطاني وملكي ومالي.
- قال الآلوسي: (هلك عنى سلطانيه) أي: بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا وبه فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وعكرمة والسدي وأكثر السلف، أو ملكي وتسلطي على الناس وبقيت فقيرا ذليلا أو تسلطي على القوى والآلات التي خلقت لي فعجزت عن استعمالها في الطاعات يقول ذلك تحسرا وتأسفا وإلى هذا ذهب قتادة.
وخالف في ذلك ابن عطية فقال: الظاهر عندي أن سلطان كل أحد حاله في الدنيا من عدة وعدد.
واقتصر على هذا المعنى ابن عاشور فقال في معناه: سلطاني الذي عهدته.

=

=

وابن كثير اقتصر على المال والجاه.

قال ابن عاشور: ومعنى هلاك السلطان: عدم الانتفاع به يومئذ فهو هلاك مجازي.

قوله تعالى: {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ} [الحاقة: ٣٠]، أي:"يقال لخزنة جهنم: خذوا هذا المجرم الأثيم، فاجمعوا يديه إلى عنقه بالأغلال".

عن ابن جريج:"{خُذُوهُ فَغُلُّوهُ}، قال: أُخبرتُ أنه أبو جهل".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره لملائكته من خزّان جهنم: {خُذُوهُ فَغُلُّوه}".

**قال ابن كثير:**"أي: يأمر الزبانية أن تأخذه عنْفًا من المحشر، فَتَغُله، أي: تضع الأغلال في عنقه، ثم تُورده إلى جهنم فتصليه إياها، أي: تغمره فيها".

وقال الفضيل- هو ابن عياض -:"إذا قال الرب، ﷻ: {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ} ابتدره سبعون ألفا ملك، أيهم يجعل الغل في عنقه".

وروى ابن أبي الدنيا في "الأهوال": "أنه يبتدره أربعمائة ألف، ولا يبقى شيء إلا دَقَه، فيقول: ما لي ولك؟ فيقول: إن الرب عليك غضبان، فكل شيء غضبان عليك".

أي: يأمر الزبانية أن تأخذه عنفا من المحشر، فتغله أي فتضع الأعناق في عنقه ثم تورده إلى جهنم فتطلبه إياها أي تغمره فيها.

(فغلوه) أي: قيدوه بالأغلال والأوثاق في عنقه ويديه وقدميه وناصيته.

قوله تعالى: {ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ} [الحاقة: ٣١]، أي:"ثم أدخلوه الجحيم ليقاسي حرها".

**قال الطبري:**"يقول: ثم في نار جهنم أوردوه ليصلى فيها".

**قال الزجاج:**"المعنى: اجعلوه يصلى النَّار".

**قال ابن كثير:**"أي: اغمروه فيها".

=

=

أي: اغمروه فيها، والجحيم اسم من أسماء النار، قال القرطبي: أي اجعلوه يصلى الجحيم.

قوله تعالى: {ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ} [الحاقة: ٣٢]، أي:"ثم في سلسلة من حديد طولها سبعون ذراعًا فأدخلوه فيها".

**قال الطبري:**"يقول: ثم اسلكوه في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا، بذراع الله أعلم بقدر طولها وقيل: إنها تدخل في دُبُره، ثم تخرج من منخريه".

**قال الزمخشري:**"سلكه في السلسلة: أن تلوى على جسده حتى تلتف عليه أثناؤها، وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة، وجعلها سبعين ذراعا إرادة الوصف بالطول، كما قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة، يريد: مرات كثيرة، لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد. والمعنى في تقديم السلسلة على السلك: مثله في تقديم الجحيم على التصلية. أى: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة، كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم، ومعنى {ثُمَّ} الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم، وما بينها وبين السلك في السلسلة، لا على تراخى المدة".

عن ابن عباس، قوله: "{فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ}، قال: بذراع الملك فاسلكوه، قال: تسلك في دُبره حتى تخرج من منخريه، حتى لا يقوم على رجليه".

عن نسير بن ذعلوق، قال: "سمعت نوفا يقول في رحبة الكوفة، في إمارة مصعب بن الزبير، في قوله: {فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا}، قال: الذراع: سبعون باعا، الباع: أبعد ما بينك وبين مكة". وفي رواية:"كلّ ذراع سبعون باعا، كلّ باع أبعد مما بينك وبين مكة، وهو يومئذ في مسجد الكوفة".

عن الضحاك: "{فَاسْلُكُوهُ}، قال: السلك: أن تدخل السلسلة في فيه، وتخرج من

=

=

دبره".

قال مجاهد:"بلَغني: أنّ السّلسلة تَدخل من مَقْعدَته، حتى تَخرج من فِيه، ثم يُوثَق بها بعد، أو مِن فِيه حتى تَخرج من مَقْعدَته".

عن سُويد بن نجيح -من طريق المسيّب- قال: "بلَغني: أنّ جميع أهل النار في تلك السّلسلة، ولو أنّ حَلقة منها وُضعت على جبل لَذابَ مِن حرِّها".

وقال ابن جريج، قال ابن عباس: {فَاسْلُكُوهُ}، تدخل في استه ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى".

عن ابن عباس في قوله: {فَاسْلُكُوهُ}، قال: تسلك في دبره حتى تخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ} [الحاقة: ٣٣]، أي:"إنه كان لا يصدِّق بأن الله هو الإله الحق وحده لا شريك له، ولا يعمل بهديه".

**قال الطبري:**"يقول: افعلوا ذلك به جزاء له على كفره بالله في الدنيا، إنه كان لا يصدّق بوحدانية الله العظيم".

**قال الزمخشري:**"{إِنَّهُ} تعليل على طريق الاستئناف، وهو أبلغ، كأنه قيل: ما له يعذب هذا العذاب الشديد؟ فأجيب بذلك".

أي أنه كان كافرا بربه، معاندا لرسله، رادا ما جاءوا به من الحق.

- قال أبو حيان: بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله.

- **قال ابن عاشور:** ووصف الله بالعظيم هنا إيماء إلى مناسبة عظم العذاب للذنب إذ كان الذنب كفرانا بعظيم فكان جزاء وفاقا.

قوله تعالى: {وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الحاقة: ٣٤]، أي:"ولا يحث الناس في الدنيا على إطعام أهل الحاجة من المساكين وغيرهم".

=

=

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن هذا الشقيّ الذي أوتي كتابه بشماله: إنه كان في الدنيا لا يحضُّ الناس على إطعام أهل المسكنة والحاجة".

قال مقاتل:"يقول: كان لا يطعم المسكين في الدنيا".

**قال ابن كثير**:"أي: لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم؛ فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا، وللعباد بعضهم على بعض حقّ الإحسان والمعاونة على البر والتقوى؛ ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم» ".

**قال الزمخشري**:"في قوله: {وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ} دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المسكين:

**أحدهما**: عطفه على الكفر، وجعله قرينة له.

والثاني: ذكر الحض دون الفعل، ليعلم أنّ تارك الحض بهذه المنزلة، فكيف بتارك الفعل، وما أحسن قول القائل:

إذا نزل الأضياف كان عذوّرا... على الحيّ حتّى تستقلّ مراجله

يريد: حضهم على القرى واستعجلهم وتشاكس عليهم".

روي عن أبى الدرداء:"أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين، وكان يقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان، أفلا نخلع نصفها الآخر؟".

قال النسفي:"وهذه الآيات ناطقة على أن المؤمنين يرحمون جميعًا والكافرين لا يرحمون لأنه قسّم الخلق نصفين فجعل صنفًا منهم أهل اليمين ووصفهم بالإيمان فحسب بقوله {إِنّي ظَنَنتُ أَنّى ملاق حِسَابِيَهْ}، وصنفًا منهم أهل الشمال ووصفهم بالكفر بقوله: {إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بالله العظيم}، وجاز أن الذي يعاقب من المؤمنين إنما يعاقب قبل أن يؤتى كتابه بيمينه".

=

=

قال ابن عاشور: والحض على الشيء: أن يطلب من أحد فعل شيء ويلح في ذلك الطلب.

ونفي حضه على طعام المسكين يقتضي بطريق الفحوى أنه لا يطعم المسكين من ماله لأنه إذا كان لا يأمر غيره بإطعام المسكين فهو لا يطعمه من ماله، فالمعنى لا يطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه.

**قال السعدي**: وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه الإحسان، التي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين، بإطعامهم ما يتغوثون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا.

- قال العلماء: ولعل وجه التخصيص لهذين الأمرين بالذكر، أن أقبح شيء يتعلق بالعقائد، وهو الكفر بالله- تعالى- وأن أقبح شيء في الطباع، هو البخل وقسوة القلب.... (التفسير الوسيط).

-في الآية حث على إطعام المساكين.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله- وأحسبه قال يشك القعنبي- كالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر) متفق عليه.

قال ابن هبيرة: والمراد أن الله تعالى يجمع له ثواب الصائم والقائم والمجاهد في دفعة؛ وذلك أنه قام للأرملة مقام زوجها الذي سلبها إياه القدر، وأرضاها عن ربها، وقام على ذلك المسكين الذي عجز عن قيامه بنفسه؛ فأنفق هذا فضل قوته، وتصدق بجلده؛ فكان نفعه إذا [يكافئ] الصوم والقيام والجهاد". انتهى.

كان علي بن الحسين- رَحِمَهُ اللَّهُ- يحمل الخبز إلى بيوت المساكين في الظلام فلما مات فقدوا ذلك، كان ناس من أهل المدينة يعيشون ولا يدرون من أين معاشهم

=

=

فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك الذي كان يأتيهم بالليل.

قال ابن رجب: وحب المساكين مستلزم لإخلاص العمل لله تعالى، والإخلاص هو أساس الأعمال الذي لا تثبت الأعمال إلا عليه.

ولم يزل السلف يوصون بحب المساكين.

كتب الثوري إلى بعض إخوانه: عليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم، فإن رسول الله ﷺ كان يسأل ربه حب المساكين.

ويروى عن أبي هريرة قال: كان جعفر بن أبي طالب يحب المساكين ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه، وكان النبي ﷺ يكنيه أبا المساكين.

وكانت زينب بنت خزيمة تسمى أم المساكين لكثرة إحسانها إليهم، وتوفيت في حياة النبي ﷺ.

ومر الحسن بن علي على مساكين يأكلون، فدعوه فأجابهم وأكل معهم وتلا (إنه لا يحب المستكبرين).

وكان ابن عمر لا يأكل غالبا إلا مع المساكين، وكان يقول: لعل بعض هؤلاء أن يكون ملكا يوم القيامة.

وكان سفيان الثوري يعظم المساكين، ويجفو أهل الدنيا، فكان الفقراء في مجلسه هم الأغنياء والأغنياء هم الفقراء.

وقال سليمان التيمي: كنا إذا طلبنا علية أصحابنا وجدناهم عند الفقراء والمساكين.

وقال الفضيل: من أراد عز الآخرة فليكن مجلسه مع المساكين.

من فوائد السعي في نفع المساكين أن الإنسان يشكر الله على ما أنعم الله عليه من الخير، ويحبهم.

وفي الحديث قال ﷺ (اللهم إني أسألك فعل الخيرات... وحب المساكين).

=

=

- قال ابن رجب: اعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة:

منها: أنها توجب إخلاص العمل لله.

لأن الإحسان إليهم لمحبتهم لا يكون إلا لله تعالى، لأن نفعهم في الدنيا لا يرجى غالبا.

ومنها: أنها تزيل الكبر.

لأن المستكبر لا يرضى مجالسة المساكين، كما سبق عن رؤساء قريش والأعراب.

ومنها: أنه يوجب صلاح القلب وخشوعه.

ففي حديث أبي هريرة (أن رجلا شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: إن أحببت أن يلين قلبك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم) رواه أحمد.

ومنها: أن مجالسة المساكين توجب رضى من يجالسهم برزق الله ﷻ، وتعظم عنده نعمة الله.

ومجالسة الأغنياء توجب التسخط بالرزق ومد العين إلى زينتهم وما هم فيه، وقد نهى الله ﷻ نبيه ﷺ عن ذلك فقال تعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) وقال ﷺ (انظروا إلى من دونكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم).

ومنها: أن النبي ﷺ أوصى بحب المساكين.

قال أبو ذر (أوصاني خليلي ﷺ بسبع بحب المساكين وأن أدنو منهم وأن أنظر إلى من هو أسفل مني ولا أنظر إلى من هو فوقي وأن أصل رحمي وإن جفاني وأن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله وأن أتكلم بمر الحق وأن لا تأخذني بالله لومة لائم وأن لا أسأل الناس شيئا).

=

=

وكان عون بن عبد اله يجالس الأغنياء فلا يزال في غم ، لأنه لا يزال يرى من هو أحسن منه لباسا ومركبا وطعاما ومسكنا ، فتركهم وجالس المساكين فاستراح.
ويروى أن داود كان يجالس المساكين ويقول: مسكين بين مساكين.
قوله تعالى: {فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥)} [الحاقة: ٣٥]
فليس لهذا الكافر يوم القيامة قريب يدفع عنه العذاب.
**قال الطبري**:"يقول جلّ ثناؤه: {فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ} وذلك يوم القيامة، {هَاهُنَا}، يعني: في الدار الآخرة، قريب يدفع عنه، ويغيثه مما هو فيه من البلاء".
**قال ابن كثير**:"أي: ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله، لا حميم- وهو القريب- ولا شفيع يطاع،".
قال ابن زيد، في قوله: "{حَمِيمٌ}، القريب في كلام العرب".
قال النسفي:"قريب يرفع عنه ويحترق له قلبه".
قال الشوكاني:"لأنه يوم يفر فيه القريب من قريبه، ويهرب عنده الحبيب من حبيبه".
قال الثعلبي:"حَمِيمٌ صديق، وقيل: قريب يعينه، وقيل: هو مأخوذ من الحميم، وهو الماء الحار كأنه الصديق الذي يرق ويحترق قلبه له".

أي: ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله لا حميم، ولا قريب، ولا صديق، ولا شفيع.
كما قال تعالى: (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع).
قال ابن عاشور: وهذا وجه تقييد نفي الحميم بـ (اليوم) تعريضا بأن أحماءهم في الدنيا لا ينفعونهم اليوم كما قال تعالى (ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) وقوله عنهم (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) وغير ذلك مما
=

=

تفوق في آي القرآن.

قوله تعالى: {وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ} [الحاقة: ٣٦]، أي:"وليس له طعام إلا مِن صديد أهل النار".

**قال الطبري**: "يقول جلّ ثناؤه: ولا له طعام كما كان لا يحضّ في الدنيا على طعام المسكين، إلا طعام من غسلين، وذلك ما يسيل من صديد أهل النار".

**قال ابن كثير**:"ولا طعام له -هاهنا- إلا من غسلين".

قال مقاتل:"يعني: الذي يسيل من القيح والدم من أهل النار، يعني: فليس له شراب إلا من حميم من عين من أصل الجحيم".

**قال الزجاج**:"معناه: من صديد أهل النار، واشتقاقه مما ينغسِلُ مِنْ أبدَانِهم".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: غسالة أهل النار: القيح والدم".

قال الثعلبي:"هو صديد أهل النار مأخوذ من الغسل كأنه غسالة جروحهم وقروحهم".

قال الراغب:"الْغِسْلِينُ: غُسَالَةُ أبدانِ الكفّار في النار".

عن ابن عباس، قوله: "{وَلا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ}: صديد أهل النار".

قال ابن عباس:"ما يخرج من لحومهم".

قال ابن عباس:"الغسلين الدم والماء الذي يسيل من لحومهم".

قال ابن عباس:"ما أدري ما الغسلين؟ ولكني أظنه الزقوم".

قال قتادة:"شرّ الطعام وأخبثه وأبشعه".

وقال الربيع، والضحاك: "هو شجرة في جهنم".

عن الضحاك:"{غِسْلِينٍ}، قال: هو الضّريع، شجرة يأكل منها أهل النار".

وقال ابن زيد:"الغسلين والزقوم لا يعلم أحد ما هو".

أي: وليس له طعام إلا صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة والمرارة،

=

ونتن الريح، وقبح الطعم.

- ومن طعامهم:

**أولا**: الضريع. وهو شوك بأرض الحجاز يقال له الشبرق، وهذا الطعام الذي يأكله أهل النار لا يفيدهم، فلا يجدون له لذة ولا تنتفع به أجسادهم.

قال تعالى: {ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع}.

**ثانيا**: الزقوم. وهي شجرة خبيثة تضرب جذورها في قعر النار، وثمر هذه الشجرة قبيح المنظر، ولذلك شبهه برؤوس الشياطين.

قال تعالى: {إن شجرة الزقوم. طعام الأثيم. كالمهل يغلي في البطون. كغلي الحميم}.

وقد وصفها الله بآية أخرى: {أذلك خير أم شجرة الزقوم. إنا جعلناها فتنة للظالمين. إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم. طلعها كأنه رؤوس الشياطين} أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين.

وقد صور لنا الرسول ﷺ شناعة الزقوم فقال: (لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه). رواه الترمذي.

(لا يأكله إلا الخاطؤون) أي لا يأكل هذا الطعام الذميم (إلا الخاطؤون) الذين أخطأوا الصراط المستقيم، وسلكوا كل طريق يوصلهم إلى الجحيم، فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

قوله تعالى: {لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ} [الحاقة: ٣٧].

**قال الطبري**: "يقول: لا يأكل الطعام الذي من غسلين إلا الخاطئون، وهم المذنبون الذين ذنوبهم كفر بالله".

قال مقاتل:"يعني: المجرمين".

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨).

{فَلَا} زَائِدَة {أُقْسِم بِمَا تُبْصِرُونَ} مِنْ الْمَخْلُوقَات.

وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩).

{وَمَا لَا تُبْصِرُونَ} مِنْهَا أَيْ بِكُلِّ مَخْلُوق.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠).

{إنَّهُ} أَيْ الْقُرْآن {لَقَوْل رَسُول كَرِيم} أَيْ قاله رسالة عن الله تعالى.

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١).

{وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون}.

وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢).

---

=

قال يحيى بن سلام: "المذنبون بالشرك".

**قال الزمخشري**: "{الْخاطِؤُنَ}: الآثمون أصحاب الخطايا. وخطئ الرجل: إذا تعمد الذنب، وهم المشركون".

عن مجاهد أنه كان يقرأ: «لا يَأْكُلُهُ إلّا الخاطِيُونَ» لا يَهمز.

عن عكرمة، قال: "قرأ نافعٌ عند عبد الله بن عباس: {لا يأكله إلا الخاطئون}. فقال: مَه، كُلّنا نخطئ".

قرأ الجمهور: {الخاطؤن} مهموزا، وهو اسم فاعل من خطئ إذا فعل غير الصواب متعمدا، والمخطئ: من يفعله غير متعمد. وقرأ الزهري وطلحة بن مصرف والحسن «الخاطيون» بياء مضمومة بدل الهمزة. وقرأ نافع في رواية عنه بضم الطاء بدون همزة.

و (الخاطؤون) جمع خاطئ وهو الذي يتعمد الذنب، والمخطئ الذي يفعل الشيء خطأ دون قصد ولهذا قال (الخاطؤون) ولم يقل: المخطئون.

{وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء فِي الْفِعْلَيْنِ وَمَا مَزِيدَة مُؤَكَّدَة وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ آمَنُوا بِأَشْيَاء يَسِيرَة وَتَذَكَّرُوهَا مِمَّا أَتَى بِهِ النَّبِيّ ﷺ مِنْ الْخَيْر وَالصِّلَة وَالْعَفَاف فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا.

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣).

بَلْ هُوَ {تَنْزِيل مِنْ رَبّ الْعَالَمِينَ}.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤).

{وَلَوْ تَقَوَّلَ} أَيْ النَّبِيّ {عَلَيْنَا بَعْض الْأَقَاوِيل} بِأَنْ قَالَ عَنَّا مَا لَمْ نَقُلْهُ.

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥).

{لَأَخَذْنَا} لَنِلْنَا {مِنْهُ} عِقَابًا {بِالْيَمِينِ} بِالْقُوَّةِ وَالْقُدْرَة.

ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦).

{ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِين} نِيَاط الْقَلْب وَهُوَ عِرْق مُتَّصِل بِهِ إِذَا انْقَطَعَ مَاتَ صَاحِبه.

فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧).

{فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَد} هُوَ اسْم مَا ومِنْ زَائِدَة لِتَأْكِيدِ النَّفْي ومِنْكُمْ حَال مِنْ أَحَد {عَنْهُ حَاجِزِينَ} مَانِعِينَ خَبَر مَا وَجُمِعَ لِأَنَّ أَحَدًا فِي سِيَاق النَّفْي بِمَعْنَى الْجَمْع وَضَمِير عَنْهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَيْ لَا مَانِع لَنَا عَنْهُ مِنْ حَيْثُ العقاب.

وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨).

{وإنه} أي القرآن {لتذكرة للمتقين}.

وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩).

{وَإِنَّا لَنَعْلَم أَنَّ مِنْكُمْ} أَيّهَا النَّاس {مُكَذِّبِينَ} بالقرآن ومصدقين.

وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠).

{وَإِنَّهُ} أَيْ الْقُرْآن {لَحَسْرَة عَلَى الْكَافِرِينَ} إذَا رَأَوْا ثَوَاب الْمُصَدِّقِينَ وَعِقَاب الْمُكَذِّبِينَ بِهِ.

وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) .

{وَإِنَّهُ} أَيْ الْقُرْآن {لَحَقّ الْيَقِين} أَيْ الْيَقِين الحق.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢).

{فَسَبِّحْ} نَزِّهْ {بِاسْمِ} الْبَاء زَائِدَة {رَبّك الْعَظِيم} سبحانه(١).

---

(١) قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ} [الحاقة: ٣٨- ٣٩]، أي:"فلا أقسم بما تبصرون من المرئيات، وما لا تبصرون مما غاب عنكم".

قال مقاتل:"{بِما تُبْصِرُونَ} من الخلق، {وَما لا تُبْصِرُونَ} من الخلق، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال: إن محمدا ساحر. فقال أبو جهل بن هشام: بل هو مجنون. فقال عقبة بن أبي معيط: بل هو شاعر. وقال النضر: كاهن وقال أبى: كذاب. فبرأه الله من قولهم فأقسم الله- تعالى- بالخلق {إِنَّهُ} إن هذا القرآن {لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم} ..".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: فلا ما الأمر كما تقولون معشر أهل التكذيب بكتاب الله ورسله، أقسم بالأشياء كلها التي تبصرون منها، والتي لا تبصرون".

قال ابن عباس:"يقول: بما ترون وبما لا ترون".

قال ابن زيد:"أقسم بالأشياء، حتى أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون".

عن قتادة:"{بِما تُبْصِرُونَ} أقسم بالأشياء كلّها، فيَدخل فيه جميع المخلوقات والموجودات. وقال: أقسم بالدنيا والآخرة".

قال جعفر الصادق: "{بِما تُبْصِرُونَ} مِن صُنعي في مُلكي، {وما لا تُبْصِرُونَ} مِن بِرّي بأوليائي".

**قال ابن كثير:**"يقول تعالى مُقسمًا لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته =

=

الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم".

قال ابن أبي زمنين:"أقسم بكل شيء".

قال الثعلبي:"أراد جميع المكونات والموجودات، وقيل: الدنيا والآخرة. وقيل: ما في ظهر السماء والأرض وما في بطنها. وقيل: الأجسام والأرواح. وقيل: النعم الظاهرة والباطنة".

أي: فأقسم بالمشاهدات والمغيبات، أقسم بما ترونه وما لا ترونه، مما هو واقع تحت الأبصار، وما غاب وخفي عن الأنظار.

قال ابن عاشور: فمما يبصرون: الأرض والجبال والبحار والنفوس البشرية والسماوات والكواكب، وما لا يبصرون: الأرواح والملائكة وأمور الآخرة.

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} [الحاقة: ٤٠]، أي:"إن القرآن لكَلام الله، يتلوه رسول عظيم الشرف والفضل".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن لقول رسول كريم، وهو محمد ﷺ يتلوه عليهم".

**قال ابن كثير:**"يعني: محمدًا، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل؛ ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} وهذا جبريل، عليه السلام".

إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

- (كريم) أي: كريم الصفات والسجايا والأخلاق صلوات الله وسلامه عليه كما قال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم).

=

=

فهو ﷺ كريم بتبليغ رسالة ربه إلى الناس كما قال تعالى (وما هو على الغيب بضنين).

وهو كريم جواد بماله، جاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين.

- قوله تعالى (رسول كريم) يعني محمدا، أضافه إليه على معنى التبليغ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل.

- **قال القرطبي**: والرسول ها هنا محمد ﷺ، ونسب القول إليه لأنه تاليه ومبلغه عن الله تعالى.

قوله تعالى: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ} [الحاقة: ٤١]، أي:"وليس بقول شاعر كما تزعمون".

قال مقاتل:"لقول عتبة، وقول أبي جهل".

**قال الطبري**:"يقول جلّ ثناؤه: ما هذا القرآن بقول شاعر؛ لأن محمدًا لا يُحسن قيل الشعر، فتقولوا هو شعر".

قوله تعالى: {قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ} [الحاقة: ٤١]، أي:"قلّما تؤمنون بهذا القرآن".

قال مقاتل:"يعني: قليلا ما تصدقون بالقرآن، يعني بـ «القليل»: أنهم لا يؤمنون".

**قال الطبري**:"يقول: تصدّقون قليلا به أنتم، وذلك خطاب من الله لمشركي قريش".

عن قتادة:"{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ}: طهَّره الله من ذلك وعصمه".

أي: وليس القرآن كلام شاعر كما تزعمون، قال تعالى (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون)، وقال الوليد بن المغيرة فيما حكى الله عنه (إن هذا إلا قول البشر) فتوعده الله بقوله (سأصليه سقر).

(قليلا ما تؤمنون) أي: إن إيمانكم ضيق الدائرة، فلو كان واسعا لاتسع للإيمان بالقرآن أنه كلام الله ووحيه، وليس هو من جنس الشعر لمخالفته له نظما ومعنى.

=

قال العلماء: والمراد بالقلة في الموضعين انتفاء الإيمان منهم أصلا أو أن المراد بالقلة: إيمانهم اليسير، كإيمانهم بأن الله هو الذي خلقهم، مع إشراكهم معه آلهة أخرى في العبادة.

قوله تعالى: {وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ} [الحاقة: ٤٢]، أي:"وليس بسجع كسجع الكهان".

**قال الطبري:**"يقول: ولا هو بقول كاهن، لأن محمدًا ليس بكاهن، فتقولوا: هو من سجع الكهان".

قال قتادة:"طهَّره الله من الكهانة، وعصمه منها".

قوله تعالى: {قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [الحاقة: ٤٢]، أي:"قلَّما تتذكرون وتتعظون".

**قال الطبري:**"يقول: تتعظون به أنتم، قليلا ما تعتبرون به".

قال مقاتل:"فتعتبرون".

أي: وليس هو بقول كاهن يدعي معرفة الغيب، لأن القرآن يغاير بأسلوبه سجع الكهان.

- **قال ابن عاشور**: وكني بنفي أن يكون قول شاعر، أو قول كاهن عن تنزيه النبي ﷺ عن أن يكون شاعرا أو كاهنا، رد لقولهم: هو شاعر أو هو كاهن.

(قليلا ما تذكرون) أي: قلما تتذكرون وتتعظون.

قوله تعالى: {تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الحاقة: ٤٣]، أي:"ولكنه كلام رب العالمين الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: ولكنه {تَنزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} نزل عليه".

واختُلِف أهل العلم في معنى «العالم»، على أقوال:

**أحدها:** أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذا قول قتادة، ومجاهد.

=

**الثاني**: أنّه الإنس، والجنّ، وهذا قول سعيد بن جبير، ومجاهد.

**الثالث**: أنهم المرتزقون، قاله زيد بن أسلم، ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء: هم الروحانيّون.

**الرابع**: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق.

**الخامس**: أن «العالمين»: ألف أمة، فستمائة في البحر وأربعمائة في البر. رواه مغيث بن شمس عن تبيع.

**السادس**: ما رواه الربيع بن أنس عن أبي العالية، قال:"الإنس عالم والجن عالم، وسوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم من الملائكة على الأرض والأرض أربع زوايا ففي كل زاوية منها أربعة آلاف وخمسمائة عالم، خلقهم الله لعبادته تبارك وتعالى".

والظاهر أن {العالَمين}: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و (العالَم) جمع لا واحدَ له من لفظه، و (العوالم) أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والملائكة عالَم. والله أعلم.

أي: هو منزل من رب العزة جلا وعلا، كقوله تعالى (وإنه لتنزيل من رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين).

وقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

وقال تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه).

وقال تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك).

قال ابن عاشور: وعبر عن الجلالة بوصف (رب العالمين) دون اسمه العلم للتنبيه على أنه رب المخاطبين ورب الشعراء والكهان الذين كانوا بمحل التعظيم والإعجاب عندهم نظير قول موسى لفرعون (ربكم ورب آبائكم

=

=

الأولين).

قوله تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ} [الحاقة: ٤٤]، أي:"ولو ادَّعى محمد علينا شيئًا لم نقله".

**قال الطبري**: يقول:"{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا} محمد، {بَعْضَ الأقَاوِيلِ} الباطلة، وتكذب علينا".

**قال الفراء**:"يقول: لو أن محمدا ﷺ تقول علينا ما لم يؤمر به".

قال ابن الجوزي:"أي: لو تكلَّف محمد أن يقول علينا ما لم نقله".

**قال ابن كثير**:"أي: محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريا علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك، لعاجلناه بالعقوبة".

قال ابن عطية:"التقول: أن يقول الإنسان عن آخر أنه قال شيئا لم يقله".

عن يزيد بن عامر السّوائي: "أنهم بينما هم يطوفون بالطّاغية إذ سمعوا مُتكلّمًا وهو يقول: {ولَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنهُ بِاليَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنهُ الوَتِينَ} [الحاقة: ٤٤- ٤٦]، ففَزعنا لذلك، وقلنا: ما هذا الكلام الذي لا نَعرفه؟! فنَظرنا، فإذا النبي ﷺ مُنطلقًا".

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل) أي: محمد لو كان كما يزعمون مفتريا علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك، لعاجلناه بالعقوبة.

- **قال القرطبي**: (تقول) أي تكلف وأتى بقول من قبل نفسه.

- وقال الآلوسي: التقول الافتراء وسمي تقولا لأنه قول متكلف.

قوله تعالى: {لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ} [الحاقة: ٤٥]، أي:"لانتقمنا وأخذنا منه

=

=

باليمين".

وفي تفسير قوله تعالى: {لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ} [الحاقة: ٤٥]، أقوال:

**أحدها:** معناه: لأخذناه بالقوة والقدرة. قاله ابن عباس، ومجاهد، والفراء، والمبرد، وابن قتيبة، والطبري، ومنه قول الشاعر:

**إذا ما راية رفعت لمجد... تلقّاها عرابة باليمين**

**قال الطبري:** يقول: لأخذنا منه بالقوة منا والقدرة".... وقد قيل: إن معنى قوله:(لأخذنا منه باليمين): لأخذنا منه باليد اليمنى من يديه؛ قالوا: وإنما ذلك مثل، ومعناه: إنا كنا نذله ونهينه، ثم نقطع منه بعد ذلك الوتين، قالوا: وإنما ذلك كقول ذي السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه لبعض أعوانه، خذ بيده فأقمه، وافعل به كذا وكذا، قالوا: وكذلك معنى قوله:(لأخذنا منه باليمين) أي لأهناه كالذي يفعل بالذي وصفنا حاله.

**قال الفراء:**"بالقوة والقدرة.

قال ابن قتيبة:"وإنما أقام اليمين مقام القوّة، لأن قوة كل شيء في ميامنه".

قال شيخ الإسلام في النبوات (٢/ ٨٩٨): قيل لاخذنا بيمينه كما يفعل بمن يهان عند القتل:خذه بيده فيجر بيده ثم يقتل فهذا هلاك بعزة وقدرة من الفاعل واهانة وتعجيل هلاك للمقتول.

وقيل لاخذنا منه باليمين اي بالقوة والقدرة فان الميامن اقوى ممن ياخذ بشماله كما قال" فاخذناهم اخذ عزيز مقتدر" وكما قال "ان بطش ربك لشديد " لكنه قال: (أخذنا منه) ولم يقل (لأخذناه) فهذا يقوي القول الاول ا.هـ

**قال ابن كثير:**"قيل: معناه لانتقمنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطش".

**الثاني:** يقول: لانتقمنا منه بالحق كقوله: {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} [الصافات: ٢٨]، يعني: من قبل الحق، بأنكم على الحق. قاله السدي، ومقاتل،

=

=

وثعلب.

**الثالث**: أهنّاه كما تقول: خذ بيده فأقمه. ذكره ابن قتيبة عن أهل اللغة، والطبري، والنحاس. وبه قال سهل التستري.

قال سهل:"يعني: أمرنا بأخذ يده كما تفعل الملوك".

قال الراغب:"أي: منعناه ودفعناه. فعبّر عن ذلك الأخذ باليَمِينِ كقولك: خذ بِيَمِينِ فلانٍ عن تعاطي الهجاء".

قال ابن قتيبة:"هو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل: خذ بيده وافعل به كذا وكذا. وأكثر ما يقول السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم: خذ بيده واسفع بيده.. فكأنه تعالى قال: لو كذب علينا في شيء مما يلقيه إليكم عنّا، لأمرنا بالأخذ بيده".

وحكي عن الحسن، قال: "لقطعنا يده اليمنى".

وعن الحسن -أيضا-:"أي: أذهبنا قوته".

قوله تعالى: {ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} [الحاقة: ٤٦]، أي:"ثم لقطعنا منه نياط قلبه".

**قال الطبري**: يقول: "ثم لقطعنا منه نياط القلب، وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة، ولا يؤخره بها".

قال سهل:"وهو نياط القلب، وهو العرق الذي يتعلق القلب به، إذا انقطع مات صاحبه، فنقطع ذلك السبب بمخالفته إيانا".

قال ابن قتيبة:"ثمّ عاقبناه بقطع الوتين.. وهو: عرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه، ولم يرد أنا نقطعه بعينه، فيما يرى أهل النظر، ولكنّه أراد: ولو كذّب علينا لأمتناه أو قتلناه، فكان كمن قطع وتينه. ومثله قول النبي ﷺ: «ما زالت أكلة خيبر تعادّني، فهذا أوان قطعت أبهري». والأبهر: عرق يتصل بالقلب

=

=

إذا انقطع مات صاحبه. فكأنّه قال: فهذا أوان قتلني السّمّ، فكنت كمن انقطع أبهره".

قال النحاس:"فأخبر الله جلّ وعزّ بحكمه في أوليائه ومن يعز عليه ليعتبر غيرهم".

عن ابن عباس: "{لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ}، قال: نياط القلب". وفي رواية: "عرق القلب".

قال ابن عباس:"يعني: عرقا في القلب، ويقال: هو حبل في القلب".

قال مجاهد:"حبل القلب الذي في الظهر".

قال قتادة:"حبل القلب".

قال الضحاك:"وتين القلب، وهو عرق يكون في القلب، فإذا قطع مات الإنسان".

قال ابن زيد:"الوتين: نياط القلب الذي القلب متعلق به".

قال محمد بن كعب: "هو القلب ومَرَاقَّه وما يليه".

قال القرطبي: والوتين عرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه، والغرض أنه تعالى يعاجله بالعقوبة ولا يمهله لو نسب إلى الله شيئا ولو قليلا، فإن تسمية الأقوال بالأقاويل للتصغير والتحقير.

فلو قدر أن الرسول ﷺ تقول على الله- وحاشاه من ذلك- لعاجله الله بالعقوبة وأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأن حكمته تقتضي أن لا يمهل من كذب وتقول عليه وبخاصة في أمر النبوة، فكيف ينصره ويؤيده بالمعجزات، فنصره وتمكينه له وتأييده بالمعجزات والآيات أعظم هادة منه على صدق رسالته.

قوله تعالى: {فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة: ٤٧]، أي:"فلا يقدر أحد منكم أن يحجز عنه عقابنا".

=

=

قال عطاء: "يقول: لا يحجزه مني أحد".
قال الكلبي:"منكم أحد يحجزنا عنه، وعن ذلك".
**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: فما منكم أيها الناس من أحد عن محمد لو تقوّل علينا بعض الأقاويل، فأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، حاجزين يحجزوننا عن عقوبته، وما نفعله به".
**قال الزجاج:**"المعنى: فما منكم قوم يحجزون عنه".
قال السمعاني:"يعني: إنكم تنسبونه إلى الكذب علي، ولو أخذته لم يقدر أحد منكم على دفعنا عنه".
**قال ابن كثير:**"أي: فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئا من ذلك. والمعنى في هذا، بل هو صادق بار راشد؛ لأن الله، ﷻ، مقرر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات".

أي: فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا شيئا من ذلك، والمعنى في هذا: بل هو صادق بار راشد، لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات، والدلالات القاطعات.
قال الخازن: المعنى إن محمدا لا يتكلم بالكذب علينا لأجلكم، مع علمه أنه لو تكلم لعاقبناه ولا يقدر أحد على دفع عقوبتنا عنه.
قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [الحاقة:٤٨]، أي:"إن هذا القرآن لعظة للمتقين الذين يمتثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه".
**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: وإن هذا القرآن عظة يتذكر به، ويتعظ به للمتقين، وهم الذين يتقون عقاب الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه".
**قال ابن كثير:**"يعني: القرآن كما قال: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ

=

=

لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} [فصلت: ٤٤]".

عن قتادة: "{وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ}، قال: القرآن".

قال سهل:"يعني: القرآن رحمة للمطيعين".

عن ابن جريج:"{وإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ}، {وإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ}، {وإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقِينِ}، قال: القرآن".

عن الضحاك:"{الْمُتَّقِينَ}، قال: "الذين يتقون الشرك.

عن السدي: "{المتقين}، قال: هم المؤمنون".

قال السعدي: يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها، ويعملون عليها بذكرهم العقائد الدينية والأخلاق المرضية، والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين.

وخص المتقين لأنهم هم الذين ينتفعون به ويتذكرون كما قال تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) وقال تعالى (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين). وقال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى).

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ} [الحاقة: ٤٩]، أي:"إنا لنعلم أنَّ مِنكم مَن يكذِّب بهذا القرآن مع وضوح آياته".

قال الربيع: "يعني: بالقرآن".

**قال الطبري**:"أي: مع هذا البيان والوضوح، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن".

قال السمعاني:"أي: بالقرآن وبالرسول".

**قال الزمخشري**:"هو إيعاد على التكذيب. وقيل الخطاب للمسلمين. والمعنى: أن منهم ناسا سيكفرون بالقرآن".

قال مقاتل:"{وَإِنَّا لَنَعْلَمُ} يا أهل مكة، {أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِين}".

=

=

قال ابن عطية:"وعيد".

أي: مع هذا الوضوح والبيان سيوجد منكم من يكذب بالقرآن، وهم لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم، وفي هذا وعيد شديد وتهديد لهم.

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الحاقة: ٥٠]، أي:"وإن التكذيب به لندامة عظيمة على الكافرين به حين يرون عذابهم ويرون نعيم المؤمنين به".

**قال الطبري:**"يقول جلّ ثناؤه: وأن التكذيب به لحسرة وندامة على الكافرين بالقرآن يوم القيامة".

قال النحاس:"أي: يتحسرون يوم القيامة على تركهم الإيمان به".

قال السمعاني:"أي: البعث حسرة على الكافرين".

قال سهل:"يعني: ما يرون من ثواب أهل التوحيد ومنازلهم وكريم مقاماتهم".

**قال الزمخشري:**"{وَإِنَّهُ} الضمير لـ «القرآن» {لَحَسْرَةٌ} على الكافرين به المكذبين له إذا رأوا ثواب المصدقين به. أو للتكذيب".

**قال ابن كثير:**"ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي: وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ} [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]، وقال تعالى: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} [سبأ: ٥٤]".

عن أبي مالك: {وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ} يقول: لندامة".

عن قتادة: "{وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ} : ذاكم يوم القيامة".

وقد اختلف العلماء في قوله (وإنه لحسرة على الكافرين)

فقيل: أن القرآن لحسرة عليهم يوم القيامة إذا لم يؤمنوا به.

**قال ابن كثير:** ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي: وإن القرآن والإيمان به

=

=

لحسرة في نفس الأمر على الكافرين كما قال (كذلك سلكناه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به) ويقوي هذا قوله بعد ذلك (وإنه لحق اليقين).

- **قال ابن القيم:** إن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به، كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التحسر.

وقيل: أن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة، كما قال تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين).

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ} [الحاقة: ٥١]، أي:"وإنه لحق ثابت ويقين لا شك فيه".

قال عطاء: يعني: القرآن مني بدأ، وأنا أرسلته إليكم".

قال قتادة: "إلا أن المؤمن أيقن به في الدنيا فنفعه، والكافر أيقن به في الآخرة فلم ينفعه".

**قال الطبري:**"يقول: وإنه للحقّ اليقين الذين لا شكّ فيه أنه من عند الله، لم يتقوّله محمد ﷺ".

**قال ابن كثير:**"أي: الخبر الصدق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب".

**قال الزجاج:**"المعنى: أن القُرآن لليقين حق اليقين".

قال السمعاني:"أي: البعث محض اليقين وعين اليقين".

**قال الزمخشري:**"كقولك: هو العالم حق العالم، وجدّ العالم. والمعنى: لعين اليقين، ومحض اليقين".

قال النحاس:"أي: محضه وخالصه. والكوفيون يقولون: هذا إضافة الشيء إلى نفسه".

قال ابن عطية:"ذهب الكوفيون إلى أنها إضافة الشيء إلى نفسه كدار الآخرة ومسجد الجامع. وذهب البصريون والحذاق إلى أن الحق مضاف إلى الأبلغ من

=

=

وجوهه".

وقال المبرد: "إنما هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين".

**قال السعدي:** فأعلى مراتب العلم: اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ولا يزول، و (اليقين) مراتبه ثلاث، كل واحدة أعلى مما قبلها، أولها: علم اليقين: وهو العلم المستفاد من الخبر، ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر، ثم حق اليقين: وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة.

قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [الحاقة: ٥٢]، أي:"فنزِّه الله سبحانه عما لا يليق بجلاله، واذكره باسمه العظيم".

**قال ابن كثير:**"أي: الذي أنزل هذا القرآن العظيم".

**قال الطبري:**"{فَسَبِّحْ} بذكر ربك وتسميته العظيم، الذي كلّ شيء في عظمته صغير".

قال النحاس:"أي نزّهه وبرّئه مما نسب إليه من الأنداد والأولاد والشّبه «العظيم» الذي كلّ شيء صغير دونه".

**قال الزمخشري:**"كقولك: هو العالم حق العالم، وجدّ العالم. والمعنى: لعين اليقين، ومحض اليقين".

قال السمعاني:"{فَسَبِّحْ} الله بذكر اسمه {الْعَظِيمِ} وهو قوله: «سبحان الله»، واعبده شكرا على ما أهلك له من إيحائه إليك".

**قال الزجاج:**"التسبيح: معناه تَنْزِيهُ اللهِ مِنَ السوءِ وتنزيهه تعالى".

عن عطاء: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}، قال: "فصل لربك الذي عصمك من كل ما رَمَوْك به".

وعن ابن عباس:: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ}، قال: "فصل لربك".

عن إياس بن عامر، قال: سمعت عقبة بن عامر الجهني، يقول: "لما نزلت:

=

=

{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [الواقعة: ٧٤]، قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، فلما نزلت: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: ١]، قال: «اجعلوها في سجودكم»".

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى: {فلا أقسم بما تبصرون (٣٨) وما لا تبصرون (٣٩) إنه لقول رسول كريم (٤٠)} [الحاقة: ٣٨- ٤٠] إلى آخرها.

قال مقاتل: "بما تبصرون من الخلق، وما لا تبصرون منه".

وقال قتادة: "أقسم بالأشياء كلها؛ ما يبصر منها، وما لا يبصر".

وقال الكلبي: "ما تبصرون من شيء، وما لا تبصرون من شيء".

وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم، والجن، والإنس، والعرش، والكرسي، وكل مخلوق، وذلك كله من آيات قدرته وربوبيته، وهو- سبحانه- يصرف الأقسام كما يصرف الآيات.

ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله، وأن ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامه، لا كلام شاعر، ولا مجنون، ولا كاهن.

ومن تأمل المخلوقات، ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونفل فكرته في مجاري الخلق والأمر = ظهر له أن هذا القرآن من عند الله، وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت، كما أن سائر الموجودات- ما يرى منها وما لا يرى- حق، كما قال تعالى: {فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣)} [الذاريات: ٢٣]، أي: إن كان نطقكم حقيقة، وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون؛ فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد، والمعاد،

=

=

والنبوة: حق، كما في الحديث: "إنه لحق مثل ما أنك ها هنا". فكأنه- سبحانه- يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وفيما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق، ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره نفسه، ومبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهرا وباطنا، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله ﷺ، ومن لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم ذكر- سبحانه- المقسم عليه فقال: {إنه لقول رسول كريم (٤٠)} [الحاقة: ٤٠]، وهذا رسوله البشرى محمد ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دلالة أنه كلام المرسل له حقيقة، وكلام رسوله تبليغا؛ إذ حقيقة الرسول من يبلغ كلام المرسل، فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولا، ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في "سورة التكوير".

ثم بين- سبحانه- كذب أعدائه وبهتهم في نسبة كلامه- تعالى- إلى غيره، وأنه لم يتكلم به، بل قاله من تلقاء نفسه، كما بين كذب من قال: {إن هذا إلا قول البشر (٢٥)} [المدثر: ٢٥]، فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر، وسيصليه الله سقر.

ثم أخبر- سبحانه- أنه تنزيل من رب العالمين، وذلك يتضمن أمورا:

**أحدها**: أنه- تعالى- فوق خلقه كلهم، وأن القرآن نزل من عنده.

والثاني: أنه كلامه تكلم به حقيقة، لقوله: {من رب العالمين (٨٠)} [الواقعة: ٨٠]، ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير. ونظير هذا قوله تعالى: {ولكن حق القول مني} [السجدة: ١٣]، ونظيره قوله: {قل نزله روح القدس من ربك بالحق} [النحل: ١٠٢]، ونظيره قوله تعالى: {تنزيل الكتاب من الله

=

=

العزيز الحكيم (١)} [الزمر: ١]، وقوله: {تنزيل من حكيم حميد (٤٢)} [فصلت: ٤٢]؛ وما كان من الله فليس بمخلوق.

ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر وما في السماوات والأرض جميعا منه، وهو مخلوق؛ لأن ذلك كله أعيان قائمة بأنفسها، وصفات وأفعال لتلك الأعيان، فإضافتها إلى الله- سبحانه- وأنها منه إضافة خلق، كإضافة بيته، وعبده، وناقته، وروحه، وبابه إليه، بخلاف كلامه فإنه لا بد أن يقوم بمتكلم؛ إذ كلام من غير متكلم كسمع من غير سامع، وبصر من غير مبصر، وذلك عين المحال، فإذا أضيف إلى الرب كان بمنزلة إضافة سمعه، وبصره، وحياته، وقدرته، وعلمه، ومشيئته إليه.

ومن زعم أن هذه إضافة مخلوق إلى خالق فقد زعم أن الله- تعالى- لا سمع له، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا مشيئة تقوم به، وهذا هو التعطيل الذي هو شر من الإشراك.

وإن زعم أن إضافة السمع، والبصر، والعلم، والحياة، والقدرة إضافة صفة إلى موصوف، وإضافة الكلام إليه إضافة مخلوق إلى خالق = فقد تناقض وخرج عن موجب العقل، والفطرة، والشرع، ولغات الأمم، وفرق بين متماثلين حقيقة، وعقلا، وشرعا، وفطرة، ولغة.

وتأمل كيف أضافه- سبحانه- إلى الرسول ﷺ بلفظ "القول"، وأضافه إلى نفسه بلفظ "الكلام" في قوله ﷻ: {حتى يسمع كلام الله} [التوبة: ٦]، فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله، فيقول: قلت له كذا وكذا، وقلت له ما أمرتني أن أقوله، كما قال المسيح: {ما قلت لهم إلا ما أمرتني به} [المائدة: ١١٧]، والمرسل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا، كما قال سبحانه وتعالى: {قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة} [إبراهيم: ٣١]، {وقل لعبادي يقولوا التي

=

هي أحسن} [الإسراء: ٥٣]، {قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم} [النور: ٣٠]، ونظائره. فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال: قال الرسول كذا وكذا، وهذا قول الرسول- أي: قاله مبلغا -، وهذا قوله مبلغا عن مرسله. ولم يجئ في شيء من ذلك: (تكلم لهم بكذا وكذا)، ولا (تكلم الرسول بكذا وكذا)، ولا (إنه لكلام رسول كريم)، ولا في موضع واحد، بل قيل للصديق- وقد تلا آية -: هذا كلامك وكلام صاحبك، فقال: "ليس بكلامي، ولا كلام صاحبي؛ هذا كلام الله".

فصل: الأمر الثالث- مما تضمنه قوله: {تنزيل من رب العالمين (٨٠): أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى: لا يأمرهم، ولا ينهاهم، ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ويحذرهم مما يضرهم، بل يتركهم هملا بمنزلة الأنعام السائمة. فمن زعم ذلك فلم يقدر رب العالمين حق قدره، ونسبه إلى ما لا يليق به؛ {فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم (١١٦)} [المؤمنون: ١١٦].

ثم أقام- سبحانه- البرهان القاطع على صدق رسوله ﷺ، وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه لما أقره، ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه، وافترى عليه، وأضل عباده، واستباح دماء من كذبه، وحريمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب وخلاف الحق، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره على ذلك؟

بل كيف يليق به أن يؤيده، وينصره، ويعليه، ويظهره، ويظفره بأهل الحق: يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلا: إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟! بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره،
=

=
وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول أو أظهر، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها، فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها، ثم يعجز الخلق عن معارضته، ثم يصدقه بكلامه وقوله، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله.

فمن أعظم المحال، وأبطل الباطل، وأبين البهتان؛ أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفتري عليه، الذي هو شر الخلق على الإطلاق، فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم على الإطلاق؛ فما آمن بالله قط، ولا عرف الله، ولا علم أنه رب العالمين، ولا تحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من عقل، وحكمة، وحجى، ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه، ونادى على جهله.

وأذكر في هذا مناظرة جرت لي مع بعض علماء اليهود، قلت له- بعد أن أفضنا في نبوة النبي ﷺ إلى أن قلت له: إنكار نبوته يتضمن القدح في رب العالمين، وتنقصه بأقبح التنقص، فكان الكلام معكم في الرسول، والكلام الآن في تنزيه الرب تعالى!

فقال: كيف يقول مثلك هذا الكلام؟ فقلت له: بيانه علي، فاسمع الآن:

أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولا وإنما كان ملكا قاهرا، قهر الناس بسيفه حتى دانوا له، ومكث ثلاثا وعشرين سنة يكذب على الله ويقول: أوحي إلى ولم يوح إليه شيء، وأمرني ولم يأمره بشيء، ونهاني ولم ينهه، وقال الله كذا ولم يقل ذلك، وأحل كذا، وحرم كذا، وأوجب كذا، وكره كذا، ولم يحل ذلك، ولا حرمه، ولا أوجبه، بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذبا مفتريا على الله، وعلى أنبيائه، وعلى رسله، وعلى ملائكته، ثم مكث من ذلك ثلاث عشرة سنة يستعرض عباده:
=

=

يسفك دماءهم، ويأخذ أموالهم، ويسترق نساءهم وأبناءهم، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته، وهو في ذلك كله يقول: الله أمرني بذلك، ولم يأمره، ومع ذلك فهو ساع في تبديل أديان الرسل، ونسخ شرائعهم، وحل نواميسهم.

فهذه حاله عندكم، فلا يخلو: إما أن يكون الرب- تعالى- عالما بذلك مطلعا عليه من حاله، يراه ويشاهده، أم لا.

فإن قلتم: إن ذلك جميعه غائب عن الله لم يعلم به = قدحتم في الرب تعالى، ونسبتموه إلى الجهل المفرط، إذ لم يطلع على هذا الحادث العظيم، ولا علمه، ولا رآه.

وإن قلتم: بل كان ذلك كله بعلمه واطلاعه ومشاهدته، قيل لكم: فهل كان قادرا على أن يغير ذلك، ويأخذ على يده، ويحول بينه وبينه أم لا؟ فإن قلتم: ليس قادرا على ذلك؛ نسبتموه إلى العجز المنافي للربوبية، وكان هذا الإنسان هو وأتباعه أقدر منه على تنفيذ إراداتهم.

وإن قلتم: بل كان قادرا، ولكن مكنه، ونصره، وسلطه على الخلق، ولم ينصر أولياءه وأتباع رسله = نسبتموه إلى أعظم السفه والظلم، والإخلال بالحكمة؛ هذا لو كان مخليا بينه وبين ما فعله، فكيف وهو في ذلك كله ناصره ومؤيده، ومجيب دعواته، ومهلك من خالفه وكذبه، ومصدقه بأنواع التصديق، ومظهر الآيات على يديه؛ التي لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يأتوا بواحدة منها لما أمكنهم، ولعجزوا عن ذلك، وكل وقت من الأوقات يحدث له من أسباب النصر، والتمكين، والظهور، والعلو، وكثرة الأتباع أمرا خارجا عن العادة.

فظهر أن من أنكر كونه رسولا نبيا فقد سب الله- تعالى- وقدح فيه، ونسبه إلى الجهل، أو العجز، أو السفه.

قلت له: ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم في الأرض وقتا ما، ثم

=

=

قطع دابرهم، وأبطل سنتهم، ومحا آثارهم وجورهم، فإن أولئك لم يبدوا شيئا من ذلك ولم يعيدوا، ولا أيدوا ونصروا، ولا ظهرت على أيديهم الآيات، ولا صدقهم الرب- تعالى- بإقراره، ولا بفعله، ولا بقوله، بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول، كـ: فرعون، ونمرود وأضرابهما.

ولا ينتقض هذا بمن ادعى النبوة من الكذابين؛ فإن حاله كانت ضد حال الرسول من كل وجه، بل حالهم من أظهر الأدلة على صدق الرسول.

ومن حكمة الله- سبحانه- أن أخرج مثل هؤلاء إلى الوجود ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين، وكان ظهورهم من أبين الأدلة على صدق الرسل، والفرق بين هؤلاء وبينهم، "فبضدها تتبين الأشياء"، "والضد يظهر حسنه الضد"، فمعرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحق وبراهينه.

فلما سمع ذلك قال: معاذ الله؛ لا نقول إنه ملك ظالم، بل نبي كريم، من اتبعه فهو من السعداء، وكذلك من اتبع موسى فهو كمن اتبع محمدا!

قلت له: بطل كل ما تموهون به بعد هذا؛ فإنكم إذا أقررتم أنه نبي صادق؛ فلا بد من تصديقه في جميع ما أخبر به، وقد علم أتباعه وأعداؤه- بالضرورة- أنه دعا الناس كلهم إلى الإيمان به، وأخبر أن من لم يؤمن به فهو كافر مخلد في النار، وقاتل من لم يؤمن به من أهل الكتاب، وأسجل عليهم بالكفر، واستباح أموالهم ودماءهم ونساءهم وأبناءهم. فإن كان ذلك عدوانا منه وجورا لم يكن نبيا، وعاد الأمر إلى القدح في الرب تعالى، وإن كان ذلك بأمر الله ووحيه لم تسع مخالفته، وترك اتباعه، ولزم تصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر.

وقد أرشد- سبحانه- إلى هذا المسلك في غير موضع من كتابه:

فقال تعالى: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧)} [الحاقة: ٤٤-

=

=

٤٧]، يقول سبحانه: لو تقول علينا قولا واحدا من تلقاء نفسه لم نقله، ولم نوحه إليه؛ لما أقررناه، ولأخذنا بيمينه، ثم أهلكناه.

هذا أحد القولين.

قال ابن قتيبة: "في هذا قولان: أحدهما: أن "اليمين" ها هنا: القوة والقدرة، وأقام "اليمين" مقام القوة؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه".

قلت: وعلى هذا تكون "اليمين" من صفة الآخذ.

قال: "وهذا قول ابن عباس في اليمين".

قال: "ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر، وهو أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقب، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل: "خذ بيده"، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم: خذ بيده، واسفع بيده. فكأنه قال: لو كذب علينا في شيء مما يلقيه إليكم عنا؛ لأخذنا بيده، ثم عاقبناه بقطع "الوتين"، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن" انتهى.

فقد أخبر- سبحانه- أنه لو تقول عليه شيئا من الأقاويل لما أقره، ولعاجله بالأخذ والعقوبة، فإن كذبا على الله ليس ككذب على غيره، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه، فضلا عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه.

وقوله تعالى: {ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦)} [الحاقة: ٤٦]؛ ""الوتين": نياط القلب؛ وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى، ومات صاحبه". هذا قول جميع أهل اللغة.

قال ابن قتيبة: "ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه، ولكنه أراد لو كذب علينا لأمتناه أو قتلناه، فكان كمن قطع وتينه. قال: ومثله قول ﷺ: "ما زالت أكلة خيبر تعادني، وهذا أوان انقطاع أبهري".

و"الأبهر": عرق يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه، فكأنه قال: فهذا أوان

=

=

قتلني السم، فكنت كمن انقطع أبهره".

ثم قال سبحانه: {فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧)} [الحاقة: ٤٧] أي: لا يحجزه مني أحد، ولا يمنعه مني.

الموضع الثاني: قوله تعالى: {أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشإ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور (٢٤)} [الشورى: ٢٤]. وفي معنى الآية للناس قولان:

**أحدهما**: قول مجاهد ومقاتل: "إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، حتى لا يشق عليك".

والثاني: قول قتادة: "إن يشأ الله ينسيك القرآن، ويقطع عنك الوحي".

وهذا هو القول، دون الأول؛ لوجوه:

**أحدها**: أن هذا خرج جوابا لهم، وتكذيبا لقولهم: إن محمدا كذب على الله، وافترى عليه هذا القرآن، فأجابهم بأحسن جواب، وهو أن الله- سبحانه- قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه، فيعود المعنى إلى أنه: لو افتراه علي لم أمكنه، ولم أقره.

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه؛ فإن فيه من علوم الأولين والآخرين، وعلم المبدأ والمعاد، والدنيا والآخرة، والعلم الذي لا يعلمه إلا الله، والبيان التام، والجزالة، والفصاحة، والجلالة، والإخبار بالغيوب = ما لا يمكن من ختم على قلبه أن يأتي بمثله ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته على قلبه، ويسرته بلسانه؛ لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه. فأين هذا المعنى إلى المعنى الذي ذكره الآخرون؟! وكيف يلتئم معنى حكاية قولهم؟! وكيف يتضمن الرد عليهم؟!

=

=

**الوجه الثاني**: أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما، ولا يكون فيه رد لقولهم، فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر.

**الثالث**: أن الربط على قلب العبد بالصبر لا يقال له: ختم على قلبه، ولا يعرف هذا في عرف المخاطب، ولا لغة العرب، ولا هو المعهود في القرآن، بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظة في القرآن كقوله تعالى: {ختم الله على قلوبهم} [البقرة: ٧]، وقوله تعالى: {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة} [الجاثية: ٢٣] ونظائره.

وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله تعالى: {وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض} [الكهف: ١٤]، وقوله تعالى: {وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها} [القصص: ١٠]، والإنسان يسوغ له في الدعاء أن يقول: اللهم اربط على قلبي، ولا يحسن أن يقول: اللهم اختم على قلبي.

**الرابع**: أنه- سبحانه- حيث يحكي قولهم "أنه افتراه" لا يجيبهم على هذا الجواب، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئا، بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه منه، كقوله تعالى: {أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا} [الأحقاف: ٨]، وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه، وتارة بإقامة الأدلة القاطعة على أنه الحق، وأنهم هم الكاذبون المفترون، وهذا هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر.

**الخامس**: أن هذه الآية نظير ما نحن فيه، وأنه لو شاء لما أقره ولا مكنه، وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير.

=

=

**السادس**: أنه لا دلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما: لا بالمطابقة؛ ولا التضمن، ولا اللزوم. فمن أين يعلم أنه أراد ذلك، ولم يتم هذا المعنى في غير هذا الموضع فيحمل عليه، بخلاف كونه يحول بينه وبينه، ولا يمكنه من الافتراء عليه، فقد ذكره في مواضع.

السابع: أنه- سبحانه- أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم، ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه؛ كما قال تعالى: {قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به} [يونس: ١٦]، وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها، أي: هذا الكلام ليس من قبلي، ولا من عندي، ولا أقدر أن أفتريه على الله، ولو كان ذلك مقدورا لي لكان مقدورا لمن هو من أهل العلم، والكتابة، ومخالطة الناس، والتعلم منهم، ولكن الله بعثني به، ولو شاء- سبحانه- لم ينزله ولم ييسره بلساني، فلم يدعني أتلوه عليكم، ولا أعلمكم به ألبتة؛ لا على لساني، ولا على لسان غيري، ولكنه أوحاه إلي وأذن لي في تلاوته عليكم، وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به، فلو كان كذبا وافتراء على الله- كما تقولون- لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته؛ لأن الكذب لا يعجز عنه البشر، وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه إلا مني، ولم تسمعوه من بشر غيري.

ثم أجاب عن سؤال مقدر- وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه- فقال: {فقد لبثت فيكم عمرا من قبله} [يونس: ١٦] تعلمون حالي، ولا يخفى عليكم سيري، ومدخلي، ومخرجي، وصدقي، وأمانتي. ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه ألبتة، ولا كان لي علم به، ولا ببعضه، ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل، ولا تعلم، ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه، ولا من بعضه. وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند الله، أوحاه إلي وأنزله علي. فلو شاء ما فعل، فلم يمكني من تلاوته، ولا مكنكم من العلم به، بل مكنني من تلاوته،

=

=

ومكنكم من العلم به، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه، ولم أكن قبل أن يوحى إلي تاليا له، ولا لبعضه.

فتأمل صحة هذا الدليل، وحسن تأليفه، وظهور دلالته.

ومن هذا قوله سبحانه: {ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا (٨٦)} [الإسراء: ٨٦]، وهذا هو المناسب لقوله تعالى: {أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشإ الله يختم على قلبك} [الشورى: ٢٤]، ولقوله تعالى: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥)} [الحاقة: ٤٤، ٤٥]، فهو برهان مستقل مذكور في القرآن على وجوه متعددة، والله أعلم.

الثامن: أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات، كقوله تعالى: {ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك} [الإسراء: ٨٦]، وقوله ﷻ: {إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين} [النساء: ١٣٣]، وقوله تعالى: {إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره} [الشورى: ٣٣]، وقوله تعالى: {إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء} [سبأ: ٩] ونظائره؛ لم يأت إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة منفيا.

التاسع: أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر، بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف، بخلاف الربط على القلب فإنه يستلزم الصبر، كما قال تعالى: {وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام (١١)} [الأنفال: ١١].

ومعنى "الربط" في اللغة: الشد. ولهذا يقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه، كأنه حبس قلبه عن الاضطراب. ومنه يقال: هو رابط الجأش.

=

=

وقد ظن الواحدي أن "على" زائدة، والمعنى: يربط قلوبكم! وليس كما ظن؛ بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر، فإنه يقال: ربط الفرس والدابة، ولا يقال: ربط عليها. فإذا أحاط الرباط بالشيء وعمه كله قيل: ربط عليه؛ كأنه أحاط عليه بالرباط، فلهذا قيل: ربط على قلبه، وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه.
والمقصود أن هذا الربط معه يكون الصبر أشد وأثبت، بخلاف الختم.
العاشر: أن "الختم" هو: شد القلب حتى لا يشعر ولا يفهم، فهو مانع يمنع العلم والتصديق، والنبي ﷺ كان يعلم قول أعدائه: إنه افترى القرآن، ويشعر به، فلم يجعل الله على قلبه مانعا من شعوره بذلك، وعلمه به.
فإن قيل: الأمر كذلك، ولكن جعل الله على قلبه مانعا من التأذي بقولهم.
قيل: هذا أولى أن لا يسمى ختما، وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنه، كما قال تعالى: {قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون} [الأنعام: ٣٣]، وكان وصول هذا الأذى إليه من كرامة الله له، فإنه لم يؤذ نبي ما أوذي.
فالقول في الآية هو قول قتادة. والله أعلم.
ثم أخبر- سبحانه- أن القرآن تذكرة للمتقين؛ يتذكر به المتقي، فيبصر ما ينفعه فيأتيه، وما يضره فيجتنبه، ويتذكر به أسماء الرب- تعالى- وصفاته وأفعاله فيؤمن، ويتذكر به ثوابه، وعقابه، ووعده، ووعيده، وأمره، ونهيه، وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه، وما يزكيها ويطهرها ويعليها، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها. ويتذكر به علم المبدأ والمعاد، والجنة والنار، وعلم الخير والشر. فهو التذكرة على الحقيقة، تذكرة حجة للعالمين، ومنفعة وهداية للمتعلمين.
ثم قال سبحانه: {وإنا لنعلم أن منكم مكذبين (٤٩)} [الحاقة: ٤٩] لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم.
ثم أخبر- سبحانه- أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين، إذا عاينوا حقيقة ما

=

أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التحسر. وهكذا كل من كذب بحق، وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به، وصدق به؛ كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله، حتى إذا اشتدت حاجته إليه، وعاين فوز المحصلين؛ صار تفريطه حسرة عليه.

ثم أخبر- سبحانه- أن القرآن والرسول "حق اليقين"، فقيل: هو من باب إضافة الموصوف إلى صفته، أي: الحق اليقين، نحو: مسجد الجامع، وصلاة الأولى. وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق، فنقول وبالله التوفيق:

ذكر الله- سبحانه- في كتابه مراتب اليقين، وهى ثلاثة: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، كما قال تعالى: {كلا لو تعلمون علم اليقين (٥) لترون الجحيم (٦) ثم لترونها عين اليقين (٧)} [التكاثر: ٥- ٧]، فهذه ثلاث مراتب لليقين:

أولها: علمه؛ وهو التصديق التام به، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلا، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين. فهذه مرتبة العلم؛ لتيقنهم أن الرسل أخبروا بها عن الله، وتيقنهم صدق المخبر.

المرتبة الثانية: "عين اليقين"؛ وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: {ثم لترونها عين اليقين (٧)} [التكاثر: ٧].

وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة؛ فـ "علم اليقين" للسمع، و"عين اليقين" للبصر، وفي "المسند" للإمام أحمد مرفوعا: "ليس الخبر كالمعاينة".

وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل عليه السلام أن يريه الله كيف يحيي الموتى؛ ليحصل له مع "علم اليقين": "عين اليقين"، فكان سؤاله زيادة لنفسه، وطمأنينة لقلبه، فيسكن القلب عند المعاينة، ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان.

=

وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك حيث قال: "نحن أحق بالشك من إبراهيم"، ومعاذ الله أن يكون هناك شك منه، ولا من إبراهيم عليهما السلام، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع.

المرتبة الثالثة: مرتبة "حق اليقين"؛ وهي مباشرة الشيء بالإحساس به، كما إذا دخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها. فهم في الدنيا في مرتبة "علم اليقين"، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة "عين اليقين"، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة "حق اليقين".

ومباشرة المعلوم تارة تكون بالحواس الظاهرة، وتارة تكون بالقلب، فلهذا قال: {وإنه لحق اليقين (٥١)} [الحاقة: ٥١]، فإن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها، فحينئذ يخالط بشاشته القلوب، ويبقى لها "حق اليقين"، وهذه أعلى مراتب الإيمان وهي "الصديقية" التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين.

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاث مثالا؛ فقال: إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندي عسل أريد أن أطعمك منه، فصدقته؛ كان ذلك "علم اليقين"، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك "عين اليقين"، فإذا ذقته صار ذلك "حق اليقين".

وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته، بل من باب إضافة الجنس إلى نوعه، فإن "العلم" و"العين" و"الحق" أعم من كونها يقينا، فأضيف العام إلى الخاص، مثل: بعض المتاع، وكل الدراهم.

ولما كان المضاف والمضاف إليه في هذا الباب يصدقان على ذات واحدة- بخلاف قولك: دار عمرو، وثوب زيد- ظن من ظن أنها من إضافة الموصوف إلى صفته؛ وليس كذلك، بل هي من باب إضافة الجنس إلى نوعه، كـ: ثوب خز، وخاتم فضة. فالمضاف إليه قد يكون مغايرا للمضاف، لا يصدقان على ذات

=

=

واحدة، وقد يجانسه فيصدقان على مسمى واحد، والله أعلم.
ثم ختم السورة بقوله تعالى: {فسبح باسم ربك العظيم (٥٢)} [الحاقة: ٥٢]، وهي جديرة بهذه الخاتمة، لما تضمنته من الإخبار عن عظمة الرب- تعالى- وجلاله، وذكر عظمة ملكه، وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة، وذكر عظمته- تعالى- في إرسال رسوله، وإنزال كتابه، وأنه- تعالى- أعظم وأجل وأكبر عند أهل سماواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذابا متقولا عليه، مفتريا عليه، يبدل دينه، وينسخ شرائعه، ويقتل عباده، ويخبر عنه بما لا حقيقة له، وهو- سبحانه- مع ذلك يؤيده، وينصره، ويجيب دعواته، ويأخذ أعداءه، ويرفع قدره، ويعلي ذكره، فهو- سبحانه- العظيم الذي تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم، فسبحان ربنا العظيم، وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علوا كبيرا.
(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) (الحاقة: ٤١- ٤٢)، للسائل أن يسأل عن الوجه في نفي الإيمان عنهم عقب تنزيه ما جاء به صلي الله عليه وسلم من القرآن عن أن يكون شعرًا ونفي التذكر عنهم عقب تنزيهه عن أن يكون من قبيل قول الكهان؟
والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن نفي كون القرآن من أقوال الكهنة أمر لا يحتاج إلى كبير (نظر ولا استعمال طول فكر، بل يوصل إلى ذلك بأدنى التفات، فناسب هذا نفي: التذكر، وأما تنزيهه عن إلحاقه بقبيل الشعر وما يرجع إلى نحو ذلك من أقوال الخطباء وأسجاعهم فقد توهم الجاحد الظلوم المتعامي عن النظر وصرف التفكير إلى تدبره والإصغاء إلى سماعه، المترامي إلى التعلق بأدنى شبهة يستريح إليها رجوعه إلى ذلك. فناسب هذا نفي التصديق لأنه إنما

=

## سورة المعارج[1]

=

يكون عن ركوب إلى نظر وتفكر، فجاء كل عل ما يناسب، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٨٢).

(١) قال ابن عطية:"هي مكية لا خلاف بين الرواة في ذلك".

قال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".

**قال القرطبي**:"هي مكية باتفاق".

وقال الفيروزآبادي: السّورة مكِّيّة.

وقال الألوسي:"وفي مجمع البيان عند الحسن إلا قوله تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ} [المعارج: ٢٤]".

❋ آياتها ثلاث وأَربعون فى عدّ الشام، وأَربع فى عدّ الباقين. كلماتها مائتان وثلاث عشرة. وحروفها سبعمائة وسبع وخمسون. المختلف فيها آية: {أَلْفُ سَنَةٍ} فواصل آياتها (جعلناهم) على الميم [{مَعْلُوْمٌ} و {الْمَحْرُوْمُ}] وعلى الجيم {الْمَعَارِجِ} وعلى اللاَّم {كَالْمُهْلِ}.

❋ أسماء السورة:

تسمى «سورة المعارج» اشتهرت تسميتها بسورة «المعارج»، وسميت بها في معظم المصاحف وكتب التفسير، ووجه تسميتها لقوله تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج: ٤]، أي: تصعد إليه الملائكة وجبريل الأمين الذي خصه الله بنقل الوحي إلى الأنبياء والرسل عليهم السلام، وخصه بالذكر لشرفه وفضل منزلته، وهو المسمّى بالروح في قوله تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: ١٩٣].

وتسمى سورة «سال سائل» أو «سأل» عرفت تسمية السورة بهذا الاسم في عهد

=

## بسم الله الرحمن الرحيم(١)

=

الصحابة-رضوان الله تعالى عليهم-، وعنونت بذلك في بعض كتب التفسير، والسنة، ووجه تسميتها بذلك لأنها افتتحت بها السورة في قوله تعالى: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} [المعارج: ١]، ولم يرد مثلها في غيرها من سور القرآن.
وتسمى: سورة «الواقع» وردت هذه التسمية في بعض كتب علوم القرآن، وعلّل الفيروزآبادي تسميتها بذلك لوقوع هذا اللفظ في {بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} [المعارج: ١].
وذكرها الألوسي في تفسيره بلفظ: «المواقع».
وتسمى سورة «ذي المعارج» ذكر هذه التسمية الفيروزآبادي، ولعل وجه تسميتها بذلك يعود لقوله تعالى: {مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ} [المعارج: ٣].
* مقصود السّورة: بيان جُرْأَة الكافر فى استعجال العذاب، وطول القيامة وهولها، وشُغْل الخلائق فى ذلك اليوم المَهيب، واختلاف حال الناس فى الخير والشرّ ومحافظة المؤمنين على خصال الخير، وطمع الكفَّار فى غير مَطْمَع، وذُلّ الكافرين فى يوم القيامة فى قوله: {تَرْهَقُهُمْ ذِلَّة}.
* المتشابهات: قوله: {إلاَّ المصلين} عَدّ عقيب ذكرهم الخصالَ المذكورة أَوّل سورة المؤمنين، وزاد فيها {وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ}؛ لأَنَّه وقع عقيب قوله: {لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} وإِقامة الشهادة أَمانة، يؤدّيها إِذا احتاج إليها صاحبُها، لإِحياءِ حقّ. فهى إِذًا من جملة الأَمانة، وقد ذكرت الأَمانة فى سورة المؤمنين، وخصّت هذه السّورة بزيادة بيانها؛ كما خصّت بإِعادة ذكر الصلاة حيث قال: {وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ} بعد قوله: {إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُم على صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ}.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١).

{سأل سائل} دعا داع {بعذاب واقع}.

لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢).

{لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِع} هُوَ النَّضْر بْن الْحَارِث قَالَ {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحق} الآية.

مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣).

{مِنْ الله} مُتَّصِل بِوَاقِع {ذِي الْمَعَارِج} مَصَاعِد الْمَلَائِكَة وَهِيَ السَّمَاوَات

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤).

{تَعْرُج} بِالتَّاءِ وَالْيَاء {الْمَلَائِكَة وَالرُّوح} جِبْرِيل {إلَيْهِ} إلَى مَهْبِط أَمْره مِنْ السَّمَاء {فِي يَوْم} مُتَعَلِّق بِمَحْذُوفٍ أَيْ يَقَع الْعَذَاب بِهِمْ فِي يَوْم الْقِيَامَة {كَانَ مِقْدَاره خَمْسِينَ أَلْف سَنَة} بِالنِّسْبَةِ إلَى الْكَافِر لِمَا يَلْقَى فِيهِ مِنْ الشَّدَائِد وَأَمَّا الْمُؤْمِن فَيَكُون أَخَفّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاة مَكْتُوبَة يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا كَمَا جَاءَ فِي الحديث.

فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥).

{فَاصْبِرْ} وَهَذَا قَبْل أَنْ يُؤْمَر بِالْقِتَالِ {صَبْرًا جَمِيلًا} أَيْ لَا جَزَع فِيهِ.

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦).

{إنَّهُمْ يَرَوْنَهُ} أَيْ الْعَذَاب {بَعِيدًا} غَيْر وَاقِع.

وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧).

{وَنَرَاهُ قَرِيبًا} وَاقِعًا لَا مَحَالَة[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

=

=

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال في قوله: {سأل سائل بعذاب واقع}: (هو النضر بن الحارث بن كلدة).

أخرجه النسائي في "تفسيره" (٢/ ٤٦٣ رقم ٦٤٠) من طريق أبي أسامة ثنا الثوري عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عنه به. وإسناده حسن على شرط البخاري. وأخرجه الحاكم (٢/ ٥٠٢) من طريق آخر عن الثوري عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قوله لم يذكر ابن عباس. وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، وقال الذهبي في "التلخيص": "على شرط البخاري" وهو الصواب.

وعن السدي في قوله -تعالى-: {سَأَلَ سَائِلٌ}؛ قال: نزلت بمكة في النضر بن الحارث، وقد قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية، وكان عذابه يوم بدر.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢٧٧)، و"لباب النقول" (ص ٢١٩) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن ابن جريج في قوله -تعالى-: {بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}؛ قال: يقع في الآخرة قولهم في الدنيا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، هو النضر بن الحارث.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢٧٧، ٢٧٨) ونسبه لابن المنذر. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن الحسن؛ قال: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١)}، فقال الناس: على من يقع العذاب؟ فأنزل الله -تعالى-: {لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢٧٨)، و"لباب النقول" (ص ٢١٩) ونسبه لابن المنذر.

وهو ضعيف؛ لإرساله.

=

=

* قوله تعالى: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} [المعارج: ١].

**قال الطبري**:"يقول: سأل بعذاب للكافرين واجب لهم يوم القيامة واقع بهم، ومعنى {لِلْكَافِرِينَ}: على الكافرين".

**قال الفراء**:"دعا داع بعذاب واقع، وهو: النضر بن الحارث بن كلدة، قال: اللهم إن كان ما يقول محمد هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم، فأسر يوم بدر، فقتل صبرا هو وعقبة، وقوله: {بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}. يريد: للكافرين، و «الواقع» من نعت «العذاب»".

قال ابن عباس:"ذاك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع".

قال الضحاك:"واقع على الكافرين".

قال قتادة:"سأل عذاب الله أقوام، فبين الله على من يقع؛ على الكافرين".

عن مجاهد، قوله: "{سَأَلَ سَائِلٌ، قال: دعا داع، {بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}، قال: يقع في الآخرة، قال: وهو قولهم: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ} [الأنفال: ٣٢]".

وروي عن ابن زيد، في قوله الله: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}، قال: قال بعض أهل العلم: هو واد في جهنم يقال له سائل".

وقرئ: «سالَ سَائِلٌ»، فلم يهمز «سأل»، ووجهه إلى أنه فعل من: السيل.

أي: دعا داع واستفتح مستفتح تكذيبًا واستبعادًا وتعجيزًا (بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) أي: أن العذاب واقع لا محالة.

كقوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده). أي عذابه واقع لا محالة.

لم يعرض الله تعالى لاسم هذا المستهزئ تحقيرًا له ولشأنه.

قوله تعالى: {لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ} [المعارج: ٢]، أي:"وهو واقع بهم يوم

=

=

القيامة لا محالة، ليس له مانع يمنعه".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: ليس للعذاب الواقع على الكافرين من الله دافع يدفعه عنهم".

**قال الفراء:**"اللام التي في «الكافرين» دخلت للعذاب لا للواقع".

(لِّلْكَافِرِينَ) أي مرصد معد للكافرين، لاستحقاقهم ذلك بكفرهم وتمردهم.

(لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ) أي: لا دافع له إذا أراد الله كونه، فلا راد يرده ويمنعه عنهم قبل نزوله، ولا يرفعه عنهم بعد نزوله كما قال تعالى (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِن دَافِعٍ).

قوله تعالى: {مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ} [المعارج: ٣]، أي:"وهو صادر من الله من الله ذي العلو والجلال".

**قال الطبري:**"يعني: ذا العلوّ والدرجات والفواضل والنعم".

قال ابن عباس:"يقول: العلوّ والفواضل".

قال قتادة:"ذي الفواضل والنِّعم".

عن مجاهد، قوله: "{مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ}، قال: معارج السماء".

قال ابن زيد:"الله ذو المعارج".

قال ابن عباس:"ذي الدرجات".

(مِّنَ اللهِ) أي: هذا العذاب واقع بهم من الله، فهو الذي يوقعه بهم فلا يستطيعون له دفعًا ولا منعًا.

(ذِي الْمَعَارِجِ) المعارج جمع معرج، وهو المصعد، ومنه قوله تعالى (وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً، لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ).

=

=

وقد ذكر المفسرون في المراد بالمعارج وجوها:

منها: أن المراد بها السموات، فعن ابن عباس أنه قال: أي: ذي السموات، وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها.

ومنها: أن المراد بها: النعم والمنن. فعن قتادة أنه قال: ذي المعارج، أي: ذي الفواضل والنعم.

ومنها: أن المراد بها الدرجات التي يعطيها لأوليائه في الجنة.

- قال ابن الجوزي: قوله تعالى (ذي المعارج) فيه قولان:

**أحَدُهُما**: أنَّها السَّمَواتُ، قالَهُ ابْنُ عَبّاسٍ. وقالَ مُجاهِدٌ: هي مَعارِجُ المَلائِكَةِ.

والثّانِي: أنَّ المَعارِجَ: الفَواضِلُ والنِّعَمُ، قالَهُ قَتادَةُ.

قوله تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج: ٤].

**قال الطبري**:"تصعد الملائكة والروح، وهو جبريل عليه السلام إليه، يعني إلى الله جلّ وعزّ، كان مقدار صعودهم ذلك في يوم لغيرهم من الخلق خمسين ألف سنة، وذلك أنها تصعد من منتهى أمره من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمره، من فوق السموات السبع".

قال السمعاني:"وقيل: «الروح» هم في خلق السماء يشبهون الآدميين، وليسوا بآدميين".

واختلف في قوله تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج: ٤]، على وجوه:

**أحدها**: أنه مقدار صعود الملائكة من أسفل الأرض إلى العرش، لو صعده غيرهم قطعه في خمسين ألف سنة، وهذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد.

عن ابن عباس:"منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع

=

=

سموات مقداره خمسين ألف سنة، و «يوم كان مقداره ألف سنة»، يعني: بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة، لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام".

وقال ابن عباس:"غلظ كل أرض خمسمائة عام، فذلك أربعة عشر ألف عام، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام، فذلك قوله: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج: ٤]".

عن مجاهد: "{فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}، قال: منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات مقدار خمسين ألف سنة؛ ويوم كان مقداره ألف سنة، يعني: بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة، لأن ما بين السماء إلى الأرض، مسيرة خمس مئة عام".

**الثاني**: أنه مدة الدنيا، مقدار خمسين ألف سنة، لا يدري أحد كم مضى وكم بقي إلا الله، قاله عكرمة، ومجاهد-أيضا-.

عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال معمر: وبلغني أيضا، عن عكرمة، في قوله: {مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}: لا يدري أحدٌ كم مضى، ولا كم بقي إلا الله".

**الثالث**: أنه يوم القيامة، قاله ابن عباس-أيضا-، والحسن، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي، وابن زيد، وهذا هو مقدار يوم القيامة من وقت البعث إلى أن يفصل بين الخلق.

قال السمعاني:"هو يوم القيامة، وهو أصح القولين".

عن عكرمة: "{فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}، قال: يوم القيامة".

قال قتادة:"ذاكم يوم القيامة".

قال الضحاك:"يعني: يوم القيامة".

=

=

قال ابن زيد:"هذا يوم القيامة".

قال ابن عباس:"فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة".

قال ابن عباس:"لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم، قال: يعني يوم القيامة".

قال عكرمة:"في يوم واحد يفرغ في ذلك اليوم من القضاء كقدر خمسين ألف سنة".

عن الحسن، قال:"يكون عليهم كصلاة مكتوبة".

قال إبراهيم التيمي:"قدْر يوم القيامة على المؤمن قدْر ما بين الظهر إلى العصر".

عن أبي الهيثم عن سعيد، أنه قال لرسول الله ﷺ: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}، ما أطول هذا؟ فقال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلى المُؤْمِنِ حتى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلاةِ المَكْتُوبَةِ يُصَلِّيها فِي الدُّنْيا».

وروي عن ابن أبي مليكة:"أن رجلا سأل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة، فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال: إنما سألتك لتخبرني، قال: هما يومان ذكرهما الله في القرآن، الله أعلم بهما، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم. وفي رواية:"هما يومان ذكرهما الله جلّ وعزّ، الله أعلم بهما، وأكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم".

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) أي: تصعد الملائكة الأبرار (الروح) أي جبريل الذي خصه الله بالوحي.

والمعنى: أي تصعد الملائكة وجبريل عليهم السلام إليه ﷻ بما وكل إليهم من الأمر.

- قال ابن الجوزي في "الرُّوحِ" قَوْلانِ:

=

=

**أَحَدُهُما:** جِبْرِيلُ، قالَهُ الأَكْثَرُونَ.
والثاني: روح الميت حين تقبض، قاله قبيصة بن ذؤيب.
- والملائكة خلق من خلق الله، خلقهم الله من نور يعبدون الله ويأتمرون بأمره ولا يعصونه كما قال تعالى (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وقال تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون).
- وقال في التسهيل: والروح هنا جبريل عليه السلام بدليل قوله (نزل به الروح الأمين * على قلبك).
وقيل: الروح ملائكة حفظة على الملائكة، وهذا ضعيف مفتقر إلى صحة نقل.
وقيل: الروح جنس أرواح الناس وغيرهم.
- وسمي جبريل بالروح:
١- لأنه روح مقدسة، فوصفه بذلك تشريف له وبيان لعلو مرتبته.
٢- لأن الدين يحيا به كما يحيا البدن بالروح، فهو المتولي لإنزال الوحي إلى الأنبياء.
- الروح تطلق في القرآن على عدة أوجه:
**اولا**: القوة والثبات والنصرة.
قال تعالى (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه).
**ثانيا**: بمعنى جبريل:
قال تعالى (نزل به الروح الأمين).
**ثالثا**: بمعنى الوحي.
قال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا).
**رابعا**: المسيح عيسى ابن مريم.
قال تعالى (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم
=

=

وروح منه).

(في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) أي في يوم طوله هذه المدة. وقد اختلف في المراد بالآية:

فقيل: هو يوم القيامة.

عن ابن عباس قال: (هو يوم القيامة).

ويؤيد هذا القول قوله ﷺ (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار) رواه مسلم

وقيل: المراد بذلك مسافة بين العرش العظيم إلى أسفل سافلين، وهو قرار الأرض السابعة وذلك مسافة خمسين ألف سنة.

والراجح الأول.

- إشكال: كيف الجمع بين هذه الآية وبين الآية التي في السجدة: (في يوم كان مقداره ألف سنة)؟

**الوجه** الأول: إن هذا اليوم يختلف طوله على الكافر عن المؤمن، فيطول هذا اليوم على الكافر ويخفف على المؤمن، وكلاهما يوم القيامة، فهو كألف سنة، وهو خمسون ألف سنة أيضا.

ومما يؤيد أن هذا اليوم يطول ويشق على الكافر ما يلي:

قوله تعالى (فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير).

وقوله تعالى (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا).

وجاء حديث فيه ضعيف رواه الإمام أحمد قال ﷺ: (والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في

=

=

الدنيا).

**الوجه** الثاني: إن يوم الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه، ويوم الخمسين ألفا هو يوم القيامة.

**الوجه** الثالث: أن المراد باليومين في الآيتين يوم واحد، ويكون العروج فيه إلى الله، وإنما اختلفت المدة في الآيتين فكانت في إحداهما ألفا وفي الأخرى خمسين ألفا لاختلاف المسافة المقطوعة في كل منهما، فالألف سنة جعلت مدة لنزول الملائكة وصعودهم إلى السماء الدنيا، فإن المسافة بين الأرض والسماء الدنيا قدرت في الأحاديث بخمسمائة عام، فإذا قدر نزولهم وصعودهم كان المجموع ألف سنة، وأما الخمسون ألفا فهي المدة التي يعرجون فيها من فوق السبع الطباق من عند العرش إلى أسفل الأرض.

وذهب إلى هذا القول طائفة من السلف، فقال به مجاهد، وابن إسحاق.

ورجحه ابن جرير، والبغوي، واختاره ابن القيم.

قوله تعالى: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا} [المعارج: ٥]

في تفسير الآية الكريمة أقوال:

**أحدها**: أنه الصبر الذي ليس فيه جزع، قاله مجاهد.

قال مقاتل:"يعزي نبيه- ﷺ- صبرا لا جزع فيه تكذيبهم إياك بأن العذاب غير كائن".

وقال الحسن:"الصبر الجميل: الذي ليس فوقه جزع إلا إلى الله".

قال ابن أبي زمنين:"ليس فيه جزع على تكذيب المشركين لك".

قال النحاس:"فَاصْبِرْ على أذاهم، صَبْرًا جَمِيلًا لا جزع فيه"

**قال الطبري**:"يعني: صبرا لا جزع فيه. يقول له: اصبر على أذى هؤلاء المشركين لك، ولا يثنيك ما تلقى منهم من المكروه عن تبليغ ما أمرك ربك أن تبلغهم من

=

=

الرسالة".

**الثاني**: أنه الصبر الذي لا شكوى فيه إلا إلى الله جل وعز. قاله الفراء.

حبان بن أبي جبلة: أن النبي ﷺ سئل عن قوله: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} [يوسف: ١٨، ٨٣] قال: صبر لا شكوى فيه".

وفي رواية:"صبر لا شكوى فيه. قال: من بثّ فلم يصبر".

وقال سهل:"أي: رضا من غير شكوى، فإن الشكوى بلوى، ودعوى الصبر معه دعوى، وإن لله تعالى عبادا شكوا به منه إليه حجة تمسك النفس الطبع عن التفات إلى شيء غير الذي من أجله صبر الصابر".

**الثالث**: أنه الانتظار من غير استعجال، قاله ابن بحر.

**الرابع**: أنه المجاملة في الظاهر، قاله الحسن.

عن قيس بن الحجاج في قوله: {فاصبر صبرا جميلا} قال: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم ولا يدرى من هو، وإنما أمره بالصبر؛ لأن المشركين كانوا يؤذونه، فأمره بالصبر إلى أن ينزل بهم عذابه".

**قال الزجاج**:"هذا يدل على أن ذلك قبل أن يؤمر النبي عليه السلام بالقتال".

قال ابن زيد:"هذا حين كان يأمره بالعفو عنهم، لا يُكافئهم، فلمّا أُمِر بالجهاد والغِلْظة عليهم أُمِر بالشدّة والقتل حتى يَتركوا، ونُسخ هذا".

**قال الطبري**:"وهذا الذي قاله ابن زيد أنه كان أمر بالعفو بهذه الآية، ثم نسخ ذلك لا وجه له، لأنه لا دلالة على صحة ما قال من بعض الأوجه التي تصحّ منها الدعاوى، وليس في أمر الله نبيه ﷺ في الصبر الجميل على أذى المشركين ما يوجب أن يكون ذلك أمرا منه له به في بعض الأحوال؛ بل كان ذلك أمرا من الله له به في كل الأحوال، لأنه لم يزل ﷺ من لدن بعثه الله إلى أن اخترمه في أذى منهم، وهو في كل ذلك صابر على ما يلقى منهم من أذى قبل أن يأذن الله له

=

=

بحربهم، وبعد إذنه له بذلك".

أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك واستعجالهم بالعذاب استبعادا لوقوعه.

كما قال تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم).

وقال تعالى (فاصبر على ما يقولون).

وقال تعالى (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم).

- والصبر الجميل: هو الصبر الذي لا جزع فيه ولا قلق، ولا ملل ولا تضجر، ولا شكوى لغير الله كما قال تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات).

- وإنما أمره الله تعالى بالصبر:

**أولا**: لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر).

**ثانيا**: أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات.

**ثالثا**: وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)

**رابعا**: وليكون قدوة لغيره.

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا} [المعارج: ٦]، أي:"إن الكافرين يستبعدون العذاب ويرونه غير واقع".

قال مقاتل:"يعني: كفار مكة، {بَعِيدًا}، يعني: العذاب أنه غير كائن".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء المشركين يرون العذاب الذي سألوا عنه، الواقع عليهم، بعيدا وقوعه، وإنما أخبر جلّ ثناؤه أنهم يرون ذلك بعيدا، لأنهم كانوا لا يصدّقون به، وينكرون البعث بعد الممات، والثواب والعقاب، فقال: إنهم يرونه غير واقع".

=

=

**قال الزجاج**:"يرونه بعيدًا عندهم كأنهم يستبعدونه على جهة الإِحالة، كما تقول لمنَاظِرِكَ: هذا بعيد لا يكون".

قال النحاس:"لأنهم لا يؤمنون به. قيل: الضمير في «إنهم» للكافرين وفي «يرونه» للعذاب"

قال سهل:"يعني: أنهم يرون المقضي عليهم من الموت والبعث والحساب بعيدا لبعد آمالهم".

عن الأعمش:" {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا}، قال: الساعة".

عن ابن جريج:" {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا} قال: بتكذيبهم".

أي (إنهم يرونه بعيدا) أي وقوع العذاب، وقيل: قيام الساعة، يراه الكفرة بعيد الوقوع بمعنى مستحيل الوقوع.

والأقرب أن المراد قيام الساعة لأنه أقرب مذكور.

والتعبير بالبعيد كناية عن معنى الإحالة، لأنهم لا يؤمنون بذلك اليوم ولا بالعذاب.

قال الشوكاني: (إنهم يرونه بعيدا) أي: يرون العذاب الواقع بهم، أو يرون يوم القيامة بعيدا أي: غير كائن لأنهم لا يؤمنون به، فمعنى (بعيدا) أي: مستبعدا محالا، وليس المراد أنهم يرونه بعيدا غير قريب.

قوله تعالى: {وَنَرَاهُ قَرِيبًا} [المعارج: ٧]، أي:"ونحن نراه واقعًا قريبًا لا محالة".

عن ابن جريج:" {ونَراهُ قَرِيبًا} قال: صِدقًا كائنًا".

**قال الطبري**: يقول:"ونحن نراه قريبا، لأنه كائن، وكلّ ما هو آت قريب".

قال النحاس:"لأنه كائن، وكلّ كائن قريب"

**قال الزجاج**:"أي: صحيحًا يقرب فَهْمُ مثله بما دل الله على يوم البعث بقوله:

=

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨).

=

{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}، وما أشبه هذا من الاحتجاجات في البعث".

قال سهل:"فإن كل كائن قريب، والبعيد ما لا يكون. ثم قال: إن العلماء طلبوا الوسوسة في الكتاب والسنة، فلم يجدوا لها أصلا إلا فضول الحلال وفضول الحلال أن يرى العبد وقتا غير وقته الذي هو فيه وهو الأمل".

وسئل سهل: "بم ترحل الدنيا من القلب؟ فقال: بقصر الأمل. فقيل: وما قصر الأمل؟ فقال: قطع الهموم بالمضمون، والسكون إلى الضامن".

أي: (ونراه قريبا) أي المؤمنون يعتقدون كونه قريبا، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله ﷻ، لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة.

قال ابن عاشور: (إنهم يرونه بعيدا. ونراه قريبا) تعليل لجملتي (سأل سائل بعذاب واقع) ولجملة (فاصبر صبرا جميلا) أي سألوا استهزاء لأنهم يرونه محالا وعليك بالصبر لأنا نعلم تحققه، أي وأنت تثق بأنه قريب، أي محقق الوقوع، وأيضا هو تجهيل لهم إذ اغتروا بما هم فيه من الأمن ومسالمة العرب لهم ومن الحياة الناعمة فرأوا العذاب الموعود بعيدا، إن كان في الدنيا فلأمنهم، وإن كان في الآخرة فلإنكارهم البعث، والمعنى: وأنت لا تشبه حالهم وذلك يهون الصبر عليك فهو من باب (ولا تتبع أهواءهم) (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه).

(منبهة) قول المصنف (إِلَى مَهْبِط أَمْره مِنْ السَّمَاء) الغرض منه نفي علو الله على خلقه والذي حمل المصنف غفر الله له على ذلك أشعريته، والأشاعرة مخالفون لأهل الحق، أهل السنة والجماعة، أهل الحديث والأثر، في جل مسائل العقيدة، فتنبه وكن على حذر، وقد تقدم بيان الحق في هذه المسألة في أثناء مباحث الكتاب.

{يَوْم تكُون السَّمَاء} مُتَعَلّق بِمَحْذُوفٍ تَقْدِيره يَقَع {كَالْمُهْلِ} كَذَائِبِ الْفِضَّة.

وَتكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩).

{وَتكُون الْجِبَال كَالْعِهْنِ} كَالصُّوفِ فِي الْخِفَّة وَالطَّيَرَان بالريح.

وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠).

{وَلَا يَسْأَل حَمِيم حَمِيمًا} قَرِيب قَرِيبه لِاشْتِغَالِ كل بحاله.

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١).

{يُبَصَّرُونَهُمْ} أَيْ يُبْصِر الْأَحْمَاء بَعْضهمْ بَعْضًا وَيَتَعَارَفُونَ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ وَالْجُمْلَة مُسْتَأْنَفَة {يَوَدّ الْمُجْرِم} يَتَمَنَّى الْكَافِر {لَوْ} بِمَعْنَى أَنْ {يَفْتَدِي مِنْ عَذَاب يومئذ} بكسر الميم وفتحها {ببنيه}.

وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢).

{وصاحبته} زوجته {وأخيه}.

وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣).

{وفصيلته} عشيرته لفصله منها {التي تؤويه} تضمه.

وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤).

{وَمَنْ فِي الْأَرْض جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيه} ذَلِكَ الافتداء عَطْف عَلَى يَفْتَدِي.

كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥).

{كَلَّا} رَدّ لِمَا يَوَدّهُ {إِنَّهَا} أَيْ النَّار {لَظَى} اسْم لِجَهَنَّم لِأَنَّهَا تَتَلَظَّى أَيْ تَتَلَهَّب على الكفار.

نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦).

{نَزَّاعَة لِلشَّوَى} جَمْع شَوَاة وَهِيَ جِلْدَة الرَّأْس.

تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧).

{تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى} عَنْ الْإِيمَان بِأَنْ تَقُول إلَيَّ إلَيَّ.

وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨).

{وَجَمَعَ} الْمَال {فَأَوْعَى} أَمْسَكَهُ فِي وِعَائِهِ وَلَمْ يُؤَدِّ حَقَّ الله مِنْهُ[١].

---

(١) قوله تعالى: {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ} [المعارج: ٨]، أي:"يوم تكون السماء سائلة مثل حُثالة الزيت".

قال النحاس:"يكون التقدير: يقع هذا أو يبصرونهم يوم تكون السّماء كالمهل"

**قال الطبري**: يقول:"يوم تكون السماء كالشيء المذاب".

قال مقاتل:"من الخوف، يعني: أسود غليظا كدردى الزيت بعد الشدة والقوة".

**قال الزجاج**:"المهل: دُرْدِيُّ الزَّيت".

قال مجاهد: "كَعَكَرِ الزيت".

قال عطاء: "كعكر القطران".

قال الحسن: "مثل الفضة إذا ذيبت".

قال ابن زيد:"تتحوّل يومئذ لونا آخر إلى الحمرة".

قال ابن قتيبة:"«الْمُهْل» ما أذيب من الفضة والنُّحاس".

والمعنى: تشبيه السماء في انحلال أجزائها بالزيت، وهذا كقوله في سورة الرحمان (فكانت وردة كالدهان) قاله ابن عاشور.

فائدة: اختار ابن جرير أن المهل كل ما انماع.

قال ابن جرير:.... فالمهل إذا هو كل مائع قد أوقد عليه حتى بلغ غاية حره، أو لم يكن مائعا، فانماع بالوقود عليه، وبلغ أقصى الغاية في شدة الحر.

قوله تعالى: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ} [المعارج: ٩]، أي:"وتكون الجبال كالصوف المصبوغ المنفوش الذي ذَرَته الريح".

**قال الطبري**:"يقول: وتكون الجبال كالصوف".

=

=

**قال الزجاج**:"العِهْن: الصوف".

قال ابن قتيبة:"أي: كالصوف، وذلك: أنها تُبَسُّ".

عن مجاهد وقتادة: "{كَالْعِهْنِ}، قال: كالصوف".

قال الحسن: "وهو أضعف الصوف، وأول ما تتغير الجبال تصير رملًا مهيلًا، ثم عهنًا منفوشًا، ثم تصير هباء منثورا".

قال مقاتل:"فشبهها في اللين والوهن بالصوف المنفوش بعد القوة، وذلك أوهن ما يكون من الصوف".

**قال السعدي**:"وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذاك هباء منثورا فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟ أليس حقيقا أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل أحد؟".

أي وتكون الجبال متناثرة متطايرة كالصوف المنفوش إذا طيرته الريح.

**قال القرطبي**: والمعنى: أنها تلين بعد الشدة، وتتفرق بعد الاجتماع.

قوله تعالى: {وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا} [المعارج: ١٠]

ولا يسأل قريب قريبه عن شأنه؛ لأن كل واحدٍ منهما مشغول بنفسه.

قال أبو عبيدة:"قريب قريبا".

**قال الطبري**: "يقول تعالى ذكره: ولا يسأل قريب قريبه عن شأنه لشغله بشأن نفسه".

قال السمعاني:"أي: لا يسأل قريب عن حال قريبه لشغله بنفسه".

**قال السعدي**:"أي: يشاهد الحميم، وهو القريب حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم، ولا يهمه إلا نفسه".

قال قتادة:"يشغل كلّ إنسان بنفسه عن الناس".

=

=

قال ابن عباس: "الحميم: القريب الذي تغضب له ويغضب لك".
وقرئت: {ولا يسْأَلُ حَمِيم}، فمن قرأ: {وَلَا يَسْأَلُ}، فالمعنى أنهم يعرف بعضهم بعضًا، ويدل عليه قوله: {يُبَصَّرُونَهُمْ}، ومن قرأ {ولا يُسْأَل حَمِيمٌ حَمِيمًا}، فالمعنى: لا يُسْأَل قريب عن قرابته.
أي لا يسأل القريب قريبة عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره.
كما قال تعالى (يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه).
وقال تعالى (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون).
قال الشوكاني: أي لا يسأل قريب قريبه عن شأنه في ذلك اليوم لما نزل بهم من شدة الأهوال التي أذهلت القريب عن قريبه، والخليل عن خليله، كما قال سبحانه (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه).
قوله تعالى: {يُبَصَّرُونَهُمْ} [المعارج: ١١]، أي:"يعرف بعضهم بعضًا ويتعارفون بينهم، ولا يستطيع أحد أن ينفع أحدًا".
وفي قوله تعالى: {يُبَصَّرُونَهُمْ} [المعارج: ١١]، وجوه من التفسير:
**أحدها:** أنهم الأقرباء يبصر بعضهم بعضًا فيعرف كل إنسان قريبه، قاله ابن عباس، وقتادة، وبه قال الطبري، والنحاس.
قال النحاس:"لأنه قد تقدّم ذكر الحميم فيكون الضمير راجعا عليه أولى من أن يعود على ما لم يجر له ذكر".
قال ابن عباس:"يَعرف بعضهم بعضا، ويتعارفون بينهم، ثم يفرّ بعضهم من بعض، يقول: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}".
قال قتادة:"يعرفونهم يعلمون، والله ليعرِّفَنَّ قوم قوما، وأناس أناسا".

=

=

قال ابن عباس: "يتعارفون مدة ساعة من النهار ثمّ لا يتعارفون بعد ذلك".
قال الثعلبي:"وليس في القيامة مخلوق إلّا وهو نصب عن صاحبه من الجن والإنس فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسأله، ويبصر الرجل حميمه فلا يكلمه لاشتغالهم بأنفسهم".
قال القشيري:"أي: يعرفون أقاربهم، ولكن لا ترقّ قلوب بعضهم على بعض".
**قال الزمخشري**:"أي: يبصر الأحماء الأحماء، فلا يخفون عليهم، فما يمنعهم من المساءلة أن بعضهم لا يبصر بعضا، وإنما يمنعهم التشاغل".
**الثاني**: أن المؤمنين يبصرون الكافرين، قاله مجاهد.
**وقال السدي**: {يُبَصَّرُونَهُمْ}: يعرفونهم، أمّا المؤمن فلبياض وجهه، وأما الكافر فلسواد وجهه".
**الثالث**: أن الكافرين يبصرون الذين أضلوهم في النار، قاله ابن زيد.
**الرابع**: أنه يبصر المظلوم ظالمه، والمقتول قاتله. حكاه الماوردي.
**قال الطبري**:"وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، قول من قال: معنى ذلك: ولا يسأل حميم حميما عن شأنه، ولكنهم يبصرونهم فيعرفونهم، ثم يفرّ بعضهم من بعض، كما قال جلّ ثناؤه: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بالصواب، لأن ذلك أشبهها بما دل عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن قوله: {يُبَصَّرُونَهُمْ} تلا قوله: {وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا}، فلأن تكون الهاء والميم من ذكرهم أشبه منها بأن تكون من ذكر غيرهم".
قوله تعالى: {يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ}، أي:"يتمنى الكافر لو يفدي نفسه من عذاب يوم القيامة بأبنائه، وزوجه وأخيه".
**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: يودّ الكافر يومئذ ويتمنى أنه يفتدي من عذاب
=

=

الله إياه ذلك اليوم ببنيه وصاحبته، وهي زوجته، وأخيه".

قال ابن زيد:"الصاحبة: الزوجة".

- قال ابن عطية (المجرم) في هذه الآية الكافر بدليل شدة الوعد وذكر (لظى) وقد يدخل مجرم المعاصي فيما ذكر من الافتداء.

(لو يفتدي) أي: لو يتخلص وينجو.

(من عذاب يومئذ ببنيه. وصاحبته وأخيه) أي يتمنى الكافر لو يفدي نفسه من عذاب الله، بأعز من كان عليه في الدنيا من ابن وزوجة وأخ (وصاحبته) أي زوجته.

وخص الأبناء بالذكر دون البنات، لأنهم أغلى ما يملك، ويعدون للدفع والمنع في الدنيا غالبا.

قوله تعالى: {وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ} [المعارج: ١٣]، أي:"وعشيرته التي تضمه وينتمي إليها في القرابة".

وفي قوله تعالى: {وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ} [المعارج: ١٣]، قولان:

**أحدهما**: أنها أمه التي تربيه، قاله مالك.

قال معمر:"بلغني أن فصيلته أمه التي أرضعته".

**الثاني**: أن «الفصيلة»: قبيلته. قاله مجاهد،ومحمد بن كعب القرظي، ورواه معمر عن قتادة.

قال القرظي:"قبيلته التي يَنتسب إليها".

وقال ابن زيد:"عشيرته".

**قال الطبري**:"وهم عشيرته التي تؤويه، يعني: التي تضمه إلى رحله، وتنزل فيه امرأته، لقربة ما بينها وبينه".

**قال الزجاج**:"معناه: أدنى قبيلته منه".

=

=

قال مقاتل:"يعني: رهطه وفخذه الأدنى الذي يساوى إليهم".

وقال ثعلب: "آبائه الأدنين".

قال الراغب:"فَصِيلَةُ الرّجل: عشيرته الْمُنْفَصِلَةُ عنه".

**قال الزمخشري:**"{وَفَصِيلَتِهِ}: عشيرته الأدنون الذين فصل عنهم".

وقال أبو عبيدة: الفصيلة دون القبيلة، الشعوب أكثر من القبائل ثم الفصيلة، فخذه الّتى تؤويه".

**قال السعدي:**"{وَفَصِيلَتِهِ} أي: قرابته {الَّتِي تُؤْوِيهِ} أي: التي جرت عادتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضا، ففي يوم القيامة، لا ينفع أحد أحدا، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله".

قال الشوكاني: قال أبو عبيد: الفصيلة دون القبيلة ا.هـ وهم عشيرة الرجل والقرابة الأقربين. وبنحو هذا قال: الفراء، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، والطبري، والسمعاني، والزمخشري.

وروي عن مجاهد، وقتادة، وابن زيد: أن الفصيلة: القبيلة، وفي رواية أخرى أن الفصيلة: العشيرة.

قال ابن العربي: (الفصيلة في اللغة أقرب من القبيلة).

وقال ابن منظور: (قال أبو عبيد وغيره: عترة الرجل وأسرته وفصيلته: رهطه الأدنون).

إلا أنه يمكن إطلاق لفظ الفصيلة على القبيلة والعكس، ولعل هذا هو الذي أدى إلى تفسير بعض السلف الفصيلة بالقبيلة؛ جاء في أضواء البيان: (والشعوب جمع شعب، وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب؛ وهي الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة- إلى أن قال- واعلم أن العرب قد تطلق بعض هذه الست على بعض).

=

=

قوله تعالى: {وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ} [المعارج: ١٤]، أي:"وبجميع مَن في الأرض مِنَ البشر وغيرهم، ثم ينجو من عذاب الله".

**قال الطبري**: يقول:"وبمن في الأرض جميعا من الخلق، ثم ينجيه ذلك من عذاب الله إياه ذلك اليوم، وبدأ جلّ ثناؤه بذكر البنين، ثم الصاحبة، ثم الأخ، إعلاما منه عباده أن الكافر من عظيم ما ينزل به يومئذ من البلاء يفتدي نفسه، لو وجد إلى ذلك سبيل بأحب الناس إليه، كان في الدنيا، وأقربهم إليه نسبا".

عن قتادة، قوله: "{يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ}، الأحبّ فالأحبّ، والأقرب فالأقرب من أهله وعشيرته لشدائد ذلك اليوم".

أي ويجمع من في الأرض من البشر وغيرهم ثم ينجو من عذاب الله.

يعني تمنى لو كان هؤلاء جميعا تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه.

ففي يوم القيامة لا ينفع أحد أحدا، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

قوله تعالى: {كَلَّا} [المعارج: ١٥]، أي:"ليس الأمر كما تتمناه -أيها الكافر- من الافتداء".

قال مقاتل:"يقول الله- تعالى-: {كَلَّا}، لا ينجيه ذلك لو افتدى بهذا كله".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: كلا ليس ذلك كذلك، ليس ينجيه من عذاب الله شيء".

**قال الزجاج**:"{كَلَّا}: ردع وتنبيه، أي: لَا يَرجعُ أحدٌ من هؤلَاء فاعتبروا".

**قال السعدي**:"أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت عليهم كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء".

فـ(كلا) ردع للمجرم عن الودادة وتصريح بامتناع إنجاء الافتداء.

=

=

أي: لا يقبل فيه فداء ولو جاء بأهل الأرض وبأعز ما يجده من المال ولو بملء الأرض ذهبا، ولا قرابة تنفع، بل أمامه جهنم.

قوله تعالى: {إِنَّهَا لَظَى} [المعارج: ١٥]، أي:"إنها جهنم تتلظى نارها وتلتهب".

قال الفراء والطبري:"لظى: اسم من أسماء جهنم".

قال مقاتل:"يعني: بلظى استطالتها وقدرتها عليهم، يعني: النار".

عن الضحاك: {لَظَى} " اسم الدرك الثامن في جهنم".

(إنها لظى) تتلظى نيرانها وتلتهب، ولظى علم لجهنم، واشتقاقها من التلظي في النار، وهو التلهب.

ولظى: اسم من أسماء جهنم.

قوله تعالى: {نَزَّاعَةً لِلشَّوَى} [المعارج: ١٦]، أي:"تنزع بشدة حرها جلدة الرأس وسائر أطراف البدن".

وفي معنى قوله تعالى: {لِلشَّوَى} [المعارج: ١٦]، أقوال:

**أحدها**: أن «الشوى» الأطراف، وهي اليدان والرجلان، قاله مجاهد، أبو صالح، قال الشاعر:

**إِذَا نَظَرَتْ عَرفْتَ النَّحْرَ مِنْهَا... وعَيْنَيْهَا ولمْ تَعْرِفْ شَواهَا**

وقول الآخر:

**سليم الشظى عَبْلِ الشَّوَى شَنِجِ النَّسا... لَه حَجَبَاتٌ مُشرِفاتٌ على الفالي**

قال الواحدي:"أكثر المفسرين على أنها: الأطراف".

**الثاني**: أنها اليدان والرجلان والرأس من الآدميين. وهذا قول أبي عبيدة، والفراء، والطبري، والزجاج. ومنه قول الشاعر:

=

=

**قالتْ قُتَيْلَةُ ما لَه... قدجُلِّلَتْ شَيْبًا شَواتُه**

**قال الطبري:**"إنها تنزع جلدة الرأس وأطراف البدن، والشَّوَى: جمع شواة، وهي من جوارح الإنسان ما لم يكن مقتلا يقال: رمى فأشوى إذا لم يصب مَقْتلا".

قال أبو عبيدة: وسمعت رجلا من أهل المدينة يقول: اقشعرّت شواتى، وشوى الفرس قوائمه، يقال عبل الشّوى ولا يكون هذا للرأس لأنهم وصفوا الخيل بأسالة الخدّين وعتق الوجه ورقّته".

قال القشيري:"قلّاعة للأطراف. تكشط الجلد عن الوجه وعن العظم".

قال الفخر الرازي:"ويقال للرامي: إذا لم يصب المقتل أشوى، أي: أصاب الشوى".

قال السمعاني:"الأكثرون أن «الشوى»: هو الأطراف مثل اليدين والرجلين وغير ذلك".

**قال السعدي:**"أي: للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها".

**الثالث:** أنه جمع شواة، وهي جلدة الرأس. وهذا قول مجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، وابن قتيبة، ودليل هذا التفسير قول كثير عزّة:

**لأصبحت هدتك الحوادث هذه... لها فشواة الرأس باد قتيرها**

قال سعيد بن جبير:"فروة الرأس".

قال ابن عباس:"تنزع الرأس".

عن ابن عباس: "{نزاعَةً لِلشَّوَى}، قال: تنزع أمّ الرأس".

**الرابع:** أنه العصب والعقب، قاله سعيد بن جبير-أيضا-.

**الخامس:** نزاعة للحم الساقين. وهذا قول أبي صالح.

**السادس:** أنه محاسن وجه بني آدم، قاله الحسن، وقتادة، وأبو العالية، وثابت البناني.

=

=
قال قتادة:"لهامته ومكارم وجهه".
وقال الحسن:"نزاعة لهامته ومكارم خَلْقِهِ وأطرافه".
السابع: للهام تحرق كلّ شيء منه، ويبقى فؤاده نضيجا. قاله الحسن.
الثامن: أنه اللحم والجلد الذي على العظم، لأن النار تشويه، قاله الضحاك.
قال الضحاك:"تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئا".
وعن الحسن، قال {نَزَّاعَةً لِلشَّوَى}، قال: للهام، قال: «تأكله النار، حتى لا تبقي منه شيئا غير فؤاده نضيج»".
وقال قرة بن خالد:"نزاعة للهام تحرق كل شيء منه ويبقى فؤاده نضجا".
وقال ابن زيد:"الشوى: الآراب العظام، ذاك الشوى".
وروي عن عباس، قوله: "{نزاعَةً لِلشَّوَى}، يعني: الجلود والهام".
قوله تعالى: {تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى} [المعارج: ١٧]، أي:"تنادي مَن أعرض عن الحق في الدنيا، وترك طاعة الله ورسوله".
قال مجاهد:"أدبر عن الطاعة وتولى عن الحق".
وقال قتادة:"أدبر عن أمر الله وتولى عن كتاب الله".
**قال الزجاج:**"تدعو الكافر باسمه والمنافق باسمه".
أي تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة، وهم من أدبر عن طاعة الله وأعرض وتولى عن الإيمان عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.
قال تعالى (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) وقال تعالى (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور).
- **قال ابن عاشور**: والإدبار: ترك شيء في جهة الوراء لأن الدبر هو الظهر، فأدبر: جعل شيئا وراءه بأن لا يعرج عليه أصلا أو بأن يقبل عليه ثم يفارقه، والتولي:
=

=

الإدبار عن شيء والبعد عنه

وهذا القول هو الصحيح أن الذي تدعو هي النار.

- قال الحسن البصري: يا ابن آدم سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا، فالنار تدعو هؤلاء إلى نفسها".

وقيل: إن معنى (تدعو) تهلك، تقول العرب: دعاك الله؛ أي أهلكك الله.

وقيل: الداعي خزنة جهنم؛ أضيف دعاؤهم إليها.

وقيل: هو ضرب مثل؛ أي إن مصير من أدبر وتولى إليها؛ فكأنها الداعية لهم.

قوله تعالى: {وَجَمَعَ فَأَوْعَى} [المعارج: ١٨]، أي:"وجمع المال، فوضعه في خزائنه، ولم يؤدِّ حق الله فيه".

**قال الطبري**:"وجمع مالا فجعله في وعاء، ومنع حق الله منه، فلم يزك ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه".

قال الماوردي:"يعني الذي أدبر وتولى جمع المال فأوعى، بأن جعله في وعاء حفظا له ومنعا لحق الله منه".

عن مجاهد:"{وجَمَعَ فَأَوْعى}، قال: جمع المال".

قال قتادة:"كان جموعا قموما للخبيث".

قال قتادة: "فكان جموعا منوعا".

عن الحكم -رَحِمَهُ اللَّهُ- قال: "كان عبد الله بن حكيم لا يربط كيسه، قال: سمعت الله يقول: {وَجَمَعَ فَأَوْعَى}".

أي جمع المال بعضه على بعض فأوعاه وجعله في أوعية وصناديق فلم ينفق منه ما ينفعه ويدفع عنه النار.

- فجمع بين الإدبار والتكذيب بقلبه، والتولي عن العمل بجوارحه والانكباب على الدنيا وجعلها أكبر همه.

=

=

- **قال القرطبي**: أي جمع المال فجعله في وعائه ومنع منه حق الله تعالى؛ فكان جموعا منوعا.

- وعن قتادة (جمع فأوعى) كان جموعا للخبيث، وهذا تفسير حسن، أي بأن يقدر ل (جمع) مفعول يدل عليه السياق، أي وزاد على إدباره وتوليه أنه جمع الخبائث، وعليه يكون (فأوعى) مستعارا لملازمته ما فيه من خصال الخبائث واستمراره عليها فكأنها مختزنة لا يفرط فيها. [قاله ابن عاشور].

- **قال ابن عاشور**: والوعاء: الظرف، أي جمع المال فكنزه ولم ينفع به المحاويج، ومنه جاء فعل {أوعى} إذا شح.

وفي الحديث (ولا توعي فيوعى عليك) وفي قوله (جمع) إشارة إلى الحرص، وفي قوله (فأوعى) إشارة إلى طول الأمل.

- والمال وكثرته سبب للطغيان والافتتان:

قال تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى. أن رأيه استغنى).

وقال تعالى (أن كان ذا مال وبنين. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين).

وقال تعالى (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا).

وقد قال ﷺ (لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال) رواه الترمذي.

والمال يكون مذموما: إذا كان من حرام أو شبهات، أو كان من حلال وأشغل عن طاعة الله ومرضاته.

ولذلك سليمان عليه الصلاة والسلام لما أعطاه الملك والغنى قال (قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم).

قال الحكم: كان عبد الله بن عكيم لا يربط كيسه ويقول سمعت الله يقول: وجمع

=

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩).

{إنَّ الْإِنْسَان خُلِقَ هَلُوعًا} حَال مُقَدَّره وَتَفْسِيره.

إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠).

{إذَا مَسَّهُ الشَّرّ جَزُوعًا} وَقْت مَسّ الشَّرّ.

وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١).

{وإذا مسه الخير منوعا} وقت مس الْخَيْر أَيْ الْمَال لِحَقِّ الله مِنْهُ.

إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢).

{إلَّا الْمُصَلِّينَ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ.

الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣).

{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتهمْ دَائِمُونَ} مُوَاظِبُونَ.

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤).

{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالهمْ حَقّ مَعْلُوم} هُوَ الزَّكَاة.

لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥).

{لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوم} الْمُتَعَفِّف عَنْ السُّؤَال فَيُحْرَم.

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦).

{وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّين} الْجَزَاء.

وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧).

{وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَاب رَبّهمْ مُشْفِقُونَ} خَائِفُونَ.

إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨).

=

فأوعى.

{إن عذاب ربهم غير مأمون} نزوله.

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩).

{والذين هم لفروجهم حافظون}.

إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠).

{إِلَّا عَلَى أَزْوَاجهمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانهمْ} من الإماء {فإنهم غير ملومين}.

فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١).

{فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ} الْمُتَجَاوِزُونَ الْحَلَال إِلَى الْحَرَام.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢).

{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتهمْ} وَفِي قِرَاءَة بِالْإِفْرَادِ مَا ائْتَمَنُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْر الدِّين وَالدُّنْيَا {وَعَهْدهمْ} الْمَأْخُوذ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ {رَاعُونَ} حَافِظُونَ.

وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣).

{والذين هم بشهادتهم} وَفِي قِرَاءَة بِالْجَمْعِ {قَائِمُونَ} يُقِيمُونَهَا وَلَا يَكْتُمُونَهَا.

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤).

{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتهمْ يُحَافِظُونَ} بِأَدَائِهَا فِي أوقاتها.

أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥).

{أولئك في جنات مكرمون}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن الحسن بن محمد: أن قومًا في زمان النبي ﷺ أصابوا غنيمة، فجاء قوم لم =

=

يـشهدوا الغنـائم؛ فنزلـت: {وَالَّـذِينَ فِي أَمْـوَالِهِمْ حَـقٌّ مَعْلُـومٌ (٢٤) لِلـسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٥٢) من طرق عن سفيان الثوري عن قيس بن مسلم عن الحسن به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

* قوله تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} [المعارج: ١٩]، أي:"إن الإنسان جُبِلَ على الجزع وشدة الحرص".

قال مقاتل:"فهو أمية بن خلف الجمحي".

**قال الزمخشري:**"الخير: المال والغنى، والشرّ: الفقر. أو الصحة والمرض: إذا صحّ الغنى منع المعروف وشحّ بماله، وإذا مرض جزع وأخذ يوصى".

**قال السعدي:**"وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع".

وفي معنى: «الهَلوع»، أقوال:

**أحدها:** أنه الموصوف بما يلي هذه الآية، رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وأبو عبيدة، والزجاج.

قال ابن عباس:"هو الذي قال الله: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}".

عن حميد الطويل، قال: سألت الحسن، عن قوله ﷻ: {خُلِقَ هَلُوعًا} [المعارج: ١٩]، قال: «اقرأ ما بعدها» فقرأت: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج: ٢١]، قال: "هذا الهلوع: هكذا خلق الإنسان".

قال أبو عبيدة:"قد فسّرها الله: لا يصبر: {إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}، و «الهلاع»: مصدره وهو أسوأ الجزع".

**قال الزجاج:**"الهلوع: على ما في الآية من التفسير يفزع وَيجْزَعُ مِنَ الشَّر".

=

=

قال النحاس:"الهلوع -فيما حكاه أهل اللغة-: الذي يستعمل في حال الفقر ما لا ينبغي أن يستعمله من الجزع وقلة التأسّي وفي الغنى ما لا ينبغي أن يستعمله من منع الحقّ الواجب وقلة الشكر. وقد بين هذا بقوله: {إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}".

**الثاني**: أنه الحريص على ما لا يحلُّ له، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال حصين.

عن يحيى، قال خالد:"وسألت شعبة عن قوله: {إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا}، فحدثني شعبة عن حصين أنه قال: الهلوع: الحريص".

**الثالث**: البخيل، قاله الحسن، والضحاك.

قال الضحاك:"هو بخيل منوع للخير، جَزُوع إذا نزل به البلاء، فهذا الهلوع".

**الرابع**: الشحيح، قاله ابن جبير.

قال سعيد بن جبير:"شحيحا جَزُوعا".

**الخامس**: الشَّرِه، حكاه الثعلبي عن مجاهد.

**السادس**: الضَّجُور، قاله عكرمة، وقتادة، ومقاتل، والفراء.

**قال الفراء**:"الهلوع: الضجور، وصفته كما قال الله: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)} [المعارج: ٢٠- ٢١]، فهذه صفة الهلوع".

قال أبو أحمد السامري:"يعني: ضَجورا بلغة خثعم".

السابع: يعني: متقلبا في حركات الشهوات واتباع الهوى. قاله سهل التستري.

الثامن: أنه الجزوع. قاله قتادة، وابن زيد.

وحكي الماوردي عن مجاهد قال:"أنه الشديد الجزع".

قال ابن قتيبة:"«الْهَلُوعُ»: الشديد الجزَعِ. والاسم: "الهُلاع". ومنه يقال: ناقة هِلْوَاعٌ؛ إذا كانت ذكيَّةً حديدةَ النفَس".

=

=

قال الخطيب الإسكافي:"الهلع- في كلام العرب- أصله: القلق والتسرع في الحرص والجزع، يقال: ناقة هلواع: أي مسرعة، وظلمان هو الهلع: أي: مسرعات".

قال الثعلبي:"تقول العرب: ناقة هلواع إذا كانت سريعة السير خفيفة. قال الشاعر:

**صكاء علبة إذا استدبرتها... حرج إذا استقبلتها هلواع".**

قال تاج القراء:"أصل الكلمة من السرعة، تقول: نعامة هالعة، أي مسرعة، وناقة هلواع كذلك. والجمهور على أن معنى الهلوع ما فسره الله بقوله: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}".

قال ابن الطبري:"الهلع: شدّة الجَزَع مع شدّة الحرص والضجر".

وقال ابن عطاء: "الهلوع: الذي يرضى عند الموجود ويسخط عند المفقود".

وقال أبو الحسن الوراق: "نسّاء عند النعمة دعّاء عند المحنة".

قال النبيّ ﷺ: «شرّ ما أعطى العبد شح هالع وجبن خالع».

يقول تعالى مخبرا عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة (إن الإنسان خلق هلوعا) أي أن الإنسان جبل على الضجر، ولا يصبر على بلاء، ولا يشكر على نعماء.

قوله (هلوعا) صيغة مبالغة من الهلع، وهو إفراط النفس، وخروجها عن التوسط والاعتدال، عند ما ينزل بها ما يضرها، أو عند ما تنال ما يسرها.

قال أبو عبيدة: الهلوع هو الذي إذا مسه الخير لم يشكر، وإذا مسه الشر لم يصبر.

فالمراد بالإنسان: جنس الإنسان لا فرد معين كقوله تعالى (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) وقوله (خلق الإنسان من عجل)، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن.

- قال الآلوسي: قوله (إن الإنسان خلق هلوعا) الهلع: سرعة الجزع عند مس

=

=

المكروه، وسرعة المنع عند مس الخير، من قولهم: ناقة هلوع، أي: سريعة السير.

- وقد اختلف في المراد بالإنسان، قيل: المراد بالإنسان الكافر، وقيل: عموم الإنسان وهذا هو الصحيح بدليل الاستثناء.

قوله تعالى: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا} [المعارج: ٢٠]، أي:"إذا أصابه المكروه والعسر فهو كثير الجزع والأسى".

**قال الطبري:**"يقول: إذا قلّ ماله وناله الفقر والعدم فهو جزوع من ذلك، لا صبر له عليه".

**قال السعدي:**"فيجزع إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهاب محبوب له، من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله".

أي إذا مسه الضر (مرض أو فقر أو موت محبوب أو هلاك مال) فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير، ولا يستعمل ذلك الصبر والرضى بما قضى الله، بل ربما حمله ذلك على فعل ما لا تحمد عقباه من لطم الخدود وشق الجيوب.

قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج: ٢١]، أي:"وإذا أصابه الخير واليسر فهو كثير المنع والإمساك".

**قال الطبري:**"يقول: وإذا كثر ماله، ونال الغنى فهو منوع لما في يده، بخيل به، لا ينفقه في طاعة الله، ولا يؤدّي حق الله منه".

**قال السعدي:**"فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء".

أي: إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها عن غيره، ومنع حق الله تعالى فيها.

كما قال تعالى (قل لو أنتم تملكون خزآئن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق

=

=

وكان الإنسان قتورا).

وقال تعالى عن قارون أنه قال (قال إنما أوتيته على علم عندي).

وحديث الأعمى والأقرع والأبرص حينما ابتلاهم الله وأرسلهم الملك ليختبرهم وأعطاهم ما يتمنون، فالأبرص قال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر، وكذلك قال الأقرع.

-جاء في (التفسير الوسيط) التعبير بقوله: خلق هلوعا يشير إلى أن جنس الإنسان- إلا من عصم الله- مفطور ومطبوع، على أنه إذا أصابه الشر جزع، وإذا مسه الخير بخل.. وأن هاتين الصفتين ليستا من الصفات التي يحبها الله- تعالى- بدليل أنه- سبحانه- قد استثنى المصلين وغيرهم من التلبس بهاتين الصفتين.

وبدليل أن من صفات المؤمن الصادق أن يكون شكورا عند الرخاء صبورا عند الضراء.

وفي الحديث (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له).

قوله تعالى: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} [المعارج: ٢٢]، أي:"إلا المقيمين للصلاة".

**قال الطبري**:"يقول: إلا الذين يطيعون الله بأداء ما افترض عليهم من الصلاة، فإن أولئك غير داخلين في عداد من خلق هلوعا، وهو مع ذلك بربه كافر لا يصلي لله، وقيل: عُني بقوله: {إِلا الْمُصَلِّينَ}، المؤمنون الذين كانوا مع رسول الله ﷺ؛ وقيل: عُنِي به كلّ من صلى الخمس".

**قال السعدي**:"فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا".

أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم، إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه وهم المصلون، لأنهم بتوفيق الله لهم يصبرون عند

=

=

الضراء ويشكرون عند السراء، لأنهم يأوون إلى ركن شديد وحصن منيع وهو إيمانهم بالله ﷻ وتوكلهم عليه، ومن توكل على الله كفاه.

قوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} [المعارج: ٢٣]، أي:"الذين يحافظون على أداء صلاتهم في جميع الأوقات، ولا يَشْغَلهم عنها شاغل".

**قال الطبري**: يقول: "وهم على أداء صلاتهم مقيمون لا يضيعون منها شيئا".

**قال السعدي**:"أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها، وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتا دون وقت، أو يفعلها على وجه ناقص".

عن إبراهيم: "{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ}، قال: المكتوبة". وفي رواية:"الصلوات الخمس".

وقال ابن زيد:"هؤلاء المؤمنون الذين مع النبيّ ﷺ على صلاتهم دائمون".

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: حدثتني عائشة -زوج النبيّ ﷺ- أن رسول الله ﷺ قال: "خُذُوا مِنَ العَمَلِ ما تُطِيقُونَ، فإنَّ الله لا يَمَلُّ حَتى تَمَلُّوا" قالت: وكان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ ما دُووم عليه. قال: يقول أبو سلمة: إن الله يقول: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ}".

وعن عقبة بن عامر الجُهَنّي، في قوله: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ}، قال:"هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا خَلْفَهم، ولا عن أيمانهم، ولا عن شمائلهم".

أي: إن الناس جميعا قد جبلوا على الجزع عند الضراء، وعلى المنع عند السراء.. إلا المصلين منهم، الذين يواظبون على أدائها مواظبة تامة، دون أن يشغلهم عن أدائها: عسر أو يسر، أو غنى أو فقر، أو إقامة أو سفر.

فهم ممن قال تعالى في شأنهم (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار).

وقال تعالى (على صلاتهم دائمون) للإشارة إلى أنهم لا يشغلهم عنها شاغل، إذ

=

=

الدوام على الشيء عدم تركه.

- قال في التسهيل: الدوام عليها هو المواظبة بطول العمر.

- **قال ابن عاشور**: والدوام على الشيء: عدم تركه، وذلك في كل عمل بحسب ما يعتبر دواما فيه.

وقيل: المراد بالدوام هنا السكون والخشوع، كقوله تعالى: (قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون) ومنه الداء الدائم وهو الساكن الراكد، ولا مانع من القولين.

- فهذه الصلاة هي التي تنفع صاحبها فتنهاه عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) فلا يجزع صاحبها عند المصيبة ولا يمنع ما آتاه الله من خير.

وقيل: المراد بذلك الذين إذا عملوا عملا داوموا عليه وأثبتوه كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل).

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)} [المعارج: ٢٤- ٢٥].

اختلف أهل العلم في المعنيّ بـ «حَقٌّ مَعْلُومٌ» الذي ذكره الله في هذا الموضع، على قولين:

**أحدهما**: أن «الحقّ المعلوم»: الزكاة المفروضة. قاله قتادة، وابن سيرين،وابن أبي مريم.

**الثاني**: أنه سوى الصدقة يصل بها رحمه، أو يقري بها ضيفا، أو يحمل بها كلا أو يُعِين بها محرومًا. وهذا قول ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد.

وروي عن قزعة:"أن ابن عمر سُئل عن قوله: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}، أهي الزكاة؟ فقال: إن عليك حقوقا سوى ذلك".

=

=

قال الشعبي وإبراهيم:"إن في المال حقا سوى الزكاة".
عن مجاهد: "{فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ}، قال: سوى الزكاة، وأجمعوا على أن السائل هو الذي وصفت صفته".
واختلفوا أيضا في معنى «المحروم» في هذا الموضع، على أقوال:
**أحدها**: أنه الْمُحَارِفُ الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه، وهذا قول عائشة، وابن عباس-في رواية، ومجاهد، والضحاك، وسعيد بن المسيب، ونافع، وعطاء، وإبراهيم، وبه قال ابن قتيبة.
قال ابن عباس:"المحروم: هو المحارف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه، فلا يسأل الناس".
قال مجاهد:"المحروم: الذي لا يُهدى له شيء وهو محارف".
قال إبراهيم:"المحروم: هو المحارف الذي ليس له أحد يعطف عليه، أو يعطيه شيئا".
قال إبراهيم:"المحروم: الذي لا فيء له في الإسلام، وهو محارف في الناس".
وقال عطاء:"هو المحدود المحارف".
قال النحاس:"صح عن ابن عباس قال: «المحروم المحارف»".
قال الضحاك:"هو الرجل المحارف الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك".
عن مجاهد ، وعطاء ، قالا: "المحروم: المحارف في الرزق، وفي التجارة".
**قال الفراء**:"فأمَّا السائل: فالطوّاف عَلَى الأبواب، وأمَّا المحروم: فالمحارَفُ".
قال ابن قتيبة:"{وَالْمَحْرُومِ} المُحارَف؛ وهو: المقَتَّر عليه في الرزق.
**الثاني**: أنه المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئًا ولا يعلم بحاجته، قاله قتادة، وابن شهاب الزهري.

=

=

عن قتادة، قوله: "{وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}، هذان فقيرا أهل الإسلام، سائل يسأل في كفّه، وفقير معتفِّف، ولكليهما عليك حقّ يا ابن آدم".
قال قتادة:"السائل الذي يسأل بكفه، والمحروم: المتعفف، ولكليهما عليك حق يا ابن آدم".
قال الزهري:"السائل: الذي يسأل، والمحروم: المتعفف الذي لا يسأل".
عن الزهري:"أن النبي ﷺ قال: "ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان والأكلة والأكلتان، قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد غنى، ولا يعلم بحاجته فيتصدق عليه فذلك المحروم".
عن محمد بن كعب القرظي: "المحروم صاحب الحاجة، ثم قرأ: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} [الواقعة: ٦٧]". قال الثعلبي:"ونظيره في قصة ضروان {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}".
قال النحاس:"حدثنا الزهري محمد بن مسلم، أنّه قال: المحروم: الذي لا يسأل، وأكثر الصحابة على أنه: المحارف. وليس هذا بمتناقض، لأن «المحروم» -في اللغة-: الممنوع من الشيء، فهو مشتمل على كل ما قيل فيه".
**الثالث**: أنه الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم، قاله محمد بن الحنفية.
عن إبراهيم:"عن الحكم، عن إبراهيم أن ناسا قَدِموا على عليّ رضي الله عنه الكوفة بعد وقعة الجمل، فقال: اقسموا لهم، وقال: هذا المحروم".
قال إبراهيم: "المحروم: الذي لا فيء له في الإسلام، وهو محارف من الناس".
وفي رواية:"المحروم: المحارف الذي ليس له في الغنيمة شيء".
عبن محمد بن الحنفية:"أن النبيّ ﷺ بعث سرية، فغنموا، وفتح عليهم، فجاء قوم لم يشهدوا، فنزلت: {فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}، يعني: هؤلاء".

=

=

**الرابع**: أنه من ليس له سهم في الإسلام، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"المحروم: الذي لا سهم له في الإسلام، وهو محارف من الناس".

قال ابن عباس:"المحارف الذي ليس له في الإسلام نصيب". وفي رواية:"المحروم المحارَف الذي ليس له في الإسلام سهم".

قال مقاتل:"{لِلسَّائِلِ}، يعني: المسكين، {وَالْمَحْرُومِ}: الفقير الذي لا سهم له، ولم يجعل الله للفقراء سهما في الفيء ولا في الخمس، فمن سمى الفقير: المحروم، لأن الله حرمهم نصيبهم، فلما نزلت براءة بدأ الله بهم فقال- تعالى- {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ..} فبدأ بهم، فنسخت هذه الآية الْمَحْرُوم".

قال هبة الله:"قوله تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [الذاريات: ١٩]، نسخ ذلك بآية الزكاة".

**الخامس**: أنه الذي لا ينمى له مال. قاله عكرمة.

عن حصين، قال: "سألت عكرِمة، عن السائل والمحروم؟ قال: السائل: الذي يسألك، والمحروم: الذي لا ينمى له مال".

**قال الزجاج**:"والأكثر في اللغة: لا ينمى له مال".

**السادس**: أنه المصاب بثمره وزرعه يعينه من لم يصب، قاله زيد بن أسلم، وابنه.

قال ابن زيد:"المحروم: المصاب ثمره وزرعه، وقرأ: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ}، حتى بلغ: {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}، وقال أصحاب الجنة: {إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُون}".

عن عبد الله بن عياش، قال: "قال زيد بن أسلم في قول الله: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} قال ليس ذلك بالزكاة، ولكن ذلك مما ينفقون من أموالهم بعد إخراج الزكاة، والمحروم: الذي يُصاب زرعه أو ثمره أو نسل ماشيته،

=

=

فيكون له حقّ على من لم يصبه ذلك من المسلمين، كما قال لأصحاب الجنة حين أهلك جنتهم

قالوا {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} وقال أيضًا: {لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}".

عن أبي قلابة، قال: جاء سيل باليمامة، فذهب بمال رجل، فقال رجل من أصحاب النبيّ ﷺ: هذا المحروم".

وفي رواية عن أبي قلابة، قال: "كان رجل من أهل اليمامة له مال، فجاء سيل فذهب بماله، فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: هذا المحروم، فاقسموا له".

السابع: أنه المملوك، قاله عبد الرحمن بن حميد.

الثامن: إن المحروم من حرم وصيته. رواه أنس مرفوعا، ولا يصح.

التاسع: أنه الكلب، قال محمد بن إسحاق: "حدثني بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز في طريق مكة فجاء كلب فانتزع عمر كتف شاة فرمى بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم".

قال الجصاص:"من تأوله على الكلب فإنه لا يجوز أن يكون المراد عنده بحق معلوم الزكاة لأن إطعام الكلب لا يجزي من الزكاة فينبغي أن يكون المراد عنده حقا غير الزكاة فيكون في إطعام الكلب قربة كما روي عن النبي ﷺ: «إن في كل ذي كبد حرى أجرا وإن رجلا سقى كلبا فغفر الله له»، والأظهر في قوله حق معلوم أنه الزكاة لأن الزكاة واجبة لا محالة وهي حق معلوم فوجب أن يكون مرادا بالآية إذ جائز أن ينطوي تحتها ويكون اللفظ عبارة عنها ثم جائز أن يكون جميع ما تأول السلف عليه المحروم مرادا بالآية في جواز إعطائه الزكاة وهو يدل على أن الزكاة إذا وضعت في صنف واحد أجزأ لأنه اقتصر على السائل والمحروم دون الأصناف المذكورة في آية الصدقات وفرق الله تعالى في الآية بين

=

=

السائل والمحروم لأن الفقير قد يحرم نفسه بتركه المسألة وقد يحرمه الناس بترك إعطائه فإذا لم يسئل فقد حرم نفسه بترك المسألة فسمي محروما من هذا الوجه لأنه يصير محروما من وجهين من قبل نفسه ومن قبل الناس".

التاسع: أنه من وجبت نفقته من ذوي الأنساب لأنه قد حرم كسب نفسه، حتى وجبت نفقته في مال غيره. أفاده الماوردي.

**قال الطبري:**"والصواب من القول في ذلك عندي أنه الذي قد حُرم الرزق واحتاج، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره، فصار ممن حرمه الله ذلك، وقد يكون بسبب تعففه وتركه المسألة، ويكون بأنه لا سهم له في الغنيمة لغيبته عن الوقعة، فلا قول في ذلك أولى بالصواب من أن تعمّ، كما قال جلّ ثناؤه: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}".

قال النحاس:"وإنما وقع الاختلاف في هذا لأنها صفة أقيمت مقام الموصوف، و «المحروم»: هو الذي قد حرم الرزق واحتاج. فهذه الأقوال كلها داخلة في هذا غير أنه ليس فيها أجل مما روي عن ابن عباس ولا أجمع أنه: «المحارف»".

قال الشعبي: "أعناني أن أعلم ما {الْمَحْرُومِ}، لقد سألت عن المحروم منذ سبعين سنة، فما أنا اليوم بأعلم مني من يومئذ".

قال الحسن البصري: "أدركت أقوامًا إن كان الرجل ليعزم على أهله أن لا يردوا سائلًا، ولقد أدركت أقوامًا إن كان الرجل ليخلف أخاه في أهله أربعين عامًا، وإن أهل البيت يبتلون بالسائل، ما هو من الجن ولا من الإنس، وإن الذين كانوا من قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغًا، ويبتاعون بالفضل أنفسهم. رحم الله امرأ جعل العيش عيشًا واحدًا، فأكل كسرة وليس خلقًا، ولزق بالأرض، واجتهد في العبادة، وبكى على الخطيئة، وهرب من العقوبة، وابتغى الرحمة، حتى يأتي عليه أجله وهو كذلك".

=

=

قال ابن عاشور: وتسمية ما يعطونه من أموالهم من الصدقات باسم (حق) للإشارة إلى أنهم جعلوا السائل والمحروم كالشركاء لهم في أموالهم من فرط رغبتهم في مواساة إخوانهم إذ لم تكن الصدقة يومئذ واجبة ولم تكن الزكاة قد فرضت.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ} [المعارج: ٢٦]، أي:"والذين يؤمنون بيوم الحساب والجزاء فيستعدون له بالأعمال الصالحة".

**قال الطبري**:"يقول: وإلا الذين يقرّون بالبعث يوم البعث والمجازاة".

**قال ابن كثير**:"أي: يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب".

**قال السعدي**:"أي: يؤمنون بما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك فيستعدون للآخرة، ويسعون لها سعيها. والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسل، وبما جاءوا به من الكتب".

عن قتادة: {يَوْمِ الدِّينِ}، قال: "يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم".

وقال مجاهد: "يوم الحساب".

أي: يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب.

ويوم الدين هو يوم الجزاء كما قال تعالى (مالك يوم الدين) وقال تعالى (يصلونها يوم الدين... وما أدراك ما يوم الدين...) وقال تعالى (وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين).

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ} [المعارج: ٢٧]، أي:"والذين هم خائفون من عذاب الله".

**قال الطبري**:"يقول: والذين هم في الدنيا من عذاب ربهم وجلون أن يعذبهم في

=

=

الآخرة، فهم من خشية ذلك لا يضيعون له فرضا، ولا يتعدّون له حدّا".

**قال ابن كثير**:"أي: خائفون وجلون".

**قال السعدي**:"أي: خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل ما يقربهم من عذاب الله".

أي: أن من صفاتهم: أنهم مع قوة إيمانهم، وكثرة أعمالهم الصالحة، لا يجزمون بنجاتهم من عذاب الله- تعالى- وإنما دائما أحوالهم مبنية على الخوف والرجاء، إذ الإشفاق توقع حصول المكروه وأخذ الحذر منه.

- وهكذا المؤمن يعمل ويخاف.

قال تعالى (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين).

وقال تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) قالت عائشة: يا رسول الله! أهم الذين يربون الخمر يزنون ويسرقون؟ قال: لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات) رواه الترمذي.

-قال ابن القيم: والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن. قال تعالى (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب).

ثم قال: ومن تأمل أحوال الصحابة وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير- بل التفريط- والأمن، فهذا الصديق يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن.

وذكر عنه أنه كان يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

وكان يبكي كثيرا ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا.

=

=

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله ﷻ.
وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى بلغ (إن عذاب ربك لواقع) بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه.
وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء.
وهذا عثمان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته.
وهذا علي اشتد بكاؤه وخوفه من اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى.
وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.
وكان أبو ذر يقول: يا ليتني كنت شجرة تعضد وددت أني لم أخلق.
وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من اصحاب النبي ﷺ كلهم خاف على نفسه النفاق ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل.
وقال الحسن: ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق.
وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبا.
قوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} [المعارج: ٢٨]، أي:"إن عذاب ربهم لا ينبغي أن يأمنه أحد".
**قال ابن كثير**:"أي: لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى".
**قال السعدي**:"أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر".
**قال الطبري**:"أن ينال من عصاه وخالف أمره".
قال ابن عباس: "لمن أشرك أو كذب أنبياءه".
(إن عذاب ربهم غير مأمون) أي لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى.
وجملة (إن عذاب ربهم غير مأمون) تعليلية، ومقررة لمضمون ما قبلها، أي: إنهم

=

=

مشفقون من عذاب ربهم.. لأن العاقل لا يأمن عذابه ﷻ مهما أتى من طاعات، وقدم من أعمال صالحة.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} [المعارج: ٢٩]، أي:"والذين هم حافظون لفروجهم عن كل ما حرَّم الله عليهم".

قال يحيى:"من الزنا".

**قال الزجاج:**"أي: حافظون فروجهم عن المعاصي".

**قال ابن كثير:**"أي: يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله".

**قال الطبري:**"يعني: أقبالهم حافظون عن كلّ ما حرم الله عليهم وضعها فيه".

**قال السعدي:**"فلا يطأون بها وطأ محرما، من زنى أو لواط، أو وطء في دبر، أو حيض، ونحو ذلك، ويحفظونها أيضا من النظر إليها ومسها، ممن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضا وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة"

(والذين هم لفروجهم حافظون) أي يكفونها عن الحرام، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، كالزنا، واللواط، أو إتيان الزوجات في الدبر، أو أثناء الحيض.

وحفظ الفرج يكون بأمرين:

الأول: يمنعه من الزنا.

كما قال تعالى: (والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين).

**ثانيا:** وتارة بحفظه من الانكشاف أمام الناس.

كما قال ﷺ: (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك).

ومن حفظ الفرج فعل الاسباب التي تؤدي إلى حفظه والابتعاد عن الأسباب التي تؤدي إلى عدم حفظه، وأهمها: النظر المحرم كما قال تعالى (للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون)

=

=

قدم غض البصر على حفظ الفرج، لأن غض البصر وسيلة إلى حفظ الفرج، وإطلاق البصر سبب لعدم حفظ الفرج.

- قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مبينا فوائد غض البصر:

تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظره دامت حسرته فأضر شيء على القلب إرسال البصر

**كل الحوادث مبداها من النظر... ومعظم النار من مستصغر الشرر**

أنه يورث القلب نورا وإشراقا يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه، ولهذا والله أعلم ذكر الله سبحانه آية النور في قوله تعالى: (الله نور السموات والأرض) عقيب قوله (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم).

أنه يورث صحة الفراسة فإنها من النور وثمراته، وإذا استنار القلب صحت الفراسة لأنه يصير بمنزلة المرآة المجلوة تظهر فيها المعلومات كما هي.

أنه يفتح طرق العلم وأبوابه، ويسهل عليه أسبابه، وذلك بسبب نور القلب.

أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة.

وفي الأثر: (إن الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله)، ولهذا يوجد في المتبع لهواه من ذل القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله لمن آثر هواه على هواه.

أنه يورث القلب سرورا وفرحة وانشراحا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوه بمخالفته، ومخالفة نفسه وهواه.

أنه يخلص القلب من أسر الشهوة، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه، فهو كما قيل: (طليق برأي العين وهو أسير).

=

=

أنه يسد عنه بابا من أبواب جهنم، فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل، وتحريم الرب تعالى وشرعه حجاب مانع من الوصول.

أن يقوي عقله ويزيده ويثبته، فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفت العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب.

أنه يخلص القلب من سكر الشهوة ورقدة الغفلة، فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق، كما قال الله تعالى عن عشاق الصور: (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون).

قوله تعالى: {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} [المعارج: ٣٠]، أي:"إلا على أزواجهم وإمائهم".

قال ابن عباس:"يقول: رضي الله لهم إتيانهم أزواجهم، وما ملكت أيمانهم".

**قال ابن كثير**: أي:"ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السراري".

**قال الزجاج**:"فإنهم لا يلامون على ما أحل لهم من تزوج أربع، ومن ملك اليمين، والمعنى أنهم يلامون على ما سوى أزواجهم وملك أيمانهم".

قال يحيى:"إن شاء تزوج واحدة، وإن شاء تزوج اثنتين، وإن شاء ثلاثا، وإن شاء أربعا، لا يحل له ما فوق ذلك، يطأ بملك يمينه كم شاء".

قوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} [المعارج: ٣٠]، أي:"فإنهم غير مؤاخذين".

قال يحيى:"في أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، لا لوم عليهم في ذلك، أي لا إثم عليهم".

**قال السعدي**:"في وطئهن في المحل الذي هو محل الحرث".

**قال الطبري**:"أنهم غير ملومين في ترك حفظها {عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} من إمائهم".

=

=

**قال ابن كثير**:"ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج".

قال مجاهد: "يحفظ فرجه إلا من امرأته أو أمته، فإنه لا يلام على ذلك".

قوله تعالى: {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ} [المعارج: ٣١]، أي:"فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات".

**قال الطبري**:"فمن التمس لفرجه منكحا سوى زوجته، أو ملك يمينه، ففاعلو ذلك".

قال مقاتل:"يقول: فمن ابتغى الفواحش بعد الحلال".

قال يحيى:"وراء أزواجه أو ما ملكت يمينه".

**قال السعدي**:"أي: غير الزوجة وملك اليمين".

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [المعارج: ٣١]، أي:"فأولئك هم المتجاوزون الحلال إلى الحرام".

قال مقاتل:"يعني: المعتدين في دينهم".

**قال ابن كثير**:"أي: المعتدون".

**قال الطبري**:"العادون، الذي عدوا ما أحل الله لهم إلى ما حرّم عليهم فهم الملومون".

قال يحيى:"الزناة، تعدوا الحلال إلى الحرام".

عن ابن زيد، قوله: "{فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}، قال: الذين يتعدّون الحلال إلى الحرام".

قال أبو عبدالرحمن:"من زنى فهو عاد".

**قال السدي**:"أي: فأولئك هم المعتدون".

قال ابن عباس:"نهاهم الله نهيا شديدا، فقال: {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}، فسمى الزاني من العادين".

=

=

**قال الزجاج**:"معناه في العُدْوَانِ. وهي المبالغة في مخالفة أمر الله ومجاوزة القدر في الظلِم".

**قال السعدي**:"أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله، ودلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة، لكونها غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين".

عن الزهري ، قال: "سألت القاسم بن محمد بن أبي بكر عن متعة النساء ، فقال: «إني لأرى تحريمه في القرآن» ، قال: قلت: فأين؟ ، قال: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}".

(فائدة): استدل بهذه الآية من قال بتحريم الاستمناء.

وهذه العادة قديمة معروفة في الجاهلية قبل الإسلام، فقد كانوا يجلدون عميرة إذا خلوا بواد لا أنيس به. كما قال الشاعر:

**إذا ما خلوت بواد لا أنيس به... فاجلد عميرة لا عيب ولا حرج**

وعميرة كناية عن الذكر.

ومعنى الاستمناء: هو استدعاء خروج المني بغير جماع، سواء كان باليد أو بغيرها.

وقد اختلف العلماء في حكمه:

القول الأول: أنه حرام، وهذا مذهب جماهير العلماء.

أ-لقوله تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون).

فأوجب الله على المسلم أن يحفظ فرجه إلا من زوجته أو ما ملكت يمينه، فإذا تجاوز زوجته وملك يمينه إلى غيرهما فإنه من العادين.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وقد استدل الإمام الشافعي ومن وافقه على تحريم

=

=

الاستمناء باليد بهذه الآية

ب-ولحديث ابن مسعود قال: قال ﷺ (يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ؛ فإنه له وجاء) متفق عليه.

فالرسول ﷺ أمر بالصيام، ولو كان الاستمناء جائزا لأرشد إليه النبي ﷺ.

ج-ومن الأدلة: أن الله سبحانه وتعالى أباح للصحابة المتعة في أول الأمر، ثم نسخت بعد، وسبب إباحتها ما لقوه من شدة العزوبة في أسفارهم، وقد جعلها الله حلا مؤقتا لدفع حاجتهم، ولو كان الاستمناء مباحا لبينه لهم، وهو أيسر وأقل مؤونة وأثرا.

وسئل ابن تيمية رحمه الله تعالى عن الاستمناء هل هو حرام أم لا؟.

**فأجاب**: أما الاستمناء باليد فهو حرام عند جمهور العلماء وهو أصح القولين في مذهب أحمد، وكذلك يعزر من فعله وفي القول الآخر هو مكروه غير محرم، وأكثرهم لا يبيحونه لخوف العنت ولا غيره، ونقل عن طائفة من الصحابة والتابعين أنهم رخصوا فيه للضرورة مثل أن يخشى الزنا فلا يعصم منه إلا به، ومثل أن يخاف إن لم يفعله أن يمرض وهذا قول أحمد وغيره وأما بدون الضرورة فما علمت أحدا رخص فيه.

- وقال الشنقيطي: اعلم أنه لا شك في أن آية قد أفلح المؤمنون هذه التي هي (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) تدل بعمومها على منع الاستمناء باليد.

لأن من تلذذ بيده حتى أنزل منيه بذلك، قد ابتغى وراء ما أحله الله، فهو من العادين بنص هذه الآية الكريمة المذكورة هنا، وقد ذكر ابن كثير: أن الشافعي ومن تبعه استدلوا بهذه الآية، على منع الاستمناء باليد، وقال القرطبي: قال

=

=

محمد بن عبد الحكم: سمعت حرملة بن عبد العزيز، قال: سألت مالكا عن الرجل يجلد عميرة فتلا هذه الآية (والذين هم لفروجهم حافظون إلى قوله العادون).

قال مقيده- عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر لي أن استدلال مالك، والشافعي وغيرهما من أهل العلم بهذه الآية الكريمة، على منع جلد عميرة الذي هو الاستمناء باليد استدلال صحيح بكتاب الله، يدل عليه ظاهر القرآن، ولم يرد شيء يعارضه من كتاب ولا سنة.... (أضواء البيان).

وقال الشيخ الألباني: وأما نحن فنرى أن الحق مع الذين حرموه مستدلين بقوله تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) ولا نقول بجوازه لمن خاف الوقوع في الزنا، إلا إذا استعمل الطب النبوي وهو قوله ﷺ للشباب في الحديث المعروف الآمر لهم بالزواج (فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) ولذلك فإننا ننكر أشد الإنكار على الذين يفتون الشباب بجوازه خشية الزنى، دون أن يأمروهم بهذا الطب النبوي الكريم.

القول الثاني: أنه مباح، وهو قول لبعض أهل الظاهر.

لعدم الدليل المانع، حيث لم يثبت دليل على المنع، وهو قول ابن حزم.

والراجح القول الأول، لكن يباح الاستمناء في حالتين:

الحالة الأولى: خوف الوقوع بالزنا.

الحالة الثانية: التضرر بحبس هذا الماء.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [المعارج: ٣٢]، أي:"والذين هم حافظون لأمانات الله، وأمانات العباد، وحافظون لعهودهم مع الله تعالى ومع العباد".

=

=

عن سعيد بن جبير: "{والذين هم لأماناتهم}: يعني بهذا ما ائْتُمِنوا عليه فيما بينهم وبين الناس، {وعهدهم} قال: يوفون العهد، {راعون} قال: حافِظون".
قال يحيى: "يؤدون الأمانة ويوفون بالعهد".
قال مقاتل: "يعني: يؤدون الأمانة ويوفون بالعهد، ثم قال: {رَاعُونَ}، يرعونه ويتعاهدونه كما يرعى الراعي الشفيق غنمه عن مواقع الهلكة".
**قال الزجاج:** "أي: يرعون العهد والأمانة ويحافظون عليها. وكل محافظ على شيء فهو مراع له. والإمام راع لرعيته".
**قال الطبري:** "يقول تعالى ذكره: وإلا الذين هم لأمانات الله التي ائتمنهم عليها من فرائضه، وأمانات عباده التي ائتُمِنُوا عليها، وعهوده التي أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم، وعهود عباده التي أعطاهم على ما عقده لهم على نفسه راعون، يرقبون ذلك، ويحفظونه فلا يضيعونه، ولكنهم يؤدّونها ويتعاهدونها على ما ألزمهم الله وأوجب عليهم حفظها".
**قال السعدي:** "أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، كالتكاليف السرية، التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار، وكذلك العهد، شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد عليه الخلق، فإن العهد يسأل عنه العبد، هل قام به ووفاه، أم رفضه وخانه فلم يقم به؟".
**قال ابن كثير:** "أي: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا. وهذه صفات المؤمنين، وضدها صفات المنافقين، كما ورد في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». وفي رواية: «إذا حَدَّث كذب، وإذا عاهد غَدَر، وإذا خاصم فجر» ".

=

=

والأمانات جمع أمانة وهي كل ما ائتمن عليه الإنسان مما بينه وبين ربه من التكاليف الشرعية وغيرها، ومما بينه وبين الخلق من الأموال والأعمال والأسرار وغير ذلك.

والمعنى: والذين يراعون الأمانات فيؤدونها إلى أهلها امتثالا لقوله الله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وفي الحديث (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك).

- ويرعون العهود، وهي المواثيق والعقود التي بينهم وبين الله، والتي بينهم وبين الخلق، فيؤدون حقوق الله، ويؤدون حقوق العباد.

كما قال تعالى (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا).

وقال تعالى (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم).

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود).

- **قال السعدي**: فإن العهد يسأل عنه العبد: هل قام به أم رفضه وخانه فلم يقم به.

- وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين.

كما ورد في الحديث: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان).

وجاء في الحديث: عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: (إن خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم -قال عمران: فلا أدري أقال رسول الله ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثة- ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن) متفق عليه.

قال النووي: (ويخونون ولا يؤتمنون) ومعناه يخونون خيانة ظاهرة بحيث لا يبقى معها أمانة، بخلاف من خان بحقير مرة واحدة؛ فإنه يصدق عليه أنه خان،

=

ولا يخرج به عن الأمانة في بعض المواطن.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ} [المعارج: ٣٣]، أي:"والذين يؤدُّون شهاداتهم بالحق دون تغيير أو كتمان".

قال مقاتل:"يعني: يقومون بها بالحق لا يمنعونها ولا يكتمونها إذا دعوا إليها".

**قال الطبري**:"يقول: والذين لا يكتمون ما استشهدوا عليه، ولكنهم يقومون بأدائها، حيث يلزمهم أداؤها غير مغيرة ولا مبدّلة".

**قال ابن كثير**:"أي: محافظون عليها لا يزيدون فيها، ولا ينقصون منها، ولا يكتمونها، {وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} [البقرة: ٢٨٣]".

**قال السعدي**:"أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحابي فيها قريبا ولا صديقا ونحوه، ويكون القصد بها وجه الله، قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ} {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ}".

(والذين هم بشهاداتهم قائمون) أي محافظون عليها، لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها، ولا يكتمونها، فيؤدونها كما تحملوها على أنفسهم على غاية التمام وحسن الأداء، وعلى القريب والبعيد، وعلى العدو والصديق، لهم وعليهم.

كما قال تعالى (وأقيموا الشهادة لله).

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)

وقال تعالى (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها).

وقال تعالى (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله).

فأداء الشهادة- على من تحملها- عند القاضي فرض عين.

أ-لقوله تعالى (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه)، [وإنما خص القلب بالإثم لأنه موضع العلم بها].

ب-ولأن الشهادة أمانة فلزم أداؤها كسائر الأمانات.

ج-ولأن امتناعه من أداء الأمانة التي تحملها قد يكون سببا في ضياع الحقوق.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [المعارج: ٣٤]، أي:"والذين يحافظون على أداء الصلاة ولا يخلُّون بشيء من واجباتها".

**قال الطبري**:"يقول: والذين هم على مواقيت صلاتهم التي فرضها الله عليهم وحدودها التي أوجبها عليهم يحافظون، ولا يضيعون لها ميقاتا ولا حدّا".

**قال السعدي**:"بمداومتها على أكمل وجوهها".

قال مسلم بن صبيح:"أقام الصلاة لوقتها".

قال مسروق:"على ميقاتها".

قال الحسن:"على المواقيت".

قال مقاتل:"{يُحافِظُونَ} عليها في مواقيتها".

قال قتادة: "على وضوئها، ومواقيتها، وركوعها، وسجودها".

وروي عن إبراهيم: "{عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}، قال: دائمون، قال: يعني بها المكتوبة".

**قال ابن كثير**:"أي: على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها".

روي عن رسول الله -ﷺ-، قال: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

قال ابن مسعود: «سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أيّ العمل أحب إلى الله؟ قال: "الصلاة على وقتها". قلت: ثم أيّ؟ قال: "بِرُّ الوالدين". قلت: ثم أي؟

=

قال: "الجهاد في سبيل الله».
عن قتادة، عن حنظلة الكاتب أن رسول الله ﷺ قال: "من حافظ على الصلوات الخمس، على وضوئهن ومواقيتهن وركوعهن وسجودهن، وعلم أنه حق لله عليه دخل الجنة، أو قال: وجبت له الجنة".
(والذين هم على صلاتهم يحافظون) أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها. [قاله ابن كثير].
- ومما يدل على اهتمامها:
**أولا**: أنها أول ما فرضت فرضت خمسين صلاة.
**ثانيا**: أنها فرضت في أعلى مكان.
**ثالثا**: أنها عمود الإسلام.
- مدح الله هنا المحافظين على الصلاة، وأمر بالمحافظة عليها في موضع آخر فقال (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) وقال ﷺ (من حافظ عليها، كان له عند عهد أن يدخله الجنة) وفي حديث آخر (من حافظ عليهن كن له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة).
- ومما أمرنا بالمحافظة عليها الوضوء، قال ﷺ (لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن).
- وكذلك الأيمان كما قال تعالى (واحفظوا أيمانكم).
- ومن أعظم ذلك اللسان والفرج: قال ﷺ (من حفظ ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة).
- وكذلك حفظ الفروج، فقد أثنى عليهم الله كما هنا، وأمر بذلك بقوله (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) وقال تعالى (والحافظين
=

=

فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما). قال أبو إدريس الخولاني: أول ما أوصى الله به آدم عند إهباطه إلى الأرض: حفظ فرجه، وقال: لا تضعه إلا في حلال.

- **قال القرطبي**: ذكر تعالى من أوصافهم في البدء (الذين هم على صلاتهم دائمون) ثم قال في الختم (والذين هم على صلاتهم يحافظون) والدوام غير المحافظة، فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها، لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها، ويكملوا بسننها وآدابها ويحفظونها من الإحباط باقتراف المآثم، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة ترجع إلى أحوالها.

- **قال الرازي**: فإن قيل: قال: {على صلاتهم دائمون} ثم: {على صلاتهم يحافظون} [المعارج: ٣٤] قلنا: معنى دوامهم عليها أن لا يتركوها في شيء من الأوقات ومحافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل الوجوه، وهذا الاهتمام إنما يحصل تارة بأمور سابقة على الصلاة وتارة بأمور لاحقة بها، وتارة بأمور متراخية عنها.

قال ابن عاشور: وبذلك تعلم أن هذه الجملة ليست مجرد تأكيد لجملة {الذين هم على صلاتهم دائمون} بل فيها زيادة معنى مع حصول الغرض من التأكيد بإعادة ما يفيد عنايتهم بالصلاة في كلتا الجملتين.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ} [المعارج: ٣٥]، أي:"أولئك المتصفون بتلك الأوصاف الجليلة مستقرُّون في جنات النعيم، مكرمون فيها بكل أنواع التكريم".

**قال الطبري**:"يقول ﷻ: هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال في بساتين مكرمون،

=

=

يكرمهم الله بكرامته".

**قال ابن كثير**:"أي: مكرمون بأنواع الملاذ والمسار".

**قال السعدي**:"أي: الموصوفون بتلك الصفات {فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ}، أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون، وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة، والمداومة عليها، والأعمال القلبية، كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى".

عن السدي:"{جنات}، قال: البساتين".

قال مجاهد:"الجنات: حوائط".

** مسألة: تلخيص فتاوى اللجنة الدائمة في الزكاة.

* ذكروا بأن كل مال زكوي لم تؤد زكاته فهو كنز يعذب به صاحبه يوم القيامة.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن الأموال الزكوية هي بهيمة الأنعام والخارج من الأنعام والخارج من الأرض والنقدان وعروض التجارة.

* واختار أصحاب الفضيلة أن السوم شرط في وجوب الزكاة في بهيمة الأنعام وهي التي ترعى في أكثر الحول.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن الإبل لا يجب فيها شيء حتى تبلغ خمسا إلى عشرين ففي كل خمس شاة وفي الخمس والعشرين بنت مخاض وفي الست والثلاثين بنت لبون وفي الست والأربعين حقة، وفي الإحدى والستين جذعة، وفي الست والسبعين بنتا لبون وفي الإحدى والتسعين حقتان فإذا زادت على

=

=

العشرين ومائة واحدة ففي كل أربعين بنت لبون وفي كل خمسين حقة وليس فيما بين الفرضين شيء.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن البقر لا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين فيجب بتبيع أو تبيعة وفي الستين تبيعان أو تبيعتان ثم في كل ثلاثين تبيع وفي كل أربعين مسنة وأما الحوامل فلا زكاة فيها.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن الغنم لا زكاة فيها حتى أربعين فتجب فيها شاة إلى عشرين ومائة فإذا زادت واحدة ففيها شاتان إلى مائتين فإذا زادت واحدة ففيها ثلاث شياه، ثم في كل مائة شاة.

* وأفتوا بأنه لا يؤخذ في الزكاة تيس ولا هرمة ولا ذات عوار ولا الربا ولا الحامل ولا كرائم المال إلا أن يشاء ربها.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن الزكاة تجب في الحبوب كلها وفي كل ثمر يكال ويدخر.

* وذكر أصحاب الفضيلة أنه يشترط لوجوبها أن تبلغ نصابًا وهو خمسة أوسق والوسق ستون صاعا بصاع النبي ﷺ وأن يكون مملوكا له وقت وجوب الزكاة.

* وأفتوا بأنه يجب العشر فيما سقي بلا مؤنة، ونصف العشر فيما سقي بمؤنة.

* وأفتوا بأنه إذا كان يسقى بمؤنة نصف العام وبغير مؤنة النصف الآخر فالواجب فيه ثلاثة أرباع العشر وإن سقي بأحدهما أكثر من الآخر اعتبر الأكثر.

* وأفتوا بأن الزكاة تجب إذا اشتد الحب وبدا صلاح الثمر ولكن لا يستقر الوجوب إلا بجعلها في الجرين.

* وذكر أصحاب الفضيلة أنه يجب إخراج زكاة الحب مصفى والثمر يابسًا.

* وذكر أصحاب الفضيلة أنه ينبغي أن يبعث الإمام ساعيا إذا بدا صلاح الثمر فيخرصه عليهم ليتصرفوا فيه فإن كان أنواعا خرص كل نوع وحده وإن كان نوعا

=

=

واحدا خرص كل شجرة وحده وله خرص الجميع دفعة واحدة.

* وأفتوا بأنه لا تجب الزكاة في الخضروات.

* وذكر أصحاب الفضيلة أنه لا زكاة في الذهب حتى يبلغ عشرين مثقالًا والواجب فيه نصف مثقال.

* وذكر أصحاب الفضيلة أنه لا زكاة في الفضة حتى تبلغ مائتي درهم والواجب فيها خمسة دراهم.

* وذكروا بأن نصاب الفضة بالمثاقيل مائة وأربعون مثقالًا.

* وأفتوا بأن الركاز يجب فيه الخمس.

* وعرف أصحاب الفضيلة عروض التجارة بأنها الأموال المعدة للبيع وأن الزكاة تجب فيها إذا بلغت قيمتها نصابا من الذهب أو الفضة وملكها بفعله بنية التجارة وأنها تقوم عند الحول بما هو أحظ للفقراء والمساكين من ذهب أو فضة.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن الزكاة لا تجب على العبد إلا بشروط خمسة: الإسلام والحرية وملك نصاب وتمام الملك ومضي الحول إلا في الخارج من الأرض وكذلك نتاج السائمة وربح التجارة فإن حولها حول أصلهما إذا بلغ نصابا وإن لم يكن نصابا فحوله يبتدئ من حين أن يتم نصابًا.

* وذكروا بأن مصارف الزكاة ثمانية لا تصرف إلا لهم: الفقراء والمساكين والعاملون عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمون وفي سبيل الله وابن السبيل.

* وذكر أصحاب الفضيلة بأن من ترك الزكاة جحدًا لوجوبها فإنه يكفر وأما من تركها بخلًا فقط فهو عاصي معصية كبيرة وفاسق بذلك ولكن لا يكفر.

* وذكروا بأن اشتراط الحول مبناه على الرفق بأصحاب الأموال ورحمتهم والإحسان إليهم.

=

=

* وأفتوا بأن المال إذا انتقل من مالكه إلى آخر بالإرث فإنه يستأنف به حولًا جديدًا ولا يبني فيه على الحول الأول.

* وأفتوا بأن الدين إذا كان على مليء فإنه يؤدي زكاته كل حول.

* وأفتوا بأن بيت السكن ودابة الركوب وثياب القنية لا زكاة فيها.

* واختار أصحاب الفضيلة أن الدين لا يمنع الزكاة.

* وأوجب أصحاب الفضيلة الزكاة على صاحب الزرع إذا بلغ نصابا ولو كان مدينا للبنك الزراعي.

* وأفتوا بأن الدين إذا كان غير مليء فإن صاحب الدين يزكيه إذا قبضه لسنة واحدة وإن مضت عليه عدة سنين.

* وأفتوا بجوب الزكاة في الأموال المقسطة إذا حال عليها الحول وكونها مقسطة شهريا لا يضر لأن المالك فعل ذلك لزيادة ربحه ومصلحته.

* وأفتوا بأنه لا يجوز لمن وجبت عليه الزكاة أن يتحايل عليها بالخصم من الدين الذي على الغريم لأن في ذلك وقاية لماله.

* وأفتوا بأن صاحب المال عليه أن يخرج زكاة المال من جنسه ، فيخرج من المال النقدي نقدا ومن البر برا ومن التمر تمرا وهكذا.

* وأفتوا بوجوب الزكاة فيما يودع في البنك من الأموال إذا بلغت نصابا وحال عليها الحول.

* وأفتوا بأن المعتبر في حول الزكاة إنما هو السنة الهجرية ولا اعتداد بالحول الميلادي ولا بالأشهر غير القمرية.

* واختار أصحاب الفضيلة بأنه لا زكاة في العوامل.

* وأفتوا بأن بهيمة الأنعام إذا كانت معدة للتجارة ففيها زكاة عروض التجارة وإن كانت معلوفة.

=

=

* وأفتوا بوجوب الزكاة في أجور العقارات إذا تم عليها الحول وكانت نصابًا.
* واختار أصحاب الفضيلة أنه لا يجوز إخراج القيمة عن زكاة الماشية إلا لمصلحة يراها ولي الأمر.
* وأفتوا بأن ربح التجارة يعتبر حوله حول أصله إن كان نصابًا.
* وأفتوا بأن نتاج السائمة يعتبر حولها حول أصلها إن كان نصابًا.
* وأفتوا بحرمة التحايل على إسقاط الزكاة الواجبة.
* وأفتوا بأن الخيل لا زكاة فيها إلا إذا كانت معدة للبيع ففيها زكاة عروض التجارة.
* وأوجبوا الزكاة في الأرانب المعدة للبيع أي زكاة عروض تجارة.
* وأفتوا بأن زكاة العنب تؤخذ زبيبًا.
* وأفتوا بأن زكاة الرطب تخرج تمرًا.
* واختار أصحاب الفضيلة أن الصاع النبوي يقدر بأربع حفنات بيدي الرجل المعتدل في الخلقة.
* وأفتوا بأن من باع قمحًا بعد اشتداده فإن زكاته على بائعه.
* وأفتوا بأنه لا زكاة في الآلات المعدة للاستعمال.
* وأفتوا بأن العسل لا زكاة فيه إلا إذا كان معدا للتجارة ففيه زكاة عروض التجارة أي ربع العشر إن بلغت قيمته نصابًا.
* وأفتوا بأن زكاة الخارج من الأرض تكون يوم حصاده.
* وأفتوا بأن التين لا زكاة فيه لأنه من جملة الفواكه إلا إذا أعد للتجارة.
* وأفتوا بأن الرمان والكمثرى لا زكاة فيها إلا إذا أعدت للتجارة.
* وأفتوا بوجوب الزكاة في حبوب القهوة إذا بلغت نصابًا.
* وذكر أصحاب الفضيلة أن الزكاة تجب في الحبوب كلها سواء كان قوتيًا

=

=

كالحنطة والشعير والأرز والدخن ، أو من القطنيات كالباقلاء والعدس والحمص أو من الأبازير كالكزبرة والكمون وكبذر الكتان والقثاء والخيار وحب البقول كحب الرشاد والفجل والقرطم.

* وأفتوا بأن جوز الهند من الثمار التي لا زكاة فيها لأن ثمرها لا يكال ولا يدخر.

* واختار أصحاب الفضيلة عدم وجوب الزكاة في نبات القطن.

* وأفتوا بأنه لا زكاة في قصب السكر.

* وأفتوا بأن الحطب والحشيش والقصب الفارسي لا زكاة فيها.

* وأفتوا بأن زكاة الخارج من الأرض المؤجرة يكون على زارعها لا على مؤجرها.

* وأفتوا بوجوب الزكاة على صاحب الأرض ولو كان صاحبها مدينا أو كانت الأرض مرهونة.

* وأفتوا بوجوب الزكاة في العملات الورقية الحديثة إذا بلغت نصاب أحد النقدين.

* وذكروا أن نصاب الذهب بالجرام الحالي المعمول به الآن واحد وتسعون جرامًا وثلاثة أسباع جرام.

* وأفتوا بأن المعتبر في قيمة النقدين هو قيمتها وقت حلول زكاتها.

* وذكروا أن أهل العلم أجمعوا على وجوب الزكاة في حلي الذهب والفضة إذا كن حليًا محرم الاستعمال أو كان معدًا للتجارة.

* واختار أصحاب الفضيلة وجوب الزكاة في الحلي المعد للاستعمال.

* إذا بلغ نصابًا أو كان عنده من الذهب أو الفضة أو عروض التجارة ما يكمل به النصاب.

* وأوجبوا الزكاة في المال المجموع للزواج إذا كان نصابًا وحال عليه الحول.

=

=

* وأفتوا بعدم وجوب الزكاة في السلام المعد للقنية.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن من يتجدد له ملكية نقود تباعًا كالمرتب ونحوه وليست الثانية ناشئة عن النقود الأولى فله في زكاة ذلك حالتان:

الأولى: أن يجعل لنفسه جدول حساب لكسبه يخص فيه كل مبلغ من أمثال هذه المبالغ بحول يبدأ من يوم ملكه ويخرج زكاة كل مبلغ لحاله كلما مضى عليه حول من تاريخ امتلاكه إياه.

الثانية: وهي الأكمل والأفضل وهي أن يزكي الجميع سواء القديم والحديث حينما يحول الحول على الأول ، وهذا أعظم لأجره.

* وأفتوا بأن مكافأة نهاية الخدمة لا زكاة فيها إلا إذا قبضها وحال عليها الحول من تاريخ استلامها.

* وأفتوا بأن المستحقات على الدول إذا بقيت عندها سنين ثم صرفت لأصحابها فإنه لا زكاة فيها إلا إذا استقبل بها سنة جديدة.

* وأفتوا بأنه لا يجوز أن تحتسب الضرائب من الزكاة.

* وأفتوا بوجوب الزكاة في أموال الجمعيات التعاونية.

* وأفتوا بأن صناديق القبائل الخيرية لا زكاة فيها بشرط أن لا يعود ما توفر منه إلا من تبرعوا ، وأن يكون تملكهم الخاص قد انقطع بمجرد تبرعهم ، وأما إذا كان ما تبرعوا به لم يخرج عن ملكهم ففيه الزكاة.

* وأفتوا بأن أموال المؤسسات الخيرية العامة التي ليست ملكًا لأحد ، بل هي أموال خيرية معدة للإنفاق في أوجه البر العامة ، أنه لا زكاة فيها لأنها في حكم الوقف.

* وأفتوا بأن لا زكاة في الأرض المشتراة إلا إذا قصد بها التجارة.

* وأفتوا بوجوب الزكاة في المال المرصود في الغرف التجارية.

=

=

* وأفتوا بأن المال الموقوف لبناء مسجد لا زكاة فيه.
* وأفتوا بوجوب الزكاة في أصل مال المساهمة والأرباح لأن حول الربح أصله.
* وأفتوا بأن إخراج الزكاة واجب على الفور إذا توفرت شروط الوجوب.
* وأفتوا بأن العقار والأراضي إذا قصد بها التجارة فإنه يجب فيها الزكاة إذا حال حول على هذه النية، ويكون تقويمها حسب سعرها وقت الوجوب وفيها ربع العشر.
* وأفتوا بأن العقار والمصانع المؤجرة تجب الزكاة في أجرتها إذا قبضت وحال عليها الحول.
* وأفتوا بأن قيمة العروض تضم إلى ما عنده من نقد أو ذهب أو فضة.
* وأفتوا بأن زكاة الفطر واجبة على كل مسلم تلزمه مؤنة نفسه إذا فضل عنده عن قوته وقوت عياله يوم العيد وليلته صاح من قوت البلد المعتاد.
* وأفتوا باستحباب إخراجها عن الطفل الذي ببطن أمه لفعل عثمان.
* وأفتوا بجواز تقديمها عن يوم العيد بيوم أو يومين أو ثلاثة.
* وذكروا بأنها تعطى فقراء المسلمين في بلد مخرجها وأنه يجوز نقلها إلى فقراء بلد أخرى أهلها أشد حاجة وأنه يجوز لإمام المسلمين أو غيره من ذوي الأمانة أن يجمعها ويوزعها على الفقراء على أن تصل لمستحقيها قبل صلاة العيد.
* وذكروا بأن مقدار الصاع النبوي بالكيلو، ثلاثة كيلو تقريبًا.
* وأفتوا بعدم جواز تأخيرها عن وقتها المحدد شرعا ومن فعل بلا عذر فهو آثم تجب عليه التوبة والقضاء لأنها عبادة فلم تسقط بخروج وقتها كالصلاة.
* وأما من أخرها ناسيا فلا إثم عليه، لكن عليه إخراجها ولو بعد الصلاة.
* وأفتوا بأن العمال في المصانع والمزارع ونحوها هم المسؤلون عن إخراج زكاة أنفسهم لأن الأصل وجوبها عليهم.

=

=

* وذكروا بأن وقت زكاة الفطر يبدأ من غروب الشمس آخر يوم من رمضان وهو أول ليلة من شوال وينتهي بصلاة العيد.

* وأفتوا بأن الكفار لا تقبل منهم زكاة الفطر فلا تخرج عنهم لأنها عبادة شرطها الإسلام، وكذلك لا يجوز إعطاء الكفار منها شيئا.

* وأفتوا بأن ارتكاب الفقير لبعض المعاصي لا يمنع من إعطائه زكاة الفطر لأنه لا يزال مسلما، فإن ارتكاب الذنوب لا يخرج عن الملة.

* وأفتوا بالاكتفاء بغلبة الظن أن هذا فقير، وبواطن الأمور إلى الله تعالى لكن ينبغي التحري والاحتياط لهذه العبادة، وإن ظهر بعد ذلك أنه كان غنيا فقد برئت ذمة المزكي فلا يضره ذلك بأنه فعل ما أمر به شرعا وهو النظر في الظاهر والعمل بغلبة الظن.

* وأفتوا بأنه لا يجوز زكاة الفطر نقودا بأن الأدلة الشرعية دلت على وجوب إخراجها طعاما.

* ونبه أصحاب الفضيلة الجمعيات الخيرية تستلم الزكوات من الناس أن يؤدوها قبل صلاة العيد وأن لا يتساهلوا في ذلك.

* وأفتوا بأنه يجوز للفقير بيع صاح الفطرة بعد استلامه لأنه صار من جملة أملاكه.

* وأفتوا بأنه لا يجوز إخراجها ملابس ولو كانت أنفع للفقير.

* وأفتوا بأن الأفضل أن تخرج زكاة الفطر في بلد المزكي الذي هو فيه وقت إخراجها وإن أخرجت في غيره بالوكالة فلا بأس.

* وأفتوا بأنه ليس هناك دعاء معينا يقال عند إخراجها.

* وذكروا بأن الأفضل إخراجها بعد صلاة الفجر وقبل صلاة العيد. والله أعلم.

(فصل)

=

=

* وأفتى أصحاب الفضيلة بأنه يجوز تعجيل زكاة المال قبل حلول وجوبها بسنة أو سنتين.
* وأفتوا بأن إخراج الزكاة واجب على الفور.
* وأفتوا بجواز التأخير بحثا عن المستحق الحقيقي لما فيه من الحيطة وإبراء الذمة.
* وأفتوا بأن من ترك زكاة ماله سنين عددا فتاب فإنه يجب عليه إخراجها عما برك من السنوات، ويعمل بغلبة ظنه في تقدير المال.
* وأفتوا بأن من دفع زكاته إلى الأمين فأضاعها فإنه لا تبرأ ذمته إلا بأدائها إلى مستحقيها.
* وأفتوا بأن زكاة النقدين والعروض إذا تلفت بعد استقرار وجوبها فإن صاحبها يضمن، فلا تبرأ ذمة صاحبها مطلقًا إلا بإيصالها إلى مستحقيها.
* واختار أصحاب الفضيلة وجوب الزكاة في أموال اليتامى والمجانين ويتولى الولي إخراجها.
* وأفتوا بأنه لا تجب الزكاة في أموال الأوقات على المساجد ونحوها لانتفاء الملك عنها.
* وأفتوا بأنه لا يجوز لأحد دفع الزكاة عن أحد بالغ إلا بعد إذنه.
* وأفتوا بجواز نقل الزكاة من بلد إلى بلد إذا اقتضت المصلحة الشرعية ذلك.
* واستحب أصحاب الفضيلة للمزكي توزيع زكاته بنفسه على أهلها المستحقين، فإن طلبها ولي الأمر فالمشروع تسليمها له لأن ذلك من باب السمع والطاعة.
* وأفتوا بأنها لا تحل للغني.
* وأفتوا بأنه لا يجوز للوكيل في إخراج الزكاة أن يأخذ منها شيئًا لغرضه

=

=

الشخصي ومن فعل فقد أثم وعليه رد بدلها.

* وأفتوا بأنه لا يجوز صرف الزكاة لمنظمة اليونسيف لرعاية الأطفال لأنها ذات نشاط لا يخص المسلمين.

* وأفتوا بأنه لا يجوز وضع الزكاة في صناديق البر التي في المساجد.

* وأفتوا بأن الجمعيات لا يجوز لها استثمار أموال الزكاة المدفوعة لها.

* وأفتوا بأنه ليس من شروط صحة الزكاة أن يعلم المدفوعة له بأنها زكاة إذا كان من المستحقين.

* وأفتوا بأنه لا مانع من الاستفادة من أموال الزكاة فيما يتعلق بالمعوقين والفقراء.

* وأفتوا بأنه لا يجوز بناء مساكن للفقراء من أمول الزكاة، بل الواجب دفعها إليهم ليتصرفوا فيها على ما يرونه مناسبًا لحالهم.

* وأفتوا بأن الموظف ذا الراتب الشهري إذا لم يكن راتبه يكفيه ولم يكن له دخل آخر يكمل كفايته جاز إعطاءه من الزكاة.

* وأفتوا بأن العاملين عليها إذا كانوا من قبل ولي الأمر فإنهم يعطون من الزكاة ولو كانوا أغنياء.

* وأفتوا بأن من استدان اضطرارا ولم يجد سدادا فإنه يعطى من الزكاة ما يستعين به على قضاء دينه، وأما من استدان ترفا وازديادا من الدنيا فإنه لا يعطى منها.

* وأفتوا بأن الفقراء والمساكين يعطون من الزكاة ما يكفيهم لسنة كاملة.

* وأفتوا فيمن احترق بيته بأنه يعطى من الزكاة إذا كان قد افتقر باحتراقه.

* وأفتوا بأن من له راتب أو دخل من تجارة يكفيه ويكفي من يمونه فإنه لا يجوز له الأخذ من الزكاة.

=

=

* وأفتوا بجواز دفع لفاقد الوعي لكن تسلم لوليه ويعطى ما يكفيه ويكفي عائلته.
* وأفتوا بأن العم يجوز أن يعطي زكاته لأبناء أخيه إذا كانوا فقراء.
* وأفتوا بأن الإنسان لا يدفع زكاته لا إلى أصوله ولا إلى فروعه.
* وأفتوا بجواز إعطاء طلاب العلم منها لحاجتهم إليها، إذا كانوا فقراء.
* وأفتوا بجواز دفعها لمن يريد الزواج لإعانته على ذلك إذا كان لا يقدر على النفقات.
* وأفتوا بأن شيخ القبيلة لا حق له في جباية الزكاة من أفراد قبيلته إلا إذا كان مخولا من ولي الأمر.
* واختار أصحاب الفضيلة أن سهم المؤلفة قلوبهم لا يزال باقيا لم ينسخ كما هو نس القرآن.
* وأفتوا بأن تارك الصلاة لا حق له في الزكاة لأنه مرتد.
* وأفتوا بأن الأسير المسلم يفادي من مال الزكاة لفك رقبته من الأسر.
* واختار أصحاب الفضيلة أن من مات وعليه دين فإنه يوفى دينه من الزكاة.
* وأفتوا بأن من لا يجحد ملا للحج فإنه يجوز أن يعطى من الزكاة ما يكفيه لحجه.
* وأفتوا بأنه لا يجوز صرف الزكاة لبناء المساجد والمستشفيات والمؤسسات الخيرية ولا المدارس الإسلامية ولا أن تجعل رواتب للمدرسين، ولا أن يصلح بها شيء من الطرق والقناطر.
* واختار أصحاب الفضيلة جواز الزكاة لمدرسي حلقات القرآن في المساجد ولطلاب الحلقات إذا كانوا فقراء ولكن تحسب على أنها رواتب لهم.
* وأفتوا بأنه لا يجوز حفر الآبار وتعميرها من مال الزكاة.

=

=

* وأفتوا بأنه لا يجوز شراء كتب بمال الزكاة لتدفع إلى الفقير، بل تدفع الزكاة عينا لمستحقيها المذكورين في آية التوبة.

* وذكر أصحاب الفضيلة أن المراد بقوله: (وفي سبيل الله) أي الغزاة المتطوعون بغزوهم وما يلزم لهم من استعداد.

* وأفتوا بجواز صرف الزكاة للدعاة إلى الله تعالى إذا كانوا متفرغين للدعوة وليس لديهم ما يغنيهم عنها.

* واختار أصحاب الفضيلة جواز الاقتصار على صنف واحد فلا يلزم استيعاب الأصناف كلها بالزكاة.

* وأفتوا بأنه يجوز للأخ أن يعطي أخته من الزكاة إذا كانت فقيرة وكذلك العكس.

* وأجاز أصحاب الفضيلة للأخت أن تعطي أختها من الزكاة إذا كانت فقيرة.

* واختار أصحاب الفضيلة جواز صرف الزوجة زكاة مالها لزوجها إذا كان فقيرا دفعا لفقره.

* واختار أصحاب الفضيلة أنه لا يجوز للزوج صرف زكاته لزوجته لأن نفقتها وكسوتها عليه واجبة.

* وأجاز أصحاب الفضيلة دفع الزكاة للعم وأولاده، وللخال وأولاده.

* وأفتوا بأن الأب لا يجوز أن يعي ابنه من الزكاة للزوم نفقته عليه.

* وأفتوا بمنع دفع الزكاة للأبوين لأن نفقتهما لازمة على أولادهما.

* وأفتوا بجواز دفع الزكاة لزوج الأم.

* وأفتوا بجواز دفع زكاتها لأبي زوجها.

* وأفتوا بأن آل بيت النبي ﷺ لا تحل لهم الزكاة.

* وأفتوا بحرمة المسألة، أي سؤال الناس، إلا من سلطان أو السؤال في أمر لا بد

=

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦).

{فَمَال الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلك} نَحْوك {مُهْطِعِينَ} حَال أَيْ مُدِيمِي النَّظَر.

عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧).

{عَنْ الْيَمِين وَعَنْ الشِّمَال} مِنْك {عِزِينَ} حَال أَيْضًا أَيْ جَمَاعَات حِلَقًا حِلَقًا يَقُولُونَ اسْتِهْزَاء بِالْمُؤْمِنِينَ لَئِنْ دَخَلَ هَؤُلَاءِ الْجَنَّة لَنَدْخُلَنَّهَا قَبْلهمْ قال تعالى.

أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨).

{أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم.

كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩).

{كَلَّا} رَدْع لَهُمْ عَنْ طَمَعهمْ فِي الْجَنَّة {إنَّا خَلَقْنَاهُمْ} كَغَيْرِهِمْ {مِمَّا يَعْلَمُونَ} مِنْ نُطَف فَلَا يُطْمَع بِذَلِكَ فِي الْجَنَّة وَإِنَّمَا يُطْمَع فيها بالتقوى.

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠).

{فَلَا} لَا زَائِدَة {أُقْسِم بِرَبِّ الْمَشَارِق وَالْمَغَارِب} للشمس والقمر وسائر الكواكب {إنا لقادرون}.

---

=

منه.

❋ وأفتوا بجواز الهدية لأهل الكتاب إذا كان المقصود منها التأليف للإسلام.

❋ وأفتوا بجواز إطعام الكافر من الأضحية ما لم يكن محاربا.

❋ وأفتوا بأن من تصدق وهو تارك للصلاة فإن صدقته لا تقبل لأن كافر.

❋ وأفتوا بأنه لا يجوز للمرأة أن تتصدق من مال زوجها بدون إذن منه إلا ما جرت به العادة وكان يسير عرفًا. والله ربنا أعلى وأعلم.

عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١).

{عَلَى أَنْ نُبَدِّل} نَأْتِي بَدَلهمْ {خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} بِعَاجِزِينَ عَنْ ذَلِكَ.

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢).

{فَذَرْهُمْ} اُتْرُكْهُمْ {يَخُوضُوا} فِي بَاطِلهمْ {وَيَلْعَبُوا} فِي دُنْيَاهُمْ {حَتَّى يُلَاقُوا} يَلْقَوْا {يَوْمهمْ الَّذِي يُوعَدُونَ} فيه العذاب.

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣).

{يَوْم يَخْرُجُونَ مِنْ الْأَجْدَاث} الْقُبُور {سِرَاعًا} إلَى الْمَحْشَر {كَأَنَّهُمْ إلَى نُصُب} وَفِي قِرَاءَة بِضَمِّ الْحَرْفَيْنِ شَيْء مَنْصُوب كَعَلَمٍ أَوْ رَايَة {يُوفِضُونَ} يسرعون.

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤).

{خَاشِعَة} ذَلِيلَة {أَبْصَارهمْ تَرْهَقهُمْ} تَغْشَاهُمْ {ذِلَّة ذَلِكَ الْيَوْم الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} ذَلِكَ مُبْتَدَأ وَمَا بعدها الخبر ومعناه يوم القيامة(١).

---

(١) قوله تعالى: {فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ} [المعارج: ٣٦]، أي:"فأيُّ دافع دفع هؤلاء الكفرة إلى أن يسيروا نحوك -أيها الرسول- مسرعين، وقد مدُّوا أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك".

قال مقاتل:"نزلت هذه الآية في المستهزئين من قريش، والمطعمين في غزوة بدر".

**قال القرطبي**:"نزلت في جمع من المنافقين المستهزئين، كانوا يحضرونه عليه السلام ولا يؤمنون به".

وفي قوله تعالى: {مُهْطِعِينَ} [المعارج: ٣٦]، وجوه من التفسير:

=

=

**أحدها**: معناه: مسرعين. قاله سعيد بن جبير، وقتادة، وأبو عبيدة، مأخوذ من: أهطع يهطع إهطاعًا. إذا أسرع. قال يزيد بن مفرّغ الحميريّ:

**بِدِجْلةَ أَهْلُهَا ولَقَد أراهُمْ... بِدِجْلةَ مُهْطِعِينَ إلى السّمَاعِ**

وقال الآخر:

**بمهطع سرح كأنّ زمامه... في رأس جذع من أول مشذّب**

وقال الشاعر:

**بمستهطع رسل كأنّ جديله... بقيدوم رعن من صؤام ممنّع**

**قال الماتريدي**:"فمن حمله على «الإسراع»، فمعناه: أن أئمة الكفر كانوا يأتون رسول الله ﷺ، فيستمعون القرآن منه، ثم يسرعون إلى أتباعهم، ويجلسون حلقا حلقا، ويحرفون ما يستمعون من رسول الله ﷺ، ويلبسون على ضعفائهم وأتباعهم؛ ليصدهم ذلك عن الإيمان بالله ﷻ ورسوله، فإن كان الأمر على هذا فتأويله: ما لهم يسرعون إليك ليسمعوا كلامك ثم يتفرقوا عن اليمين وعن الشمال ويكذبونك، نحو أن يقول بعضهم: {مَا هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى}، و {مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، {إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ}، ونحو ذلك".

**الثاني**: معناه: ناظرين، قاله ابن عباس، والضحاك، وأبو الضحى، وتميم بن حَذْلم، وابن زيد، وبه قال الزجاج.

قال مجاهد:"مديمي النظر".

قال ابن منظور:"أهطع: أقبل على الشيء ببصره فلم يرفعه عنه".

قال ابن عباس:"يعني بالإهطاع: النظر من غير أن يطرف".

عن ابن عباس: "{فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ}، قال: قبلك ينظرون".

قال أبو الضحى:"الإهطاع: التحميج الدائم الذي لا يَطْرَف".

قال الضحاك:"شدة النظر الذي لا يطرف". وفي رواية:"شدة النظر في غير

=

=

طَرْف".

قال ابن زيد:"المهطع: الذي لا يطرف".

قال سفيان: أبصارهم شاخصة إلى السماء".

قال الضحاك:"الإهطاع: شدة النظر في غير طَرْف".

قال تميم بن حَذْلم:"الإهطاع: التحميج ".

**قال الزجاج**:"«المهطع»: المقبل ببصره على الشيء لا يزايله، لأنهم كانوا ينظرون إلى النبي ﷺ نظر عداوة، قال الله تعالى: {وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [الأعراف: ١٩٨]، معناه: غيظًا وحنقًا".

**الثالث**: عامدين، قاله قتادة.

**الرابع**: ناظرين إليك تعجبًا، قاله الكلبي.

**الخامس**: أنه المطرِق الذي لا يرفع رأسه، رواه ابن وهب عن ابن زيد.

قال الثعلبي: أي:"مقبلين مسرعين عليك مادّي أعناقهم مديمي النظر إليك متطلّعين نحوك".

**السادس**: أي: منطلقين. قاله الحسن.

وقال مقاتل: يعني: "مقبلين".

وحكي عن عطية العوفي:"معرضين".

**قال ابن كثير**:"يقول تعالى منكرًا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له، ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارون منه، متفرقون عنه، شاردون يمينًا وشمالا فِرَقًا فِرَقًا، وشِيعًا شِيعًا، كما قال تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} [المدثر: ٤٩، ٥١] الآية وهذه مثلها؛ فإنه قال تعالى: {فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ}، أي: فما لهؤلاء الكفار الذين عندك

=

=

يا محمد {مُهْطِعِينَ}، أي: مسرعين نافرين منك".

قوله تعالى: (فمال الذين كفروا قبلك مهطعين) يقول تعالى منكرا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارون منه متفرقون عنه، شاردون يمينا وشمالا فرقا فرقا وشيعا شيعا، فقال سبحانه (فمال الذين كفروا قبلك مهطعين) أي فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد مهطعين.

قوله تعالى: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ} [المعارج: ٣٧].

في تفسير قوله تعالى: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ} [المعارج: ٣٧]، أقوال:

**أحدها**: متفرقين، قاله الحسن، وابن لهيعة، وأنشد الأخير، قول الشاعر:

**بمعزاة أضحت صداها... ترى ركبانها عصبا عزينا**

ومنه قول الراعي:

**أخليفةَ الرحمنِ إن عشيرتي... أمسى سَراتُهُمُ إليك عِزينا**

قال الحسن:"عزين: متفرّقين، يأخذون يمينا وشمالا، يقولون: ما قال هذا الرجل".

**قال ابن كثير**:"أي: فِرَقًا حول النبي ﷺ لا يرغبون في كتاب الله، ولا في نبيه ﷺ، وهو حال من مهطعين، أي: في حال تفرقهم واختلافهم، كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء: فهم مخالفون للكتاب، مختلفون في الكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب".

**قال الزمخشري**: أي:"فرقا شتى، جمع: عزة، وأصلها: عزوة، كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى فهم مفترقون، قال الكميت:

**ونحن وجَنْدَلٌ باغٍ تَرَكْنا... كتائبَ جَنْدَلٍ شَتَّى عِزِيْنا"**.

**الثاني**: أي: مجالس مجنبين، قال مجاهد.

=

=

**الثالث**: أن «العزين»: مجالس أنداء. قاله مسلم بن خالد الزنجي.

**الرابع**: أَي: مُتَفَرّقين حلقا حلقا، واحدها: «عِزَة»، وهي: العصبة من الناس. نحو هذا المعنى ذهب ابن عباس، وأبو هريرة، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وهو اختيار مقاتل، والفراء، والطبري، والزجاج، والثعلبي.

عن الضحاك، في قوله: "{عِزِينَ}، قال: حلقا ورفقاء".

قال ابن عباس:"العزين: العصب من الناس عن يمين وشمال، معرضين عنه، يستهزئون به".

قال أبو هريرة:"العزين: الحلق المتفرّقة".

قال قتادة:"العزين: الحلق المجالس".

قال قتادة:"أي: فرقا حول نبيّ الله ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيه".

وقال ابن زيد:"المجلس الذي فيه الثلاثة والأربعة، والمجالس الثلاثة والأربعة، أولئك العزون".

وعلى قول ابن زيد، فإن «العزين»: الجمع اليسير كثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة.

**قال الفراء**:"العزون: الحلق، الجماعات كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ فيقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة- كما يقول محمد ﷺ- لندخلنها قبلهم، وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم، فأنزل الله: {أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ} [المعارج: ٣٨]".

**قال الطبري**:"يقول: عن يمينك يا محمد، وعن شمالك متفرّقين حلقا ومجالس، جماعة جماعة، معرضين عنك وعن كتاب الله".

**قال الزجاج**:"حلقًا حلقًا وجماعةً جماعة، و {عِزِينَ}: جمع: عِزَة، فكانوا عن يمينه وشِمَالِه مجتمعين".

قال مقاتل:"يعني: حلقا حلقا جلوسا لا يدنون من النبي- ﷺ- فينتفعون

=

=

بمجلسه".

قال الأصمعي: "يقال: في الدار عزون، أي: أصناف من الناس".

عن جابر بن سمرة؛ أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق، فقال: "ما لي أراكم عزين؟". وفي رواية: "مالي أَرَاكُمْ عِزِينَ حِلقًا".

عن عبادة بن نسي ، قال: دخل رسول الله ﷺ ، المسجد فرآهم عزين حلقا ، فقال: «ما لي أراكم عزين حلقا كحلق الجاهلية؟ جلس رجل خلف أخيه؟».

قال ابن عاشور: والمقصود من ذكر اليمين والشمال: الإحاطة بالجهات فاكتفي بذكر اليمين والشمال، لأنهما الجهتان اللتان يغلب حلولهما.

قوله تعالى: {أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ} [المعارج: ٣٨]، أي:"أيطمع كل واحد من هؤلاء الكفار أن يدخله الله جنة النعيم الدائم؟".

**قال الطبري:**"يقول: أيطمع كلّ امرئ من هؤلاء الذين كفروا قبلك مهطعين أن يدخله الله جنة نعيم: أي بساتين نعيم ينعم فيها".

**قال ابن كثير:**"أي: أيطمع هؤلاء- والحالة هذه- من فرارهم عن الرسول ﷺ ونفارهم عن الحق- أن يدخلوا جنات النعيم؟".

قال مقاتل:"يعنى قريشا، {أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ} كل واحد منهم يقول: إن لي في الجنة حقا، يقول ذلك استهزاء، يقول: أعطى منها ما يعطى المؤمنون".

**قال الزجاج:**"فقالوا إن كان أصحاب محمد يدخلون الجنة فإنا ندخلها قبلهم. وإن أعطوا فيها شيئًا أعطِينا أكثر منه، فقال ﷻ: {أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ}".

قال الثعلبي:"قال المفسّرون: كان المشركون يجتمعون حول النبيّ ﷺ ويتسمعون كلامه ولا ينتفعون به، بل يكذبونه ويكذبون عليه ويستهزءون به وبأصحابه، ويقولون: دخل هؤلاء الجنّة كما يقول محمد، فلندخلها قبلهم

=

=

وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم فأنزل الله سبحانه: {أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيم}".

قال مالك بن دينار: "جنات النعيم بين جنان الفردوس وبين جنات عدن، وفيها جواري خلقن من ورد الجنة، قيل: فمن يسكنها؟ قال: الذين عملوا بالمعاصي فلما ذكروا عظمتي راقبوني والذين انثنت أصلابهم من خشيتي وعزتي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب".

أي: أيطمع هؤلاء والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم.

**قال القرطبي**: قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ ويستمعون كلامه فيكذبونه ويكذبون عليه، ويستهزئون بأصحابه ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئا لنعطين أكثر منه.

قوله تعالى: {كَلَّا} [المعارج: ٣٩]، أي:"ليس الأمر كما يطمعون".

قال مقاتل:"لا يدخلها".

**قال ابن كثير**:"كلا بل مأواهم الجحيم".

قوله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ} [المعارج: ٣٩]، أي:"إنَّا خلقناهم مما يعلمون مِن ماء مهين كغيرهم، فلم يؤمنوا، فمن أين يتشرفون بدخول جنة النعيم؟".

واختلف في تفسير قوله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ} [المعارج: ٣٩]، على وجوه:

**أحدها**: معناه: إنّا خلقناهم من أجل ما يعلمون وهو الأمر والنهي والثواب والعقاب، فحذف «أجل»، كقول الشاعر:

=

=

**أأزمعت من آل ليلى احتكارا... وشطّت على ذي هوى أن تزارا**

أي: من أجل آل ليلى. حكاه الثعلبي.

**الثاني**: أن «ما» بمعنى: «من»، والمعنى: إنا خلقناهم ممن يعلمون ويعقلون لا كالبهائم. حكاه الثعلبي-أيضا-.

**الثالث**: أن قوله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ}، تقرير لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه واستبعدوا وجوده، فاستدلّ عليهم بالبداءة التي الإعادة أهون منها وهم معترفون بها، فقال {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ}، أي: من المني الضعيف، كما قال: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} [المرسلات: ٢٠]. وقال: {فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ

خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ} [الطارق: ٥- ١٠]. أفاده ابن كثير.

**الرابع**: إنا خلقناهم من نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة، فلا يستوجب الجنّة أحد منهم بكونه شريفا، لأنّ مادة الخلق واحدة، بل يستوجبونها بالطاعة. ذكره الثعلبي، وابن الجوزي، وهو معنى قول مقاتل.

قال مقاتل:"خلقوا مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ مِنْ مضغة".

**الخامس**: معناه: خلقناهم من تراب ومن نطفة، فأي شيء لهم يدخلون به الجنة، وهم لرسول الله-ﷺ- على العداوة وعلى البغضاء. قاله الزجاج.

**السادس**: إنا خلقناهم من أقذار. فبما يستحقون الجنة ولم يؤمنوا؟! حكاه ابن الجوزي، وهو معنى قول قتادة، والطبري.

قال الضحاك:"يعني: النُّطفة التي خُلق منها البشر".

عن معمر، قال:"تلا قتادة {خلقناهم مما يعلمون} [المعارج: ٣٩] فقال: «خلقت من قذر يا ابن آدم فاتق الله»".

=

=

**قال الطبري**:"أنا خلقناهم من منيّ قذر، وإنما يستوجب دخول الجنة من يستوجبه منهم بالطاعة، لا بأنه مخلوق، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم عصاة كفرة".

**قال الزمخشري**:"{كَلَّا} ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة، ثم علل ذلك بقوله: {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ}، إلى آخر السورة، وهو كلام دال على إنكارهم البعث، فكأنه قال: كلا إنهم منكرون للبعث والجزاء، فمن أين يطمعون في دخول الجنة؟".

عن أنس بن مالك، قال: "كان أبو بكر الصديق إذا خطبنا ذكر مناتن ابن آدم فذكر بدء خلقه أنّه يخرج من مخرج البول مرتين، ثمّ يقع في الرحم نطفة، ثمّ علقة، ثمّ مضغة، ثمّ يخرج من بطن أمه فيتلوث في بوله وخراه حتّى يقذر أحدنا نفسه".

عن بسر بن جحاش القرشي، أن النبي ﷺ بزق يوما في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: "قال الله: ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي، قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة".

(كلا) بل مأواهم جهنم.

ثم قال تعالى مقررا لوقوع المعاد والعذاب فيهم الذي أنكروا كونه واستبعدوا وجوده مستدلا عليهم بالبداءة التي الإعادة أهون منها، فقال سبحانه وتعالى:

(إنا خلقناهم مما يعلمون) أي من المني الضعيف، كما قال تعالى (ألم نخلقكم من ماء مهين) وقال سبحانه: (فلينظر الإنسان مما خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب).

- **قال القرطبي**: (إنا خلقناهم مما يعلمون) أي: إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، كما خلق سائر جنسهم، فليس لهم فضل

=

=

يستوجبون به الجنة، وإنما تستوجب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى، وقيل: كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم.

فقال: {إنا خلقناهم مما يعلمون} من القذر، فلا يليق بهم هذا التكبر.

وقال قتادة في هذه الآية: إنما خلقت يا ابن آدم من قذر فاتق الله.

قال ابن عاشور: وعدل عن أن يقال: إنا خلقناهم من نطفة، كما قال في آيات أخرى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) وقال (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم) وغيرها من آيات كثيرة، عدل عن ذلك إلى الموصول في قوله (مما يعلمون) توجيها للتهكم بهم إذ جادلوا وعاندوا، وعلم ما جادلوا فيه قائم بأنفسهم وهم لا يشعرون، ومنه قوله تعالى: (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون).

قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} [المعارج: ٤٠]، أي:"أقسم تعالى بنفسه، وهو رب المشارق والمغارب للشمس والقمر وسائر الكواكب؛ لما فيها من الآيات الباهرة الدالة على البعث".

**قال الطبري**: يقول:"فلا أقسم بربّ مشارق الأرض ومغاربها".

قال مقاتل:"وهو مائة وثمانون مشرقا، ومائة وثمانون مغربا في كل منزلة تطلع يومين في السنة، تطلع يومين في السنة، تطلع فيها الشمس وتغرب فيها، فأقسم الله- تعالى- بالمشارق والمغارب".

**قال الزجاج**:"أي: مشارق الشمس ومغاربها، وكذلك القَمَرُ، وهي مشارق الصيف ومشارق الشتاء وَمَغَارب الصيف، ومغارب الشتاء فتشرق الشمس كل يوم من مشرق، وتغرب من مغرب، وكذلك القَمَر".

**قال ابن كثير**:"أي: الذي خلق السموات والأرض، وجعل مشرقا ومغربا،

=

=

وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها. وتقدير الكلام: ليس الأمر كما يزعمون أن لا معاد ولا حساب، ولا بعث ولا نشور، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة. ولهذا أتى ب "لا" في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي، وهو مضمون الكلام، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة، وهو خلق السموات والأرض، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات، وسائر صنوف الموجودات؛ ولهذا قال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر: ٥٧] وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأحقاف: ٣٣]. وقال تعالى في الآية الأخرى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨١، ٨٢]".

عن عكرمة في قوله: "{برب المشارق والمغارب} قال: المنازل التي تجري فيها الشمس والقمر".

قال قتادة:"للشمس ثلاثمائة وستون مَشرقًا، وثلاثمائة وستون مغربًا".

عن ابن عباس: "{فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ}، قال: هو مطلع الشمس ومغربها، ومطلع القمر ومغربه".

قال ابن عباس:"إن الشمس تطلع في ثلاث مئة وستين كوّة، فإذا طلعت في كوّة لم تطلع منها حتى العام المقبل، ولا تطلع إلا وهي كارهة".

عن عكرمة، قال، قال ابن عباس: إن الشمس تطلع كلّ سنة في ثلاث مئة وستين كوّة، تطلع كلّ يوم في كوّة، لا ترجع إلى تلك الكوّة إلى ذلك اليوم من العام المقبل، ولا تطلع إلا وهي كارهة، تقول: ربّ لا تطلعني على عبادك، فإني أراهم

=

=

يعصونك، يعملون بمعاصيك أراهم، قال أولم تسمعوا إلى قول أمية بن أبي الصلت:

حتى تُجَرَّ وتُجْلَدَ

قلت: يا مولاه وتجلد الشمس؟ فقال: عضضت بهن أبيك، إنما اضطره الروّي إلى الجلد".

قرأ أبو حيوة:"برب المشرق والمغرب".

قوله تعالى: {إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ} [المعارج: ٤٠- ٤١]، أي:"إنا لقادرون قدرة تامة على أن نستبدل بهم قومًا أفضل منهم وأطوع لله".

**قال الطبري**: "يقول: إنا لقادرون على أن نهلكهم، ونأتي بخير منهم من الخلق يطيعونني ولا يعصونني".

قال مقاتل:"يعنى: على أن نأتي بخلق أمثل منهم، وأطوع لله منهم، وأرضى منهم".

**وقال ابن كثير**:"أي: يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإن قدرته صالحة لذلك".

قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} [المعارج: ٤١] أي:"وما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نأتي بقوم آخرين خير منهم".

**قال الطبري**: "يقول: وما يفوتنا منهم أحد بأمر نريده منه، فيعجزنا هربا".

قال مقاتل:"يعنى: وما نحن بمعجزين إن أردنا ذلك".

**قال ابن كثير**:"أي: بعاجزين. كما قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} [القيامة: ٣، ٤]. وقال تعالى: {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ} [الواقعة: ٦، ٦١]".

=

=

وفي المراد بالتبديل قولان:

قيل: أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه، ورجحه ابن كثير.

كقوله تعالى: (نحن قدرنا بينكم الموتى وما نحن بمسبوقين. على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون).

وقيل: نبدل خيرا منهم أمة تطيعنا ولا تعصينا، ورجح هذا القول ابن جرير.

كقوله تعالى: (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم).

- **قال القرطبي**: نقدر على إهلاكهم والذهاب بهم، والمجيء بخير منهم في الفضل والطوع والمال.

- وعلى هذا: ويكون هذا تهديدا لهم بأن سيستأصلهم ويأتي بقوم آخرين.

كما قال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد).

وقوله (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم)

وفي هذا تثبيت للنبيء ﷺ وتذكير بأن الله عالم بحالهم.

(وما نحن بمسبوقين) أي بعاجزين.

**قال السعدي**: أي ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده.

قوله تعالى: {فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا} [المعارج: ٤٢]، أي:"اتركهم يا محمد يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم، واشتغل أنت بما أُمرت به".

قال مقاتل:"خل عنهم يا محمد {يَخُوضُوا} في الباطل، {وَيَلْعَبُوا} ويلهوا في دنياهم".

**قال الطبري**:"يقول لنبيه محمد ﷺ: فذر هؤلاء المشركين المهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين، يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في هذه الدنيا".

**قال ابن كثير**:"أي: دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم".

قال أبو عبيدة: وهذا "وعيد".

=

=

**قال الزجاج**:"وهذا أَمْر على جهة الوعيد، كما تقول: اصنع ما شئت فإني أعاقبك عليه".

قوله تعالى: {حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} [المعارج: ٤٢]، أي:"حتى يلاقوا يوم القيامة الذي يوعدون فيه بالعذاب".

**قال السدي**:"يوم القيامة".

**قال الطبري**:"يقول: حتى يلاقوا عذاب يوم القيامة الذي يوعدونه".

**قال ابن كثير**:"أي: فسيعلمون غب ذلك ويذوقون وباله".

قال مقاتل:"وذلك أن الله أوعدهم في الدنيا على ألسنة الرسل أن العذاب كائن، لما كذب كفار مكة النبي- ﷺ، فقال الله ﷻ: {فَذَرْهُمْ}، يعني: قريشا، يعني: فخل عنهم {يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} العذاب فيه".

وقرا ابن محيصن ومجاهد:"حَتَّى يَلْقَوْا".

- **قال ابن عاشور**: ومعنى الأمر بالترك في قوله (فذرهم) أنه أمر بترك ما أهم النبي ﷺ من عنادهم وإصرارهم على الكفر مع وضوح الحجج على إثبات البعث.

- والخوض: الكلام الكثير، والمراد خوضهم في القرآن وشأن النبي ﷺ والمسلمين.

- **قال القرطبي**: أي اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم، على جهة الوعيد، واشتغل أنت بما أمرت به ولا يعظمن عليك شركهم، فإن لهم يوما يلقون فيه ما وعدوا.

قوله تعالى: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا} [المعارج: ٤٣]، أي:"يوم يخرجون من القبور مسرعين".

**قال الطبري**: يقول:"حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدونه يوم يخرجون من

=

=

الأجداث وهي القبور".

عن قتادة: "{يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجْدَاثِ سِرَاعًا}، أي: من القبور سراعا".

عن ابن عباس، قوله: "{مِنَ الْأَجْدَاث}، يقول: من القبور".

**قال الزجاج:**"«الأجداث»: القبور، واحدها: جدث".

قال يحيى: "بلغني عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، قال: تجعل الأرواح في الصور ثم ينفخ فيه صاحب الصور، فيذهب كل روح إلى جسده مثل النحل، فتدخل الأرواح في أجسادها".

قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} [المعارج: ٤٤]، أي:"كأنهم يسعون ويستبقون إلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها".

**قال ابن كثير:**"أي: يقومون من القبور إذا دعاهم الرب، تبارك وتعالى، لموقف الحساب، ينهضون سراعًا كأنهم إلى نصب يوفضون".

قال مقاتل:"يقول: كأنهم إلى علم يسعون إليه قد نصب لهم".

**قال الطبري:**"يقول: كأنهم إلى عَلَم قد نُصب لهم يستبقون".

عن مجاهد، قوله: "{يُوفِضُونَ}، قال: يستبقون".

**قال الفراء:**"الإيفاض: الإسراع. وقال الشاعر:

**لأنْعَتَنْ نَعامَةً مِيفاضَا... خَرْجاءَ تَغْدو تطْلُبُ الإضَاضَا".**

**قال الزجاج:**"معنى {يوفِضُونَ}: يُسْرِعُون".

وقال المبرد: "الإيفاض: ضرب من السير".

وفي قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} [المعارج: ٤٣]، قراءتان:

القراءة الأولى: «نُصُبٍ» بضم النون والصاد، بمعنى: الأصنام، وقد كانوا يسرعون إلى أصنامهم إذا ذهبوا إليها، فيعظموها ويستلموها.

**قال ابن كثير:**"أي: كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون

=

=

إلى النصب إذا عاينوه يوفضون، يبتدرون، أيهم يستلمه أول.

قال الحسن:"يبتدرون إلى نصبهم أيهم يستلمه أوّل".

قال الحسن: "كانوا يجتمعون غدوة فيجلسون فإذا طلعت الشمس تبادروا إلى أنصابهم".

قال ابن زيد:"«النصب»: حجارة كانوا يعبدونها، حجارة طوال يقال لها: «نصب»، يُسرعون إليه كما يُسرعون إلى نصب يوفضون؛ والأنصاب التي كان أهل الجاهلية يعبدونها ويأتونها ويعظمونها، كان أحدهم يحمله معه، فإذا رأى أحسن منه أخذه، وألقى هذا، فقال له: {كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}".

قال الراغب:"نَصْبُ الشيءِ: وَضْعُهُ وضعًا ناتئًا كنَصْبِ الرُّمْح، والبِنَاء والحَجَر، والنَّصِيبُ: الحجارة تُنْصَبُ على الشيءِ، وجمْعُه: نَصَائِبُ ونُصُبٌ، وكان للعَرَبِ حِجَارةٌ تعْبُدُها وتَذْبَحُ عليها. قال تعالى: {كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُون} [المعارج: ٤٣]، قال: {وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُب} [المائدة: ٣]".

الثانية: «إلى نُصْبٍ»، بفتح النون وجزم الصاد، يعنون: إلى شيء منصوب، يقال: فلان نصب عيني.

قال أبو عبيدة:"«النصب»: العلم والصنم الذي نصبوه".

قال ابن حسنون:"يعني: إلى عَلَمٍ يُسرِعونَ -بلغة قريش-".

قال الكلبي: "إلى علم وراية".

قال ابن عباس، وقتادة:"إلى علم يسعون".

قال الضحاك:"إلى علم ينطلقون".

قال سفيان:"إلى علم يستبقون".

قال أبو العالية:"إلى علامات يستبقون".

=

=

قال يحيى بن أبي كثير:"إلى غاية يستبقون". وحكي عن زيد بن ثابت، وأبي العالية، مثله.

وحكي الثعلبي عن ابن عباس، قال:"يعني إلى غاية، وذلك حين سمعوا الصيحة الأخيرة".

وقال أبو العلاء: "سمعت بعض العرب يقول: النصب: الشبكة التي يقع فيها الصيد فيتسارع إليها صاحبها مخافة أن يفلت الصيد منها".

قال ابن عاشور: أي كأنهم ذاهبون إلى صنم، شبه إسراعهم يوم القيامة إلى الحشر بإسراعهم في الدنيا إلى الأصنام لزيارتها لأن لهذا الإسراع اختصاصا بهم، وفي هذا التشبيه إدماج لتفظيع حالهم في عبادة الأصنام وإيماء إلى أن إسراعهم يوم القيامة إسراع دع، ودفع جزاء على إسراعهم للأصنام.

قوله تعالى: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ} [المعارج: ٤٤]، أي:"ذليلة أبصارهم منكسرة إلى الأرض".

**قال ابن كثير**:"أي: خاضعة".

**قال الطبري**:"يقول: خاضعة أبصارهم للذي هم فيه من الخزي والهوان".

قال مقاتل:"يعني: خافضة أبصارهم ذليلة عند معاينة النار".

عن قتادة: "{خاشِعَةً أبْصارُهُمْ} بسواد الوجوه".

قوله تعالى: {تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} [المعارج: ٤٤]، أي:"تغشاهم الحقارة والمهانة".

قال مقاتل:"يعني: تغشاهم مذلة".

**قال الطبري**:"يقول: تغشاهم ذلة".

**قال ابن كثير**:"أي: في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة".

قوله تعالى: {ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [المعارج: ٤٤]، أي:"ذلك هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا، وكانوا به يهزؤون ويُكَذِّبون".

=

=

**قال الطبري**: يقول:"هذا اليوم الذي وصفت صفته، وهو يوم القيامة، الذي كان مشركو قريش يوعدونَ في الدنيا أنهم لا قوه في الآخرة، كانوا يُكَذّبون به".

عن قتادة: "{ذَلِكَ الْيَوْمُ}: يوم القيامة، {الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}".

قال محمد بن على الكرجي القصَّاب:"وفيما ذكر- جل وتعالى- من هذه الخصال كلها من عند قوله: {فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ} [المعارج: ٣٦]، إلى آخر السورة دليل على أن المؤمن لا يسلك مسلكهم، ولا يؤخذ به طريقهم، ولا يرهقهم ذلك ولا هوان، إذ لو ساواهم المؤمنون- في هذه النعوت أو في بعضها- ما كانت عقوبة لهم، وذلك بشارة للمؤمنين كبيرة".

- وصفت أبصارهم بالخشوع مع أنه وصف الكل لغاية ظهور آثاره فيها

(ترهقهم ذلة) أي يغشاهم الذل والهوان من كل مكان، في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة.

(ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) أي: هذا اليوم الذي وعدوا به في الدنيا وكانوا يهزءون ويكذبون، فاليوم يرون عقابهم وجزاهم.

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله ﷻ: {فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون (٤٠) على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين (٤١)} [المعارج: ٤٠، ٤١]، أقسم- سبحانه- بـ "رب المشارق والمغارب"، وهي: إما مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو أن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب.

فلذلك جمع في موضع، وأفرد في موضع، وثنى في موضع آخر، فقال تعالى: {رب المشرقين ورب المغربين (١٧)} [الرحمن: ١٧]، فقيل: هما مشرقا الصيف والشتاء.

وجاء في كل موضع ما يناسبه، فجاء في "سورة الرحمن": {رب المشرقين ورب

=

=

المغربين (١٧)}؛ لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات، فذكر فيها الخلق والتعليم، والشمس والقمر، والنجم والشجر، والسماء والأرض، والحب والثمر، والجن والإنس، ومادة أبي البشر، ومادة أبي الجن، والبحرين، والجنة والنار، وقسم الجنة إلى: جنتين عاليتين، وجنتين دونهما، وأخبر أن في كل جنة عينين؛ فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين والمغربين.

وأما سورة {سأل سائل} فإنه أقسم- سبحانه- على عموم قدرته وكمالها، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم، فذكر "المشارق" و"المغارب" بلفظ الجمع؛ إذ هو أدل على المقسم عليه، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب. فكل ذلك آية ودلالة على قدرته- تعالى- على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين، وينشئهم فيما لا يعلمون، فيأتي بهم في نشأة أخرى، كما تأتي الشمس كل يوم من مطلع، وتذهب في مغرب.

وأما في "سورة المزمل" فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته، وأنه كما تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده فكذلك يجب أن يفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده. فليس للمشرق والمغرب رب سواه، فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه، ولذلك قال موسى لفرعون حين سأله: {وما رب العالمين (٢٣)} [الشعراء: ٢٣] فقال: {رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون (٢٨)} [الشعراء: ٢٨].

وفي ربوبيته- سبحانه- للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته السماوات وما حوته من الشمس والقمر والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين، وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه.

ثم قال: {إنا لقادرون (٤٠) على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين (٤١)}

=

=

[المعارج: ٤٠، ٤١]، أي: لقادرون على أن نذهب بهم، ونأتي بأطوع لنا منهم، وخير منهم، كما قال تعالى: {إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا (١٣٣)} [النساء: ١٣٣].

وقوله تعالى: {وما نحن بمسبوقين (٤١)}، أي: لا يفوتني ذلك إذا أردته، ولا يمتنع مني. وعبر عن هذا المعنى بقوله: {وما نحن بمسبوقين (٤١)}؛ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه، ولهذا عدى بـ"على" دون "إلى"، كما في قوله: {وما نحن بمسبوقين (٦٠) على أن نبدل أمثالكم} [الواقعة: ٦٠، ٦١]، فإنه لما ضمنه معنى: مغلوبين ومقهورين؛ عداه بـ"على"، بخلاف: سبقته إليه، فإنه فرق بين (سبقته عليه) و (سبقته إليه)؛ فالأول بمعنى: غلبته وقهرته عليه، والثاني بمعنى: وصلت إليه قبله.

فصل: وقد وقع الإخبار عن قدرته- سبحانه- على تبديل غيرهم في مواضع من القرآن؛ ففي بعضها قدرته على تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قوما غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم. فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق:

فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن يذهب بهم، ويأتي بأطوع وأتقى له منهم في الدنيا. وكذلك قوله: {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم (٣٨)} [محمد: ٣٨]، يعني: بل يكونوا خيرا منكم.

قال مجاهد: "يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيرا من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله، ولم يستبدل بهم".

وأما ذكره تبديل أمثالهم، ففي "سورة الواقعة" و"سورة الإنسان"، فقال في "سورة الواقعة": {نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين (٦٠) على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون (٦١)} [الواقعة: ٦٠، ٦١]، وقال في

=

=

"سورة الإنسان": {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا (٢٨)} [الإنسان: ٢٨]، قال كثير من المفسرين: المعنى: أنا إذا أردنا أن نخلق خلقا غيركم لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك. وفي قوله: {وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا (٢٨)} إذا شئنا أهلكناهم، وأتينا بأشباههم، فجعلناهم بدلا منهم.

قال المهدوي: "قوما موافقين لهم في الخلق، مخالفين لهم في العمل"، ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول.

وعلى هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالى: {إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين} [النساء: ١٣٣]، فيكون استدلاله بقدرته على إذهابهم، والإتيان بأمثالهم = على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

ثم استدل- سبحانه- بالنشأة الأولى، فذكرهم بها فقال تعالى: {ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون (٦٢)} [الواقعة: ٦٢]، فنبههم بما علموه وعاينوه على صدق ما أخبرتهم به رسله من النشأة الثانية.

والذي عندي في معنى هاتين الآيتين- وهما آية "الواقعة" و"الإنسان" -؛ أن المراد بتبديل أمثالهم: الخلق الجديد والنشأة الآخرة التي وعدوا بها.

وقد وفق الزمخشري لفهم هذا من "سورة الإنسان"، فقال: "وبدلنا أمثالهم في شدة الأسر، يعني: النشأة الأخرى"، ثم قال: "وقيل: بدلنا غيرهم ممن يطيع، وحقه أن يأتي بـ "إن" لا بـ "إذا"، كقوله: {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم}".

قلت: وإتيانه بـ "إذا" التي لا تكون إلا للمحقق الوقوع يدل على تحقق وقوع هذا التبديل وأنه واقع لا محالة، وذلك هو "النشأة الأخرى" التي استدل على إمكانها بقوله: {ولقد علمتم النشأة الأولى}، واستدل على المثل بالمثل، وعلى ما أنكروه بما عاينوه وشاهدوه.

وكونهم "أمثالهم" هو إنشاؤهم خلقا جديدا بعينه، فهم هم بأعيانهم، وهم

=

=

أمثالهم، فهم أنفسهم يعادون. فإذا قلت للمعاد: هذا هو الأول بعينه؛ صدقت، وإن قلت: هو مثله؛ صدقت. فهو هو معادا، وهو مثل الأول.

وقد أوضح هذا- سبحانه- بقوله: {بل هم في لبس من خلق جديد (١٥)} [ق: ١٥]، فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم أمثالهم. وقد سماه الله سبحانه وتعالى: إعادة، والمعاد مثل المبتدأ، وسماه "نشأة أخرى" وهي مثل الأولى، وسماه "خلقا جديدا" وهو مثل الخلق الأول كما قال تعالى: {أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد (١٥)} [ق: ١٥]، وسماهم "أمثالا" وهم هم. فتطابقت ألفاظ القرآن، وصدق بعضها بعضا، وبين بعضها بعضا.

وبهذا تزول إشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي أخبرت به الرسل عن الله ﷻ. ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين أنهم غيرهم من كل وجه، فهذا خطأ قطعا- معاذ الله من اعتقاده -، بل هم أمثالهم، وهم أعيانهم. وإذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة إلا ضيق العطن، صغير العقل، ضعيف العلم.

وتأمل قوله ﷻ في "الواقعة": {أفرأيتم ما تمنون (٥٨) أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون (٥٩) نحن قدرنا بينكم الموت} [الواقعة: ٥٨- ٦٠]، كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها؛ مستدلا بها على النشأة الثانية بقوله: {وما نحن بمسبوقين (٦٠) على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون} [الواقعة: ٦٠، ٦١]، فإنكم إنما علمتم "النشأة الأولى" في بطون أمهاتكم ومبدؤها مما تمنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمونه، فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم. وهذا من كمال قدرة الرب تبارك وتعالى ومشيئته، لو تذكرتم أحوال "النشأة الأولى" لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها.

فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا، وأقرب إلى العقل والفهم، وأبعد من كل

=

=

شبهة وشك؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به رسله أو الإيمان.

وقال- تعالى- في "سورة الإنسان": {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم} [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأولى، ثم قال: {وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا (٢٨)} فهذه النشأة الأخرى. ونظير هذا: {وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى (٤٥) من نطفة إذا تمنى (٤٦) وأن عليه النشأة الأخرى (٤٧)} [النجم: ٤٥- ٤٧]، وهذا في القرآن كثير جدا، يقرن بين النشأتين مذكرا للفطر والعقول بإحداهما على الأخرى. والله أعلم.

فصل: فلما أقام عليهم الحجة وقطع المعذرة قال تعالى: {فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون (٤٢)} [المعارج: ٤٢]، وهذا تهديد شديد يتضمن: اترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسي، ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض بالباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه. فالأول ضد العلم النافع، والثاني ضد العمل الصالح؛ فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب. وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول، لا بد له من هذين الأمرين.

ثم ذكر- سبحانه- حالهم عند خروجهم من القبور، فقال: {يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون (٤٣)} [المعارج: ٤٣]، أي: يسرعون.

و"النصب": العلم والغاية التي تنصب فيؤمونها.

وهذا من ألطف التشبيه، وأبلغه، وأبينه، وأحسنه؛ فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي، يؤمون الصوت، لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة كما قال تعالى: {يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له} [طه: ١٠٨] أي: يقبلون من كل أوب

=

=

إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه.

**قال الفراء:** "وهذا كما تقول: دعوتني دعوة لا عوج لك عنها".

وقال الزجاج: "المعنى: لا عوج لهم عن دعائه، أي: لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده".

فإن قلت: إذا كان المعنى (لا عوج لهم عن دعوته)، فكيف قال: {لا عوج له}؟

قيل: قالت طائفة: "اللام" بمعنى "عن"، أي: لا عوج عنه.

وقالت طائفة: المعنى: لا عوج لهم عن دعائه، كما قال الزجاج.

وفي القولين تكلف ظاهر.

ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه؛ كان مجيء "اللام" منتظما للمعنيين ودالا عليهما، والمعنى: لا عوج لدعائه؛ لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له.

ثم قال تعالى: {خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة} [المعارج: ٤٤]، فوصفهم بذل الظاهر، وهو خشوع الأبصار، وذل الباطن، وهو ما يرهقهم من الذل الذي خشعت عنه أبصارهم.

وقريب من هذا قوله ﷻ: {ووجوه يومئذ باسرة (٢٤) تظن أن يفعل بها فاقرة (٢٥)} [القيامة: ٢٤، ٢٥]، ونظيره قوله تعالى: {وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما} [يونس: ٢٧].

وضد هذا قوله تعالى: {إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى (١١٨)} [طه: ١١٨]، فنفى عنه الجوع الذي هو ذل الباطن، والعري الذي هو ذل الظاهر.

وضده- أيضا- قوله تعالى: {ولقاهم نضرة وسرورا (١١)} [الإنسان: ١١]، فالنضرة عز الظاهر وجماله، والسرور عز الباطن وجماله.

ومثله- أيضا- قوله تعالى: {عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور

=

## سورة نوح[1]

=

من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا (٢١)} [الإنسان: ٢١]، فجمع بين زينة الظاهر والباطن.

ومثله قوله تعالى: {يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير} [الأعراف: ٢٦]، فجمع بين زينة الظاهر والباطن.

ومثله- أيضا- قوله تعالى: {إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (٦) وحفظا من كل شيطان مارد (٧)} [الصافات: ٦، ٧]، فزين ظاهرها بالنجوم، وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم.

ومثله- أيضا- قوله تعالى: {وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات} [غافر: ٦٤].

وقريب منه قوله تعالى: {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} [البقرة: ١٩٧]، فجمع لهم بين الزادين.

ومنه قوله: {فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (١٠٦) وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون (١٠٧)} [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن.

ومنه قول امرأة العزيز: {فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم} [يوسف: ٣٢]، فوصفت ظاهره بالجمال، وباطنه بالعفة، فوصفته بجمال الظاهر والباطن، فكأنها قالت: هذا ظاهره، وباطنه أحسن من ظاهره.

وهذا كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن قدرا وشرعا. والله أعلم بالصواب.

(١) قال ابن عطية:"هي مكية بإجماع من المتأولين".

=

=

وقال ابن الجوزي:"هي مكّيّة كلّها بإجماعهم".

وقال الفيروزبآدي: السّورة مكِّيّة.

* آياتها ثمان وعشرون فى عدّ الكوفة، وتسع فى عدّ البصرة والشام، وثلاثون عند الباقين. وكلماتها مائتان وأربع وعشرون. وحروفها تسعمائة وتسع وخمسون. والمختلف فيها أربع: سُوَاعًا، {فَأُدْخِلُوا نَارًا} {وَنَسْرًا}، {وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا}. فواصل آياتها (منا) على الميم آية: أَليم.

* أسماء السورة:

تسمى «سورة نوح» وبهذا الاسم اشتهرت هذه السورة، وكتبت في المصاحف وكتب التفسير والسنة، ووجه تسميتها بذلك لذكره-عليه الصلاة والسلام- وقصته مع قومه في مفتتح السورة ومختتمها، كما قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [نوح: ١].

قال المهايمي:"سميت به لاشتمالها على تفاصيل دعوته وأدعيته".

وتسمى سورة «إنا أرسلنا نوحا» ترجم لها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، «إنا أرسلنا»، ولعله كان الشائع في كلام السلف تسميتها بأول آية بها، كما ورد عن ابن الزبير-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال:"نزلت سورة «إنا أرسلنا نوحا» بمكة".

* معظم مقصود السّورة: أَمر نوح بالدعوة، وشكاية نوح مِن قومه، والاستغفار لسعة النعمة، وتحويل حال الخَلْق من حال إِلى حال، وإِظهار العجائب على سقف السّماءِ، وظهور دلائل القدرة على بسيط الأَرض، وغَرَق قوم نوح، ودعاؤه عليهم بالهلاك، وللمؤمنين بالرّحمة، وللظَّالمين بالتَبَار والخسارة، فى قوله: {وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ تَبَارًا}.

* المتشابه: {قَالَ نُوحٌ} بغير واو، ثم قال: {وَقَالَ نُوحٌ} بزيادة الواو؛ لأَنَّ الأَوّل ابتداء دعاء والثانى عطف عليه.

=

## بسم الله الرحمن الرحيم(١)

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١)

{إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أَنْ أَنْذِرْ} أَيْ بِإِنْذَارِ {قَوْمك مِنْ قَبْل أَنْ يَأْتِيهِمْ} إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا {عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة.

قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢).

{قَالَ يَا قَوْم إنِّي لَكُمْ نَذِير مُبِين} بَيِّن الْإِنْذَار.

أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣).

{أن} أي بأن أقول لكم {اعبدوا الله واتقوه وأطيعون.

يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤).

{يَغْفِر لَكُمْ مِنْ ذُنُوبكُمْ} مِنْ زَائِدَة فَإِنَّ الْإِسْلَام يُغْفَر بِهِ مَا قَبْله أَوْ تَبْعِيضِيَّةٌ لِإِخْرَاجِ حُقُوق الْعِبَاد {وَيُؤَخِّركُمْ} بِلَا عَذَاب {إلَى أَجَل مُسَمَّى} أَجَل الْمَوْت {إنَّ أَجَل الله} بِعَذَابِكُمْ إنْ لَمْ تُؤْمِنُوا {إذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّر لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} ذَلِكَ لَآمَنْتُمْ(٢).

---

=

قوله: {وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ضَلاَلًا} وبعده: {إِلاَّ تَبَارًا}؛ لأَنَّ الأَوّل وقع بعد قوله: {وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا}، والثَّانى بعد قوله {لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض} فذكر فى كلّ مكان ما اقتضاه، وما شاكل معناه. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٨٢).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} [نوح: ١].

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا} وهو نوح بن لمَكَ {إِلَى

=

=

قَوْمِهِ}".

عن أبي صالح قال:"أرسل: بعث".

عن أنس، أن النبي ﷺ قال: "أول نبي أرسل نوح ﷺ".

وعن قتادة: "أن نوحا بعث من الجزيرة".

قال مقاتل:"«نوح» -بالسريانية-: الساكن الذي سكنت إليه الأرض، وهو نوح بن لمك- ﷺ-".

قال محمد بن إسحاق: "كان من حديث نوح وحديث قومه فيما قص الله على لسان نبيه ﷺ، وما يذكر أهل الكتاب من أهل التوراة، وما حفظ من الأحاديث عن عبد الله بن عباس، وعن عبيد بن عمير أن الله بعث نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله، وقد فشت في الأرض المعاصي، وكثرت فيها الجبابرة، وعتوا على الله عتوا كبيرا، وكان نوح فيما يذكر أهل العلم حليما صبورا لم يلق نبي من قومه من البلايا أكثر مما لقي إلا نبي قتل".

**قال ابن كثير**:"نوح -عليه السلام- هو أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم، عليه السلام، وهو: نوح بن لامك بن متوشلح بن خَنُوخ- وهو إدريس النبي عليه السلام- فيما، يزعمون، وهو أول من خط بالقلم- ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم، عليه السلام.. وقد كان بين آدم إلى زمن نوح- عليهما السلام-، عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدَ وصوروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجسادًا على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين "ودًا وسواعًا ويَغُوث وَيَعُوق ونسرًا". فلما

=

=

تفاقم الأمر بعث الله، سبحانه وتعالى- وله الحمد والمنة- رسوله نوحا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له".

قوله تعالى: {أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [نوح: ١]، أي:"وقلنا له: حذِّر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب موجع".

قال مقاتل:"{أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ} العذاب {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ}، يعني: وجيعا في الدنيا وهو الغرق".

**قال الطبري**:"يقول: أرسلناه إليهم بأن أنذر قومك".

**قال ابن كثير**:"يقول تعالى مخبرا عن نوح، عليه السلام، أنه أرسله إلى قومه آمرا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم".

- **قال السعدي**: لم يذكر الله في هذه السورة سوى قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك.

- فضائل نوح عليه السلام ؟

**أولا**: أنه أول رسول للبشر.

كما قال تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) وفي حديث الشفاعة الطويل (يقول الناس يا نوح! أنت أول رسول أرسله الله إلى الأرض...) متفق عليه.

**ثانيا**: أن الله أثنى عليه.

فقال تعالى (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا).

**ثالثا**: أحد أولي العزم من الرسل المذكورين في آيتي الشورى والأحزاب.

قال تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا).

**رابعا**: استجاب الله دعاءه ونجاه من الكرب العظيم وجعل ذريته هم الباقين.

=

=

كما قال تعالى (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين).

وكان بين آدم إلى زمان نوح عليهما السلام عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

- قوله تعالى (لقد أرسلنا) ضمير الجمع للتعظيم والتفخيم.

- والحكمة من ذكر قصص الأنبياء على نبيه ﷺ.

**أولا**: التسلية له عليه الصلاة والسلام، وبيان أن الشدة التي لا قاها من قومه قد لاقاها إخوانه من الأنبياء قبله، كما قال تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم)

**ثانيا**: أن في ذلك تهديدا للمكذبين المشركين، لأنه يهددهم بأنه سينزل بهم ما نزل بإخوانهم الكفار الأولين

**ثالثا**: التنبيه على أنه تعالى وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ولكنه لا يهملهم بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه.

ورابعها: بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد عليه عليه السلام ، لأنه عليه السلام كان أميا وما طالع كتابا ولا تلمذ أستاذا، فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ، دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله، وذلك يدل على صحت نبوته.

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [نوح: ٢].

**قال الطبري**: "قال نوح لقومه: يا قوم إني لكم نذير مبين، أنذركم عذاب الله فاحذروه أن ينزل بكم على كفركم به، قد أبنت لكم إنذاري إياكم".

قال مقاتل:"يعني: بيّن".

**قال ابن كثير**:"أي: بين النذارة، ظاهر الأمر واضحه".

أي: خوف قومك وحذرهم إن لم يؤمنوا من عذاب شديد مؤلم.

=

- **قال ابن عاشور**: ومعنى (من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) أنه يخوفهم غضب الله تعالى عليهم إذ عبدوا الأصنام ولم يتقوا الله ولم يطيعوا ما جاءهم به رسوله، فأمره الله أن ينذرهم عذابا يأتيهم من الله ليكون إنذاره مقدما على حلول العذاب.

- وقوم نوح هم الناس الذين كانوا عامرين الأرض يومئذ، إذ لا يوجد غيرهم على الأرض كما هو ظاهر حديث الشفاعة وذلك صريح ما في التوراة. [قاله ابن عاشور].

- **قال ابن عاشور**: وعدل عن أن يقال له: أنذر الناس إلى قوله: {أنذر قومك} إلهابا لنفس نوح ليكون شديد الحرص على ما فيه نجاتهم من العذاب، فإن فيهم أبناءه وقرابته وأحبته.

- قوله تعالى (إنا أرسلنا) للتعظيم.

(قال يا قوم إني لكم نذير) أي: أخوفكم بعذاب الله إن لم تؤمنوا (مبين) أي: بين النذارة واضحة.

والإنذار: الإعلام المقترن بالتخويف والتهديد، أي: أعلمكم مهددا لكم بعذاب الله إن لم تنتهوا عن تكذيبكم وكفركم.

قوله تعالى: {أَنِ اعْبُدُوا اللهَ} [نوح: ٣]، أي:"وإني رسول الله إليكم فاعبدوه وحده".

قال مقاتل:"يقول: أن وحدوا الله".

**قال الطبري**: "يقول: إني لكم نذير أنذركم، وآمركم بعبادة الله".

قال ابن عباس:"{اعْبُدُوا}، أي: وحدوا".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوهُ} [نوح: ٣]، أي:"وخافوا عقابه".

**قال الطبري**:"يقول: واتقوا عقابه بالإيمان به، والعمل بطاعته".

قال مقاتل:"أن تشركوا به شيئا".

=

**قال ابن كثير**:"أي: اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه".

قوله تعالى: {وَأَطِيعُونِ} [نوح: ٣]، أي:"وأطيعوني فيما آمركم به، وأنهاكم عنه".

**قال الطبري**:"يقول: وانتهوا إلى ما آمركم به، واقبلوا نصيحتي لكم".

قال مقاتل:"فيما آمركم به من النصيحة بأنه ليس له شريك".

**قال ابن كثير**:"فيما آمركم به وأنهاكم عنه".

عن قتادة، قوله: "{أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ}، قال: أرسل الله المرسلين بأن يُعْبَد اللهُ وحده، وأن تتقي محارمه، وأن يُطاع أمره".

**قال الزجاج**:"أرسل الله نوحًا وجميع الأنبياء بالأمر بعبادته وإيثار تقواه وطاعة رسله".

قال السمعاني:"وهذا هو الذي بعث الله لأجله الرسل، فإن الله تعالى ما بعث رسولا إلا ليعبدوه ويتقوه ويطيعوا رسوله".

أي فقال لهم: اعبدوا الله وحده، واتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه، وأطيعوني فيما أمرتكم به من طاعة الله، وترك عبادة الأوثان والأصنام.

كما قال تعالى في سورة الأعراف (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم).

وقال تعالى في سورة المؤمنون (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون).

قوله تعالى: {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} [نوح: ٤]، أي:"فإن أطعتموني واستجبتم لي يصفح الله عن ذنوبكم ويغفر لكم".

**قال الطبري**:"يقول: يغفر لكم ذنوبكم".

**قال الفراء**:"«من»، قَدْ تكون لجميع ما وقعت عَلَيْهِ، ولبعضه. فأمَّا البعض

=

=

فقولك: اشتريت من عبيدك، وأمَّا الجميع فقولك: رَوِيت من مائك، فإذا كانت فِي موضع جمع فكأنّ مِنْ: عنْ كما تَقُولُ: اشتكيت من ماء شربته، وعن ماء شربته، كأنه فِي الكلام: يغفر لكم عنْ أذنابكم، ومن أذنابكم".

**قال الزجاج**: معناه: "يغفر لكم ذنوبكم، ودخلت «مِنْ» تختص الذنوب من سائر الأشياء، لم تدخل لتَبْعيض الذنُوب، ومثله قوله: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ}، معناه: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، ليس «الرجس» -ههنا- بعض: «الأوثان»".

**قال ابن كثير**:"أي: إذا فعلتم ما آمرتكم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم، غفر الله لكم ذنوبكم. و «من» -هاهنا- قيل: إنها زائدة. ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل. ومنه قول بعض العرب: "قد كان من مطر". وقيل: إنها بمعنى "عن" تقديره: يصفح لكم عن ذنوبكم واختاره ابن جرير وقيل: إنها للتبعيض، أي يغفر لكم الذنوب العظام التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام".

وقال السمعاني:"أي: من ذنوبكم التي أوعدكم عليها العقوبة. وقد كانت لهم ذنوب أخر عفا الله عنها".

أي إذا فعلتم ما آمركم به، وصدقتم ما أرسلت به إليكم، غفر الله لكم ذنوبكم.

اختلف في معنى (من):

قيل: أنها بمعنى (عن) تقديره: يصفح لكم عن ذنوبكم، واختاره ابن جرير.

وقيل: أنها تبعيضية. ثم اختلفوا في المراد بالبعض:

قيل: إن المراد بالبعض المغفور قبل الإيمان، هو ما يتعلق بحقوق الله فقط دون ما يتعلق بحقوق العباد كالقصاص ونحوه، أو هي الذنوب العظام التي وعدكم الله عليها الانتقام كما قال ابن كثير.

- قال ابن جزي: (من) هنا للتبعيض أي يغفر لكم ما فعلتم من الذنوب قبل أن

=

=

تسلموا؛ لأن الإسلام يجب ما قبله، ولم يضمن أن يغفر لهم ما بعد إسلامهم، لأن ذلك في مشيئة الله تعالى.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر في المناجاة، أن رسول الله ﷺ (يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه، حتى يضع عليه كنفه -أي ستره ورحمته- فيقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربي، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال الله ﷻ: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) متفق عليه.

ومنه سمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

قوله تعالى: {وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [نوح: ٤]، أي:"ويُمدد في أعماركم إلى وقت مقدر في علم الله تعالى".

**قال الطبري:**"يقول: ويؤخِّر في آجالكم فلا يهلككم بالعذاب، لا بغَرَق ولا غيره إلى حين كتب أنه يبقيكم إليه، إن أنتم أطعتموه وعبدتموه، في أمّ الكتاب".

قال مقاتل:"يعني: إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم بالسنين ولا بغيره".

**قال الزجاج:** "معناه: اتقوا الله وأطيعون يؤخركم عن العذاب، أي يؤخركم فتموتوا غير ميتة المُسْتَأْصَلِين بِالعَذَاب".

**قال ابن كثير:**"أي: يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه، أوقعه بكم. وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم، يزاد بها في العمر حقيقة؛ كما ورد به الحديث: «صلة الرحم تزيد في العمر» ".

عن مجاهد: " {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، قال: ما قد خطّ من الأجل، فإذا جاء أجل الله لا يؤخَّر".

قال السمعاني:"فإن قيل: هذه الآية تدل على أنه يجوز أن يكون للإنسان أجلان،

=

=

وأن العقوبة تقع قبل الأجل المضروب للموت.

والجواب من وجهين:

**أحدهما**: أنه يجوز أن يقال: إن الأجل أجلان: أحدهما: إلى سنة أو سنتين إن عصوا الله، والآخر: إلى عشر سنين أو عشرين سنة إن أطاعوا الله، فعلى هذا قوله تعالى: {إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر}، أي: في حالتي الطاعة والمعصية.

والوجه الثاني: أن الأجل واحد بكل حال، وقوله: {إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّر}، أي: يميتكم غير ميتة الاستئصال والعقوبة، وهو الموت الذي يكون بلا غرق ولا قتل ولا حرق.

وقيل: يؤخركم إلى أجل مسمى، أي: عندكم، وهو الأجل الذي تعرفونه، وذلك موت من غير هذه الوجوه.

وهذا القول أقرب إلى مذهب أهل السنة، فعلى هذا قوله: {إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّر} [نوح: ٤]، هو الأجل المسمى المضروب لكل إنسان".

**قال الفراء**: أي:"مسمّى عندكم تعرفونه لا يميتكم غرقًا ولا حرقًا ولا قتلا، وليس فِي هَذَا حجة لأهل القدر، لأنَّه إنَّما أراد مسمّى عندكم، ومثله: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} عندكم فِي معرفتكم".

قوله تعالى: {إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ} [نوح: ٤]، أي:"إن الموت إذا جاء لا يؤخر أبدًا".

**قال الطبري**: يقول: "إن أجل الله الذي قد كتبه على خلقه في أمّ الكتاب إذا جاء عنده لا يؤخر عن ميقاته، فينظر بعده".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ} [نوح: ٤]، ثلاثة وجوه من التفسير:

**أحدها**: يعني بأجل الله الذي لا يؤخر: يوم القيامة، جعله الله أجلا للبعث، قاله

=

=

الحسن.

**الثاني**: يعني أجل الموت إذا جاء لم يؤخر، قاله مجاهد.

**قال الزجاج**: "معناه إذا جاء الأجل في الموت لا يؤخر بعذاب كان أو باستئصال".

**الثالث**: يعني أجل العذاب إذا جاء لا يؤخر، قاله السدي.

قال مقاتل: "{إِنَّ أَجَلَ اللهِ} في العذاب في الدنيا -وهو الغرق- {إِذا جاءَ لا يُؤَخَّر}".

**قال ابن كثير**: "أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر الله تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات".

قوله تعالى: {لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [نوح: ٤]، أي: "لو كنتم تعلمون ذلك لسارعتم إلى الإيمان والطاعة".

قال الحسن: "لو كنتم تعلمون لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

**قال الطبري**: "يقول: لو علمتم أن ذلك كذلك، لأنبتم إلى طاعة ربكم".

قال مقاتل: "ولكنكم لا تعلمون".

(ويؤخركم إلى أجل مسمى) أي يمتعكم في هذه الدار ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى، أي مقدر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره، إلى وقت محدود، وليس المتاع أبدا، فإن الموت لا بد منه.

وهذا القول الأول الذي قيل في الآية: حيث أن الله قال (ويؤخركم إلى أجل مسمى) مع إخباره سبحانه وتعالى بامتناع تأخير الأجل إذ قال (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر)؟

فقيل: المراد تأخير العذاب، أو منع نزوله فقوله (ويؤخركم إلى أجل مسمى)

=

=

أي: يمنع عنكم العذاب، فلا يعذبكم بالطوفان ولا بالصيحة ولا بالرجفة ولا بغير ذلك، فتعيوا آمنين حتى تموتوا بآجالكم.

قال ابن جرير (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أي: ويؤخر في آجالكم فلا يهلككم بالعذاب، لا بغرق ولا غيره (إلى أجل مسمى) أي: إلى حين كتب أنه يبقيكم إليه.

وقال ابن كثير (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أي: يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه أوقعه بكم.

وقيل: المراد بالتأخير في الآجال البركة في الأعمار.

والأجل المسمى: هو الأجل المعين بتقدير الله عند خلقة كل أحد منهم.

(إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) أي إن عمر الإنسان عند الله محدود، لا يزيد ولا ينقص، فأجل الله إذا جاء وحضر لا يمكن تأخيره ولا تأجيله، ولا أحد يستطيع منعه ودفعه، وفي هذا وعيد وتهديد لهم.

- اختلف في المراد بأجل الله: فقيل: الأجل الذي قدره الله لهم في الدنيا وهو الموت. وقيل: البعث. وقيل: نزول العذاب.

(لو كنتم تعلمون) أي لو كنتم تعلمون حقيقة العلم النافع لسارعتم إلى الإيمان، ولما كفرتم وكذبتم بالحق.

- نسب الأجل إلى الله تعالى لأنه الذي قدره وأثبته، وقد ينسب الأجل إلى القوم، كما قال تعالى (فإذا جاء أجلهم) لأنه مضروب لهم محدد.

(ويؤخركم إلى أجل مسمى) أي يمتعكم في هذه الدار ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى، أي مقدر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره، إلى وقت محدود، وليس المتاع أبدا، فإن الموت لا بد منه.

وهذا القول الأول الذي قيل في الآية: حيث أن الله قال (ويؤخركم إلى أجل

=

=

مسمى) مع إخباره سبحانه وتعالى بامتناع تأخير الأجل إذ قال (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر)؟

فقيل: المراد تأخير العذاب، أو منع نزوله فقوله (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أي: يمنع عنكم العذاب، فلا يعذبكم بالطوفان ولا بالصيحة ولا بالرجفة ولا بغير ذلك، فتعيوا آمنين حتى تموتوا بآجالكم.

(إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) أي إن عمر الإنسان عند الله محدود، لا يزيد ولا ينقص، فأجل الله إذا جاء وحضر لا يمكن تأخيره ولا تأجيله، ولا أحد يستطيع منعه ودفعه، وفي هذا وعيد وتهديد لهم.

**مسألة**: اعلم رحمني الله وإياك أن الأعمار من جملة الأمور المقدرة، ويشرع أن تُتّبع الأسباب المشروعة لإطالتها ومد أجلها ، ومن هذه الأسباب صلة الرحم، والدعاء،

والكتابة نوعان: نوع لا يتبدل ولا يتغير وهو ما في اللوح المحفوظ، ونوع يتغير ويتبدل وهو ما بأيدي الملائكة، وما يستقر أمره أخيرا عندهم هو الذي قد كتب في اللوح المحفوظ، وهو أحد معاني قوله تعالى: (يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) الرعد / ٣٩، ومن هذا يمكننا فهم ما جاء في السنة الصحيحة من كون صلة الرحم تزيد في الأجل أو تبسط في الرزق، أو ما جاء في أن الدعاء يرد القضاء، ففي علم الله تعالى أن عبده يصل رحمه وأنه يدعوه فكتب له في اللوح المحفوظ سعة في الرزق وزيادة في الأجل.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه".

وعن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: "لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر".

=

=

وعن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ: "لا يزيد في العمر إلا البر ولا يرد القدر إلا الدعاء وإن الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها".

- وعن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: "إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار".

ولأبي يعلى من حديث أنس رفعه "إن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بهما في العمر، ويدفع بهما ميتة السوء".

فهذه النصوص قد يوهم ظاهرها أنها تعارض الآيات والأحاديث السابقة، كما أن ظاهرها يعارض الحديث الذي في مسلم وفيه قالت أم حبيبة: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية فقال النبي ﷺ: "قد سألت الله ﷻ لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، ولن يعجل شيئا قبل حله، أو يؤخر شيئا عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر، كان خيرا وأفضل".

* وللجمع بين هذه النصوص نورد ما ذكره العلماء في ذلك:

**قال ابن كثير**: "قال عكرمة عن ابن عباس الكتاب كتابان فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب".

قال النووي: "وأما التأخير في الأجل ففيه سؤال مشهور، وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} [الأعراف: ٣٤] وأجاب العلماء بأجوبة:

الصحيح منها أن هذه الزيادة بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك.

والثاني: أنه بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة وفي اللوح المحفوظ، ونحو ذلك،

=

=

فيظهر لهم في اللوح أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له أربعون، وقد علم الله سبحانه وتعالى ما سيقع له من ذلك، وهو من معنى قوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت} فبالنسبة إلى علم الله تعالى، وما سبق به قدره ولا زيادة بل هي مستحيلة، وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة، وهو مراد الحديث.

والثالث: أن المراد بقاء ذكره الجميل بعده، فكأنه لم يمت. حكاه القاضي، وهو ضعيف أو باطل والله أعلم".

وقال في تحفة الأحوذي: "وقال في اللمعات: والمراد بتأخير الأجل بالصلة إما حصول البركة والتوفيق في العمل وعدم ضياع العمر فكأنه زاد، أو بمعنى أنه سبب لبقاء ذكره الجميل بعده، أو وجود الذرية الصالحة. والتحقيق أنها سبب لزيادة العمر كسائر أسباب العالم. فمن أراد الله تعالى زيادة عمره وفقه لصلة الأرحام، والزيادة إنما هو بحسب الظاهر بالنسبة إلى الخلق، وأما في علم الله فلا زيادة ولا نقصان، وهو وجه الجمع بين قوله ﷺ: "جف القلم بما هو كائن"، وقوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت}".

وفي قول النبي ﷺ: "قد سألت الله ﷻ لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، ولن يعجل شيئا قبل حله، أو يؤخر شيئا عن حله". قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا الحديث صريح في أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تتغير عما قدره الله تعالى وعلمه في الأزل، فيستحيل زيادتها ونقصها حقيقة عن ذلك.

وأما ما ورد في حديث صلة الرحم تزيد في العمر ونظائره فقد سبق تأويله في باب صلة الأرحام واضحا. قال المازري هنا: قد تقرر بالدلائل القطعية أن الله تعالى أعلم بالآجال والأرزاق وغيرها، وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه، فإذا علم الله تعالى أن زيدا يموت سنه خمسمائة استحال أن يموت قبلها أو

=

=

بعدها لئلا ينقلب العلم جهلا، فاستحال أن الآجال التي علمها الله تعالى تزيد وتنقص، فيتعين تأويل الزيادة أنها بالنسبة إلى ملك الموت أو غيره ممن وكله الله بقبض الأرواح، وأمره فيها بآجال ممدودة فإنه بعد أن يأمره بذلك أو يثبته في اللوح المحفوظ ينقص منه ويزيد على حسب ما سبق به علمه في الأزل، وهو معنى قوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت} وعلى ما ذكرناه يحمل قوله تعالى: {ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده}".

وقال ابن حجر: "قال ابن التين: ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى: {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} والجمع بينهما من وجهين:

**أحدهما**: أن هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة، وصيانته عن تضييعه في غيره ذلك. ومثل هذا ما جاء أن النبي ﷺ تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار من مضى من الأمم فأعطاه الله ليلة القدر. وحاصله أن صلة الرحم تكون سببا للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية فيبقى بعده الذكر الجميل، فكأنه لم يمت. ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به من بعده، والصدقة الجارية عليه، والخلف الصالح.

ثانيهما: أن الزيادة على حقيقتها، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر، وأما الأول الذي دلت عليه الآية فبالنسبة إلى علم الله تعالى، كأن يقال للملك مثلا: إن عمر فلان مائة مثلا إن وصل رحمه، وستون إن قطعها. وقد سبق في علم الله أنه يصل أو يقطع، فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر، والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص وإليه الإشارة بقوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب} المحو والإثبات بالنسبة علم الملك، وما في أم الكتاب هو الذي في علم الله تعالى فلا محو فيه البتة. ويقال له القضاء المبرم، ويقال للأول القضاء المعلق. والوجه الأول أليق بلفظ حديث الباب، فإن الأثر

=

=

ما يتبع الشيء، فإذا أخر حسن أن يحمل على الذكر الحسن بعد فقد المذكور.
وقد ورد في تفسيره وجه ثالث، فأخرج الطبراني في "الصغير" بسند ضعيف عن أبي الدرداء قال: ذكر عند رسول الله ﷺ من وصل رحمه أنسئ له في أجله، فقال: إنه ليس زيادة في عمره، قال الله تعالى: {فإذا جاء أجلهم} الآية؛ ولكن الرجل تكون له الذرية الصالحة يدعون له من بعده".
وله في "الكبير" من حديث أبي مشجعة الجهني رفعه "إن الله لا يؤخر نفسا إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر ذرية صالحة" الحديث.
وجزم ابن فورك بأن المراد بزيادة العمر نفي الآفات عن صاحب البر في فهمه وعقله. وقال غيره في أعم من ذلك وفي وجود البركة في رزقه وعلمه ونحو ذلك".
وفي قول النبي ﷺ: "من سره أن يبسط له في رزقه... " الحديث، قال شيخ الإسلام: "وقد قال بعض الناس إن المراد به البركة في العمر بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير. قالوا: لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان.
فيقال لهؤلاء: تلك البركة وهي الزيادة في العمل والنفع هي أيضا مقدرة مكتوبة وتتناول لجميع الأشياء.
والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلا في صحف الملائكة فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب. ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: "إن آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته فأراه إياهم فرأى فيهم رجلا له بصيص فقال: من هذا يا رب؟ فقال: ابنك داود. قال: فكم عمره؟ قال: أربعون سنة. قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنة. قال: فقد وهبت له من عمري ستين سنة، فكتب عليه

=

=

كتاب، وشهدت عليه الملائكة، فلما حضرته الوفاة قال: قد بقي من عمري ستون سنة قالوا: وهبتها لابنك داود. فأنكر ذلك فأخرجوا الكتاب". قال النبي ﷺ: "فنسي آدم فنسيت ذريته، وجحد آدم فجحدت ذريته".

وروي "أنه كمل لآدم عمره ولداود عمره، فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنة ثم جعله ستين، وهذا معنى ما روي عن عمر أنه قال: اللهم إن كنت كتبتني شقيا فامحني واكتبني سعيدا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، والله سبحانه عالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إياه بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله- والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها؛ فلهذا قال العلماء إن المحو والإثبات في صحف الملائكة- وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالما به فلا محو فيه ولا إثبات- وأما اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين، والله سبحانه وتعالى أعلم".

وفي تفسير قوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت} قال السعدي رحمه الله: "وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص، أو خلل، ولهذا قال: {وعنده أم الكتاب} أي: اللوح المحفوظ، الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب كأعمال اليوم والليلة، التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابا، ولمحوها أسبابا، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ كما جحل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر، وسعة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب، سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر

=

=

الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه، في اللوح المحفوظ".

وقد سئل الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ عن الدعاء والصدقة هل يردان القضاء والقدر، فذكر الآيات والأحاديث الدالة على أن قدر الله عَزَّوَجَلَّ ماض في عباده، ثم قال: "وقد ثبت عنه ﷺ ما يدل على أن الحوادث معلقة بأسبابها، كما في قوله ﷺ: "إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وإن البر يزيد في العمر، ولا يرد القدر إلا الدعاء" ومراده ﷺ أن القدر المعلق بالدعاء يرده الدعاء، وهكذا قوله ﷺ: "من أحب أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أجله فليصل رحمه". فالأقدار تردها الأقدار التي جعلها الله سبحانه مانعة لها، والأقدار المعلقة على وجود أشياء كالبر والصلة والصدقة توجد عند وجودها، وكل ذلك داخل في القدر العام المذكور في قوله سبحانه: {إنا كل شيء خلقناه بقدر} [القمر: ٤٩]، وقوله ﷺ: "وتؤمن بالقدر خيره وشره"، ومن هذا قوله ﷺ: "الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار". وروي عنه ﷺ أنه قال: "إن صدقة السر تطفئ غضب الله وتدفع ميتة السوء" ...".

وسئل الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: هل للدعاء تأثير في تغيير ما كتب للإنسان قبل خلقه؟

فأجاب بقوله: "لا شك أن للدعاء تأثيرا في تغيير ما كتب، لكن هذا التغيير قد كتب أيضا بسبب الدعاء، فلا تظن أنك إذا دعوت الله فإنك تدعو بشيء غير مكتوب، بل الدعاء مكتوب وما يحصل به مكتوب، ولهذا نجد القارئ يقرأ على المريض فيشفى، وقصة السرية التي بعثها النبي ﷺ فنزلوا ضيوفا على قوم ولكنهم لم يضيفوهم، وقدر أن لدغت حية سيدهم فطلبوا من يقرأ عليه، فاشترط الصحابة أجرة على ذلك، فأعطوهم قطيعا من الغنم، فذهب أحدهم فقرأ عليه

=

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥).

{قَالَ رَبّ إنِّي دَعَوْت قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا} أي دائما متصلا.

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦).

{فلم يزدهم دعائي إلَّا فِرَارًا} عَنْ الْإِيمَان.

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧).

{وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتهمْ لِتَغْفِر لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعهمْ فِي آذَانهمْ} لِئَلَّا يَسْمَعُوا كَلَامِي {وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابهمْ} غطوا رؤوسهم بِهَا لِئَلَّا يُنْظِرُونِي {وَأَصَرُّوا} عَلَى كُفْرهمْ {وَاسْتَكْبَرُوا} تكبروا عن الإيمان {استكبارا}.

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨).

{ثُمَّ إنِّي دَعَوْتهمْ جِهَارًا} أَيْ بِأَعْلَى صَوْتِي.

ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩).

{ثُمَّ إنِّي أَعْلَنْت لَهُمْ} صَوْتِي {وَأَسْرَرْت} الْكَلَام {لهم إسرارا}.

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠).

{فقلت استغفروا ربكم} من الشرك {إنه كان غفارا}.

---

=

الفاتحة، فقام اللديغ كأنما نشط من عقال، أي كأنه بعير فك عقاله، فقد أثرت القراءة في شفاء المريض.

فللدعاء تأثير لكنه ليس تغييرا للقدر، بل هو مكتوب بسببه المكتوب، وكل شيء عند الله بقدر، وكذلك جميع الأسباب لها تأثير في مسبباتها بإذن الله، فالأسباب مكتوبة والمسببات مكتوبة".

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١).

{يُرْسِل السَّمَاء} الْمَطَر وَكَانُوا قَدْ مَنَعُوهُ {عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا} كَثِير الدُّرُور.

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢).

{وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّات} بَسَاتِين {ويجعل لكم أنهارا} جارية.

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣).

{مالكم لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} أَيْ تَأْمُلُونَ وَقَار الله إيَّاكُمْ بِأَنْ تُؤْمِنُوا.

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤).

{وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} جَمْع طَوْر وَهُوَ الْحَال فَطَوْرًا نُطْفَة وَطَوْرًا عَلَقَة إلَى تَمَام خَلْق الْإِنْسَان وَالنَّظَر فِي خَلْقه يُوجِب الْإِيمَان بِخَالِقِهِ.

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥).

{أَلَمْ تَرَوْا} تَنْظُرُوا {كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْع سماوات طِبَاقًا} بَعْضهَا فَوْق بَعْض.

وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦).

{وَجَعَلَ الْقَمَر فِيهِنَّ} أَيْ فِي مَجْمُوعهنَّ الصَّادِق بِالسَّمَاءِ الدُّنْيَا {نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْس سِرَاجًا} مِصْبَاحًا مُضِيئًا وَهُوَ أَقْوَى مِنْ نُور الْقَمَر.

وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧).

{وَاَلله أَنْبَتَكُمْ} خَلَقَكُمْ {مِنْ الْأَرْض} إذْ خَلَقَ أباكم آدم منها {نباتا}.

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨).

{ثم يعيدكم فيها} مقبورين {ويخرجكم} للبعث {إخراجا}.

وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩).

{وَاَلله جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْض بِسَاطًا} مَبْسُوطَة.

لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠).

{لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا} طُرُقًا {فِجَاجًا} وَاسِعَة[1].

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا} [نوح: ٥].

**قال الطبري**:"قال نوح لما بلغ قومه رسالة ربه، وأنذرهم ما أمره به أن ينذرهموه فعصوه، وردّوا عليه ما أتاهم به من عنده {رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا} إلى توحيدك وعبادتك، وحذرتهم بأسك وسطوتك".

**قال ابن كثير**:"أي: لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، امتثالا لأمرك وابتغاء لطاعتك".

**قال الفراء**:"أي: دعوتهم بكل جهة سرّا وعلانية".

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي قضاها فيهم، فقال (قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا) أي: لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالا لأمرك وابتغاء مرضاتك.

وجعل دعوته مظروفة في زمني الليل والنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصد الوقت الذي يتوسم أنهم فيه أقرب إلى فهم دعوته منهم في غيره من أوقات النشاط وهي أوقات النهار، ومن أوقات الهدو وراحة البال وهي أوقات الليل.

قال ابن عطية: هذه المقالة قالها نوح عليه السلام بعد أن طال عمره وتحقق اليأس عن قومه، وقوله: {ليلا ونهارا} عبارة عن استمرار دعائه، وأنه لم ين فيه قط، ويروى عن قتادة أن نوحا عليه السلام كان يجيئه الرجل من قومه بابنه فيقول: احذر هذا الرجل فإن أبي حذرني إياه، ويقول له إنه مجنون.

قوله تعالى: {فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا} [نوح: ٦].

=

**قال الطبري:** "يقول: فلم يزدهم دعائي إياهم إلى ما دعوتهم إليه من الحقّ الذي أرسلتني به لهم إلا إدبارا عنه وهربا منه وإعراضا عنه".

**قال ابن كثير:** "أي: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فَروا منه وحَادُوا عنه".

قال قتادة: "بلغنا أنهم كانوا يذهب الرجل بابنه إلى نوح، فيقول لابنه: احذر هذا لا يغوينك، فأراني قد ذهب بي أبي إليه وأنا مثلك، فحذرني كما حذّرتك".

أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه.

قوله تعالى: {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ} [نوح: ٧]، أي: "وإني كلما دعوتهم إلى الإيمان بك؛ ليكون سببًا في غفرانك ذنوبهم، وضعوا أصابعهم في آذانهم ؛ كي لا يسمعوا دعوة الحق".

**قال الطبري:** يقول: "وإني كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانيتك، والعمل بطاعتك، والبراءة من عبادة كلّ ما سواك، لتغفر لهم إذا هم فعلوا ذلك جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا دعائي إياهم إلى ذلك".

**قال ابن كثير:** "أي: سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه. كما أخبر تعالى عن كفار قريش: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: ٢٦].

{وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ}".

عن ابن زيد، قوله: "{جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ}، لئلا يسمعوا كلام نوح عليه السلام".

قوله تعالى: {وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ} [نوح: ٧]، أي: "وتغطَّوا بثيابهم؛ كي لا يروني".

**قال الطبري:** "يقول: وتغشوا في ثيابهم، وتغطوا بها لئلا يسمعوا دعائي".

قال سعيد بن جبير، والسدي: "غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا ما يقول".

=

قال القاسم بن سلام:"يعني: تغطوا بلغة جرهم".
وقال ابن جريح، عن ابن عباس: "تنكروا له لئلا يعرفهم".
**قال الزجاج:**"قيل إنهم كانوا يسدُّون آذانهم ويغطون وجوههم لئلا يسمعوا قَوْلَه، وليبالغوا في الإعراض عنه بتغطية الوجوه".
قوله تعالى: {وَأَصَرُّوا} [نوح: ٧]، أي: "وأقاموا على كفرهم".
وفي قوله تعالى: {وَأَصَرُّوا} [نوح: ٧]، ثلاثة وجوه:
**أحدها:** أنه إقامتهم على الكفر، قال قتادة: "قدما قدما في معاصي الله لالتهائهم عن مخافة الله حتى جاءهم أمر الله".
قال ابن زيد:"«الإصرار»: إقامتهم على الشرّ والكفر".
**قال الفراء:**"أي: سكتوا على شركهم".
**قال الطبري:**"يقول: وثبتوا على ما هم عليه من الكفر وأقاموا عليه".
**قال ابن كثير:**"أي: استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع".
قال مقاتل:"وأقاموا على الكذب".
**الثاني:** الإصرار: أن يأتي الذنب عمدا، قاله الحسن.
**الثالث:** معناه أنهم سكتوا على ذنوبهم فلم يستغفروا قاله السدي.
**قال الزجاج:**"أقاموا ولم ينووا توبة منه".
قال سهل:"الإصرار على الذنب يورث الجهل، والجهل يورث التخطي في الباطل، والتخطي في الباطل يورث النفاق، والنفاق يورث الكفر. قيل: وما علامة المنافق؟ قال: يبصر الشيء عند مذاكرته، فإذا قام من عنده كأنه لم يخطر على قلبه، قال الله تعالى: {كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا} [البقرة: ٢٠]".
قوله تعالى: {وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا} [نوح: ٧]، أي: "واستكبروا عن قَبول

=

=

الإيمان استكبارًا شديدًا".

وفي قوله تعالى: {وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا} [نوح: ٧]، وجهان:

**أحدهما**: أن ذلك كفرهم بالله وتكذيبهم لنوح، قاله الضحاك.

**الثاني**: أن ذلك تركهم التوبة، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"تَركوا التوبة".

**قال الطبري**:"يقول: وتكبروا فتعاظموا عن الإذعان للحقّ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة".

**قال الفراء**:"{وَاسْتَكْبَرُوا} عن الإيمان".

**قال ابن كثير**:"أي: واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له".

**قال الزجاج**:"أخذتهم العزة من اتباع نوح، والدليل على ذلك قوله: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}".

أي كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانية الله والعمل بطاعته ليكون سببا في مغفرة ذنوبهم:

قال الرازي: (واستغشوا ثيابهم) أي: تغطوا بها، إما لأجل أن لا يبصروا وجهه كأنهم لم يجوزوا أن يسمعوا كلامه، ولا أن يروا وجهه، وإما لأجل المبالغة في أن لا يسمعوا، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم، ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك، صار المانع من السماع أقوى.

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا} [نوح: ٨]، أي: ثم إني دعوتهم إلى الإيمان ظاهرًا علنًا في غير خفاء".

**قال الطبري**:"يقول: {ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ} إلى ما أمرتني أن أدعوهم إليه ظاهرا في غير خفاء".

**قال الزجاج**:"المعنى: دعوتهم مجاهرًا بالدعاء إلى توحيد الله وتقواه".

=

=

**قال ابن كثير**:"أي: جهرة بين الناس".

قال مجاهد:"«الجهار»: الكلام المعلن به".

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ} [نوح: ٩]، أي: "ثم إني أعلنت لهم الدعوة بصوت مرتفع في حال".

**قال الطبري**:"يقول: صرخت لهم، وصحت بالذي أمرتني به من الإنذار".

عن مجاهد، قوله: "{أَعْلَنْتُ لَهُمْ}، قال: صحْت".

قال مجاهد:"يقول: صحت بهم".

**قال ابن كثير**:"أي: كلاما ظاهرا بصوت عال".

قوله تعالى: {وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا} [نوح: ٩]، أي: "وأسررت بالدعوة بصوت خفيٍّ في حال أخرى".

**قال الطبري**:"يقول: وأسررت لهم ذلك فيما بيني وبينهم في خفاء".

**قال ابن كثير**:"أي: فيما بيني وبينهم، عليهم الدعوة لتكون أنجح فيهم".

**قال الزجاج**:"أي: خَلَطْتُ لَهُمْ دُعَاءَهم في العلانيةَ بدعاء السر".

عن مجاهد، قوله: "{وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا}، قال: فيما بيني وبينهم".

ومقصود هذا الكلام: أنه نوع في دعوتهم لتكون أنجع فيهم، وكل هذا من نوح حرص ونصح وإتيانهم بكل طريق يظن به حصول المقصود.

- **قال القرطبي**: وكل هذا من نوح عليه السلام مبالغة في الدعاء لهم، وتلطف في الاستدعاء.

- وقال ابن جزي: ذكر أولا أنه دعاهم بالليل والنهار، ثم ذكر أنه دعاهم جهارا، ثم ذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار، وهذه غاية الجد في النصيحة وتبليغ الرسالة صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا} [نوح: ١٠]، أي: فقلت

=

=

لقومي: سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم، إنه تعالى كان غفارًا لمن تاب من عباده ورجع إليه".

**قال الطبري:**"يقول: فقلت لهم: سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم، وعبادة ما سواه من الآلهة ووحدوه، وأخلصوا له العبادة، يغفر لكم، إنه كان غفارًا لذنوب من أناب إليه، وتاب إليه من ذنوبه".

**قال ابن كثير:**"أي: ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك".

أي: ارجعوا إليه، واتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله.

(إنه كان غفارا) كثير المغفرة لمن تاب واستغفر.

**قال السعدي:** فرغبهم بمغفرة الذنوب وما يترتب عليه من الثواب واندفاع العقاب.

ورغبهم أيضا بخير الدنيا العاجل، فقال.

قوله تعالى: {يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا} [نوح: ١١]، أي:"إن تتوبوا وتستغفروا يُنْزِلِ الله عليكم المطر غزيرًا متتابعًا".

**قال الطبري:**"يقول: يسقيكم ربكم إن تبتم ووحدتموه وأخلصتم له العبادة الغيث، فيرسل به السماء عليكم مدرارا متتابعا".

**قال الزجاج:**"{مِدْرَارًا}: كثيرة الدَّر، أي: كثيرة المطر، وقيل إنهم كانوا قد أجدبوا فَاعْلَمَهُم أن إيمانهم بالله يجمع لهم مَعَ الحظِّ الوافِرِ في الآخرة، الخِصْب والغِنَى في الدنيا".

**قال ابن كثير:**"{مِدْرَارًا}، أي: متواصلة الأمطار، أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وَأَدَرَّ لكم الزرع، ولهذا تستحب

=

=

قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية".

عن ابن عباس، قوله: "{مِدْرَارًا}، يقول: يتبع بعضها بعضا".

وقال ابن عباس: "متتابعا في أوقات الحاجات".

قال ابن زيد:"يدر ذلك عليهم قطرًا ومطرًا".

قال ابن كيسان: "غزيرًا كثيرًا".

قال الشافعي: "«المدرار»: الكثير الدر والمطر".

وعن هارون التيمي، في قول الله: "{وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا} [الأنعام: ٦]، قال: المطر في إبانه".

قال ابن الأنباري: "المدرار: "المبالغة في اتصال المطر ودوامه، يعني: أنها تدر وقت الحاجة إليها لا أنها تدوم ليلا ونهارا، فتفسد".

عن الشعبيّ، قال: "خرج عمر بن الخطاب يستسقي، فما زاد على الاستغفار، ثم رجع فقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ: {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا}، وقرأ الآية التي في سورة «هود»، حتى بلغ: {وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ}".

أي مطرا متتابعا، يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد.

- قال ابن كثير: ولهذا يستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية، وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار وقراءة الآيات في الاستغفار، ومنها: هذه الآية، ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر".

- **قال الرازي**: واعلم أن الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة، ولذلك قال تعالى (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) فلا جرم أعلمهم الله تعالى

=

=

ههنا أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا.

- **قال ابن عطية**: وعدهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار لمكان حبهم للدنيا.

- قال ابن جزي: في الآية دليل على أن الاستغفار يوجب نزول الأمطار، ولذلك خرج عمر بن الخطاب إلى الاستسقاء فلم يزد على أن استغفر ثم انصرف، فقيل له: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: والله لقد استسقيت أبلغ الاستسقاء، ثم نزل المطر، وشكا رجل إلى الحسن الجدب فقال له: استغفر الله.

قوله تعالى: {وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ} [نوح: ١٢]، أي:"ويكثرْ أموالكم وأولادكم".

قال عطاء:"يُكثر أموالكم وأولادكم".

**قال الطبري**:"يقول: ويعطكم مع ذلك ربكم أموالا وبنين، فيكثرها عندكم ويزيد فيما عندكم منها.. وقال ذلك لهم نوح، لأنهم كانوا فيما ذُكر قوم يحبون الأموال والأولاد".

**قال ابن كثير**:"أي: أعطاكم الأموال والأولاد".

**قال الزجاج**: أي:"يعطيكم زينة الدنيا وهي المال والبنون".

**قال الفراء**:"كانت السنون الشدائد قَدْ ألحت عليهم، وذهبت بأموالهم لانقطاع المطر عَنْهُمْ، وانقطع الولد من نسائهم".

قوله تعالى: {وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ} [نوح: ١٢]، أي:"ويجعلْ لكم حدائق تَنْعَمون بثمارها وجمالها".

**قال الطبري**:"يقول: يرزقكم بساتين".

**قال ابن كثير**:"وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار".

عن السدي:"{جنات}، قال: البساتين".

=

=

قال مجاهد:"الجنات: حوائط".

قوله تعالى: {وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح: ١٢]، أي:"ويجعل لكم الأنهار التي تسقون منها زرعكم ومواشيكم".

**قال الطبري**:"تسقون منها جناتكم ومزارعكم".

**قال ابن كثير**:"وخلل تلك الجنات بالأنهار الجارية بينها. هذا مقام الدعوة بالترغيب".

قال قتادة:"رأى نوح قوما تجزّعت أعناقهم حرصا على الدنيا، فقال: هلموا إلى طاعة الله، فإن فيها درك الدنيا والآخرة".

عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين أنه قال لسفيان الثوري:... وإذا استبطأت الرزقَ، فأكثر من الاستغفار؛ فإنّ الله قال في كتابه: {استغفروا ربّكم إنّه كانَ غفّارا * يُرسل السماءَ عليكم مدرارًا.

وخص من الأولاد الذكور، لأن الذكور أفضل من الإناث وأحب إليهم، كما قال امرأة عمران (وليس الذكر كالأنثى).

فوعدهم إذا استغفروا الله وتابوا إليه بالإمداد بالأموال والبنين، وهما زينة الحياة الدنيا كما قال تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا).

(ويجعل لكم جنات) أي: ويجعل لكم بساتين كثيرة الأشجار والزروع والثمار تأكلون من ثمارها وتطعمون مواشيكم من نباتها.

(ويجعل لكم أنهارا) أي: ويجعل لكم أنهارا تجري وسط هذه الجنات تربون منها، وتغتسلون فيها وتسقون منها زروعكم وحروثكم ومواشيكم.

وهكذا قال هود لقومه (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين).

- فالاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات.

=

=

قال تعالى (ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات).

وقال تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم).

وقال تعالى (وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا).

وقال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب).

وقال تعالى (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك).

- **قال ابن عاشور**: وفي هذا دلالة على أن الله يجازي عباده الصالحين بطيب العيش قال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة).

قوله تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} [نوح: ١٣]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: معناه: ما لكم لا ترون لله عظمة. وهذا قول ابن عباس-في رواية-، ومجاهد، والضحاك، وسفيان.

قال مجاهد:"لا تبالون لله عظمة".

قال مجاهد:"لا تبالون عظمة ربكم؛ قال: والرجاء: الطمع والمخافة".

عن إسماعيل الهَمداني، قال: سألتُ عاصم بن بهدلة عن قول الله: "{مالَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وقارًا} . قال: لا تَخافون لله عظيمةً، قال الشاعر:

**إذا لسَعتْه النّحل لم يرجُ لسْعها... وخالفها في بيت نُوبٍ عوامل"**.

**قال الفراء**:"أي: لا تخافون لله عظمة".

قال القشيري:"ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمّلون على توقيركم للأمر من الله لطفا ونعمة؟".

**قال الطبري**:"معنى ذلك: ما لكم لا تخافون لله عظمة، وذلك أن الرجاء قد تضعه العرب إذا صحبه الجحد في موضع الخوف، كما قال أبو ذُويب:

=

=

**إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَم يَرْجُ لَسْعَها... وَخالَفَها في بَيْتِ نُوبٍ عَوَاسِلِ**

يعني بقوله: "ولم يرج": لم يخف".

**الثاني**: معناه: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته. قاله سعيد بن جبير، ورواه عن ابن عباس.

**الثالث**: ما لكم لا تعلمون لله عظمة. رواه العوفي عن ابن عباس.

**الرابع**: لا ترجُون لله ثوابًا، ولا تخافون عقابًا. قاله سعيد بن جبير.

**الخامس**: لا تَعرفون لله حقًّا، ولا تَشكرون له نعمة. قاله الحسن.

**السادس**: ما لكم لا ترجون لله عاقبة. وهذا قول قتادة، وبه قال الزجاج.

**قال الزجاج**: أي:"مالكم لا ترجون عاقبة الإيمان فتوحدون الله وقد جعل لكم في- أنفسكم آية تدل على توحيده من خلقه إياكم، ومن خلق السَّمَاوَاتِ والأرضِينَ والشمس والقمر".

**الخامس**: ما لكم لا ترجون لله طاعة، و «الوقار»: الطاعة. وهذا قول ابن زيد.

أي ما لكم لا تخافون لله عظمته وكبرياءه وهو القاهر فوق عباده.

قوله تعالى: {وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} [نوح: ١٤]، أي:"وقد خلقكم في أطوار متدرجة: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا ولحمًا؟".

**قال الطبري**:"يقول: وقد خلقكم حالا بعد حال، طورا نُطْفة، وطورا عَلَقة، وطورا مضغة".

قال القاسم بن سلام:"يعني: "ألوانا -بلغة هذيل-".

**قال الفراء**:"نطفةً، ثُمَّ علقةً، ثُمَّ مضغةً، ثُمَّ عظمًا".

**قال الزجاج**:"أي: طورًا بعد طورٍ، نقلكم من حالٍ إلى حال ومن جِهَةٍ من الخلق إلى جهة- خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ثم جعل المضغة عظْمًا، وكسا العظم لحمًا".

=

=

قال النحاس:"أكثر أهل التفسير على أن «الأطوار»: خلقكم نطفة ثم علقة ثم مضغة، وقيل: اختلاف المناظر لأنك ترى الخلق فتميّز بينهم في الصور والكلام، ولا بدّ من فرق وإن اشتبهوا. وذلك دالّ على مدبر وصانع".

قال ابن عباس، والضحاك:"يقول: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة".

قال مجاهد:"من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم ما ذكر حتى يتمّ خلقه".

قال مجاهد:"نطفة، ثم علقة، شيئا بعد شيء".

قال يحيى بن رافع:"نُطفة، ثم عَلقة، ثم مُضغة".

قال قتادة:"نطفة، ثم علقة، ثم خلقا طورا بعد طور".

قال قتادة:"طورا نطفة، وطورا علقة، وطورا عظاما، ثم كسا العظام لحما، ثم أنشأه خلقا آخر، أنبت به الشعر، فتبارك الله أحسن الخالقين".

قال ابن زيد:"طورا النطفة، ثم طورا أمشاجا حين يمشج النطفة الدم، ثم يغلب الدم على النطفة، فتكون علقة، ثم تكون مضغة، ثم تكون عظاما، ثم تكسى العظام لحما".

أي خلقطم خلقا من بعد خلق، في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولة، ثم التمييز، ثم الشباب، ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق، فموجب خلقه لكم وإنعامه عليكم بسائر النعم أن تعبدوه وتعظموه.

كما قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين).

وهذا مروي معناه عن ابن عباس. قاله ابن كثير والقرطبي.

وقيل أطوارا: شبابا وشيوخا وضعفاء.

وقيل أطوارا: أي أنواعا صحيحا وسقيما وبصيرا وضريرا وغنيا وفقيرا.

=

=

وقيل أطوارا: اختلافهم في الأخلاق والأفعال. قاله القرطبي.

والراجح الأول، أن الآية في قضية الخلق وهو الإيجاد الأول، لأن ما بعد الإيجاد صفات عارضة، ولأن الآية سيقت في الدلالة على قدرة الله على لبعثهم بعد موتهم لمجازاتهم، فكان الأنسب بها أن يكون متعلقها كمال الخلقة والقدرة على الإيجاد، والأنسب لهذا المعنى هو خلقهم من نطفة أمشاج وماء مهين، ثم تطويرها إلى علقة، ثم تطوير العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظاما، ثم كسوا العظام لحما، ثم نشأته نشأة أخرى، إنها قدرة باهرة وسلطة قاهرة.

**قال السعدي**: وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على المعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} [نوح: ١٥].

قال الحسن: "بعضهنّ فوق بعض، بين كلّ أرض وسماء خلْقٌ وأمْر".

**قال الطبري**: "يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل نوح صلوات الله وسلامه عليه، لقومه المشركين بربهم، محتجا عليهم بحجج الله في وحدانيته: {أَلَمْ تَرَوْا} أيها القوم فتعتبروا، كيف خلق الله سبع سموات، سماء فوق سماء مطابقة".

**قال ابن كثير**: "أي: واحدة فوق واحدة، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط؟ أو هي من الأمور المدركة بالحس، مما علم من التسيير والكسوفات، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضا، فأدناها القمر في السماء الدنيا وهو يكسف ما فوقه، وعطارد في الثانية، والزهرة في الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشترى في السادسة، وزحل في السابعة. وأما بقية الكواكب- وهي الثوابت- ففي فَلَك ثامن يسمونه فَلَكَ الثوابت. والمتشرعون منهم يقولون: هو الكرسي، والفلك التاسع، وهو الأطلس. والأثير عندهم الذي حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك، وذلك أن حركته مبدأ الحركات، وهي من المغرب

=

=

إلى المشرق؛ وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب، ومعها يدور سائر الكواكب تبعا، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها، فإنها تسير من المغرب إلى المشرق. وكل يقطع فلكه بحسبه، فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرة، والشمس في كل سنة مرة، وزحل في كل ثلاثين سنة مرة، وذلك بحسب اتساع أفلاكها وإن كانت حركة الجمع في السرعة متناسبة. هذا ملخص ما يقولونه في هذا المقام".

أي: ألم تشاهدوا يا معشر القوم عظمة الله وقدرته، وتنظروا نظر اعتبار وتفكر وتدبر، كيف أن الله العظيم الجليل خلق سبع سموات سماء فوق سماء، متطابقة فوق بعض، وهي في غاية الإبداع والإتقان.

قوله تعالى: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} [نوح: ١٦]، أي:"وجعل القمر في هذه السموات نورًا، وجعل الشمس مصباحًا مضيئًا يستضيء به أهل الأرض".

**قال الطبري**:"يقول: وجعل القمر في السموات السبع نورا {وَجَعَلَ الشَّمْسَ} فيهن {سِرَاجًا}".

**قال ابن كثير**:"أي: فاوت بينهما في الاستنارة فجعل كلا منهما أنموذجا على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر القمر منازل وبروجا، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع في النقص حتى يستسر، ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [يونس: ٥]".

**قال الفراء**:"ذكر: أن الشمس يضيء ظهرُها لما يليها من السموات، ووجهها يضيء لأهل الأرض. وكذلك القمر، والمعنى: جعلَ الشمس والقمر نورًا في

=

=

السموات والأرض".

عن الضحاك: "{جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا}، يقول: خلق القمر يوم خلق سبع سموات".

عن عكرمة:"إنه يضيء نور القمر فيهنّ كلّهنّ، كما لو كان سبع زجاجات أسفل منهنَّ شِهاب أضاءتْ كلّهنّ، فكذلك نور القمر في السموات كلّهنّ؛ لِصَفائهنّ".

قال الحسن: "{وجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا}، يعني: في السماء الدنيا".

قال الحسن:"وجوههما في السماء، وظهورهما إليكم".

عن علي بن زيد:"{وجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا}: القمر وجهه إلى السموات، وقفاه إلى أهل الأرض".

عن عطاء بن أبي رباح:"{وجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا}، قال: يضيء لأهل السماء كما يضيء لأهل الأرض".

**قال السدي**:"جعل ضوء القمر فيهنّ جميعًا كضوئه في السماء الدنيا، والنور: الضوء، وجعل الشمس فيهنّ سراجًا".

قال قتادة: "ذكر لنا أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يقول: إن ضوء الشمس والقمر نورهما في السماء، اقرءوا إن شئتم: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}... إلى آخر الآية".

قال ابن جزي: وجعل القمر نورا والشمس سراجا، لأن ضوء السراج أقوى من النور، فإن السراج هو الذي يضيء فيبصر به والنور قد يكون أقل من ذلك.

قوله تعالى: {وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} [نوح: ١٧]، أي:"والله أنشأ أصلكم من الأرض إنشاء".

**قال الطبري**:"يقول: والله أنشأكم من تراب الأرض، فخلقكم منه إنشاء".

قال النحاس:"قيل: هذا لأن آدم ﷺ خلق من طين، وقيل: النطفة مخلوقة من

=

=

تراب".

قال ابن جريج:"خَلَق آدم من أديم الأرض كلّها".

قال خالد بن معدان: "خلق الإنسان من طين، فإنما تلين القلوب في الشتاء".

عن الشعبي، في قوله: {كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} [الشعراء: ٧]، قال:"الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم".

قال ابن عاشور: وأطلق على معنى: أنشأكم، فعل (أنبتكم) للمشابهة بين إنشاء الإنسان وإنبات النبات من حيث إن كليهما تكوين كما قال تعالى (وأنبتها نباتا حسنا)، أي أنشأها.

قوله تعالى: {ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا} [نوح: ١٨]، أي:"ثم يعيدكم في الأرض بعد الموت".

**قال الطبري**:"يقول: ثم يعيدكم في الأرض كما كنتم ترابا فيصيركم كما كنتم من قبل أن يخلقكم".

قال النحاس:"بالإقبار".

قوله تعالى: {وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} [نوح: ١٨]، أي:"ويخرجكم يوم البعث إخراجًا محققًا".

**قال الطبري**:"يقول ويخرجكم منها إذا شاء أحياء كما كنتم بشرا من قبل أن يعيدكم فيها، فيصيركم ترابا إخراجا".

قال النحاس:"إلى البعث".

**قال ابن كثير**:"أي: يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة".

كما قال تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى).

وقال تعالى (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون).

=

=

قوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا} [نوح: ١٩]، أي:"والله جعل لكم الأرض ممهدة كالبساط".

**قال الطبري**: أي:"تستقرّون عليها وتمتهدونها".

**قال ابن كثير**:"أي: بسطها ومهدها وقررها وثَبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات".

أي بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات.

قوله تعالى: {لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا} [نوح: ٢٠]، أي:"لتسلكوا فيها طرقًا واسعة".

**قال الطبري**: "يقول: لتسلكوا منها طرقا صعابا متفرقة؛ والفجاج: جمع فجّ، وهو الطريق".

**قال الزجاج**:"أي: طرقًا بَيِّنَةً".

**قال الفراء**: أي: "طرقا، واحدها: فج، وهى الطرق الواسعة".

عن قتادة: "{لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا}، قال: طرقا وأعلاما".

قال ابن عباس:"يقول: طُرقًا مختلفة".

**قال ابن كثير**:"أي: خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم، من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح، عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرزاق، جعل السماء بناء، والأرض مهادا، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد؛ لأنه لا نظير له ولا عَديل له، ولا ند ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير".

و (اللام) للتعليل، أي: خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من

=

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١).

{قَالَ نُوح رَبّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا} أَيْ السَّفَلَة وَالْفُقَرَاء {مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَاله وَوُلْده} وَهُمْ الرُّؤَسَاء الْمُنَعَّم عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَوُلْد بِضَمِّ الْوَاو وَسُكُون اللَّام وَبِفَتْحِهِمَا وَالْأَوَّل قِيلَ جَمْع وَلَد بِفَتْحِهِمَا كَخُشْبٍ وَخَشَب وَقِيلَ بِمَعْنَاهُ كَبُخْلٍ وَبَخَل {إِلَّا خَسَارًا} طُغْيَانًا وَكُفْرًا.

وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢).

{وَمَكَرُوا} أَيْ الرُّؤَسَاء {مَكْرًا كُبَّارًا} عَظِيمًا جِدًّا بِأَنْ كَذَّبُوا نُوحًا وَآذَوْهُ وَمَنْ اتَّبَعَهُ.

وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣).

{وقالوا} للسفلة {لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وَدًّا} بِفَتْحِ الْوَاو وَضَمّهَا {وَلَا

=

نواحيها وأرجائها وأقطارها، والسبل: الطرق، والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسعة، قاله الفراء، وقيل: الفج المسلك بين الجبلين.

كما قال تعالى (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور).

- قال ابن كثير: وكل هذا مما ينبههم به نوح على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق جعل السماء بناء، والأرض مهادا وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد لأنه لا نظير له ولا عديل ولا ند ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير.

سُوَاعًا وَلَا يَغُوث وَيَعُوق وَنَسْرًا} هِيَ أَسْمَاء أَصْنَامهمْ.

وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤).

{وَقَدْ أَضَلُّوا} بِهَا {كَثِيرًا} مِنْ النَّاس بِأَنْ أَمَرُوهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ {وَلَا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا} عَطْفًا عَلَى قَدْ أَضَلُّوا دَعَا عَلَيْهِمْ لَمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِن مِنْ قَوْمك إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ.

مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا (٢٥).

{مما} ما صلة {خطاياهم} وَفِي قِرَاءَة خَطِيئَاتِهِمْ بِالْهَمْزِ {أُغْرِقُوا} بِالطُّوفَانِ {فَأُدْخِلُوا نَارًا} عُوقِبُوا بِهَا عَقِب الْإِغْرَاق تَحْت الْمَاء {فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُون} أَيْ غَيْر {الله أَنْصَارًا} يَمْنَعُونَ عَنْهُمْ الْعَذَاب.

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦).

{وَقَالَ نُوح رَبّ لَا تَذَر عَلَى الْأَرْض مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} أَيْ نَازِل دَار وَالْمَعْنَى أحدا.

إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧).

{إِنَّك إِنْ تَذَرهُمْ يُضِلُّوا عِبَادك وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} مَنْ يَفْجُر وَيَكْفُر قَالَ ذَلِكَ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ الْإِيحَاء إِلَيْهِ.

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨).

{رَبّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ} وَكَانَا مُؤْمِنَيْنِ {وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي} مَنْزِلِي أَوْ مَسْجِدِي {مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات} إِلَى يَوْم الْقِيَامَة {وَلَا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلَّا

تَبَارًا} هَلَاكًا فَأُهْلِكُوا[1].

(١) قوله تعالى: {قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي} [نوح: ٢١]، أي:"قال نوح: ربِّ إن قومي بالغوا في عصياني وتكذيبي".

**قال الطبري**: أي:"فخالفوا أمري، وردّوا عليّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد".

**قال ابن كثير**:"يقول تعالى مخبرا عن نوح، عليه السلام، أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة المتشملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى: أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام.

قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا} [نوح: ٢١]، أي:"واتبع الضعفاء منهم الرؤساء الضالين الذين لم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا ضلالا في الدنيا وعقابًا في الآخرة".

**قال الطبري**: "يقول: واتبعوا في معصيتهم إياي من دعاهم إلى ذلك، ممن كثر ماله وولده، فلم تزده كثرة ماله وولده إلا خسارا، بُعدا من الله، وذهابا عن مَحَجَّة الطريق".

قرأ أهل المدينة والشام وعاصم: «وولده»، بفتح الواو واللام، والباقون بضم الواو وسكون اللام، وهى لغة في: الولد.

روى شبل عن مجاهد قال: "ولده: زوجه وأهله".

وروى خارجة عن أبي عمرو بن العلاء، قال:"ولده: عشيرته وقومه".

أي (قال نوح) شاكيا لربه: أن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد. (رب إنهم عصوني) أي لم يطيعوني فيما دعوتهم إليه وأمرتهم به من عبادتك =

=

وحدك وترك الشرك بك.

وممن عصاه وكفر به: زوجته وابنه. كما قال تعالى (وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين).

وقال تعالى (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين).

قوله تعالى (فخانتاهما) ليس المراد في فاحشة، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، قال ابن عباس: أما خيانة امرأت نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأت لوط فكانت تدل قومها على أضيافه.

- بعض الاتهامات التي وجهت لنوح من قبل قومه:

**أولا**: اتهموه بالجنون.

قال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر).

**ثانيا**: اتهموه بكثرة الجدال.

قال تعالى عنهم (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين).

**ثالثا**: اتهموه بالضلال.

قال تعالى (قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين).

**رابعا**: توعدوه بالرجم.

قال تعالى عنهم (قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين).

**خامسا**: التهكم والسخرية.

=

=

قال تعالى (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون).

(واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا) أي: واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام.

- قال الخازن: يعني اتبع السفلة والفقراء القادة والرؤساء الذين لم تزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالا في الدنيا وعقوبة في الآخرة.

- **قال ابن عاشور**: وعدل عن التعبير عنهم بالكبراء ونحوه إلى الموصول لما تؤذن به الصلة من بطرهم نعمة الله عليهم بالأموال والأولاد، فقلبوا النعمة عندهم موجب خسار وضلال.

وأدمج في الصلة أنهم أهل أموال وأولاد إيماء إلى أن ذلك سبب نفاذ قولهم في قومهم وائتمار القوم بأمرهم: فأموالهم إذ أنفقوها لتأليف أتباعهم قال تعالى (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) وأولادهم أرهبوا بهم من يقاومهم.

والمعنى: واتبعوا أهل الأموال والأولاد التي لم تزدهم تلك الأموال والأولاد إلا خسارا لأنهم استعملوها في تأييد الكفر والفساد فزادتهم خسارا إذ لو لم تكن لهم أموال ولا أولاد لكانوا أقل ارتكابا للفساد قال تعالى (وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا).

قوله تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} [نوح: ٢٢]، أي:"ومكر رؤساء الضلال بتابعيهم من الضعفاء مكرًا عظيمًا".

**قال الطبري**: "يقول: ومكروا مكرا عظيما".

**قال الفراء**:"«الكُبَّار»: الكبير، والعرب تَقُولُ كُبَار، ويقولون: رَجُل حُسَّان جُمَّال بالتشديد. وحُسَان جُمَال بالتخفيف فِي كثير من أشباهه".

=

=

قال القشيري:"يعنى: كبراءهم وأغنياءهم الذين ضلّوا في الدنيا وهلكوا في الآخرة".

عن مجاهد، قوله: "{كُبَّارًا}، قال: عظيما".

وقال ابن زيد: يعني: "كثيرا".

**قال ابن كثير**:"أي: باتباعهم في تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى، كما يقولون لهم يوم القيامة: {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا} [سبأ: ٣٣].

أي مكرا عظيما في معاندة الحق، فتمادوا في المخالفة والغي والعصيان والتمرد والضلال.

- والمكر: هو الكيد بخفية في معاندة الحق.

- **قال ابن عاشور**: والمكر: إخفاء العمل، أو الرأي الذي يراد به ضر الغير، أي مكروا بنوح والذين آمنوا معه بإضمار الكيد لهم حتى يقعوا في الضر.

- **قال الشوكاني**: واختلف في مكرهم هذا ما هو؟

فقيل هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح، وقيل هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قال الضعفة لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم. وقال الكلبي هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد. وقال مقاتل هو قول كبرائهم لأتباعهم لا تذرن الاهتكم وقيل مكرهم كفرهم.

وقال الخازن: مكرهم احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح عليه الصلاة والسلام وتحريش السفلة على أذاه وصد الناس عن الإيمان به والميل إليه والاستماع منه. وقيل مكرهم هو قولهم لا تذرن آلهتكم وتعبدوا إله نوح، وقال ابن عباس في مكرهم قالوا قولا عظيما. وقيل افتروا على الله الكذب وكذبوا رسله.

قوله تعالى: {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ} [نوح: ٢٣]، أي:"وقالوا لهم: لا تتركوا

=

=

عبادة آلهتكم إلى عبادة الله وحده، التي يدعو إليها نوح".

قال ابن الجوزي:"أي: لا تَدَعُنَّ عبادتها".

قوله تعالى: {وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} [نوح: ٢٣]، أي:"ولا تتركوا وَدًّا ولا سُواعًا ولا يغوث ويعوق ونَسْرا، وهي أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله".

قال السمعاني:"أي: ولا تذروا {وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}، هذه الأسماء أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها".

**قال ابن كثير**:"وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

قال ابن الجوزي:"هذه أسماء آلهتهم".

**قال الفراء**:"هَذِهِ آلهة كَانَ إبليس جعلها لهم".

**قال الطبري**:"كان هؤلاء نفرًا من بني آدم فيما ذُكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها".

عن محمد بن قيس: "{وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}، قال: كانوا قومًا صالحين من بنى آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر فعبدوهم".

قال عكرمة:"كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام".

وفي هذه الأصنام، قولان:

**أحدهما**: أنها أصنام للعرب لم يعبدها غيرهم. وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، فلذلك خصوها بالذكر بعد قوله تعالى: {لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ}. ويكون معنى الكلام: كما قال قوم نوح لأتباعهم: لا تذرن آلهتكم قالت العرب

=

=

لأولادهم وقومهم: {وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}، ثم عاد بالذكر بعد ذلك إلى قوم نوح عليه السلام.

**الثاني**: أنها أصنام وصور، كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب. وهذا قول ابن عباس، وقتادة، وعطاء، والثمالي، المسيب، وعليه الجمهور. وعلى هذا القول، الكلام كله منسوق في قوم نوح.

**قال الزجاج**:"هذه خمسة أصنام كانَتْ في قَوْمِ نُوح يعبدونها، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى العَرَبِ، فكان وَدّ لكلب، وكان سُواع لِهَمَدَان، وكان يَغُوث لمذحج، وكان نَسْر لحمَير".

عن ابن عباس، والضحاك، قوله: "{لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}، قال: هذه أصنام كانت تُعبد في زمان نوح".

قال ابن زيد:"هذه آلهتهم التي يعبدون".

عن الضحاك: "{وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}، هي آلهة كانت تكون باليمن".

قال قتادة:"كانت آلهة يعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك، قال: فكان «ودّ» لكلب بدومة الجندل، وكان «سُواعٌ» لهُذَيل، وكان «يغوث» لبني عطيف من مراد بالجُرف، وكان «يعوق» لهمْدان، وكان «نَسْر» لذي الكُلاع من حِمْير".

قال قتادة:"كان «ودّ» لهذا الحيّ من كَلْب بدومة الجَندل، وكانت سُواع لهذيل برياط، وكان «يغوث» لبني عُطَيف من مُراد بالجُرْف من سبَأ، وكان «يعوق» لهمدان ببلخع، وكان «نسر» لذي كلاع من حِمْير؛ قال: وكانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح، ثم اتخذها العرب بعد ذلك. والله ما عدا خشبة أو طينة أو حجرًا".

وحكي الثعلبي عن عطاء وقتادة والثمالي والمسيب: "صارت أوثان قوم نوح إلى العرب فكان ود لكلب بدومة الجندل، وكان سواع برهاط لهذيل، وكان

=

=

يغوث لبني غطيف من مراد بالجوف، وكان يعوق لهمدان، وكان نسر لآل ذي الكلاع من حمير، وأما اللات فلثقيف، وأما العزى فلسليم وغطفان وخثعم ونصر وسعيد بن بكر، وأما مناة فكانت لقديد، وأما أساف ونائلة وهبل فلأهل مكّة، وكان أساف حيال الحجر الأسود، وكانت نائلة حيال الركن اليماني، وكان هبل في جوف الكعبة ثمانية عشر ذراعا".

وقال الواقدي: "كان ودّ على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر من الطير".

قال أبو عثمان النهدي: "رأيت «يغوث»، وكان من رصاص وكانوا يحملونه على جمل أجرد، ويسيرون معه لا يهيجونه، حتى يكون هو الذي يبرك فإذا برك نزلوا وقالوا: قد رضي لكم المنزل، فيضربون عليه بناء وينزلون حوله".

قرأ أهل المدينة: «وُدًّا» بالضم، وقرأ الْأَعْمَش وعاصم: {وَدًّا}، بالفتح.

وفِي قراءة عَبْد الله: «وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ويَغوثًا ويَعَوقًا ونَسْرًا» بالألف.

- قال الخازن: هذه أسماء آلهتهم وإنما أفرد بالذكر وإن كانت داخلة في جملة قوله لا تذرن آلهتكم لأنهم كانت لهم أصنام هذه الخمسة المذكورة هي أعظمها عندهم.

- **وقال الشوكاني**: ووجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الالاهة لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها.

وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

عن ابن عباس قال (هي أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت) رواه البخاري.

=

=

قال في الفتح (٨/ ٦٦٧): قيل هذا منقطع لأن عطاء المذكور هو الخرساني ولم يلق ابن عباس فقد أخرج عبد الرزاق هذا الحديث في تفسيره عن ابن جريج فقال أخبرني عطاء الخرساني عن ابن عباس وقال أبو مسعود ثبت هذا الحديث في تفسير بن جريج عن عطاء الخرساني عن ابن عباس وابن جريج لم يسمع التفسير من عطاء الخرساني وإنما أخذه من ابنه عثمان بن عطاء فنظر فيه وذكر صالح بن أحمد بن حنبل في العلل عن علي بن المديني قال سألت يحيى القطان عن حديث ابن جريج عن عطاء الخرساني فقال ضعيف فقلت إنه يقول أخبرنا قال لا شيء إنما هو كتاب دفعه إليه انتهى وكان بن جريج يستجيز إطلاق أخبرنا في المناولة والمكاتبة وقال الإسماعيلي أخبرت عن علي بن المديني أنه ذكر عن تفسير ابن جريج كلاما معناه أنه كان يقول عن عطاء الخرساني عن ابن عباس فطال على الوراق أن يكتب الخرساني في كل حديث فتركه فرواه من روى على أنه عطاء بن أبي رباح انتهى وأشار بهذا إلى القصة التي ذكرها صالح بن أحمد عن علي بن المديني ونبه عليها أبو علي الجياني في تقييد المهمل قال بن المديني سمعت هشام بن يوسف يقول قال لي بن جريج سألت عطاء عن التفسير من البقرة وآل عمران ثم قال اعفني من هذا قال قال هشام فكان بعد إذا قال قال عطاء عن بن عباس قال عطاء الخرساني قال هشام فكتبنا ثم مللنا يعني كتبنا الخرساني قال ابن المديني وإنما بينت هذا لأن محمد بن ثور كان يجعلها يعني في روايته عن بن جريج عن عطاء عن بن عباس فيظن أنه عطاء بن أبي رباح وقد أخرج الفاكهي الحديث المذكور من طريق محمد بن ثور عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ولم يقل الخرساني وأخرجه عبد الرزاق كما تقدم فقال الخرساني وهذا مما استعظم على البخاري أن يخفى عليه لكن الذي قوي عندي أن هذا الحديث بخصوصه عند ابن جريج عن عطاء الخرساني وعن عطاء بن أبي

=

=

رباح جميعا ولا يلزم من امتناع عطاء بن أبي رباح من التحديث بالتفسير أن لا يحدث بهذا الحديث في باب آخر من الأبواب أو في المذاكرة وإلا فكيف يخفى على البخاري ذلك مع تشدده في شرط الاتصال واعتماده غالبا في العلل على علي بن المديني شيخه وهو الذي نبه على هذه القصة ومما يؤيد ذلك أنه لم يكثر من تخريج هذه النسخة وإنما ذكر بهذا الإسناد موضعين هذا وآخر في النكاح ولو كان خفي عليه لاستكثر من إخراجها لأن ظاهرها أنها على شرطه. ا.هـ

قوله تعالى: {وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا} [نوح: ٢٤]، أي:"وقد أضلَّ هؤلاء المتبوعون كثيرًا من الناس بما زيَّنوا لهم من طرق الغَواية والضلال".

**قال الفراء:**"يقول: هَذِهِ الأصنام قَدْ ضل بها قوم كَثِير".

**قال الطبري:**"وقد ضلّ بعبادة هذه الأصنام التي أُحدثت على صور هؤلاء النفر المسمينَ في هذا الموضع كثير من الناس فنُسِب الضّلال إذ ضلَّ بها عابدوها إلى أنها المُضِلة".

**قال ابن كثير:**"يعني: الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرًا، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم. وقد قال الخليل، عليه السلام، في دعائه: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ} [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]".

قوله تعالى: {وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا} [نوح: ٢٤]، أي:"ثم قال نوح -عليه السلام-: ولا تزد -يا ربنا- هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالكفر والعناد إلا بُعْدا عن الحق".

**قال الطبري:**"يقول: ولا تزد الظالمين أنفسهم بكفرهم بآياتنا إلا ضلالا إلا طبعًا على قلبه، حتى لا يهتدي للحقّ".

قال النحاس:"قيل: المعنى: لا توفقهم، وقيل: إلا ضلالا عن الثواب وطريق

=

=

الجنة".

**قال ابن كثير**:"هذا دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون ومثله في قوله: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس: ٨٨] وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به".

يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم.

وقد قال الخليل عليه السلام (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام).

وقيل: أي: أضل كبرؤهم كثيرا من أتباعهم.

ورجح هذا القول: أبو حيان، والألوسي، وقصر القول عليه السعدي، وابن عاشور.

واقتصر ابن جرير، وابن كثير على القول بأن المراد هم الأصنام.

- قال أبو حيان:.... لكن عوده على الرؤساء أظهر إذ هم المحدث عنه.

- **قال القرطبي**: (وقد أضلوا كثيرا) هذا من قول نوح، أي أضل كبراؤهم كثيرا من أتباعهم، فهو عطف على قوله: {ومكروا مكرا كبارا)، وقيل: إن الأصنام (أضلوا كثيرا) أي ضل بسببها كثير، نظيره قول إبراهيم (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) فأجرى عليهم وصف ما يعقل، لاعتقاد الكفار فيهم ذلك.

- قال ابن الجوزي: قوله تعالى (وقد أضلوا كثيرا) فيه قولان.

**أحدهما**: وقد أضلت الأصنام كثيرا من الناس، أي: ضلوا بسببها.

والثاني: وقد أضل الكبراء كثيرا من الناس.

- وقال الخازن (وقد أضلوا كثيرا) أي ضل بسبب الأصنام كثير من الناس. وقيل أضل كبراء قوم نوح كثيرا من الناس.

=

=

- الشوكاني: (وقد أضلوا كثيرا) أي أضل كبراؤهم ورؤساؤهم كثيرا من الناس. وقيل الضمير راجع إلى الأصنام أي ضل بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس).

(ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم كما دعا موسى على فرعون ومن معه في قوله (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم).

قوله تعالى: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا} [نوح: ٢٥]، أي:"فبسبب ذنوبهم وإصرارهم على الكفر والطغيان أُغرقوا بالطوفان".

**قال الطبري**: أي:"من خطيئاتهم أُغرقوا".

**قال ابن كثير**:"أي: من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم {أُغْرِقُوا}".

قال سفيان:"بخطيئاتهم أُغرقوا".

قال ابن زيد:"فبخطيئاتهم {أُغْرِقُوا}، فأدخلوا نارا".

وقرأ أبو عمرو: «مِما خَطاياهُمْ»، بالألف بغير همز.

قوله تعالى: {فَأُدْخِلُوا نَارًا} [نوح: ٢٥]، أي:"وأُدخلوا عقب الإغراق نارًا عظيمة اللهب والإحراق".

**قال الطبري**: أي:"جهنم".

**قال ابن كثير**:"أي: نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار".

عن الضحاك:"{أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نارًا}، قال: يعني: في الدنيا، في حالة واحدة؛ كانوا يَغرقون من جانب، ويَحترقون في الماء من جانب".

قوله تعالى: {فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا} [نوح: ٢٥]، أي:"فلم يجدوا من دون الله مَن ينصرهم، أو يدفع عنهم عذاب الله".

=

=

**قال الطبري**: أي:"تقتصّ لهم ممن فعل ذلك بهم، ولا تحول بينهم وبين ما فعل بهم".

**قال ابن كثير**:"أي: لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجير ينقذهم من عذاب الله كقوله: {قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلا مَنْ رَحِمَ} [هود: ٤٣]".

أي بسبب إجرامهم وكفرهم وإصرارهم على ذلك أغرقوا بالطوفان، ثم نقلت الأرواح إلى النار.

كما قال تعالى (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية).

قال تعالى (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون).

قال تعالى (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون. ثم أغرقنا بعد الباقين).

وقال تعالى (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر).

وقال تعالى (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل).

- ذكر المفسرون في قصة نوح أن كل الجبال غمرها الطوفان، وهو ظاهر القرآن، بدليل أن ابن نوح حينما قال له أبوه: يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، رد عليه ابنه قائلا: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، فرد عليه نوح عليه السلام قائلا: لا عاصم اليوم من أمر الله.

- والظاهر أن كل من لم يكن في السفينة من أهل الأرض قد غرقوا كما قال تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة)

[الفلك المشحون] المملوء.... [بماء منهمر] المنهمر الكثير.

[التنور] وجه الأرض، أي صارت الأرض عيونا تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء. وهذا قول جمهور السلف والخلف.

=

=

[تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٨٢].

(فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) أي لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله.

قال الرازي: (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) وهذا تعريض بأنهم إنما واظبوا على عبادة تلك الأصنام لتكون دافعة للآفات عنهم جالبة للمنافع إليهم، فلما جاءهم عذاب الله لم ينتفعوا بتلك الأصنام، وما قدرت تلك الأصنام على دفع عذاب الله عنهم، وهو كقوله (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا).

قوله تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نوح: ٢٦].

قال النحاس:"أي: أحدا وهو من: دار يدور. أي: أحدا يدور، وقيل: ديّار: صاحب دار".

قال مقاتل:"يعني أحدا، وذلك أن الله- تبارك وتعالى- «وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ»- ﷺ- {أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ} [هود: ٣٦]، وذلك أن الله- تعالى- كان أخرج كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم، فلما أخبر بذلك دعا عليهم قال: {رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّارًا}".

**قال ابن كثير**:"أي: لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا ولا تُومُريًّا، وهذه من صيغ تأكيد النفي.. فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه، وقال: {سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} [هود: ٤٣].. ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح، عليه السلام، وهم الذين أمره الله بحملهم معه".

قال القشيري:"وذلك بتعريف الله تعالى إيّاه أنّه لن يؤمن من قومك إلّا من قد

=

=

آمن. فاستجاب الله فيهم دعاءه وأهلكهم".

**قال الطبري:**"يعني بـ «الدَّيار»: من يدور في الأرض، فيذهب ويجيء فيها وهو فَيْعال من الدوران ديوارًا".

**قال الفراء:**"{دَيَّارًا}: وهو من: دُرت، ولكنه «فيْعال» من: الدوران، كما قَرَأَ عُمَر بْن الخطاب «اللهُ لَا إلهَ إلَّا هُوَ الحَيُّ القَيَّامُ»، وهو من: قمت".

**قال الزجاج:**"يُقَال: ما في الدار أَحَدٌ وما بها دَيَّارٌ. وأَصْلهَا «دَيْوَار»، «فَيْعَال» فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى".

**قال الزمخشري:**"{دَيَّارًا}: من الأسماء المستعملة في النفي العام".

قال الضحاك: "{دَيَّارًا}: واحدا".

**وقال السُّدِّي:** "الديار: الذي يسكن الدار".

قال أبو العالية والحسن:"لو أهلك أطفالَهم معهم لَكان عذابًا مِن الله لهم، ولكن الله تعالى أهلك ذُرّيتهم وأطفالهم بغير عذاب، ثم أهلكهم".

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "لو رحم الله من قوم نوح أحدا، لرحم امرأة، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها. فلو رحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة".

قوله تعالى: {إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ} [نوح: ٢٧]، أي:"إنك إن تتركهم دون إهلاك يُضلوا عبادك الذين قد آمنوا بك عن طريق الحق".

**قال الطبري:** يقول: "إنك يا ربّ إن تذر الكافرين أحياء على الأرض، ولم تهلكهم بعذاب من عندك {يُضِلُّوا عِبَادَكَ} الذين قد آمنوا بك، فيصدوهم عن سبيلك".

**قال ابن كثير:**"أي: إنك إن أبقيت منهم أحدًا أضلوا عبادك، أي: الذين تخلقهم

=

=

بعدهم".

قولـه تعـالى: {وَلَا يَلِـدُوا إِلَّا فَـاجِرًا كَفَّـارًا} [نـوح: ٢٧]، أي:"ولا يـأت مـن أصلابهم وأرحامهم إلا مائل عن الحق شديد الكفر بك والعصيان لك".

**قال الطبري**: يقول: "{وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا} في دينك، {كُفَّارًا} لنعمتك".

**قال ابن كثير**:"أي: فاجرًا في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما".

قال مقاتل:"وكان الرجل منهم ينطلق بولده إلى نوح عليه السلام فيقول لولده احذر هذا فإنه كذاب وإن والدي قد حذرنيه فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصية أبيه".

**قال الزمخشري**:"لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه، ويقول: احذر هذا، فإنه كذاب، وإن أبى حذرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، وقد أخبره الله عز وجل: {أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ}".

قال قتادة:"أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء: {أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ}، فعند ذلك دعا عليهم نبي الله نوح فقال: {رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا}، ثم دعاه دعوة عامة، فقال: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}... إلى قوله: {تَبَارًا}".

قال ابن عاشور: والمعنى: ولا يلدوا إلا من يصير فاجرا كفارا عند بلوغه سن العقل.

والفاجر: المتصف بالفجور، وهو العمل الشديد الفساد.

=

=

والكفار: مبالغة في الموصوف بالكفر، أي إلا من يجمع بين سوء الفعل وسوء الاعتقاد، قال

- فإن قيل: كيف عرف نوح عليه السلام ذلك؟ قلنا: للنص والاستقراء، أما النص فقوله تعالى (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن).

وأما الاستقراء فهو أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فعرف طباعهم وجربهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك. [تفسير الرازي].

- وقال السعدي: وإنما قال نوح -عليه السلام- ذلك، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم.

- قال الشنقيطي: قوله تعالى (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) هذه الآية الكريمة تدل على أن نوحا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عالم بما يصير إليه الأولاد من الفجور والكفر قبل ولادتهم وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الغيب لا يعلمه إلا الله كقوله (قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله) وكقول نوح نفسه فيما ذكره الله عنه في سورة هود (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب).

والجواب عن هذا ظاهر وهو أنه علم بوحي من الله أن قومه لا يؤمن منهم أحد إلا من آمن كما بينه بقوله تعالى (وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن).

قال ابن عاشور: وفي كلام نوح دلالة على أن المصلحين يهتمون بإصلاح جيلهم الحاضر ولا يهملون تأسيس أسس إصلاح الأجيال الآتية إذ الأجيال كلها سواء في نظرهم الإصلاحي.

=

=

قوله تعالى: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا} [نوح: ٢٨]، أي:"ربِّ اغفر لي ولوالديَّ ولمن دخل بيتي مؤمنًا".

**قال الطبري**:"يقول: ربّ اعف عني، واستر عليّ ذنوبي وعلى والدي".

قال مقاتل:"وكانا مسلمين، وكان اسم أبيه لمك بن متوشلخ، واسم أمه هيجل بنت لا موش بن متشلوخ".

**قال الزمخشري**:"وقيل: هما آدم وحواء".

عن سعيد بن جُبَير، في قوله: "{رَبِّ اغْفِرْ لِي ولِوالِدَيَّ}، قال: يعني: أباه، وجدَّه".

قال الحسن: "قال نوح: {رَبِّ اغْفِرْ لِي ولِوالِدَيَّ} كانا مُؤْمِنَيْن".

قال قتادة:"ثم دعا دعوة عامّة، قال: {رَبِّ اغْفِرْ لِي ولِوالِدَيَّ ولِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا} بلغ: {إلّا تَبارًا}".

وقرأ الحسين بن على: «ولولدي»، يريد: ساما وحاما

قوله تعالى: {وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا} [نوح: ٢٨]، أي:"واغفر لمن دخل بيتي مؤمنًا".

قال الثعلبي:"أي: داري.. وقيل: سفينتي".

قال السمعاني:"أي: سفينتي. وقيل: صومعتي. وقيل: بيتي الذي أسكنه".

**قال الطبري**:"ولمن دخل مسجدي ومصلايَ مصلِّيا مصدّقا بواجب فرضك عليه".

عن الضحاك: "{وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا}، قال: مسجدي".

**قال ابن كثير**:"ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن".

عن أبي سعيد:- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لا تصحب إلا مؤمنا، ولا يأكل

=

=

طعامك إلا تقي".

قوله تعالى: {وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [نوح: ٢٨]، أي:"ربِّ واغفر للمؤمنين والمؤمنات بك".

**قال الطبري**: أي:"وللمصدّقين بتوحيدك والمصدّقات".

قال السمعاني:"أي: لكل المؤمنين والمؤمنات إلى يوم القيامة".

وقال الكلبي: "من أمّة محمد -ﷺ-".

**قال ابن كثير**:"قوله: {وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يَعُم الأحياءَ منهم والأموات؛ ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء، اقتداء بنوح، عليه السلام، وبما جاء في الآثار، والأدعية المشهورة المشروعة".

**قال الزمخشري**:"خص أوّلا من يتصل به، لأنهم أولى وأحق بدعائه، ثم عم المؤمنين والمؤمنات".

قوله تعالى: {وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} [نوح: ٢٨]، أي:"ولا تزد الكافرين إلا هلاكًا وخسرانًا في الدنيا والآخرة".

**قال الطبري**:"يقول: ولا تزد الظالمين أنفسهم بكفرهم إلا خسارًا".

**قال الفراء**:"{إِلَّا تَبارًا}: ضلالا".

**قال الزجاج**:"«التبار»: الهلاك، وكل شيء أهلك فقد تبر، ولذلك سُمِّيَ كلُّ مكَسَّرٍ تبرا".

عن مجاهد، قوله: "{إِلا تَبَارًا}، قال: خسارًا".

قال مجاهد:"كانوا يضربون نوحًا حتى يُغْشَى عليه، فإذا أفاق قال: ربّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

قال مقاتل:"فأفرقهم الله- تعالى- وحمل معه في السفينة ثمانين نفسا أربعين رجلا وأربعين امرأة، وفيهم ثلاثة أولاد لنوح منهم سام وحام ويافث، فولد سام

=

=

العرب، وأهل السواد، وأهل فارس، وأهل الأهواز، وأهل الحيرة، وأهل الموصل، وأهل العال، وولد حام السودان كلها، والقبط، والأندلس، وبربر، والسند، والهند، وولد يافث الترك، والروم، ويأجوج، ومأجوج، والصين، وأهل خراسان إلى حلوان".

(رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا) خص هؤلاء المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم.

- قال الخازن: وإنما بدأ بنفسه لأنها أولى بالتخصيص والتقديم ثم ثنى بالمتصلين به لأنهم أحق بدعائه من غيرهم ثم عمم جميع المؤمنين والمؤمنات ليكون ذلك أبلغ في الدعاء.

- وقد اختلف في المراد بقوله (بيتي):

فقيل: يعني مسجدي، وقيل: بيته المعروف، قال ابن كثير: ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن.

قال ابن جزي: (ولمن دخل بيتي مؤمنا) قيل: بيته المسجد، وقيل: السفينة. وقيل: شريعته، سماها بيتا استعارة وهذا بعيد، وقيل: داره وهذا أرجح لأنه الحقيقة.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله في سورة نوح، عليه السلام: (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) (نوح: ٢٤) وبعده: (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) (نوح: ٢٨)، للسائل أن يسأل عن وجهه اختلاف ما دعا به نوح صلي الله عليه وسلم على قومه من الموضعين؟

والجواب عن ذلك أن نوحًا، عليه السلام، لما ذكر أولًا في إخبار الله سبحانه عنه عصيان قومه له وقولهم: (لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ) (نوح: ٢٣) أي لا تتركوها (وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا) (نوح: ٢٣) إلى قوله: (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) (نوح: ٢٤)،

=

# سُورَة الْجِنّ(١)

=

أردف هذا بما يناسبه من الدعاة في زيادة ضلالهم، ولم يدع هنا بهلاكهم.

وأما الآية الثانية فتقدمها دعاؤه، عليه السلام، بهلاكهم وأخذهم في قوله: (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) (نوح: ٢٦)، فأتبع ذلك بما يناسب فقال: (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) (نوح: ٢٨) أي هلاكًا. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٨٣).

(١) قال ابن عطية:"هي مكية بإجماع من المفسرين".

قال ابن الجوزي:"كلّها مكّيّة بإجماعهم".

وقال الفيروز بآدي: السّورة مكِّيّة.

وقال ابن عاشور:"هي مكية بالاتفاق، ويظهر أنها نزلت في حدود سنة عشر من البعثة".

* آياتها ثمان وعشرون عند الكلّ، إلاَّ مكة؛ فإِنَّها فى عدّهم سبع. عدّوا {لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ الله أَحَدٌ}، وأَسقطوا {مُلْتَحَدًا} فى غير رواية البَزِّىّ. وفى رواية البزّى: لم يعدّ {لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ الله أَحَدٌ}، ولم يعد {مُلْتَحَدًا} فصار فى روايته سبعًا وعشرين. وفى الرواية الأُخرى: ثمانيًا وعشرين. وكلماتها مائتان وخمس وثمانون. وحروفها تسعمائة وتسع وخمسون. فواصل آياتها على الأَلف.

* أسماء السورة:

سميت هذه السمرة بسورة «الجن» وكتبت في المصاحف وكتب التفسير، وترجم لها الترمذي في جامعه من كتاب التفسير، ووجه تسميتها سورة «الجن»، لاشتمالها على ذكر أحوالهم وأقوالهم، وعلاقتهم بالإنس ورميهم بالشهب لاستراقهم السمع إلى غير ذلك من حديث الجن العجيب، قال تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} [الجن: ١]، كما =

=

تكرر لفظ «الجن» في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن: ٦].

قال المهايمي:"سميت بها لاشتمالها على تفاصيل أقوالهم في تحسين الإيمان وتقبيح الكفر، مع كون أقوالهم أشد تأثيرا في قلوب العامة لتعظيمهم إياهم".

وتسمى بسورة «قل أوحي» جاءت هذه التسمية عن أمنّا عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، فيما أخرجه ابن مردويه عنها أنها قالت: «نزلت سورة {قُلْ أُوحِيَ}، بمكة». وترجم لها البخاري في كتاب التفسير.

قال ابن عاشور:"واشتهرت على ألسنة المكتبين والمتعلمين في الكتاتيب القرآنية باسم {قُلْ أُوحِيَ}".

كما تفرد السخاوي بتسميتها: «سورة الوحي»، ولم يذكر سندا لقوله.

* معظم مقصود السّورة: عجائب علوم القرآن، وعظمة سلطان المَلِك الدّيّان، وتعدّى الجنِّ على الإنسان، ومنعهم عن الوصول إِلى السّماءِ بالطَّيران، والرّشد والصّلاح لأَهل الإيمان، وتهديدُ الكفَّار بالجحيم والنيران، وعِلْم الله تعالى بالإسرار والإعلان، وكيفية تبليغ الوحى من الملائكة إِلى الأَنبياءِ بالإِتقان، وحَصْر المعلومات فى علم خالق الخَلْق فى قوله: {وَأَحْصَى كُلَّ شيءٍ عَدَدًا}.

* المتشابه: قوله: {وَأَنَّهُ} (كرّرت مراتٍ أَن وأَنه). واختلف القرَّاءُ فى اثنتى عشرة منها وهى من قوله: {وَأَنَّهُ تَعَالَى} إِلى قوله: {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ}: ففتحها بعضهم عطفًا على {أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ} وكسرها بعضهم؛ عطفًا على قوله: {فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا}، وبعضهم فتح {أَنَّهُ}؛ عطفًا على {أَنَّهُ} وكسر {إِنَّا} عطفًا على {إِنَّا}. وهو شاذّ. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٨٤).

(تنبيه): ثبت وجود الجن بالقرآن والسنة وعلى ذلك انعقد الإجماع، فمنكر وجودهم كافر لإنكاره ما علم من الدين بالضرورة.

=

=

ولقد أفاض القرآن الكريم والسنة النبوية في الحديث عن الجن وأحوالهم في مواضع كثيرة، فقد ورد ذكرهم في القرآن في مواضع متعددة تقرب من أربعين موضعًا عدا عن الآيات التي تحدثت عن الشيطان وهي كثيرة، وانفردت سورة كاملة للحديث عن أحوال النفر الذين استمعوا للقرآن من الرسول عليه الصلاة والسلام وهو بمكة هي سورة الجن، إذ ورد في مطلعها إخبار الله لنبيه باستماع هذا النفر للقرآن، قال تعالى: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا [الجن:١ - ٢].

واعتبرهم القرآن نوعًا آخر يشترك مع الإنسان في التكليف وإن اختلف عنهم في الصفات، فجاءت كثير من خطابات التكليف شاملة للجن والإنس قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات: ٥٦]. وقال: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا [الأنعام: ١٣٠]، ورتب القرآن الجزاء لهم حسب أعمالهم في الدنيا فقال: وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [السجدة: ١٣]، وقال في معرض الحديث عن نعيم الجنة: فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ [الرحمن: ٥٦]. وتحدى الله الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال: قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا [الإسراء: ٨٨]، واستنكر القرآن المزاعم التي تقول بأن الجن يعلمون الغيب فقال في معرض الحديث عن موت سليمان عليه السلام: فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ [سبأ: ١٤]. وغير ذلك من الآيات التي تحدثت عن أحوال هذا المخلوق.

ومعلوم أن القرآن الكريم قد ثبتت صحته، لأنه منقول إلينا بالتواتر، فعلى هذا

=

=

الأساس لا مجال لإنكار هذا النوع من المخلوقات متى كان الخبر صادقًا، وإنكارهم يكون تكذيبًا لخبر الله عنهم دون حجة أو برهان، وذلك لا يكون إلا من سمات الجاهلين أو الكافرين، ووجودهم بشكل قاطع لا يحتمل التأويل بأي شكل من الأشكال.

وأما السنة النبوية فقد ورد ذكرهم في أحاديث كثيرة، وهذه الأحاديث بمجملها تبين أحوال هذا المخلوق، من حيث المادة التي خلقوا منها، ومن حيث طعامهم وشرابهم وتناسلهم ومطالبتهم بالتكاليف الشرعية، ومحاسبتهم في الآخرة، بالإضافة إلى الأحاديث التي تبين إمكانية رؤيتهم بمختلف الصور التي يتشكلون فيها، وغيرها من الأحاديث التي تشرح أحوالهم.

قال الدميري في حياة الحيوان الكبرى (١/ ٢٠٦): (واعلم أن الأحاديث في وجود الجن والشياطين لا تحصى، وكذلك أشعار العرب وأخبارها، فالنزاع في ذلك مكابرة فيما هو معلوم بالتواتر ا.هـ

ومع شهرة هذه الإدلة ووضوحها فقد انقسم الناس قديمًا وحديثًا في أمر الجن إلى مذاهب شتى، فما بين مثبت لوجودهم، أو منكر، أو مؤول لهم بشتى التأويلات الفاسدة، أو مغالٍ في قدرتهم وسلطانهم في الأرض، إلى غير ذلك من المذاهب والتصريفات المختلفة في شأن هذا المخلوق. ويمكن إجمال هذه المذاهب فيما يلي:

١ - مذهب أهل السنة والجماعة: الذي عليه أهل السنة والجماعة من المسلمين وهو إثبات وجود مخلوقات غائبة عن حواسنا تسمى الجن، وأنها لا تظهر إلا أذا تشكلت في صور غير صورها في بعض الأحوال ولبعض الناس، وأنها مخلوقات عاقلة مكلفة بالتكاليف الشرعية على نحو ما عليه البشر، وأنهم يأكلون، ويشربون، ويتناكحون ولهم ذرية، قال ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء

=

=

والنحل (٥/ ١٢): لكن لما أخبرت الرسل الذين شهد الله ﷻ بصدقهم بما أبدى على أيديهم من المعجزات المحلية للطبائع بنص الله ﷻ وعلى وجود الجن في العالم، وجب ضرورة العلم بخلقهم ووجودهم، وقد جاء النص بذلك وبأنهم أمة عاقلة مميزة، متعبدة، موعودة متوعدة، متناسلة، يموتون. وأجمع المسلمون كلهم على ذلك ا. هـ.

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٩/ ٩): لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن ولا في أن الله أرسل محمدًا ﷺ إليهم.. إلى أن يقول: وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلومًا بالاضطرار، ومعلوم بالاضطرار أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيون، ليسوا صفات وأعراضًا قائمة بلإنسان أو غيره كما يزعم بعض الملاحدة ا. هـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية (ص: ١٢٣): وأما الجان فأهل السنة والجماعة يؤمنون بوجودهم ا. هـ

٢- مذهب جمهور الكفار كعامة أهل الكتاب والمجوس، وجمهور الكنعانيين، واليونانيين، والرومان، والهنود القدماء، وعامة مشركي العرب: الإقرار بوجود الجن، مع انحراف في تصورهم عن هذا المخلوق، هذه الطوائف المختلفة أقرت بوجود الجن، ولكن إقرارهم هذا صاحبه تصورات فاسدة ومنحرفة، فمنهم من اعتبر أن الجن شركاء لله في الخلق والتدبير، ومنهم من اعتبر أن للجن سلطانًا في الأرض، وأنهم يعلمون الغيب، ومنهم من أثبت أخوة بين الله وإبليس- تعالى الله عن ذلك- إلى غير ذلك من التصورات المنحرفة.

٣- مذهب أكثر الفلاسفة وجماعة من القدرية والمعتزلة والجهمية، وكافة الزنادقة قديمًا وحديثًا: إنكار الجن، بالإضافة إلى نفر قد أولوا النصوص الدالة على وجود الجن تأويلًا يدل على إنكارهم، كما سيأتي.

=

=

قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٩/ ٦): وقد أنكر جماع من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن وقالوا: إنهم بسائط، ولا يصح طعامهم، اجتراء على الله وافتراء، والقرآن والسنة ترد عليهم ا. هـ وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٩/ ١٠): وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، وكما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك، كما يوجد في طوائف المسلمين كالجهمية والمعتزلة من ينكر ذلك، وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك ا. هـ.

والملاحدة والمتفلسفة يجعلون الملائكة قوى النفس الصالحة، والشياطين قوى النفس الخبيثة. كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٤٦).

وقد أنكرت جماهير القدرية وكافة الزنادقة الجن قال إمام الحرمين كما في إيضاح الدلالة في عموم الرسالة (ص٤): وكثير من الفلاسفة، وجماهير القدرية، وكافة الزنادقة أنكروا الجن والشياطين رأسًا، ولا يبعد لو أنكر ذلك من لا يتدبر ولا يتشبث بالشريعة، وإنما العجب من إنكار القدرية مع نصوص القرآن وتواتر الأخبار واستفاضة الآثار ا. هـ والذي يظهر أن المتأخرين من القدرية هم الذين ينكرون وجود الجن مع اعتراف متقدميهم بذلك، قال أبو بكر الباقلاني كما في إيضاح الدلالة في عموم الرسالة (ص٥): وكثير من القدرية يثبتون وجود الجن قديمًا وينفون وجودهم الآن، ومنه من يزعم أنهم لا يرون لرقة أجسامهم ونفوذ الشعاع فيها، ومنهم من قال: إنما لا يرون لأنهم لا ألوان لهم ا. هـ

وأما المعتزلة فالمشهور عن أكثر العلماء أن الكثيرين منهم ينكرون وجود الجن، يقول الجويني كما في كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة (٣٢٣): وقد أنكرهم معظم المعتزلة، ودل إنكارهم إياهم على قلة مبالاتهم، وركاكة ديانتهم، فليس في إثباتهم مستحيل عقلي، وقد نصت نصوص الكتاب والسنة على إثباتهم، وحق

=

=

على اللبيب المعتصم بحبل الدين أن يثبت ما قضى العقل بجوازه، ونص الشرع على ثبوته ا. هـ. وقال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية (ص: ١٢٣).: وإنكار المعتزلة لوجودهم فيه مخالفة للكتاب والسنة والإجماع، بل ألزموا به كفرًا لأن فيه تكذيب النصوص القطعية بوجودهم.

وقال الدميري في حياة الحيوان الكبرى (١/ ٢٠٦): فإذا قيل: ما تقول فيما حكى عن بعض المعتزلة أنه ينكر وجود الجن؟ قلنا: عجيب أن يثبت ذلك عمن يصدق بالقرآن وهو ناطق بوجودهم ا. هـ.

وقد ذكر محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٧/ ٥٢٨) أن الزمخشري وشيعته لم يكونوا من المنكرين لوجود الجن، وإنما الجن- كما يقولون- من عالم الغيب، لا نصدق من خبرهم إلا ما أثبته الشرع، أو ما هو في قوته من دليل الحس أو العقل، ولم يثبت شرعًا، ولا عقلًا، ولا اختبارًا، أن شياطين الجن تأكل الناس، ولا أنها تظهر لهم في الفيافي كما كانت تزعم العرب، وغير ذلك في طور الجهل والخرافات ا. هـ

أما الزنادقة قديمًا وحديثًا كالدهرية والملحدين من الشيوعيين وغيرهم فإنهم ينكرون الغيبيات بشكل عام، ويعتبرون أن الكون وجد هكذا صدفة، وعلى هذا فهم يحاربون الأديان ويعتبرونها أفيون الشعوب، وذلك كما تفعل الشيوعية في الوقت الحاضر، وليس لهؤلاء حجة في إنكار الغيبيات- والجن من بينهم- إلا عدم الإيمان بما لا يقع عليه الحس، ولا يعرف بالتجربة والمشاهدة، وهي حجة ساقطة من أساسها، لا تقوى على الوقوف أمام الأدلة الكثيرة الناطقة بوجودهم.

* شبه المنكرين لوجود الجن والرد عليها: وجملة الشبه التي يتمسك بها المنكرون للجن تتلخص فيما يلي:

١- أن الجن لو كانوا موجودين لوجب أن يكونوا أجسامًا كثيفة أو لطيفة، ولو

=

=

كانوا أجسامًا كثيفة لرآهم كل إنسان سليم الحس، ولو كانوا أجسامًا لطيفة لتمزقوا عند هبوب الرياح والعواصف، وللزم أن لا يكون لهم قدرة على الأعمال الشاقة كما يقول مثبتو الجن على حد قولهم.

والجواب على هذه الشبهة: أن الجن مجردون عن المادة والجسمية التي نشاهدها في الأمور المحسوسة أمامنا كالبشر، والدواب، والأشجار وغير ذلك، ولكن هذا لا يمنع أن يجعل الله فيهم خاصية القدرة على التشكل بالأشكال المختلفة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقد وردت الأحاديث الصحيحة في تشكلهم بمختلف الصور، فمعارضة هذه النصوص بالظن إنما هو تحكم بالباطل.

أما قولهم: إنهم لو كانوا أجسامًا لطيفة لتمزقوا عند هبوب الرياح والعواصف فجوابه: لقد ثبت عند الفلاسفة أن النار التي تنفصل عن الصواعق تنفذ في اللحظة اللطيفة في بواطن الأحجار والحديد وتخرج من الجانب الآخر، فلم لا يعقل مثله في هذه الصورة؟!، وعلى هذا التقدير فإن الجن تكون قادرة على النفوذ في بواطن الناس وعلى التصرف فيها، وأنها تبقى حية فعالة مصونة عن الفساد إلى الأجل المعين والوقت المعلوم، فكل هذه الأحوال احتمالات ظاهرة، والدليل لم يقم على إبطالها، فلم يجز المصير إلى القول بإبطالها وقد ثبت تسخيرهم للنبي سليمان عليه السلام بصريح القرآن، وقد كان يراهم على صورهم الأصلية كما دل عليه ظاهر القرآن.

٢- أن هذه الأشخاص المسماة بالجن لو كانوا حاضرين في هذا العالم، مخالطين للبشر، فالظاهر الغالب أن يحصل لهم بسبب طول المخالطة والمصاحبة إما صداقة، وإما عداوة، فإن حصلت الصداقة وجب ظهور المنافع بسبب تلك الصداقة، وإن حصلت العداوة وجب ظهور المضاد بسبب تلك

=

=

العداوة، إلا أننا لا نرى أثرًا لا من تلك الصداقة ولا من تلك العداوة.
والجواب على هذه الشبهة: أنه لا يشترط أن يحصل للإنسان من مصاحبة أحد صداقة أو عداوة يترتب عليهما المنافع والمضار، ومع ذلك فإن الوقائع الصحيحة التي وردت في السنة تدل على أن بعض الجن قد حصل منهم إيذاء لبعض من يكرهونه من الأنس، وقد ثبت علاج الرسول ﷺ لبعض من صرعتهم الجن، وقد ثبت كذلك نفع الجن لبعض الإنس كما حصل مع أبي هريرة عندما جاءه الشيطان فجعل يحثو من الطعام وقد تكرر مجيئه ثلاث مرات، وكان يزعم أنه لا يعود، حتى همَّ أبو هريرة أن يرفع أمره للرسول ﷺ، فقال الشيطان عند ذلك: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، فعلمه آية الكرسي وقال له: اقرأها فإنه لا يقربك شيطان ، وغير ذلك مما قد ثبت في نفع الجن لبعض الناس وإضرارهم لبعض منهم.
٣- إن الطريق إلى معرفة الجن إما الحس وإما المشاهدة وإما الدليل، ولم يثبت لنا بالحس وجودهم ورؤيتهم، والذين يقولون إنا أبصرناهم وسمعنا أصواتهم طائفة من المجانين يتخيلون ذلك، وليست في الحقيقة كذلك، وأما الخبر بواسطة الأنبياء عليهم السلام فباطل، لأن ذلك يؤدي إلى إبطال نبوتهم، ولجاز أن يقال إن كل ما أتى به الأنبياء من المعجزات إنما هو بإعانة الجن والشياطين، فإذا جوزنا نفوذ الجن في بواطن الإنسان فلم لا يجوز أن يقال: إن حنين الجذع إنما كان لأن الشيطان نفذ في ذلك الجذع ثم أظهر الحنين؟ ولم لا يجوز أن يقال: إن الناقة تكلمت مع الرسول ﷺ لأن الشيطان دخل في باطنها فتكلمت؟ وأما الدليل والنظر فهو متعذر، لأنا لا نعرف دليلًا عقليًا يدل على وجود الجن والشياطين.
والجواب على هذه الشبهة: أن الدليل الحسي قد دل على وجود الجن، حيث

=

=

رآهم الرسول عليه الصلاة والسلام وهو نبي معصوم من الخطأ والكذب، ورآهم ابن مسعود عندما ذهب معه ليلة تكليم الجن، ورآهم أبو هريرة عندما جاءه الشيطان في صورة رجل فقير، فأخذ يحثو من مال الصدقة، وقد حدث مثل ذلك لنفر من الصحابة، وغير ذلك من الوقائع التي تدل على رؤية الجن من قبل هؤلاء، وهم صحابة أجلاء وليسوا من المجانين كما يزعم المنكرون لوجود الجن، بل هم من العقلاء الموثوق بهم.

وأما الخبر فقد جاءت نصوص القرآن مخبرة عن أحوال الجن في مواضع متعددة من القرآن، وليس هناك من سبيل للطعن بكتاب الله- المنقول بالتواتر- بأي حال من الأحوال، ودل على وجودهم السنة المتواترة التي تقطع الشك وترفع العذر في إنكار وجودهم أو تأويلهم.

والقول أن في الاعتراف بهم إبطالًا لنبوة الأنبياء غير صحيح، لأنه قد ثبت لنا وجودهم عن طريق هؤلاء الأنبياء كذلك، فالشك في وجودهم يوجب الطعن في نبوتهم أيضًا.

وأما أن الإقرار بوجودهم يوجب إنكار معجزات الأنبياء فغير مسلم، لأن المعجزة إنما هي تأييد من الله لأنبيائه حتى يظهر للناس صدق نبوتهم، والرسل معصومون من تلبيس الجن والشياطين، فلا يمكن أن يكون حنين الجذع وتكليم الناقة للرسول عليه السلام من قبيل هذه التلبيسات.

أما الذين ينكرون وجود الجن بحجة عدم رؤيتهم، أمثال الزنادقة والماديين، فهؤلاء ينكرون كل ما لا يقع عليه الحس، وأنه لم يدل دليل عقلي على نفي وجودهم، ولا يمنع العقل من وجودهم، في الوقت الذي دل فيه العقل على وجود أشياء كثيرة غائبة من الحس، وهو أمر لا تحيله الطباع ولا تنكره العقول، ثم إن العقل لم يدع أنه توصل إلى معرفة جميع الأشياء، وأن ما وصل إليه علم

=

=

الإنسان غيض من فيض. فثبت بهذا بطلان شبهات منكري الجن.
موقف المنكرين لوجود الجن من النصوص الدالة على إثبات وجودهم:
وفي الوقت الذي يقرر الإسلام وجود الجن وأنهم مخلوقات عاقلة مكلفة خلقوا من النار، يأتي المنكرون للجن من الملاحدة والفلاسفة وغيرهم فيؤولون النصوص الدالة على وجود الجن والملائكة تأويلًا يبعد عن مقصد القرآن والسنة، وهو تأويل لا يعتمد على دليل يؤيده بل هو من تحريف الكلم عن مواضعه، تضليلًا للناس وصدا لهم عن سبيل الله، وهي تأويلات معلومة الفساد بالضرورة من دين الإسلام، وقد أدى تأويل هذا النفر من الناس إلى إنكار الجن بالكلية، وبهذا يتفقون مع المنكرين في الغاية والهدف. وقد تجلت هذه النظرة عند القدامى والمحدثين:
أما عند القدامى فيقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٤٦): وقد زعم الملاحدة والمتفلسفة بأن الملائكة هم قوى النفس الصالحة، والشياطين هم قوى النفس الخبيثة، ويجعلون سجود الملائكة طاعة القوى للعقل، وامتناع الشياطين عصيان القوى الخبيثة للعقل، ونحو ذلك من المقالات التي يقولها أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم من القرامطة الباطنية، ومن سلك سبيلهم من ضلال المتكلمة والمتعبدة، وقد يوجد نحو هذه الأقوال في أقوال المفسرين التي لا إسناد لها يعتمد عليه ا. هـ.
ويوضح هذه النظرة التي ذكرها ابن تيمية عن هذه الطوائف فخر الدين الرازي في تفسيره (١/ ٧٨): حيث يبين موقف الطوائف المختلفة من الجن، وقد ذكر عن هؤلاء الفلاسفة قولهم: النفوس الناطقة البشرية المفارقة للأبدان قد تكون خيرة وقد تكون شريرة، فإن كانت خيرة فهي الملائكة الأرضية، وإن كانت شريرة فهي الشياطين الأرضية، ثم إذا حدث بدن شديد المشابهة ببدن تلك النفس المفارقة

=

=

ضرب تعلق بهذا البدن الحادث، وتصير تلك النفس المفارقة، معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن على الأعمال اللائقة بها، فإن كانت النفسان من النفوس الطاهرة المشرقة الخيرة، كانت تلك المعاونة والمعاضدة إلهامًا، وإن كانتا من النفوس الخبيثة الشريرة، كانت تلك المعاونة والمناصرة وسوسة.

وقال ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل (١/ ٩٠): وذهب القائلون بتناسخ الأرواح أمثال أحمد بن خابط، وأبو مسلم الخراساني، والرازي الطبيب المعروف وغيرهم أن الشياطين هي أرواح الشريرين من الناس، والملائكة هي أرواح الخيرين منهم ا. هـ

وذكر نحو هذا البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق (ص٢٧٩) حيث يقول: والباطنية يتأولون الملائكة على دعاتهم إلى بدعتهم، ويتأولون الشياطين والأبالسة على مخالفيهم ا. هـ

وما تقدم من تأويل الجن والملائكة هذا التأويل الفاسد إنما سببه الانحراف والزيغ عن منهج الحق، حيث ضلت هذه الفرق عن الإسلام، وتأولت آيات القرآن تأويلًا باطلا يوافق أهواءهم وما انتحلوه من إنكار هذه العوالم، فجمعوا بين إنكار الحق الثابت وتحريف النصوص.

وتأويل بعض هؤلاء الجن، والملائكة، بالأرواح المفارقة للأبدان هو من القول بالتناسخ أو يشابهه، ولا شك أن مذهب التناسخ مذهب باطل كما هو مقرر في الإسلام، فإن الأرواح لا تنتقل إلى أبدان أخر بعد الموت، بل تبقى في مستقرها في دار البرزخ منعمة أو معذبة. ا. هـ من عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة (ص٧٩ وما بعده) بتصرف.

**مسألة**: كفر من أنكر وجود الجن.

أن إنكار الجن مناقض للإيمان بالكتب المنزلة، فالإيمان بالكتب يتضمن الإقرار

=

=

بها وتصديقها، وإنكار الجن هو تكذيب وجحود لآيات الله تعالى، فهو يناقض هذا الإقرار والتصديق، ومن ثَمَّ فقد توعّد الله تعالى أولئك المنكرين لآياته، المكذبين بها بالعذاب المهين والخلود في نار جهنم.

قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) [الأعراف:٤٠]. وقال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) [الحج:٥٧]. بل إن صفة الجحود لتلك الآيات لا تقوم إلا في الكفار، كما قال تبارك وتعالى: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ) [العنكبوت:٤٧]

قال ابن بطة في الإبانة الصغرى (ص٢١٣): فمن أنكر الجن فهو كافر بالله، جاحد بآياته، مكذب بكتابه ا. هـ

وقال ابن حزم في الفصل (٥/ ١١٢): لكن لما أخبرت الرسل الذين شهد الله ﷻ بصدقهم، مما أبدى على أيديهم من المعجزات... بنصّ الله ﷻ على وجود الجن في العالم، وجب ضرورة العلم بخلقهم ووجودهم، وقد جاء النص بذلك، وبأنهم أمة عاقلة مميزة متعبدة، موعودة متوعدة متناسلة يموتون... فمن أنكر الجن، أو تأوّل فيهم تأويلًا يخرجهم به عن هذا الظاهر، فهو كافر مشرك حلال الدم والمال ا. هـ

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٦): وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن، اجتراءً على الله وافتراءً، والقرآن والسنة ترد عليهم ا. هـ

وقال إمام الحرمين كما في آكام المرجان في أحكام الجان (ص:١٩):"والتمسك بالظواهر والآحاد تكلف منا مع إجماع كافة العلماء في عصر الصحابة والتابعين على وجود الجن والشياطين، والاستعاذة بالله تعالى من شرورهم، ولا يراغم مثل هذا الاتفاق متدين متشبث بمسكه من الدين ثم ساق عدة أحاديث، ثم قال:

=

=

فمن لم يرتدع بهذا وأمثاله فينبغي أن يتهم في الدين ويعترف بالانسلال منه، على أنه ليس في إثبات الشياطين ومردة الجن ما يقدح في أصل من أصول العقل وقضية من قضاياه " ا. هـ

وقال الألوسي في روح المعاني (٢٩/ ٨٢): ونفي الجن كفر صريح كما لا يخفى ا. هـ

وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد كما في الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ١١٤): دلّت الكتب السماوية على وجود الجن حقيقة، وأجمع المسلمون عليه، بل وعقلاء النصارى، والمجوس، والصابئون؛ وهذا أمر معلوم حتى عند جاهلية العرب، ولم ينكر وجودهم إلا جهلة الأطباء. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، وكذا جمهور الكفار، لأن وجودهم تواترت به أخبار الأنبياء، تواترا معلوما بالاضطرار، يعرفه الخاصة والعامة؛ قال: ولم ينكر الجن إلا شرذمة قليلة من جهلة الفلاسفة ونحوهم..... وقال الإمام الماوردي: الجن من العالم الناطق المميز، يتناسلون، ويموتون، وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار، وإن تميزوا بأفعال وآثار، إلا أن الله يخص برؤيتهم من يشاء.

وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية، وما تخيلوه من آثارهم الخفية... إلى أن قال: فإن أنكر قوم خلق الجن، ولم يؤمنوا بالكتب الإلهية، قهرتهم براهين العقول، وحجج القياس. وقال أبو البقاء في كلياته: وجمهور أرباب الملل، المصدقين بالأنبياء، قد اعترفوا بوجود الجن، واعترف جمع عظيم من قدماء الفلاسفة. ا. هـ.. أما حكم منكر الجن فإنهم مكذبون للقرآن العزيز والسنة النبوية، ومخالفون لما أجمع عليه المسلمون، كما قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} [سورة الأحقاف آية: ٢٩]، {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ

=

=

اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ} [سورة الجن آية: ١]، وكما في خبر جن نصيبين الذين جاؤوا إلى النبي ﷺ فاستمعوا قراءته، وآمنوا به، وصدقوه. فظهر مما تقدم إثبات وجود الجن حقيقة، وكفر من أنكر وجودهم، وأن لهم قدرة على النفوذ من بواطن البشر؛ وأن الصرع صرعان: صرع من الأرواح الشريرة الأرضية، وصرع من الأخلاط الرديئة، لما نص عليه كثير من محققي العلماء، رحمهم الله، والله الموفق، والهادي إلى سواء السبيل؛ وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ا. هـ

**وقال العلامة** الألباني في أصل صفة الصلاة (١/ ١٢٤): عن جابر بن سمرة قال: صلينا مع رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- صلاة مكتوبة فضم يده في الصلاة، فلما صلى قلنا: يا رسول الله أحدث في الصلاة شيء؟ قال: «لا إلا أن الشيطان أراد أن يمر بين يدي فخنقته حتى وجدت برد لسانه على يدي، وأيم الله لولا ما سبقني إليه أخي سليمان لارتبط إلى سارية من سواري المسجد حتى يطيف به ولدان أهل المدينة». قال الشيخ: إسناده صحيح على شرط مسلم.

ثم علق عليه العلامة الألباني قائلًا: وهو من الأحاديث الكثيرة التي يكفر بها طائفة القاديانية؛ فإنهم لا يؤمنون بعالم الجن المذكور في القرآن والسنة، وطريقتهم في رد النصوص معروفة، فإن كانت من القرآن؛ حرفوا معانيها؛ كقوله تعالى {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} قالوا: أي من الإنس! فيجعلون لفظة " الجن " مرادفة للفظة " الإنس "؛ كـ " البشر"! فخرجوا بذلك عن اللغة والشرع، وإن كانت من السنة؛ فإن أمكنهم تحريفها بالتأويل الباطل؛ فعلوا، وإلا؛ فما أسهل حكمهم ببطلانها؛ ولو أجمع أئمة الحديث كلهم والأمة من ورائهم على صحتها؛ بل تواترها! هداهم الله ا. هـ

وقال الشيخ أيضا في نفس المصدر (٣/ ١٠٠٥- ١٠٠٦): ومن أباطيل غلام

=

=

أحمد القادياني المخبول: زعمه أن المراد بالشيطان الرجيم في الاستعاذة هو هذا الدجال -يعني: الديانة [المسيحية الباطلة]-؛ قال في كتابه "إعجاز المسيح" (٢٩):

ولا يفهم هذا الرمزَ إلا ذو القريحة الوقادة!... ومن وقف على كتبه؛ يعلم أن تفسيره كله أو جله على هذه الطريقة الرمزية الصوفية الغالية، التي لا تستند إلى قاعدة لغوية أو شرعية، وإنما هي الهوى أو الوحي الشيطاني! وهو في أثناء تفسيره للاستعاذة يشير إلى إنكار وجود الجن والشياطين، وإنما الجن عنده وعند أتباعه الضالين هم زعماء الناس؛ كما صرح لي بذلك بعض أتباعه، وكان قد جرى بيني وبينه مناظرة شفهية في هذا الموضع في جلسات تبلغ العشر، كان نتيجتها أن انسحب منها مذمومًا مدحورًا ا. هـ

**وقال العلامة** العثيمين في الشرح الممتع (١٤/ ٤٢٧): أو جحد الجن، فهو ـ أيضًا ـ كافر؛ لأنه مكذب للقرآن، فأما من جحد دخول الجني في الإنس فهو ضال، وليس بكافر فهو ضال؛ لأنه قال قولًا ينكره الواقع، وينكره الثابت بالأخبار عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وعن غيره ا. هـ

وسئل العلامة الفوزان كما في المنتقى من فتاوى الفوزان: في عصرنا الحاضر كثُرَ حديث الناس عن تلبُّس الجنِّ بالإنس، ودخولهم فيهم، ومن الناس من ينكر ذلك، بل إنّ البعض ينكر الجنَّ إطلاقًا؛ فهل لهذا تأثير على عقيدة المسلم؟ وهل ورد ما يلزم بالإيمان بالجنِّ؟ ثم ما الفرق بينهم وبين الملائكة؟

**فأجاب**: إنكار وجود الجنِّ كفر وردَّةٌ عن الإسلام؛ لأنه إنكارٌ لما تواتر في الكتاب والسنة من الأخبار عن وجودهم؛ فالإيمان بوجودهم من الإيمان بالغيب؛ لأننا لا نراهم، وإنما نعتمد في إثبات وجودهم على الخبر الصَّادق؛ قال تعالى في إبليس وجنوده: {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ} [الأعراف:

=

=

.[٢٧.

أمَّا إنكار دخولهم في الإنس؛ فلا يقتضي الكفر، لكنه خطأ، وتكذيب لما ثبت في الأدلَّة الشرعيَّة والواقع المتكرِّر وجوده، لكن لِخفاء هذه المسألة لا يُكفَّر المخالف فيها، ولكن يخطَّأ؛ لأنه لا يعتمد في إنكار ذلك على دليل، وإنما يعتمد على عقله وإدراكه، والعقل لا يُتَّخذ مقياسًا في الأمور الغيبيَّة، وكذلك لا يكون العقل مقدَّمًا على أدلَّة الشرع؛ إلا عند أهل الضلال.

والفرق بين الجنِّ والملائكة من وجوه:

**الوجه** الأول: من وجه أصل الخِلقة؛ فالجنُّ خُلِقوا من نار السَّموم، والملائكة خُلِقوا من نور.

**الوجه** الثاني: أن الملائكة عبادٌ مطيعون لله، مقرَّبون، مكرَمون؛ كما قال تعالى: {بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء: ٢٦، ٢٧.]، وقال تعالى: {لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦.]. أما الجنُّ؛ فمنهم المؤمن ومنهم الكافر؛ كما قال تعالى إخبارًا عنهم: {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ} [الجن: ١٤.]، ومنهم المطيع ومنهم العاصي؛ قال تعالى: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ...} [الجن: ١١.] إلى غير ذلك من الآيات ا. هـ

**وقال العلامة** الفوزان أيضا في إعانة المستفيد (١/ ٢٥): ومن جحد وجود الجن فهو كافر؛ لأنه مُكَذِّبٌ لله ورسوله وإجماع الأمة على وجود الجن، وهؤلاء الذين أنكروا وجودهم على أي شيء يعتمدون؟، ما يعتمدون على شيء إلاَّ لأنهم لا يرونهم، وهل كل موجود لابد أن تراه؟ هناك أشياء كثيرة ما تراها وهي موجودة، مثلًا: الروح التي فيك، هل تراها؟، هل الروح التي تحركك؛ تمشي بها وتقعد هل تراها، والعقل موجود ومع هذا لا تراه.

=

=

الحاصل؛ أنه ما كل شيء موجود لابد أننا نراه، هناك أشياء كثيرة وكثيرة وكثيرة لا نراها، وربما تكون تعيش معنا، ولله الحِكمة سبحانه وتعالى، ومن ذلك {الْجِنَّ} وهم عالم عظيم، إلاّ أننا لا نراهم، وهم مكلّفون مثل الإنس ا. هـ

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ٤٢٣): من الإيمان بالكتب الإيمان بالقرآن والقرآن فيه الخَبَرْ عن الغيب ومنه الخبر عن الجن، فالجن أنزل الله ﷻ فيهم آيات كثيرة {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ} [الجن:١- ٢]، وقال ﷻ في آية الأحقاف {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} [الأحقاف:٢٩]، وقال ﷻ {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبإ:٤١]، وقال سبحانه {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} [الصافات:١٥٨]، وغير ذلك من الآيات التي فيها ذكر الجن، {قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ} [النمل:٣٩]، فالإيمان بالجن واجب؛ الإيمان بوجودهم وبما أخبر الله ﷻ عنهم من صفتهم في كتابه، وبما صحّ في حديث النبي ﷺ، فمن أنكر وجود الجن كفر لأنه كذَّبَ القرآن، فَيُعَرَّفْ -إذا كان مثله يجهل- يُعَرَّفْ بما جاء في القرآن من الآيات، فإذا كذب بوجود الجن مع ذكرهم في القرآن فإن تكذيبه يعود إلى إنكار وجحد القرآن فيكون كافرًا بذلك.

**مسألة**: ماهية الجن.

**سئل شيخ** الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٢): عن قائل يقول: إن لم يتبين لي حقيقة ماهية الجن وكنه صفاتهم؛ وإلا فلا أتبع العلماء في شيء.

**فأجاب**: أما كونه لم يتبين له كيفية الجن وماهياتهم؛ فهذا ليس فيه إلا إخباره

=

=

بعدم علمه لم ينكر وجودهم؛ إذ وجودهم ثابت بطرق كثيرة غير دلالة الكتاب والسنة فإن من الناس من رآهم وفيهم من رأى من رآهم وثبت ذلك عنده بالخبر واليقين. ومن الناس من كلمهم وكلموه ومن الناس من يأمرهم وينهاهم ويتصرف فيهم: وهذا يكون للصالحين وغير الصالحين ولو ذكرت ما جرى لي ولأصحابي معهم: لطال الخطاب. وكذلك ما جرى لغيرنا؛ لكن الاعتماد على الأجوبة العلمية يكون على ما يشترك الناس في علمه لا يكون بما يختص بعلمه المجيب إلا أن يكون الجواب لمن يصدقه فيما يخبر به ا. هـ

**وقال الحافظ** في الفتح (٦/ ٣٤٤): واختلف في صفتهم فقال القاضي أبو بكر الباقلاني قال بعض المعتزلة: الجن أجساد رقيقة بسيطة، قال: وهذا عندنا غير ممتنع إن ثبت به سمع. وقال أبو يعلى بن الفراء: الجن أجسام مؤلفة وأشخاص ممثلة، يجوز أن تكون رقيقة وأن تكون كثيفة خلافا للمعتزلة في دعواهم أنها رقيقة، وأن امتناع رؤيتنا لهم من جهة رقتها. وهو مردود، فإن الرقة ليس بمانعة عن الرؤية. ويجوز أن يخفى عن رؤيتنا بعض الأجسام الكثيفة إذا لم يخلق الله فينا إدراكها. وروى البيهقي في "مناقب الشافعي" بإسناده عن الربيع سمعت الشافعي يقول: من زعم أنه يرى الجن أبطلنا شهادته، إلا أن يكون نبيا. انتهى. وهذا محمول على من يدعي رؤيتهم على صورهم التي خلقوا عليها، وأما من ادعى أنه يري شيئا منهم بعد أن يتطور على صور شتى من الحيوان فلا يقدح فيه، وقد تواردت الأخبار بتطورهم في الصور، واختلف أهل الكلام في ذلك فقيل: هو تخييل فقط ولا ينتقل أحد عن صورته الأصلية، وقيل بل ينتقلون لكن لا باقتدارهم على ذلك بل بضرب من الفعل إذا فعله انتقل كالسحر وهذا قد يرجع إلى الأول، وفيه أثر عن عمر أخرجه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح "أن الغيلان ذكروا عند عمر فقال: إن أحدا لا يستطيع أن يتحول عن صورته التي خلقه الله

=

مَكِّيَّة وآياتها ثمان وعشرون.

**بسم الله الرحمن الرحيم**(١)

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١)

{قُلْ} يَا مُحَمَّد لِلنَّاسِ {أُوحِيَ إِلَيَّ} أَيْ أُخْبِرْت بِالْوَحْيِ مِنْ الله تَعَالَى {أَنَّهُ} الضَّمِير لِلشَّأْنِ {اسْتَمَعَ} لِقِرَاءَتِي {نَفَر مِنْ الْجِنّ} جِنّ نَصِيبِينَ وَذَلِكَ فِي صَلَاة الصُّبْح بِبَطْنِ نَخْل مَوْضِع بَيْن مَكَّة وَالطَّائِف وَهُمْ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي قَوْله تَعَالَى {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْك نَفَرًا مِنْ الْجِنّ} الْآيَة {فَقَالُوا} لِقَوْمِهِمْ لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ {إِنَّا

=

عليها، ولكن لهم سحرة كسحرتكم، فإذا رأيتم ذلك فأذنوا" وإذا ثبت وجودهم فقد اختلف في أصلهم فقيل: إن أصلهم من ولد إبليس، فمن كان منهم كافرا سمي شيطانا، وقيل: إن الشياطين خاصة أولاد إبليس ومن عداهم ليسوا من ولده، وحديث ابن عباس الآتي في تفسير سورة الجن يقوي أنهم نوع واحد من أصل واحد، واختلف صنفه فمن كان كافرا سمي شيطانا وإلا قيل له جني ا. هـ

وسئل العلامة الوادعي كما في تحفة المجيب (ص٣٧٥): هل الجن أرواح أم أجساد؟

**فأجاب**: الذي يظهر أنّهم أرواح وأجساد، إلا أنّهم قادرون على التشكل والدخول من أي مكان والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يأمرنا بغلق الأبواب ويقول: ((إن الشّيطان لا يفتح غلقًا)). ويأمرنا بتغطية الآنية وأن نذكر اسم الله عليها، وهكذا إذا دخل إلى منْزله وقال: بسم الله. قال الشيطان: لا مبيت، وإذا أكل وقال: بسم الله. قال الشيطان: لا مبيت ولا عشاء ا. هـ

وللتوسع انظر "جامع أحكام الجان ط اللؤلؤة".

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} يُتَعَجَّب مِنْهُ فِي فَصَاحَته وَغَزَارَة مَعَانِيه وَغَيْر ذَلِكَ.

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢).

{يَهْدِي إِلَى الرُّشْد} الْإِيمَان وَالصَّوَاب {فَآمَنَّا بِهِ ولن نشرك} بعد اليوم {بربنا أحدا}

وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣).

{وَأَنَّهُ} الضَّمِير لِلشَّأْنِ فِيهِ وَفِي الْمَوْضِعَيْنِ بَعْده {تَعَالَى جَدّ رَبّنَا} تَنَزَّهَ جَلَاله وَعَظَمَته عَمَّا نسب إليه {ما اتخذ صاحبة} زوجة {ولا ولدا}.

وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا (٤).

{وأنه كان يقول سَفِيهنَا} جَاهِلنَا {عَلَى الله شَطَطًا} غَلَوْا فِي الْكَذِب بِوَصْفِهِ بِالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَد.

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا (٥).

{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ} مُخَفَّفَة أَيْ أَنَّهُ {لَنْ تَقُول الْإِنْس وَالْجِنّ عَلَى الله كَذِبًا} بِوَصْفِهِ بذلك حتى تبينا كذبهم بذلك قال تعالى.

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦).

{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَال مِنْ الْإِنْس يَعُوذُونَ} يَسْتَعِيذُونَ {بِرِجَالٍ مِنْ الْجِنّ} حِين يَنْزِلُونَ فِي سَفَرهمْ بِمَخُوفٍ فَيَقُول كُلّ رَجُل أَعُوذ بِسَيِّدِ هَذَا الْمَكَان مِنْ شَرّ سُفَهَائِهِ {فَزَادُوهُمْ} بِعَوْذِهِمْ بِهِمْ {رَهَقًا} فَقَالُوا سُدْنَا الْجِنّ وَالْإِنْس.

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا (٧).

{وَأَنَّهُمْ} أَيْ الْجِنّ {ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ} يَا إِنْس {أَنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة أَيْ أَنَّهُ

{لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا} بَعْدَ مَوْتِهِ[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-؛ قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب؛ فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث؛ فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها؛ ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء؟ قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن؛ تسمعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم؛ فقالو: يا قومنا: {إنا سمعنا قرآنا عجبا (١) يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا (٢)}؛ وأنزل الله -عَزَّ وَجَلَّ- على نبيه: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن} وإنما أوحى إليه قول الجن.

أخرجه البخاري (رقم ٧٧٣، ٤٩٢١)، ومسلم (رقم ٤٤٩/ ١٤٩).

وعن كردم بن أبي السائب؛ قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذكر لي رسول الله ﷺ فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل؛ جاء الذئب فأخذ حَمَلًا من غنمه، فقال الراعي: يا عامر الوادي! أنا جارك، قال: فسمعنا قائلًا لا نراه، يقول: يا سرحان! أرسله، قال: فجاء الحمل يشتد حتى دخل الغنم، ولم يصبه كدمة، قال: وأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ على النبي ﷺ: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤٥٧)، =

=

والطبراني في "المعجم الكبير" (١٩/ ١٧١ رقم ٤٣٠)، والعقيلي في "الضعفاء الكبير" (١/ ١٠١)، وابن قانع في "معجم الصحابة" (٢/ ٣٩٥)، والواحدي في "الوسيط" (٤/ ٣٦٤)، والبغوي في "معالم التنزيل" (٨/ ٢٣٩)، وأبو الشيخ في "العظمة" (٥/ ١٦٦٤، ١٦٦٦ رقم ١١٠٥)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الإصابة" (٣/ ٢٨٩)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٥/ ٢٤٠٧ رقم ٥٨٩٠، ٥٨٩١)، وابن عبد البر وابن منده؛ كما في "أسد الغابة" (٤/ ١٦٤، ١٦٥) من طريق القاسم بن مالك عن عبد الرحمن بن إسحاق عن أبيه عن كردم به. وهذا سند ضعيف جدًا، فيه علتان:

الأولى: عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة الواسطي؛ متفق على تضعيفه.

الثانية: أبوه إسحاق بن الحارث؛ قال ابن حبان في "المجروحين" (١/ ١٣٣): "منكر الحديث، فلا أدري التخليط في حديثه منه أو من ابنه؟!". وضعفه أحمد وغيره.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٩): "رواه الطبراني؛ وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الكوفي وهو ضعيف".

وعن أبي رجاء العطاردي؛ قال: بُعث رسول الله ﷺ وقد رعيتُ على أهلي كفيت مهنتهم، فلما بعث النبي ﷺ؛ خرجنا هُرابًا فأتينا على فلاة من الأرض، وكنا إذا أمسينا بمثلها، قال شيخنا: إنا نعوذ بعزيز هذا الوادي من الجن الليلة، فقلنا ذاك، قال: فذكر حديثًا طويلًا، قال أبو رجاء: فقيل لنا: إنما سبيل هذا الرجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فمن أقرّ بها؛ أمِن على دمه وماله، فرجعنا فدخلنا في الإسلام، قال: وربما قال أبو رجاء: إني لأرى هذه الآية نزلت فيّ وفي أصحابي: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)}.

=

=

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٧/ ١٣٨، ١٣٩): نا عمرو بن عاصم الكلابي ثنا سلم بن زرير قال: سمعت أبا رجاء يقول: (فذكره). وهذا سند ضعيف؛ سلم بن زرير ضعيف، وأبو رجاء العطاردي مخضرم ثقة؛ فهو مرسل.

وعن سهل بن عبد الله؛ قال: كنت في ناحية ديار عاد؛ إذ رأيت مدينة من حجر منقورة في وسطها قصر من حجارة يأويه الجن فدخلت، فإذا شيخ عظيم الخلق يصلي نحو الكعبة وعليه جبة صوف فيها طراوة، فلم أتعجب من عظم خلقته كتعجبي من طراوة جبته، فسلمت عليه؛ فرد عليّ السلام، وقال: ومطاعم السحت، وإن هذه الجبة عليَّ منذ سبعمائة سنة لقيت بها عيسى ومحمد عليهما السلام فآمنت بهما، فقلت: ومن أنت؟ قال: أنا من الذين نزلت فيهم: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ}؛ قال: كانوا من حسن نصيبين.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢٩٧)، و"لباب النقول" (ص ٢٢٠) ونسبه لابن الجوزي في "صفوة الصفوة".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا من بني تميم كان جريئًا على الليل والرجال، وأنه سار ليلة فنزل في أرض مجنة، فاستوحش، فعقل راحلته، ثم توسد ذراعيها وقال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر أهله، فأجاره شيخ منهم، وكان منهم شاب وكان سيدًا في الجن، فغضب الشاب لما أجاره الشيخ، فأخذ حربة له قد سقاها السم لينحر ناقة الرجل بها، فتلقاه الشيخ دون الناقة فقال:

[] يا مالك بن مهلهل ... مهلًا فذلك محجري وإزاري

عن ناقة الإنسان لا تعرض لها ... واختر إذا ورد المها أثواري

إني ضمنت له سلامة رحله ... فاكفف يمينك راشدًا عن جاري

ولقد أتيت على ما لم أحتسب ... إلا رعيت قرابتي وجواري

تسعى إليه بحربة مسمومة ... أفّ لقربك يا أبا اليقطاري

=

=

لو لا الحياء وأن أهلك جيرة ... لتمزقتك بقوة أظفاري

فقال له الفتى:

أتريد أن تعلو وتخفض ذكرنا ... في غير مزية أبا العزار

متنحلًا أمرًا لغيرك فضله ... فارحل فإن المجد للمرار

من كان منكم سيدًا فيما مضى ... إن الخيار هم بنو الأخيار

فاقصد لقصدك يا معيكر إنما ... كان المجير مهلهل بن وبار

فقال الشيخ: صدقت، كان أبوك سيدنا وأفضلنا، دع هذا الرجل لا أنازعك بعده أحدًا، فتركه، فأتى الرجل النبي ﷺ فقص عليه القصة، فقال رسول الله ﷺ: "إذا أصاب أحدًا منكم وحشة، أو نزل بأرض مجنة؛ فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن فتن الليل، ومن طوارق النهار؛ إلا طارقًا يطرق بخير"؛ فأنزل الله في ذلك: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (*) (٨/ ٢٩٩) ونسبه لأبي نصر السجزي في "الإبانة".

قال أبو نصر: غريب جدًا؛ لم نكتبه إلا من هذا الوجه.

وعن سعيد بن جبير: أن رجلًا من بني تميم يقال له: رافع بن عمير حدث عن بدء إسلامه، قال: إني لأسير برمل عالج ذات ليلة؛ إذ غلبني النوم؛ فنزلت عن راحلتي وأنختها ونمت وقد تعوذت قبل نومي، فقلت: أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجن، فرأيت في منامي رجلًا بيده حربة يريد أن يضعها في نحر ناقتي فانتبهت فزعًا فنظرت يمينًا وشمالًا فلم أر شيئًا، فقلت: هذا حلم، ثم عدت فغفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت؛ فرأيت ناقتي تضطرب والتفت، وإذا برجل شاب

=

=

كالذي رأيته في المنام بيده حربة ورجل شيخ ممسك بيده يدفعه عنه، فبينما هما يتنازعان؛ إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش فقال الشيخ للفتى: قم فخذ أيتها شئت فداء لناقة جاري الإنسي، فقام الفتى، فأخذ منها ثورًا وانصرف ثم التفت إليّ الشيخ، وقال: يا هذا إذا نزلت واديًا من الأودية فخفت هوله؛ فقل: أعوذ برب محمد من هول هذا الوادي ولا تعذ بأحد من الجن؛ فقد بطل أمرها، قال: فقلت له: ومن محمد هذا؟ قال: نبي عربي لا شرقي ولا غربي بعث يوم الاثنين، قلت: فأين مسكنه؟ قال: يثرب ذات النخل، فركبت راحلتي حين ترقى لي الصبح وجددت السير حتى تقحمت المدينة، فرآني رسول الله ﷺ؛ فحدثني بحديثي قبل أن أذكر منه شيئًا، ودعاني إلى الإسلام فأسلمت. قال سعيد بن جبير: وكنا نرى أنه هو الذي أنزل الله فيه: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٢١)، وقال: "وأخرج الخرائطي في كتاب "هواتف الجان": ثنا عبد الله بن محمد البلوي ثنا عمارة بن زيد ثني عبد الله بن العلاء ثنا محمد عن عكبر عن سعيد به". وهذا سند ضعيف؛ لإرساله، وفيه من لم يعرفه.

وذكر -أيضًا- (ص ٢٢٢): أنه أخرج عن مقاتل في قوله: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)}؛ قال: نزلت في كفار قريش حين منع المطر سبع سنين. وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ} [الجن: ١]، أي:"قل -أيها الرسول-: أوحى الله إليَّ أنَّ جماعة من الجن قد استمعوا لتلاوتي للقرآن".

**قال الطبري:**"يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد أوحى الله إليَّ {أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ} هذا القرآن".

=

=

**قال السعدي**:"أي: {قُلْ} يا أيها الرسول للناس: {أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ} صرفهم الله إلى رسوله لسماع آياته لتقوم عليهم الحجة [وتتم عليهم النعمة] ويكونوا نذرا لقومهم. وأمر الله رسوله أن يقص نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه، قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم".

عن عبيد، قال: "سمعت الضحاك يقول في قوله: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ}، هو قول الله: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ}، لم تُحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد؛ فلما بعث الله محمدًا ﷺ حرست السماء الدنيا، ورُميت الشياطين بالشهب، فقال إبليس: لقد حدث في الأرض حدث، فأمر الجنّ فتفرّقت في الأرض لتأتيه بخبر ما حدث. وكان أوّل من بُعث نفر من أهل نصيبين وهي أرض باليمن، وهم أشراف الجنّ، وسادتهم، فبعثهم إلى تهامة وما يلي اليمن، فمضى أولئك النفر، فأتوا على الوادي وادي نخلة، وهو من الوادي مسيرة ليلتين، فوجدوا به نبيّ الله ﷺ يصلي صلاة الغداة فسمعوه يتلو القرآن؛ فلما حضروه، قالوا: أنصتوا، فلما قُضِيَ، يعني: فُرِغ من الصلاة، وَلَّوْا إلى قومهم منذرين، يعني مؤمنين، لم يعلم بهم نبيّ الله ﷺ ولم يشعر أنه صُرِف إليه، حتى أنزل الله عليه: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنّ}".

عن محمد بن إسحاق، قال: "كانت الأحبار من اليهود، والرُّهبان من النصارى، والكُهّان من العرب قد تحدَّثوا بأمْر رسول الله ﷺ قبل مَبعثه لَمّا تَقارب من زمانه؛ أما الأحبار من يهود، والرُّهبان من النصارى فَعمّا وجدوا مِن صفته في كُتبهم وصفة زمانه لما كان في عهْد أنبيائهم إليهم فيه، وأما الكُهّان من العرب فيأتيهم به الشياطين من الجنّ فيما يَسرقون من السمع، إذ كانت وهي لا تُحجب عن ذلك بالقذْف بالنجوم، وكان الكاهن والكاهنة من العرب لا يزال يَقع منهما

=

=

ذِكْر بعض أمْره لا تُلْقِي العرب فيه بالًا، حتى بَعثه الله- ﷻ -، ووقعتْ تلك الأمور التي كانوا يَذكرون، فعرفوها، فلمّا تَقارب أمْرُ رسول الله ﷺ، وحضَر مَبعثه حُجبت الشياطين عن السمع، وحِيل بينها وبين المقاعد التي كانت تَقعد لاستراق السمع فيها، فرُموا بالنّجوم، فعَرفت الجنّ أنّ ذلك لأمْرٍ حَدث من الله ﷻ في العباد. يقول الله تعالى لنبيّه ﵇ حين بَعثه، وهو يَقُصّ عليه خبر الجنّ إذ حُجبوا عن السمع، فعَرفوا ما عَرفوا وما أنكروا من ذلك حين رَأوا ما رَأوا: {قل أوحي إلي أنه استمع} إلى قوله: {أم أراد بهم ربهم رشدًا}. فلمّا سمعت الجنّ القول عَرفتْ أنها إنّما مُنعتْ من السمع قَبل ذلك له، لئلا يُشْكِل الوحيَ شيءٌ مِن خبر السماء، فيَلتبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله- ﷻ -، وقَطْعِ الشُّبَهِ، فآمنوا وصدَّقوا ثم {ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابًا} إلى آخر الآية [الأحقاف: ٢٩- ٣٠]".

عن عبد الملك، قال: "لم تُحرس الجنُّ في الفَتْرة بين عيسى ومحمد ﷺ، فلمّا بَعثَ الله محمدًا ﷺ حُرست السماء الدنيا، ورُميت الجنّ بالشّهاب، فاجتمعتْ إلى إبليس، فقال: لقد حَدث في الأرض حَدثٌ، فَتعَرَّفوا، فأَخبرونا ما هذا الحَدث. فبَعثَ هؤلاء النّفر إلى تِهامة وإلى جانب اليمن، وهم أشراف الجنّ وسادتهم، فوجدوا النبيَّ ﷺ يُصلّي صلاة الغَداة بنَخلة، فسَمعوه يتلو القرآن، {فَلَمّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمّا قُضِيَ} يعني بذلك: أنه فَرغ من صلاة الصبح، {ولَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} [الأحقاف: ٢٩] مؤمنين، لم يَشعر بهم حتى نزل: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجنّ}... يقال: سبعة من أهل نَصِيبين".

قوله تعالى: {فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} [الجن: ١]، أي:"فلما سمعوه قالوا لقومهم: إنا سمعنا قرآنًا بديعًا في بلاغته وفصاحته وحكمه وأحكامه وأخباره".

**قال الطبري:**"{فَقَالُوا} لقومهم لما سمعوه: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا}".

=

=

**قال السعدي:**"أي: من العجائب الغالية، والمطالب العالية".

قال مقاتل:"يعني: عزيزا لا يوجد مثله".

قال الراغب:"أي: لم يعهد مثله، ولم يعرف سببه".

عن ابن عباس: {قُرْآنًا عَجَبًا}، قال:"بليغًا".

قال السمعاني:"أي: عجبا في نظمه وتأليفه وصحة معناه".

**قال الزمخشري:** أي:"بديعا مباينا لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه، قائمة فيه دلائل الإعجاز. وعجب مصدر يوضع موضع العجيب. وفيه مبالغة: وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره".

قال النحاس:"معنى: عجب: عجيب في اللغة، على ما ذكره محمد بن يزيد: أنه الشيء يقلّ ولا يكاد يوجد مثله".

قال ابن قتيبة:"يعني: أنهم قالوا ذلك لقومهم حين رجعوا إليهم".

قال الرازي: اعلم أن قوله تعالى: {قل} أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله في واقعة الجن، وفيه فوائد:

إحداها: أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس، فقد بعث إلى الجن.

وثانيها: أن يعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه، فآمنوا بالرسول.

وثالثها: أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس.

ورابعها: أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا.

وخامسها: أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان، وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس.

وقال الخازن: أمر الله نبيه ﷺ أن يظهر لأصحابه واقعة الجن وكما أنه مبعوث إلى الإنس فهو أيضا مبعوث إلى الجن لتعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما

=

=

سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا به.

(فقالوا) لقومهم لما رجعوا إليهم كما قال تعالى (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم).

(إنا سمعنا قرآنا عجبا) أي فقالت الجن لقومهم حين رجعوا إليهم إنا سمعنا قرآنا عجيبا بليغا بديعا ليس من كلام الإنس والجن، يعجب سامعه من فصاحته وبلاغته في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه ومواعظه ووعده ووعيده وغير ذلك.

- قال أبو حيان: أي هو عجب في نفسه لفصاحة كلامه، وحسن مبانيه، ودقة معانيه، وغرابة أسلوبه، وبلاغة مواعظه، وكونه مباينا لسائر الكتب.... والعجب ما خرج عن أحد أشكاله ونظائره.

- والغرض من الإخبار عن استماع الجن توبيخ وتقريع قريش والعرب في كونهم تباطأوا عن الإيمان، إذ كانت الجن خيرا منهم وأسرع إلى الإيمان، فإنهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا به ورجعوا إلى قومهم منذرين.

- وفي هذا أن الرسول ﷺ مرسل للثقلين الإنس والجن.

كما قال تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا). قال القرطبي: والمراد بـ (العالمين) هنا الإنس والجن، لأن النبي ﷺ قد كان رسولا إليهما.

وقال تعالى (وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) ذكر القرطبي نقلا عن مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له.

وقال تعالى (يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به)

=

=

- **قال الرازي**: هذه الآية تدل على أنه ﷺ كان مبعوثا إلى الجن كما كان مبعوثا إلى الإنس.

- وقال ابن كثير: فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدا ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعيدهم وهي سورة الرحمن.

وقال تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا).

- قال الآلوسي: وتخصيص الثقلين بالذكر، لأن المنكر لكونه من عند الله تعالى، منهما لا من غيرهما.

وقال ﷺ (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي... كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود) رواه مسلم.

قال النووي: قيل: المراد بالأحمر البيض من العجم وبالأسود العرب لغلبة السمرة فيهم، وقيل: الأحمر الإنس والأسود الجن والجميع صحيح فقد بعث إلى جميعهم.

قوله تعالى: {يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ} [الجن: ٢]، أي:"يدعو إلى الحق والهدى".

عن عطاء:: {يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}، قال: "إلى الإيمان بالله".

قال مقاتل:"يقول: يدعو إلى الهدى".

**قال الطبري**:"يقول: يدلّ على الحقّ وسبيل الصواب".

**قال ابن كثير**: "أي: إلى السداد والنجاح".

**قال الزمخشري**:"يدعو إلى الصواب. وقيل: إلى التوحيد والإيمان".

**قال السعدي**:"«الرشد»: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم".

=

=

قوله تعالى: {فَآمَنَّا بِهِ} [الجن: ٢]، أي:"فصدَّقنا بهذا القرآن وعملنا به".
**قال الطبري**:"يقول: فصدّقناه".
قوله تعالى: {وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} [الجن: ٢]، أي:"ولن نشرك بربنا الذي خلقنا أحدًا في عبادته".
**قال الطبري**: يقول: "{نْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} من خلقه".
قال الزمخشري ولما كان الإيمان به إيمانا بالله وبوحدانيته وبراءة من الشرك: قالوا: {وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَدًا}، أي: ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به في طاعة الشيطان".
**قال السعدي**:"فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى، المتضمنة لترك الشر وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمربى والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة".
- قال ابن عاشور (الرشد) بضم الراء وسكون الشين (أو يقال بفتح الراء وفتح الشين) هو الخير والصواب والهدى.
-جاء في (التفسير الوسيط) ووصفهم للقرآن بكونه قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد يدل على تأثرهم به تأثرا شديدا، وعلى إعجابهم العظيم بنظمه المتقن، وأسلوبه الحكيم، ومعانيه البديعة.. ولذا أعلنوا إيمانهم به بدون تردد، كما يشعر بذلك التعبير بالفاء في قوله: فآمنا به.
(فآمنا به) أي: صدقنا به وانقدنا له واتبعناه.

=

=

(ولن نشرك بربنا أحدا) أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك، بل سنعبده وحده ونخلص العبادة له وحده لا شريك له.

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا} [الجن: ٣]

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا} [الجن: ٣]، أي:"وأنه تعالَتْ عظمة ربنا وجلاله".

**قال السعدي**:"أي: تعالت عظمته وتقدست أسماؤه".

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا} [الجن: ٣]، على أقوال:

**أحدها**: معناه: تعالى أمر ربنا وسلطانه وقُدرته، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد.

قال ابن عباس:"يقول: تعالى أمر ربنا".

قال ابن عباس:"يقول: فعله وأمره وقُدرته". وفي رواية:"أمره وقدرته".

قال قتادة:"تعالى أمر ربنا: تعالت عظمته".

قال ابن زيد:"تعالى أمرُه أن يتخذ -ولا يكون الذي قالوا-: صاحبة ولا ولدا، وقرأ: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، قال: لا يكون ذلك منه".

قال ابن قتيبة:"يقال: جدّ فلان في قومه: إذا عظم عندهم".

قال ابن قتيبة:"«جَدُّ اللهِ»: عَظَمَتُه. ومنه قوله: {تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا}، ومنه يقال في افتتاح الصلاة: «تَبَارَكَ اسمُك، وتعالَى جَدُّك»، يقال: جَدَّ الرجلُ في صدور الناس وفي عيونهم، إذا عَظُم. ومنه قول أنسٍ: «كان الرجُل إذا قرأ البقرة وآلَ عمران، جَدَّ فينا»؛ أي: عَظُم".

**قال الزمخشري**:"استعارة من: الجد الذي هو الدولة والبخت، لأن الملوك

=

=

والأغنياء هم المجدودون. والمعنى: وصفه بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته. أو لسلطانه وملكوته. أو لغناه".

قال النحاس:"أحسن ما روي في معنى «جدّ ربّنا» قول ابن عباس: إنه الغنى والعظمة والرفعة، وأصل الجدّ في اللّغة الارتفاع. من ذلك الجدّ أبو الأب. ومنه الجدّ الحظ وباللغة الفارسية البخت، ويقال: إنّ الجنّ

قصدوا إلى هذا وأنهم أرادوا الرفعة والحظ أي ارتفع ربنا عن أن ينسب إلى الضعف الذي في خلقه من اتّخاذ المرأة وطلب الولد والشهوة. يدلّ على هذا أن بعده مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَدًا وقد زعم بعض الفقهاء أنه يكره أن تقول: وتعالى جدّك، واحتجّ بأن هذا إخبار عن الجنّ. وذلك غلط لأنه قد صحّ عن النبي ﷺ ذلك ولم يذمّ الله الجنّ على هذا القول. وروي عن عكرمة: «وأنه تعالى جدّا ربّنا»".

**الثاني**: فعل ربنا، قاله ابن عباس، والضحاك.

**الثالث**: ذكر ربنا، وهو قول مجاهد.

وقال مقاتل:"ارتفع ذكره وعظمته".

**الرابع**: غنى ربنا، قاله الحسن.

وعن سليمان التيمي، عن الحسن وعكرِمة، في قول الله: "{وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا}، قال أحدهما: غناه، وقال الآخر: عظمته".

قال الواحدي:"الجد يكون بمعنى الغنى، ومنه الحديث: «لا ينفع ذا الجد منك الجد»، وكذلك الحديث الآخر: "قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، وإذا أصحاب الجد محبوسون» ". يعني: ذوي الحظ في الدنيا.

**الخامس**: علا مُلك ربنا وسلطانه، قاله أبو عبيدة، والأخفش.

**السادس**: جلال ربنا وعظمته، قاله مجاهد، وعكرمة، قتادة، وبه قال المبرد،

=

=

والزجاج، وحكاه الواحدي عن الأكثرين وجميع أصحاب اللغة.

قال قتادة:"أي: تعالى جلاله وعظمته وأمره".

**قال الزجاج**: أي: "تعالى جلال رَبِّنَا وعظمته عن أن يتخذ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا".

قال الواحدي:"الأكثرون على أن المعنى: جلال ربنا وعظمته".

قال القشيري:"الجدّ: العظمة، والعظمة استحقاق نعوت الجلال".

السابع: نعم ربنا على خلقه، قاله محمد بن كعب.

الثامن: أي: تعالى ربنا. قاله سعيد بن جبير.

التاسع: علا ظفره على كل كافر بالحجة. قاله ابن كيسان.

العاشر: أنهم عنوا بذلك الجد الذي هو أبو الأب، ذلك كان من كلام جهلة الجن. وهذا قول أبي جعفر.

قال أبو جعفر الباقر وابنه جعفر والربيع بن أنس: "ليس لله جد وإنّما وليه الجدّ بالجهالة فلم تؤخذوا به".

وعن ابن عباس، قال:"الجد: أب. ولو علمت الجن أن في الإنس جدا، ما قالوا: تعالى جَدّ ربنا".

عن جعفر محمد بن عبد الله بن أبي سارة، عن أبيه، عن أبي جعفر: "{تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا}، قال: كان كلامًا من جهلة الجن".

قال الواحدي:"وقول من قال: إن الجن قالت هذه بالجهالة لا يصح؛ لأنهم لو قالوه بالجهل لأنكر عليهم ولَمَا أخبر الله بذلك عنهم في القرآن. فأما ما روي عن ابن عباس أنه قال: «لو علمت الجن أن في الإنس جدًّا ما قالت: «تعالى جد ربنا» "، فهذا محمول على أن هذا اللفظ مُوهم، وكان الأولى بهم أن يجتنبوا إطلاقه في وصف الله، وإن كان بمعنى جائز في وصفه".

**قال الطبري**:"وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: عُنِي بذلك:

=

=

تعالت عظمة ربنا وقُدرته وسلطانه، لأن للجدِّ في كلام العرب معنيين أحدهما الجدّ الذي هو أبو الأب، أو أبو الأم، وذلك غير جائز أن يوصف به هؤلاء النفر الذين وصفهم الله بهذه الصفة، وذلك أنهم قد قالوا: {فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} ومن وصف الله بأن له ولدًا أو جدًّا أو هو أبو أب أو أبو أمّ، فلا شكّ أنه من المشركين، والمعنى الآخر: الجَدّ الذي بمعنى الحظ؛ يقال: فلان ذو جدّ في هذا الأمر: إذا كان له حظّ فيه، وهو الذي يُقال له بالفارسية: البَخْت، وهذا المعنى قصده هؤلاء النفر من الجنّ بقيلهم: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا} إن شاء الله، وإنما عَنَوا أن حظوته من المُلك والسلطان والقدرة والعظمة عالية، فلا يكون له صاحبة ولا ولد؛ لأن الصاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطرّه الشهوة الباعثة إلى اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوِقاع الذي يحدث منه الولد، فقال النفر من الجنّ: علا مُلك ربنا وسُلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفًا ضعف خلقه الذين تضطرّهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وِقاع شيء يكون منه ولد، وقد بين عن صحة ما قلنا في ذلك إخبار الله عنهم أنهم إنما نزهوا الله عن اتخاذ الصاحبة والولد بقوله: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا}، يقال منه: رجل جدّي وجديد ومجدود: أي: ذو حظّ فيما هو فيه، ومنه قول حاتم الطائي:

**أغْزُوا بني ثُعْلٍ فالغَزْوُ جَدُّكُمُ... عُدُّوا الرَّوَابي وَلا تَبْكُوا لِمَنْ قُتِلا**

وقال آخر:

**يُرَفعُ جَدُّكَ إنِّي امْرُؤٌ... سَقَتْني إلَيْكَ الأعادِي سِجالا"**.

قوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا} [الجن: ٣]، أي:"ما اتخذ زوجة ولا ولدًا".

**قال ابن كثير:**"أي: قالت الجن: تنزه الرب تعالى جلاله وعظمته، حين أسلموا
=

وآمنوا بالقرآن، عن اتخاذ الصاحبة والولد".

قال أبو السعود:"بيان لحكم تعالي جده".

قال الشوكاني:"هذا بيان لتعالي جده سبحانه".

**قال السعدي:**"فعلموا من جد الله وعظمته، ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولدا، لأن له العظمة والكمال في كل صفة كمال، واتخاذ الصاحبة والولد ينافي ذلك، لأنه يضاد كمال الغنى".

وقرأ عكرمة: «تَعالى جِدٌّ رَبِّنا»، بكسر الجيم على ضد الهزل، وقرأ ابن السميع: «جدي ربّنا»، وهو: الجدوى والمنفعة.

أي تعالت عظمته وتعالى مقامه عن اتخاذ الزوجة والولد، فإن اتخاذ الصاحبة يكون للاستئناس بها ولإشباع شهوته ورغبته، وكل ذلك غير موجود في حق الله سبحانه، فهو العزيز الواحد الأحد الفرد الصمد.

- **قال ابن عاشور**: لأن اتخاذ الصاحبة للافتقار إليها لأنسها وعونها والالتذاذ بصحبتها، وكل ذلك من آثار الاحتياج، والله تعالى الغني المطلق، وتعالي جده بغناه المطلق، والولد يرغب فيه للاستعانة والأنس به، مع ما يقتضيه من انفصاله من أجزاء والديه وكل ذلك من الافتقار والانتقاص.

- والله منزه عن الولد لأمور متعددة:

**أولا**: لأنه مالك كل شيء، والمالك لا بد أن يكون المملوك مباينا له في كل الأحوال.

**ثانيا**: أنه ليس له زوجة، والابن إنما يكون غالبا ممن له زوجة كما ذكر اله ذلك في سورة الأنعام (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة).

**ثالثا**: أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء، أي: بقاء النوع باستمرار النسل، والرب ﷻ ليس بحاجة إلى ذلك، لأنه الحي الذي لا يموت.

=

**رابعا**: أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره، والله سبحانه وتعالى غني، وقد أشار إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني).... [قاله الشيخ ابن عثيمين].

- وإذا ذكر في القرآن نسبة الولد لله، نزه تعالى نفسه عن ذلك:

كقوله تعالى (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه).

وقوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون).

وقوله تعالى (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني).

وقوله تعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون).

وقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون).

وقوله تعالى (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا. سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا).

وقوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون).

وقوله تعالى (سبحانه أن يكون له ولد).

وفي هذا وما بعده يفيد أنهم آمنوا عن معرفة منهم بعظمة الله، وعن فهم للإيمان وما يترتب عليه من مصالح الدين والدنيا ومن الثواب العظيم في الآخرة، وليس إيمان العادة والإلف والتقليد، الذي قد يضعف أو يزول أمام الشبهات والشهوات.

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا} [الجن: ٤].

اختلف أهل العلم في معنى قوله: {سَفِيهُنَا} [الجن: ٤]، على قولين:

**أحدهما**: أي: جاهلنا، وهو كل عاص متمرد من الجن، قاله قتادة، ومقاتل، وابن

=

=

قتيبة.

واختار هذا القول: ابن عطية، والبقاعي، والقاسمي.

قال مقاتل: "يعني: جاهلنا، يعني: كفارهم".

قال ابن عطية: وقال آخرون: هم اسم جنس لكل سفيه منهم، ولا محالة إن إبليس صدر في السفهاء وهذا القول أحسن.

وحكي الواحدي عن ابن عباس، قال: "يريد المشركين من الجن".

قال معمر: "تلا قتادة: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا}، فقال: عصاه والله سفيه الجنّ، كما عصاه سفيه الإنس".

**الثاني**: أن السفيه هو إبليس عليه اللعنة، قاله مجاهد، وقتادة، ومسلم بن خالد الزنجي.

واختاره ابن جرير، والبغوي، وعزاه الآلوسي للجمهور.

وأخرج ابن مردويه والديلمي -بسند واه- عن أبي موسى الأشعري مرفوعا: "{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا}، قال: إبليس".

عن مجاهد: "{وأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا}، قال: هو إبليس".

عن قتادة: "{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا}، وهو إبليس".

قال سفيان: "سمعت أن الرجل إذا سجد جلس إبليس يبكي يقول: يا ويله أمر بالسجود فعصَى، فله النار، وأمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة".

قال النحاس: "السّفه رقة الحلم، وثوب سفيه، أي: رقيق.. والشطط: البعد".

**قال الطبري**: "الشَّطط من القول، فإنه ما كان تعدِّيًا".

عن أبي مالك: "{شَطَطًا}: جورا".

عن ابن زيد: "{شَطَطًا}، قال: ظلمًا".

=

=

قال ابن قتيبة: "أي: جاهلنا يقول شططا، أي: غلوا في الكذب والجور".

**قال الزمخشري**: "الشطط: مجاوزة الحدّ في الظلم وغيره. ومنه: أشط في السوم، إذا أبعد فيه، أي: يقول قولا هو في نفسه شطط، لفرط ما أشط فيه، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله".

والمعنى: أي أننا ننزه الله- تعالى- عما كان يقوله سفهاؤنا- وعلى رأسهم إبليس- من أن لله ﷻ صاحبة أو ولدا، فإن هذا القول بعيد كل البعد عن الحق والعدل والصواب.

والسفيه من لا يحسن التصرف، والسفه يكون في الدين ويكون في المال ويكون في الولاية، والمراد به هنا السفه في الدين كما قال تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه). وقال تعالى (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) وقال تعالى في وصف المنافقين (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون).

قوله تعالى {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا} [الجن: ٥]

قال ابن قتيبة: "يقولون: كنا نتوهم أنّ أحدا لا يقول على الله باطلا. يريدون: إنّا كنا قبل اليوم نصدّقهم ونحن نظن أن أحدا لا يكذب على الله. وانقطع -هاهنا- قول الجن".

قال السمعاني: "كأنهم ظنوا أن كل من قال على الله شيئا فهو كما قال، وأنه لا يجزى الكذب على الله".

قال الثعلبي: "أي: كنّا نظنّهم صادقين في قولهم: إنّ لله صاحبة وولدا حتّى سمعنا القرآن".

**قال الزمخشري**: أي: "وكان في ظننا أنّ أحدا من الثقلين لن يكذب على الله ولن يفترى عليه ما ليس بحق، فكنا نصدّقهم فيما أضافوا إليه من ذلك، حتى تبين لنا

=

=

بالقرآن كذبهم وافتراؤهم {كَذِبًا}، قولا كذبا، أي: مكذوبا فيه.

**قال الطبري**:"يقول: قالوا: وأنا حسبنا أن لن تقول بنو آدم والجنّ على الله كذبا من القول، والظنّ هاهنا بمعنى الشك، وإنما أنكر هؤلاء النفر من الجنّ أن تكون علمت أن أحدًا يجترئ على الكذب على الله لما سمعت القرآن، لأنهم قبل أن يسمعوه وقبل أن يعلموا تكذيب الله الزاعمين أن لله صاحبة وولدًا، وغير ذلك من معاني الكفر كانوا يحسبون أن إبليس صادق فيما يدعو بني آدم إليه من صنوف الكفر؛ فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كان كاذبا في كلّ ذلك، فلذلك قالوا: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا}، فسموه سفيهًا".

**قال السعدي**:"أي: كنا مغترين قبل ذلك، وغرنا القادة والرؤساء من الجن والإنس، فأحسنا بهم الظن، وظنناهم لا يتجرأون على الكذب على الله، فلذلك كنا قبل هذا على طريقهم، فاليوم إذ بان لنا الحق، رجعنا إليه، وانقدنا له، ولم نبال بقول أحد من الناس يعارض الهدى".

قال النحاس:"لاستعظامهم ذلك، و «الظنّ» -هاهنا- الشك".

قال مقاتل:"{ظَنَنَّا}، يعني: حسبنا".

**قال الفراء**:"«الظن» -هاهنا-: شك".

قال معمر:"وتلا قتادة: {أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا} [الجن: ٥]، فقال: «عصاه والله سفهة الجن كما عصاه سفهة الإنس»".

أي: ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالئون على الكذب على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

- وفي هذا نوع من الاعتذار عما حصل منهم من تقليد هؤلاء الرؤساء بما هم عليه من الباطل.

=

=

- فيه أن هناك من يكذب ويفتري على الله.
كما قال تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون).
وقال تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام).
وقال تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا).

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن: ٦]

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ} [الجن: ٦]، أي:"وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال من الجن".

**قال الطبري**: قالوا: "وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال من الجن في أسفارهم إذا نزلوا منازلهم".

**قال السعدي**:"أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزاع".

قال ابن عباس:"كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي، فزادهم ذلك إثما".

قال مجاهد:"كانوا يقولون إذا هبطوا واديا: نعوذ بعظماء هذا الوادي".

قال قتادة:"كانوا في الجاهلية إذا نزلوا منزلا يقولون: نعوذ بأعزّ أهل هذا المكان".

قال قتادة:"لنا أن هذا الحيّ من العرب كانوا إذا نزلوا بواد قالوا: نعوذ بأعز أهل هذا المكان؛ قال الله: {فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}: أي إثما، وازدادت الجنّ عليهم بذلك جراءة".

قال الربيع بن انس:"كانوا يقولون: فلان من الجنّ ربّ هذا الوادي، فكان أحدهم إذا دخل الوادي يعوذ بربّ الوادي من دون الله، قال: فيزيده بذلك رهقا،

=

=

وهو الفرَق".

قال الحسن:"كان الرجل منهم إذا نـزل الـوادي فبات بـه، قال: أعـوذ بعزيـز هـذا الوادي من شرّ سفهاء قومه".

قال إبراهيم:"كانوا إذا نزلوا الوادي قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي من شـرّ مـا فيـه، فتقول الجنّ: ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضرّا ولا نفعا".

قال إبراهيم: "كانوا في الجاهلية إذا نزلوا بالوادي قالوا: نعوذ بـسيد هـذا الـوادي، فيقول الجنيون: تتعوّذون بنا ولا نملك لأنفسنا ضرّا ولا نفعا!".

قال ابن زيد:"كان الرجل في الجاهليـة إذا نـزل بـواد قبـل الإسـلام قـال: إن أعـوذ بكبير هذا الوادي، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم".

قولـه تعـالى: {فَـزَادُوهُمْ رَهَقًـا} [الجـن: ٦]، أي:"فـزاد رجـالُ الجـنِّ الإنـسَ باستعاذتهم بهم خوفًا وإرهابًا ورعبًا".

وفي قوله تعالى: {فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن: ٦]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: زاد الكفار طغيانا، قاله مجاهد.

**قال السعدي**: أي:"فزاد الإنس الجن طغيانا وتكبرا، لمـا رأوا الإنـس يعبـدونهم، ويستعيذون بهم".

**الثاني**: فزادهم ذلك إثما، قاله ابن عباس، وقتادة، قال الأعشى:

**لا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِنْ دُونِ رُؤْيَتِها... هلْ يَشْتَفِي وَامِقٌ ما لم يُصِبْ رَهَقا**

يعني: إثمًا.

قال قتادة:"أي: إثما، وازدادت الجنّ عليهم بذلك جراءة".

عن قتادة: "{فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}، يقول: خطيئة". وفي رواية:"خطيئة وإثما".

وقال ابـن قتيبـة:"يريـد أنهـم يـزدادون بهـذا التعـوّذ طغيانـا، وإثمـا فيقولـون: سـدنا الجن والإنس".

=

=

وقال ابن قتيبة:"أي: ضلالا، وأصل «الرَّهَقِ»: العيب. ومنه يقال: يُرَهَّقُ في دِينه".

قال القاسم بن سلام:"يعني: عيا -بلغة قريش-".

**الثالث**: خوفًا، قاله أبو العالية، والربيع بن أنس، وابن زيد.

قال الربيع:"فيزيدهم ذلك رهقا، وهو الفرق".

قال ابن زيد:"زادهم الجنّ خوفا".

**الرابع**: غيًّا، ومقاتل.

قال مقاتل:"يقول: إن الإنس زادت الجن غيا لنعوذهم بهم، فزادوا الجن فخرا في قومهم".

**الخامس**: عظمة، وذلك أنّهم قالوا: سدنا الجن والإنس. قاله إبراهيم، والكلبي.

**السادس**: فَزادوهم ذِلَّةً وضعفًا. ويجوز أن الإنس الذين كانوا يستعيذون بالجن زادوا الجن رهقًا، ويجوز أَنْ يكون الجن زادوا الإنس رَهَقًا. قاله الزجاج.

**قال الطبري**:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فزاد الإنس الجنّ بفعلهم ذلك إثما، وذلك زادوهم به استحلالا لمحارم الله. والرهق في كلام العرب: الإثم وغِشيان المحارم".

قال عكرمة:"كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد، وكان الإنس إذا نزلوا واديا هرب الجن، فيقول سيد القوم: نعوذ بسيد أهل هذا الوادي. فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم، فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون، فذلك قول الله: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن: ٦]".

- **قال الرازي**: قول جمهور المفسرين أن الرجل في الجاهلية إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض قال: أعوذ بسيد هذا الوادي أو بعزيز هذا المكان من شر سفهاء قومه، فيبيت في جوار منهم حتى يصبح

=

=

(فزادوهم رهقا) أي: فزاد الجن الإنس خوفا وذلا ورعبا وفزعا، وزاد الإنس الجن طغيانا وإثما، فازدادت جرأة الجن وتعاظمهم عليهم وتخويفهم لهم، لما رأوا استعاذتهم بهم وخوفهم منهم.

(تنبيه) لا يجوز الاستعانة بالجن المسلم كما تقدم تحت الآية رقم (١٢٨) من سورة الأنعام.

قوله تعالى {وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا} [الجن: ٧]

قال ابن قتيبة:"يقول: ظن الجن كما ظننتم أيها الإنس أن لا بعث يوم القيامة. أي كانوا لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون به".

قال مقاتل:"يعني: حسب كفار الإنس الذين تعوذوا برجال من الجن في الجاهلية كما حسبتم- يا معشر كفار الجن- {أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا}، يعنى: رسولا بعد عيسى بن مريم".

قال الكلبي:"ظنّ كفار الجنّ كما ظنّ كفرة الإنس أن لن يبعث الله رسولا".

**قال ابن كثير:**"أي: لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولا".

**قال السعدي:** "أي: فلما أنكروا البعث أقدموا على الشرك والطغيان".

**قال القرطبي:**"هذا من قول الله تعالى للإنس، أي: وأن الجن ظنوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم".

**قال الزمخشري:**"هو من كلام الجن، يقوله بعضهم لبعض.. وقيل الخطاب في {ظَنَنْتُمْ} لكفار قريش".

قال ابن عطية:"قولهم: {أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا}، يحتمل معنيين أحدهما: بعث الحشر من القبور، والآخر: بعث آدمي رسولا".

قال السمعاني:"في الآية دليل على أنه كان في الجن قوم لا يؤمنون بالبعث كما في الإنس".

=

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨).

قَالَ الْجِنّ {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء} رُمْنَا اسْتِرَاق السَّمْع {فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا} مِنْ الْمَلَائِكَة {شَدِيدًا وَشُهُبًا} نُجُومًا مُحَرِّقَة وَذَلِكَ لَمَّا بَعَثَ النَّبِيّ ﷺ.

وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩).

{وَأَنَّا كُنَّا} أَيْ قَبْل مَبْعَثه {نَقْعُد مِنْهَا مَقَاعِد لِلسَّمْعِ} أَيْ نَسْتَمِع {فَمَنْ يَسْتَمِع الْآن يَجِد لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} أُرْصِدَ لَهُ لِيُرْمَى به.

وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠).

{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرّ أُرِيدَ} بَعْد اسْتِرَاق السَّمْع {بِمَنْ فِي الْأَرْض أَمْ أَرَادَ بِهِمْ

---

=

أي: وقالت الجن لقومهم: أن كفار الإنس ظنوا كما ظننتم يا معشر الجن، أن الله لن يبعث أحدا بعد الموت، فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم.

فهذا الكلام من كلام الجن لقومهم، واختاره الطبري.

وقيل: أنه من الوحي الذي أوحاه الله لرسوله، وأن المعنى: وأن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم يا معشر قريش، فلما سمعوا القرآن اهتدوا، فهلا اهتديتم؟

- قال أبو حيان: قوله تعالى (أن لن يبعث الله أحدا) الظاهر أنه بعثة الرسالة إلى الخلق، وهو أنسب لما تقدم من الآي ولما تأخر، وقيل: بعث القيامة.

قال ابن عاشور: والبعث يحتمل بعث الرسل ويحتمل بعث الأموات للحشر، أي حصل لهم مثلما حصل لكم من إنكار الحشر ومن إنكار إرسال الرسل، والإخبار عن هذا فيه تعريض بالمشركين بأن فساد اعتقادهم تجاوز عالم الإنس إلى عالم الجن.

رَبِّهِمْ رَشَدًا} خَيْرًا[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ} [الجن: ٨]، أي:"وأنَّا -معشر الجن- طلبنا بلوغ السماء؛ لاستماع كلام أهلها".

**قال الطبري**: أي: "وأنا طلبنا السماء وأردناها".

قال الشوكاني:"أي: طلبنا خبرها كما به جرت عادتنا".

قال الآلوسي: "أي: طلبنا بلوغها لاستماع كلام أهلها أو طلبنا خبرها. و «اللمس» -قيل-: مستعار من المس للطلب، كالجس، يقول: لمسه والتمسه وتلمسه كطلبه وأطلبه وتطلبه. والظاهر أن الاستعارة هنا لغوية لأنه مجاز مرسل لاستعماله في لازم معناه و «السماع» على ظاهرها".

قوله تعالى: {فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا} [الجن: ٨]، أي:"فوجدناها مُلئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي يُرمى بها مَن يقترب منها".

**قال الطبري**: "يقول: فوجدناها ملئت حفظة {وَشُهُبًا} وهي جمع شهاب، وهي النجوم التي كانت تُرجم بها الشياطين".

قال القشيري:"يعنى: حين منعوا عن الاستماع".

**قال الزجاج**:"أي: كنا نستمع فالآن حين حَاوَلْنَا الاستماع ورمينا بالشُهُبِ، وهي الكواكب".

قال مقاتل:"فهي تجرح وتخيل ولا تقتل".

**قال القرطبي**:"هذا من قول الجن، أي: طلبنا خبرها كما جرت عادتنا فوجدناها قد ملئت حرسا شديدا، أي: حفظة، يعني: الملائكة".

قال ابن عطية:"الشهب: كواكب الرجم، والحرس: يحتمل أن يريد الرمي بالشهب. وكرر المعنى بلفظ مختلف، ويحتمل أن يريد الملائكة".

=

=

**قال الزمخشري:**"في قوله: {مُلِئَتْ}، دليل على أن الحادث هو المل والكثرة، وكذلك قوله: {نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ} [الجن: ٩]، أي: كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب، والآن ملئت المقاعد كلها، وهذا ذكر ما حملهم على الضرب في البلاد حتى عثروا على رسول الله ﷺ واستمعوا قراءته".

عن سعيد بن جُبير، قال: "كانت الجنّ تستمع، فلما رجموا قالوا: إن هذا الذي حدث في السماء لشيء حدث في الأرض؛ قال: فذهبوا يطلبون حتى رأُوا النبيّ ﷺ خارجا من سوق عكاظ يصلي بأصحابه الفجر، فذهبوا إلى قومهم مُنذرين".

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمد ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرسا شديدا، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئا من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ورحمته وحفظه لكتابه العزيز.

- قال أبو السعود: قوله تعالى (حرسا شديدا) قويا وهم الملائكة يمنعونهم عنها (وشهبا) جمع شهاب، وهي الشعلة المقتبسة من نار الكواكب.

(وشهبا) جمع شهاب، وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم عن استراق السمع.

قوله تعالى: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} [الجن: ٩]

التفسير:

وأنا كنا قبل ذلك نتخذ من السماء مواضع؛ لنستمع إلى أخبارها، فمن يحاول الآن استراق السمع يجد له شهابًا بالمرصاد، يُحرقه ويهلكه.

=

=

قوله تعالى: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ} [الجن: ٩]، أي:"وأنا كنا قبل ذلك نتخذ من السماء مواضع؛ لنستمع إلى أخبارها".

**قال الطبري**: يقول:"وأنا كنا معشر الجنّ نقعد من السماء مقاعد لنسمع ما يحدث، وما يكون فيها".

قوله تعالى: {فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} [الجن: ٩]، أي:"فمن يحاول الآن استراق السمع يجد له شهابًا بالمرصاد، يُحرقه ويهلكه".

**قال الطبري**: يقول:"{فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ} فيها منا، {يَجِدْ لَهُ} شهاب نار قد رصد له به".

**قال ابن كثير**:"أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه".

**قال الزجاج**:"{رَصَدًا}، أي: حَفَظَةً تمنع من الاستماع. وقيل إن الانقضاض الذي رميت به الشياطين حَدَثَ بعد مَبْعَثِ النبي عليه السلام وهو أَحَدُ آيَاتِه".

قال ابن عطية: "قوله: {فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ}، الآية: قطع على أن كل من استمع الآن أحرقه شهاب. فليس هنا بعد سمع، إنما الإحراق عند الاستماع، وهذا يقتضي أن الرجم كان في الجاهلية. ولكنه لم يكن يستأصل وكان الحرس ولكنه لم يكن شديدا، فلما جاء الإسلام اشتد الأمر حتى لم يكن فيه ولا يسير سماحة".

قال قتادة:"كانت الجنّ تسمع سمع السماء؛ فلما بعث الله نبيه، حُرست السماء، ومُنعوا ذلك، فتفقَّدت الجنّ ذلك من أنفسها".

قال ابن زيد:"فلما وجدوا ذلك رجعوا إلى إبليس، فقالوا: منع منا السمع، فقال لهم: إن السماء لم تُحرس قطّ إلا على أحد أمرين: إما لعذاب يريد الله أن ينزله على أهل الأرض بغتة، وإما نبيّ مرشد مصلح؛ قال: فذلك قول الله: {وَأَنَّا لا

=

=

نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} ".

عن معمر: "قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أرأيت قوله تعالى: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ}، فقال: غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي ﷺ".

عن محمد ابن شهاب الزُّهريّ، قال:"إنّ الله حجب الشياطين عن السمع بهذه النّجوم، انقطعت الكَهنة فلا كهانة".

عن ابن عباس، قال بينما النبي ﷺ في نفر من الأنصار، إذ رمي بنجم فاستنار، فقال النبي ﷺ: ما كُنتم تقولون لِمثلِ هذا في الجاهليةِ إذا رأيتموهُ؟ قالوا: كنا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم، قال رسول الله ﷺ: فإنهُ لا يرمى به لموتِ أحد ولا لحياتِهِ، ولكنَّ ربنا تباركَ اسمهُ إذا قضَى أمرًا سبحَ حملةُ العرشِ، ثمَّ سبحَ أهلُ السماءِ الذينَ يلونهُمْ، ثمَّ الذينَ يلونهُمْ حتى يبلغَ التسبيحُ أهلَ هذه السماءِ ثمَّ يسألُ أهلُ السماءِ السابعة حملة العرش: ماذا قال ربنا؟ فيخبرونهم، ثم يستخبر أهلُ كل سماء، حتى يبلغ الخبر أهل السماءِ الدنيا، وتخطُف الشياطين السمع، فيرمونَ، فيقذفونهُ إلى أوليائهمْ، فما جاءُوا به على وجههِ فهوَ حق، ولكنهمْ يزيدونَ".

- **قال الرازي**: أي كنا نستمع فالآن متى حاولنا الاستماع رمينا بالشهب.

- **قال القرطبي**: واختلف السلف هل كانت الشياطين تقذف قبل المبعث، أو كان ذلك أمرا حدث لمبعث النبي ﷺ؟

فقال الكلبي وقال قوم: لم تكن تحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وسلامه: خمسمائة عام، وإنما كان من أجل بعثة النبي ﷺ، فلما بعث محمد ﷺ منعوا من السموات كلها، وحرست بالملائكة والشهب.

وقيل: كان ذلك قبل المبعث، وإنما زادت بمبعث رسول الله ﷺ إنذارا بحاله؛

=

=

وهو معنى قوله تعالى: (ملئت) أي زيد في حرسها، وهذا قول الأكثرين.
ثم قال القرطبي: والقول بالرمي أصح؛ لقوله تعالى (فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا) وهذا إخبار عن الجن، أنه زيد في حرس السماء حتى امتلأت منها ومنهم؛ ولما روي عن ابن عباس قال: "بينما النبي ﷺ جالس في نفر من أصحابه إذا رمي بنجم، فقال: "ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية؟ " قالوا: كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم.. الحديث.
- قال أبو السعود: والصحيح أنه كان قبل البعث أيضا لكنه كثر الرجم بعد البعثة وزاد زيادة حتى تنبه لها الإنس والجن ومنع الاستراق أصلا فقالوا ما هذا إلا لأمر أراده الله تعالى بأهل الأرض وذلك قولهم (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد...).
- وهذا له شأن عظيم، ونبأ جسيم، وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثا كبيرا، من خير أو شر.
قوله تعالى: {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: ١٠]
**قال الطبري**: يقول:"وأنا لا ندري أعذابا أراد الله أن ينزله بأهل الأرض، بمنعه إيانا السمع من السماء ورجمه من استمع منا فيها بالشهبّ".
قال النحاس:"المعنى: لا ندري أشرّا أراد الله بمن في الأرض حين منعنا الاستماع من السماء".
**قال الزمخشري**:"يقولون: لما حدث هذا الحادث من كثرة الرجم ومنع الاستراق، قلنا: ما هذا إلا لأمر أراده الله بأهل الأرض".
**قال الفراء**:"يعني: رجم الشياطين بالكواكب".
قوله تعالى: {أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: ١٠]، أي:"أم أراد بهم خيرًا
=

=

وهدى".

**قال الطبري**: "يقول: أم أراد بهم ربهم الهدى بأن يبعث منهم رسولا مرشدا يرشدهم إلى الحقّ".

**قال الفراء**:"هَذَا من قول كفرةِ الجن قَالُوا: ما ندري ألخير يراد بهم فُعِلَ هَذَا".

قال النحاس:"أم أراد بهم ربهم أن يرسل إليهم رسولا فيرشدهم -هذا مذهب ابن زيد-، وكانت هذه من علامات نبوته ﷺ أنه شدّد على الشياطين في استماعهم من السماء ورموا بالشهب".

عن الكلبي في قوله: "{وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا}، أن يطيعوا هذا الرسول فيرشدهم أو يعصوه فيهلكهم".

قال ابن كثير-في الآية-:"أي: ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، لا ندري أشر أريد بمن في الأرض، أم أراد بهم ربهم رشدا؟ وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله ﷻ. وقد ورد في الصحيح: «والشر ليس إليك»".

قال الحسن البصري: "{وأَنّا لا نَدْرِي أشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أمْ أرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} أنهم قالوا: هذا أمرٌ حَدثَ حين رُمي بالنّجوم، فلا ندري أشرٌّ أراد الله بأهل الأرض أن يُهلكهم، {أم أراد بهم ربهم رَشدًا} أم أحدث لهم منه نعمة وكرامة!".

قال ابن جريج:"قالوا: لا ندري لِمَ بُعث هذا النَّبِيُّ؛ لأن يُؤمنوا به ويَتّبعوه فيَرشُدوا، أم لأن يَكفروا به ويُكذّبوه فيَهلكوا كما هَلك من قبلهم من الأمم".

عن ابن زيد:"{وأَنّا لَمَسْنا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وشُهُبًا} حتى بلغ: {فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهابًا رَصَدًا}: فلمّا وجدوا ذلك رجعوا إلى إبليس، فقالوا: مُنع منّا السمع. فقال لهم: فإنّ السماء لم تُحرس قطّ إلا على أحد

=

=

أمرين: إمّا لعذاب يُريد الله أن يُنزله على أهل الأرض بغتة، وإما نبي مُرشد مُرسل. قال: فذلك قول الله: {وأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا}".

- **قال القرطبي**: قوله تعالى (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض) أي هذا الحرس الذي حرست بهم السماء {أم أراد بهم ربهم رشدا} أي خيرا.

- قال ابن زيد: قال إبليس لا ندري هل أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذابا أو يرسل إليهم رسولا.

وقيل: هو من قول الجن فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبي ﷺ.

أي: لا ندري أشر أريد بمن في الأرض بإرسال محمد إليهم، فإنهم يكذبونه ويهلكون بتكذيبه كما هلك من كذب من الأمم، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا؛ فالشر والرشد على هذا الكفر والإيمان، وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي ﷺ، ولما سمعوا قراءته علموا أنهم منعوا من السماء حراسة للوحي.

وقيل: لا؛ بل هذا قول قالوه لقومهم بعد أن انصرفوا إليهم منذرين؛ أي لما آمنوا أشفقوا ألا يؤمن كثير من أهل الأرض فقالوا: إنا لا ندري أيكفر أهل الأرض بما آمنا به أم يؤمنون؟

- قال ابن كثير: وهذا من أدبهم في العبارة حيث سندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عز وجل.

(تنبيه): مذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة أن كل المحدثات فعل الله تعالى وخلقه، سواء خيرها وشرها، وقد أخرج الإمام مسلم (٧٧١) حديث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال:"وجهت وجهي للذي فطر... وفيه "والخير كله في يديك والشر ليس إليك" قال الإمام النووي رحمه الله على الحديث "والخير كله في يديك والشر ليس إليك" قال

=

=

الخطابي وغيره فيه الإرشاد إلى الأدب في الثناء على الله تعالى ومدحه بأن تضاف إليه محاسن الأمور دون مساويها على جهة الأدب، وأما قوله والشر ليس إليك فله معنى، لأن مذهب أهل الحق أن كل المحدثات فعل الله تعالى وخلقه، سواء خيرها وشرها، ووجه هذا الحديث، خمسة أقوال أحدها: معناه لا يتقرب به إليك، قاله الخليل بن أحمد والنضر بن شميل وإسحاق بن راهوية، ويحيى بن معين، وأبو بكر بن خزيمة، والأزهري وغيرهم.

والثاني: حكاه الشيخ أبو حامد عن المزني وقاله غيره أيضًا؛ معناه لا يضاف إليك على انفراده، لا يقال يا خالق القردة والخنازير، ويا رب الشر، ونحو هذا، وإن كان خالق كل شيء، ورب كل شيء، وحينئذ يدخل الشر في العموم.

والثالث: معناه والشر لا يصعد إليك، إنما يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح، والرابع: معناه والشر ليس شرًا بالنسبة إليك، فإنك خلقته بحكمة بالغة، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين.

والخامس: حكاه الخطابي أنه كقولك فلان إلى بني فلان إذا كان عداده فيهم أو صفوه إليهم.

والقول الرابع هو القول الحق لأن الله سبحانه وتعالى منزَّه عن الشر، ولا يفعل إلا الخير، والقدر من حيث نسبته إلى الله لا شر فيه بوجه من الوجوه؛ فإنه علم الله، وكتابتُه، ومشيئته، وخلقُه، وذلك خير محض، وكمال من كل وجه، فالشر ليس إلى الرب بوجه من الوجوه، لا في ذاته، ولا في أسمائه ولا صفاته، ولا في أفعاله.

ولو فَعَلَ الشر سبحانه لاشتُق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه من الشر حكمٌ تعالى وتقدس. وإنما الشر يدخل في مخلوقاته، ومفعولاته، فالشر في المقضي، لا في القضاء، ويكون شرًّا بالنسبة إلى محل، وخيرًا بالنسبة

=

=

إلى محل آخر، وقد يكون خيرًا بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه، كما هو شر من وجه آخر، بل هو الغالب، وهذا كالقصاص، وإقامة الحدود، وقتل الكفار؛ فإنه شرٌ بالنسبة إليهم لا من كل وجه، بل من وجه دون وجه، وخير بالنسبة إلى غيرهم لما فيه من مصلحة الزجر، والنكال، ودفع الناس بعضهم ببعض.

وكذلك الأمراض وإن كانت شرورًا من وجه فهي خيرٌ من وجوهٍ عديدة.

والحاصل أن الشر لا يُنسب إلى الله _ تعالى _ ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن النبي " كان يثني على ربه بتنزيهه عن الشر بدعاء الاستفتاح في قوله: لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت.

قال الإمام الصابوني عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص ٢٨٥) في معنى هذا الحديث: ومعناه والله أعلم والشر ليس مما يُضاف إلى الله إفرادًا أو قصدًا حتى يُقال: يا خالق الشر، ويا مقدر الشر وإن كان الخالق والمقدر لهما جميعًا؛ لذلك أضاف الخضر عليه السلام إرادة العيب إلى نفسه فقال فيما أخبر الله عنه في قوله: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) سورة الكهف:٧٩. ولمَّا ذكر الخير والبر والرحمة أضاف إرادتها إلى الله عز وجل فقال: (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) سورة الكهف: ٨٢.

ولذلك قال مخبرًا عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) سورة الشعراء: ٨٠. فأضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، وإن كان الجميع منه.

وقال ابن القيم في شفاء العليل (ص ٣٦٤- ٣٦٥) تعليقًا على هذا الحديث: فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل كل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شرًّا لانقطاع نسبته وإضافته إليه؛ فلو أُضيف إليه لم يكن شرًّا، وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته، لا في خلقه وفعله.

=

=

وخلقُهُ، وفعلُه، وقضاؤه، وقدره خيرٌ كله؛ ولهذا تنزَّه سبحانه عن الظلم، الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله، فإذا وُضِع في محله لم يكن شرًّا، فعُلم أن الشر ليس إليه، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك.

وقال أيضًا: فأسماؤه الحسنى تمنع نسبة الشر، والسوء، والظلم إليه، مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء؛ فهو الخالق للعباد، وأفعالهم، وحركاتهم، وأقوالهم، والعبد إذا فعل القبيحَ المنهيَّ عنه، كان قد فعل الشرَّ والسوءَ. والربُّ سبحانه هو الذي جعله فاعلًا لذلك، وهذا الجَعْل منه عدلٌ وحكمةٌ، وصوابٌ، فَجَعْلُهُ فاعلًا خيرٌ، والمفعولُ شرٌّ قبيح؛ فهو - سبحانه - بهذا الجعل قد وضع الشيء في موضعه؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها، فهو خير وحكمة، ومصلحة، وإن كان وقوعه من العبد عيبًا، ونقصًا، وشرًّا.

والحاصل أن الله تعالى لا يُنسب إليه الشر؛ لأنه إن أريد بالشر وضع الشيء في غير موضعه _ فهو الظلم، ومقابله العدل، والله منزَّه عن الظلم.

وإن أُريد به الأذى اللاحق بالمحل بسبب ذنب ارتكبه فإيجاد الله للعقوبة على ذنب لا يُعد شرًّا له؛ بل ذلك عدلٌ منه تعالى.

وإن أُريد به عدم الخير، وأسبابه الموصلة إليه فالعَدَمُ ليس فعلًا حتى ينسب إلى الله، وليس للعبد على الله أن يوفقه، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنع الفضل ليس بظلم ولا شر. ثم إن على العبد إذا عرف ما يضره وينفعه أن يَذلَّ لله _ ﷻ _ حتى يعينه على فعل ما ينفعه، ولا يقول: أنا لا أفعل حتى يخلق الله فيَّ الفعل، كما أنه لو هجم عليه عدو أو سبع فإنه يهرب ويفر ولا يقول: سأنتظر حتى يخلق الله فيَّ الهرب.

ومن هنا يتبين لنا أن الشر لا ينسب إلى الله ﷻ.

=

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١).

{وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ} بَعْد اسْتِمَاع الْقُرْآن {وَمِنَّا دُون ذَلِكَ} أَيْ قَوْم غَيْر صَالِحِينَ {كُنَّا طَرَائِق قِدَدًا} فِرَقًا مُخْتَلِفِينَ مُسْلِمِينَ وَكَافِرِينَ.

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢).

---

=

وقال في حادي الأرواح (ص ٢٦٤): الوجه الثالث عشر و هو قول أعلم خلقه به وأعرفهم بأسمائه وصفاته (والشر ليس إليك) ولم يقف على المعنى المقصود من قال الشر لا يتقرب به إليك بل الشر لا يضاف إليه سبحانه بوجه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله و لا في أسمائه فإن ذاته لها الكمال المطلق من جميع الوجوه وصفاته كلها صفات كمال ويحمد عليها ويثنى عليه بها وأفعاله كلها خير ورحمة وعدل وحكمة لا شر فيها بوجه ما وأسماؤه كلها حسنى فكيف يضاف الشر إليه بل الشر في مفعولاته ومخلوقاته و هو منفصل عنه إذ فعله غير مفعول ففعله خير كله وأما المخلوق المفعول ففيه الخير والشر وإذا كان الشر مخلوقا منفصلا غير قائم بالرب سبحانه فهو لا يضاف إليه وهو لم يقل أنت لا تخلق الشر حتى يطلب تأويل قوله وإنما نفى إضافته إليه وصفا وفعلا وأسما وإذا عرف هذا فالشر ليس إلا الذنوب وموجباتها وأما الآخر فهو الإيمان والطاعات وموجباتها والإيمان والطاعات متعلقة به سبحانه ولأجلها خلق الله خلقه وأرسل رسله وأنزل كتبه وهي ثناء على الرب تبارك وتعالى و إجلاله وتعظيمه وعبوديته وهذه لها آثار تطلبها وتقتضيها فتدوم آثارها بدوام متعلقها وأما الشرور فليس مقصودة لذاتها ولا هي الغاية التي خلق لها الخلق فهي مفعولات قدرت لامر محبوب و جعلت وسيلة إليه فإذا حصل ما قدرت له اضمحلت و تلاشت و عاد الأمر إلى الخير المحض.

{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة أَيْ أَنَّهُ {لَنْ نُعْجِز الله فِي الْأَرْض وَلَنْ نَعْجِزهُ هَرَبًا} لَا نُفَوِّتهُ كَائِنِينَ فِي الْأَرْض أَوْ هَارِبِينَ مِنْهَا فِي السَّمَاء.

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣).

{وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى} الْقُرْآن {آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَاف} بِتَقْدِيرِ هُوَ {بَخْسًا} نَقْصًا مِنْ حَسَنَاته {وَلَا رَهَقًا} ظُلْمًا بِالزِّيَادَةِ فِي سَيِّئَاته.

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤).

{وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ} الْجَائِرُونَ بِكُفْرِهِمْ {فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا} قَصَدُوا هِدَايَة.

وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥).

{وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّم حَطَبًا} وَقُودًا وَأَنَّا وَأَنَّهُمْ وَأَنَّهُ فِي اثْنَيْ عَشَر مَوْضِعًا هِيَ وَأَنَّهُ تَعَالَى وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمَا بَيْنهمَا بِكَسْرِ الْهَمْزَة اسْتِئْنَافًا وَبِفَتْحِهَا بِمَا يُوَجَّه بِهِ.

وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦).

قال تعالى في كفار مكة {وَإِنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ وَأَنَّهُمْ وَهُوَ مَعْطُوف عَلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ {لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَة} أَيْ طَرِيقَة الْإِسْلَام {لَأَسْقَيْنَاهُمْ ماء غدقا} كثيرا من السماء وذلك بعد ما رُفِعَ الْمَطَر عَنْهُمْ سَبْع سِنِينَ.

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧).

{لِنَفْتِنهُمْ} لِنَخْتَبِرهُمْ {فِيهِ} فَنَعْلَم كَيْفَ شُكْرهمْ عِلْم ظُهُور {وَمَنْ يُعْرِض

عَنْ ذِكْر رَبّه} الْقُرْآن {نسلكه} بِالنُّونِ وَالْيَاء نُدْخِلهُ {عَذَابًا صَعَدًا} شَاقًّا(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ} [الجن: ١١]، أي:"وأنا منا الأبرار المتقون، ومنا قوم دون ذلك كفار وفساق".

**قال الطبري**: يقول:"{{وَأَنَّا مِنَّا} المسلمون العاملون بطاعة الله، ومنا دون الصالحين".

قال ابن عباس:"يقول: منا المسلم ومنا المشرك".

قوله تعالى: {كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} [الجن: ١١]، أي:"كنا فرقًا ومذاهب مختلفة".

**قال الطبري**: "يقول: وأنا كنا أهواء مختلفة، وفِرَقا شتى، منا المؤمن والكافر. والطرائق: جمع طريقة، وهي طريقة الرجل ومذهبه. والقِدد: جمع قدّة، وهي الضروب والأجناس المختلفة".

قال مقاتل:"يقول: أهل ملل شتى، مؤمنين وكافرين ويهود ونصارى".

**قال الفراء**:"كُنَّا فرقا مختلفةً أهواؤنا، و «الطريقة»: طريقة الرجُل، ويقال -أيضا- للقوم: هُمْ طريقة قومهم إِذَا كانوا رؤساءهم".

**قال الزجاج**:"{قِدَدًا}: متفرقون، أي: كنا جماعات، متفرقين، مُسْلِمِينَ وغير مسلمين".

قال ابن قتيبة:"أي: أصنافا، وكلّ فرقة قدّة، وهي مثل قطعة في التقدير وفي المعنى، فكأنّهم قالوا: نحن أصناف وقطع".

قال أبو عبيدة:"واحد «الطرائق»: الطريقة، واحد «القدد»: قدّة، أي: ضروبا أو أجناسا".

قال سعيد بن جبير:"ألوانًا شتى".

قال الحسن: "{قددًا}: مختلفين".

عن عكرِمة، في قوله: "{طَرَائِقَ قِدَدًا}، يقول: أهواء مختلفة".

=

=

قال مجاهد:"مسلمين وكافرين".

قال سفيان:"شتى، مؤمن وكافر".

قال ابن زيد:"صالح وكافر".

قال ابن عباس:"يقول: أهواء شتى، منا المسلم، ومنا المشرك".

قال قتادة:"كان القوم على أهواء شتى".

قال ابن كيسان: "شيعا وفرقا، لكل فرقة هوى كأهواء الناس.

قال ابن أبي زمنين:"وفي الجن مؤمنون ويهود ونصارى ومجوس وعبدة الأوثان".

**قال السدي**:"الجن مثلكم فيهم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعة".

عن أبي معاوية، قال: "سمعتُ الأعمش يقول: تروح إلينا جني، فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز. قال: فأتيناهم به، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدا. فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم. قلت: فما الرافضة فيكم؟ قال: شرنا".

يقول تعالى مخبرا أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم: (وأنا منا الصالحون) أي منا قوم صالحون أبرار عاملون بما يرضي الله (ومنا دون ذلك) أي ليس صلحاء.

- **قال القرطبي**: هذا من قول الجن، أي قال بعضهم لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وإنا كنا قبل استماع القرآن منا الصالحون ومنا الكافرون.

- قال ابن الجوزي (ومنا دون ذلك) فيه قولان:

**أحدهما**: أنهم المشركون.

والثاني: أنهم أهل الشر دون الشرك.

(كنا طرائق قددا) أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة كل حزب بما لديهم

=

=

فرحون.

قوله تعالى: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا} [الجن: ١٢]

قوله تعالى: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ} [الجن: ١٢]، أي": وأنا أيقنا أن الله قادر علينا، وأننا في قبضته وسلطانه، فلن نفوته إذا أراد بنا أمرًا أينما كنا".

**قال الطبري:**"يقول: وأنا علما أن لن نُعجز الله في الأرض إن أراد بنا سوءا".

**قال الماتريدي:**"أي: لن نفوته، ولا يتهيأ لنا أن نعجز الله بأهل الأرض عن إيصال نقمته وعذابه إلينا".

قال ابن أبي زمنين:"علمنا {أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ} أن نسبق الله حتى لا يقدر علينا؛ فيبعثنا يوم القيامة".

قال ابن قتيبة:"{ظَنَنَّا}، أي: اسْتَيْقَنَّا".

قال السمعاني:"معنى «الظن» -هاهنا-: اليقين، أي: أيقنا أن لن نعجزه في الأرض أي: لن نفوته، ولا يعجز عنا بأخذه إيانا".

**قال الزمخشري:**"أي: لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها، وقيل: لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمرا".

قال ابن جريج:"قالوا: لن نمتنع منه في الأرض، ولا هَرَبًا".

قوله تعالى: {وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا} [الجن: ١٢]، أي": ولن نستطيع أن نُفْلِت مِن عقابه هربًا إلى السماء، إن أراد بنا سوءًا".

**قال الطبري:**"أن طلبنا فنفوته. وإنما وصفوا الله بالقدرة عليهم حيث كانوا".

**قال الزمخشري:** أي: "ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء. وقيل: ولن نعجزه هربا إن طلبنا. و «الظن» بمعنى: اليقين، وهذه صفة أحوال الجن وما هم عليه

=

=

من أحوالهم وعقائدهم: منهم أخيار، وأشرار، ومقتصدون، وأنهم يعتقدون أنّ الله ﷻ عزيز غالب لا يفوته مطلب ولا ينجى عنه مهرب".

**قال ابن كثير:**"أي: نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا وأنا لا نعجزه في الأرض، ولو أمعنا في الهرب، فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا".

**قال الماتريدي:**"فيه إقرار بأنا لا نقدر بالحيل والأسباب أن نحترز من عذاب الله تعالى، كما يتهيأ الاحتراز عن ملوك الأرض بالحيل والأسباب".

أي: وأنا تيقنا أننا لن نعجز الله في الأرض ولن نفوته إذا طلبنا، ولن نستطي الخروج من حكمه وقدرته.

- **قال السعدي:** أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله، وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله فلن نعجزه في الأرض، ولن نعجزه إن هربنا، وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه.

- **قال ابن عطية:** وقولهم (وأنا ظننا أن لن نعجز) الظن هنا بمعنى العلم. وهذا إخبار منهم عن حالهم بعد إيمانهم بما سمعوا من محمد ﷺ.

قوله تعالى: {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ} [الجن: ١٣]، أي:"وإنا لما سمعنا القرآن آمنَّا به، وأقررنا أنه حق مِن عند الله".

**قال الطبري:**"يقول: قالوا: وأنا لما سمعنا القرآن الذي يهدي إلى الطريق المستقيم صدّقنا به، وأقررنا أنه حق من عند الله".

قال السمعاني:"«الهدى»: هو القرآن، لأنه يهدي الناس".

قال ابن عطية: "«الْهُدى»: يريد القرآن، سموه هدى من حيث هو سبب الهدى".

**قال الماتريدي:**"«الهدى»: هو الدعاء إلى الحق، فيحتمل أن يكون لما دعينا إلى الحق -وهو القرآن- آمنا به.. ويجوز أن يكون الهدى هو الاهتداء، أي: لما سمعنا ما به اهتدينا".

=

=

قوله تعالى: {فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا} [الجن: ١٣]، أي:"فمن يؤمن بربه، فإنه لا يخشى نقصانًا من حسناته، ولا ظلمًا يلحقه بزيادة في سيئاته".

**قال الطبري:**"يقول: فمن يصدّق بربه فلا يخاف أن ينقص من حسناته، فلا يجازى عليها؛ ولا إثما يحمل عليه من سيئات غيره، أو سيئة يعملها".

**قال الفراء:**"لا يُنْقَص من ثواب عمله، {وَلا رَهَقًا}: ولا ظلما".

قال ابن قتيبة:"أصل «الرَّهَقِ»: ما رَهِقَ الإنسانَ من عيب أو ظلم".

عن قتادة: "{فَلا يَخَافُ بَخْسًا}، أي: ظلما، أن يظلم من حسناته فينقص منها شيئا، أو يحمل عليه ذنب غيره، {وَلا رَهَقًا}: ولا مأثما".

قال ابن عباس:"يقول: لا يخاف نقصا من حسناته، ولا زيادة في سيئاته". وفي رواية:"ولا أن يحمل عليه ذنب غيره".

قال ابن عباس:"يقول: ولا يخاف أن يبخس من عمله شيء".

عن سفيان الثوري:"{ولا يخاف بخسا} قال: يُبخس حقّه كلّه، {ولا رهقًا} يُبخس بعض حقه".

قال عطاء: "{رَهَقًا}: عذابًا".

قال ابن زيد:"لا يخاف أن يبخس من أجره شيئًا، ولا رهقا؛ فيظلم ولا يعطى شيئا".

قوله تعالى: {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ} [الجن: ١٣]، أي:"وإنا لما سمعنا القرآن آمنَّا به، وأقررنا أنه حق من عند الله".

**قال الطبري:**"يقول: قالوا: وأنا لما سمعنا القرآن الذي يهدي إلى الطريق المستقيم صدّقنا به، وأقررنا أنه حق من عند الله".

قال السمعاني:"«الهدى»: هو القرآن، لأنه يهدي الناس".

=

=

قال ابن عطية: "«الْهُدى»: يريد القرآن، سموه هدى من حيث هو سبب الهدى".

**قال الماتريدي**:"«الهدى»: هو الدعاء إلى الحق، فيحتمل أن يكون لما دعينا إلى الحق -وهو القرآن- آمنا به.. ويجوز أن يكون الهدى هو الاهتداء، أي: لما سمعنا ما به اهتدينا".

قوله تعالى: {فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا} [الجن: ١٣]، أي:"فمن يؤمن بربه، فإنه لا يخشى نقصانًا من حسناته، ولا ظلمًا يلحقه بزيادة في سيئاته".

**قال الطبري**:"يقول: فمن يصدّق بربه فلا يخاف أن ينقص من حسناته، فلا يجازى عليها؛ ولا إثما يحمل عليه من سيئات غيره، أو سيئة يعملها".

**قال الفراء**:"لا يُنْقَص من ثواب عمله، {وَلا رَهَقًا}: ولا ظلما".

قال ابن قتيبة:"أصل «الرَّهَقِ»: ما رَهِقَ الإنسانَ من عيب أو ظلم".

عن قتادة: "{فَلا يَخَافُ بَخْسًا}، أي: ظلما، أن يظلم من حسناته فينقص منها شيئا، أو يحمل عليه ذنب غيره، {وَلا رَهَقًا}: ولا مأثما".

قال ابن عباس:"يقول: لا يخاف نقصا من حسناته، ولا زيادة في سيئاته". وفي رواية:"ولا أن يحمل عليه ذنب غيره".

قال ابن عباس:"يقول: ولا يخاف أن يبخس من عمله شيء".

عن سفيان الثوري:"{ولا يخاف بخسا} قال: يُبخس حقّه كلّه، {ولا رهقًا} يُبخس بعض حقه".

قال عطاء: "{رَهَقًا}: عذابًا".

قال ابن زيد:"لا يخاف أن يبخس من أجره شيئًا، ولا رهقا؛ فيظلم ولا يعطى شيئا".

لما سمعنا القرآن العظيم الهادي إلى الصراط المستقيم آمنا به، وهم بذلك

=

=

يفتخرون وحق لهم ذلك، فإن الإيمان بالله والانقياد لأمره أعظم شرف وأعلى درجة يصل إليها البشر كما قال تعالى (ن أكرمكم عند الله أتقاكم).

- ثم ذكروا ما يرغب المؤمن، فقالوا:

(فمن يؤمن بربه) أي بوجوده وانفراده بالإلهية كما يشعر به إحضار اسمه بعنوان الرب إذ الرب هو الخالق فما لا يخلق لا يعبد [قاله ابن عاشور].

(فلا يخاف بخسا ولا رهقا) أي: فلا يخاف أن ينقص من حسناته (ولا رهقا) ولا يحمل عليه غير سيئاته.

فلا ينقصون من حسناتهم، ولا يزاد عليهم في السيئات، ولا يعاقبون بظلم غيرهم.

- **قال ابن عاشور**: والبخس: الغبن في الأجر ونحوه.

والرهق: الإهانة، أي لا يخشى أن يبخس في الجزاء على إيمانه ولا أن يهان، وفهم منه أن من لا يؤمن يهان بالعذاب.

فلا يظلمون مثقال ذرة، كما قال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما).

وقال تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى).

كما قال تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما). ظلما: أي: زيادة في السيئات (ولا هضما) أي نقصا في الحسنات.

قال تعالى (وأن الله ليس بظلام للعبيد). وقال تعالى (ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد).

وقال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين).

وقال تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع

=

=

الحساب).

البخس: النقصان، والرهق: الزيادة.

قوله تعالى: {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ} [الجن: ١٤]، أي:"وأنا منا الخاضعون لله بالطاعة".

قال مقاتل:"يعني: المخلصين، هذا قول التسعة".

**قال الطبري**:"الذين قد خضعوا لله بالطاعة".

قوله تعالى: {وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ} [الجن: ١٤]، أي:"ومنا الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق".

**قال الفراء**:"وهم: الجائرون الكفار، والمقسطون: العادلون المسلمون".

**قال الطبري**:"وهم الجائرون عن الإسلام وقصد السبيل".

**قال الزجاج**:"هذا تفسير قولهم: {كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا}، و «القاسطون»: الجائرون".

قال ابن قتيبة:"{الْقَاسِطُونَ}: الجائرون. يقال: قسط؛ إذا جار. وأقسط: إذا عدل".

عن مجاهد، قوله: "{الْقَاسِطُونَ}، قال: هم الظالمون".

عن عكرمة:"{ومنا القاسِطُونَ}، قال: هم الظالمون".

قال قتادة:"الجائرون".

قال ابن عباس:"العادلون عن الحقّ".

قال مقاتل:"يعنى العادلين بالله وهم المودة".

قال ابن زيد:"المقسط: العادل، والقاسط: الجائر وذكر بيت شعر:

**قَسَطْنا على الأمْلاكِ فِي عَهْدِ تُبَّعٍ... وَمِنْ قَبْلُ ما أدْرَى النفوسَ عِقَابَهَا"**.

قوله تعالى: {فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا} [الجن: ١٤]، أي:"فمن أسلم وخضع لله بالطاعة، فأولئك الذين قصدوا طريق الحق والصواب، واجتهدوا في

=

=

اختياره فهداهم الله إليه".

قال مقاتل:"يقول: فمن أخلص لله ﷻ من كفار الجن، {فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا}، يعنى: أخلصوا بالرشد".

**قال الطبري:**"يقول: فمن أسلم وخضع لله بالطاعة، فأولئك تعمدوا وترجَّوا رشدا في دينهم".

**قال الزجاج:**"يعني: قصدوا طريق الحق والرشد".

**قال ابن كثير:**"أي: طلبوا لأنفسهم النجاة".

**قال الفراء:**"يقول: أمّوا الهدى واتبعوه".

قال أبو عبيدة:"توخّوا وعمدوا، قال امرؤ القيس:

**ديمة هطلاء فيها وطف... طبق الأرض تحرّى وتدر"**.

أي: وأنا بعد سماعنا القرآن منا من أسلم.

- والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك.

(ومنا القاسطون) أي الجائرون عن الحق.

- بخلاف المقسط فإنه العادل، كما قال تعالى: (إن الله يحب التوابين ويحب المقسطين)).

(فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا) أي: فمن اعتنق الإسلام واتبع الرسول، فأولئك الذين قصدوا الرشد واهتدوا إلى طريق النجاة والجنة.

قوله تعالى: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} [الجن: ١٥]، أي:"وأما الجائرون عن طريق الإسلام فكانوا وَقودًا لجهنم".

قال مقاتل:"يعنى العادلين بالله {فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا}،يعني: وقودا. فهذا كله قول مؤمني الجن التسعة".

=

=

**قال الطبري:**"يقول:"{وَأَمَّا} الجائرون عن الإسلام، {فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} توقد بهم".

**قال الزجاج:**"يقال: قسط الرجل إذَا جَارَ، وأَقسط إذَا عَدَلَ".

عن قتادة: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ}، قال: "هم الجبّارون".

أي: وأما الكافرون الجائرون عن طريق الحق والإيمان فسيكونون وقودا لجهنم تسعر بهم، وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، كما قال تعالى (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين).

قال الرازي: فإن قيل: لم ذكر عقاب القاسطين ولم يذكر ثواب المسلمين؟ الجواب: بل ذكر ثواب المؤمنين وهو قوله تعالى (تحروا رشدا) أي توخوا رشدا عظيما لا يبلغ كنهه إلا الله تعالى، ومثل هذا لا يتحقق إلا في الثواب.

سميت النار جهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

قوله تعالى: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ} [الجن: ١٦].

وفي هذه الاستقامة، قولان:

**أحدهما:** أنها الإقامة على طريق الكفر والضلالة، قاله زيد بن أسلم، والكلبي، والثمالي، ويمان بن رباب، وابن كيسان، ومحمد بن كعب، وأبو مجلز، والفراء .

**قال الفراء:**"«الطريقة»: طريقة الشِرك، أي: لو استمروا عليها فعلنا ذَلِكَ بِهم".

**الثاني:** الاستقامة على الهدى والطاعة، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك،سعيد بن المسيب، وعطاء بن رياح، وعبيد بن عمير، وعطية، والسدي، ومقاتل، وبه قال الطبري، والزجاج .

قال ابن عطية:"وهذا قول أبين، لأن استعارة «الاستقامة» للكفر قلقة".

**قال الزجاج:**"والذي يختار وهو أكثر التفسير أن يكون يعنى بـ «الطريقة»: طريق الهدى، لأن «الطريقة» معرَفَة بالألف واللام. والأوجب أن يكون طريقة

=

=

الهدى".

قال ابن عباس:"يعني بالاستقامة: الطاعة".

وقال ابن عباس:"قاموا ما أمروا به".

قال مجاهد:"طريقة الإسلام". وفي رواية:"طريقة الحقّ".

قال سعيد بن جبير:"الدين".

قال قتادة:"لو آمنوا كلهم". وفي رواية:"لو اتقوا".

قال الضحاك:"هذا مثل ضربه الله كقوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ}، وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}، والماء الغدق يعني: الماء الكثير {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} لنبتليهم فيه".

فعلى القول الأول يكون المعنى: لو آمنوا لوسَّعنا عليهم لنختبرَهم فِيهِ فننظر كيف شُكْرُهم، وعلى القول الثاني: يكون المعنى: لو استقاموا على الكفر فكانوا كفارًا كلهم، لأكثرنا لهم المال لنفتنهم فيه عقوبة واستدراجا، ثم نعذبهم على ذلك. وقيل: لأكثرنا لهم الماء فأغرقناهم، كقوم نوح.

قراءة العامة: «لو»، بكسر الواو. وقرأ الأعمش: «لَوُ اسْتَقامُوا»، بضم الواو.

قوله تعالى: {لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا} [الجن: ١٦]، أي:"لأنزلنا عليهم ماءً كثيرًا، ولوسَّعنا عليهم الرزق في الدنيا".

**قال الطبري**: "يقول: لوسعنا عليهم في الرزق، وبسطناهم في الدنيا".

قال ابن عباس:"فأما الغدق: فالماء الطاهر الكثير".

وعن ابن عباس:" {لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا}، قال: معينا".

قال سعيد بن جبير:"مالا كثيرا".

قال ابن زيد:"الغدق الكثير: مال كثير ا".

=

=

قال قتادة:"لأوسعنا عليهم من الدنيا". وفي رواية:"لوسع عليهم في الرزق".
قال مجاهد:"نافعا كثيرا، لأعطيناهم مالا كثيرا".
قال الربيع بن أنس:"عيشا رَغدًا".
وقد اختلف العلماء في المراد بالطريقة: على قولين:
فقيل: لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام، وعدلوا إليها، واستمروا عليها (لأسقيناهم ماء غدقا. لنفتنهم فيه) أي كثيرا، والمراد بذلك سعة الرزق، ومما يدل لهذا القول أن الاستقامة سبب لسعة الرزق.
كما قال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض).
وقال تعالى (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم. ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم).
وقال تعالى (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله).
وقال نبي الله هود عليه السلام (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين).
وعلى هذا يكون معنى (لنفتنهم فيه) أي لنختبرهم، أيشكرون فيستمرون على الاستقامة، أم تبطرهم النعمة فيرتدون ويكفرون.
- قال ابن الجوزي (وأن لو استقاموا على الطريقة) يعني طريقة الهدى.
وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، واختاره الزجاج.
قال لأن الطريقة هاهنا بالألف واللام معرفة، فالأوجب أن تكون طريقة الهدى.
=

=

فعلى القول الأول يكون المعنى: لو آمنوا لوسعنا عليهم (لنفتنهم) أي: لنختبرهم (فيه) فننظر كيف شكرهم. والماء الغدق: الكثير. وإنما ذكر الماء مثلا، لأن الخير كله يكون بالمطر، فأقيم مقامه إذ كان سببه. (زاد المسير).

وقيل: (وألو استقاموا على الطريقة) طريقة الضلال والكفر (لأسقيناهم ماء غدقا) أي لأوسعنا عليهم الرزق استدراجا، ومما يدل لهذا القول:

قوله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون).

وقوله تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون).

قال ابن الجوزي: وذهب قوم إلى أن المراد بها: طريقة الكفر، قاله محمد بن كعب، والربيع، والفراء، وابن قتيبة، وابن كيسان. ويكون المعنى: لو استقاموا على الكفر فكانوا كفارا كلهم، لأكثرنا لهم المال لنفتنهم فيه عقوبة واستدارجا، ثم نعذبهم على ذلك. (زاد المسير). والأقرب القول الأول.

- قال الثعلبي: قوله تعالى (على الطريقة) اختلف المفسرون في تأويلها:

فقال قوم: معناها وأن لو استقاموا على طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين (لأسقيناهم مآء غدقا) يعني أعطيناهم مالا كثيرا وعيشا رغيدا ووسعنا عليهم في الرزق وبسطنا لهم في الدنيا {لنفتنهم فيه} لنختبرهم كيف شكرهم فيما خولوا.

ودليل هذا التأويل:

قوله سبحانه وتعالى: {ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ومآ أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم).

وقوله سبحانه (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السمآء

=

=

والأرض).

وقوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة).

وقوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السمآء عليكم مدرارا...).

وقال آخرون: معناها وأن لو استقاموا على طريقة الكفر والضلالة وكانوا كفارا كلهم لأعطيناهم مالا كثيرا ولوسعنا عليهم لنفتنهم فيه عقوبة لهم واستدراجا، حتى يفتنوا فيعذبهم.

ودليل هذا التأويل:

قوله سبحانه (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء).

وقوله سبحانه وتعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن).

وقوله سبحانه (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض).... (تفسير الثعلبي).

قوله تعالى: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} [الجن: ١٧]، أي:"لنختبرهم: كيف يشكرون نعم الله عليهم؟".

قال ابن قتيبة:"أي: لنختبرهم، فنعلم كيف شكرهم".

**قال الطبري**: يقول: لنختبرهم فيه".

قال ابن عباس وسعيد بن جبير:"يقول: لنبتليهم به".

وقال قتادة:"لنبتليهم فيه".

قال ابن زيد:"لنختبرهم فيه".

قال مجاهد:"حتى يرجعوا لما كتب عليهم من الشقاء". وفي رواية:"حتى يرجعوا إلى علمي فيهم". وفي رواية:"لنبتليهم به حتى يرجعوا إلى ما كتب عليهم من الشقاء".

=

=

عن التيمي، قال:"قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: "{وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا}، قال: أينما كان الماء كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة".

قال الحسن، قال: "كان والله أصحاب رسول الله ﷺ سامعين لله مطيعين فتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر، ففتنوا بها فوثبوا بإمامهم فقتلوه". يعني: عثمان بن عفان.

قوله تعالى: {وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا} [الجن: ١٧]، أي:"ومن يُعرض عن طاعة ربه واستماع القرآن وتدبره، والعمل به يدخله عذابًا شديدًا شاقًّا".

**قال الطبري**:"معناه: ومن يعرض عن استماع القرآن واستعماله، يسلكه الله عذابا شديدا شاقا".

قال مقاتل:"يعني: شدة العذاب الذي لا راحة له فيه".

قال أبو عبيدة:"{صَعَدًا}: مصدر «الصعود»، وهو أشدّ العذاب".

قال ابن قتيبة:"أي: عذابا شاقا. يقال: تصعدني الأمر، إذا شق علي، ومنه قوله: {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} [المدثر: ١٧]، أي: عقبة شاقة. ونرى أصل هذا كله من «الصعود»: لأنه شاق، فكني به عن المشقات".

عن قتادة، قوله: "{يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا}، عذابا لا راحة فيه".

قال قتادة:"صَعودا من عذاب الله لا راحة فيه".

عن مجاهد، قوله: "{عَذَابًا صَعَدًا}، قال: مشقة من العذاب".

قال ابن عباس:"يقول: مشقة من العذاب يصعد فيها".

عن ابن عباس: "{عَذَابًا صَعَدًا}، قال: جبل في جهنم".

قال ابن زيد:"الصعد: العذاب المنصب".

=

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا (١٨).

{وَأَنَّ الْمَسَاجِد} مَوَاضِع الصَّلَاة {لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوَا} فِيهَا {مَعَ الله أَحَدًا} بِأَنْ تُشْرِكُوا كَمَا كَانَتْ الْيَهُود وَالنَّصَارَى إذَا دَخَلُوا كَنَائِسهمْ وَبِيَعَهُمْ أشركوا.

وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩).

{وَأَنَّهُ} بِالْفَتْحِ وَالْكَسْر اسْتِئْنَافًا وَالضَّمِير لِلشَّأْنِ {لَمَّا قَامَ عَبْد الله} مُحَمَّد النَّبِيّ ﷺ {يَدْعُوهُ} يَعْبُدهُ بِبَطْنِ نَخْل {كَادُوا} أَيْ الْجِنّ الْمُسْتَمِعُونَ لِقِرَاءَتِهِ {يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} بِكَسْرِ اللَّام وَضَمّهَا جَمْع لُبْدَة كَاللُّبَدِ فِي رُكُوب بَعْضهمْ بَعْضًا ازْدِحَامًا حِرْصًا عَلَى سَمَاع القرآن.

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠).

{قَالَ} مُجِيبًا لِلْكُفَّارِ فِي قَوْلهمْ ارْجِعْ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ وَفِي قِرَاءَة قُلْ {إنَّمَا أَدْعُو ربي} إلها {ولا أشرك به أحدا}.

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١).

{قُلْ إنِّي لَا أَمْلِك لَكُمْ ضَرًّا} غَيًّا {وَلَا رَشَدًا} خَيْرًا.

قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢).

---

=

**قال الفراء:**"نزّلت فِي وليد بْن المغيرة المخزومي، وذكروا أن «الصَّعَدَ»: صخرة ملساء فِي جهنم يكلَّف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حَدَر إلى جهنم، فكان ذلك دأبه، ومثلها في سورة المدثر: {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} [المدثر: ١٧]".

وقرئ: «نَسْلُكْهُ» بالنون اعتبارا بقوله: {لِنَفْتِنَهُمْ}، أنها بالنون، وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة بالياء، بمعنى: يسلكه الله، ردّا على الربّ في قوله: {وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ}.

{قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرنِي مِنْ الله} مِنْ عَذَابه إنْ عَصَيْته {أَحَد وَلَنْ أَجِد مِنْ دُونه} أَيْ غَيْره {مُلْتَحَدًا} مُلْتَجَأ.

إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣).

{إلَّا بَلَاغًا} اسْتِثْنَاء مِنْ مَفْعُول أَمْلِك أَيْ لَا أَمْلِك لَكُمْ إلَّا الْبَلَاغ إلَيْكُمْ {مِنْ الله} أَيْ عَنْهُ {وَرِسَالَاته} عَطْف عَلَى بَلَاغًا وَمَا بَيْن الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ وَالِاسْتِثْنَاء اعْتِرَاض لِتَأْكِيدِ نَفْي الِاسْتِطَاعَة {وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُوله} فِي التوحد فَلَمْ يُؤْمِن {فَإِنَّ لَهُ نَار جَهَنَّم خَالِدِينَ} حال من ضمير من في له رِعَايَة فِي مَعْنَاهَا وَهِيَ حَال مُقَدَّرَة وَالْمَعْنَى يدخلونها مقدار خلودهم {فيها أبدا}.

حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤).

{حَتَّى إذَا رَأَوْا} ابْتِدَائِيَّة فِيهَا مَعْنَى الْغَايَة لِمُقَدَّرٍ قَبْلهَا أَيْ لَا يَزَالُونَ عَلَى كُفْرهمْ إلَى أَنْ يَرَوْا {مَا يُوعَدُونَ} بِهِ مِنْ الْعَذَاب {فَسَيَعْلَمُونَ} عِنْد حُلُوله بِهِمْ يَوْم بَدْر أَوْ يَوْم الْقِيَامَة {مَنْ أَضْعَف نَاصِرًا وَأَقَلّ عَدَدًا} أَعْوَانًا أَهُمْ أَمْ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى الْقَوْل الْأَوَّل أَوْ أَنَا أَمْ هُمْ عَلَى الثَّانِي فقال بعضهم متى هذا الوعد فنزل[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

وعن سعيد بن جبير: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ}؛ قال: قالت الجن لنبي الله: كيف لنا نأتي المسجد ونحن ناؤون عنك؟ وكيف نشهد معك الصلاة ونحن ناؤون عنك؟ فنزلت: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا (١٨)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٧٣): ثنا ابن حميد ثنا مهران عن سفيان عن إسماعيل بن أبي خالد عن محمود عن سعيد به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علل:

=

=

الأولى: الإرسال.

الثانية: مهران سيئ الحفظ له أوهام.

الثالثة: ابن حميد؛ متهم بالكذب.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قالت الجن: يا رسول الله! ائذن لنا نشهد معك الصلوات في مسجدك؛ فأنزل الله: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا (١٨)}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٢٢)، وقال: "وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي صالح عن ابن عباس (فذكره)".

وعن الأعمش؛ قال: قالت الجن: يا رسول الله! ائذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا (١٨)}؛ يقول: صلّوا لا تخالطوا الناس.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٣٠٦) ونسبه لابن أبي حاتم. وهذا ضعيف؛ لإعضاله.

وعن حضرمي؛ أنه ذكر له: أن جنيًا من الجن من أشرافهم ذا تبع قال: إنما يريد محمد أن يجيره وأنا أجيره؛ فأنزل الله -تعالى-: {قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٧٥، ٧٦): ثنا ابن عبد الأعلى ثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه؛ قال: زعم حضرمي (فذكره). وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال.

الثانية: حضرمي ذا؛ مجهول؛ كما قال ابن المديني.

=

=

* قوله تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} [الجن: ١٨]، أي:"وأن المساجد لعبادة الله وحده".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} [الجن: ١٨]، وجهان:

**أحدهما**: أنها المساجد التي هي بيوت الله للصلوات، قاله ابن عباس، ومقاتل.

قال مقاتل:"يعني: الكنائس والبيع والمساجد لله".

وعن عكرِمة: "{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ}، قال: المساجد كلها".

وقال الحسن: "أراد بها البقاع كلها وذلك، أن الأرض جعلت للنبي ﷺ مسجدا، وكان المسلمون بعد نزول هذه الآية إذا دخل أحدهم المسجد قال: أشهد أن لا إله إلّا الله والسلام على رسول الله".

عن ابن عباس في قوله: "{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} [الجن: ١٨]، قال: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام، ومسجد إيليا ببيت المقدس".

**قال الزجاج**:"معناه: الأمر بتوحيد الله في الصلوات".

**الثاني**: أنها الأعضاء التي يسجد عليها لله، أي: هي لله فلا تسجدوا بها لغيره. قاله سعيد بن جبير، والربيع، وعطاء، وطلق بن حبيب، والشافعي.

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة- أشار بيديه إلى أنفه- واليدين والركبتين وأطراف القدمين".

قال ابن عطاء: "مساجدك أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها".

قال الإمام الشافعي:"يعني: بـ «المساجد»: ما يَسجُد عليه ابن آدم في صلاتِه من الجبهة وغيرها".

=

=

**قال الفراء:**"يُقَال: هَذِهِ المساجد، وَيُقَال: وَأَنَّ المساجد لله. يريد: مساجدَ الرجلِ: ما يسجد عَلَيْهِ من: جبهته، ويديه، وركبتيه، وصدور قدميه".

وقال ابن قتيبة:"أي: السُّجود لله. هو جمع "مَسجَد"؛ يقال: سجدت سجودًا ومَسجَدًا؛ كما يقال: ضربت في البلاد ضربًا ومَضرَبًا. ثم يجمع فيقال: المساجدُ لله. كما يقال: المضاربُ في الأرض لطلب الرزق".

قوله تعالى: {فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} [الجن: ١٨]، أي:"فلا تعبدوا فيها غيره، وأخلصوا له الدعاء والعبادة فيها".

**قال الطبري:**"{فَلا تَدْعُوا} أيها الناس {مَعَ اللهِ أَحَدًا} ولا تشركوا به فيها شيئا، ولكن أفردوا له التوحيد، وأخلصوا له العبادة".

**قال الفراء:**"فلا تشركوا فيها صنما ولا شيئا مما يعبد".

قال مقاتل:"وذلك أن اليهود والنصارى يشركون في صلاتهم في البيع والكنائس، فأمر الله المؤمنين أن يوحدوه".

قال سهل:"أي: لا تدعوا مع الله شريكًا، أي: ليس لأحد معي شريك في شيء يمنع عبادي من ذكري، كذلك ما كان لله تعالى فهو على هذه الجهة، ليس لأحد فيه سبيل المنع والزجر".

وقوله تعالى (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) الأكثرون على أنه من جملة الموحى، والواو عاطفة، وأوحي إلي أن المساجد مختصة بالله، والمساجد: مواضع الصلاة والسجود لله وعبادته.

والمعنى: اعبدوا الله في هذه المساجد وحده ولا تشركوا معه أحدا، وفي هذا تحذير للمسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود والنصارى من الإشراك بالله في كنائسهم وبيعهم.

وقيل: المراد بالمساجد أعضاء السجود، أي: هي لله فلا تسجدوا بها لغيره.

=

=

- قال ابن الجوزي: قوله تعالى (وأن المساجد لله) فيها أربعة أقوال:
**أحدها**: أنها المساجد التي هي بيوت الصلوات، قاله ابن عباس. قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا، فأمر الله ﷻ المسلمين أن يخلصوا له إذا دخلوا مساجدهم.
والثاني: الأعضاء التي يسجد عليها العبد، قاله سعيد بن جبير، وابن الأنباري، وذكره الفراء. فيكون المعنى، لا تسجدوا عليها لغيره.
والثالث: أن المراد بالمساجد هاهنا: البقاع كلها، قاله الحسن. فيكون المعنى: أن الأرض كلها مواضع للسجود، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها.
والرابع: أن المساجد: السجود، فإنه جمع مسجد. يقال: سجدت سجودا، ومسجدا، كما يقال: ضربت في الأرض ضربا، ومضربا، ثم يجمع، فيقال: المساجد، والمضارب. قال ابن قتيبة: فعلى هذا يكون واحدها: مسجدا، بفتح الجيم. والمعنى:
أخلصوا له، ولا تسجدوا لغيره.
- قال القاسمي: (وأن المساجد لله) أي: مختصة به (فلا تدعوا مع الله أحدا) أي: فلا تعبدوا فيها غيره. تعريض بما كان عليه المشركون من عبادتهم غيره تعالى بمسجده الحرام، ونصبهم في التماثيل والأنصاب، وبما عليه أهل الكتاب، فإن المساجد لم تشد إلا ليذكر فيها اسمه تعالى وحده. ومن هنا ذهبت الحنابلة إلى أنه لا يجتمع في دين الله مسجد وقبر، وأن أيهما طرأ على الآخر وجب هدمه.
- **قال الشوكاني**: والمساجد: المواضع التي بنيت للصلاة فيها.
- قال الحسن: أراد بها كل البقاع؛ لأن الأرض كلها مسجد.
- وقال سعيد بن المسيب، وطلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والركبتان واليدان والجبهة، يقول: هذه أعضاء أنعم
=

=

الله بها عليك، فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله، وكذا قال عطاء.

وقيل: المساجد هي الصلاة؛ لأن السجود من جملة أركانها، قاله الحسن (فلا تدعوا مع الله أحدا) من خلقه كائنا ما كان.

وأضاف- سبحانه- المساجد إليه، على سبيل التشريف والتكريم وقد تضاف إلى غيره- تعالى- على سبيل التعريف فحسب، وفي الحديث الشريف: «الصلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة في غيره، إلا المسجد الحرام.

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ} [الجن: ١٩]، أي:"وأنه لما قام محمد ﷺ، يعبد ربه".

قال قتادة يعني: "لما قام عبد الله بالدعوة".

قال الحسن:"لما قام رسول الله ﷺ يقول: لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم".

**قال الطبري**:"يقول: وأنه لما قام محمد رسول الله ﷺ يدعو الله يقول: «لا إله إلا الله»".

**قال الفراء**:"يريد: النبي ﷺ ليلة أتاه الجن ببطن نخلة".

**قال الزجاج**:"المعنى: أن النبي ﷺ لما صَلَّى الصبْحَ بذات نخلة".

قوله تعالى: {كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} [الجن: ١٩]، أي:"كاد الجن يكونون عليه جماعات متراكمة، بعضها فوق بعض؛ مِن شدة ازدحامهم لسماع القرآن منه".

**قال الطبري**:"يقول: كادوا يكونون على محمد جماعات بعضها فوق بعض".

**قال الفراء**:"كادوا يركبون النبي ﷺ رغبةً فِي القرآن، وشهوة لَهُ".

قال مقاتل:"يقول كادوا أن يرتكبوه حرصا على حفظ ما سمعوا من القرآن، تعجبا به، وهم الجن التسعة".

**قال الزجاج**:"كادت الجن- لما سمعوا القرآن وتعجبوا منه- أن يسقطوا على

=

=

النبي ﷺ".

عن سعيد بن جُبير في قوله: {كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}، قال: تراكبوا عليه".

وفي قوله تعالى: {كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} [الجن: ١٩]، وجهان من التفسير:

**أحدهما:** يعني: أعوانًا، قاله ابن عباس.

**الثاني:** جماعات بعضها فوق بعض، قاله سعيد بن جبير، وهو معنى قول مجاهد، وبه قال ابن زيد، وأبو عبيدة، والطبري، ومنه: اللبد لاجتماع الصوف بعضه على بعض، وقال ذو الرمة:

**ومنهلٍ آجنٍ قفرٍ مواردهُ... خُضْرٍ كواكبُه مِن عَرْمَصٍ لَبِدِ**

قال أبو عبيدة: "{لِبَدًا}: جماعات، واحدها: «لبدة»، وكذلك يقال للجراد الكثير، قال عبد مناف بن ربع:

**صابوا بستة أبيات وأربعة... حتى كأن عليهم جابيا لبدا**

الجابي: الجراد الذي يجبى كلّ شيء يأكله".

عن مجاهد، وابن زيد، قوله: "{كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}، قال: جميعًا".

قال ابن زيد: "اللبد: الشيء الذي بعضه فوق بعض".

وفي كونهم عليه لبدًا ثلاثة أوجه:

**أحدها:** أنهم المسلمون في اجتماعهم على رسول الله -ﷺ-. قاله ابن عباس في رواية ابن جبير، وبه قال ابن جبير.

قال ابن عباس: "لما رأوه يصلي وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، قال: عجبوا من طواعية أصحابه له؛ قال: فقال لقومهم لما قام عبد الله يدعوه: {كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}".

قال سعيد بن جبير: "كان أصحاب نبيّ الله ﷺ يأتمون به، فيركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده".

=

=

**الثاني**: أنهم الجن حين استمعوا من رسول الله قراءته، قاله الزبير بن العوام، وابن عباس، والضحاك.

قال الضحاك:"كادوا يركبونه حرصا على ما سمعوا منه من القرآن".

قال ابن عباس:"يقول: لما سمعوا النبيّ ﷺ يتلو القرآن، ودنوا منه فلم يعلم حتى أتاه الرسول، فجعل يقرئه: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ}".

**الثالث**: أنهم الجن والإنس في تعاونهم على رسول الله في الشرك، قاله قتادة، وبه قال الطبري.

**قال ابن كثير**:"وهو الأظهر لقوله بعده: {قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}، أي: قال لهم الرسول- لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه، ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته".

قال قتادة:"تلبدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه، ويظهره على من ناوأه".

قال قتادة:"لما قام النبيّ ﷺ تلبَّدت الجنّ والإنس، فحرصوا على أن يطفئوا هذا النور الذي أنزله الله".

قال ابن زيد:"تظاهروا عليه بعضهم على بعض، تظاهروا على رسول الله ﷺ".

**قال الطبري**:"أولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال: ذلك خبر من الله عن أن رسوله محمدا ﷺ لما قام يدعوه كادت العرب تكون عليه جميعا في إطفاء نور الله، لأن قوله: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ} عقيب قوله: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} وذلك من خبر الله فكذلك قوله: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ}، وأخرى أنه تعالى ذكره أتبع ذلك قوله: {فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} فمعلوم أن الذي يتبع ذلك الخبر عما لقي المأمور بأن لا يدعو مع الله أحدا في ذلك، لا الخبر عن كثرة إجابة المدعوين وسرعتهم إلى الإجابة".

=

=

قال الحسن:"لما قام رسول الله ﷺ يقول "لا إله إلا الله" ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تكون عليه جميعا".

- **قال الرازي**: اعلم أن عبد الله هو النبي ﷺ في قول الجميع.

- وأطلق عليه وصف العبودية، لأن العبودية لله أشرف الأوصاف التي يوصف بها البشر من الرسل والأنبياء وغيرهم، ولهذا وصف الله تعالى نبيه بالعبودية في أعلى المقامات:

(كادوا يكونون عليه لبدا) اللبد: الكثير المتراكم والملتبد بعضه على بعض، واختلف في معنى الآية:

فقيل: تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه.

- قال ابن كثير: وهذا مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، وهو اختيار ابن جرير، وهو الأظهر، لقوله بعده (قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا) أي قال لهم الرسول ﷺ لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته.

وقيل: أن الذين كادوا يكونون عليه لبدا هم الجن، كادوا يكونون على رسول الله ﷺ لبدا، أي جماعات يركب بعضهم بعضا من شدة الزحام على رسول الله ﷺ للاستماع منه حين يقرأ القرآن.

- قال ابن الجوزي: وفي معنى الآية ثلاثة أقوال:

**أحدها**: أنه إخبار الله تعالى عن الجن يحكي حالهم. والمعنى: أنه لما قام يصلي كاد الجن لازدحامهم عليه يركب بعضهم بعضا، حرصا على سماع القرآن، رواه عطية عن ابن عباس.

والثاني: أنه من قول الجن لقومهم لما رجعوا إليهم، فوصفوا لهم طاعة أصحاب

=

=

محمد رسول الله ﷺ وائتمامهم به في الركوع، والسجود، فكأنهم قالوا: لما قام يصلي كاد أصحابه يكونون عليه لبدا. وهذا المعنى في رواية ابن جبير، عن ابن عباس.

والثالث: أن المعنى: لما قام رسول الله ﷺ بالدعوة تلبدت الإنس والجن، وتظاهروا عليه، ليبطلوا الحق الذي جاء به، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد.

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)} [الجن: ٢٠]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء الكفار: إنما أعبد ربي وحده، ولا أشرك معه في العبادة أحدًا.

سبب النزول:

قال مقاتل:"وذلك أن كفار قريش قالوا للنبي- ﷺ- بمكة: إنك جئت بأمر عظيم لم نسمع مثله قط، وقد عاديت الناس كلهم، فارجع عن هذا الأمر فنحن نجيرك، فأنزل الله- تعالى- {قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}".

**قال الطبري**: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي العرب الذين ردّوا عليك ما جئتهم به من النصيحة: إني لا أملك لكم ضرّا في دينكم ولا في دنياكم، ولا رشدا أرشدكم، لأن الذي يملك ذلك، الله الذي له مُلك كل شيء".

**قال ابن كثير**:"أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه، {وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}".

**قال السعدي**:"أي: أوحده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذه المشركون من دونه".

قال النسفي: "{وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا} في العبادة فلم تتعجبون وتزدحمون علي".

=

=

أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين تلبدوا عليك مبينا لهم منهجك وطريقتك وحقيقة ما تدعو إليه:

(إنما أدعو ربي) أي: إنما أوحد ربي وحده.

(ولا أشرك به أحدا) أي: ولا أشرك معه لا صنما ولا بشرا، وهذا تأكيد لعبادته.

وهذه دعوة كل الرسل: عبادة الله وترك الشرك:

قل تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت).

وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون).

- وفي هذا أنه ينبغي للداعية أن يعلن دعوته، وأن يظهر عائر دينه، وأن يفتخر بدعوته وطاعته لله.

كما قال تعالى عن إبراهيم (إلا الذي فطرني فإنه سيهدين).

وقال تعالى (قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين).

وقال تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده).

قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} [الجن: ٢١]، أي:"قل -أيها الرسول- لهم: إني لا أقدر أن أدفع عنكم ضرًا، ولا أجلب لكم نفعًا".

قال مقاتل:"يقول: لا أقدر على أن أدفع عنكم ضرا ولا أسوق إليكم رشدا، والله يملك ذلك كله".

**قال الطبري**: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي العرب الذين ردّوا عليك ما جئتهم به من النصيحة: إني لا أملك لكم ضرّا في دينكم ولا

=

=

في دنياكم، ولا رشدا أرشدكم، لأن الذي يملك ذلك، الله الذي له مُلك كل شيء".

**قال ابن كثير**:"أي: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ، وعبد من عباد الله ليس إليّ من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله ﷻ".

**قال السعدي**:"فإني عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شيء".

أي: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي، وعبد من عباد الله ليس لي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله ﷻ، كما قال تعالى (ليس لك من الأمر شيء) وقال تعالى (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين).

قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ} [الجن: ٢٢]، أي:"قل: إني لن ينقذني من عذاب الله أحد إن عصيته".

**قال الطبري**: "من خلقه إن أرادني أمرا، ولا ينصرني منه ناصر".

**قال ابن كثير**:"أي: لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه".

**قال السعدي**:"أي: لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب الله، وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضرا ولا رشدا، ولا يمنع نفسه من الله شيئا إن أراده بسوء، فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى".

قوله تعالى: {وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [الجن: ٢٢]، أي:"ولن أجد من دونه ملجأ أفرُّ إليه مِن عذابه".

قال مقاتل:"يعني: ملجا ولا حرزا".

قال ابن قتيبة:"أي: مَعْدِلا ومَوْئل".

**قال الطبري**:"يقول: ولن أجد من دون الله ملجئا ألجأ إليه".

عن سفيان: "{وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا}، يقول: ناصرا".

قال سفيان:"يقول: ولن أجد من دون الله ملجئا ألجأ إليه".

=

=

قال الضحاك:"ملجأ".

قال قتادة:"أي: ملجئا ونصيرا".

**قال السدي**:"حرزا".

قال الكلبي: "مدخلا في الأرض، مثل السَّرَب".

قال سهل:"أمره بالافتقار واللجوء إليه، ثم بإظهارهما بقوله، ليزيد بذلك للكافرين ضلالًا وللمؤمنين إرشادًا، وهي كلمة الإخلاص في التوحيد. إذ حقيقة التوحيد هو النظر للحق لا غير، والإقبال عليه، والاعتماد، ولا يتم ذلك إلا بالإعراض عما سواه، وبإظهار الافتقار واللجوء إليه".

أي قل لهم أيضا: إنه لن ينقذني من عذاب الله أحد إن عصيته، أي: فلا أحد يستطيع نصرتي ودفع عذاب الله عني.

كما قال تعالى (ل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون).

(ولن أجد من دونه ملتحدا) أي لا أجد ملجأ ولا نصيرا.

**قال السعدي**: وإذا كان الرسول ﷺ الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضرا ولا رشدا، ولا يمنع نفسه من الله شيئا إن أراده بسوء، فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى.

قوله تعالى: {إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ} [الجن: ٢٣]، أي:"لكن أملك أن أبلغكم عن الله ما أمرني بتبليغه لكم، ورسالتَه التي أرسلني بها إليكم".

**قال الطبري**:"يقول: إلا أن أبلغكم من الله ما أمرني بتبليغكم إياه، وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم؛ فأما الرشد والخذلان، فبيد الله، هو مالكه دون سائر خلقه يهدي من يشاء ويخذل من أراد".

=

=

**قال السعدي:**"أي: ليس لي مزية على الناس، إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة الخلق إلى الله، وبهذا تقوم الحجة على الناس".

قال ابن قتيبة:"هذا استثناء من: {لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا} إلا أن أُبَلِّغَكُم".

قال مقاتل:"فذلك الذي يجيرني من عذابه".

عن قتادة، قوله: "{إِلا بَلاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالاتِهِ}، فذلك الذي أملك بلاغًا من الله ورسالاته".

**قال ابن كثير:**"ويحتمل أن يكون استثناء من قوله: {لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ}، أي: لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عليّ، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: ٦٧]".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [الجن: ٢٣]، أي:"ومَن يعص الله ورسوله، ويُعرض عن دين الله، فإن جزاءه نار جهنم لا يخرج منها أبدًا".

عن سعيد بن جبير: "{خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون".

**قال الطبري:** يقول:"ومن يعص الله فيما أمره ونهاه، ويكذّب به ورسوله، فجحد رسالاته، فإن له نار جهنم يصلاها، ماكثين فيها أبدًا إلى غير نهاية".

**قال ابن كثير:** أي: أنما أبلغكم رسالة الله، فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبدًا، أي لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها".

**قال السعدي:**"وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص الأخر المحكمة، وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة".

=

=

(إلا بلاغا من الله ورسالاته) فيهما قولان:

قيل: مستثنى من قوله: (قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا) ويكون المعنى: يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لمشركي العرب: إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا (إلا بلاغا من الله ورسالاته) يقول: إلا أن أبلغكم من الله ما أمرني بتبليغكم إياه، وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم، فأما الرشد والخذلان فبيد الله، هو مالكه دون سائر خلقه، يهدي من يشاء ويخذل من أراد.

كما قال تعالى (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون).

وقيل: مستثنى من قوله (قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا) ويكون المعنى:

قل إني لا يجيرني منه ويخلصني إلا بلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي.

كما قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس).

(ومن يعص الله ورسوله) المعصية مخالفة الأمر، والمعنى: ومن يعص الله ورسوله بمخالفة أمر الله ورسوله وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله بالكفر والتكذيب، فالمراد بالمعصية هنا الكفر والتكذيب لقوله بعد ذلك (خالدين فيها أبدا).

(فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا) أي: فجزاؤه على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبدا، أي لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها.

- وفي هذا أن أهل النار يبقون فيها مخلدين لا يخرجون أبدا، لا تفنى ولا يفنى

=

=

أهلها، وقد ذكر الله تأبيد النار في ثلاثة مواضع من القرآن:

في سورة النساء.

قال تعالى (ولا ليهديهم سبيلا. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا).

وفي سورة الأحزاب.

قال تعالى (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا).

قال تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا).

وقال تعالى (وما هم بخارجين من النار).

وعن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (يؤتى بالموت على شكل كبش أملح فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت) متفق عليه.

وقال تعالى (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى).

وقال تعالى (سيذكر من يخشى. ويتجنبها الأشقى. الذي يصلى النار الكبرى. ثم لا يموت فيها ولا يحيى).

**قال ابن كثير**: أي لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه، بل هي مضرة عليه، لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال.

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ} [الجن: ٢٤]، أي:"حتى إذا أبصر المشركون ما يوعدون به من العذاب".

**قال الطبري**: يقول:"إذا عاينوا ما يعدهم ربهم من العذاب وقيام الساعة".

=

=

**قال ابن كثير**:"أي: حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة".

**قال السعدي**:"أي: شاهدوه عيانا، وجزموا أنه واقع بهم".

قال ابن عباس:"يريد يوم القيامة".

قوله تعالى: {فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا} [الجن: ٢٤]، أي:"فسيعلمون عند حلوله بهم: مَن أضعف ناصرًا ومعينًا وأقل جندًا؟".

**قال الطبري**: أي: "أجند الله الذي أشركوا به، أم هؤلاء المشركون به".

**قال ابن كثير**: أي: "فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرًا وأقل عددًا، هم أم المؤمنون الموحدون لله ﷻ، أي: بل المشركين لا ناصر لهم بالكلية، وهم أقل عددًا من جنود الله ﷻ".

**قال السعدي**:"{فَسَيَعْلَمُونَ} في ذلك الوقت حقيقة المعرفة {مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا} حين لا ينصرهم غيرهم ولا أنفسهم ينتصرون، وإذ يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة".

كما قال تعالى (حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة).

(من أضعف ناصرا وأقل عددا) أي: سيعلم المشركون من هم أضعف ناصرا ومعينا، وأقل نفرا وحيدا؟ هل هم أم المؤمنون الموحدون؟ ولا شك أن الله ناصر عباده المؤمنين، فهم الأقوى ناصرا والأكثر عددا، لأن الله معهم وملائكته الأبرار.

**مسألة:** في النهي عن بناء المساجد على القبور والنهي عن اتخاذ القبور مساجد).

ثبت في الحديث عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت (قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد قالت فلولا ذاك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا).

=

=

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

وعن عائشة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما حضرته الوفاة جعل يلقي على وجهه طرف خميصة له فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول: لعنة الله على اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. تقول عائشة يحذر مثل الذي صنعوا).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت (لما كان مرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذاكر بعض نسائه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها مارية وقد كانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة فذكرن من حسنها وتصاويرها قالت فرفع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأسه فقال أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة).

وعن جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يموت بخمس وهو يقول (قد كان لي فيكم إخوة وأصدقاء وإني أبراء إلى الله أن يكون لي فيكم خليل وإن الله عَزَّ وَجَلَّ قد اتخذني خليلا كما تخذ إبراهيم خليلا ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك).

وعن الحارث النجراني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال (سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يموت بخمس وهو يقول ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك).

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في مرضه الذي مات فيه أدخلوا علي أصحابي فدخلوا عليه وهو متقنع ببردة معافري فكشف القناع فقال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

وعن أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال (آخر ما تكلم به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخرجوا يهود

=

=

أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب واعلموا أن شرار الناس الذي اتخذوا وفي رواية: يتخذون قبور أنبيائهم مساجد).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لعن الله -وفي رواية: قاتل الله- اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (اللهم لا تجعل قبري وثنا لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم احياء ومن يتخذ القبور مساجد). وغيرها من الأحاديث.

**قال العلامة** الألباني في تحذير الساجد (ص٢٩): لقد تبين من الأحاديث السابقة خطر اتخاذ القبور مساجد وما على من فعل ذلك من الوعيد الشديد عند الله عز وجل فعلينا أن نفقه معنى الاتخاذ المذكور حتى نحذره فأقول:

الذي يمكن أن يفهم من هذا الاتخاذ إنما هو ثلاث معان:

الأول: الصلاة على القبور بمعنى السجود عليها.

**الثاني**: السجود إليها واستقبالها بالصلاة والدعاء.

**الثالث**: بناء المساجد عليها وقصد الصلاة فيها.

وبكل واحد من هذه المعاني قال طائفة من العلماء وجاءت بها نصوص صريحة عن سيد الأنبياء ﷺ.

أما الأول فقال ابن حجر الهيتمي في الزواجر (١/ ١٢١): واتخاذ القبر مسجدا معناه الصلاة عليه أو إليه. فهذا نص منه على أنه يفهم الاتخاذ المذكور شاملا لمعنيين أحدهما الصلاة على القبر.

وقال الصنعاني في سبل السلام (١/ ٢١٤): واتخاذ القبور مساجد أعم من أن

=

=

يكون بمعنى الصلاة إليها أو بمعنى الصلاة عليها "
قلت: يعني أنه يعم المعنيين كليهما ويحتمل انه أراد المعاني الثلاثة وهو الذي فهمه الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسيأتي نص كلامه في ذلك ويشهد للمعنى الأول أحاديث:
الأول: عن أبي سعيد الخدري: (أن رسول الله ﷺ نهى أن يبنى على القبور أو يقعد عليها أو يصلى عليها).
**الثاني**: قوله ﷺ: (لا تصلوا إلى قبر ولا تصلوا على قبر).
**الثالث**: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة إلى القبور).
**الرابع**: عن عمرو بن دينار – وسئل عن الصلاة وسط القبور قال: ذكر لي أن النبي ﷺ قال: (كانت بنو إسرائيل اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فعلنهم الله تعالى).
وأما المعنى الثاني: فقال المناوي في فيض القدير حيث شرح الحديث الثالث المتقدم: أي اتخذوها جهة قبلتهم مع اعتقادهم الباطل وإن اتخاذها مساجد لازم لاتخاذ المساجد عليها كعكسه وهذا بين به سبب لعنهم لما فيه من المغالاة في التعظيم. قال القاضي (يعني البيضاوي): لما كانت اليهود يسجدون لقبور أنبيائهم تعظيما لشأنهم ويجعلونها قبلة ويتوجهون في الصلاة نحوها فاتخذوها أوثانا لعنهم الله ومنع المسلمين عن مثل ذلك ونهاهم عنه
قلت: وهذا معنى قد جاء النهي الصريح عنه فقال ﷺ (لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها).
قال الشيخ علي القاري في المرقاة (٢/ ٣٧٢) معللا النهي: لما فيه من التعظيم البالغ كأنه من مرتبة المعبود ولو كان هذا التعظيم حقيقة للقبر أو لصاحبه لكفر المعظم فالتشبه به مكروه وينبغي ان تكون كراهة تحريم وفي معناه بل أولى منه

=

=

الجنازة الموضوعة (يعني قبلة المصلين) وهو مما ابتلي به أهل مكة حيث يضعون الجنازة عند الكعبة ثم يستقبلون إليها، قلت: يعني في صلاة الفريضة وهذا بلاء عام قد تعداه إلى بلاد الشام والأناضول وغيرها وقد وقفنا منذ شهر على صورة شمسية قبيحة جدا تمثل صفا من المصلين ساجدين تجاه نعوش مصفوفة أمامهم فيها جثث جماعة من الأتراك كانوا ماتوا غرقا في باخرة. وبهذه المناسبة نلفت النظر إلى أن الغالب من هديه ﷺ هو الصلاة على الجنائز في " المصلى خارج المسجد ولعل من حكمة ذلك إبعاد المصلين عن الوقوع في مثل هذه المخالفة التي نبه عليها العلامة القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونحو الحديث السابق ما روى ثابت البناني عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال (كنت أصلي قريبا من قبر فرآني عمر بن الخطاب فقال: القبر القبر فرفعت بصري إلى السماء وأنا أحسبه يقول: القمر).

وأما المعنى الثالث: فقد قال به الإمام البخاري فإنه ترجم للحديث الأول بقوله " باب ما يكره من اتخاذ القبور مسجدا على القبور " فقد أشار بذلك إلى أن النهي عن اتخاذ القبور مسجدا يلزم منه النهي عن بناء المساجد عليه وهذا أمر واضح وقد صرح به المناوي آنفا وقال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث: "قال الكرماني: مفاد الحديث منع اتخاذ القبر مسجدا ومدلول الترجمة اتخاذ المسجد على القبر ومفهومها متغاير ويجاب بأنهما متلازمان وإن تغاير المفهوم " وهذا المعنى هو الذي أشارت إليه السيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بقولها في آخر الحديث الأول:

فلولا ذاك أبرز قبره غير انه خشي أن يتخذ مسجدا إذ المعنى فلولا ذاك اللعن الذي استحقه اليهود والنصارى بسبب اتتخاذهم القبور مساجد المستلزم البناء عليها لجعل قبره ﷺ في أرض بارزة مكشوفة ولكن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يفعلوا ذلك خشية أن يبنى عليه مسجد من بعض من يأتي بعدهم فتشملهم اللعنة

=

=

ويؤيد هذا ماروى ابن سعد (٢ / ٢٤١) بسند صحيح عن الحسن وهو (البصري) قال: ائتمروا أن يدفنوه ﷺ في المسجد فقال عائشة: إن رسول الله ﷺ كان واضعا رأسه في حجري إذ قال: قاتل الله أقواما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد واجتمع رأيهم أن يدفنوه حيث قبض في بيت عائشة

قلت: هذه الرواية على إرسالها تدل على أمرين اثنين:

**أحدهما**: أن السيدة عائشة فهمت من الاتخاذ المذكور في الحديث انه يشمل المسجد الذي قد يدخل فيه القبر فبالأحرى أن يشمل المسجد الذي بني على القبر.

**الثاني**: أن الصحابة أقروها على هذا الفهم ولذلك رجعوا إلى رأيها فدفنوه ﷺ في بيتها.

فهذا يدل على أنه لا فرق بين بناء المسجد على القبر أو إدخال القبر في المسجد فالكل حرام لأن المحذور واحد ولذلك قال الحافظ العراقي:

فلو بنى مسجدا يقصد أن يدفن في بعضه دخل في اللعنة بل يحرم الدفن في المسجد وإن شرط ان يدفن فيه لم يصح الشرط لمخالفة وقفه مسجدا.

قلت: وفي هذا إشارة إلى أن المسجد والقبر لا يجتمعان في دين الإسلام كما تقدم ويأتي، ويشهد لهذا المعنى الحديث الخامس المتقدم بلفظ: أولئك قوم إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا... أولئك شرار الخلق...) فهو نص صريح في تحريم بناء المسجد على قبور الأنبياء والصالحين لأنه صرح أنه من أسباب كونهم من شرار الخق عند الله تعالى ويؤيده حديث جابر رضي الله عنه قال (نهى رسول الله ﷺ ان يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه)، فإنه بعمومه يشمل بناء المسجد على القبر كما يشمل بناء القبة عليه بل الأول أولى بالنهي كما لا يخفى، فثبت أن هذا المعنى صحيح أيضا يدل عليه لفظ (الاتخاذ)

=

=

وتؤيده الأدلة الأخرى، أما شمول الأحاديث للنهي عن الصلاة في المساجد المبنية على القبور فدلالتها على ذلك أوضح وذلك لأن النهي عن بناء المساجد على القبور يستلزم النهي عن الصلاة فيها من باب أن النهي عن الوسيلة يستلزم النهي عن المقصود بها والتوسل بها إليه مثاله إذا نهى الشارع عن بيع الخمر فالنهي عن شربه داخل في ذلك كما لا يخفى بل النهي عن من باب أولى، ومن البين جدا أن النهي عن بناء المساجد على القبور ليس مقصودا بالذات كما أن الأمر ببناء المساجد في الدور والمحلات ليس مقصودا بالذات بل ذلك كله من أجل الصلاة فيها سلبا أو إيجابا يوضح ذلك المثال الآتي: لو أن رجلا بنى مسجدا في مكان قفر غير مأهول ولا يأتيه أحد للصلاة فيه فليس لهذا الرجل أي أجر في بنائه لهذا المسجد بل هو عندي آثم لإضاعة المال ووضعه الشئ في غير محله

فإذا أمر الشارع ببناء المساجد فهو يأمر ضمنا بالصلاة فيها لأنها هي المقصودة بالبناء وكذلك إذا نهى عن بناء المساجد على القبور فهو ينهى ضمنا عن الصلاة فيها لأنها هي المقصودة بالبناء أيضا وهذا بين لا يخفى على العاقل إن شاء الله تعالى.

وجملة القول: أن الاتخاذ المذكور في الأحاديث المتقدمة يشمل كل هذه المعاني الثلاثة فهو من جوامع كلمه ﷺ وقد قال بذلك الإمام الشافعي رحمه الله ففي كتابه الأم (١/ ٢٤٦) ما نصه: وأكره أن يبنى على القبر مسجد وأن يسوى أو يصلى عليه وهو غير مسوى (يعني أنه ظاهر معروف) أو يصلى إليه قال وإن صلى إليه أجزأه وقد أساء أخبرنا مالك أن رسول الله ﷺ قال: قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد". قال: وأكره هذا للسنة والآثار وأنه كره والله تعالى أعلم أن يعظم أحد من المسلمين يعني يتخذ قبره مسجدا ولم تؤمن في ذلك

=

=

الفتنة والضلال على ما يأتي بعده.

فقد استدل بالحديث على المعاني الثلاثة التي ذكرها في سياق كلامه فهو دليل واضح على أنه يفهم الحديث على عمومه وكذلك صنع المحقق الشيخ على القارئ نقلا عن بعض أئمة الحنفية فقال في " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح " (١ / ٤٥): سبب لعنهم: إما لأنهم كانوا يسجدون لقبور أنبيائهم تعظيما لهم وذلك هو الشرك الجلي وإما لأنهم كانوا يتخذون الصلاة لله تعالى في مدافن الأنبياء والسجود على مقابرهم والتوجه إلى قبورهم حالة الصلاة نظرا منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء وذلك هو الشرك الخفي لتضمنه ما يرجع إلى تعظيم مخلوق فيما لم يؤذن له فنهى النبي ﷺ أمته عن ذلك إما لمشابهة ذلك الفعل سنة اليهود أو لتضحية الشرك الخفي. كذا قاله بعض الشراح من أئمتنا ويؤيده ما جاء في رواية: يحذر ما صنعوا.

قلت: والسبب الأول الذي ذكره وهو السجود لقبور الأنبياء تعظيما لهم وإن كان غير مستبعد حصوله من اليهود والنصارى فإنه غير متبادر من قوله ﷺ: "اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " فإن ظاهره أنهم اتخذوها مساجد لعبادة الله فيها على المعاني السابقة تبركا بمن دفن فيها من الأنبياء وإن كان هذا أدى بهم كما يؤدي بغيرهم إلى وقوعهم في الشرك الجلي ذكره الشيخ القارئ.

بعد أن تبين لنا معنى الاتخاذ الوارد في الأحاديث المتقدمة يحسن بنا أن نقف قليلا عند هذه الأحاديث لنتعرف منها حكم الاتخاذ المذكور مسترشدين في ذلك بما ذكره العلماء حوله فأقول:

إن كل من يتأمل في تلك الأحاديث الكريمة يظهر له بصورة لا شك فيها أن الاتخاذ المذكور يحرم بل كبيرة من الكبائر لأن اللعن الوارد فيها ووصف المخالفين بأنهم من شرار الخلق عند الله تبارك وتعالى لا يمكن أن يكون في حق

=

=
من يرتكب ما ليس كبيرة كما لا يخفى
وقد اتقفت المذاهب الأربعة على تحريم ذلك ومنهم من صرح بأنه كبيرة وإليك تفاصيل المذاهب في ذلك:
١ - مذهب الشافعية انه كبيرة: قال الفقيه ابن حجر الهيتمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٢٠): الكبيرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتسعون: اتخاذ القبور مساجد وإيقاد السرج عليها واتخاذها أوثانا والطواف بها واستلامها والصلاة إليها، ثم ساق بعض الأحاديث المتقدمة وغيرها ثم قال (ص ١١١): (تنبيه): عد هذه الستة من الكبائر وقع في كلام بعض الشافعية وكأنه أخذ ذلك مما ذكرته من الأحاديث ووجه اتخاذ القبر مسجدا منها واضح لأنه لعن من فعل ذلك بقبور أنبيائه وجعل من فعل ذلك بقبور صلحائه شر الخلق عند الله تعالى يوم القيامة ففيه تحذير لنا كما في رواية: يحذر ما صنعوا " أي يحذر أمته بقوله لهم ذلك من أن يصنعوا كصنع أولئك فيلعنوا كما لعنوا ومن ثم قال أصحابنا: تحرم الصلاة إلى قبور الأنبياء والأولياء تبركا وإعظاما ومثلها الصلاة عليه للتبرك والإعظام وكون هذا الفعل كبيرة ظاهرة من الأحاديث المذكورة لما علمت فقال بعض الحنابلة: "قصد الرجل الصلاة عند القبر متبركا به عين المحادة لله ولرسوله ﷺ وابتداع دين لم يأذن به الله للنهي عنها ثم إجماعا فإن أعظم المحرمات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد أو بناؤها عليها والقول بالكراهة محمول على غير ذلك إذ لا يظن بالعلماء تجويز فعل تواتر عن النبي ﷺ لعن فاعله ويجب المبادرة لهدمها وهدم القباب التي على القبور إذ هي أضر من مسجد الضرار لأنها أسست على معصية رسول الله ﷺ لأنه نهى عن ذلك وأمر رسول الله ﷺ بهدم القبور المشرفة وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر ولا يصح وقفه ونذره. انتهى " هذا كله كلام
=

=

الفقيه ابن حجر الهيتمي وأقره عليه المحقق الآلوسي في روح المعاني (٥/ ٣١) وهو كلام يدل على فهم وفقه في الدين وقوله فيما نقله عن بعض الحنابلة: والقول بالكراهة محمول على غير ذلك، كأنه يشير إلى قول الشافعي: وأكره أن يبنى على القبر مسجد.. " الخ كلامه الذي نقلته بتمامه فيما سبق، وعلى هذا أتباعه من الشافعية كما في التهذيب، وشرحه المجموع، ومن الغريب أنهم يحتجون على ذلك ببعض الأحاديث المتقدمة مع أنها صريحة في تحريم ذلك ولعن فاعله ولو أن الكراهة كانت عندهم للتحريم لقرب الأمر ولكنها لديهم للتنزيه فكيف يتفق القول ب (الكراهة) مع تلك الأحاديث التي يستدلون بها عليها؟

أقول هذا وإن كنت لا أستبعد حمل الكراهة في عبارة الشافعي المتقدمة خاصة على الكراهة التحريمية لأنه هو المعنى الشرعي المقصود في الاستعمال القرآني ولا شك أن الشافعي متأثر بأسلوب القرآن غاية التأثر فإذا وقفنا في كلامه على لفظ له معنى خاص في القرآن الكريم وجب حمله عليه لا على المعنى المصطلح عليه عند المتأخرين فقد قال تعالى {وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان} وهذه كلها محرمات فهذا المعنى والله اعلم هو الذي أراده الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله المتقدم " وأكره " ويؤيده انه قال عقب ذلك: "وإن صلى إليه أجزأه وقد أساء " فإن قوله " أساء " معناه ارتكب سيئة أي حراما فإنه هو المراد بالسيئة في أسلوب القرآن أيضا فقد قال تعالى في سورة (الإسراء) بعد أن نهى عن قتل الأولاد وقربان الزنى وقتل النفس وغير ذلك: (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) أي محرما ويؤكد أن هذا المعنى هو المراد من الكراهة في كلام الشافعي في هذه المسألة أن مذهبه أن الأصل في النهي التحريم إلا ما دل الدليل على أنه لمعنى آخر كما صرح بذلك في رسالته جماع العلم (ص ١٢٥) ونحوه

=

=

في كتابه الرسالة (ص ٣٤٣) ومن المعلوم لدى كل من درس هذه المسألة بأدلتها أنه لا يوجد أي دليل يصرف النهي الوارد في بعض الأحاديث المتقدمة إلى غير التحريم كيف والأحاديث تؤكد أنه للتحريم كما سبق؟ ولذلك فإني أقطع بأن التحريم هو مذهب الشافعي لا سيما وقد صرح بالكراهة بعد أن ذكر حديث " قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " كما تقدم فلا غرابة إذن إن صرح الحافظ العراقي وهو شافعي المذهب بتحريم بناء المسجد على القبر كما تقدم والله أعلم

ولهذا نقول: لقد اخطأ من نسب إلى الإمام الشافعي القول بإباحة تزوج الرجل بنته من الزنى بحجة أن صرح بكراهة ذلك والكراهة لا تنافي الجواز إذا كانت للتنزيه قال ابن القيم في " إعلام الموقعين " (١ / ٤٧٤٨): نص الشافعي على كراهة تزوج الرجل بنته من ماء الزنى ولم يقل قط أنه مباح ولا جائز والذي يليق بجلالته وإمامته ومنصبه الذي أحله الله به من الدين أن هذه الكراهة منه على وجه التحريم وأطلق لفظ الكراهة لأن الحرام يكرهه الله ورسوله ﷺ وقد قال تعالى عقب ذكر ما حرمه من المحرمات من عند قوله} وقضى ربك إلا تعبدوا إلا إياه...) إلى قوله} ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق...) إلى قوله (ولا تقف ما ليس لك به علم) إلى آخر الآيات ثم قال: (كل ذلك كان سيئه عند ركب مكروها) وفي الصحيح (أن الله عزوجل كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال) فالسلف كانوا يستعملون الكراهة في معناها الذي استعملت فيه في كلام الله ورسوله ﷺ ولكن المتأخرين اصطلحوا على تخصيص الكراهة بما ليس بمحرم وتركه أرجح من فعله ثم حمل من حمل منهم كلام الأئمة على الاصطلاح الحاديث فغلط في ذلك وأقبح غلطا منه من حمل لفظ الكراهة أو لفظ لا ينبغي في كلام الله ورسوله ﷺ على المعنى الاصطلاحي الحاديث "

=

=

وبهذه المناسبة نقول: إن من الواجب على أهل العلم أن ينتبهوا للمعاني الحديثة التي طرأت على الألفاظ العربية التي تحمل معاني خاصة معروفة عند العرب هي غير هذه المعاني الحديثة لأن القرآن نزل بلغة العرب فيجب أن تفهم مفرادته وجمله في حدود ما كان يفهم العرب الذين أنزل عليهم القرآن ولا يجوز أن تفسر بهذه المعاني الاصطلاحية الطارئة التي اصطلح عليها المتأخرون وإلا وقع المفسر بهذه المعاني في الخطأ والتقول على الله ورسوله ﷺ من حيث يشعر وقدقدمت مثلا على ذلك لفظ (الكراهة) وإليك مثالا آخر:

لفظ (السنة):. فإنه في اللغة الطريقة وهذا يشمل كل ما كان عليه الرسول ﷺ من الهدى والنور فرضا كان أو نفلا وأما اصطلاحا فهو خاص بما ليس فرضا من هديه ﷺ فلا يجوز أن يفسر بهذا المعنى الاصطلاحي لفظ (السنة) الذي ورد في بعض الأحاديث الكريمة كقوله ﷺ:"... وعليكم بسنتي... " وقوله ﷺ"... فمن رغب عن سنتي فليس مني " ومثله الحديث الذي يورده بعض المشايخ المتأخرين في الحض على التمسك بالسنة بمعناها الاصطلاحي وهو: "من ترك سنتي لم تنله شفاعتي " فأخطأوا مرتين:

الأولى: نسبتهم الحديث إلى النبي ﷺ ولا أصل له فيما نعلم

الثانية: تفسيرهم للسنة بالمعنى الاصطلاحي غفلة منهم عن معناها الشرعي وما أكثر ما يخطئ الناس فيما نحن فيه بسبب مثل هذه الغفلة

ولهذا أكثر ما نبه شيخ الإسلاوم ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهم الله على ذلك وأمروا في تفسير الألفاظ الشرعية بالرجوع إلى اللغة لا العرف وهذا في الحقيقة أصل لما يسمونه اليوم ب " الدراسة التاريخية للإلفاظ "

ويحسن بنا ان نشير إلى أن من أهم أغراض مجمع اللغة العربية في الجمهورية العربية المتحدة في مصر " وضع معجم تاريخي للغة العربية ونشر بحوث دقيقة

=

=

في تاريخ بعض الكلمات وما طرأ على مدلولاتها من تغيير " كما جاء في الفقرة الثانية من المادة الثانية من القانون ذي الرقم (٤٣٤) (١٩٥٥) الخاص بشأن تنظيم مجمع اللغة العربية (انظر " مجلة المجتمع " ج ٨ ص ٥). فعسى أن يقوم المجمع بهذا العمل العظيم ويعهد به إلى أيد عربية مسلمة فإن أهل مكة أدرى بشعابها وصاحب الدار أدرى بما فيها وبذلك يسلم هذا المشروع من كيد المستشرقين ومكر المستعمرين.

٢- مذهب الحنفية الكراهة التحريمية، والكراهة بهذا المعنى الشرعي قد قال به هنا الحنفية فقال الإمام محمد تلميذ أبي حنيفة في كتابه " الآثار " (ص ٤٥):

لا نرى أن يزاد على ما خرج من القبر ونكره أن يجصص أو يطين أو يجعل عنده مسجدا

والكراهة عن الحنفية إذا أطلقت فهي للتحريم كما هو معروف لديهم وقد صرح بالتحريم في هذه المسألة ابن الملك منهم كما يأتي.

٣- مذهب المالكية التحريم: وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٣٨) بعد أن ذكر الحديث الخامس: "قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد".

٤- مذهب الحنابلة التحريم: ومذهب الحنابلة التحريم أيضا كما في شرح المنتهى (١ / ٣٥٣) وغيره بل نص بعضهم على بطلان الصلاة في المساجد المبنية على القبور ووجوب هدمها فقال ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٢٢) في صدد بيان ما تضمنته غزوة تبوك من الفقه والفوائد وبعد أن ذكر قصة مسجد الضرار الذي نهى الله تبارك وتعالى نبيه أن يصلي فيه وكيف أنه ﷺ هدمه وحرقه قال: ومنها تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله ﷺ فيها مسجد يصلى فيه ويذكر اسم الله فيه لما كان بناؤه ضررا وتفريقا بين المؤمنين ومأوى

=

=

للمنافقين وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله إما بهدم أو تحريق وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أندادا من دون الله أحق بذلك وأوجب وكذلك محال المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات وقد حرق عمر بن الخطاب قرية بكاملها يباع فيها الخمر وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماه فويسقا وحرق قصر سعد لما احتجب عن الرعية وهم رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تاركي حضور الجماعة والجمعة، -متفق عليه- وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم كما أخبر هو عن ذلك. ومنها أن الوقف لا يصح على غير بر ولا قربة كما لم يصح وقف هذا المسجد وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد نص على ذلك الإمام أحمد وغيره فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر بل أيهما طرأ على الآخر منع منه وكان الحكم للسابق فلو وضعا معا لم يجز ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز ولا تصح الصلاة في هذا المسجد لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك ولعنه من اتخذ القبر مسجدا أو أوقد عليه سراجا فهذا دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله ونبيه وغربته بين الناس كما ترى".

فتبين مما نقلناه عن العلماء أن المذاهب الأربعة متفقة على ما أفادته الأحاديث المتقدمة من تحريم بناء المساجد على القبور. وقد نقل اتفاق العلماء على ذلك اعلم الناس بأقوالهم ومواضع اتفاقهم واختلافهم ألا وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد سئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما نصه:

هل تصح الصلاة على المسجد إذا كان فيه قبر والناس تجتمع فيه لصلاتي الجماعة والجمعة أم لا؟ وهل يمهد القبر أو يعمل عليه حاجز أو حائط؟

=

=

**فأجاب**: الحمدلله اتفق الأئمة أنه لا يبنى مسجد على قبر لأن النبي ﷺ قال: إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك". وأنه لا يجوز دفن ميت في مسجد فإن كان المسجد قبل الدفن غير إما بتسوية القبر وإما بنبشه إن كان جديدا وإن كان المسجد بني على بعد القبر فإما أن يزال المسجد وإما تزال صورة القبر فالمسجد الذي على القبر لا يصلى فيه فرض ولا نفل فإنه منهي عنه " كذا في الفتاوى له (١ / ١٠٧ / ٢ / ١٩٢)، وقد تبنت دار الإفتاء في الديار المصرية فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية هذه فنقلتها عنه في فتوى لها أصدرتها تنص على عدم جواز الدفن في المسجد فليراجعها من شاء في " مجلة الأزهر " (ج ١١٢ ص ٥٠١ و ٥٠٣).

وقال ابن تيمية في الاختيارات العلمية (ص ٥٢): يحرم الإسراج على القبور واتخاذ القبور المساجد عليها وبينها ويتعين إزالتها ولا أعلم فيه خلافا بين العلماء المعروفين، ونقله ابن عروة الحنبلي في " الكواكب الدراري " (٢ / ٢٤٤ / ١) وأقره، وهكذا نرى أن العلماء كلهم اتفقوا على ما دلت عليه الأحاديث من تحريم اتخاذ المساجد على القبور فنحذر المؤمنين من مخالفتهم والخروج عن طريقتهم خشية أن يشملهم وعيد قوله ﷻ (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا)

(وإن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) ا.هـ

وقال أيضا في الثمر المستطاب (١/ ٤٧٩-٤٨٦): من أحكام المساجد: أن لا يبنيه على قبر فإنه يحرم ذلك لما روته عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في مرضه الذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت: «فلولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن

=

=

يتخذ مسجدا» وقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»

الحديث الأول من حديث عائشة والآخر من حديث أبي هريرة وكلاهما صحيح....

وفي هذه الأحاديث تحريم بناء المساجد على القبور فإن البناء من معاني اتخاذ المساجد على القبور،... وقد جاء في بعض الروايات مصرحًا بذلك بلفظ: «بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة». أخرجاه.

وقد ذهب إلى التحريم كثير من العلماء فقال الإمام محمد في كتابه «الآثار»:

«ولا نرى أن يزاد على ما خرج منه «القبر» ونكره أن يجصص أو يطين ويجعل عنده مسجدًا»

والكراهة عنده للتحريم عند الإطلاق وأما الشافعي فقال في «الأم»: «وأكره أن يبنى على القبر مسجد قال: أكره هذه للسنة والآثار وإنه كره- والله أعلم- أن يعظم أحد من المسلمين- يعني يتخذ قبره مسجدًا- ولم تؤمن في ذلك الفتنة والضلال على من يأتي بعده».

وفي «المجموع»: «واتفقت نصوص الشافعي والأصحاب على كراهة بناء مسجد على القبر، سواء كان الميت مشهورًا بالصلاح، أو غيره لعموم الأحاديث».

قلت: لكن الكراهة عندهم للتنزيه. ومن الدليل على ذلك أنهم قالوا: ويكره أن يصلي على قبر. فقال النووي:

«هكذا قالوا: (يكره) ولو قيل: يحرم لحديث أبي مرثد وغيره مما سبق لم يبعد» فلو أن النووي رَحِمَهُ اللَّهُ قال مثل هذا في قول أصحابه بكراهة البناء لكان أحق وأولى؛ لأن النهي عن البناء أشد وأرهب منه عن الصلاة إلى القبر، كما لا يخفى

=

=

على من وقف على الأحاديث الواردة في هذا الموضوع، ولذلك قال شيخ الإسلام في «الاقتضاء»:

«فأما بناء المساجد على القبور فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه متابعة للأحاديث، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي وغيرهما بتحريمه، ومن العلماء من أطلق فيه لفظ الكراهة (كأنه يشير إلى الشافعي) فما أدري عنى به التنزيه أو التحريم؟ ولا ريب في القطع بتحريمه».

ثم ساق الأحاديث الواردة في هذا الباب. وقال القرطبي في «تفسيره» ما ملخصه: «فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهي عنه؛ ممنوع».

ثم ذكر حديث عائشة الأخير ثم قال: «قال علماؤنا (المالكية): وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد».وقال شيخ الإسلام أيضًا في «تفسير سورة الإخلاص»:

«قال العلماء: يحرم بناء المساجد على القبور. ويجب هدم كل مسجد بني على قبر، وإن كان الميت قد قبر في مسجد، وقد طال مكثه؛ سوي القبر حتى لا تظهر صورته، فإن الشرك إنما يحصل إذا ظهرت صورته، ولهذا كان مسجد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- أولًا مقبرة للمشركين، وفيها نخل، وخرب، فأمر بالقبور فنبشت، وبالنخل فقطع، وبالخرب فسويت، فخرج عن أن يكون مقبرة فصار مسجدًا، ولما كان اتخاذ القبور مساجد وبناء المساجد عليها محرمًا لم يكن شيء من ذلك على عهد الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يكن يعرف قط مسجد على قبر».

هذا وقد يتوهم أن المحذور إنما هو اتخاذ المساجد على القبور بعد الدفن لا لو بني المسجد أولًا، وجعل القبر في جانبه ليدفن فيه واقف المسجد أو غيره، قال

=

=

الشوكاني:

«قال العراقي: والظاهر أنه لا فرق، وإنه إذا بني المسجد لقصد أن يدفن في بعضه أحد فهو داخل في اللعنة، بل يحرم الدفن في المسجد وإن شرطوا أن يدفن فيه لم يصح الشرط لمخالفته لمقتضى وقفه مسجدًا، والله أعلم».

فإن قيل: فما قصة قبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فإنا نراه الآن في مسجده -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ قلت: الجواب في شرح مسلم للنووي حيث قال:

«قال العلماء: إنما نهى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدًا؛ خوفًا من المبالغة في التعظيم والافتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية، ولما احتاجت الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين والتابعون إلى الزيادة في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة رضي الله عنها مدفن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما- بنو على القبر حيطانًا مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد فيصلي إليه العوام ويؤدي إلى المحذور، ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر، ولهذا قالت في الحديث:

«ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا».

وفي ذكره الصحابة في هذه القصة نظر وإن تبعه على ذلك العيني في «العمدة» فإن ذلك لم يقع بحضور أي صحابي فقد قال ابن عبد الهادي في «الصارم المنكي»:

«وكان على عهد الخلفاء الراشدين والصحابة حجرته خارجة عن المسجد ولم يكن بينهم وبينه إلا الجدار، ثم إنه إنما أدخلت الحجرة في المسجد في خلافة

=

=

الوليد بن عبد الملك بعد موت عامة الصحابة الذين كانوا بالمدينة، وكان من آخرهم موتا جابر بن عبد الله، وتوفي في خلافة عبد الملك فإنه توفي سنة ثمان وسبعين، والوليد تولى سنة ست وثمانين، وتوفي سنة ست وتسعين، فكان بناء المسجد وإدخال الحجرة فيه فيما بين ذلك، وقد ذكر أبو زيد عمر بن شبة النميري في كتاب «أخبار المدينة» - مدينة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- عن أشياخه وعمن حدثوا عنه: أن عمر بن عبد العزيز لما كان نائبًا للوليد على المدينة في سنة إحدى وتسعين هدم المسجد، وبناه بالحجارة المنقوشة، وعمل سقفه بالساج وماء الذهب، وهدم حجرات أزواج النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فأدخلها في المسجد وأدخل القبر فيه».

ثم ذكر ابن عبد الهادي عن شيخ الإسلام ابن تيمية:

«أن المسجد لما زاد فيه الوليد وأدخلت فيه الحجرة كان قد مات عامة الصحابة، ولم يبق إلا من أدرك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولم يبلغ سن التمييز الذي يؤمر فيه بالطهارة والصلاة، ومن المعلوم بالتواتر أن ذلك كان في خلافة الوليد بن عبد الملك، وقد ذكروا أن ذلك كان سنة إحدى وتسعين، وأن عمر بن عبد العزيز مكث في بنائه ثلاث سنين وسنة ثلاث وتسعين مات فيها خلق كثير من التابعين مثل سعيد بن المسيب وغيره من الفقهاء السبعة، ويقال لها: سنة الفقهاء».

وبالجملة فإنما أدخلوا قبر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مسجده لحاجة توسيعه، والظاهر أنهم لم يجدوا فسحة من الجهات الأخرى ليزيدوا منها إلى المسجد وقد كان عمر وعثمان رضي الله عنهما قد زادا فيه من جهة القبلة فاضطروا إلى أخذ الزيادة من جهة الحجرات، فصار بذلك قبره في المسجد الشريف، ولكنهم- مع حاجتهم إلى هذا العمل- قد احتاطوا للأمر حيث فصلوا القبر عن

=

=

المسجد فصلًا تامًا بالجدر المرفوعة حسمًا للمحذور كما سبق ذكره عن النووي، والله تعالى أعلم ا.هـ

**وقال العلامة** ابن باز في مجموع فتاواه (١/ ٤٣٤): تشييد المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وآثارهم مما جاءت الشريعة الإسلامية الكاملة بالمنع منه والتحذير عنه، ولعن من فعله؛ لكونه من وسائل الشرك والغلو في الأنبياء والصالحين، والواقع شاهد بصحة ما جاءت به الشريعة، ودليل على أنها من عند الله عزوجل، وبرهان ساطع وحجة قاطعة على صدق رسول الله ﷺ فيما جاء به عن الله وبلغه الأمة، وكل من تأمل أحوال العالم الإسلامي وما حصل فيه من الشرك والغلو بسبب إشادة المساجد على الأضرحة وتعظيمها وفرشها وتجميلها واتخاذ السدنة لها علم يقينا أنها من وسائل الشرك، وأن من محاسن الشريعة الإسلامية المنع منها والتحذير من إشادتها.... والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وقد نص الأئمة من علماء المسلمين من جميع المذاهب الأربعة وغيرهم على النهي عن اتخاذ المساجد على القبور وحذروا من ذلك، عملا بسنة الرسول ﷺ، ونصحا للأمة وتحذيرا لها أن تقع فيما وقع فيه من قبلها من غلاة اليهود والنصارى وأشباههم من ضلال هذه الأمة.

وقد تعلق بعض الناس في هذا الباب بقوله ﷻ في قصة أهل الكهف: (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) (الكهف:٢١)

والجواب عن ذلك أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى أخبر عن الرؤساء وأهل السيطرة في ذلك الزمان أنهم قالوا هذه المقالة، وليس ذلك على سبيل الرضا والتقرير لهم وإنما هو على سبيل الذم والعيب والتنفير من صنيعهم، ويدل على ذلك أن الرسول ﷺ الذي أنزلت عليه هذه الآية وهو أعلم الناس بتأويلها قد نهى أمته عن اتخاذ المساجد على القبور، وحذرهم من ذلك ولعن وذم من فعله، ولو

=

=

كان ذلك جائزا لما شدد رسول الله ﷺ في ذلك التشديد العظيم وبالغ في ذلك حتى لعن من فعله، وأخبر أنه من شرار الخلق عند الله ﷻ، وهذا فيه كفاية ومقنع لطالب الحق، ولو فرضنا أن اتخاذ المساجد على القبور جائز لمن قبلنا لم يجز لنا التأسي بهم في ذلك؛ لأن شريعتنا ناسخة للشرائع قبلها ورسولنا عليه الصلاة والسلام هو خاتم الرسل وشريعته كاملة عامة وقد نهانا عن اتخاذ المساجد على القبور، فلم تجز لنا مخالفته، ووجب علينا اتباعه والتمسك بما جاء به وترك ما خالف ذلك من الشرائع القديمة، والعادات المستحسنة عند من فعلها؛ لأنه لا أكمل من شرع الله ولا هدي أحسن من هدي رسول الله ﷺ، والله المسئول أن يوفقنا والمسلمين جميعا للثبات على دينه والتمسك بشريعة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام في الأقوال والأعمال، والظاهر والباطن، وفي سائر الشئون حتى نلقى الله ﷻ وإنه سميع قريب وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. ا.هـ.

**وقال العلامة** ابن باز أيضا: المساجد التي فيها قبور لا يصلى فيها، ويجب أن تنبش القبور وينقل رفاتها إلى المقابر العامة، ويجعل رفات كل قبر في حفرة خاصة كسائر القبور، ولا يجوز أن يبقى في المساجد قبور، لا قبر ولي ولا غيره؛ لأن الرسول ﷺ نهى وحذر من ذلك، ولعن اليهود والنصارى على عملهم ذلك... فنهى عليه الصلاة والسلام عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من فعل ذلك، وأخبر: أنهم شرار الخلق، فالواجب الحذر من ذلك.

ومعلوم أن كل من صلى عند قبر فقد اتخذه مسجدا، ومن بنى عليه مسجدا فقد اتخذه مسجدا، فالواجب أن تبعد القبور عن المساجد، وألا يجعل فيها قبور؛ امتثالا لأمر الرسول ﷺ، وحذرا من اللعنة التي صدرت من ربنا ﷻ لمن بنى المساجد على القبور؛ لأنه إذا صلى في مسجد فيه قبور قد يزين له الشيطان دعوة

=

=

الميت، أو الاستغاثة به، أو الصلاة له، أو السجود له، فيقع الشرك الأكبر، ولأن هذا من عمل اليهود والنصارى، فوجب أن نخالفهم، وأن نبتعد عن طريقهم، وعن عملهم السيئ. لكن لو كانت القبور هي القديمة ثم بني عليها المسجد، فالواجب هدمه وإزالته؛ لأنه هو المحدث، كما نص على ذلك أهل العلم؛ حسما لأسباب الشرك وسدا لذرائعه. والله ولي التوفيق" مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٤٦).

وسئلت اللجنة الدائمة للإفتاء (١/ ٤١١): قام أهل بلدتنا بهدم مسجد لكي يعيدوا بناءه وكان هذا المسجد مقاما على قبر، وبعد أن بدءوا البناء ارتفع هذا البناء على القبر، ولم يضعوه خارج المسجد، فما حكم التبرع لهذا المسجد ؟ وهل تجوز الصلاة فيه بعد بنائه على القبر؟ مع العلم بأن القبر في حجرة وبابها في المسجد.

فأجابت: إذا كان الواقع ما ذكر فلا يجوز التبرع لبناء هذا المسجد، ولا المشاركة في بنائه، ولا تجوز الصلاة فيه، بل يجب هدمه" انتهى.

**وقال العلامة** العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في الشرح الممتع: "قوله: «ولا تصح الصلاة في مقبرة» نفي الصحة يقتضي الفساد؛ لأن كل عبادة إما أن تكون صحيحة، وإما أن تكون فاسدة، ولا واسطة بينهما، فهما نقيضان شرعا، فإذا انتفت الصحة ثبت الفساد.

وقوله: «الصلاة» يعم كل ما يسمى صلاة، سواء كانت فريضة أم نافلة... فإذا قال قائل: ما الدليل على عدم صحة الصلاة في المقبرة ؟ قلنا الدليل:

**أولا**: قول النبي ﷺ: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام»، وهذا استثناء، والاستثناء معيار العموم.

**ثانيا**: قول النبي ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»

=

=

والمساجد هنا قد تكون أعم من البناء؛ لأنه قد يراد به المكان الذي يبنى، وقد يراد به المكان الذي يتخذ مسجدا وإن لم يبن؛ لأن المساجد جمع مسجد، والمسجد مكان السجود، فيكون هذا أعم من البناء.

**ثالثا**: تعليل؛ وهو أن الصلاة في المقبرة قد تتخذ ذريعة إلى عبادة القبور، أو إلى التشبه بمن يعبد القبور، ولهذا لما كان الكفار يسجدون للشمس عد طلوعها وغروبها، نهى النبي ﷺ عن الصلاة عند طلوعها وغروبها؛ لئلا يتخذ ذريعة إلى أن تعبد الشمس من دون الله، أو إلى أن يتشبه بالكفار.

وأما من علل ذلك بأن علة النهي عن الصلاة في المقبرة خشية أن تكون المقبرة نجسة، فهذا تعليل عليل، بل ميت لم تحل فيه الروح " انتهى من "الشرح الممتع" (٢/ ٢٣٧).

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في مجموع فتاواه (١٢/ ٣٧٤): "عن حكم الصلاة في مسجد في قبلته قبر؟

**فأجاب**: لا يجوز أن يوضع في المسجد قبر، لا في قبلته ولا خلف المصلين، ولا عن أيمانهم، ولا عن شمائلهم، وإذا دفن أحد في المسجد ولو كان هو المؤسس له فإنه يجب أن ينبش هذا القبر وأن يدفن مع الناس، أما إذا كان القبر سابقا على المسجد وبني المسجد عليه، فإنه يجب أن يهدم المسجد وأن يبعد عن القبر، لأن فتنة القبور في المساجد عظيمة جدا فربما يدعو إلى عبادة هذا المقبور ولو بعد زمن بعيد، وربما يدعو إلى الغلو فيه، وإلى التبرك به وهذا خطر عظيم على المسلمين، لكن إن كان القبر سابقا وجب أن يهدم المسجد ويغير مكانه، وإن كان المسجد هو الأول فإنه يجب أن يخرج هذا الميت من قبره ويدفن مع المسلمين، والصلاة إلى القبر محرمة ولا تصح الصلاة إلى القبر لقوله ﷺ: (لا تصلوا إلى القبور)، والله المستعان " انتهى.

=

=

* **مسألة**: حكم الصلاة في المسجد الذي أمامه مقبرة؟

**قال العلامة** العثيمين في لقاءات الباب المفتوح: إذا صلى الإنسان في مسجد أمامه مقبرة، فإن كان هناك فاصل؛ شارع مثلًا أو جدار تام، بحيث يكون المصلون لا يشاهدون المقبرة فلا بأس بذلك، أما إذا كان قريبًا يلي المسجد مباشرة، وليس فيه جدار أو فيه جدار قصير، بحيث يشاهد المصلون هذه القبور فإنه لا يجوز؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: (لا تصلوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها) ا.هـ

وقال الشيخ الفوزان في مجموع فتاواه (١/ ٣٤١): إذا كانت القبور مفصولة عن المسجد ولم يبن المسجد من أجلها، وإنما يبنى للصلاة فيه، والمقبرة في مكان منعزل عنه، ولم يقصد وضع المقبرة عند المسجد، ولم يقصد وضع المسجد عند المقبرة، وإنما كل منهما وضع في مكانه، وبينهما فاصل، فلا مانع من الصلاة في المسجد؛ لأن هذا المسجد لم يُقم على قبور، وإن كانت المقبرة قريبة منه، أما إذا كان المسجد قد أقيم على القبور، فلا تجوز الصلاة فيه ولا تصح؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الصلاة عند القبور، ونهى عن بناء المساجد على القبور، وشدَّد في ذلك ولعن من فعله، لأن هذا وسيلة إلى الشرك بالله ﷻ؛ ولأن هذا من عمل النصارى والمشركين، فبناء المساجد على القبور من الأمور الممنوعة في الشريعة الإسلامية، والتي لعن الرسول ﷺ من فعلها، وكذلك الصلاة عند القبور، حتى لو لم يكن عليها مساجد، وإذا بني عليها مساجد فالأمر أشد، ولكن حتى الصلاة عند القبور ولو لم تكن قد بني عليها مساجد، فهي ممنوعة ومنهي عنها، والنبي ﷺ نهى عن الصلاة عند القبور أو إلى القبور؛ لأن هذا من وسائل الشرك ا.هـ

وسئل العلامة الوادعي كما في تحفة المجيب (ص٦٦): ما حكم الصلاة في

=

المسجد الذي أمامه مقبرة؟

**فأجاب**: الصلاة في المسجد الذي أمامه مقبرة خارج جدار المسجد صحيحة، لأنّ النهي عن الصلاة في المسجد الذي فيه مقبرة، كما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: (الأرض كلّها مسجد، إلاّ المقبرة والحمّام).

وفي "صحيح مسلم" من حديث جندب عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: (ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتّخذوا القبور مساجد، إنّي أنْهاكم عن ذلك).

وحديث: أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: (لا تصلّوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها) فهذا إذا كانت الصلاة إليها بدون حائط أو جدار. أما إذا وجد الجدار أو الحائط وهي خارج المسجد، فالصلاة صحيحة إن شاء الله.

* **مسألة**: هل فتحت نافذة فوق قبر الرسول ﷺ للاستسقاء؟

ورد في هذه المسألة حديث أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال: (قحط أهل المدينة قحطا شديدا، فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبى ﷺ فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف قال ففعلوا، فمطرنا مطرا حتى نبت العشب وسمنت الإبل، حتى تفتقت من الشحم، فسمى عام الفتق)، والكوى: جمع "كوة" وهي الفتحة.

رواه الدارمي (١/ ٥٦) رقم (٩٢) تحت باب: ما أكرم الله تعالى نبيه بعد موته.

قال الدارمي: حدثنا أبو النعمان، ثنا سعيد بن زيد، ثنا عمرو بن مالك النكري حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبد الله قال:... ثم ذكر الحديث.

وهذا الأثر ضعيف، لا يصح، وقد بين العلامة الألباني ضعفه، فقال في كتابه: التوسل (ص١٢٨): "وهذا سند ضعيف لا تقوم به حجة لأمور ثلاثة:

=

أولها: أن سعيد بن زيد وهو أخو حماد بن يزيد فيه ضعف. قال فيه الحافظ في التقريب: صدوق له أوهام. وقال الذهبي في الميزان: قال يحيى بن سعيد: ضعيف. وقال السعدي: ليس بحجة، يضعفون حديثه. وقال النسائي وغيره: ليس بالقوي. وقال أحمد: ليس به بأس، كان يحيى بن سعيد لا يستمرئه".

وثانيها: أنه موقوف على عائشة وليس بمرفوع إلى النبي ﷺ، ولو صح لم تكن فيه حجة، لأنه يحتمل أن يكون من قبيل الآراء الاجتهادية لبعض الصحابة مما يخطئون فيه ويصيبون، ولسنا ملزمين بالعمل بها.

وثالثها: أن أبا النعمان هذا هو محمد بن الفضل يعرف بعارم وهو وإن كان ثقة فقد اختلط في آخر عمره. وقد أورده الحافظ برهان الدين الحلبي في "الاغتباط بمن رمي بالاختلاط" تبعا لابن الصلاح حيث أورده في (المختلطين) من كتابه "المقدمة" وقال: "والحكم فيهم أنه يقبل حديث من أخذ عنهم قبل الاختلاط، ولا يقبل من أخذ عنهم بعد الاختلاط، أو أشكل أمره فلم يدر هل أخذ عنه قبل الاختلاط أو بعده".

قلت (الألباني): وهذا الأثر لا يدرى هل سمعه الدارمي منه قبل الاختلاط أو بعده، فهو إذن غير مقبول، فلا يحتج به.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على البكري: وما روي عن عائشة رضي الله عنها من فتح الكوة من قبره إلى السماء لينزل المطر فليس بصحيح، ولا يثبت إسناده، ومما يبين كذب هذا: أنه في مدة حياة عائشة لم يكن للبيت كوة بل كان باقيا كما كان على عهد النبي ﷺ، بعضه مسقوف، وبعضهم مكشوف، وكانت الشمس تنزل فيه، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ كان يصلي العصر والشمس في حجرتها لم يظهر الفيء. بعد ولم تزل الحجرة كذلك حتى زاد الوليد بن عبد الملك في المسجد في إمارته لما زاد الحجر في مسجد الرسول

=

=

ﷺ.. ومن حينئذ دخلت الحجرة النبوية في المسجد ثم إنه بنى حول حجرة عائشة التي فيها القبر جدارا عاليا وبعد ذلك جعلت الكوة لينزل منها من ينزل إذا احتيج إلى ذلك لأجل كنس أو تنظيف. وأما وجود الكوة في حياة عائشة فكذب بين" انتهى.

**ثانيا**: ليس في هذا الحديث -على فرض ثبوته- دليل لما يعتقده غلاة الصوفية من جواز الاستغاثة بالنبي محمد ﷺ، فأنت لا تجد في الحديث شيئا يدل على ذلك من قريب أو من بعيد، وغاية ما فيه إثبات كرامة للنبي ﷺ بعد موته، كما وصفها الدارمي في مسنده في تبويب الحديث، وهي بركة جسده الطاهر، وقدره الشريف عند الله تعالى، ولا يعني ذلك جواز أن يذهب المسلمون إليه ليستغيثوا به وهو في قبره، والصحابة رضوان الله عليهم لم يفعلوا ذلك، إنما كشفوا كوة من سقف حجرته ليواجه السماء، ولم يطلب أحد منهم السقيا من النبي ﷺ، ولا خاطبوه بحاجتهم إلى ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في اقتضاء الصراط المستقيم (ص/ ٣٣٨): قصد القبور للدعاء عندها، ورجاء الإجابة بالدعاء هناك رجاء أكثر من رجائها بالدعاء في غير ذلك الموطن: أمر لم يشرعه الله ولا رسوله ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أئمة المسلمين، ولا ذكره أحد من العلماء والصالحين المتقدمين، بل أكثر ما ينقل من ذلك عن بعض المتأخرين بعد المائة الثانية.

وأصحاب رسول الله ﷺ قد أجدبوا مرات، ودهمتهم نوائب غير ذلك، فهلا جاءوا فاستسقوا واستغاثوا عند قبر النبي ﷺ ؟!

بل خرج عمر بالعباس فاستسقى به (أي بدعائه)، ولم يستسق عند قبر النبي ﷺ، بل قد روي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها كشفت عن قبر النبي ﷺ لينزل المطر، فإنه رحمة تنزل على قبره، ولم تستسق عنده، ولا استغاثت هناك" انتهى.

=

=

❊ **مسألة**: إذا بنى مسجدا وأوصى أن يدفن فيه.
هذه الوصية باطلة، مخالفة للشرع، فلا يجتمع في الإسلام مسجد وقبر أبدا، والحكم للسابق منهما، وطالما أن المسجد هو الذي بني أولا، فيجب نبش القبر وإخراجه من المسجد، ويدفن الميت مع المسلمين في المقابر.
قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في زاد المعاد" (٣/ ٥٧٢):"يهدم المسجد إذا بني على قبر، كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد، نص على ذلك الإمام أحمد وغيره، فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق، فلو وضعا معا لم يجز، ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز، ولا تصح الصلاة في هذا المسجد؛ لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك ولعنه من اتخذ القبر مسجدا، أو أوقد عليه سراجا، فهذا دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله ونبيه وغربته بين الناس كما ترى " انتهى.
وقد سئل العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ مثل هذا السؤال، فأجاب:"هذه الوصية أعني الوصية أن يدفن في المسجد غير صحيحة؛ لأن المساجد ليست مقابر، ولا يجوز الدفن في المسجد، وتنفيذ هذه الوصية محرم، والواجب الآن نبش هذا القبر وإخراجه إلى مقابر المسلمين " انتهى.
❊ **مسألة**: هل قبر إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحجر؟
**قال العلامة** الألباني في تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد (٩٩) وأما ما ذكر في بعض الكتب أن قبر إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره في الحجر من المسجد الحرام وهو أفضل مسجد يتحرى الصلاة فيه فالجواب:
لا شك أن المسجد الحرام أفضل المساجد والصلاة فيه بمائة ألف صلاة ولكن هذه الفضيلة أصلية فيه منذ رفع قواعده إبراهيم مع ابنه اسماعيل عليهما السلام ولم تطرأ هذه الفضيلة عليه بدفن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيه لو صح أنه دفن فيه، ومن
=

=

زعم خلاف ذلك فقد ضل ضلالا بعيدا وجاء بما لم يقله أحد من السلف الصالح رضي الله عنهم ولا جاء به حديث تقوم الحجة به.

فإن قيل: لا شك فيما ذكرت ودفن إسماعيل فيه لا يخالف ذلك ولكن ألا يدل هذا على الأقل على عدم كراهية الصلاة في المسجد الذي فيه قبر ؟

**فالجواب**: كلا ثم كلا وهاك البيان من وجوه:

الأول: أنه لم يثبت في حديث مرفوع أن اسماعيل عليه السلام أو غيره من الأنبياء الكرام دفنوا في المسجد الحرام ولم يرد شئ من ذلك في كتاب من كتب السنة المعتمدة كالكتب الستة ومسند أحمد ومعاجم الطبراني الثلاثة وغيرها من الدواوين المعروفة وذلك من أعظم علامات كون الحديث ضعيفا بل موضوعا عند بعض المحققين.

وغاية ما وري في ذلك من آثار معضلات بأسانيد واهيات موقوفات أخرجها الأزرقي في أخبار مكة (ص ٣٩ و ٢١٩ و ٢٢٠) فلا يلتفت إليها وإن ساقها بعض المبتدعة مساق المسلمات. ونحو ذلك ما أورد السيوطي في الجامع من رواية الحاكم في الكنى عن عائشة مرفوعا بلفظ: (إن قبر إسماعيل في الحجر).

**الوجه** الثاني: أن القبور المزعوم وجودها في المسجد الحرام غير ظاهرة و لا بارزة ولذلك لا تقصد من دون الله تعالى فلا ضرر من وجودها في بطن أرض المسجد فلا يصح حينئذ الاستدلال بهذه الآثار على جواز اتخاذ المساجد على قبور مرتفعة على وجه الأرض لظهور الفرق بين الصورتين وبهذا أجاب الشيخ على القاري رحمه الله تعالى فقال في مرقاة المفاتيح (١/ ٤٥٦) بعد أن حكى قول المفسر الذي أشرت إليه في التعليق: وذكر غيره أن صورة قبر إسماعيل عليه السلام في الحجر تحت الميزاب وأن في الحطيم بين الحجر الأسود وزمزم قبر سبعين نبيا.

قال القاري: وفيه أن صورة قبر إسماعيل عليه السلام وغيره مندرسة فلا يصلح

=

=

الاستدلال. وهذا جواب عالم نحرير وفقيه خريت وفيه الإشارة إلى ما ذكرناه آنفا وهو أن العبرة في هذه المسألة بالقبور الظاهرة وأن ما في بطن الأرض من القبور فلا يرتبط به حكم شرعي من حيث الظاهر بل الشريعة تنزه عن مثل هذا الحكم لأننا نعلم بالضرورة والمشاهدة أن الأرض كلها مقبرة الأحياء كما قال تعالى:(ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا) قال الشعبي (بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم)

ومنه قول الشاعر:

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب * فأين القبور من عهد عاد ؟

خفف الوطأ ما أظن اديم * الأرض إلا من هذه الأجساد

سر إن استطعت في الهواء رويدا * لا اختيالا على رفات العباد

ومن البين الواضح أن القبر إذا لم يكن ظاهرا غير معروفا مكانه فلا يترتب من وراء ذلك مفسدة كما هو مشاهد حيث ترى الوثنيات والشركيات إنما تقع عند القبور المشرفة حتى ولو كانت مزورة لا عند القبور المندرسة ولو كانت حقيقة فالحكمة تقتضي التفريق بين النوعين وهذا ما جاءت به الشريعة كما بينا سابقا فلا يجوز التسوية بينهما والله المستعان.

* **مسألة**: تفسير قوله تعالى في سورة الكهف (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا).

**قال العلامة** الألباني في تحذير الساجد (ص٦٥): أما الشبهة الأولى فالجواب عنها من ثلاثة وجوه:

الأول: أن الصحيح المتقرر في علم الأصول أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا لأدلة كثيرة منها قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحدا من الأنبياء قبلي... (فذكرها، وآخرها) وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة

=

=

وبعثت إلى الناس كافة).

فإذا تبين هذا فلسنا ملزمين بالأخذ بما في الآية لو كانت تدل على أن جواز بناء المسجد على القبر كان شريعة لمن قبلنا!

**الثاني**: هب أن الصواب قول من قال: «شريعة من قبلنا شريعة لنا» فذلك مشروط عندهم بما إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه وهذا الشرط معدوم هنا لأن الأحاديث تواترت في النهي عن البناء المذكور كما سبق فذلك دليل على أن ما في الآية ليس شريعة لنا.

**الثالث**: لا نسلم أن الآية تفيد أن ذلك كان شريعة لمن قبلنا غاية ما فيها أن جماعة من الناس قالوا: {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا} فليس فيها التصريح بأنهم كانوا مؤمنين، وعلى التسليم فليس فيها أنهم كانوا مؤمنين صالحين، متمسكين بشريعة نبي مرسل، بل الظاهر خلاف ذلك، قال الحافظ ابن رجب في «فتح الباري في شرح البخاري» (٦٥/ ٢٨٠) من «الكواكب الدراري» في شرح حديث: «لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»

«وقد دل القرآن على مثل ما دل عليه هذا الحديث، وهو قول الله ﷻ في قصة أصحاب الكهف: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا} فجعل اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يشعر بان مستنده القهر والغلبة وإتباع الهوى وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله على رسله من الهدى»

وقال الشيخ علي بن عروة في «مختصر الكوكب» (١٠/ ٢٠٧/ ٢) تبعا للحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٧٨): حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين:

**أحدهما**: أنهم المسلمون منهم.

والثاني: أهل الشرك منهم. فالله أعلم والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب

=

=

الكلمة والنفوذ، ولكن هم محمودون أم لا؟ فيه نظر لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما فعلوا، وقد روينا عن عمر بن الخطاب أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدها عنده فيها شيء من الملاحم وغيرها»

إذا عرفت هذا، فلا يصح الاحتجاج بالآية على وجه من الوجوه، وقال العلامة المحقق الآلوسي في روح المعاني (٥/ ٣١): واستدل بالآية على جواز البناء على قبور العلماء واتخاذ مسجد عليها، وجواز الصلاة في ذلك وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجي في حواشيه على البيضاوي، وهو قول باطل عاطل، فاسد كاسد، فقد روي.... ثم ذكر بعض الأحاديث المتقدمة وأتبعها بكلام الهيتمي في «الزواجر» مقرا له عليه وقد نقلته فيما سبق ثم نقل عنه في كتابه شرح المنهاج ما نصه: وقد أفتى جمع بهدم كل ما بقرافة مصر من الأبنية حتى قبة الإمام الشافعي عليه الرحمة، التي بناها بعض الملوك وينبغي لكل أحد هدم ذلك ما لم يخش منه مفسدة، فيتعين الرفع للإمام آخذًا من كلام ابن الرفعة في الصلح. انتهى» ثم قال الإمام الآلوسي:

لا يقال: إن الآية ظاهرة في كون ما ذكر من شرائع من قبلنا وقد استدل بها فقد روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: (من نام عن صلاة أو نسيها) الحديث ثم تلا قوله تعالى {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}، وهو مقول لموسى عليه السلام وسياقه الاستدلال... واحتج أبو يوسف على جري القود بين الذكر والأنثى بآية {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ}، والكرخي على جريه بين الحر والعبد والمسلم والذمي بتلك الآية الواردة في بني إسرائيل إلى غير ذلك لأنا نقول: مذهبنا في شرع من قبلنا وإن كان أنه يلزمنا على أنه شريعتنا لكن لا مطلقا بل إن قص الله تعالى علينا بلا إنكار،

=

=

وإنكار رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- كإنكاره ﷺ.

وقد سمعت أنه عليه الصلاة والسلام لعن الذين يتخذون المساجد على القبور، على أن كون ما ذكر من شرائع من قبلنا ممنوع، وكيف يمكن أن يكون اتخاذ المساجد على القبور من الشرائع المتقدمة مع ما سمعت من لعن اليهود والنصارى حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، والآية ليست كالآيات التي ذكرنا آنفا احتجاج الأئمة بها، وليس فيها أكثر من حكاية قول طائفة من الناس وعزمهم على فعل ذلك، وليست خارجة مخرج المدح لهم والحض على التأسي بهم فمتى لم يثبت أن فيهم معصوما لا يدل على فعلهم عن عزمهم على مشروعية ما كانوا بصدده.

ومما يقوي قلة الوثوق بفعلهم القول بأن المراد بهم الأمراء والسلاطين كما روي عن قتادة.

وعلى هذا لقائل أن يقول: إن الطائفة الأولى كانوا مؤمنين عالمين بعدم مشروعية اتخاذ المساجد على القبور، فأشاروا بالبناء على باب الكهف وسده وكف التعرض لأصحابه، فلم يقبل الأمراء منهم، وغاظهم ذلك حتى أقسموا على اتخاذ المسجد.

وإن أبيت إلا حسن الظن بالطائفة الثانية فلك أن تقول: إن اتخاذهم المسجد عليهم ليس على طراز اتخاذ المساجد على القبور المنهي عنه، الملعون فاعله، وإنما هو اتخاذ مسجد عندهم وقريبا من كهفهم وقد جاء التصريح بالعندية في رواية القصة عن السدي ووهب ومثل هذا الاتخاذ ليس محذورًا إذ غاية ما يلزم على ذلك أن يكون نسبة المسجد إلى الكهف الذي هم فيه كنسبة المسجد النبوي إلى المرقد المعظم صلى الله تعالى على من فيه وسلم ويكون قوله ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ على هذا لمشاكلة قول الطائفة ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ﴾.

=

=

وإن شئت قلت: إن ذلك الاتخاذ كان على كهف فوق الجبل الذي هو فيه، وفيه خبر مجاهد أن الملك تركهم في كهفهم وبنى علي كهفهم مسجدًا، وهذا أقرب لظاهر اللفظ كما لا يخفى وهذا كله إنما يحتاج إليه على القول بأن أصحاب الكهف ماتوا بعد الإعثار عليهم وأما على القول بأنهم ناموا كما ناموا أولا فلا يحتاج إليه على ما قيل.

وبالجملة لا ينبغي لمن له أدنى رشد أن يذهب إلى خلاف ما نطقت الأخبار الصحيحة والآثار الصريحة، معولًا على الاستدلال بهذه الآية، فإن ذلك في الغواية غاية وفي قلة النهى نهاية ولقد رأيت من يبيح ما يفعله الجهلة في قبور الصالحين من إشرافها، وبنائها بالجص والآجر وتعليق القناديل عليها، والصلاة إليها والطواف بها واستلامها، والاجتماع عندها في أوقات مخصوصة إلى غير ذلك محتجًا بهذه الآية الكريمة وبما جاء في بعض روايات القصة من جعل الملك لهم في كل سنة عيدًا، وجعله إياهم في توابيت من ساج، ومقيسًا لبعض على بعض وكل ذلك محادة لله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وابتداع دين لم يأذن به الله

عَزَّوَجَلَّ.

ويكفيك في معرفة الحق تتبع ما صنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسل في قبره عليه الصلاة والسلام وهو أفضل قبر على وجه الأرض والوقوف على أفعالهم في زيارتهم له والسلام عليه فتتبع ذاك وتأمل ما هنا وما هناك والله سبحانه يتولى هداك».

قلت: وقد استدل بالآية المذكورة على الجواز المزعوم بل على استحباب بناء المساجد على القبور بعض المعاصرين لكن من وجه آخر مبتدع مغاير بعض الشيء لما سبق حكايته ورده فقال ما نصه:

=

=

«والدليل من هذه الآية إقرار الله إياهم على ما قالوا وعدم رده عليهم».

قلت: هذا الاستدلال باطل من وجهين:

الأول: أنه لا يصح أن يعتبر عدم الرد عليهم إقرارا لهم، إلا إذا ثبت أنهم كانوا مسلمين وصالحين متمسكين بشريعة نبيهم، وليس في الآية ما يشير أدنى إشارة إلى أنهم كانوا كذلك بل يحتمل أنهم لم يكونوا كذلك، وهذا هو الأقرب أنهم كانوا كفارًا أو فجارًا، كما سبق من كلام ابن رجب وابن كثير وغيرهما وحينئذ فعدم الرد عليهم لا يعد إقرارًا، بل

إنكارًا، لأن حكاية القول عن الكفار والفجار يكفي في رده عزوه إليهم فلا يعتبر السكوت عليه إقرارًا كما لا يخفى، ويؤيده الوجه الآتي:

**الثاني**: أن الاستدلال المذكور إنما يستقيم على طريقة أهل الأهواء من الماضين والمعاصرين الذين يكتفون بالقرآن فقط دينًا، ولا يقيمون للسنة وزنًا، وأما على طريقة أهل السنة والحديث الذين يؤمنون بالوحيين، مصدقين بقوله -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث الصحيح المشهور: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه». وفي رواية: «ألا إن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله».

فهذا الاستدلال عندهم- والمستدل يزعم أنه منهم- باطل ظاهر البطلان، لأن الرد الذي نفاه قد وقع في السنة المتواترة كما سيق فكيف يقول: إن الله أقرهم ولم يرد عليهم مع أن الله لعنهم على لسان نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- فأي رد أوضح وأبين من هذا؟!

وما مثل من يستدل بهذه الآية على خلاف الأحاديث المتقدمة؛ إلا كمثل من يستدل على جواز صنع التماثيل والأصنام بقوله تعالى في الجن الذين كانوا مذللين لسليمان عليه السلام: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ} (٢) يستدل بها على خلاف الأحاديث الصحيحة

=

=

التي تحرم التماثيل والتصاوير وما يفعل ذلك مسلم يؤمن بحديثه -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وبهذا ينتهي الكلام عن الشبهة الأولى وهي الاستدلال بآية الكهف والجواب عنها وعن ما تفرع منها.

* **مسألة**: الرد على شبهة كون قبر النبي ﷺ في مسجده الشريف ولو كان ذلك لا يجوز لما دفنوه ﷺ في مسجده.

قد تكلم العلماء قديما وحديثا في هذه المسألة، وردوا على من استدل بوجود قبر النبي ﷺ في مسجده على جواز اتخاذ القبور مساجد، أو إدخال القبور في المساجد، وسنذكر هاهنا بعض أقوال علمائنا المحققين، وفيها تفصيل ما في الرد على هذه الشبهة.

**قال العلامة** الألباني في تحذير الساجد(ص٧٨): وأما الشبهة الثانية وهي أن قبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في مسجده كما هو مشاهد اليوم، ولو كان ذلك حراما لم يدفن فيه.

والجواب: أن هذا وإن كان هو المشاهد اليوم، فإنه لم يكن كذلك في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، فإنهم لما مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم دفنوه في حجرته في التي كانت بجانب مسجده، وكان يفصل بينهما جدار فيه باب، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخرج منه إلى المسجد، وهذا أمر معروف مقطوع به عند العلماء، ولا خلاف في ذلك بينهم، والصحابة رضي الله عنهم حينما دفنوه صلى الله عليه وآله وسلم في الحجرة، إنما فعلوا ذلك كي لا يتمكن أحد بعدهم من اتخاذ قبره مسجدًا، كما سبق بيانه في حديث عائشة وغيره، ولكن وقع بعدهم ما لم يكن في حسبانهم ذلك أن الوليد بن عبد الملك أمر سنة ثمان وثمانين بهدم المسجد النبوي وإضافة حجر أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليه

=

=

فأدخل فيه الحجرة النبوية حجرة عائشة فصار القبر بذلك في المسجد.

ولم يكن في المدينة أحد من الصحابة حينذاك خلافًا لم توهم بعضهم.

**قال العلامة** الحافظ محمد ابن عبد الهادي في الصارم المنكي (ص١٣٦): وإنما أدخلت الحجرة في المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك، بعد موت عامة الصحابة الذين كانوا بالمدينة، وكان آخرهم موتا جابر بن عبد الله، وتوفي في خلافة عبد الملك فإنه توفي سنة ثمان وسبعين، والوليد تولى سنة ست وثمانين، وتوفي سنة ست وتسعين، فكان بناء المسجد وإدخال الحجرة فيه فيما بين ذلك.

وقد ذكر أبو زيد عمر بن شبة النميري في «كتاب أخبار المدينة» مدينة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- عن أشياخه عمن حدثوا عنه أن عمر بن عبد العزيز لما كان نائبًا للوليد على المدينة في سنة إحدى وتسعين هدم المسجد وبناه بالحجارة المنقوشة بالساج وماء الذهب، وهدم حجرات أزواج النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فأدخلها في المسجد وأدخل القبر فيه».

يتبين لنا مما أوردناه أن القبر الشريف إنما أدخل إلى المسجد النبوي حين لم يكن في المدينة أحد من الصحابة وإن ذلك كان على خلاف غرضهم الذي رموا إليه حين دفنوه في حجرته -صلى الله عليه وآله وسلم-، فلا يجوز لمسلم بعد أن عرف هذه الحقيقة أن يحتج بما وقع بعد الصحابة، لأنه مخالف للأحاديث الصحيحة وما فهم الصحابة والأئمة منها كما سبق بيانه، وهو مخالف أيضا لصنيع عمر وعثمان حين وسعا المسجد، ولم يدخلا القبر فيه.

ولهذا نقطع بخطأ ما فعله الوليد بن عبد الملك عفا الله عنه، ولئن كان مضطرا إلى توسيع المسجد، فإنه كان باستطاعته أن يوسعه من الجهات الأخرى دون أن يتعرض للحجرة الشريفة وقد أشار عمر بن الخطاب إلى هذا النوع من الخطأ حين قام هو رضي الله عنه بتوسيع المسجد من الجهات الأخرى ولم يتعرض للحجرة

=

=

بل قال «إنه لا سبيل إليها» فأشار ﵁ إلى المحذور الذي يترقب من جراء هدمها وضمها إلى المسجد.

ومع هذه المخالفة الصريحة للأحاديث المتقدمة وسنة الخلفاء الراشدين، فإن المخالفين لما أدخلوا القبر النبوي في المسجد الشريف احتاطوا للأمر شيئًا ما فحاولوا تقليل المخالفة ما أمكنهم قال النووي في «شرح مسلم» (٥/ ١٤):

«ولما احتاجت الصحابة والتابعون إلى الزيادة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين كثر المسلمون، وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة ﵂ مدفن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبيه أبي بكر وعمر ﵄ بنوا على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد، فيصلي إليه العوام، ويؤدي إلى المحذور، ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا، حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر».

ونقل الحافظ ابن رجب في الفتح نحوه عن القرطبي كما في الكواكب (٦٥/ ٩١/ ١) وذكر ابن تيمية في الجواب الباهر (ق ٩/ ٢): أن الحجرة لما أدخلت إلى المسجد سد بابها، وبني عليها حائط آخر صيانة له صلى الله عليه وآله وسلم أن يتخذ بيته عيدًا وقبره وثنًا».

قلت: ومما يؤسف له أن هذا البناء قد بني عليه منذ قرون- إن لم يكن قد أزيل- تلك القبة الخضراء العالية وأحيط القبر الشريف بالنوافذ النحاسية والزخارف والسجف وغير ذلك مما لا يرضاه صاحب القبر نفسه صلى الله عليه وآله وسلم.

بل قد رأيت حين زرت المسجد النبوي الكريم وتشرفت بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سنة ١٣٦٨ هـ رأيت في أسفل حائط القبر الشمالي محرابًا صغيرًا ووراءه سدة مرتفعة عن أرض المسجد قليلا، إشارة إلى أن هذا

=

=

المكان خاص للصلاة وراء القبر فعجبت حينئذ كيف ضلت هذه الظاهرة الوثنية قائمة حتى في عهد دولة التوحيد!

أقول هذا مع الاعتراف بأنني لم أر أحدًا يأتي ذلك المكان للصلاة فيه، لشدة المراقبة من قبل الحرس الموكلين على منع الناس من أن يأتوا بما يخالف الشرع عند القبر الشريف فهذا مما تشكر عليه الدولة السعودية، ولكن هذا لا يكفي ولا يشفي وقد كنت قلت منذ ثلاث سنوات في كتابي «أحكام الجنائز وبدعها» (٢٠٨ من أصلي): «فالواجب الرجوع بالمسجد النبوي إلى عهده السابق، وذلك بالفصل بينه وبين القبر النبوي بحائطٍ، يمتد من الشمال إلى الجنوب بحيث أن الداخل إلى المسجد لا يرى فيه أي مخالفة لا ترضى مؤسسه -صلى الله عليه وآله وسلم- اعتقد أن هذا من الواجب على الدولة السعودية إذا كانت تريد أن تكون حامية التوحيد حقا وقد سمعنا أنها أمرت بتوسيع المسجد مجددا فلعلها تتبنى اقتراحنا هذا وتجعل الزيادة من الجهة الغربية وغيرها وتسد بذلك النقص الذي سيصيبه سعة المسجد إذا نفذ الاقتراح أرجو أن يحقق الله ذلك على يدها ومن أولى بذلك منها؟». ولكن المسجد وسع منذ سنتين تقريبا دون إرجاعه إلى ما كان عليه في عهد الصحابة والله المستعان ا.هـ

**وقال العلامة** ابن باز في مجموع فتاواه (١٠/ ٣٠٦): أما احتجاج بعض الجهلة بوجود قبر النبي ﷺ، وقبر صاحبيه في مسجده فلا حجة في ذلك؛ لأن الرسول ﷺ دفن في بيته وليس في المسجد، ودفن معه صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ولكن لما وسع الوليد بن عبد الملك بن مروان المسجد أدخل البيت في المسجد؛ بسبب التوسعة، وغلط في هذا، وكان الواجب أن لا يدخله في المسجد؛ حتى لا يحتج الجهلة وأشباههم بذلك، وقد أنكر عليه أهل العلم ذلك، فلا يجوز أن يقتدى به في هذا، ولا يظن ظان أن هذا من جنس البناء على

=

=

القبور أو اتخاذها مساجد؛ لأن هذا بيت مستقل أدخل في المسجد؛ للحاجة للتوسعة، وهذا من جنس المقبرة التي أمام المسجد مفصولة عن المسجد لا تضره، وهكذا قبر النبي ﷺ مفصول بجدار وقضبان.

وينبغي للمسلم أن يبين لإخوانه هذا؛ حتى لا يغلطوا في هذه المسألة. والله ولي التوفيق ا.هـ

**وقال العلامة** العثيمين في القول المفيد شرح كتاب التوحيد كما في مجمموع فتاواه (٩/ ٣٩٣): اعتراض وجوابه: إذا قال قائل: نحن الآن واقعون في مشكلة بالنسبة لقبر الرسول ﷺ الآن، فإنه في وسط المسجد، فما هو الجواب؟

قلنا: الجواب على ذلك من وجوه:

**الوجه** الأول: أن المسجد لم يبن على القبر، بل بني المسجد في حياة النبي ﷺ.

**الوجه** الثاني: أن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد حتى يقال: إن هذا من دفن الصالحين في المسجد، بل دفن في بيته.

**الوجه** الثالث: أن إدخال بيوت الرسول ﷺ، ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس باتفاق من الصحابة، بل بعد أن انقرض أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل، وذلك عام ٩٤هـ تقريبا، فليس مما أجازة الصحابة أو أجمعوا عليه، مع أن بعضهم خالف في ذلك، وممن خالف أيضا سعيد بن المسيب من التابعين، فلم يرض بهذا العمل.

**الوجه** الرابع: أن القبر ليس في المسجد، حتى بعد إدخاله، لأنه في حجرة مستقلة عن المسجد، فليس المسجد مبنيا عليه، ولهذا جعل هذا المكان محفوظا ومحوطا بثلاثة جدران، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة، أي مثلث، والركن في الزاوية الشمالية، بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلى لأنه منحرف.

**وقال العلامة** العثيمين أيضا: أما قبر النبي ﷺ الذي شمله المسجد النبوي فمن

=

=

المعلوم أن مسجد النبي ﷺ بني قبل موته فلم يبن على القبر، ومن المعلوم أيضا أن النبي ﷺ لم يدفن فيه، وإنما دفن في بيته المنفصل عن المسجد، وفي عهد الوليد بن عبد الملك كتب إلى أميره على المدينة وهو عمر بن عبد العزيز في سنة ٨٨ من الهجرة أن يهدم المسجد النبوي ويضيف إليه حجر زوجات النبي ﷺ، فجمع عمر وجوه الناس والفقهاء وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين الوليد فشق عليهم ذلك، وقالوا: تركها على حالها أدعى للعبرة، ويحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة، كأنه خشي أن يتخذ القبر مسجدا فكتب عمر بذلك إلى الوليد فأرسل الوليد إليه يأمره بالتنفيذ فلم يكن لعمر بد من ذلك، فأنت ترى أن قبر النبي ﷺ لم يوضع في المسجد، ولم يبن عليه المسجد، فلا حجة فيه لمحتج على الدفن في المساجد أو بنائها على القبور، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد "، قال ذلك وهو في سياق الموت تحذيرا لأمته مما صنع هؤلاء، ولما ذكرت له أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كنيسة رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصور قال: "أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا، أولئك شرار الخلق عند الله "، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: "إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون من القبور مساجد " أخرجه الإمام أحمد بسند جي، والمؤمن لا يرضى أن يسلك مسلك اليهود والنصارى، ولا أن يكون من شرار الخلق. "مجموع فتاوى العلامة العثيمين" (١٢/ السؤال رقم ٢٩٢).

(فرع): قال العلامة الألباني في تحذير الساجد(ص١٧٨): ثم اعلم أن الحكم السابق يشمل كل المساجد كبيرها وصغيرها قديمها وحديثها لعموم الأدلة، فلا يستثنى من ذلك مسجد فيه قبر إلا المسجد النبوي الشريف لأن له فضيلة خاصة

=

=

لا توجد في شيءٍ من المساجد على القبور، وذلك لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام [فإنه أفضل])، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم أيضا: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة).

ولغير ذلك من الفضائل، فلو قيل بكراهة الصلاة فيه كان معنى ذلك تسويته مع غيره من المساجد، ورفع هذه الفضائل عنه، وهذا لا يجوز كما هو ظاهر وهذا المعنى استفدناه من كلام ابن تيمية السابق (ص ١٢٧- ١٢٨) في بيان سبب إباحة صلاة ذوات الأسباب في الأوقات المنهي عنها، فكما أن الصلاة أبيحت في هذه الأوقات لأن في المنع منها تضييعًا لها بحيث لا يمكن استدراك فضلها لفوات وقتها، فكذلك يقال في الصلاة في مسجده -صلى الله عليه وآله وسلم-

.ثم وجدت ابن تيمية صرح بهذا فقال في كتابه الجواب الباهر في زوار المقابر (ص ٢٢/ ١- ٢): والصلاة في المساجد المبنية على القبور منهي عنها مطلقًا بخلاف مسجده -صلى الله عليه وآله وسلم- فإن الصلاة فيه بألف صلاة، فإنه أسس على التقوى وكانت حرمته في حياته -صلى الله عليه وآله وسلم-، وحياة خلفائه الراشدين قبل دخول الحجرة فيه، وإنما أدخلت بعد انقراض عصر الصحابة». ثم قال (٦٧/ ١٦٩/ ٢): «وكان المسجد قبل دخول الحجرة فيه فاضلا وكان فضيلة المسجد بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بناه لنفسه، وللمؤمنين يصلي لله هو والمؤمنون إلى يوم القيامة، ففضل بنيانه له، فكيف وقد قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام». وقال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا».

وهذه الفضيلة ثابتة له قبل أن يدخل فيه الحجرة، فلا يجوز أن يظن أنه صار

=

=

بدخول الحجرة فيه أفضل مما كان، وهم لم يقصدوا دخول الحجرة فيه، وإنما قصدوا توسيعه بإدخال حجر أزواج النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فدخلت الحجرة فيه ضرورة مع كراهة من كره ذلك من السلف».

ثم قال (٥٥/ ١- ٢): «ومن اعتقد أنه قبل القبر لم تكن له فضيلة إذ كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يصلي فيه والمهاجرون والأنصار، وإنما حدثت له الفضيلة في خلافة الوليد بن عبد الملك لما أدخل الحجرة في مسجده فهذا لا يقوله إلا جاهل مفرط في الجهل، أو كافر، فهو مكذب لما جاء عنه مستحق للقتل، وكان الصحابة يدعون في مسجده كما كانوا يدعون في حياته، لم تحدث لهم شريعة غير الشريعة التي علمهم إياها في حياته.. بل نهاهم أن يتخذوا قبره عيدًا، أو قبر غيره مسجدًا يصلون فيه لله ﷻ ليسد ذريعة الشرك، فصلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا، وجزاه أفضل ما جزى نبيا عن أمته، فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه».

* **مسألة**: هل مسجد الخيف فيه قبر سبعين نبيا.

**قال العلامة** الألباني في تحذير الساجد (ص٩٣): وأما الشبهة الثالثة وهي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى في مسجد الخيف وقد ورد في الحديث أن فيه قبر سبعين نبيًا!.

**فالجواب**: إننا لا نشك في صلاته صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المسجد ولكننا نقول: إن ما ذكر في الشبهة من أنه دفن فيه سبعون نبيا لا حجة فيه من وجهين:

الأول: أننا لا نسلم صحة الحديث المشار إليه، لأنه لم يروه أحد ممن عني بتدوين الحديث الصحيح ولا صححه أحد ممن يوثق بتصحيحه من الأئمة

=

=

المتقدمين ولا النقد الحديثي يساعد على تصحيحه، فإن في إسناده من يروي الغرائب وذلك مما يجعل القلب لا يطمئن لصحة ما تفرد به.

قال الطبراني في معجمه الكبير (٣/ ٢٠٤/ ٢): حدثنا عبدان بن أحمد نا عيسى بن شاذان نا أبو همام الدلال نا إبراهيم بن طمهان عن منصور عن مجاهد عن ابن عمر مرفوعا بلفظ: «في مسجد الخيف قبر سبعين نبيًا». وأورده الهيثمي «المجمع» (٣/ ٢٩٨) بلفظ:"... قبر سبعون نبيا»، وقال: «رواه البزار ورجاله ثقات».

وهذا قصور منه في التخريج فقد أخرجه الطبراني أيضا كما رأيت.

قلت: ورجال الطبراني ثقات أيضا غير عبدان بن أحمد وهو الأهوازي كما ذكر الطبراني في المعجم الصغير (ص ١٣٦) ولم أجد له ترجمة وهو غير عبدان بن محمد المروزي وهو من شيوخ الطبراني أيضا في الصغير (ص١٣٦) وغيره وهو ثقة حافظ له ترجمة في تاريخ بغداد (١١/ ١٣٥) وتذكرة الحفاظ (٢/ ٢٣٠) وغيرها.

لكن في رجال هذا الإسناد من يروي الغرائب مثل عيسى بن شاذان، قال فيه ابن حبان في الثقات: «يغرب». وإبراهيم بن طهمان، قال فيه ابن عمار الموصلي: «ضعيف الحديث مضطرب الحديث». وهذا على إطلاقه وإن كان مردودًا على ابن عمار فهو يدل على أن في حديث ابن طهمان شيئًا، ويؤيده قول ابن حبان في ثقات أتباع التابعين (٢/ ١٠): «أمره مشتبه له مدخل في الثقات، ومدخل في الضعفاء وقد روى أحاديث مستقيمة تشبه أحاديث الأثبات، وقد تفرد عن الثقات بأشياء معضلات سنذكره إن شاء الله في كتاب الفصل بين النقلة إن قضى الله سبحانه ذلك وكذلك كل شيءٍ توقفنا في أمره ممن له مدخل في الثقات».

ولذلك قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب: «ثقة يغرب» وشيخه منصور- وهو

=

=

ابن المعتمر- ثقة، وقد روى له ابن طهمان حديثا آخر في مشيخته (٢٤٤/ ٢).
فالحديث من غرائبه أو من غرائب ابن شاذان. وأنا أخشى أن يكون الحديث تحرف على أحدهما فقال: «قُبر» بدل «صلى»، لأن هذا اللفظ الثاني هو المشهور في الحديث فقد أخرج الطبراني في الكبير (٣/ ١٥٥١) بإسناد رجاله ثقات عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعا: «صلى في مسجد الخيف سبعون نبيا... » الحديث. وكذلك رواه الطبراني في «الأوسط» (١/ ١١٩/ ٢- زوائده) وعنه المقدسي في المختارة (٢٤٩/ ٢) والمخلص في «الثالث من السادس من المخلصيات» (٧٠/ ١) وأبو محمد بن شيبان العدل في «الفوائد» (٢/ ٢٢٢/ ٢) وقال المنذري (٢/ ١١٦): «رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن» ولا شك في حسن الحديث عندي، فقد وجدت له طريقًا أخرى عن ابن عباس رواه الأزرقي في «أخبار مكة» (ص ٣٥) عنه موقوفا عليه وإسناده يصلح للاستشهاد به، كما بينته في كتابي الكبير «حجة الوداع» (ولم ينجز بعد). ثم رواه الأزرقي (ص ٣٨) من طريق محمد بن إسحاق قال: حدثني من لا أتهم عن عبد الله بن عباس به موقوفا. فهذا هو المعروف في هذا الحديث والله أعلم. وجملة القول أن الحديث ضعيف لا يطمئن القلب لصحته فإن صح فالجواب عنه من الوجه الآتي وهو:

**الثاني**: أن الحديث ليس فيه أن القبور ظاهرة في مسجد الخيف، وقد عقد الأزرقي في تاريخ مكة (٤٠٦- ٤١٠) عدة فصول في وصف مسجد الخيف، فلم يذكر أن فيه قبورًا بارزة، ومن المعلوم أن الشريعة إنما تبنى أحكامها على الظاهر، فإذا ليس في المسجد المذكور قبور ظاهرة، فلا محظور في الصلاة فيه البتة، لأن القبور مندرسة ولا يعرفها أحد بل لولا هذا الخبر الذي عرفت ضعفه لم يخطر في بال أحد أن في أرضه سبعين قبرًا! ولذلك لا يقع فيه تلك المفسدة التي تقع

=

=

عادة في المساجد المبنية على القبور الظاهرة والمشرفة.

* **مسألة:** شبهة بناء أبي جندل رَضِوَٱللَّهُعَنهُ مسجدا على قبر أبي بصير رَضِوَٱللَّهُعَنهُ في عهد النبي صلى الله عليه.

**قال العلامة** الألباني في تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد (ص١٠٥): أما بناء أبي جندل رَضِوَٱللَّهُعَنهُ مسجدا على قبر أبي بصير رَضِوَٱللَّهُعَنهُ في عهد النبي ﷺ فشبهة لا تساوي حكايتها ولولا أن بعض ذوي الأهواء من المعاصرين اتكأ عليها في رد تلك الأحاديث المحكمة لما سمحت لنفسي أن أسود الصفحات في سبيل الجواب عنها وبينا بطلانها والكلام عليها من وجهين:

الأول: رد ثبوت البناء المزعوم من أصله لأنه ليس له إسناد تقوم الحجة به ولم يروه أصحاب الصحاح ولسنن والمسانيد وغيرهم وإنما أورده ابن عبد البر في ترجمة أبي بصير من الاستيعاب (٤ / ٢١٢٣) مرسلا فقال: وله قصة في المغازي عجيبة ذكرها ابن إسحاق وغيره وقد رواها معمر عن ابن شهاب. ذكر عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب في قصة عام الحديبية قال: (ثم رجع رسول الله ﷺ فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلت قريش في طلبه رجلين فقالا لرسول الله ﷺ: العهد الذي جعلت لنا أن ترد إلينا كل من جاءك مسلما. فدفعه النبي ﷺ إلى الرجلين فخرجا حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا جيد يا فلان فاستله الآخر وقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت فقال له أبو بصير أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الاخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد بعده فقال له النبي ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعرا فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال يا رسول الله قد والله وفى الله ذمتك: قد رددتني إليهم فأنجاني الله منهم فقال النبي ﷺ ويل أمه

=

=

مسعر حرب لو كان معه أحد فلما سمع ذلك علم أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر قال: وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو فلحق بأبي بصير... وذكر موسى بن عقبة هذا الخبر في أبي بصير بأتم ألفاظا وأكمل سياقا قال:... وكتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير ليقدما عليه ومن معهما من المسلمين فقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبي جندل وأبو بصير يموت فمات وكتاب رسول الله ﷺ بيده يقرؤه فدفنه أبو جندل مكانه وصلى عليه وبنى على قبر مسجدا) قلت: فأنت ترى أن هذه القصة مدارها على الزهري فهي مرسلة على اعتبار انه تابعي صغير سمع من أنس بن مالك رضي الله عنه وإلا فهي معضلة وكيف ما كان الأمر فلا تقوم بها حجة على أن موضع الشاهد منها وهو قوله: "وبنى على قبره مسجدا " لا يظهر من سياق ابن عبد البر للقصة أنه من مرسل الزهري ولا من رواية عبد الرزاق عن معمر عنه بل هو من رواية موسى بن عقبة كما صرح به ابن عبد البر لم يجاوزه وابن عقبة لم يسمع أحدا من الصحابة فهذه الزيادة أعني قوله " وبنى على قبره مسجدا " معضلة بل هي عندي منكرة لأن القصة رواها البخاري في صحيحة (٥/ ٣٥١-٣٧١) وأحمد في مسنده (٤/ ٣٢٨-٣٣١) موصولة من طريق عبد الرزاق عن معمر قال: أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بها دون هذه الزيادة وكذلك أوردها ابن إسحاق في السيرة عن الزهري مرسلا كما في مختصر السيرة لابن هشام (٣/ ٣٣١-٣٣٩) ووصله أحمد (٤/ ٣٢٣-٣٢٦) من طريق ابن إسحاق عن الزهري عن عروة به مثل رواية معمر وأتم وليس فيها هذه الزيادة وكذلك رواه ابن جرير في تاريخه (٣/ ٢٧١-٢٨٥) من طريق معمر وابن إسحاق وغيرهما عن الزهري به دون هذه الزيادة فدل ذلك كله على أنها زيادة منكرة لإعضالها عدم رواية الثقات لها. والله الموفق.

=

=

**الوجه** الثاني: أن ذلك لو صح لم يجز أن ترد به الأحاديث الصريحة في تحريم بناء المساجد على القبور لأمرين:

**أولا**: أنه ليس في القصة أن النبي ﷺ اطلع على ذلك وأقره

**ثانيا**: أنه لو فرضنا أن النبي ﷺ علم بذلك وأقره فيجب أن يحمل ذلك على أنه قبل التحريم لأن الأحاديث صريحة في أن النبي ﷺ حرم ذلك في آخر حياته كما سبق فلا يجوز أن يترك النص المتأخر من أجل النص المتقدم على فرض صحته عند التعارض وهذا بين لا يخفى نسأل الله تعالى أن يحمينا من اتباع الهوى.

* **مسألة**: هل قبر يحيى عليه السلام في الجامع الأموي؟

ليس هناك مستند صحيح يدل على أن يحيى عليه السلام مدفون في الجامع الأموي، فضلا عن القول بأن الصحابة رأوا قبره وتركوه في المسجد، كما يدعيه البعض.

قال الشيخ الألباني رحمه الله: ونحن نقطع ببطلان قولهم، وأن أحدا من الصحابة والتابعين لم ير قبرا ظاهرا في مسجد بني أمية أو غيره، بل غاية ما جاء فيه بعض الروايات عن زيد بن أرقم بن واقد: أنهم في أثناء العمليات وجدوا مغارة فيها صندوق فيه سفط (وعاء كامل) وفي السفط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام مكتوب عليه: هذا رأي يحيى عليه السلام فأمر به الوليد فرد إلى المكان وقال: اجعلوا العمود الذي فوقه مغيرا من الأعمدة، فجعل عليه عمود مسبك بسفط الرأس. رواه أبو الحسن الربعي في فضائل الشام (٣٣) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخه (ج ٢ ق ٩ / ١٠) وإسناده ضعيف جدا، فيه إبراهيم بن هشام الغساني كذبه أبو حاتم وأبو زرعة وقال الذهبي " متروك".

ومع هذا فإننا نقطع أنه لم يكن في المسجد صورة قبر، حتى أواخر القرن الثاني؛ لما أخرجه الربعي وابن عساكر، عن الوليد بن مسلم أنه سئل: أين بلغك رأس

=

=

يحى بن زكريا ؟ قال: بلغني أنه ثم؛ وأشار بيده إلى العمود المسفط الرابع من الركن الشرقي، فهذا يدل على أنه لم يكن هناك قبر في عهد الوليد بن مسلم، وقد توفي سنة أربع وتسعين ومائة.

وأما كون ذلك الرأس هو رأس يحى عليه السلام فلا يمكن إثباته، ولذلك اختلف المؤرخون اختلافا كثيرا، وجمهورهم على أن رأس يحيى عليه السلام مدفون في مسجد حلب ليس في مسجد دمشق، كما حققه شيخنا في الإجازة العلامة محمد راغب الطباخ في بحث له نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ج ١ ص ٤١-١٤٨٢) تحت عنوان " رأس يحيى ورأس زكريا " فليراجعه من شاء.

ونحن لا يهمنا من الوجهة الشرعية ثبوت هذا أو ذاك، سواء عندنا أكان الرأس الكريم في هذا المسجد أو ذاك، بل لو تيقنا عدم وجوده في كل من المسجدين، فوجود صورة القبر فيهما كاف في المخالفة؛ لأن أحكام الشريعة المطهرة إنما تبنى على الظاهر لا الباطن كما هو معروف، وسيأتي ما يشهد لهذا من كلام بعض العلماء، وأشد ما تكون المخالفة إذا كان القبر في قبلة المسجد، كما هو الحال في مسجد حلب، ولا منكر لذلك من علمائها". انتهى. من "تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد" (ص٦٣).

وما يفعل عند هذه القبور من دعاء لها، واستغاثة بها، وطواف حولها، كل ذلك من الشرك الذي حرمه الله؛ لأنه صرف للعبادة لغير الله، فليس لأحد أن يدعو أو يستغيث بميت، سواء وقف عند قبره أو بعيدا عنه، بل الدعاء لله وحده، فهو الرب المغيث المجيب المنعم المتفضل سبحانه.

ومن شاهد هذه المنكرات عند الأضرحة المذكورة علم حكمة الشريعة وكمالها في التحذير من بناء المساجد على القبور، لما يترتب على ذلك من الفتنة بها، حتى تعبد من دون الله عز وجل، نسأل الله تعالى أن يرد ضال المسلمين إلى الهدى

=

=

والحق ردا جميلا.

فما يشاع عند العامة من وجود قبور لبعض الصحابة، أو لغيرهم، في بعض المساجد، أكثره غير ثابت، وما ثبت منه فلا حجة فيه؛ لأن هذه المساجد إنما بنيت في عصور متأخرة، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما هذه المشاهد المشهورة فمنها ما هو كذب قطعا: مثل المشهد الذي بظاهر دمشق المضاف إلى أبي بن كعب. والمشهد الذي بظاهرها المضاف إلى أويس القرني والمشهد الذي بمصر المضاف إلى الحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ إلى غير ذلك من المشاهد التي يطول ذكرها بالشام والعراق ومصر وسائر الأمصار، حتى قال طائفة من العلماء منهم عبد العزيز الكناني: كل هذه القبور المضافة إلى الأنبياء لا يصح شيء منها إلا قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد أثبت غيره أيضا قبر الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وأما " مشهد علي " فعامة العلماء على أنه ليس قبره ؛ بل قد قيل: إنه قبر المغيرة بن شعبة؛ وذلك أنه إنما أظهر بعد نحو ثلاثمائة سنة من موت علي في إمارة بني بويه... وجمهور أهل المعرفة يقولون: إن عليا إنما دفن في قصر الإمارة بالكوفة أو قريبا منه... وكذلك " قبر معاوية " الذي بظاهر دمشق قد قيل: إنه ليس قبر معاوية وإن قبره بحائط مسجد دمشق الذي يقال إنه " قبر هود".

وأصل ذلك أن عامة أمر هذه القبور والمشاهد مضطرب مختلق لا يكاد يوقف منه على العلم إلا في قليل منها بعد بحث شديد. وهذا لأن معرفتها وبناء المساجد عليها ليس من شريعة الإسلام، ولا ذلك من حكم الذكر الذي تكفل الله بحفظه حيث قال: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر / ٩] ؛ بل قد نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عما يفعله المبتدعون عندها، مثل قوله الذي رواه مسلم في صحيحه عن جندب بن عبد الله قال: {سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور

=

=

مساجد فإني أنهاكم عن ذلك} وقال: {لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد}.

وقد اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يشرع بناء هذه المشاهد على القبور ولا يشرع اتخاذها مساجد، ولا يشرع الصلاة عندها، ولا يشرع قصدها لأجل التعبد عندها بصلاة أو اعتكاف أو استغاثة أو ابتهال أو نحو ذلك، كرهوا الصلاة عندها ؛ ثم إن كثيرا منهم قال: إن الصلاة عندها باطلة لأجل نهي النبي ﷺ عنها... " انتهى من "مجموع الفتاوى" (٢٧/ ٤٤٧).

وقال أيضا عما يزعم من وجود رأس الحسين في مصر أو الشام:"ومنها " مشهد الرأس " الذي بالقاهرة؛ فإن المصنفين في قتل الحسين اتفقوا على أن الرأس ليس بمصر، ويعلمون أن هذا كذب. وأصله أنه نقل من مشهد بعسقلان، وذاك المشهد بني قبل هذا بنحو من ستين سنة في أواخر المائة الخامسة، وهذا بني في أثناء المائة السادسة بعد مقتل الحسين بنحو من خمسمائة عام، والقاهرة بنيت بعد مقتل الحسين بنحو ثلاثمائة عام، قد بين كذب هذا المشهد: ابن دحية في " العلم المشهور " وأن الرأس دفن بالمدينة كما ذكره الزبير بن بكار...". انتهى. "مجموع الفتاوى" (٢٧/ ٤٩١).

* **مسألة:** تاريخ القبة الخضراء على قبر النبي ﷺ.

لم تكن القبة التي على قبر النبي ﷺ موجودة إلى القرن السابع، وقد أحدث بناؤها في عهد السلطان قلاوون، وكان لونها أولا بلون الخشب، ثم صارت باللون الأبيض، ثم اللون الأزرق، ثم اللون الأخضر، واستمرت عليه إلى الآن.

قال الأستاذ علي حافظ في فصول من تاريخ المدينة المنورة (ص ١٢٧، ١٢٨): لم تكن على الحجرة المطهرة قبة، وكان في سطح المسجد على ما يوازي الحجرة حظير من الآجر بمقدار نصف قامة تمييزا للحجرة عن بقية سطح

=

=

المسجد.

والسلطان قلاوون الصالحي هو أول من أحدث على الحجرة الشريفة قبة، فقد عملها سنة ٦٧٨ هـ، مربعة من أسفلها، مثمنة من أعلاها بأخشاب، أقيمت على رؤوس السواري المحيطة بالحجرة، وسمر عليها ألواحا من الخشب، وصفحها بألواح الرصاص، وجعل محل حظير الآجر حظيرا من خشب.

وجددت القبة زمن الناصر حسن بن محمد قلاوون، ثم اختلت ألواح الرصاص عن موضعها، وجددت، وأحكمت أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد سنة ٧٦٥ هـ، وحصل بها خلل، وأصلحت زمن السلطان قايتباي سنة ٨٨١هـ.

وقد احترقت المقصورة والقبة في حريق المسجد النبوي الثاني سنة ٨٨٦ هـ، وفي عهد السلطان قايتباي سنة ٨٨٧هـ جددت القبة، وأسست لها دعائم عظيمة في أرض المسجد النبوي، وبنيت بالآجر بارتفاع متناه،.... بعد ما تم بناء القبة بالصورة الموضحة: تشققت من أعاليها، ولما لم يجد الترميم فيها: أمر السلطان قايتباي بهدم أعاليها، وأعيدت محكمة البناء بالجبس الأبيض، فتمت محكمة، متقنة سنة ٨٩٢ هـ.

وفي سنة ١٢٥٣هـ صدر أمر السلطان عبد الحميد العثماني بصبغ القبة المذكورة باللون الأخضر، وهو أول من صبغ القبة بالأخضر، ثم لم يزل يجدد صبغها بالأخضر كلما احتاجت لذلك إلى يومنا هذا.

وسميت بالقبة الخضراء بعد صبغها بالأخضر، وكانت تعرف بالبيضاء، والفيحاء، والزرقاء" انتهى.

وأما حكمها فقد أنكر أهل العلم المحققين- قديما وحديثا- بناء تلك القبة، وتلوينها، وكل ذلك لما يعلمونه من سد الشريعة لأبواب كثيرة خشية الوقوع في الشرك.

=

=

ومن هؤلاء العلماء:

١- قال الصنعاني- رَحِمَهُ اللَّهُ- في " تطهير الاعتقاد ": "فإن قلت: هذا قبر الرسول ﷺ قد عمرت عليه قبة عظيمة انفقت فيها الأموال.

قلت: هذا جهل عظيم بحقيقة الحال، فإن هذه القبة ليس بناؤها منه ﷺ، ولا من أصحابه، ولا من تابعيهم، ولا من تابع التابعين، ولا علماء الأمة وأئمة ملته، بل هذه القبة المعمولة على قبره ﷺ من أبنية بعض ملوك مصر المتأخرين، وهو قلاوون الصالحي المعروف بالملك المنصور في سنة ثمان وسبعين وست مئة، ذكره في " تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة "، فهذه أمور دولية لا دليلية " انتهى.

٢- وسئل علماء اللجنة الدائمة (٩/ ٨٣، ٨٤): هناك من يحتجون ببناء القبة الخضراء على القبر الشريف بالحرم النبوي على جواز بناء القباب على باقي القبور، كالصالحين، وغيرهم، فهل يصح هذا الاحتجاج أم ماذا يكون الرد عليهم ؟

فأجابوا: "لا يصح الاحتجاج ببناء الناس قبة على قبر النبي ﷺ على جواز بناء قباب على قبور الأموات، صالحين، أو غيرهم؛ لأن بناء أولئك الناس القبة على قبره ﷺ حرام يأثم فاعله؛ لمخالفته ما ثبت عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ ألا تدع تمثالا إلا طمسته، ولا قبرا مشرفا إلا سويته.

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (نهى النبي ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه) رواهما مسلم في صحيحه، فلا يصح أن يحتج أحد بفعل بعض الناس المحرم على جواز مثله من المحرمات؛ لأنه لا يجوز معارضة قول النبي ﷺ بقول أحد من الناس أو فعله؛ لأنه المبلغ عن الله سبحانه، والواجب طاعته،

=

=

والحذر من مخالفة أمره؛ لقول الله ﷻ: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) الحشر/ ٧.

وغيرها من الآيات الآمرة بطاعة الله وطاعة رسوله؛ ولأن بناء القبور، واتخاذ القباب عليها من وسائل الشرك بأهلها، فيجب سد الذرائع الموصلة للشرك " انتهى

٣- وقال علماء اللجنة الدائمة (٢ / ٢٦٤، ٢٦٥):"ليس في إقامة القبة على قبر النبي ﷺ حجة لمن يتعلل بذلك في بناء قباب على قبور الأولياء والصالحين؛ لأن إقامة القبة على قبره: لم تكن بوصية منه، ولا من عمل أصحابه رضي الله عنهم ، ولا من التابعين، ولا أحد من أئمة الهدى في القرون الأولى التي شهد لها النبي ﷺ بالخير، إنما كان ذلك من أهل البدع، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، وثبت عن علي رضي الله عنه أنه قال لأبي الهياج: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ ألا تدع تمثالا إلا طمسته، ولا قبرا مشرفا إلا سويته) رواه مسلم؛ فإذا لم يثبت عنه ﷺ بناء قبة على قبره، ولم يثبت ذلك عن أئمة الخير، بل ثبت عنه ما يبطل ذلك: لم يكن لمسلم أن يتعلق بما أحدثه المبتدعة من بناء قبة على قبر النبي ﷺ " انتهى.

٤- وقال الشيخ شمس الدين الأفغاني رحمه الله:"قال العلامة الخجندي (١٣٧٩ هـ) مبينا تاريخ بناء هذه القبة الخضراء المبنية على قبر النبي ﷺ، محققا أنها بدعة حدثت بأيدي بعض السلاطين، الجاهلين، الخاطئين، الغالطين، وأنها مخالفة للأحاديث الصحيحة المحكمة الصريحة؛ جهلا بالسنة، وغلوا وتقليدا للنصارى، الضلال الحيارى: اعلم أنه إلى عام (٦٧٨ هـ) لم تكن قبة على الحجرة النبوية التي فيها قبر النبي ﷺ؛ وإنما عملها وبناها الملك الظاهر المنصور قلاوون الصالحي في تلك السنة- (٦٧٨هـ)، فعملت تلك القبة.

=

=

قلت: إنما فعل ذلك لأنه رأى في مصر والشام كنائس النصارى المزخرفة فقلدهم جهلا منه بأمر النبي ﷺ وسنته؛ كما قلدهم الوليد في زخرفة المسجد، فتنبه، كذا في " وفاء الوفاء"... اعلم أنه لا شك أن عمل قلاوون هذا -: مخالف قطعا للأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ؛ ولكن الجهل بلاء عظيم، والغلو في المحبة والتعظيم وباء جسيم، والتقليد للأجانب داء مهلك؛ فنعوذ بالله من الجهل، ومن الغلو، ومن التقليد للأجانب" انتهى.

" جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية " (٣/ ١٦٦٠- ١٦٦٢).

وأما سبب عدم هدمها، فقد بين العلماء الحكم الشرعي في بناء القبة، وأثرها البدعي واضح على أهل البدع، فهم متعلقون بها بناء ولونا، ومدحهم وتعظيمهم لها نظما ونثرا كثير جدا، ولم يبق إلا تنفيذ ذلك من ولاة الأمر، وليس هذا من عمل العلماء.

وقد يكون المانع من هدمها درء للفتنة، وخشية من أن تحدث فوضى بين عامة الناس وجهلتهم، وللأسف فإن هؤلاء العامة لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من تعظيم تلك القبة إلا بقيادة علماء الضلالة وأئمة البدعة، وهؤلاء هم الذي يهيجون العامة على بلاد الحرمين الشريفين، وعلى عقيدتها، وعلى منهجها، وقد ساءتهم جدا أفعال كثيرة موافقة للشرع عندنا، مخالفة للبدعة عندهم ! وبكل حال: فالحكم الشرعي واضح بين، وعدم هدمها لا يعني أنها جائزة البناء لا هي ولا غيرها على أي قبر كان.

قال الشيخ صالح العصيمي حفظه الله: "إن استمرار هذه القبة على مدى ثمانية قرون لا يعني أنها أصبحت جائزة، ولا يعني أن السكوت عنها إقرار لها، أو دليل على جوازها، بل يجب على ولاة المسلمين إزالتها، وإعادة الوضع إلى ما كان عليه في عهد النبوة، وإزالة القبة والزخارف والنقوش التي في المساجد، وعلى

=

=

رأسها المسجد النبوي، ما لم يترتب على ذلك فتنة أكبر منه، فإن ترتب عليه فتنة أكبر، فلولي الأمر التريث مع العزم على استغلال الفرصة متى سنحت " انتهى.
" بدع القبور، أنواعها، وأحكامها " (ص ٢٥٣). والله أعلم.
* **مسألة**: إذا وجد القبر في المسجد فهل يزال القبر أم المسجد؟
إذا اجتمع القبر والمسجد فلهما حالتان:
الحالة الأولى: أن يبنى المسجد أولا ثم يدخل فيه القبر، فلا يخلو هذا القبر من أمرين:
**أحدهما**: أن يكون جديدا، فيجب نبشه وإزالته عن المسجد تماما، وتسقط حرمته إن كان مسلما، باعتدائه أو اعتداء من أدخله المسجد لقوله ﷺ (ليس لعرق ظالم حق).
وثانيهما: أن يكون القبر قديما، لكنه بعد المسجد. فذكر ابن تيمية: أن هذا القبر يسوى كما في مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٩٥)، وقيل يجب نبشه، وإخراج عظامه.
أما حكم الصلاة في هذا المسجد فسيأتي.
الحالة الثانية: أن يكون القبر قد وضع أولا، ثم بني عليه مسجد.
فهذه الحالة هي التي نص الرسول ﷺ على لعن من يفعلها، وقد حدثت إقامة المشاهد على القبور في وسط المساجد، وحصل فيها بلاء وكفر بالله، وما تزال في بعض مساجد المسلمين اليوم، وأغلبها لأناس يزعم القائمون عليها أنهم من الصحابة أو التابعين، كالحسين بن علي وزينب وغيرهما، وهي في الحقيقة ليست لهم، كما بينه المحققون من أهل العلم.
وقد تكون هناك حالة ثالثة: وهي أن يوجد القبر والمسجد في آن واحد فهذا نادر جدًا ولا يتأتى إلا إذا كان المسجد من مادة يمكن صنعها بسرعة، كعريش السعف ونحوه. قال ابن القيم كما في حاشية الروض المربع لابن القاسم
=

=

(٣/ ١٣١): ولو وضع المسجد والقبر معًا لم يجز ولم يصح الوقف ولا الصلاة. وهذا من باب تغليب الحظر على الإباحة.

قال علماء اللجنة الدائمة (١/ ٤٠٩): إذا بني المسجد على قبر أو قبور وجب هدمه؛ لأنه أسس على خلاف ما شرع الله، والإبقاء عليه مع الصلاة فيه إصرار على الإثم في بنائه وزيادة غلو في الدين وفي تعظيم من بني عليه المسجد وذلك مما يفضي إلى الشرك والعياذ بالله، وقد قال تعالى: {لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ} وقد قال ﷺ: (إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)، أما إذا بني المسجد على غير قبر ثم دفن فيه ميت فلا يهدم، ولكن ينبش قبر من دفن فيه ويدفن خارجه في مقبرة المسلمين؛ لأن دفنه بالمسجد منكر فيزال بإخراجه منه ا.هـ

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٢/ ٣٠٢): بعض العلماء يقول: إذا أدخل القبر على المسجد فينبش القبر ويبقى المسجد، ويقولون: إذا بني المسجد على القبر يهدم المسجد، فهل هذا التفريق صحيح وله أصل في السنة؟

الشيخ: صحيح لكن ليس له علاقة بحكم الصلاة فيه؟

الملقي: نعم.

الشيخ: حكم الصلاة سواء طرأ القبر على المسجد أو طرأ المسجد على القبر، حكمه ما سمعتم، أما هل يزال القبر أو المسجد؟ فلا بد من القضاء على الظالم، على الباغي، فإذا كان هناك أرض دفن فيها ميت، فجاء أحد البغاة وبنى عليه مسجدًا فيزال هذا المسجد؛ لأنه هو الباغي، وعلى العكس من ذلك إذا كان هناك مسجد بني على تقوى من الله -ﷻ-، فجاء أحد البغاة وأوصى بأنه إن مات دفن فيه، وفعلًا دفن فيه فيقذف بجثته إلى خارج المسجد؛ لأنه هو الباغي على

=

=

المسجد، فهذا كلام صحيح بلا شك ا.هـ

**وقال العلامة** ابن باز في مجموع فتاواه (١٣/ ٣٦٠): يجب أن ينبش القبر إذا كان في المسجد، وكان المسجد هو السابق، ويكون ذلك من جهة ولاة الأمور؛ إما المحكمة أو الإمارة حتى لا تكون فتنة. أما إن كان المسجد هو الأخير فالواجب هدمه؛ لقول النبي ﷺ: "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » متفق على صحته، وقوله ﷺ « لما ذكرت له أم سلمة وأم حبيبة كنيسة رأتاها بأرض الحبشة وما فيها من الصور: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله » متفق عليه، ومن هذين الحديثين وما جاء في معناهما يعلم أنه لا يجوز أن يصلى في المساجد التي فيها القبور؛ لنهي النبي ﷺ عن ذلك؛ ولأن ذلك وسيلة إلى الشرك بالله ﷻ ا.هـ

**وقال العلامة** العثيمين كما في فتاوى نور على الدرب: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد قال ذلك تحذيرًا مما صنعوا فلا يجوز للمسلمين أن يتخذوا القبور مساجد سواء كانت تلك القبور قبور أولياء أم كانت قبور صالحين لم يصلوا إلى حد الولاية في زعم من اتخذ هذه المساجد عليها فإن فعلوا بأن بنوا مسجدًا على قبر من يرونه وليًا أو صالحًا فإنه يجب أن يهدم هذا المسجد لأنه مسجد محرم لنهي النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد أما إذا كان القبر بعد المسجد بأن أسس المسجد أولًا ثم دفن فيه الميت فإنه يجب أن ينبش هذا الميت ويدفن في المقابر ولا يحل إبقاؤه في المسجد لأن المسجد تعين للصلاة فيه فلا يجوز أن يتخذ مقبرة هذا هو الحكم في هذه المسألة.

❋ مسألة: أين دفن رأس الحسين رضي الله عنه؟

=

=

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٥٠): المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا - الذي بالقاهرة كذب مختلق بلا نزاع بين العلماء المعروفين عند أهل العلم الذين يرجع إليهم المسلمون في مثل ذلك لعلمهم وصدقهم. ولا يعرف عن عالم مسمى معروف بعلم وصدق أنه قال: إن هذا المشهد صحيح. وإنما يذكره بعض الناس قولا عمن لا يعرف على عادة من يحكي مقالات الرافضة وأمثالهم من أهل الكذب. فإنهم ينقلون أحاديث وحكايات ويذكرون مذاهب ومقالات. وإذا طالبتهم بمن قال ذلك ونقله ؟ لم يكن لهم عصمة يرجعون إليها. ولم يسموا أحدا معروفا بالصدق في نقله ولا بالعلم في قوله؛ بل غاية ما يعتمدون عليه: أن يقولوا: أجمعت الطائفة الحقة. وهم عند أنفسهم الطائفة الحقة الذين هم عند أنفسهم المؤمنون وسائر الأمة سواهم كفار. ويقولون: إنما كانوا على الحق لأن فيهم الإمام المعصوم.... ومن هذا الباب نقل الناقل: أن هذا القبر الذي بالقاهرة: "مشهد الحسين " رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بل وكذلك مشاهد غير هذا مضافة إلى قبر الحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فإنه معلوم باتفاق الناس: أن هذا المشهد بني عام بضع وأربعين وخمسمائة وأنه نقل من مشهد بعسقلان وأن ذلك المشهد بعسقلان كان قد أحدث بعد التسعين والأربعمائة. فأصل هذا المشهد القاهري: هو ذلك المشهد العسقلاني. وذلك العسقلاني محدث بعد مقتل الحسين بأكثر من أربعمائة وثلاثين سنة وهذا القاهري محدث بعد مقتله بقريب من خمسمائة سنة وهذا مما لم يتنازع فيه اثنان ممن تكلم في هذا الباب من أهل العلم على اختلاف أصنافهم كأهل الحديث ومصنفي أخبار القاهرة ومصنفي التواريخ. وما نقله أهل العلم طبقة عن طبقة. فمثل هذا مستفيض عندهم. وهذا بينهم مشهور متواتر سواء قيل: إن إضافته إلى الحسين صدق أو كذب لم يتنازعوا أنه نقل من عسقلان في أواخر الدولة العبيدية. وإذا كان أصل

=

=

هذا المشهد القاهري: منقول عن ذلك المشهد العسقلاني باتفاق الناس وبالنقل المتواتر فمن المعلوم أن قول القائل: إن ذلك الذي بعسقلان هو مبني على رأس الحسين ﵁ قول بلا حجة أصلا. فإن هذا لم ينقله أحد من أهل العلم الذين من شأنهم نقل هذا. لا من أهل الحديث ولا من علماء الأخبار والتواريخ ولا من العلماء المصنفين في النسب: نسب قريش أو نسب بني هاشم ونحوه. وذلك المشهد العسقلاني: أحدث في آخر المائة الخامسة لم يكن قديما ولا كان هناك مكان قبله أو نحوه مضاف إلى الحسين ولا حجر منقوش ولا نحوه مما يقال: إنه علامة على ذلك. فتبين بذلك أن إضافة مثل هذا إلى الحسين قول بلا علم أصلا. وليس مع قائل ذلك ما يصلح أن يكون معتمدا لا نقل صحيح ولا ضعيف بل لا فرق بين ذلك وبين أن يجيء الرجل إلى بعض القبور التي بأحد أمصار المسلمين فيدعي أن في واحد منها رأس الحسين أو يدعي أن هذا قبر نبي من الأنبياء أو نحو ذلك مما يدعيه كثير من أهل الكذب والضلال.... ا.هـ

**وقال العلامة** ابن باز في مجموع فتاواه (٩/ ٣٦): بالواقع قد اختلف الناس في ذلك، فقيل: إنه دفن في الشام، وقيل: في العراق، والله أعلم بالواقع. أما رأسه فاختلف فيه؛ فقيل: في الشام، وقيل في العراق، وقيل: في مصر، والصواب أن الذي في مصر ليس قبرا له، بل هو غلط وليس به رأس الحسين، وقد ألف في ذلك بعض أهل العلم، وبينوا أنه لا أصل لوجود رأسه في مصر ولا وجه لذلك، وإنما الأغلب أنه في الشام؛ لأنه نقل إلى يزيد ابن معاوية وهو في الشام، فلا وجه للقول بأنه نقل إلى مصر، فهو إما حفظ في الشام في مخازن الشام، وإما أعيد إلى جسده في العراق.

وبكل حال فليس للناس حاجة في أن يعرفوا أين دفن وأين كان، وإنما المشروع الدعاء له بالمغفرة والرحمة، غفر الله له ورضي عنه، فقد قتل مظلوما فيدعى له

=

=

بالمغفرة والرحمة، ويرجى له خير كثير، وهو وأخوه الحسن سيدا شباب أهل الجنة، كما قال ذلك النبي ﷺ، رضي الله عنهما وأرضاهما، ومن عرف قبره وسلم عليه ودعا له فلا بأس، كما تزار القبور الأخرى، من غير غلو فيه ولا عبادة له، ولا يجوز أن تطلب منه الشفاعة ولا غيرها كسائر الأموات؛ لأن الميت لا يطلب منه شيء وإنما يدعى له ويترحم عليه إذا كان مسلما..ا.هـ

وقال علماء اللجنة الدائمة (٩/ ٢١٢): الحسين رضي الله عنه قتل في العراق في المحرم سنة ٦١هـ ودفن جسده في العراق، أما دعوى أن رأسه نقل إلى مصر ودفن هناك فلا نعلم له أصلا، وقد أنكر ذلك بعض المحققين من أهل العلم ولا يضرك جهلك بذلك، وإنما المشروع لك ولغيرك من المسلمين الترضي عنه وعن سائر أصحاب النبي ﷺ رضي الله عنهم جميعا ا.هـ

**وقال العلامة** العثيمين في فتاوى نور على الدرب: يجب أن نعرف أن بناء المساجد على القبور حرام، ولا يصح، يعني لا يجوز لأحد من ولاة الأمور وغير ولاة الأمور أن يبني المساجد على القبور، لأن النبي ﷺ يقول لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا، فإذا كانت اللعنة قد وجبت لمن بنى مسجدًا على قبر نبي، فما بالك بمن بنى مسجدًا على من هو دون النبي، بل على أمر قد يكون موهومًا لا محققًا، كما يقال في بعض المساجد التي بنيت على الحسين بن علي رضى الله عنه فإنها قد تكون في العراق وفي الشام وفي مصر، ولا أدرى كيف كان الحسين رضى الله عنه رجلًا واحدًا ويدفن في ثلاثة مواضع، هذا شيء ليس بمعقول فالحسين بن علي رضى الله عنه الذي تقتضيه الحال أنه دفن في المكان الذي قتل فيه، وأن قبره سيكون مخفيًا خوفًا عليه من الأعداء كما أخفى قبر علي بن أبي طالب رضى الله عنه حينما دفن في قصر الإمارة بالكوفة خوفًا من الخوارج.

=

=

** مسألة: حكم الصلاة في المساجد المبنية على القبور.

**قال العلامة** الألباني في تحذير الساجد (ص١٦٢): بعد أن انتهينا من الإجابة عن الشبهات المتقدمة وتبين منها للقارئ الكريم أن تحريم بناء المساجد على القبور حكم ثابت مقرر إلى يوم الدين وفرغنا من بيان حكمة التحريم يحسن بنا أن ننتقل إلى مسألة أخرى هي من لوازم الحكم المذكور ألا وهي حكم الصلاة في هذه المساجد المبنية على القبور، ذكرنا فيما سبق أن النهي عن بناء المساجد على القبور يستلزم النهي عن الصلاة فيها من باب أن النهي عن الوسيلة يستلزم النهي عن الغاية بالأولى وبالأحرى، فينتج من ذلك أن الصلاة في هذه المساجد منهي عنها، والنهي في مثل هذا الموضع يقتضي البطلان كما هو معروف عند العلماء، وقد قال ببطلان الصلاة فيها الإمام أحمد وغيره ولكنا نرى أن المسألة تحتاج إلى تفصيل فأقول:

الأولى: أن يقصد الصلاة فيها من أجل القبور والتبرك بها كما يفعله كثير من العامة، وغير قليل من الخاصة!.

الثانية: أن يصلي فيها اتفاقا لا قصدا للقبر.

ففي الحالة الأولى لا شك في تحريم الصلاة فيها بل وبطلانها، لأنه إذا نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن بناء المساجد على القبور، ولعن من فعل ذلك، فالنهي عن قصد الصلاة فيها أولى والنهي هنا يقتضي البطلان كما سبق قريبًا.

وأما في الحالة الثانية، فلا يتبين لي الحكم ببطلان الصلاة فيها، وإنما الكراهة فقط، لأن القول بالبطلان في هذه الحالة لا بد له من دليل خاص، والدليل الذي

=

=

أثبتنا به البطلان في الحالة السابقة إنما صح بناء على النهي عن بناء المسجد على القبر، فيصح القول بأن قصد الصلاة في هذا المسجد يبطلها، وأما القول ببطلان الصلاة فيه دون قصد، فليس عليه نهي خاص يكمن الاعتماد عليه فيه ولا يمكن أن يقاس عليه قياسا صحيحا بله أولويًا.

ولعل هذا هو السبب في ذهاب الجمهور إلى الكراهة دون البطلان، أقول هذا معترفا بأن الموضوع يحتاج إلى مزيد من التحقيق، وأن القول بالبطلان محتملٌ فمن كان عنده علم في شيءٍ من ذلك فليتفضل ببيانه مع الدليل مشكورًا مأجورًا.

وأما القول بكراهة الصلاة في المساجد المبنية على القبور، فهذا أقل ما يمكن أن يقوله الباحث وذلك لأمرين:

الأول: أن في الصلاة فيها تشبهًا باليهود والنصارى الذين كانوا ولا يزالون يقصدون التعبد في تلك المساجد المبنية على القبور!.

**الثاني**: أن الصلاة فيها ذريعة لتعظيم المقبور فيها تعظيمًا خارجًا عن حد الشرع، فينهى عنها احتياطًا وسدًا للذريعة، لا سيما ومفاسد المساجد المبنية على القبور ماثلة للعيان كما سبق مرارًا، وقد نص العلماء على كل من العلتين، فقال العلامة ابن الملك من علماء الحنفية: «إنما حرم اتخاذ المساجد عليها، لأن الصلاة فيها استنانا بسنة اليهود». نقله الشيخ القاري في «المرقاة» (١/ ٤٧٠) وأقره، وكذلك قال بعض العلماء المتأخرين من الحنفية وغيرهم كما سيأتي.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في القاعدة الجليلة (ص ٢٢): «واتخاذ المكان مسجدًا هو أن يتخذ للصلوات الخمس وغيرها، كما تبنى المساجد لذلك، والمكان المتخذ مسجدا إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين، فحرم صلى الله عليه وآله وسلم أن تتخذ قبورهم مساجد تقصد للصلوات فيها كما تقصد المساجد، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده لأن ذلك

=

=

ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء عنده، فنهى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله.

والفعل إذا كان يفضي إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة، ينهى عنه كما ينهى عن الصلاة في الأوقات الثلاثة، لما في ذلك من المفسدة الراجحة، وهو التشبه بالمشركين الذي يفضي إلى الشرك، وليس في قصد الصلاة في تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع في غير ذلك من الأوقات.

ولهذا تنازع العلماء في ذوات الأسباب فسوغها كثير منهم في هذه الأوقات، وهو أظهر قولي العلماء لأن النهي إذا كان لسد الذريعة أبيح للمصلحة الراجحة، وفعل ذوات الأسباب يحتاج إليه فيه هذه الأوقات ويفوت إذا لم يفعل فيها مصلحتها فأبيحت لما فيها من المصلحة، بخلاف ما لا سبب له فإنه يمكن فعله في غير هذا الوقت فلا تفوت بالنهي عنه مصلحة راجحة وفيه مفسدة توجب النهي عنه.

فإذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك، لئلا يفضي ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها، كان معلومًا أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم لنفسه، وأعظم تحريمًا من الصلاة التي نهى عنها لئلا يفضي إلى دعاء الكواكب، كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، فنهى عن قصدها للصلاة عندها لئلا يفضي ذلك إلى دعائهم كان دعاؤهم والسجود أعظم تحريما من اتخاذ قبورهم مساجد».

واعلم أن كراهة الصلاة في هذه المساجد هو أمر متفق عليه من العلماء كما سبق بيانه (ص١٧٨) ويأتي، وإنما اختلفوا في بطلانها وظاهر مذهب الحنابلة أنها لا

=

=

تصح، وبه جزم المحقق ابن القيم كما تقدم (ص١٧٧ - ١٧٨).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» (ص ١٥٩): «فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين والملوك وغيرهم يتعين إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء المعروفين، وتُكره الصلاة فيها من غير خلاف أعلمه، ولا تصح عندنا في ظاهر المذهب لأجل النهي واللعن الوارد في ذلك، ولأجل أحاديث أخر وليس في هذه المسألة خلاف لكون المدفون فيها واحدًا، وإنما اختلف أصحابنا في المقبرة المجردة عن مسجد، هل حدها ثلاثة أقبر أو ينهى عن الصلاة عند القبر الفذ، وإن لم يكن عنده قبر آخر؟ على وجهين».

قلت: والوجه الثاني هو الذي رجحه في «الاختيارات العلمية» فقال (ص٢٥): «وليس في كلام أحمد وعامة أصحابه هذا الفرق بل عموم كلامهم وتعليلهم واستدلالهم يوجب منع الصلاة عند قبر واحد من القبور، وهو الصواب والمقبرة كل ما قبر فيه لا أنه جمع قبر، وقال أصحابنا: وكل ما دخل في اسم المقبرة مما حول القبور لا يصلى فيه فهذا يعين أن المنع يكون متناولا لحرمة القبر المنفرد وفنائه المضاف إليه، وذكر الآمدي وغيره، أنه لا تجوز الصلاة فيه (أي المسجد الذي قبلته إلى القبر) حتى يكون بين الحائط وبين المقبرة حائل آخر، وذكر بعضهم أنه منصوص أحمد».

قال أبو بكر الأثرم: سمعت أبا عبد الله يعني أحمد يسأل عن الصلاة في المقبرة؟ فكره الصلاة في المقبرة قيل له: المسجد يكون بين القبور أيصلى فيه؟ فكره أن يصلى فيه الفرض، ورخص أن يصلى فيه على الجنائز.

وقال الإمام أحمد أيضاً: «لا يصلى في مسجد بين المقابر إلا الجنائز، لأن الجنائز هذه سنتها».

=

=

قال الحافظ ابن رجب في الفتح: «يشير إلى فعل الصحابة، قال ابن المنذر: قال نافع مولى ابن عمر: صلينا على عائشة وأم سلمة والإمام يومئذ أبو هريرة وحضر ذلك ابن عمر». انظر «الكواكب الدراري» (٦٥/ ٨١/ ١ و٢).

ولعل اقتصار الإمام أحمد في الرواية الأولى على ذكر الفرض فقط لا يدل على أن غيره من السنن جائز، فإن من المعلوم أن النوافل صلاتها في البيوت هو الأفضل، ولذلك لم يذكرها مع الفرض، ويؤيده عموم قوله في الرواية الثانية «لا يصلى في مسجد بين المقابر إلا الجنائز». فهذا نص فيما قلناه.

ويؤيده المنصوص عن أحمد ما تقدم عن أنس: «كان يكره أن يبنى مسجد على القبور». فإنه صريح على أن جدار المسجد لا يكفي حائلًا بينه وبين القبر، بل لعل هذا القول ينفي جواز بناء المسجد بين القبور مطلقًا وهذا هو الأقرب لأنه حسم

لمادة الشرك.

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الاقتضاء»: «وقد كانت البُنْيَة التي على قبر إبراهيم عليه السلام مسدودة لا يُدخل إليها إلى حدود المائة الرابعة فقيل إن بعض النسوة المتصلات بالخلفاء رأت في ذلك منامًا فنقبت لذلك! وقيل: إن النصارى لما استولوا على هذه النواحي نقبوا ذلك، ثم ترك ذلك مسجدًا بعد الفتوح المتأخرة، وكان أهل الفضل من شيوخنا لا يصلون في مجموع تلك البنية، وينهون أصحابهم عن الصلاة فيها إتباعا لأمر الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- واتقاء لمعصيته كما تقدم».

هكذا كان شيوخهم فيما مضى، وأما شيوخنا اليوم فهم في غفلة من هذا الحكم الشرعي، فكثير منهم يقصدون الصلاة في مثل هذه المساجد، ولقد كنت أذهب مع بعضهم،- وأنا صغير لم أتفقه بالسنة بعد- إلى قبر الشيخ ابن عربي لأصلي

=

=

معه عنده! فلما أن علمت حرمة ذلك باحثت الشيخ المشار إليه كثيرًا في ذلك حتى هداه الله تعالى وامتنع من الصلاة هناك، وكان يعترف بذلك لي، ويشكرني على أن كنت سببا لهدايته رحمه الله تعالى وغفر له.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

واعلم أن كراهة الصلاة في المساجد المبنية على القبور مضطردة في كل حال، سواء كان القبر أمامه أو خلفه يمينه أو يساره، فالصلاة فيها مكروهة على كل حال ولكن الكراهة تشتد إذا كانت الصلاة إلى القبر، لأنه في هذه الحالة ارتكب المصلي مخالفتين الأولى في الصلاة في هذه المساجد، والأخرى الصلاة إلى القبر وهي منهي عنها مطلقًا سواء كان المسجد أو غير المسجد بالنص الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كما تقدم (ص١٦٨).

وقد أشار إلى هذا المعنى البخاري بقوله في الصحيح: «باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، ولما مات الحسن بن الحسين بن علي ﭫ ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت، فسمعوا صائحًا يقول: «ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا»»، ثم ساق بعض الأحاديث المتقدمة، فقال الحافظ ابن حجر الشافعي في شرحه:

«ومناسبة هذا الأثر للباب أن المقيم في الفسطاط لا يخلو من الصلاة هناك، فليزم اتخاذ المسجد عند القبر، وقد يكون القبر في جهة القبلة فتزداد الكراهة». وذكر نحوه العيني الحنفي في «عمدة القارئ» (٤/ ١٤٩) وفي «الكوكب الدري على جامع الترمذي» للشيخ المحقق محمد يحيى الكاندهلوي الحنفي ما نصه (ص ١٥٣): «وأما اتخاذ المساجد عليها، فلما فيه من التشبيه باليهود واتخاذهم مساجد على قبور أنبيائهم وكبرائهم، ولما فيه من تعظيم الميت وشبه بعيدة الأصنام، لو كان القبر في جانب القبلة وكراهة كونه في جانب

=

=

القبلة أكثر من كراهة كونه يمينًا أو يسارًا وإن كان خلف المصلي فهو أخف من كل ذلك لكن لا يخلو عن كراهة». وفي «شرعة الإسلام» من كتب الحنفية ما نصه (ص ٥٦٩):

«ويكره أن يبنى على القبر مسجد يصلى فيه».

فهذا بإطلاقه يؤيد ما ذكرنا من أقوال العلماء وتقدم نحوه عن الإمام محمد رحمه الله تعالى (ص١٧٦). ففي هذه النقول ما يؤيد ما ذهبنا إليه في كراهة الصلاة في المساجد المبنية على القبور مطلقًا، سواء صلى إليها أو لا، فيجب التفريق بين هذه المسألة وبين الصلاة إلى القبر الذي ليس عليه مسجد، ففي هذه الصورة إنما تحقق الكراهة عند استقبال القبر على أن بعض العلماء لم يشترطوا أيضا الاستقبال في هذه الصورة فقال بالمنع من الصلاة حول القبر مطلقًا، كما تقدم قريبًا عن الحنابلة، ونحوه في «حاشية الطحاوي» على «مراقي الفلاح» من كتب الحنفية (ص ٢٠٨)، وهذا هو اللائق بباب سد الذرائع لقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-:"... فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه...) الحديث. متفق عليه من حديث النعمان بن بشير ا.هـ

**وقال العلامة** ابن باز في فتاوى نور على الدرب (١١/ ٣٨٩):١١/ ٣٨٩): المساجد التي فيها القبور لا يصلى فيها؛ سواء كان القبر قدام المصلين أو عن يمينهم أو عن شمالهم أو خلفهم، جميع المساجد التي تبنى على القبور لا يصلى فيها؛ لقول النبي ﷺ: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وقال ﷺ: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك» فلا يجوز الصلاة فيها بالكلية، فالصلاة فيها باطلة، فالواجب على المؤمن أن يحذر

=

=

ذلك في أي بلد كان كل مسجد بني على قبر لا يصلي فيه مطلقا، أما مسجد النبي ﷺ فلم يبن على قبر، النبي ﷺ دفن في بيته، ليس في المسجد، لكن لما وسع الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين ذاك الوقت، في آخر المائة الأولى أدخل الحجرة التي فيها القبر، أدخلها في المسجد، فهي ليست من المسجد، ولم يدفن في المسجد عليه الصلاة والسلام، وإنما دفن في بيته، فأدخلت الحجرة في المسجد بسبب التوسعة، ثم جعل عليها ما يميزها عن المسجد، ويخرجها عن المسجد، فلا يضر المصلين في المسجد وجودها في المسجد؛ لأنه في بيته مجاور للمسجد، وليس في المسجد، فالصلاة في مسجد النبي ﷺ لا محذور فيها، ولا بأس بها، أما ما يوجد من القبور التي تدفن في المسجد عمدا، أو يقام عليها المسجد فهذه محل النهي ومحل التحذير، وهي التي لعن الرسول ﷺ أصحابها. نسأل الله العافية.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: إذا كانت الصلاة في المسجد الذي فيه قبر لا تجوز فهل هذا يدل على أنها باطلة ولا تقبل، وهل هناك دليل على بطلانها إذا كانت باطلة؟

**فأجاب**: أولًا: المسجد الذي فيه قبر ينظر هل المسجد مبني على القبر، أم أنه سابق ودفن فيه الميت؟ فأما الأول فالصلاة فيه لا تصح؛ ذلك لأنه مكان يحرم المكث فيه ولا يصح، وأي إنسان لا يجوز له أن يصلي في بقعة محرمة عليه لا سيما فيما يتعلق بالعبادة؛ لأن المسجد المبني على القبر يؤدي إلى تعظيم صاحب القبر، فسدًا لوسائل الشرك نقول هذا حرام والمصلي آثم ولا تصح صلاته، والدليل قوله ﷺ: (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد)، والصلاة في المساجد المبنية على القبور منهي عنها بلا شك، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (لا تصلوا إلى القبور) أي: لا تجعلوها قبلتكم، فكيف بمن صلى

=

=

في مسجدٍ مبني على قبر؟! أما إذا كان المسجد سابقًا على القبر ودفن فيه الميت، فهذا إن كان الميت في جهة القبلة، فإنه لا يجوز أن يصلي إليه، بل ينحرف يمينًا أو شمالًا عنه، وإن كان في غير جهة القبلة فلا بأس، لكن في هذه الحال، يجب أن ينبش الميت ويدفن في المكان الذي يدفن فيه الناس.

* **مسألة**: حكم الصلاة في مسجد فيه قبر لمن لم يجد مسجدًا غيره؟

سئلت اللجنة الدائمة (١/ ٤٠٧): الصلاة في مسجد فيه قبر، ويقول بعض العلماء: لا تجوز الصلاة فيه وإن لم يكن في البلد مسجد غيره فتصلي في بيتك خير لك ثوابا من أن تصلي في ذلك المسجد الذي فيه قبر، ويقول بعضهم: تجوز الصلاة فيه؛ لأن قبر الرسول ﷺ موجود في مسجده وصاحبيه أبي بكر وعمر وقد أشكل علي الأمر فلذلك أرسلت إليك هذه الرسالة لأستفهم منك عن الحقيقة..؟

فأجابت: ثالثا: المسجد النبوي أسسه النبي ﷺ على تقوى من الله تعالى ورضوان منه سبحانه، ولم يقبر فيه النبي ﷺ بعد موته، بل قبر في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولما مات أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دفن معه في الحجرة ثم مات عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فدفن معه أيضا في الحجرة، ولم تكن الحجرة في المسجد ولا في قبلته، بل عن يسار المصلي خارج المسجد، ولم تدخل فيه حينما وسع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المسجد النبوي وإنما أدخلت بعد زمن الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعلى هذا فالصلاة فيه مشروعة، بل خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، بخلاف غيره مما قد بني على قبر أو قبور أو دفن فيه ميت فالصلاة فيها محرمة.

**رابعا**: ليس لك أن تصلي الفريضة في بيتك، بل عليك أن تصليها جماعة مع بعض إخوانك في غير المسجد الذي بني على قبر ولو في الفضاء، وعليكم أن تؤسسوا مسجدا على ما شرع الله؛ لتؤدوا فيه الصلوات الخمس؛ عملا بنصوص

=

=

الشرع، وبعدا عما نهى الله عنه ا.هـ

وسئل العلامة الألباني أيضا كما في موسوعة العلامة الألباني (٢/ ٣٠٦): هناك تجمع سكني للمسلمين ولا يوجد به إلا مسجد واحد، وهذا المسجد مبني بجوار مقبرة، بل وجدنا أمام المحراب عددًا من القبور، فهل يصلى به أم يصلي أبناء الحي منفردين؟ باقي المساجد بعيدة عن المنطقة؟

الشيخ: لا يصلون فيه، ولا يصلون منفردين وإنما يصلون مجتمعين ولو في دار أحدهم.

السائل: وإن تعسر ذلك.

الشيخ: إلى أن يتمكنوا من بناء مسجد، هذا واجب عليهم.

السائل: نعم، لكن إن تعسر هذا الأمر من باب وجود الحرج عند البعض أو قلة الفهم الإسلامي؟

الشيخ: لا يتعسر عند الساكن من المسلمين، وليس المقصود أن يجتمع المسلمون جميعًا؛ لأن المسجد الذي لا إشكال فيه لا يجتمعون فيه جميعًا، ولا تكلَّف إلا نفسك.

السائل: لكن لو تعسر الاجتماع يصلي منفردًا ولا يصلي في المسجد.

الشيخ: نعم، لكن نحن لا نقنع، ما نصلي في المسجد، على أساس نصلي منفردًا، وإنما نعمل دعوة لمن يترجح عندنا أنه يتجاوب معنا ألا يصلي في هذا المسجد، ويصلي في دار أحد هؤلاء المسلمين الطيبين.

السائل: بارك الله فيك.

الشيخ: يعني ما ينبغي أن نقنع بتهريبه فقط من هذا المسجد، وإلا فهي ذريعة كل واحد يصير يصلي في البيت كسلًا، لأنه والله الصلاة في هذا المسجد لا تصح، وإنما على هؤلاء أن يسعوا وأن يَتَجَمَّعُوا في أي مكان، وبعد ذلك يصلح الله ما لا

=

=

تعلمون ا.هـ

وسئل أيضا كما في نفس المصدر (٢/ ٢٩٨): بالنسبة للمسجد الذي فيه قبر.. في الحي ليس هناك مسجد إلا الذي فيه قبر جائز أن الإنسان يصلي فيه، أو ما حكمه؟

**فأجاب**: الذي يقصد الصلاة في المسجد الذي فيه قبر فصلاته باطلة، أما الذي يفاجأ بالصلاة خشية أن تفوته صلاة الجماعة ولا يجد وقتًا.. أو لا يجد مسجدًا آخر في المحلة التي هو فيها إلا هذا المسجد الذي فيه القبر فصلاته صحيحة.

* **مسألة**: هل تجوز صلاة الجنازة في مسجد فيه قبر؟

سئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٢/ ٢٩٣-٢٩٤): يوجد عندنا في مصر كثير من المساجد المقبورة التي بني من أجلها القبر أو بنيت هي من أجل القبر، ولا يوجد إلا القليل من المساجد التي تخلو من هذا، وصلاة الجنازة خاصة.

الشيخ: كيف؟

السائل: صلاة الجنازة، إذا مات إنسان يصلوها في تلك المساجد المقبورة، فنحن لا نذهب إليها، فتعلمون ثواب صلاة الجنازة، فنحن نُحْرَم من هذا الثواب بسبب عدم ذهابنا إلى تلك المساجد، فهل نذهب ونصلي مع الكراهية، أم لا نصلي أبدًا على صلاة الجنازة؟

الشيخ: سؤال جيد، قبل صلاة الجنازة، صلات الفريضة، كما تعلم من الصلوات الخمس، أين تصلونها؟

السائل: الحمد لله مكن الله لنا ببناء مساجد بالرغم من هذا يعني، لكن الناس لا يصلون فيها صلات الجنازة.

الشيخ: جميل، حينئذٍ تصلون على الميت في قبره.

=

=

السائل: في قبره، بعد دفنه.
الشيخ: وهل يكون الميت في قبره إلا بعد دفنه؟
السائل: لا اقصد بعد ما الناس يدفنوه وينزلوا، نصلي نحن يعني؟
الشيخ: ما أنا اقصد ما تقول أنت أنا اقصده، تصلون عليه في قبره ا.هـ
وسئل أيضا في تفس المصدر (٢/ ٢٩٤-٢٩٥): بالنسبة للنهي عن الصلاة في المسجد الذي فيه قبر، هل ذلك يشمل أيضًا النهي عن صلاة الجنازة في ذلك المسجد؟
الشيخ:... أليست صلاة؟ لا تصلى أي صلاة في مسجد فيه قبر؛ لنهي الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ذلك في أحاديث متواترة كنا قد جمعناها أو جمعنا ما تيسر لنا يومئذ في كتابي: «تحذير الساجد عن اتخاذ القبور مساجد».نعم.
مداخلة: بعضهم علل النهي بالركوع والسجود، وقال أن صلاة الجنازة لا سجود فيها، فبالتالي النهي عن الصلاة في المسجد الذي فيه قبر، قد يتوهم بعضهم أن هذا يسجد ويركع للميت المقبور مثلًا، فقال: حيث انتفت العلة فينتفي الحكم، هل هذا صحيح؟
الشيخ: ما هي العلة؟
مداخلة: إيهام السجود لصاحب القبر.
الشيخ: من أين هذه العلة جاءت؟
هذه علة عقلية وليست نقلية، ولذلك فلا يجوز أن يبنى عليها حكم شرعي يخالف النصوص العامة.
* **مسألة:** حكم الصلاة في مسجد فيه قبر في ساحته الخارجية.
**قال العلامة** الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٢/ ٣٠٦): الساحة إذا كانت من المسجد، وُيدْخَل إلى ساحة المسجد بباب؛ فهو داخل في حرم

=

=

المسجد، فسواء كان القبر في الساحة، أو في نفس الحرم فهو في كل من الحالتين في المسجد، والأحاديث التي جاءت في النهي عن اتخاذ القبور مساجد، وعن بناء المساجد على القبور، هذه النصوص كلها تشمل المسجد الذي فيه قبر، سواء كان داخل الحرم أو خارج الحرم، فلا يجوز.

* **مسألة**: حكم الصلاة في مسجد قد نبشت القبور التي فيه.

سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (١١/ ٤٣٩): لقد سمعت من بعض الأشخاص أن الصلاة في مسجد العباس الموجود في مدينة الطائف لا تجوز؛ بحكم أن تحته قبور وأمامه قبور، فهل هذا صحيح أم لا؟ أفتونا في ذلك؟

**فأجاب**: ليس هذا بصحيح؛ لأن مسجد العباس قد نبشت القبور التي فيه، وهيئ للصلاة، وقام بهذا ولاة الأمور، وأمرهم عليه العلماء، فلا حرج في ذلك، فالصلاة فيه لا حرج فيها والحمد لله ا.هـ

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٢/ ٢٩٨): كنت أريد أن أسأل، هؤلاء الذين أخرجوا عظام المسلمين البالية وجعلت خارج المسجد وهذا العذر يا شيخ هل يسوِّغ لنا أن نصلي دون أن نرى في ذلك حرج، أن نصلي داخل المسجد؟

**فأجاب**: يعني القبور نبشت، وأخرجت عظامها إلى خارج المسجد.

الملقي: أي نعم.

الشيخ: أكذلك؟

الملقي: أي نعم.

الشيخ: طبعًا لم يبق هناك محظور، هو في الأصل المشكلة من الناحية الشرعية كما تعلمون جميعًا تقوم على الظاهر، فلو فرض أن أرضًا للمسجد هي أصلها قبور، لكنها مدروسة ليس لها ظهور، فالصلاة في هذه الأرض أو في هذا المسجد

=

=

ليس فيها شيء..، والعكس بالعكس تمامًا، إذا فرض أن هناك قبرًا أو أكثر من قبر في أرض مسجد، والحقيقة أنه ليس هناك إلا هذا القبر الظاهر، أما في الأسفل لا شيء.

الملقي: لا شيء.

الشيخ: فهنا لا يجوز؛ لأنه العبرة بالظاهرة.

الملقي: جيد.

الشيخ: آه، فإذا كانت دُرِسَت القبور من المسجد وبخاصة إذا نبشت إذا كانت هناك لا يزال يوجد عظام كما تقول فدفنت في مكان آخر، فالمحظور زال بلا شك.

الملقي: الحمد لله.

الشيخ: لأنه العبرة دائمًا بالظاهر، ويعجبني بهذه المناسبة ما يروى عن المعري حينما قال في شعره:

**صاح هذي قبورنا تملأ الرحب... فأين القبور من عهد عاد**

أجاب:

**خفف الوطأ ما أظن أديم... الأرض إلا من هذه الأجساد**

فالأمر طبيعي {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا} (المرسلات: ٢٥) {أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا} (المرسلات: ٢٦)، فالعبرة إذًا بالشيء الظاهر، ومسجد الرسول لعلكم تعلمون.

الملقي: -صلى الله عليه وآله وسلم-.

الشيخ: كان عبارة عن قبور للمشركين فنبشت وأزيل النخيل وبُني المسجد.

* **مسألة:** حكم من سجن بمسجد فيه قبر.

قال ابن حزم في المحلى (٤/ ٢٧): ولا تحل الصلاة في مقبرة، مقبرة مسلمين كانت أو مقبرة كفار، فان نبشت وأخرج ما فيها من الموتى جازت الصلاة فيها،

=

=

ولا إلى قبر ولا عليه، ولو أنه قبر نبي أو غيره، فان لم يجد إلا موضع قبر أو مقبرة أو حماما أو عطنا أو مزبلة أو موضعا فيه شئ أمر باجتنابه: فليرجع، ولا يصلى هنالك جمعة ولا جماعة، فان حبس في موضع مما ذكرنا فانه يصلى فيه، ويجتنب ما افترض عليه اجتنابه بسجوده، لكن يقرب مما بين يديه من ذلك ما أمكنه، ولا يضع عليه جبهة ولا أنفا ولا يدين ولا ركبتين، ولا يجلس إلا القرفصاء، فان لم يقدر إلا على الجلوس أو الاضطجاع صلى كما يقدر واجزأه.

* **مسألة:** حكم الصلاة في مسجد فيه ضريح، وليس فيه جثة.

لا تجوز الصلاة بالمساجد التي بنيت على القبور ولا فرق في ذلك بين أن يكون القبر فيه رفات حقيقية لبعض الموتى، أو كان ذلك وهما من الأوهام، وخداعا من سدنة هذه المشاهد والقبور، فالفتنة حاصلة بكل ذلك، وذريعة الشرك موجودة في الصورتين، وغالب المشاهد المزعومة لأصحاب النبي ﷺ، وآل بيته، في البلدان: هي من النوع المكذوب الذي لا توجد فيه رفات هؤلاء المذكورين حقيقة، بل ربما لم توجد فيه رفات لأحد أصلا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في جامع الرسائل (١/ ٣١): وأما هذه المشاهد المشهورة فمنها ما هو كذب قطعًا؛ مثل المشهد الذي بظاهر دمشق المضاف إلى أبي بن كعب، والمشهد الذي في ظاهرها المضاف إلى أويس القرني، والمشهد الذي في سفح لبنان المضاف إلى نوح عليه السلام، والمشهد الذي بمصر المضاف إلى الحسين؛ إلى غير ذلك من المشاهد التي يطول شرحها بالشام والعراق ومصر وسائر الأمصار، حتى قال طائفة من العلماء، منهم عبد العزيز الكناني: كل هذه القبور المضافة إلى الأنبياء لا يصح منها إلا قبر النبي ﷺ، وقد أثبت غيره قبر الخليل عليه السلام أيضًا. وأما مشهد علي فعامة العلماء على أنه ليس قبره... وأصل ذلك أن عامة هذه القبور مضطرب مختلَق، لا يكاد يوقف منه على علم، إلا في

=

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥).

{قُلْ إِنْ} أَيْ مَا {أَدْرِي أَقَرِيب مَا تُوعَدُونَ} مِنْ الْعَذَاب {أَمْ يَجْعَل لَهُ رَبِّي أَمَدًا} غَايَة وَأَجَلًا لَا يَعْلَمهُ إِلَّا هُوَ.

عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦).

{عَالِم الْغَيْب} مَا غَابَ عَنْ الْعِبَاد {فَلَا يُظْهِر} يُطْلِع {عَلَى غَيْبه أَحَدًا} مِنْ النَّاس.

إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧).

{إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُول فَإِنَّهُ} مَعَ إطْلَاعه عَلَى مَا شَاءَ مِنْهُ مُعْجِزَة لَهُ

---

=

قليل منها بعد بحث شديد؛ وهذا لأن معرفتها وبناء المساجد عليها ليس من شريعة الإسلام، ولا ذلك من حكم الذكر الذي تكفل الله بحفظه حيث قال: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر/ ٩]؛ بل قد نهى النبي ﷺ عما يفعله المبتدعون عندها، مثل قوله الذي رواه مسلم في صحيحه عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك) وقال: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

وقد اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يشرع بناء هذه المشاهد التي على القبور، ولا يشرع اتخاذها مساجد، ولا تشرع الصلاة عندها، ولا يشرع قصدها لأجل التعبد عندها بصلاة واعتكاف أو استغاثة وابتهال ونحو ذلك، وكرهوا الصلاة عندها، ثم كثير منهم قال: الصلاة باطلة لأجل النهي عنها، وإنما السنة إذا زار قبر مسلم ميت، إما نبي أو رجل صالح أو غيرهما، أن يسلم عليه ويدعو له بمنزلة الصلاة على جنازته.

{يَسْلُك} يَجْعَل وَيَسِير {مِنْ بَيْن يَدَيْهِ} أَيْ الرَّسُول {وَمِنْ خَلْفه رَصَدًا} مَلَائِكَة يَحْفَظُونَهُ حَتَّى يُبَلِّغهُ فِي جُمْلَة الْوَحْي.

لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨).

{لِيَعْلَم} الله عِلْم ظُهُور {أَنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة أَيْ أَنَّهُ {قَدْ أُبْلِغُوا} أَيْ الرُّسُل {رِسَالَات رَبّهمْ} رُوعِيَ بِجَمْعِ الضَّمِير مَعْنَى مِنْ {وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ} عَطْف عَلَى مُقَدَّر أَيْ فَعَلِمَ ذَلِكَ {وَأَحْصَى كُلّ شَيْء عَدَدًا} تَمْيِيز وَهُوَ مُحَوَّل مِنْ الْمَفْعُول وَالْأَصْل أَحْصَى عَدَد كُلّ شَيْء[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ} [الجن: ٢٥]، أي:"قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: ما أدري أهذا العذاب الذي وُعدتم به قريب زمنه".

**قال الطبري**: "يقول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك: ما أدري أقريب ما يعدكم ربكم من العذاب وقيام الساعة".

قال القشيري:"أي: لا أدرى ما توعدون من العقوبة، ومن قيام الساعة أقريب أم بعيد؟ فكونوا على حذر، ويجب أن يتوقّع العبد العقوبات أبدا مع مجارى الأنفاس ليسلم من العقوبة".

**قال السعدي**:"{قُلْ} لهم إن سألوك فقالوا {متى هذا الوعد}؟ {إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا}".

قوله تعالى: {أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا} [الجن: ٢٥]، أي:"أم يجعل له ربي مدة طويلة؟".

قال ابن قتيبة:"أي: غاية".

**قال الطبري**: "يعني: غاية معلومة تطول مدتها".

=

=

**قال السعدي:**"أي: غاية طويلة، فعلم ذلك عند الله".

**قال ابن كثير:**"وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه السلام، لا يؤلف تحت الأرض، كذب لا أصل له، ولم نره في شيء من الكتب. وقد كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها، ولما تَبدَّى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال: يا محمد، فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جَهوريّ فقال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: "ويحك. إنها كائنة، فما أعددت لها؟". قال: أما إني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. قال: "فأنت مع من أحببت". قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث".

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: "يا بني آدم، إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده، إنما توعدون لآت".

عن أبي ثَعلبة الخُشني قال: قال رسول الله ﷺ: "لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم".

عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: "إني لأرجو ألا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم". قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة عام".

يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ أن يقول للناس أنه لا علم له بوقت الساعة والبعث ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد.

(أم يجعل له ربي أمدا) أي مدة طويلة، والمعنى أن وقوعه متيقن، أما وقت وقوعه فغير معلوم.

والمقصود من الآية الكريمة: بيان أن العذاب نازل بهم قطعا ولكن موعده قد يكون بعد وقت قريب، وقد يكون بعد وقت بعيد، لأن تحديد هذا الوقت مرده

=

=

إلى الله- تعالى- وحده.

- **قال الرازي**: المعنى أن وقوعه متيقن، أما وقت وقوعه فغير معلوم.

- **قال ابن عاشور**: كان المشركون يكثرون أن يسألوا رسول الله ﷺ(متى هذا الوعد) و (عن الساعة أيان مرساها) وتكررت نسبة ذلك إليهم في القرآن، فلما قال الله تعالى (حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا) الآية علم أنهم سيعيدون ما اعتادوا قوله من السؤال عن وقت حلول الوعيد فأمر الله رسوله ﷺ أن يعيد عليهم ما سبق من جوابه.

قال تعالى (يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا).

وقال تعالى (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله).

وقال تعالى (يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها).

وفي حديث جبريل قال ﷺ حينما سأله عن الساعة قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل) رواه مسلم.

- فإن قيل: أليس أنه قال ﷺ (بعثت أنا والساعة كهاتين) فكان عالما بقرب وقوع القيامة، فكيف قال: ههنا لا أدري أقريب أم بعيد؟ قلنا: المراد بقرب وقوعه هو أن ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى، فهذا القدر من القرب معلوم، وأما معنى معرفة القرب القريب وعدم ذلك فغير معلوم.

- وفي ذلك أن كل حديث فيه تحديد متى الساعة أو عمر الدنيا فهو حديث باطل لا يصح.

=

=

قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} [الجن: ٢٦]، أي:"وهو سبحانه عالم بما غاب عن الأبصار، فلا يظهر على غيبه أحدًا من خلقه".

**قال السعدي**:"بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيب".

**قال الطبري**: "يعني بـ {عالم الغيب}: عالم ما غاب عن أبصار خلقه، فلم يروه فلا يظهر على غيبه أحدا، فيعلمه أو يريه إياه".

قال قتادة:"{عالِمُ الغَيْبِ} عالم الوحي".

قال مقاتل بن سليمان: {عالِمُ الغَيْبِ} يعني: غيب نزول العذاب، {فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أحدًا} من الناس".

قال الحسن: "الغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

أي: هو جل وعلا عالم بما غاب عن الأبصار، وخفي عن الأنظار.

- الغيب ما غاب عن العباد.

(فلا يظهر على غيبه أحدا) أي: فلا يطلع على غيبه أحدا من خلقه.

قال تعالى (قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون).

وقال تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو).

وقال تعالى (فقل إنما الغيب لله).

وقال تعالى (ولله غيب السماوات والأرض).

وفي رد على أدعياء الغيب من السحرة والكهنة وغيرهم، فمن ادعى علم الغيب فهو كافر.

قوله تعالى: {إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} [الجن: ٢٧]، أي:"إلا من اختاره الله لرسالته وارتضاه، فإنه يُطلعهم على بعض الغيب".

**قال الطبري**: "إلا من ارتضى من رسول، فإنه يظهره على ما شاء من ذلك".

=

=

قال ابن قتيبة:"أي: اصطفَى للنبوة والرسالة: فإنه يُطلعه على ما شاء من غيبه".
قال السعدي:"أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به، وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم، فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحدا من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته، من غير أن تتخبطهم الشياطين، ولا يزيدوا فيه أو ينقصوا".

**قال ابن كثير**:"وهذا يعم الرسول الملكي والبشري".
قال قتادة:"فإنه يصطفيهم، ويطلعهم على ما يشاء من الغيب".
قال قتادة:"فإنه يظهره من الغيب على ما شاء إذا ارتضاه".
قال ابن عباس:"فأعلم الله سبحانه الرسل من الغيب الوحي وأظهرهم عليه بما أوحي إليهم من غيبه، وما يحكم الله، فإنه لا يعلم ذلك غيره".
قال ابن زيد:"ينزل من غيبه ما شاء على الأنبياء أنزل على رسول الله ﷺ الغيب القرآن، قال: وحدثنا فيه بالغيب بما يكون يوم القيامة".
قوله تعالى: {فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} [الجن: ٢٧]، أي:"ويرسل من أمام الرسول ومن خلفه ملائكة يحفظونه من الجن؛ لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة".
**قال الطبري**:"يقول: فإنه يرسل من أمامه ومن خلفه حرسا وحفظة يحفظونه".
قال ابن قتيبة:"أي: يجعل بين يديه وخلفه {رَصَدًا} من الملائكة: يدفعون عنه الجن أن يسمعوا ما ينزل به الوحي، فيُلقُوه إلى الكَهَنة قبل أن يخبِر به النبيُّ -ﷺ- الناسَ.
عن قتادة، قوله: "{فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}، قال: الملائكة".
عن إبراهيم: "{مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}، قال: ملائكة يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم". وفي رواية:"الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من

=

الجنّ". وفي رواية أخرى:"الملائكة رصد من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من الجن".

قال ابن عباس:"هي معقبات من الملائكة يحفظون النبيّ ﷺ من الشيطان حتى يتبين الذي أرسل به إليهم، وذلك حين يقول: {لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ}".

قال الضحاك:"كان النبيّ ﷺ إذا بعث إليه الملك بالوحي بعث معه ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه، أن يتشبَّه الشيطان على صورة الملك".

قال مقاتل:"كان إذا بعث الله ﷻ نبيا أتاه إبليس على صورة جبريل، وبعث الله- تعالى- من بين يدي النبي- ﷺ- ومن خلفه رصدا من الملائكة فلا يسمع الشيطان حتى يفرغ جبريل عليه السلام من الوحي إلى- ﷺ- فإذا جاء إبليس أخبرته به الملائكة وقالوا: هذا إبليس، وإذا أتاه جبريل"

(إلا من ارتضى من رسول) أي: إلا من اختاره الله وارتضاه لرسالته بنبوته، فيظهره على من يشاء من الغيب، فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به.

وذلك أن الرسل ليسوا كغيرهم، فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحدا من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته، من غير أن تقربه الشياطين، فيزيدوا فيه أو ينقصوا، ولهذا تضمن القرآن والسنة النبوية الإخبار عن كثير من المغيبات السابقة واللاحقة وغيرها.

- قال القرطبي (إلا من ارتضى من رسول) فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه؛ لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات؛ وفي التنزيل (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم).

وقال: والأولى أن يكون المعنى: أي لا يظهر على غيبه إلا من ارتضى أي اصطفى للنبوة، فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه: ليكون ذلك دالا على نبوته.

=

- قال الآلوسي: قوله (إلا من ارتضى من رسول) أي: لكن الرسول المرتضى بظهره- جل وعلا- على بعض الغيوب المتعلقة برسالته... إما لكون بعض هذه الغيوب من مباديها، بأن يكون معجزة، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية، وكيفيات الأعمال وأجزيتها، ونحو ذلك من الأمور الغيبية، التي بيانها من وظائف الرسالة.

بأن يسلك من جميع جوانبه عند اطلاعه على ذلك، حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين، لما أريد اطلاعه عليه.

(فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) أي: فإنه تعالى يرسل من أمامه ومن خلفه حرسا وحفظة يحفظونه من الجن.

كما قال تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد).

وقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

قوله تعالى: {لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ} [الجن: ٢٨]، أي:"ليعلم الرسول ﷺ، أن الرسل قبله كانوا على مثل حاله من التبليغ بالحق والصدق، وأنه حُفظ كما حُفظوا من الجن".

وفي قوله تعالى: {لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ} [الجن: ٢٨]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: ليعلم محمد أن قد بلغ جبريل إليه رسالات ربه، قاله ابن عباس.

عن ابن عباس، في قوله: "{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}، قال: أربعة حفظة من الملائكة مع جبرائيل {لِيَعْلَمَ} محمد {أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}، قال: وما نزل جبريل

=

=

عليه السلام بشيء من الوحي إلا ومعه أربعة حفظة".

**الثاني**: ليعلم محمد أن الرسل قبله قد بلغت رسالات الله وحفظت، قاله قتادة، وبه قال مقاتل، وابن قتيبة.

قال مقاتل:"يقول: ليعلم محمد- ﷺ- أن الأنبياء قبله قد حفظت، وبلغت قومهم الرسالة، كما حفظ محمد- ﷺ- وبلغ الرسالة".

عن قتادة: "{لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ}، ليعلم رسول الله ﷺ أن الرسل قبله قد أبلغت عن ربها وحفظت".

قال قتادة:"ليعلم نبيّ الله ﷺ أن الرسل قد أبلغت عن الله، وأن الله حفظها، ودفع عنها".

قال ابن قتيبة:"{لِيَعْلَمَ} محمد أن الرسل قد بلَّغتْ عن الله عز وجل، وأن الله حفظها ودَفَعَ عنها، وأحاط بما لَدَيها".

**الثالث**: ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد بلغت عن ربها ما أمرت به، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم".

قال ابن عطية:"وهذا العلم لا يقع لهم إلا في الآخرة".

وعلّق ابن كثير على قول مجاهد، قائلا:"في هذا نظر".

**الرابع**: لتعلم الجنّ أن الرسل قد بلغوا ما أنزل الله عليهم، ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم، ذكره الفراء.

ويُقرأ: «لِتَعْلَمَ» بالتاء، يريد: لتعلم الجنُّ أن الرسل قد بلَّغتْ عن إلهِهم بما وَدُّوا من استراق السمع.

**الخامس**: ليعلم الله أن رسله قد بلغوا عنه رسالاته، لأنبيائه، قاله الزجاج.

**قال الطبري**:"أولى هذه الأقوال عندنا بالصواب، قول من قال: ليعلم الرسول أن

=

=

الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم؛ وذلك أن قوله: {لِيَعْلَمَ} من سبب قوله: {فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} وذلك خبر عن الرسول، فمعلوم بذلك أن قوله ليعلم من سببه إذ كان ذلك خبرا عنه".

قوله تعالى: {وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ} [الجن: ٢٨]، أي:"وأن الله سبحانه أحاط علمه بما عندهم ظاهرًا وباطنًا من الشرائع والأحكام وغيرها، لا يفوته منها شيء".

قال ابن جريج: "أحاط علما".

**قال الطبري:**"يقول: وعلم بكلّ ما عندهم".

**قال الزمخشري:**"بما عند الرسل من الحكم والشرائع، لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفا، فهو مهيمن عليها حافظ لها".

قوله تعالى: {وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} [الجن: ٢٨]، أي:"وأنه تعالى أحصى كل شيء عددًا، فلم يَخْفَ عليه منه شيء".

قال مقاتل:"يعنى: نزول العذاب بهم".

**قال الطبري:**"يقول: علم عدد الأشياء كلها، فلم يخف عليه منها شيء".

قال السمعاني:"أي: وأحصى كل شيء معدودا، ويقال: عد كل شيء عددا، وهذا على معنى أنه لا يخفى على الله شيء كثير أو قليل، جليل أو دقيق".

قال ابن عطية:"معناه: كل شيء معدود".

**قال الزمخشري:**"من القطر والرمل وورق الأشجار، وزبد البحار، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه، و {عَدَدًا}: حال، أي: وضبط كل شيء معدودا محصورا. أو مصدر في معنى: إحصاء".

عن سعيد بن جُبير:"أنه قال في هذه الآية: {إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ}... إلى قوله: {وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}، قال: ليعلم الرسل أن ربهم أحاط بهم، فبلغوا

=

=

رسالاتهم".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: غ- قوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) (الجن: ٢٦) للسائل أن يسأل عن قوله تعالى: (على غيبه). بإعادة الظاهر مضافًا إلى الضمير، هل ذلك من قبيل ما تكرره العرب لتفخيم الأمر وتعظيمه؟ كما قال قائلهم:

لا أري الموت يسبق الموت شئ نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

وقال تعالى: (الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) (الحاقة: ١- ٣)، وقال تعالى: (الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) (القارعة: ١- ٣)، فيكون قوله: (على غيبه) واقعًا موقع: "عليه"، وتكون الآية على هذا مثل قوله: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ) (النمل: ٦٥) وما ورد من مثله وهو الذي يقتضيه قوله تعالى في مطلع هذه الآية: (عالم الغيب)، فلا يجب يكون بين الآي الواردة في هذا المعنى خلاف، ويكون مجمل جميعها على العموم؟ أم يراد بهذه (الآية) خصوص لم يرد بسواها من الآي الآخر وإن كان داخلًا تحت عموم تلك الآي؟

والجواب، والله أعلم: أن هذه الآية مراد بها خصوص ما انفرد سبحانه بعلمه ولم يطلع عليه أحد من خلقه ولا يظهر سبحانه عليه إلا من ارتضاه من رسله مع سلوك الرصد من الملائكة بين يديه ومن خلفه حفظًا لغيبه تعالى من مسترق سمع أو مستطلع، فهذا غيب لا سبيل لأحد من الخلق إليه على مقتضى الآية لا بتكهن ولا تنجيم ولا زجر ولا غير ذلك، وهو كوقوع الساعة وتجليها لوقتها إلى غيرها من غيوب استأثر سبحانه بها ولم يعلم أحدًا بشئ منها ما هية فيتشوف مخلوق إلى تعرف وقت شئ منها أو كيفية ظهور أو غاية إذ لولا الإخبار الصدق بماهية الساعة لما وقع لأحد من العالم تشوف إلى تعرف قيامها ولا كنا لنعلم ما

=

=

الساعة، وإذا لم نعلم ماهية مغيب ما لم نتشوف إلى تعرف ماهو تابع للماهية، فلهذا ضاق عنها نطاق التمثيل حتى أوهم كلام بعض الجلة أن المراد بهذا الغيب الذي استأثر سبحانه بعلمه إنما هو علم الساعة، وان ما سواها يمكن الوصول إليه بالكهانة والتنجيم والإلهام وغير ذلك، ولو أن هذا القائل أراد ظاهر ما يسبق من كلامه لما سلم له، لأنه لو لم نسمع باسم الساعة لعجزنا عن تعرف موجود مقدر الوقوع يسمي بهذا الاسم، فالذي يجب أن يفهم عن هذا القائل أنه يريد أن لله غيوبًا لا تحصي لا يظهر عليها أحدًا من خلقه على مقتضى هذه الآية الخاصة بهذا المعنى المجردة له، ومن نحو هذا ما يشير إليه قوله تعالى: (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) (البقرة: ٢٥٥)، وإذا أظهر تعالى شيئًا من هذا الغيب فإنما يدركه الخلق أو من شاء الله منهم بعد ظهوره وكيانه، فيعلم إذ ذاك وقد كان هذا الظاهر في غيبه الذي انفرد به عن خلقه لم يعلم أحد من الخلق له ماهية إلا بعد ظهوره، وما غاب عن الخلق أكثر. هذا- والله أعلم- هو المراد بهذا الغيب المذكور هنا، وعليه يحمل ما قدم عما ذكر وإن أوهم من حيث حصر التمثيل أنه غيب الساعة خاصة، وهو ولا بد لم يرد ذلك وغنما أراد غيب الساعة وما كان مثله مما لم تذكر له ماهية، فلم يكن التمثيل كما تقدم إلا بما أعلمنا بماهيته فصح السؤال عنه.

وأما أمر الساعة فهذا- والله أعلم- ما يمكن أن يقال إنه الذي تجردت له آية سورة الجن، وأما الوارد في قوله تعالى: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) (النمل: ٦٥) وما ورد من مثله فليس بخاص بل هو عام على إطلاقه وعمومه، ومصرف المنع إلى الإحاطة والاستيفاء والتيقن وحصر جزئيات المعلومات، فلا يعلم ذلك علم استيفاء وإحاطة إلا الله. فهو الذي أحاط بكل شئ علمًا وأحصى كل شئ عددًا، ثم لا يمتنع إظهاره سبحانه من شاء

=

=

من خلقه من غير الرسل على ما شاء مما أشير إليه ولا يتجزأ ما أطلعهم عليه مما عنده سبحانه، ويدخل تحت هذا العموم العلم الذي استأثر سبحانه بعلمه وانفرد به دون خلقه، إلا أن حكم ذلك على ما تقدم وتقرر، ومن نحو العموم الواقع هنا قوله تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الجاثية: ٢٧)، فهذا كقوله: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) (هود: ١٢٣)، فملك السماوات والأرض له سبحانه لا شريك له في ذلك ثم قد قال تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ) (آل عمران: ٢٦)، وأعلمنا سبحانه أن نبيه سليمان طلب ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وأتاه الله ذلك، وليس ما أوتيه هذا النبي الكريم صلي الله عليه وسلم جزاءًا له نسبة إلى ملك الله تعالى، ولا يمكن توهم ذلك. وإذا كان ما أوتي سليمان، عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذه حالة فكيف ما أوتيه غيره مما لا يبلغ معشار ما أوتيه سليمان، عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فكذا الأمر في الغيب، فلا يعلم غيب السماوات والأرض على ما هو علم إحاطة وتفصيل إلا هو سبحانه، يطلع من يشاء من خلقه على ما شاء من ذلك، ولا يتجزأ ما اطلع عليه الكل من نبي ومن سواه مما لم يطلعهم عليه، ثم إن ما عند من سوى الأنبياء والمصطفين من العباد لا يعلم أنهم تيقنوا ذلك، فإذا لم يكن علمهم علم تيقن وتحقيق فإطلاق اسم العلم عليه مجاز بل هو ظن وإن قوي إذ لم يصحبه اليقين ولا الاستيفاء ولا الإحاطة بالجزئيات فالمتصف به ليس بعالم غيب على الحقيقة، وبهذه الصفة القاصرة هو العلم الموجود عند الكهان وغيرهم ممن لم يستمد من الوحى، وما تسلمه الشريعة، فنفى الإتصاف بعلم الغيب عمن عري عن التيقن أو من لم يحط علمه بجزئيات ما يعلمه ولم يستوفه وجه واضح، والإطلاق بأنه ليس عالمًا بالغيب إطلاق صحيح، ثم إن القول بأنه مخير بغيب وبعض تفاصيل عن مغيبات غير معارض ولا متناقض، فلا يلزم على ذلك

=

=

اعتراض بعلم شق وسطيح وما أخبرا به، لأنهما وإن أخبرا بعجائب وتفاصيل فقد فاتهما غير ذلك من جزئيات في معلومهما الذي أخبرا به لـم يخبرا بها ولا أحاطا بعلمهما. وكذا غيرهما من الكهان والمنجمين، فقد وضح محمل آيات العمـوم. وأمـا آيـة سـورة الجـن فمحملهـا علـى الخـصوص كمـا تقـدم، وممـا يزيـد ذلـك وضـوحًا ويعـضد مـا قـدمنا مـن المفهـوم في الـضربين أن الله سـبحانه لمـا ذكـر المغيبات الخمس فقال: (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) (لقمـان: ٣٤) إلـى آخرهـا أفـرد علـم الـساعة بقولـه: (إن الله عنـده علـم الساعة)، وعبارة: "عند" تقتضى بوضـعها خـصوصًا وقربًـا وتمكنـا، وكـذا أورد تعـالى هـذا الإخبـار حيـث تكـرر قـال تعـالى بعـد: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) (الأعـراف ١٨٧)، وقـال تعـال: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) (الملك: ٢٥- ٢٦)، فجرى هـذا الإخبـار مقيدًا بعبارة "عند" حيث تكـرر ولـم يـشترك معهـا في آيـة لقمـان مـا ذكـر بعـدها في الـدخول تحت حكـم " عنـد" ومـا تقتضيه مـن الخـصوص بـل قـال تعـالى: (وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) (لقمان: ٣٤) إلى ما بعده فتفصيل هذا الإخبار والتفصيل في نظم الآية يفهـم منـع التساوي، ولا شك أن عدم اعتبار الجزئيات في تركيـب الألفـاظ يـؤدي إلـى عـدم فهم ما انتظم منها.

فإن قيل: إنما ورد بعد ذكر الساعة من قولـه تعـالى: (وينـزل الغيـث) إلـى مـا بعـد مفصولًا عـن حكـم " عنـد" لـيفهم التكـرار، إذ المعلـوم أن تكـرر نـزول الغيـث- مهما كانت الحاجة إيه- هو عين الإنعام والإحسان إلى العبـاد، فلهـذا ورد بلفـظ يقتضي التكرر وهو لفظ المستقبل من الفعل، فـأحرز بـذلك هـذا الإنعـام العظـيم والتذكير به، فهو كالوارد في قوله تعالى: (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ

=

=

وَالْإِشْرَاقِ) (ص: ١٨) (ولم يقل) مسبحات، وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ) (الملك: ١٩)، وهذا كثير فالإحراز ورد تفصيل الإخبار. قلت: قصد هذا المعنى بين الإمكان وإحراز- عند- ما تقتضيه من معناها كذلك، ولا تعارض بين المقصدين، والإيجاز مقتض حصول المعنيين فجئ بما يحرزهم بأوجز لفظ وأبلغ عبارة، والله أعلم.

فإن قلت: فإن التعبير " بعند" قد ورد من الضرب العام من الغيب قال تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) (الأنعام: ٥٩)، وهي استعارة عبر بها عن التوصل للغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفاتح إلى المغيب عن الإنسان مما لا يصل إليه من ليست عنده مفاتحه، وقد دخل ذلك تحت حكم " عند" ومقتضاها من الاختصاص، مع أن الآية لم يرد فيها خصوص على علم الساعة على ما تقدم. فالجواب أن هذا مما يزيد ما تقدم وضوحًا إذ قد تبين قبل أن المراد من ذكر الغيب في كتاب الله ضربان. أحدهما خاص وهو المراد في سورة الجن وغنه لا مطمع لأحد من الخلق في الوصول إلى شئ منه على ما مر في ذكر الآية، والثاني عام على ما تقدم والوصول إلى علمه علم استيفاء وحصر بجزئياته مقدرًا وغاية وتيقنا لذلك كله جملة وتفصيلا ممنوع، فهو لاحق من هذه الجهة بخصوص الضرب الأول، فلا يحيط بعلمه على ما تبين إلا الله تعالى، فحق لهذا الضرب إذا أريد به ما ذكرنا من الدخول تحت حكم " عند" وهو المراد بهذه الآية، ألا تري أنها مفصحة بذلك في قوله تعالى: (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام: ٥٩) فقد وفت هذه الآية بتفاصيل المغيبات وحصرها والإحاطة بها بكل جهاتها ولا يعلمها على ذلك إلا الله سبحانه.

ولنتبع هذا بكلام من تعرض لبسط المراد من آية الجن فأقول: وقع في التفسير

=

=

المنسوب لفخر الدين أبي الفضل بن الخطيب رَحِمَهُ اللَّهُ، بعد تقرير مفهوم آية سورة الجن وأن أراد وأن المراد بها ما تقدم من التخصيص، فقال في رده على الزمخشري ومن قال بقوله في إنكار كرامات الأولياء واستجراره مع ذلك إنكار التكهن والتنجيم وما يرجع إلى هذا، ودعواه أن هذا نص القرآن تعلقًا بهذه الآية، فقال أبو الفضل ردًا على من ذكرت: واعلم أنه لابد من القطع بأن ليس مراد الله من هذه الآية أنه لا يطلع أحدًا على شئ من المغيبات إلا الرسل، بدليل ما ثبت من الأخبار القريبة من التواتر أن شقا وسطيحًا كانا كاهنين، وإخبارهما بظهور نبينا محمد صلي الله عليه وسلم، (وتعيين زمانه، وشهرتهما بهذا العلم حتى رجع إليهما كسرى في تعرف أخبار نبينا صلي الله عليه وسلم)، فثبت أنه تعالى قد يطلع على ما يشاء من الغيب غير الرسل. ودليل ثان وهو أن جميع أرباب الملل والأديان مطبقون على صحة التعبير، وأن المعبر يخبر عن وقوع الأشياء الآتية في المستقبل فتقع كما أخبر. ودليل ثالث وهو أن الكاهنة البغدادية التى نقلها السلطان سنجر بن ملكشاه من بغداد إلى خراسان سألها عن الأحوال الآتية في المستقبل، وذكر ما وقع على وفق إخبارها. قال أبو الفضل بن الخطيب: وإنا قد رأينا أناسًا من المحققين في علوم الكلام والحكمة حكوا عنها أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة إخبارًا على سبيل التفصيل وجاءت تلك الوقائع على وفق خبرها. قال وبالغ أبو البركات في كتاب المعتبر في شرح حالها وقال: تفحصت عن حالها مدة من ثلاثين سنة حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخبارًا مطابقًا. ودليل رابع: أنا شاهدنا أصحاب الإلهامات الصادقة، وليس هذا مختصًا بالأولياء بل قد يوجد في السحرة من يكون كذلك، ونري الأخبار النجومية قد تكون مطابقة موافقة للأمور وإن كانوا قد يكذبون في كثير منها، وإذا كان ذلك مشاهدًا محسوسًا فالقول بأن القرآن مما يدل على خلافة مما يجر إلى الطعن في

=

=

القرآن وذلك باطل، فعلمنا أن الأولى الصحيح ما ذكرناه، والله أعلم.
ونشير إلى ما قدم قبل كلامه هذا وهو أن قوله تعالى (على غيبة) ليس فيه عموم، فيكفي في مقتضاه ألا يطلع سبحانه ولا يظهر خلفه على غيب واحد من غيوبه، فيحمل على وقت وقوع القيامة، فيكون المراد من الآية عقب قوله: (قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا) (الجن: ٢٥) يعن وقوع القيامة، فإنه من الغيب الذي لا يظهره الله لأحد بالجملة، فقوله: "على غيبه" لفظ مفرد مضاف فيكفي في العمل به إرادة غيب واحد، وأما العموم فليس في الآية لفظ يدل عليه. انتهى معنى كلام أبي الفضل، رحمة الله. وقد تحصل مضمنة فيما تقدم بأوفى مما أوردنا من كلامه.
فإن قلت: قد تبين ما بين الضربين من العموم والخصوص، واتضحت الحال فيهما، فما وجه انتظام ما ورد في آية لقمان مع ذكر الساعة، وظاهر ما تقدم من التأويل حاكم بالفرق، وإن أمر الساعة يخالف بخصوصه ما ذكر معها من الأربع، والحديث الصحيح قد ورد على مقتضى ظاهر الآية حين ذكر، عليه السلام، مجيبًا للسائل فأتبع بقوله: في خمس لا يعلمهن إلا الله، وذلك ملحق لهذه الأربع، بحكم الساعة في خصوص غيبها؟
فأقول، وأسأل الله توفيقه: إن الحديث الصحيح مشير إلى هذه الغيوب، وإنها في استعلامها والإطلاع علي ما شاء تعالى أن يطلع عليه منها ليست على منهج واحد، ألا ترى أن منها أمورًا يعظم موقعها في العالم ويعم ويخص كتقلب الدهور والدول وتغير الحالات التي تعم وما يرجع إلى هذا، وهذه هي المرادة بحديث ابن عباس الذي أخرجه الترمذي، قال: "بينما رسول الله صلي الله عليه وسلم جالس في نفر من أصحابه إذ رمى بنجم فاستنار، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟ قالوا: كنا نقول:
=

=

يموت عظيم أو يولد عظيم، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم فإنه لا يرمي به لموت واحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك اسمه وتعالى إذا قضى أمرًا سبح حملة العرض وسبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلى هذه السماء، ثم يسأل أهل السماء السادسة أهل السماء السابعة ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا وتختطف الشياطين السمع فيرمون- يعنى بالشهب- فيقذفون على أوليائهم فما جاؤوا به على وجه فهو حق، ولكنهم يحرفونه ويزيدون". وفي حديث أبي هريرة الذي خرجه البخاري، وهو أن نبي الله صلي الله عليه وسلم قال: إذا قضي الله الأمر في السماء ضربت (الملائكة) بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا؟ قال ربكم، قالوا: للذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعهما مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، وصفه سفيان بكفه فحرقها وبدد بين أصابعه، فيسمع الكلمة ويلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا وكذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء".

قلت: وهذان الحديثان وما ورد من مثلهما معرفة بقضايا ترتج لها السماوات وتستطلعها الملائكة السبع بجملتها وتختطفها الشياطين مترصدين لتلقفها، ولا يختص بها صنف من الملائكة عن غيرهم، إما ما يتكرر في عالم الغيب من الكون والفساد، من متوالي إيجاد الآحاد، وتكرر نزول الأمطار. وشبه ذلك، فلا يستطلعها من الملائكة إلا آحاد وكلوا بها، وإن تكاثروا عددًا فليس ذلك كالمتقدم في الحديثين لعظيم عمومه، من ذلك حديث ابن مسعود: "يجمع خلق

=

=

أحدكم في بطن أمة أربعين يومًا ثم يكون علقة ثم يكون مضغة، إلى قوله في الحديث: أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد... الحديث، وكما أشار إليه حديث " " (بياض بالاصل) وقوله فيه: اسق حديقة فلان، إلى ما يرجع إلى هذا القبيل، ولا توقف في أن أربعة الغيوب المذكورة مع الساعة في سورة لقمان راجعه إلى قبيل ما ذكرنا، وذلك كله ليس من تلك المقدورات العامة، بل هى بالنسبة إلى تلك جزئيات يعلمها من وكيل بها من الملائكة، ولا يستخبرها أهل السماوات، ولا تترصدها الشياطين ترصد تلك القضايا العامة، وصحيح الحديث قاض بالفرق البين. فأشارت الآيات الأربع والأحاديث المشار إليها إلى أن هذا الضرب من المغيبات كأنها تلي في حالها الغيبي ما ذكر معها من أمر الساعة وللساعة خصوص ما تقتضيه " عند" كما تقدم، فهذا- والله أعلم- وجه انتظام هذه الغيوب الأربعة مع ذكر الساعة، وتحصل بهذا الاعتبار تفصيل الغيوب إلى عام وخاص وخاص من ذلك الخاص، وهذا الخاص الأخير لا يعلمه مطلقًا إلا المنفرد بعلمه سبحانه، ثم لا يحيط بالضربين قبله على ما أشير إليه من تفصيل أحكامها على الاستيفاء والإحاطة والحصر إلا هو سبحانه، وأنه تعالى المنفرد بكل الغيوب، ولا يعلمها أحد على ما هي عنده كما وضح قبل وتبين، ولم يبق للطاعنين مدخل بوجه ولا على حال.

وأما تخصيص آية سورة الجن بما ورد فيها فوجه ذلك- والله أعلم- إما لم تقدم من قول الجن في إخبار الله تعالى عنهم: (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا) (الجن: ٨- ٩)، فلما تقدم هذا من قولهم وإخبارهم عما كانت الحال عليه قبل بعثة رسول الله صلي الله عليه وسلم، وأن في ذلك من قولهم واطلاعهم على الغيوب أو الكثير منها، أعلم تعالى أن من الغيب ما ليس لهم ولا

=

# سُورَة المُزَّمِّل(١)

=

لغيرهم مطمع في الإطلاع عليه، وأنهم في ترصدهم ومقاعدهم للسمع ممنوعون هم ومن سواهم عما انفرد بعلمه سبحانه وحكم أن لا يطلع عليه أحد من خلقه، فهذا وجه ورود هذه الآية هنا. وهنا انتهى ما ألهم الله تعالى إليه في هذه الآية مما تعرض إليه الإمام أبو الفضل رَحِمَهُ الله وبسطناه بما يدفع ما يوهمه موجز كلامه في التمثيل للغيب المخصوص، فبسطته بما أرجو أنه مراده ودافع لما يعترض عليه فيه حين أجمل في إغفاله توجيه تخصيص الغيوب الأربعة بذكرها مع غيب الساعة في سورة لقمان ووجه اختصاص سورة الجن بالوارد فيها، وأتيت في ذلك بما ألهم الله سبحانه إليه، وأرجو أنه شاف إن شاء الله، وإن تحمل غفلة أو سهوًا فأسأل الله عفوه في ذلك، وعذري أنى لم أجد في ذلك من تعرض لشئ من هذا إلا ما قدمت ذكره مع إشكال الأمر في ذلك)، والله سبحانه أعلم بما أراد. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٨٤-٤٩٠).

(١) السّورة مكِّيّة، قاله ابن عباس، وابن الزبير، والحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر، وحكاه ابن الجوزي عن إجماع المفسرين.
عن ابن عباس، قال: "نزلت {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}، بمكة"، وروي عن ابن الزبير مثله.
**الثاني**: أنها مكية إلا قوله: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى} [المزمل: ٢٠] إلى آخر السورة، فإن ذلك نزل بالمدينة. وهذا مروي عن ابن عباس -أيضا-، وبه قال ابن يسار، ومقاتل، وحكاه ابن عطية عن الجمهور.
قال السيوطي: "إن استثناء قوله: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ} [المزمل: ٢٠]، إلى آخر السورة يرده ما أخرجه الحاكم عن عائشة «نزل بعد
=

=

نزول صدر السورة بسنة وذلك حين فرض قيام الليل في أول الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس»".

قال ابن عاشور:"الظاهر أن الأصح أن نزول: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ} [المزمل: ٢٠] إلى آخر السورة نزل بالمدينة لقوله تعالى: {وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ} [المزمل: ٢٠]، إن لم يكن ذلك إنباء بمغيب على وجه المعجزة.. والروايات عن عائشة مضطربة".

**الثالث**: أنهما مكية سوى آيتين منها، قوله ﷻ: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} [المزمل: ١٠]، والتي بعدها. حكي ذلك عن ابن عباس، وقتادة.

* آياتها ثمان عشرة فى عَدّ الكوفة، وتسعة عشر فى البصرة، وعشرون فى الباقين. وكلماتها مائتان وخمس وثمانون. وحروفها ثمانمائة وستّ وثلاثون. المختلف فيها ثلاث آيات: المزَّمِّل، شيبا، {إِلَيْكُمْ رَسُولًا}. فواصل آياتها على الأَلف، إِلاَّ الآية الأُولى؛ فإِنه باللاَّم، والأَخيرة؛ فإِنَّها (بالرّاءِ). مجموعها (رال).

* عُرفت «سورة المزمل» بهذا الاسم ولم يرد لها أي تسميات أخرى، ويُراد بـ «المزمل» إما الصفة التي نادى بها الله تعالى نبيه محمد ﷺ، أو يُراد بها حكاية اللفظ.

قال الزحيلي:"سميت «سورة المزمّل»، أي: المتلفف بثيابه، لأنها تتحدث عن النبي ﷺ في بدء الوحي، ولأنها بدئت بأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يترك التزمل: وهو التغطي في الليل، وينهض إلى تبليغ رسالة ربه ﷻ".

قال المهايمي:"سميت له لدلالته على عظم أمر الوحي، لأنه أقوى الخلائق كان يرتعد عنده فيتزمل".

وليست لهذه السورة سوى هذا الاسم الذي اشتهرت به.

=

مَكِّيَّة إِلَّا آيَة فمدنية وآياتها عشرون آية.

**بسم الله الرحمن الرحيم**(١)

يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١).

{يا أيها المزمل} النبي وأصل الْمُتَزَمِّل أُدْغِمَتْ التَّاء فِي الزَّاي أَيْ الْمُتَلَفِّف بِثِيَابِهِ حِين مَجِيء الْوَحْي لَهُ خَوْفًا مِنْهُ لهيبته.

قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢).

{قم الليل} صل {إلا قليلا}.

نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣).

{نِصْفه} بَدَل مِنْ قَلِيلًا وَقِلَّته بِالنَّظَرِ إِلَى الْكُلّ {أَوْ اُنْقُص مِنْهُ} مِنْ النِّصْف

---

=

* معظم مقصود السّورة: خطاب الانبساط مع سيّد المرسلين، والأَمرُ بقيام اللَّيل، وبيان حُجّة التَّوحيد، والأَمر بالصّبر على جفاءِ الكفَّار، وتهديدُ الكافر بعذاب النار، وتشبيه رسالة المصطفى برسالة موسى، والتخويف بتهويل القيامة، والتسهيل والمسامحة فى قيام اللَّيل، والحَثّ على الصدقة والإِحسان، والأَمر بالاستغفار من الذّنوب والعصيان، فى قوله: {واستغفروا الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

* المتشابهات: قوله تعالى: {فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرآن}، وبعده: {مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}؛ لأَنَّ الأَوّل فى الفَرْض، وقيل: فى النافلة: خارج الصّلاة. ثم ذكر سبب التخفيف، فقال: {سَيَكُوْنُ مِنكُمْ مَّرْضَى}، ثم أَعاد فقال: {مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} والأَكثرون على أَنَّه فى صلاة المغرب، والعشاءِ.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{قَلِيلًا} إلى الثلث.

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤).

{أَوْ زِدْ عَلَيْهِ} إِلَى الثُّلُثَيْنِ وَأَوْ لِلتَّخْيِيرِ {ورتل القرآن} تثبت في تلاوته {ترتيلا}.

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥).

{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْك قَوْلًا} قُرْآنًا {ثَقِيلًا} مُهِيبًا أَوْ شَدِيدًا لِمَا فِيهِ مِنْ التَّكَالِيف.

إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦).

{إِنَّ نَاشِئَة اللَّيْل} الْقِيَام بَعْد النَّوْم {هِيَ أَشَدّ وَطْئًا} مُوَافَقَة السَّمْع لِلْقَلْبِ عَلَى تَفَهُّم الْقُرْآن {وَأَقْوَم قِيلًا} أَبْيَن قَوْلًا.

إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧).

{إِنَّ لَك فِي النَّهَار سَبْحًا طَوِيلًا} تَصَرُّفًا فِي إِشْغَالك لَا تَفْرُغ فِيهِ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآن

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨).

{وَاذْكُرْ اسْم رَبّك} أَيْ قُلْ بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم فِي ابْتِدَاء قِرَاءَتك {وَتَبَتَّلْ} انْقَطِعْ {إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} مَصْدَر بَتَلَ جِيءَ بِهِ رِعَايَة لِلْفَوَاصِلِ وَهُوَ مَلْزُوم التَّبَتُّل.

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩).

هُوَ {رَبّ الْمَشْرِق وَالْمَغْرِب لَا إِلَه إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} مُوَكَّلًا لَهُ أُمُورك[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالت: سموا =

=

هذا الرجل اسمًا؛ فصُدوا الناس عنه، قالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قال: ليس بساحر، فتفرق المشركون على ذلك؛ فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها؛ فأتاه جبريل عليه السلام فقال: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)} {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)}.

أخرجه البزار في "مسنده" (٣/ ٧٧ رقم ٢٢٧٦ - "كشف")، والطبراني في "المعجم الأوسط" (٢/ ٣١٩ رقم ٢٠٩٦) من طريق معلي بن عبد الرحمن ثنا شريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر به.

قال البزار: "لا نعلمه بهذا اللفظ إلا عن جابر بهذا الإسناد، ومعلى؛ واسطي، حدث بأحاديث لم يتابع عليها، وحدث عنه جماعة من أهل العلم".

وقال الطبراني: "لم يرو هذا الحديث عن ابن عقيل إلا شريك، تفرد به معلى".

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٣٠): "رواه البزار والطبراني في "الأوسط"؛ وفيه معلى بن عبد الرحمن الواسطي، وهو كذاب". وفيه أيضا شريك القاضي؛ ضعيف.

ولذا قال السيوطي فى "لباب النقول" (ص ٢٢٢): "سنده واهٍ".

* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} [المزمل: ١].

قال الأخفش:"الأصل: «الْمُتَزَمِّلْ»، ولكن أدغمت التاء في الزاي، و {الْمُدَّثِّر} مثلها".

وفي أصل «المزمل»، قولان:

**أحدهما**: المحتمل، يقال: زمل الشيء إذا حمله، ومنه: الزاملة التي تحمل القماش. حكاه الماوردي.

وحكي الثعلبي عن عكرمة: "يعني: يا أيّها الذي زمّل هذا الأمر، أي: حمّله".

**الثاني**: المزمل هو الملتف بثيابه، قاله أبو عبيدة، والزجاج، وأنشد الأخير قول

=

=

امرئ القيس:

**وكأنَّ ثَبِيرًا في عَرَانِينِ وَبْلِهِ... كَبِيرُ أُنَاسٍ في بِجَاد مُزَمَّل**

واختلف أهل التفسير في المعنى الذي وصف الله به نبيه ﷺ في هذه الآية من التزمُّل، على أقوال:

**أحدها**: وصفه بأنه متزمِّل النبوّة والرسالة، قاله عكرمة.

قال عكرمة:"زُملت هذا الأمر فقم به".

**الثاني**: بالقرآن، قاله ابن عباس.

عن ابن عباس: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} قال: "يا محمد، زُمّلتَ القرآن".

**الثالث**: وصفه بأنه مُتَزمل في ثيابه، متأهب للصلاة، قاله قتادة.

قال قتادة:"هو الذي تزمل بثيابه".

قال مقاتل:"يعني: الذي ضم عليه ثيابه، يعني النبي- ﷺ- وذلك أن النبي- ﷺ- خرج من البيت وقد ليس ثيابه، فناداه جبريل عليه السلام: {يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} الذي قد تزمل بالثياب وقد ضمها عليه".

**قال الطبري**:"والذي هو أولى القولين بتأويل ذلك، ما قاله قتادة؛ لأنه قد عقبه بقوله: {قُمِ اللَّيْلَ}، فكان ذلك بيانا عن أن وصفه بالتزمُّل بالثياب للصلاة، وأن ذلك هو أظهر معنييه".

عن إبراهيم النخعي: في قوله: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}، قال: "نزلت وهو في قطيفة".

**وقال السدي**: "أراد يا أيها النائم قم فصل".

- وخطابه بهذا الوصف: (يا أيها المزمل) فيه تأنيس وملاطفة له.

-قال الرازي: أجمعوا على أن المراد بالمزمل النبي عليه السلام، وأصله المتزمل بالتاء وهو الذي تزمل بثيابه أي تلفف بها.

-قال القرطبي: وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان:

=

=

إحداهما: الملاطفة؛ فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه، باسم مشتق من حالته التي هو عليها؛ ك " قول النبيّ لعلي حين غاضب فاطمة ﭬ، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له: "قم يا أبا تراب" " إشعارًا له أنه غير عاتب عليه، وملاطفةً له.

وكذلك " قوله لحذيفة: "قم يا نومان" " وكان نائمًا ملاطفةً له، وإشعارًا لِترك العتب والتأنيب.

فقول الله تعالى لمحمد: "يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلْ قُم" فيه تأنيسٌ وملاطفةٌ؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه.

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة.

-قال ابن عاشور: افتتاح الكلام بالنداء إذا كان المخاطب واحدًا ولم يكن بعيدًا يدل على الاعتناء بما سيلقى إلى المخاطب من كلام.

والأصل في النداء أن يكون باسم المنادَى العلم إذا كان معروفًا عند المتكلم فلا يعدل من الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلاّ لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم نحو (يا أيها النبي)، أو تلطف وتقرب نحو: يا بُنيِّ ويا أبتِ، أو قصد تهكم نحو (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون) فإذا نودي المنادى بوصف هيئته من لِبسة أو جِلسة أو ضِجعة كان المقصود في الغالب التلطف به والتحبب إليه ولهيئته، ومنه قول النبي لعلي بن أبي طالب وقد وجده مضطجعًا في المسجد وقد علق تراب المسجد بجنبه "قُم أَبا تراب" وقوله لحذيفة بن اليمان يوم الخندق "قم يا نَوْمانُ"، وقولِه لعَبْد الرحمان بن صخر الدوسي وقد رءاه حاملًا هِرّة صَغيرةً في كمه "يا أبا هُريرة". فنداء النبي بـ {يا أيها

=

=

المزمل} نداء تلطف وارتفاق ومثله قوله تعالى (يا أيها المدثر).
قوله تعالى: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [المزمل: ٢].
**قال الطبري**:"يقول لنبيه ﷺ: {قُمِ اللَّيْلَ} يا محمد كله، {إِلا قَلِيلا} منه".
**قال ابن كثير**:"يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل، وهو: التغطي في الليل، وينهض إلى القيام لربه ﷻ، كما قال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [السجدة: ١٦] وكذلك كان رسول الله ﷺ ممتثلا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجبًا عليه وحده، كما قال تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: ٧٩]".
وفي قوله تعالى: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [المزمل: ٢]،وجهان:
**أحدهما**: معناه: صل الليل إلا قليلًا من أعداد الليالي لا تقمها.
**الثاني**: إلا قليلًا من زمان كل ليلة لا تقمه، وقد كان فرضًا عليه.
حكي عن وهب بن منبه، أنه قال: "القليل: ما دون المعشار والسدس".
وفي فرضه على مَنْ سواه من أُمّته قولان:
**أحدهما**: فرض عليه دونهم لتوجه الخطاب إليه، ويشبه أن يكون قول سعيد ابن جبير.
**الثاني**: أنه فرض عيله وعليهم فقاموا حتى ورمت أقدامهم، قاله ابن عباس، وعائشة.
قال ابن عباس:"فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا فشقّ ذلك على المؤمنين، ثم خفَّف عنهم فرحمهم، وأنزل الله بعد هذا: {عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ} ... إلى قوله: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}، فوسع الله وله الحمد، ولم يضيق".

=

=

وقال ابن عباس: "لما نزل أوّل «المزمل»، كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في رمضان، وكان بين أوّلها وآخرها قريب من سنة".

واختلف بماذا نسخ عنهم على قولين:

**أحدهما**: نسخ عنهم بآخر السورة، قاله ابن عباس.

**الثاني**: بالصلوات الخمس. وهو قول عائشة-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-.

عن زُرارة بن أوفى، عن سعيد بن هشام: "أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقارًا له بها ويجعله في الكُرَاع والسلاح، ثم يجاهد الروم حتى يموت، فلقي رهطًا من قومه فحدثوه أن رهطًا من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال: "أليس لكم فيّ أسوة؟ فنهاهم عن ذلك، فأشهدهم على رَجعتها، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم قال: ائت عائشة فاسألها ثم ارجع إليّ فأخبرني بردها عليك. قال: فأتيت على حكيم بن أفلحَ فاستلحقتُه إليها، فقال: ما أنا بقاربها؛ إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئًا، فأبت فيهما إلا مُضِيًا. فأقسمتُ عليه، فجاء معي، فدخلنا عليها فقالت: حكيم؟ وعرفته، قال: نعم. قالت: من هذا معك؟ قال: سعيد بن هشام. قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر. قال: فترحمت عليه وقالت: نعم المرء كان عامر. قلت: يا أم المؤمنين، أنبئينى عن خلق رسول ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. فَهممت أن أقوم، ثم بدا لي قيامُ رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله -ﷺ-.ألست تقرأ هذه السورة: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} ؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرًا، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة،

=

=

فصار قيام الليل تطوعًا من بعد فريضة. فهممت أن أقوم، ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ. قالت: كنا نعد له سِواكه وطَهُوره، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو [ويستغفر ثم ينهض وما يسلم. ثم يصلي التاسعة فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعو ثم يسلم تسليمًا يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم. فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني. فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذه اللحم، أوتر بسبع، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك تسع يا بني. وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شَغَله عن قيام الليل نوم أو وَجَع أو مرض، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلة حتى أصبح، ولا صام شهرًا كاملا غير رمضان، فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها، فقال: صدقت، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة".

واختلفوا من مدة فرض «قيام الليل» إلى أن نسخ على أقوال:

**أحدها**: سنة، قاله ابن عباس.

عن ابن عباس قال: "لما نزل أوّل «المزمل»، كانوا يقومون نحوا من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أوّلها وآخرها نحو من سنة".

قال قتادة:"فرض الله ﷻ: قيام الليل في أول هذه السورة فقام أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتفخت أقدامهم فأمسك الله خاتمتها حولا ثوم أنزل الله ﷻ: التخفيف في آخرها قال ﷻ: {عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} [المزمل: ٢٠]، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من قيام الليل فجعل قيام الليل

=

=

تطوعا بعد فريضة وقال {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [المزمل: ٢٠]، وهما فريضتان لا رخصة لأحد فيهما".

عن أبي عبد الرحمن، قال: "لما نزلت: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} قاموا بها حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}، فاستراح الناس".

وروي عن قتادة: "{قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا}، قاموا حولا أو حولين حتى انتفخت سوقهم وأقدامهم، فأنزل الله تخفيفا بعد في آخر السورة".

عن الحسن، قال: لما نزلت {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}... الآية، قام المسلمون حولا فمنهم من أطاقه، ومنهم من لم يطقه، حتى نزلت الرخصة".

**الثاني**: ثمانية أشهر، قالته عائشة.

عن عائشة قالت: "نزل القرآن: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [المزمل: ١-٢]، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق فمكثوا بذلك ثمانية أشهر، فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم وردهم إلى الفريضة وترك قيام الليل".

وروي عن سعد بن هشام قال: "فقلت، يعني لعائشة أخبرينا عن قيام رسول الله ﷺ وأصحابه حتى انتفخت أقدامهم وحبس آخرها في السماء عشر شهرا ثم نزل".

**الثالث**: عشر سنين. وهذا قول سعيد بن جبير.

عن سعيد هو ابن جبير قال: "لما أنزل الله على نبيه: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}، قال: مكث النبيّ ﷺ على هذا الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره الله، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه، فأنزل الله عليه بعد عشر سنين: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ}... إلى قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ}، فخفَّف الله عنهم بعد عشر سنين".

(قُمِ اللَّيْلَ) أي: قم للصلاة فيه، أي: دع الزمل والتلفف، وانشط لصلاة الليل

=

=

والقيام فيه ساعات في عبادة ربك، لتستعد للأمر الجليل والمهمة الشاقة، ألا وهي تبليغ دعوة ربك للناس.

- **قال ابن عاشور**: ولعل حكمة هذا القيام الذي فرض على الرسول في صدر رسالته هو أن تزداد به سريرته زكاء يقوي استعداده لتلقي الوحي حتى لا يحرجه الوحي كما ضغطه عند نزوله كما ورد في حديث البخاري (فغطني حتى بلغ مني الجَهد، ثم قال (اقرأ باسم ربّك) الحديث، ويدل لهذه الحكمة قوله تعالى عقبه (إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلا).

- **وقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: وتخصيص الليل بالصلاة فيه لأنه وقتُ النوم عادة فأُمر الرسول بالقيام فيه زيادة في إشغال أوقاته بالإقبال على مناجاة الله: ولأن الليل وقت سكون الأصوات واشتغال الناس فتكون نفس القائم فيه أقوى استعدادًا لتلقي الفيض الرباني.

(إِلَّا قَلِيلًا) للنوم والراحة.

-قال القرطبي: قوله تعالى (إِلاَّ قَلِيلًا) استثناء من الليل، أي صلّ الليل كله إلا يسيرًا منه؛ لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن، فاستثنى منه القليل لراحة الجسد.

قوله تعالى: {نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ} [المزمل: ٣- ٤]، أي:"قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا حتى تَصِلَ إلى الثلث، أو زد على النصف حتى تصل إلى الثلثين".

**قال الطبري**:"خيره الله تعالى ذكره حين فرض عليه قيام الليل بين هذه المنازل أي ذلك شاء فعل، فكان رسول الله ﷺ وأصحابه فيما ذُكر يقومون الليل، نحو قيامهم في شهر رمضان فيما ذُكر حتى خفف ذلك عنهم".

**قال ابن كثير**:"أي: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا

=

=

حرج عليك في ذلك".

قوله تعالى: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل: ٤]، أي:"واقرأ القرآن بتُؤَدَة وتمهُّلٍ مبيِّنًا الحروف والوقوف".

**قال الطبري**:"يقول جلّ وعزّ: وبين القرآن إذا قرأته تبيينا، وترسل فيه ترسل".

عن الحسن، قوله: "{وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا}، قال: اقرأه قراءة بينة".

عن مجاهد: "{وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا}، فقال: بعضه على أثر بعض".

قال مجاهد:"بعضه على أثر بعض، على تؤدة".

قال مجاهد:"ترسل فيه ترسلا".

قال ابن عباس، وقتادة:"بيّنه بيانا".

قال عطاء:"الترتيل النَّبْذ: الطَّرْح".

**قال الزمخشري**:"ترتيل القرآن: قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات، حتى يجيء المتلوّ منه شبيها بالثغر المرتل: وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، وألا يهذه هذا ولا يسرده سردا ".

**قال ابن كثير**:"أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عونا على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة: كان يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها. وفي صحيح البخاري، عن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: كانت مدًا، ثم قرأ {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم.

وقال ابن جُرَيج، عن ابن أبي مُلَيكة عن أم سلمة: أنها سُئلت عن قراءة رسول الله ﷺ، فقالت: كان يقطع قراءته آية آية، {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} ".

عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: "يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ،

=

=

ورَتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها".

وعن ابن مسعود أنه قال: "لا تنثروه نثر الرمل ولا تهذّوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة".

عن عمرو بن مرة، قال: سمعت أبا وائل قال: "جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة. فقال: هذّا كهذّ الشعر. لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن. فذكر عشرين سورة من المُفَصّل سورتين في ركعة".

* أمر الله نبيه بقيام الليل وهو ما زال بمكة وفي أول نزول الوحي؛ وهذا يدل على فضل صلاة الليل وعبادة الخلوات؛ فهي من أعظم المثبتات للعبد، وما من نبي من الأنبياء إلا أمره الله بالعبادة قبل الرسالة؛ لأن الأصلاح يتبعه شدة، والشدة تحتاج إلى ثبات، ولا يثبت المصلح شيء كتقوية صلته بالله بالعبادة؛ ولهذا قال الله لنبيه: {قم الليل إلا قليلا}، ثم بين سبب ذلك: {إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا} [المزمل: ٥].

وصلاة الليل أفضل النوافل؛ كما قال ﷺ: (أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة: الصلاة في جوف الليل)، وإنما فضل الله نافلة الليل على بقية النوافل لأمور؛ أعظمها:

الأول: أن الليل هو وقت نزول الخالق سبحانه إلى السماء الدنيا، ويبسط يده ويستجيب لمن دعاه أسرع وأعظم من بقية الأوقات؛ كما في الصحيح، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ؛ قال: (ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر).

=

=

**الثاني**: أن الليل محل غفلة الناس وغفوتهم، والعبادة فيه يخلو بها العبد بربه؛ وهذا أعظم في خلو القلب وتجرده وصدق لجوئه إلى ربه، وعبادة الخفاء أعظم من عبادة العلانية، ولا يكاد يشوب عبادة قيام الليل رياء وسمعة كما يشوب عبادة العلانية في النهار.

**الثالث**: أن في قيام الليل تثبيتا للعبد وعونا له من ربه أشد من غيره من العبادات؛ ولهذا جعله الله لنبيه أول أمر في تعبده لربه من أركان أعماله.

وقوله تعالى: {إلا قليلا}، فيه: أنه لا يشرع قيام الليل كاملا، فلم يشرعه الله لنبيه ﷺ ولا لغيره؛ حيث إن الله جعل الليل سباتا ومناما وسكنا، وفطر البشر على ذلك، ويستثنى من ذلك ما كان اعتراضا كالأزمنة الفاضلة؛ كالعشر الأواخر من رمضان.

وفي "الصحيحين" قصة النفر الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي ﷺ، وأنهم تقالوها حتى إن أحدهم قال: أنا أقوم ولا أنام، فقال النبي ﷺ: (لكني أصلي وأنام... فمن رغب عن سنتي، فليس مني).

قوله تعالى: {نصفه أو انقص منه قليل أو زد عليه}: السنة في قيام الليل: عدم قيامه كله؛ وإنما يقوم بعضه، وأفضله آخره، والسنة: أن ينام أوله ويقوم في نصفه الأخير قدر الثلث منه؛ كما في "الصحيحين"؛ من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: (أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوما، ويفطر يوما).

وقد كان النبي ﷺ ينام أول الليل حتى ينتصف، وقد جاء ذلك في أحاديث كثيرة، ومنها: ما رواه ابن عباس في مبيته عند خالته ميمونة، وفيه قال: "نام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل -أو قبله بقليل، أو بعده بقليل- ثم استيقظ رسول الله

=

ﷺ، فجلس، فمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر آيات خواتيم سورة آل عمران، ثم قام إلى شن معلقة، فتوضأ منها، فأحسن وضوءه، ثم قام يصلي".

وفيهما: أنه كان يقوم إذا سمع الصارخ، كما روى مسروق قال: سألت عائشة رضي الله عنها: أي العمل كان أحب إلى النبي ﷺ؟ قالت: الدائم، قال: قلت: فأي حين كان يقوم؟ قالت: "كان يقوم إذا سمع الصارخ"، والمراد بذلك هو صياح الديك.

وأول ما يصرخ الديك نصف الليل غالبا، وربما قبله بقليل، وقد روى أحمد، وأبو داود، عن زيد بن خالد الجهني؛ أن النبي ﷺ قال: (لا تسبوا الديك؛ فانه يوقظ للصلاة).

ويستحب أن يكون الوتر آخر الليل، وإن أوتر أي وقت منه، فلا حرج؛ كما روى مسروق؛ قال: قلت لعائشة: متى كان يوتر رسول الله ﷺ؟ قالت: "كل ذلك قد فعل؛ أوتر أول الليل، ووسطه، وآخره، ولكن انتهى وتره حين مات إلى السحر".

قوله تعالى: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) تعليل للأمر بقيام الليل... بأنها تهيئةُ نفس النبي ليحمل شدة الوحي، وفي هذا إيماء إلى أن الله يَسَّر عليه ذلك.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير الآية، على أقوال:

**أحدها**: أنه إذا أوحي إليه كان ثقيلًا عليه لا يقدر على الحركة حتى ينجلي عنه، وهذا قول عائشة، وعروة بن الزبير.

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْىُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ- وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ- فَيُفْصَمُ عَنِّى وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ». قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْىُ فِي

=

الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا) رواه البخاري ومسلم.

وعن زيد بن ثابت قال (... الحديث وفيه: فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ (غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ) رواه البخاري.

وعن أسماء بنت يزيد قالت: "نزلت سورة المائدة وأنا آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ العضباء. فكادت من ثقلها أن تندق عضد الناقة".

قال ابن زيد:"هو والله ثقيل مبارك القرآن، كما ثقل في الدنيا ثَقُل في الموازين يوم القيامة".

قال زيد بن ثابت: "أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت تُرض فَخذي".

عن عاصم قال: "سمع أبو العالية رجلا وهو يقول: سورة قصيرة، فقال: أنت أقصر وألم؛ قال: وكان ابن سيرين يكره أن يقول: سورة خفيفة، فإن الله يقول: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل: ٥]، ولكن قل سورة يسيرة، فإن الله يقول: {لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [القمر: ١٧]".

عن ابن سيرين، وأبي العالية قالا: "لا يقال: سورة خفيفة، فإنه قال تعالى: {سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل: ٥] قال: وكيف أقول؟ قال: تقول: سورة يسيرة"".

**الثاني**: العمل به ثقيل في فروضه وأحكامه وحلاله وحرامه، قاله الحسن، وقتادة، وبه قال ابن قتيبة، والطبري.

قال ابن قتيبة:"أي: ثقيل الفرائض والحدود".

عن الحسن، في قوله: "{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا}، قال: العمل به، قال: إن الرجل لَيَهُذُّ السورة، ولكنّ العمل به ثقيل".

=

=

قال قتادة:"ثقيل والله فرائضه وحدوده".

قال قتادة: "ثقله في الميزان كثقله على الإنسان في الدنيا".

قال مقاتل:"يعني: القرآن شديدا، لما في القرآن من الأمر والنهي والحدود والفرائض".

قال أبو العالية: "ثقيلا بالوعد والوعيد والحلال والحرام".

وقال محمد بن كعب: "ثقيلا على المنافقين".

وقال أبو بكر بن طاهر: "يعني: قولا لا يحمله إلّا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزيّنة بالتوحيد".

**قال الزجاج:**"جاء في التفسير أنه يثقل العمل به، لأن الحلال والحرام والصلاةَ والصيَامَ وجميع ما أمر الله به أن يعمل، ونهى عنه، لا يؤديه أحد إلا بتكلف ما يثقل عليه".

**قال الزمخشري:**"هذه الآية اعتراض، ويعنى بالقول الثقيل: القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين، خاصة على رسول الله ﷺ لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته، فهي أثقل عليه وأبهظ له، وأراد بهذا الاعتراض: أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن، لأنّ الليل وقت السبات والراحة والهدوء فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه".

**الثالث**: أنه في الميزان يوم القيامة ثقيل، قاله ابن زبير، و الحسين بن الفضل.

قال الحسين بن الفضل -في الآية-: "معناها إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا خفيفا على اللسان ثَقِيلًا في الميزان".

**الرابع**: ثقل بمعنى: كريم، مأخوذ من قولهم: فلان ثقيل عليّ، أي: كريم عليّ، قاله السدي.

=

=

**الخامس**: معناه: أنه قول له وَزْن في صِحتِه وبيانه ونفعه، كما تقول: هذا كلام رَصِينٌ، وهذا قول له وَزْن، إذا كنت تستجيدُه وتعلم أنه قد وقع موقع الحكمة والبيانِ. أفاده الزجاج.

**قال الفرّاء**: ": ليس بالخفيف ولا السَّفْساف لأنَّه كلام ربنا تبارك وتعالى".

وقال عبد العزيز بن يحيى: "مهيبا، ومنه يقال للرجل العاقل: هو رزين راجح".

**السادس**: أن يكون ثقيل بمعنى: ثابت، لثبوت الثقيل في محله، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبدًا. أفاده الماوردي.

**قال الطبري**:"وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله وصفه بأنه قول ثقيل، فهو كما وصفه به ثقيل محمله ثقيل العمل بحدوده وفرائضه".

قوله تعالى: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا} [المزمل: ٦]، أي:"إن العبادة التي تنشأ في جوف الليل هي أشد تأثيرًا في القلب".

وفي تفسير قوله تعالى: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ} [المزمل: ٦]، وجوه:

**أحدها**: أنه قيام الليل، بالحبشية، قاله ابن مسعود، وابن عباس-في رواية-.

عن ابن عباس وأبي مَيْسرة: "{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}، نشأ: قام".

قال ابن عباس:"بلسان الحبشة إذا قام الرجل من الليل، قالوا: نشأ".

قال ابن أبي نجيح: "إذا قام الرجل من الليل، فهو ناشئة الليل".

قال مجاهد:"إذا قمت الليل فهو ناشئة".

روى عن عبيد بن عمير: "قلت لعائشة: رجل قام من أوّل الليل، أتقولين له قام ناشئة؟

قالت لا، إنما الناشئة القيام بعد النوم".

**قال الزمخشري**:"ففسرت الناشئة بالقيام عن المضجع أو العبادة التي تنشأ بالليل، أى: تحدث، وترتفع".

=

=

**الثاني**: أنه ما بين المغرب والعشاء، قاله علي بن حسين، وأنس بن مالك، و عبادة بن كثير.

وعن على بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:"أنه كان يصلى بين المغرب والعشاء، ويقول: أما سمعتم قول الله تعالى: {إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ}، هذه ناشئة الليل".

**الثالث**: ما بعد العشاء الآخرة، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، وأبو مِجْلَز، وأبو رجاء.

قال الحسن:"كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة الليل".

قال مجاهد، وقتادة:"كلّ شيء بعد العشاء فهو ناشئة".

قال قتادة:"ناشئة الليل: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة".

وعن قتادة، قال:"حين يقبل الليل من المشرق".

**الرابع**: أنها ساعات الليل كلها، لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة، وأيّ ساعة من الليل قمت فهو ناشئة، قاله مجاهد، وابن زيد، والطبري، والزجاج، وابن كثير.

**قال الطبري**: يعني:"إن ساعات الليل، وكلّ ساعة من ساعات الليل ناشئة من الليل".

**قال الزجاج**:"{نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}: ساعات الليل كلها، كلما نَشَأ منه، أي: كل ما حدث منه فهو: ناشئة".

**قال ابن كثير**:"الغرض أن ناشئة الليل هي: ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، وهي الآنات".

عن ابن زيد: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}، قال:"قيام الليل؛ قال: وأيّ ساعة من الليل قام فقد نشأ".

قال مجاهد:"أيّ: الليل قمت فهو ناشئة".

قال مجاهد:"أيّ ساعة تَهَجَّدَ فيها متهجد من الليل".

=

=

**الخامس**: أنه بدء الليل، قاله عطاء وعكرمة، وابن كيسان.

وروي عن ابن عباس، قوله: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا} ـ يقول: ناشئة الليل كانت صلاتهم أوّل الليل".

**السادس**: أن الليل كله ناشئة، قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، ومقاتل.

عن الضحاك، قوله: "{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}، يعني: الليل كله".

قال مجاهد:"الليل كله، إذا قام يصلي فهو ناشئة".

عن ابن عباس قوله: "{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}، قال: الليل كله".

عن حاتم بن أبي صغيرة، قال: "قلت لعبد الله بن أبي مليكة: ألا تحدثني أيّ الليل ناشئة؟ قال: على الثبت سقطت، سألت عنها ابن عباس، فزعم أن الليل كله ناشئة، وسألت عنها ابن الزبير، فأخبرني مثل ذلك".

عن ابن أبي مُلَيكة، قال: "سألت ابن عباس وابن الزبير عن: «ناشئة الليل»، فقالا: كلّ الليل ناشئة، فإذا نشأت قائما فتلك ناشئة".

عن عكرِمة، قوله: "{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}، قال: هو الليل كله".

قال سهل:"يعني: الليل كله".

وفي تفسير قوله تعالى: {هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا} [المزمل: ٦]، وجوه:

**أحدها**: مواطأة قلبك وسمعك وبصرك، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"تواطئ سمعك وبصرك وقلبك".

قال مجاهد:"مُوَاطأة للقول، وفراغا للقلب".

قال مجاهد:"أجدر أن تواطئ سمعك وقلبك".

قال مجاهد: أجدر أن تواطئ لك سمعك، أن تواطئ لك بصرك".

قال مجاهد:"يواطئ سَمْعُك وبصرك وقلبك بعضه بعضا".

قال سهل:"الليل هي أشد مواطأة على السمع والقلب من الإصغاء والفهم".

=

=

**قال ابن كثير**:"المقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة؛ ولهذا قال: {هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا}، أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولَغَط الأصوات وأوقات المعاش".

**الثاني**: معناه: إن مصلي الليل القائم بالليل أشدّ طمأنينة، أفرغ له قلبا، وذلك أنه لا يَعْرِضُ له حوائج ولا شيء. قاله ابن زيد.

**قال الطبري**: يعني:"ناشئة الليل أشد ثباتا من النهار وأثبت في القلب، وذلك أن العمل بالليل أثبت منه بالنهار. وحُكي عن العرب وَطِئنا الليل وطأ: إذا ساروا فيه".

**الثالث**: قراءة القرآن بالليل أثبت منه بالنهار، وأشدّ مواطأة بالليل منه بالنهار. قاله الضحاك.

**قال الفراء**:"يقول: هي أثبت قياما".

**الرابع**: أشد نشاطًا، قاله الكلبي، لأنه زمان راحتك.

**الخامس**: أثبت في الخير، وأحفظ في الحفظ. قاله قتادة.

قال قتادة:"القيام بالليل أشدّ وطئا: يقول: أثبت في الخير".

**السادس**: يعني: صلاتهم أوّل الليل، هو أجدر أن تُحْصُوا ما فرض الله عليكم من القيام، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ. قاله ابن عباس.

السابع: أبلغ في الثواب، لأن كل مجتهد فثوابه عَلَى قَدْرِ اجتهاده. حكاه الزجاج.

قوله تعالى: {وَأَقْوَمُ قِيلًا} [المزمل: ٦]، أي:"وأبين قولا لفراغ القلب مِن مشاغل الدنيا".

وفي قوله: {وَأَقْوَمُ قِيلًا} [المزمل: ٦]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: معناه: أبلغ في الخير وأمعن في العدل، قاله الحسن.

=

=

**الثاني**: أنه أعجل إجابة للدعاء، حكاه ابن شجرة.

**الثالث**: أصوب للقراءة وأثبت للقول لأنه زمان التفهم، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد، ويحيى بن سلام، وبه قال ابن قتيبة، والطبري.

عن الأعمش، قال: "قرأ أنس هذه الآية: «إنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وأَصْوَبُ قِيلا»، فقال له بعض القوم: يا أبا حمزة إنما هي: {وَأَقْوَمُ قِيلا}، قال: أقوم وأصوب وأهيأ واحد".

وروي عن ابن عباس، قوله: "{وَأَقْوَمُ قِيلا}، يقول: أدنى من أن تفقهوا القرآن".

عن قتادة: "{وَأَقْوَمُ قِيلا}: أحفظ للقراءة".

قال مجاهد:"أثبت للقراءة".

قال يحيى:"أصوب".

قال ابن زيد:"أقوم قراءة لفراغه من الدنيا".

**قال الفراء**:"يَقُولُ: إن النهار يضطرب فِيهِ النَّاس، ويتقلبون فِيهِ للمعاش، والليل أخلى للقلب، فجعله أقوم قيلا".

قال الزهري:"يعني: القرآن ومنفعتهم به. يقول: حتى يفهم القرآن ويتدبر آياته ويفقه ما فيه".

قال ابن قتيبة:"أي: أخلص للقول وأسمع له، لأن الليل تهدأ عنه الأصوات، وتنقطع فيه الحركات، فيخلص القول، ولا يكون دون تسمّعه وتفهّمه حائل".

قال أبو عبيدة:"أسمع قولا، إن الليل أسمع".

قال سهل:"أي: وأثبت رتبة، وقيل: وأصوب قيلًا، لأنه أبعد من الرياء".

قال الحسن:""لقد أدركت أقوامًا يقدرون على أن يعملوا في السر، فأرادوا أن يعملوه علانية، ولقد أدركت أقوامًا إن أحدهم ليأتيه الزوار فيقوم من الليل فيصلي، وما يشعر به الزوار".

=

=

وكان لقمان يقول لابنه: "يا بني لا تكن أعجز من هذا الديك يصوت بالليل".
قال ابن عاشور: ووصف الصلاة بالناشئة لأنها أنشأها المصلي فنشأت بعدَ هدأة الليل فأشبهت السحابة التي تتنشأ من الأفق بعد صحو، وإذا كانت الصلاة بعد نوم فمعنى النشْء فيها أقوى، ولذلك فسرتها عائشة بالقيام بعد النوم، وفسر ابن عباس (ناشئة الليل) بصلاة الليل كلها.
(هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلًا) تعليل لتخصيص زمن الليل بالقيام فيه فهي مرتبطة بجملة (قم الليل)، أي قم الليل لأن ناشئته أشد وطًا وأقوم قيلًا.
أي: أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، فهي أجمع للخاطر في أداء القراءة ونفعها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش.
- قوله تعالى (هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا) قرأ جمهور العشرة {وَطًا} بفتح الواو وسكون الطاء بعدها همزة، والوطء: أصله وضع الرجل على الأرض، والمعنى: أشد وقعًا، وبهذا فسره جابر بن زيد والضحاك وقاله الفراء. ويجوز أن يكون الوطء مستعارًا لحالة صلاة الليل وأثرها في المصلي، أي أشد أثر خير في نفسه وأرسخ خيرًا وثوابًا، وبهذا فسره قتادة.
وقرأه ابن عامر وأبو عمرو وحده (وِطاءً) بكسر الواو وفتح الطاء ومدها، والوِطاء: الوفاق والملاءمة، قال تعالى (ليواطئوا عدة ما حرم الله) والمعنى: أن صلاة الليل أوفق بالمصلي بين اللسان والقلب، أي بين النطق بالألفاظ وتفهم معانيها للهدوء الذي يحصل في الليل وانقطاع الشواغل وبحاصل هذا فسر مجاهد. [تفسير ابن عاشور].
- قال القرطبي (وَأَقْوَمُ قِيلًا) أي القراءة بالليل أقوم منها بالنهار؛ أي أشد استقامة واستمرارا على الصواب؛ لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب

=

=

على المصلّي ما يقرؤه، قال قتادة ومجاهد أي: أصوب للقراءة وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم، وقال أبو علي: أَقْوَمُ قِيلًا" أي أشد استقامة لفراغ البال بالليل.

- **وقال ابن عاشور**: فالمعنى: أن صلاة الليل أعون على تذكر القرآن والسلامة من نسيان بعض الآيات، وأعون على المزيد من التدبر.

- ولذلك قال (أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) رواه مسلم.

- قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار:

لأنها أبلغ في الإسرار وأقرب إلى الإخلاص.

ولأن صلاة الليل أشق على النفوس، فإن الليل محل النوم والراحة من التعب بالنهار، فترْك النوم مع ميل النفس إليه مجاهدة عظيمة.

ولأن القراءة في صلاة الليل أقرب إلى التدبر، فإنه تنقطع الشواغل بالليل، ويحضر القلب، ويتواطأ هو واللسان والفهم.

ولأن التهجد من الليل أفضل أوقات التطوع بالصلاة، وأقرب ما يكون العبد من ربه.

قوله تعالى: {إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا} [المزمل: ٧]

في تفسير الآية أقوال:

**أحدها**: يعني: فراغًا طويًا لنَومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعطاء، وابن زيد.

قال مقاتل:"يعني: فراغا طويلا لنومك ولحاجتك، وكانوا لا يصلون إلا بالليل حتى أنه كان الرجل يعلق نفسه بالليل، فشق القيام عليه بالليل".

**قال الفراء**:"يقول: لَكَ فِي النهار ما يقضي حوائجك".

قال أبو عبيدة: أي:"منقلبا طويلا".

قال ابن قتيبة:"يعني: تصرفا وإقبالا وإدبارا في حوائجك وأشغالك".

=

=

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن لك يا محمد في النهار فراغا طويلا تتسع به، وتتقلّب فيه".

**قال الزمخشري**:"{سَبْحًا}: تصرفا وتقلبا في مهماتك وشواغلك، ولا تفرغ إلا بالليل، فعليك بمناجاة الله التي تقتضي فراغ البال وانتفاء الشواغل. وأما القراءة بالخاء. فاستعارة من سبخ الصوف: وهو نفشه ونشر أجزائه، لانتشار الهم وتفرّق القلب بالشواغل: كلفه قيام الليل".

عن ابن عباس: "{سَبْحًا طَوِيلا}: فراغا طويلا يعني النوم".

قال قتادة:"فراغا طويلا".

قال مجاهد:"متاعا طويلا".

قال عطاء:"النوم والفراغ".

قال ابن زيد:"لحوائجك، فافُرغ لدينك الليل، قالوا: وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة، ثم إن الله منّ على العباد فخفَّفها ووضعها، وقرأ: {قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا}... إلى آخر الآية، ثم قال: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ}، حتى بلغ قوله: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} الليل نصفه أو ثلثه، ثم جاء أمر أوسع وأفسح، وضع الفريضة عنه وعن أمته، فقال: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا}".

عن يحيى بن يعمر «من جذيلة قيس»:"أنه كان يقرأ: «سَبْخًا طَوِيلا»، قال: وهو النوم".

**الثاني**: دعاء كثيرًا، حكاه الماوردي عن السدي.

**الثالث**: تطوعا كثيرًا، حكاه ابن كثير عن السدي.

وقَرَأَ ابن يعمر وعكرمة وابن أبي عبلة: «سبخا» بالخاء، والتسبيخ: توسعة الصوف والقطن وما أشبهه، يُقال: سبِّخي قطنك. قَالَ أَبُو الفضل: "سمعت أبا

=

=

عَبْد الله يقول: حضر أبو زياد الكلابي مجلس الفراء في هذا اليوم، فسأله الفراء عنْ هَذَا الحرف فَقَالَ: أهل باديتنا يقولون: اللهم سبّخ عنه للمريض والملسوع ونحوه".

أي إن لك في النهار تصرفًا وتقلبًا واشتغالًا طويلًا في شؤونك.

- قال أبو السعود (إِنَّ لَكَ فِي النهار سَبْحًا طَوِيلًا) أي: تقلبًا وتصرفًا في مهمَّاتِك واشتغالًا بشواغلك فلا تستطيعُ أن تتفرغَ للعبادةِ فعليكَ بها في الليلِ وهذا بيانٌ للداعي الخارجي إلى قيامِ الليلِ بعدَ بيانِ ما في نفسِه من الدَّاعي.

- قال المبرد: سبحًا أي تقلبًا فيما يجب ولهذا سمي السابح سابحًا لتقلبه بيديه ورجليه.

- **وقال القرطبي**: والسبْح: الجري والدوران، ومنه السابح في الماء؛ لتقلبه بيديه ورجليه.

قوله تعالى: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ} [المزمل: ٨].

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: {وَاذْكُرْ} يا محمد {اسْمُ رَبِّكَ} فادعه به".

**قال الزمخشري**:"دم على ذكره في ليلك ونهارك، واحرص عليه. وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب: تسبيح، وتهليل، وتكبير، وتمجيد، وتوحيد، وصلاة، وتلاوة قرآن، ودراسة علم، وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعة ليله ونهاره".

أي: أكثر من ذكره بجميع أنواع الذكر.

- وهذه الآية فيها فضل ذكر الله تعالى، وللذكر فضائل عظيمة:

منها: أنه يورث العبد ذكر الله له.

كما قال تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ).

**قال ابن القيم**: ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلًا وشرفًا.

=

=

وقال (قال تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خير منهم) متفق عليه.

ومنها: أنه سبب لنزول السكينة وغشيان الرحمن.

كما في حديث أبي هريرة في قوله (لا يقعد قوم في مجلس يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده) رواه مسلم.

ومنها: أنه غرس الجنة.

كما في قوله (لقيت ليلة اسري بي إبراهيم الخليل فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) رواه الترمذي.

ومنها: أن دوام ذكر الرب يوجب الأمان من نسيانه وهو سبب شقاء العبد.

فإن نسيان الرب سبحانه يوجب نسيان نفسه ومصالحها، قال تعالى (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ).

ومنها: أن الذكر يعدل عتق الرقاب ونفقة الأموال.

كما قال (من قال في يوم مائة مرة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي...) متفق عليه.

ومنها: أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله.

كما في الحديث (... وآمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثل ذلك رجل خرج العدو في أثرِه سراعًا، حتى أتى إلى حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله...) رواه الترمذي.

=

=

**قال ابن القيم**: فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة، لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى.

قوله تعالى: {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} [المزمل: ٨].

في تفسير الآية أقوال:

**أحدها**: أخلص إليه إخلاصًا، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وأبو يحيى المكي.

قال مجاهد:"أخلص إليه المسألة والدعاء".

قال مقاتل:"يعني: وأخلص إليه إخلاصا في الدعاء والعبادة".

قال قتادة:"يقول: أخلص له العبادة والدعوة".

قال الحسن:"بَتِّل نفسك واجتهد".

قال الحسن:"أخلِص له إخلاصًا". وروي عن عطاء الخراساني مثله.

**الثاني**: تعبد له تعبدًا، وهو معنى قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"أي تفرّغ لعبادته، قال: تبتل فحبذا التبتل إلى الله، وقرأ قول الله: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ}، قال: إذا فرغت من الجهاد فانصب في عبادة الله، {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}".

**الثالث**: انقطع إليه انقطاعًا، لحوائجك وعبادتك دون سائر الأشياء غيره، وهو من قولهم: تبتَّلتُ هذا الأمر؛ ومنه قيل لأمّ عيسى ابن مريم البتول، لانقطاعها إلى الله، ويقال للعابد المنقطع عن الدنيا وأسبابها إلى عبادة الله: قد تبتل؛ ومنه الخبر الذي رُوي عن النبي ﷺ "أنه نهى عن التبتُّل. وهذا قول الطبري.

وقال سهل في الآية:"اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في افتتاح صلاتك توصلك بركة قراءتها إلى ربك، وتقطعك عن كل ما سواه".

**الرابع**: توكّل عليه توكُّلًا. قاله سفيان.

=

=

**الخامس**: أن "التَّبَتُّل": رفْض الدنيا وما فيها، والتماس ما عند الله. قاله زيد بن أسلم.

**السادس**: وتضرّع إليه تضرّعًا. ذكره الماوردي.

أي: وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، وما تحتاج إليه من أمور.

والتَّبَتُّل: الانقطاع إِلى الله في العبادة وإِخلاص النيّة انقطاعًا يختصّ به.

وأما التبتل المنهي عنه كما جاء عن النبي أنه نهى عثمان بن مظعون عن التبتل، فالمراد به الانقطاع عن الزواج والامتناع عن طيبات الحياة الدنيا وما أباحه الله فيها.

-قال القرطبي: يقال: بتلت الشيء أي قطعته، ومنه قولهم: طلقها بَتّةً بَتلة، وهذه صدقة بتة بتلة؛ أي بائنة منقطعة عن صاحبها؛ أي قُطِع ملكه عنها بالكلية؛ ومنه مريم البتول لانقطاعها إلى الله تعالى، ويقال للراهب متبتّل؛ لانقطاعه عن الناس، وانفراده بالعبادة.

قوله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} [المزمل: ٩]، أي:"هو مالك المشرق والمغرب".

**قال الطبري**: أي:"ربّ المشرق والمغرب وما بينهما من العالم".

**قال ابن كثير**:"أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب".

عن عكرمة:"{رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ}، قال: وجه الليل، ووجه النهار".

أي: رب مشرق الشمس والكواكب ومغربها، خالقه ومالكه ومدبره والمتصرف فيه.

والمشرق والمغرب: اسم جنس يشمل المشارق والمغارب كلها.

قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [المزمل: ٩]، أي:"لا معبود بحق إلا هو".

**قال الطبري**: "يقول: لا ينبغي أن يُعبد إله سوى الله الذي هو ربّ المشرق

=

=

والمغرب".

قال محمد بن إسحاق: "لا إله إلا الله، أي: ليس معه غيره شريك في أمره".

عن كعب، قال:"لا إله إلا الله، كلمة الإخلاص".

فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبدًا لربه، ممتثلا أوامره مجتنبًا نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقًا ناقصًا مدبرًا فقيرًا من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئا من أنواع العبادة.

في هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله (لا إله إلا هو) هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر.

ففيها نفي استحقاق غير الله العبادة، وإثبات استحقاق الألوهية والعبودية لله تعالى.

قال ابن رجب: قَوْل: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ، تَقْتَضِي أَلَّا يُحِبَّ سِوَاهُ، فَإِنَّ اَلْإِلَهَ هُوَ اَلَّذِي يُطَاعُ، مَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً. وَمِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ، وَكَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُ اَللهُ، أَوْ كَرِهَ شَيْئًا مِمَّا يُحِبُّهُ اَللهُ لَمْ يَكْمُلْ تَوْحِيدُهُ وَلَا صِدْقُهُ فِي قَوْلِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ، وَكَانَ فِيهِ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلْخَفِيِّ بِحَسْبِ مَا كَرِهَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ اَللهُ، وَمَا أَحَبَّهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ. قَالَ تَعَالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُم).

قوله تعالى: {فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [المزمل: ٩]، أي:"فاعتمد عليه، وفوِّض أمورك إليه".

**قال الطبري**: أي: "فيما يأمرك وفوّض إليه أسبابك".

قال الثعلبي: أي:"قيّما بأمورك ففوّضها إليه".

=

وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠).

{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} أَيْ كُفَّار مَكَّة مِنْ أَذَاهُمْ {وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} لَا جَزَع فِيهِ وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِقِتَالِهِمْ.

---

=

قال ابن عطية:"الوكيل: القائم بالأمر الذي يوكل إليه الأشياء".

**قال ابن كثير**:"وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل، {فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} كما قال في الآية الأخرى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [هود: ١٢٣] وكقوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وآيات كثيرة في هذا المعنى، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه".

**قال السدي**: أما «الوكيل»، فالحفيظ".

عن قتادة: "{وكفى بالله وكيلا}، قال: حفيظًا".

قال سهل في الآية:"أي: كفيلًا بما وعدك من المعونة على الأمر، والعصمة عن النهي، والتوفيق للشكر، والصبر في البلوى، والخاتمة المحمودة. ثم قال: في الدنيا الجنة والنار، فالجنة والعافية أن تولي الله أمرك، والنار البلوى، والبلوى أن يكلك إلى نفسك. قيل: فما الفرج؟ قال: لا تطمع في الفرج وأنت ترى مخلوقًا، وما من عبد أراد الله بعزم صحيح إلا زال عنه كل شيء دونه، وما من عبد زال عنه كل شيء دونه إلا حق عليه أن يقوم بأمره، وليس في الدنيا مطيع لله وهو يطيع نفسه، ولا يتباعد أحد عن الله إلا بالاشتغال بغير الله، وإنما تدخل الأشياء على الفارغ، وأما من كان مشغول القلب بالله لم تصل إليه الوسوسة وهو في المزيد أبدًا، واحفظ نفسك بالأصل. قيل له: ما هو؟ قال: التسليم لأمر الله، والتبري ممن سواه".

أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو، كما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل فاتخذه وكيلًا، كما قال تعالى: (فاعبده وتوكل عليه).

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١).

{وَذَرْنِي} اُتْرُكْنِي {وَالْمُكَذِّبِينَ} عَطْف عَلَى الْمَفْعُول أَوْ مَفْعُول مَعَهُ وَالْمَعْنَى أَنَا كَافِيكَهُمْ وَهُمْ صَنَادِيد قُرَيْش {أُولِي النَّعْمَة} التَّنَعُّم {وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا} مِنْ الزَّمَن فَقُتِلُوا بَعْد يَسِير مِنْهُ بِبَدْرٍ.

إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢).

{إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا} قُيُودًا ثِقَالًا جَمْع نِكْل بِكَسْرِ النُّون {وَجَحِيمًا} نَارًا مُحْرِقَة.

وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣).

{وَطَعَامًا ذَا غُصَّة} يَغَصّ بِهِ فِي الْحَلْق وَهُوَ الزَّقُّوم أَوْ الضَّرِيع أَوْ الْغِسْلِين أَوْ شَوْك مِنْ نَار لَا يَخْرُج وَلَا يَنْزِل {وَعَذَابًا أَلِيمًا} مُؤْلِمًا زِيَادَة عَلَى مَا ذُكِرَ لِمَنْ كَذَّبَ النَّبِيّ ﷺ.

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤).

{يَوْم تَرْجُف} تُزَلْزَل {الْأَرْض وَالْجِبَال وَكَانَتْ الْجِبَال كَثِيبًا} رَمْلًا مُجْتَمِعًا {مَهِيلًا} سَائِلًا بَعْد اجْتِمَاعه وَهُوَ مِنْ هَالَ يَهِيل وَأَصْله مَهْيُول اُسْتُثْقِلَتْ الضَّمَّة عَلَى الْيَاء فَنُقِلَتْ إِلَى الْهَاء وَحُذِفَتْ الْوَاو ثَانِي السَّاكِنَيْنِ لِزِيَادَتِهَا وَقُلِبَتْ الضَّمَّة كَسْرَة لمجانسة الياء.

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥).

{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ} يَا أَهْل مَكَّة {رَسُولًا} هُوَ مُحَمَّد ﷺ {شَاهِدًا عَلَيْكُمْ} يَوْم الْقِيَامَة بِمَا يَصْدُر مِنْكُمْ مِنْ الْعِصْيَان {كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْن رَسُولًا} هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام.

فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦).

{فَعَصَى فِرْعَوْن الرَّسُول فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} شَدِيدًا.

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧).

{فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إنْ كَفَرْتُمْ} فِي الدُّنْيَا {يَوْمًا} مَفْعُول تَتَّقُونَ أَيْ عَذَابه بِأَيِّ حِصْن تَتَحَصَّنُونَ مِنْ عَذَاب يَوْم {يَجْعَل الْوِلْدَان شِيبًا} جَمْع أَشْيَب لِشِدَّةِ هَوْله وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة وَالْأَصْل فِي شِين شِيبًا الضَّمّ وَكُسِرَتْ لِمُجَانَسَةِ الْيَاء وَيُقَال فِي الْيَوْم الشَّدِيد يَوْم يَشِيب نَوَاصِي الْأَطْفَال وَهُوَ مَجَاز وَيَجُوز أَنْ يَكُون الْمُرَاد فِي الْآيَة الْحَقِيقَة.

السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨).

{السَّمَاء مُنْفَطِر} ذَات انْفِطَار أَيْ انْشِقَاق {بِهِ} بِذَلِكَ الْيَوْم لِشِدَّتِهِ {كَانَ وَعْده} تَعَالَى بِمَجِيءِ ذَلِكَ {مَفْعُولًا} أَيْ هُوَ كَائِن لَا مَحَالَة[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [المزمل: ١٠]، أي:"واصبر على ما يقوله المشركون فيك وفي دينك".

**قال الطبري**: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: اصبر يا محمد على ما يقول المشركون من قومك لك، وعلى أذاهم".

**قال ابن كثير**:"يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه".

قوله تعالى: {وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} [المزمل: ١٠]، أي:"وخالفهم في أفعالهم الباطلة، مع الإعراض عنهم، وترك الانتقام منهم".

تعددت عبارات المفسرين في قوله تعالى: {وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} [المزمل: ١٠]، على وجوه:

**أحدها**: اصفح عنهم وقل: سلام، قاله ابن جريج.

وقال الواحدي:"أن لا تتعرَّض لهم ولا تشتغل بمكافآتهم".

=

=

**الثاني**: أنه الهجر الخالي من ذم وإساءة. حكاه الماوردي.

**الثالث**: هو الذي لا عتاب معه. ذكره ابن كثير.

**الرابع**: أن الهجر الجميل: الذى لا أذى معه. قاله الفيروزآبادي.

**الخامس**: أن الهجر الجميل: هو الذي لا جزع فيه. حكاه السمعاني.

**السادس**: أن الهجر الجميل: هو الهجر في ذات الله، كما قال ﷻ: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} . قاله الطبري".

السابع: الهجر الجميل: إظهار الجفوة من غير ترك الدعوة إلى الحق على المناصحة. قاله ابن فورك.

الثامن: الهجر الجميل: أن تعاشرهم بظاهرك وتباينهم بسرّك وقلبك. قاله القشيري.

وقال الزمخشري:"الهجر الجميل: أن يجانبهم بقلبه وهواه، ويخالفهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة".

قال ابن العربي:"الهجر الجميل فهو الذي لا فحش فيه. وقيل: هو السلام عليهم. وبالجملة فهو مجرد الإعراض".

قال شيخ الإسلام:"وَالله تَعَالَى ذكر فِي الْقُرْآن الهجر الْجَمِيل والصفح الْجَمِيل وَالصَّبْر الْجَمِيل وَقد قيل: إِن الهجر الْجَمِيل: هُوَ هجر بِلَا أَذَى، والصفح الْجَمِيل: صفح بِلَا معاتبة، وَالصَّبْر الْجَمِيل: صَبر بِغَيْر شكوى إِلَى الْمَخْلُوق، وَلِهَذَا قرئَ على أَحْمد بن حَنْبَل فِي مَرَضه: إِن طاوسا كَانَ يكره أَنِين الْمَرِيض وَيَقُول: إِنَّه شكوى. فَمَا أنّ أَحْمد حَتَّى مَاتَ".

قال مقاتل:"يعني: اعتزلهم اعتزالا جميلا حسنا، نسختها آية السيف في براءة".

**قال الزجاج**:"هذا يدل- والله أعلم- قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال".

=

=

قال الماوردي:"وهذا الهجر الجميل قبل الإذن في السيف".

عن قتادة، قوله: "{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلا}، براءة نسخت ما ههنا؛ أمر بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لا يقبل منهم غيرها".

قال الفخر الرازي- في الآية-: "المعنى: إنك لما اتخذتني وكيلا؛ فاصبر على ما يقولون وفوض أمرهم إلي؛ فإنني لما كنت وكيلا لك أقوم بإصلاح أمرك أحسن من قيامك بإصلاح أمور نفسك، واعلم أن مهمات العباد محصورة في أمرين كيفية معاملتهم مع الله، وكيفية معاملتهم مع الخلق، والأول أهم من الثاني، فلما ذكر تعالى في أول هذه السورة ما يتعلق بالقسم الأول أتبعه بما يتعلق بالقسم الثاني، وهو سبحانه جمع كل ما يحتاج إليه من هذا الباب في هاتين الكلمتين، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطا للناس أو مجانبا عنهم فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيذائهم وإيحاشهم، فإنه إن كان يطمع منهم في الخير والراحة لم يجد فيقع في الغموم والأحزان، فثبت أن من أراد مخالطة مع الخلق فلا بد له من الصبر الكثير، فأما إن ترك المخالطة فذاك هو الهجر الجميل، فثبت أنه لا بد لكل إنسان من أحد هذين الأمرين".

روي عن أبي الزاهرية، أنّ أبا الدرداء، قال: "إنا لنكشّر في وجوه أقوام ونضحك إليهم، وإنّ قلوبنا لتقليهم أو لتلعنهم".

وفي نونية ابن القيم:

**واهجر ولو كل الورى في ذاته... لا في هواك ونخوة الشيطان**

**واصبر بغير تسخط وشكاية... واصفح بغير عتاب من هو جان**

**واهجرهم الهجر الجميل بلا أذى... إن لم يكن بد من الهجران**

قال عماد الدين الواسطي:"عليك بمفارقة الإخوان البطالين الذين يخوضون

=

=

كثيرًا في قيل وقال، وجانب أهل المنكر والفواحش الذين لا همة لهم، ولا يظهرُ عليهم أثر المخافة من الله ﷻ، واهرب من هؤلاء فرارك من الأسد، وحاسنهم في السلام والكلام كما قال الله ﷻ: {وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} [المزمل: ١٠]، وعليك بصحبة أهل التقوى والورع في الكلام والمأكل والملبس، وأهل الأخلاق المرضية، والوفا في سائر أصناف العالَم من الفقهاء والفُقراء والصُّوفية أهل السُّنَّة الذين يكونون على علم الحديث والأثر، وقليل ما هم".

يأمر الله تعالى رسوله بالصبر على ما يقوله ممن كذّبه من سفهاء قومه من قولهم: ساحر، شاعر، مجنون.

- قال القرطبي (واصبر على مَا يَقُولُونَ) أي: من الأذى والسبّ والاستهزاء، ولا تجزع من قولهم، ولا تمتنع من دعائهم.

كما قال تعالى (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ). وقال تعالى (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

- وإنما أمره بالصبر لأمور:

**أولًا**: لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال (واعلم أن النصر مع الصبر).

**ثانيًا**: أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات.

**ثالثًا**: وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

**رابعًا**: وليكون قدوة لغيره.

- وقد اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة أم لا؟

فقيل: إنها منسوخة، وناسخها آية السيف في سورة براءة، أمر بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله لا يقبل منهم غيرها.

وقيل: أنها ليست بمنسوخة، وهذا الأصح.

=

=

- **قال الرازي**: والهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم في الأفعال مع المدارة والإغضاء وترك المكافأة، ونظيره (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ) وَأَعْرِض عَنِ الجاهلين) فَأَعْرَضَ عَمَّ مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا) قال المفسرون: هذه الآية إنما نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بالأمر بالقتال، وقال آخرون: بل ذلك هو الأخذ بإذن الله فيما يكون أدعى إلى القبول فلا يرد النسخ في مثله وهذا أصح.

قوله تعالى: {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ} [المزمل: ١١]، أي:"دعني -أيها الرسول- وهؤلاء المكذبين بآياتي".

**قال الطبري**: يقول تعالى: "فدعني يا محمد والمكذّبين بآياتي".

**قال ابن كثير**:"أي: دعني والمكذبين المترفين أصحابَ الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم".

قال مقاتل:"يقول: خل بيني وبين بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، فإن لي فيهم نقمة ببدر".

قال الثعلبي:"نزلت في صناديد قريش المكذبين المشتهرين".

وقال مقاتل بن حيان: "نزلت في المطعمين ببدر وهم عشرة".

**قال الزجاج**:"العرب إذا أرادت أن تَأْمُرَ الإنسان بأَن له همة بأمْرٍ أو بإنْسَانٍ تقول: دعني وزيدًا، ليس أنه حال بينه وبَيْنَ زَيدٍ أَحَدٌ، ولكن تأويله: لا تَهْتَمَّ بزيدٍ فإني أكفيكه".

**قال الزمخشري**:"إذا عرف الرجل من صاحبه أنه مستهم بخطب يريد أن يكفاه، أو بعدوّ يشتهى أن ينتقم له منه وهو مضطلع بذلك مقتدر عليه قال: ذرني وإياه، أي: لا تحتاج إلى الظفر بمرادك ومشتهاك، إلا أن تخلى بيني وبينه بأن تكل أمره إلىّ وتستكفينيه، فإنّ فيّ ما يفرغ بالك ويجلى همك، وليس ثم منع حتى يطلب إليه أن يذره وإياه إلا ترك الاستكفاء والتفويض، كأنه إذا لم يكل أمره إليه، فكأنه

=

=

منعه منه، فإذا وكله إليه فقد أزال المنع وتركه وإياه، وفيه دليل على الوثوق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب وبما يزيد عليه".

قوله تعالى: {أُولِي النَّعْمَةِ} [المزمل: ١١]، أي:"أصحاب النعيم والترف في الدنيا".

قال مقاتل:"في الغنى والخير".

**قال الطبري**: "يعني أهل التنعم في الدنيا".

قال القشيري:"أولى التّنعّم".

**قال الزمخشري**:"النعمة- بالفتح- التنعم، وبالكسر: الإنعام، وبالضم: المسرة، يقال: نعم، ونعمة عين، وهم صناديد قريش، وكانوا أهل تنعم وترفه".

قوله تعالى: {وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا} [المزمل: ١١]، أي:"ومهِّلهم زمنًا قليلا بتأخير العذاب عنهم حتى يبلغ الكتاب أجله بعذابهم".

**قال الطبري**: "وأخرهم بالعذاب الذي بسطته لهم قليلا حتى يبلغ الكتاب أجله".

قال القشيري:"وأنظرهم قليلا، ولا تهتم بشأنهم، فإني أكفيك أمرهم".

**قال ابن كثير**:"أي: رويدا، كما قال: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [لقمان: ٢٤]".

عن قتادة، قال الله: "{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلا}، يقول: إن لله فيهم طَلبة وحاجة".

قال مقاتل: "{وَمَهِّلْهُمْ}: هذا وعيد، {قَلِيلًا}: حتى أهلكهم ببدر".

أي: اتركني والمكذبين فأنا أتولى عقابهم وعذابهم، ولا تشغل نفسك بهم، وهذا وعيد شديد وتهديد أكيد للمكذبين للرسول.

(أُولِي النَّعْمَةِ) أي: أصحاب الأموال، فسأنتقم منهم وإن أمهلتهم فلا أهملهم،

=

=

الذين طغوا حين وسع الله لهم من رزقه وأمدهم من فضله، كما قال تعالى: (كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى).

- **قال ابن عاشور**: ووصَفَهم بـ (أولي النَّعمة) توبيخًا لهم بأنهم كذبوا لغرورهم وبطرهم بسعة حالهم، وتهديدًا لهم بأن الذي قال (ذرني والمكذبين) سيزيل عنهم ذلك التنعم، وفي هذا الوصف تعريض بالتهكم، لأنهم كانوا يعدُّون سعة العيش ووفرة المال كمالًا، وكانوا يعيّرون الذين آمنوا بالخصاصة قال تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين ءامنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزُون الآيات)، وقال تعالى (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل).

(وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا) أي: أمهلهم وأنظرهم قليلًا من الوقت، كما قال تعالى (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا).

فالله تبارك وتعالى يمهل ولا يهمل كما قال تعالى (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ).

وقال تعالى (فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ).

- وفي هذا التحذير من الانشغال بالأموال وجمعها وأنها قد تحمل الإنسان على البطر والأشر والكبر ورد الحق والصد عن سبيل الله كما قال تعالى (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ.) وقال (والكبْر بطر الحق وغمْط الناس) رواه مسلم.

قوله تعالى: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا} [المزمل: ١٢]، أي:"إن لهم عندنا في الآخرة قيودًا ثقيلة ونارًا مستعرة يُحرقون بها".

**قال الطبري**: يقول" إن عندنا لهؤلاء المكذِّبين بآياتنا قيودا ونارا تسعر".

=

=

قال مقاتل: "فـ «الأنكال»: عقوبة من ألوان العذاب، ثم ذكر العقوبة فقال: {وجحيما}، يعني: ما عظم من النار".

**قال الزمخشري:**"{إِنَّ لَدَيْنا} ما يضاد تنعمهم من أنكال: وهي القيود الثقال".

**قال الزجاج:**"الأنكال: واحدها: نِكْل. وجاء في التفسير أنه -ههنا-: قُيُودٌ مِنْ نَارٍ".

عن قتادة: "{إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالا}، أي: قيودا".

عن عكرِمة: "{إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالا}، قال: قُيودا".

عن عكرِمة:"أن الآية التي قال: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالا وَجَحِيمًا}، إنها قيود".

قال مجاهد، وحماد:"الأنكال: القيود".

وقال حماد:"قيودا سوداء من نار جهنم".

عن الشعبي:"إذا ارتفعوا استقلت بهم".

قال عامر الشعبي: "تَرون أنّ الله لم يجعل الأنكال في أرْجُل أهل النار لأنه خشي أن يَفِرُّوا منه؟ ولكن إذا أرادوا أنْ يَرتفعوا استَثقلتْ بهم".

قوله تعالى: {وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ} [المزمل: ١٣].

وفي تفسير قوله تعالى: {وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ} [المزمل: ١٣]، وجهان:

**أحدهما:** أنه شوك يأخذ الحلق فلا يدخل ولا يخرج، قاله ابن عباس.

**قال الطبري:**"يقول: وطعاما يَغَصّ به آكله، فلا هو نازل عن حلقه، ولا هو خارج منه".

**الثاني:** أنها شجرة الزقوم، قاله مجاهد، ومقاتل.

قوله تعالى: {وَعَذَابًا أَلِيمًا} [المزمل: ١٣]، أي:"وعذابًا موجعًا".

**قال الطبري:**"يقول: وعذابا مؤلما موجعا".

عن خالد بن حسان، قال: "أمسى عندنا الحسن وأمسى صائما، فأتيته بطعام

=

فعرضت له هذه الآية: {إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا وَجَحِيمًا وَطَعامًا ذا غُصَّةٍ وَعَذابًا أَلِيمًا}، فقال: ارفع الطعام، فلما كانت الليلة الثانية أتيناه أيضا بطعام فعرضت له هذه الآية، فقال: ارفعه، فلمّا كانت الليلة الثالثة أتيته فعرضت له هذه الآية، فقال: ارفعوا، فانطلق ابنه إلى ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء فحدثهم بحديثه، فجاءوا معه فلم يزالوا به حتّى شرب شربة من سويق".

أي: وطعام كريه ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج، والغُصَّة بضم الغين: اسم لأثر الغصّ في الحلق وهو تردد الطعام والشراب في الحلق بحيث لا يسيغه الحلق من مرض أو حزن وعَبرة.

- **قال السعدي**: وذلك لمرارته وبشاعته وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن.

- **قال ابن عاشور**: فالأنكال مقابل كفرانهم بنعمة الصحة والمقدرة لأن الأنكال القيود.

والجحيم: وهو نار جهنم مقابل ما كانوا عليه من لذة الاستظلال والتبرد.

والطعام: ذو الغُصة مقابل ما كانوا منهمكين فيه من أطعمتهم الهنيئة من الثمرات والمطبوخات والصيد.

والعذاب الأليم: مقابل ما في النعمة من ملاذ البشر، فإن الألم ضد اللذة.

(وَعَذَابًا أَلِيمًا) أي: عذابًا مؤلمًا موجعًا حسيًا للأبدان ومعنويًا للقلوب.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا).

قال تعالى (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون).

وقال تعالى (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى).

وقال تعالى (سيذكر من يخشى. ويتجنبها الأشقى. الذي يصلى النار الكبرى. ثم =

=

لا يموت فيها ولا يحيى).

**قال ابن كثير**: أي لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه، بل هي مضرة عليه، لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال.

(إن شجرة الزقوم. طعام الأثيم....).

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط هل مر بك شدة قط فيقول لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط) رواه مسلم.

وعن أبي هريرة. قال: قال رسول الله (يؤتى بالموت على شكل كبش أملح فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت) متفق عليه.

قوله تعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ} [المزمل: ١٤].

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: إن لدينا لهؤلاء المشركين من قريش الذين يؤذونك يا محمد العقوبات التي وصفها في يوم ترجف الأرض والجبال؛ ورُجْفان ذلك: اضطرابه بمن عليه، وذلك يوم القيامة".

قوله تعالى: {وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا} [المزمل: ١٤]، أي:"وتصبح الجبال على صلابتها تلًا من الرمل سائلًا متناثرًا، بعد أن كانت صلبة جامدة".

وفي قوله تعالى: {وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا} [المزمل: ١٤]، وجهان:

=

=

**أحدهما**: رملًا سائلًا، قاله ابن عباس، وبه قال ابن قتيبة.

**قال الطبري**:"يقول: وكانت الجبال رملا سائلا متناثرًا".

وقال ابن عباس:"الكثيب المهيل: اللين الذي إذا مسسته تتابع".

عن مجاهد، قوله: "{كَثِيبًا مَهِيلا}، قال: ينهال".

قال أبو وعبيدة:"من هلته تهيله".

**قال الزجاج**:"الكثيب: جمعه الكثبان، وهي القِطَع العظام من الرمل. ومعنى {مَهِيلًا}: سَائِلا قد سيلَ".

**الثاني**: أن المهيل الذي إذا وطئه القدم زل من تحتها وإذا أخذت أسفله انهال أعلاه، قاله الضحاك، والكلبي.

قال الكلبي:"المهيل: الذي إذا أخذت منه شيئا أتبعك آخره، قال: والكثيب من الرمل".

قال مقاتل:"المهيل: الرمل الذي إذا حرك تبع بضعه بعضا".

**قال الفراء**:"الكثيب: الرمل، والمهيل: الَّذِي تحرك أسفله فينهال عليك من أعلاه".

**قال ابن كثير**:"أي: تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض قاعًا صفصفا، لا ترى فيها عوجًا، أي: واديا، ولا أمتا، أي: رابية، ومعناه: لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع".

أي يوم تتزلزل الأرض وتهتز بمن عليها هي وسائر الجبال، من الهول العظيم في يوم القيامة، والرجفة الزلزلة والزعزعة الشديدة

كما قال تعالى (إذا زلزلت الأرض زلزالها). وقال تعالى (إذا رجت الأرض رجا. وبست الجبال بسا).

=

=

وقال تعالى (إذا رجت الأرض رجا. وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا) قال ابن كثير: وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونسفها- أي قلعها- وصيرورتها كالعهن المنفوش.

قال تعالى (وتكون الجبال كالعهن المنفوش).

وقال تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب).

وقال تعالى (يوم تمور السماء مورا. وتسير الجبال سيرا).

وقال تعالى (وسيرت الجبال فكانت سرابا).

وقال تعالى (وإذا الجبال سيرت).

(وكانت الجبال) الراسيات الصم الصلاب (كثيبا مهيلا) أي: تصير الجبال ككثبان الرمال، بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، والكثيب القطعة العظيمة من الرمل تجتمع محدودبة.

كما قال تعالى: (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا).

(مهيلا) رخوا لينا ينثر بعضه على بعض بعد أن كانت حجارة صلبة صماء ثابتة.

فإن قيل لم لم يقل: وكانت الجبال كثبانا مهيلة؟ قلنا: لأنها بأسرها تجتمع فتصير كثيبا واحدا مهيلا.

قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ} [المزمل: ١٥].

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ} أيها الناس {رَسُولا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ} بإجابة من أجاب منكم دعوتي، وامتناع من امتنع منكم من الإجابة، يوم تلقوني في القيامة".

قال مقاتل:"{إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ} يا أهل مكة {رَسُولًا}، يعني: النبي- ﷺ- لأنه ولد فيهم فازدروه، {شاهِدًا عَلَيْكُمْ} أنه بلغكم الرسالة، وقد استخفوا به،

=

=

وازدروه لأنه ولد فيها".

**قال الزمخشري:**"الخطاب لأهل مكة {شاهِدًا عَلَيْكُمْ} يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم".

قوله تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا} [المزمل: ١٥]، أي:"كما أرسلنا موسى رسولا إلى الطاغية فرعون".

**قال الطبري:**"يقول: مثل إرسالنا من قبلكم إلى فرعون مصر رسولا بدعائه إلى الحقّ".

قال مقاتل:"يعني: موسى عليه السلام أي أنه كان ولد فيها فازدروه".

يقول تعالى مخاطبا لكفار قريش، والمراد سائر الناس: (إنا أرسلنا إليكم) أي بعثنا لكم يا أهل مكة (رسولا) أي محمد شاهدا على أعمالكم، يشهد عليكم بما يصدر منكم من الكفر والعصيان.

(كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) أي كما بعثنا على ذلك الطاغية فرعون الجبار، رسولا من أولئك الرسل العظام وهو موسى بن عمران.

قال بعض العلماء: وإنما خص فرعون وموسى بالذكر من بين سائر الأمم والرسل، لأن محمد آذاه أهل مكة واستخفوا به لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ازدرى بموسى وآذاه لأنه رباه".

قال ابن عاشور: واختير لهم ضرب المثل بفرعون مع موسى عليه السلام، لأن الجامع بين حال أهل مكة وحال أهل مصر في سبب الإعراض عن دعوة الرسول هو مجموع ما هم عليه من عبادة غير الله، وما يملأ نفوسهم من التكبر والتعاظم على الرسول المبعوث إليهم بزعمهم أن مثلهم لا يطيع مثله كما حكى الله تعالى عنهم بقوله (فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) وقد قال أهل مكة (لولا نزل هذا القرءان على رجل من القريتين عظيم) وقد حكى الله عنهم أنهم

=

=

قالوا (لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا)، وقد تكرر في القرآن ضرب المثل بفرعون لأبي جهل وهو زعيم المناوين للنبي والمؤلبين عليه وأشد صناديد قريش كفرا.

قوله تعالى: {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} [المزمل: ١٦].

**قال الطبري**: يقول: "{فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} الذي أرسلناه إليه".

قوله تعالى: {فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} [المزمل: ١٦]، أي:"فأهلكناه إهلاكًا شديدًا".

قال مقاتل:"يعني: شديدا وهو الغرق، يخوف كفار مكة بالعذاب، أن لا يكذبوا محمدا- ﷺ- فينزل بهم العذاب كما نزل بفرعون وقومه حين كذبوا موسى عليه السلام".

**قال الطبري**: يقول: فأخذناه أخذا شديدا، فأهلكناه ومن معه جميعا".

**قال ابن كثير**:"أي: شديدا، أي فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: {فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأولَى} [النازعات: ٢٥] وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران".

**قال الزمخشري**:"{وَبِيلًا} : ثقيلا غليظا، من قولهم: كلأ وبيل وخم لا يستمرأ لثقله. والوبيل: العصا الضخمة. ومنه: الوابل للمطر العظيم".

عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، قوله: "{أَخْذًا وَبِيلا} ، قال: شديدا".

قال ابن زيد:"الوبيل: الشرّ، والعرب تقول لمن تتابع عليه الشرّ: لقد أوبل عليه، وتقول: أوبلت على شرّك، قال: ولم يرض الله بأن غُرِّق وعُذِّب حتى اقرّ في عذاب مستقرّ حتى يُبعث إلى النار يوم القيامة، يريد فرعون".

أي: فكذب فرعون بموسى ولم يؤمن به، وعصى أمره، كما عصيتم يا قريش

=

=

محمدا وكذبتم برسالته.

(فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا) أي: شديدًا بليغًا، وذلك بإغراقه في البحر مع قومه، كما قال تعالى (فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى) وقال تعالى (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ).

قال بعض العلماء: في الآية التنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة.

قال الشوكاني (فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا) أي: شديدًا ثقيلًا غليظًا، والمعنى: عاقبنا فرعون عقوبة شديدة غليظة بالغرق؛ وفيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل بهم من العقوبة مثل ما نزل به، وإن اختلف نوع العقوبة.

قوله تعالى: {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ} [المزمل: ١٧].

قال السمعاني:"أي: كيف تتقون إن كفرتم من عذاب يوم؟".

**قال الزجاج**:"أي: بأي شيء تتحصَّنون من عذاب الله".

وذكر أهل العلم في قوله تعالى: {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ} [المزمل: ١٧]، وجوها من التفسير:

**أحدها**: أي: كيف تتقون النار في الآخرة إذا سلكتم في الدنيا سبيلها -وهو الكفر- وأنتم تعلمون أن من سلك طريقا لشيء ولا منفذ لذلك الطريق إلا إلى ذلك الشيء؛ فإنه يرد عليه لا محالة.

**الثاني**: كيف تتقون النار في الآخرة، وقد تركتم القيام بما عليكم من شكر النعم. وهو معنى قول قتادة.

قال قتادة:"يقول: كيف تتقون يوما، وأنتم قد كفرتم به ولا تصدّقون به".

قال قتادة:"والله لا يتقي من كفر بالله ذلك اليوم".

عن قتادة:"فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيبًا}، قال: تَتَّقون ذلك

=

=

اليوم إن كفرتم. قال: لا، واللهِ، ما اتّقى ذلك اليوم قومٌ كفروا بالله وعَصَوا رسوله".

وعن الحسن: "{فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا}، قال: بأي صلاة تَتَّقون؟! بأي صيام تَتَّقون؟!".

قال الثعلبي: "قيل: معناه فكيف تتّقون عذاب يوم، وكيف تنجون منه إذا كفرتم".

**الثالث**: كيف تتقون العذاب في الآخرة وأنتم تدفعون إليها، وتضطرون بقوله- ﷻ -: {ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ}، وبقوله: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ}، وبقوله: {خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ}، وقد مكنتم في الدنيا من الإيمان بالله تعالى، ومكنتم من الانتهاء عن الكفر، ثم لم تنقلعوا عنه، فأنى يتهيأ لكم المخلص من عذابه، وأنتم تدفعون إليه.

**الرابع**: كيف تنتفعون بإيمانكم في الآخرة، ولم تؤمنوا في الدنيا، وقد مكنتم به.

قال الثعلبي: "أي: فكيف لكم بالتقوى في القيامة إذا كفرتم في الدنيا، يعني: لا سبيل لكم إلى التقوى ولا تنفعكم التقوى إذا وافيتم القيامة".

**قال الماتريدي**: "والأصل أن دار الآخرة ليست بدار لاستحداث الأسباب، وإنما هي دار وقوع المسببات؛ فهم إذا لم يستحدثوا الأسباب التي جعلت لدفع العذاب في الدنيا، لم يمكنوا من استحداثها في الآخرة فينتفعوا بها، ولم يكونوا أهلا لوقوع المسببات؛ لما لم يستحدثوا الأسباب في الدنيا، وإنما قلنا: إنها ليست بدار محنة وابتلاء؛ لأن المحنة؛ لاستظهار الخفيات، والثواب والعقاب قد شوهد وعوين؛ فإذا قيل: إذا فعلت كذا، دخلت النار وهو يعاين النار، ويراها، فهو يمتنع عن الإقدام على ذلك الفعل، وإذا قيل له: إذا آمنت بالله تعالى أكرمت بالجنة، وهو يشاهد الجنة، ويراها، فهو يؤمن لا محالة؛ فلا وجه للابتلاء في الآخرة؛ بل هي دار وقوع المسببات يعني: الثواب والعقاب؛ والذي يدل على

=

=

هذا قوله؛ {يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا}، فأخبر أنهم يشيبون لا بسبب المشيب، والمشيب في الدنيا لا يوجد إلا بعد وجود سببه، وهو الكبر ليعلم أن الدار الآخرة ليست بدار استحداث الأسباب؛ فما يستحدثون من الإيمان بالله تعالى لا ينفعهم في ذلك اليوم، ولا يقيهم من عذاب الله تعالى".

قوله تعالى: {يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} [المزمل: ١٧]، أي:"وكيف تأمنون ذلك اليوم الرهيب الذي يشيب فيه الوليد من شدة هوله، وفظاعة أمره؟".

**قال الزجاج:**"في يومٍ مِنْ هَولِه يشيب فيه الصَّغَير من غير كِبَر".

**قال الطبري:**"يعني: يوم القيامة، وإنما تشيب الولدان من شدّة هوله وكربه".

قال السمعاني:"هذا على طريق كلام العرب في ذكر شدة اليوم، فإنهم يقولون: هو يوم تشيب فيه النواصي، ويوم يبيض فيه القار. فالمراد من الآية هو الإخبار عن شدة الأمر. وفي التفسير: أنه يشيب فيه ولدان الكفار لا ولدان المؤمنين".

قال مقاتل:"وذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث بعث النار: من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعين، وواحد إلى الجنة فيساقون إلى النار سود الوجوه زرق العيون مقرنين في الحديد فعند ذلك يسكر الكبير من الخوف، ويشيب الصغير من الفزع، وتضع الحوامل ما في بطونها من الفزع تماما وغير تمام".

**قال الزمخشري:**"{يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيبًا} مثل في الشدة، يقال في اليوم الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال. والأصل فيه: أنّ الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان. أسرع فيه الشيب. قال أبو الطيب:

**وَالهَمُّ يَختَرِمُ الجَسيمَ نَحافَةً... وَيُشيب ناصيَةَ الصَبِيِّ وَيُهرِمُ**

ويجوز أن يوصف اليوم بالطول. وأنّ الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب".

**قال الماتريدي:**"قوله- ﷻ -: {يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} جائز أن يكون هذا على

=

=

التحقيق، فيشيب الولدان لهول ذلك اليوم، ويصير الشيب سكارى؛ لشدة هوله؛ كما قال تعالى: {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى} [الحج: ٢]، وجائز أن يكون على التمثيل، لا على تحقيق الشيب، فمثله به؛ لعظم ذلك اليوم، وشدة هوله، وقد يجوز أن يمثل الشيء بما يبعد عن الأوهام تحقيقه؛ على تعظيم ذلك الشيء، كقوله: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا} [مريم: ٩٠- ٩١]، فذكر هذا على التمثيل؛ لعظم ما قيل فيه، لا على تحقيق الانفطار والانشقاق. وجائز أن يكون معناه: أنه لولا أن الله- تعالى- بعثهم للإبقاء وألا يتغيروا، ولا يتفانوا، وإلا كان هول ذلك اليوم يبلغ مبلغا يشيب به الولدان".

عن ابن زيد، قوله: "{يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا}، قال: تشيب الصغار من كرب ذلك اليوم".

عن خَيْثمة بن عبد الرحمن بن أبي سَبْرَة:"في قوله: {يَوْمًا يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيبًا}، قال: ينادي منادٍ يوم القيامة: يَخرج بعْثُ النار؛ من كلّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعون. فمن ذلك يَشيب الولدان".

عن الضحاك، قال:"كان ابن مسعود يقول: "إذا كان يومُ القيامة دعا رُّبنا المَلِكُ آدم، فيقول: يا آدم قم فابعث بعث النار، فيقول آدم: أي رب لا علم لي إلا ما علمتني، فيقول الله له: أخرج من كلّ ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، فيُساقون إلى النار سُودا مقرّنين، زُرقا كالِحِين، فيشيب هنالك كلّ وليد".

وفي بعض الكتب:"أن رجلا أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب، وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة، فقال: أريت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون".

=

=

أي: كيف يحصل لكم الفكاك والأمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم (يومًا يجعل الولدان شيبًا) أي: من شدة أهواله وزلازله وبلابله، وذلك حين يقول الله تعالى لآدم: (أخرج بعث النار، من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فيشيب هناك كل وليد).

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ).

وقال تعالى (رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ).

وقال تعالى في وصف الأبرار (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا).

وقال (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم) رواه مسلم.

قال القحطاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**يوم القيامة لو علمتَ بهوله... لفررت من أهلٍ ومن أوطانِ**

**يومٌ تشققت السماء لهوله... وتشيب منه مفارق الولدان**

**يوم عبوس قمطريرٌ شرهُ... في الخلقِ منتشرٌ عظيم الشأنِ**

- وأسباب النجاة من كرب يوم القيامة كثيرة:

منها: التنفيس عن المسلمين.

لحديث (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة).

ومنها: إنظار المعسر أو الوضع عنه.

قال (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينظر معسر أو يضع عنه) رواه

=

=

مسلم

ومنها: الوفاء بالنذر، وإطعام الطعام لله.

قال تعالى (بالنذر ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا، ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا. إنما نطعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا. إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا. فوقاهم الله شر ذلك اليوم).

قوله تعالى: {السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} [المزمل: ١٨]

**قال الزمخشري**:"وصف لليوم بالشدّة أيضا. وأنّ السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه، فما ظنك بغيرها من الخلائق".

قال السمعاني:"قد ورد عن كثير من السلف أن قوله: {مُنْفَطِرٌ بِهِ}، أي: بالله، وهو نزول يوم القيامة لفصل القضاء بلا كيف".

قال القشيري:"أي: بذلك اليوم، لهوله، ويقال: منفطر بالله، أي: بأمره".

وقيل: "{السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ}، أي: فيه، يعني: أن السماء منشقة في يوم القيامة. ذكره أبو جعفر النحاس، وذكر أنه أحسن المعاني".

وقال الفراء:"{السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ} بذلك اليوم، و «السماء» تذكر وتؤنث، فهي -هاهنا- فِي وجه التذكير".

قال الشوكاني:"«الباء» سببية، وقيل: هي بمعنى «في»، أي: منفطر فيه، وقيل: بمعنى «اللام»، أي: منفطر له".

وفي قوله تعالى: {السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ} [المزمل: ١٨]، وجوه:

**أحدها**: ممتلئة به، بلسان الحبشة، قاله ابن عباس.

**الثاني**: مثقلة به، قاله ابن عبس-أيضا-، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة.

قال ابن عباس:"مثقلة موقرة".

قال قتادة:"مثقل به ذلك اليوم".

=

=

وقال الحسن:"مثقلة محزونة يوم القيامة".

**قال الطبري**:"السماء مثقلة بذلك اليوم متصدّعة متشققة".

وحكي الزجاج أن المعنى:"أي: السماء مثقلة بالله ﷻ".

**الثالث**: مخزونة به، قاله الحسن.

**الرابع**: منشقة من عظمته وشدته، قاله ابن عباس -أيضا-، وابن زيد.

قال ابن زيد:"هذا يوم القيامة، فجعل الولدان شيبا، ويوم تنفطر السماء، وقرأ: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} وقال: هذا كله يوم القيامة".

قال ابن عباس:"يعني: تشقق السماء".

وقال ابن عباس:"يعني: تشقَّق السماء حين ينزل الرحمن جلّ وعزّ".

وقرئ: «منفطر»، و «متفطر». والمعنى: ذات انفطار. أو على تأويل السماء بالسقف. أو على تأويل السماء شيء منفطر.

قوله تعالى: {كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} [المزمل: ١٨]، أي:"كان وعد الله تعالى بمجيء ذلك اليوم واقعًا لا محالة".

قال السمعاني:"أي: متحققا كائنا لا محالة".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: كان ما وعد الله من أمر أن يفعله مفعولا لأنه لا يخلف وعده، وما وعد أن يفعله تكوينه يوم تكون الولدان شيبا يقول: فاحذروا ذلك اليوم أيها الناس، فإنه كائن لا محالة".

**قال ابن كثير**:"أي: كان وعد هذا اليوم مفعولا أي واقعًا لا محالة، وكائنا لا محيد عنه".

قال النحاس:"أي: ليس لوعده خلف، وقد وعد بكون هذه الأشياء في القيامة".

أي: السماء متشققة ومتصدعة من هول ذلك اليوم الرهيب العصيب. كما قال تعالى (إذا السماء انفطرت) وقال تعالى (إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ).

=

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩).

{إِنَّ هَذِهِ} الْآيَات الْمَخُوفَة {تَذْكِرَة} عِظَة لِلْخَلْقِ {فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} طريقا بالإيمان والطاعة.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ

=

- قال الرازي (السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ) وهذا وصف لليوم بالشدة أيضًا، وأن السماء على عظمها وقوتها تنفطر فيه، فما ظنك بغيرها من الخلائق، ونظيره قوله (إِذَا السماء انفطرت) وقال تعالى (إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ) وقال تعالى (وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ).

- الانفطار: الانشقاق، والضمير المجرور يعود على اليوم، أي: تتفطر السماء بسبب شدته وهوله، ويحتمل أن يعود على الله أن تنفطر بأمره وقدرته. والأول أظهر.

-قال ابن عاشور: والانفطار: التشقق الذي يحدث في السماء لنزول الملائكة وصعودهم كما تقدم في قوله تعالى (تعرج الملائكة والروح إليه) في سورة المعارج، وذكر انفطار السماء في ذلك اليوم زيادة في تهويل أحواله لأن ذلك يزيد المهددين رعبًا وإن لم يكن انفطار السماء من آثار أعمالهم ولا له أثر في زيادة نكالهم.

(كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) أي كان وعد هذا اليوم مفعولًا أي واقعًا لا محالة، وكائنًا لا محيد عنه.

ويمكن أن يعود الضمير إلى الله ويكون المعنى: أي كان وعد الله بمجيء يوم القيامة واقعًا لا محالة، وههنا وإن لم يجر ذكر الله تعالى ولكنه حسن عود الضمير إليه لكونه معلومًا.

مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠).

{إنَّ رَبّك يَعْلَم أَنَّك تَقُوم أَدْنَى} أَقَلّ {مِنْ ثُلُثَيْ اللَّيْل وَنِصْفه وَثُلُثه} بِالْجَرِّ عَطْف عَلَى ثُلُثَيْ وَبِالنَّصْبِ عَلَى أَدْنَى وَقِيَامه كَذَلِكَ نَحْو مَا أَمَرَ بِهِ أَوَّل السُّورَة {وَطَائِفَة مِنْ الَّذِينَ مَعَك} عَطْف عَلَى ضَمِير تَقُوم وَجَازَ مِنْ غَيْر تَأْكِيد لِلْفَصْلِ وَقِيَام طَائِفَة مِنْ أَصْحَابه كَذَلِكَ لِلتَّأَسِّي بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى مِنْ اللَّيْل وَكَمْ بَقِيَ مِنْهُ فَكَانَ يَقُوم اللَّيْل كُلّه احْتِيَاطًا فَقَامُوا حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامهمْ سَنَة أَوْ أَكثر فخفف عنهم قال تعالى {وَاَللَّه يُقَدِّر} يُحْصِي {اللَّيْل وَالنَّهَار عَلِمَ إنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ أنه {لَنْ تُحْصُوهُ} أَيْ اللَّيْل لِتَقُومُوا فِيمَا يَجب الْقِيَام فِيهِ إلَّا بِقِيَامِ جَمِيعه وَذَلِكَ يَشُقّ عَلَيْكُمْ {فَتَابَ عَلَيْكُمْ} رَجَعَ بِكُمْ إلَى التَّخْفِيف {فاقرؤوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآن} فِي الصَّلَاة بِأَنْ تُصَلُّوا مَا تَيَسَّرَ {عَلِمَ أَنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة أَيْ أَنَّهُ {سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْض} يُسَافِرُونَ {يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْل الله} يَطْلُبُونَ مِنْ رِزْقه بِالتِّجَارَةِ وَغَيْرهَا {وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيل الله} وَكُلّ مِنْ الْفِرَق الثَّلَاثَة يَشُقّ عَلَيْهِمْ مَا ذُكِرَ فِي قِيَام اللَّيْل فَخَفَّفَ عَنْهُمْ بِقِيَامِ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس {فاقرؤوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} كَمَا تَقَدَّمَ {وَأَقِيمُوا الصَّلَاة} الْمَفْرُوضَة {وَآتُوا الزَّكَاة وَأَقْرِضُوا الله} بِأَنْ تُنْفِقُوا مَا سِوَى الْمَفْرُوض مِنْ الْمَال فِي سَبِيل الْخَيْر {قَرْضًا حَسَنًا} عَنْ طِيب قَلْب {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْر تَجِدُوهُ عِنْد الله هُوَ خَيْرًا}

مِمَّا خَلَفْتُمْ وَهُوَ فَصْل وَمَا بَعْده وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرِفَة يُشْبِهَا لِامْتِنَاعِهِ مِنْ التَّعْرِيف {وَأَعْظَم أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا الله إنَّ الله غفور رحيم} للمؤمنين[1] .

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لما أنزل عليه: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)}؛ قاموا سنة حتى ورمت أقدامهم؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)}.

أخرجه الحاكم (٢/ ٥٠٤) من طريق الحسن بن بشر الهمداني ثنا الحكم بن عبد الملك القرشي ثنا قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن سعيد بن هشام، عن عائشة: (فذكره).

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"! وتعقبه الذهبي بقوله: "وفيه الحكم بن عبد الملك وهو ضعيف". وهو كما قال؛ لكنه توبع بلفظ أتم من هذا؛ فأخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم ٧٤٦)، وأبو داود (رقم ١٣٤٢) وغيرهما من طرق، عن قتادة عن زرارة: أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله، فقدم المدينة، فأراد أن يبيع عقارًا له بها؛ فيجعله في السلاح والكراع، ويجاهد الروم حتى يموت، فلما قدم المدينة؛ لقي أناسًا من أهل المدينة فنهوه عن ذلك، وأخبروه أن رهطًا ستة أرادوا ذلك في حياة نبي الله ﷺ فنهاهم نبي الله ﷺ، وقال: "أليس لكم فيّ أسوة؟ "، فلما حدثوه بذلك؛ راجع امرأته، وقد كان طلقها، وأشهد على رجعتها، فأتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ؛ فقال ابن عباس: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: من؟ قال: =

=

عائشة؛ فأتها فسألها، ثم ائتني فأخبرني بردها عليك، فانطلقت إليها، فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها، فقال: ما أنا بقاربها؛ لأني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئًا فأبت فيها إلا مضيًا، قال: فأقسمت عليه، فجاء فانطلقنا إلى عائشة، فاستأذنا عليها فأذنت لنا، فدخلنا عليها، فقالت: أحكيم؟ (فعرفته) فقال: نعم، فقالت: من معك؟ قال: سعد بن هشام، قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر، فترحمت عليه، وقالت خيرًا، (قال قتادة: وكان أصيب يوم أُحد)، فقلت: يا أم المؤمنين! أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قلت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ -كان القرآن، قال: فهممت أن أقوم ولا أسأل أحدًا عن شيء حتى أموت، ثم بدا لي، فقلت: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، فقالت: ألست تقرأ: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)}؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله ﷻ افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولًا، وأمسك الله خاتمتها اثنَيْ عشر شهرًا في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف؛ فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضة، قال: قلت: يا أم المؤمنين! أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ، فقالت: كنا نُعد له سِواكه وطهوره فيبعثه الله ما شاء أن يبعثه من الليل؛ فيتسوك، ويتوضأ، ويصلي تسع ركعات لا يجلس فيها إلا في الثامنة، فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يقوم فيصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم يسلم تسليمًا يسمعنا، ثم يصلي ركعتين بعد ما يسلم وهو قاعد؛ فتلك إحدى عشر ركعة يا بني، فلما سن نبي الله ﷺ وأخذه اللحم؛ أوتر بسبع، وصنع في الركعتين صنيعة الأول؛ فتلك تسع يا بني، وكان نبي الله ﷺ إذا صلّى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا غلبه نوم أو وجع عن قيام الليل؛ صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا صلى ليلة إلى الصبح، ولا صام شهرًا كاملًا غير رمضان، قال: فانطلقت إلى

=

=

ابن عباس فحدثته بحديثها، فقال: صدقت، لو كنت أقربها أو أدخل عليها؛ لأتيتها حتى تشافهني به، قال: قلت: لو علمت أنك لا تدخل عليها؛ ما حدثتك حديثها.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: لما نزلت أول المزمل؛ كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها سنة.

أخرجه أبو داود في "سننه" (٢/ ٣٢ رقم ١٣٠٥)، والطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٧٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤٦٥)، والحاكم (٢/ ٥٠٥)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٢/ ٥٠٠) من طريق مسعر عن سماك الحنفي عن ابن عباس به.

وهذا سند صحيح رجاله ثقات. قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. وقال العلامة الألباني في "صحيح أبي داود" (رقم ١١٥٧): "صحيح".

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيرًا ليصلي عليه من الليل، فتسامع به الناس؛ فاجتمعوا؛ فخرج كالمغضب وكان بهم رحيمًا، فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل؛ فقال: "يا أيها الناس! اكلفوا من الأعمال ما تطيقون؛ فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل، وخير الأعمال ما دمتم عليه"، ونزل القرآن: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ}، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر، فرأى الله ما يبتغون من رضوان؛ فرحمهم؛ فردهم إلى الفريضة، وترك قيام الليل.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٧٩): ثنا سفيان بن وكيع ثنا زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة ثني محمد بن طحلاء مولى أم سلمة عن أبي سلمة

=

=

بن عبد الرحمن عنها به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: موسى بن عبيدة؛ ضعيف.

الثانية: سفيان بن وكيع؛ كان صدوقًا؛ إلا أنه ابتلي بوراقه، فأدخل عليه ما ليس من حديثه؛ فنصح؛ فلم يقبل؛ فسقط حديثه.

وتابعه من هو مثله وهو ابن حميد عند الطبري.

وعن سعيد بن جبير؛ قال: لما أنزل الله على نبيه: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)}؛ قال: مكث النبي- صلى الله ليه وسلم- على هذا الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمر الله، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه؛ فأنزل الله عليه بعد عشر سنين: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ} إلى قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}؛ فخفف الله عنهم بعد عشر سنين.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٧٩)، وابن أبي حاتم؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤٦٦) من طريق عمرو بن رافع وابن حميد كلاهما عن يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد به. وهذا سند ضعيف؛ لإرساله.

وعن قتادة في قوله: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)}: قاموا حولًا أو حولين؛ حتى انتفخت سوقهم وأقدامهم؛ فأنزل الله تخيفًا بعد في آخر السورة.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٣٢٤)، والطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٧٩) عن معمر عن قتادة به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وعن أبي عبد الرحمن؛ قال: لما نزلت {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)}؛ قاموا بها حولًا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم، حتى نزلت: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}؛ فاستراح الناس.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٧٩): ثنا ابن حميد ثنا مهران عن سفيان عن قيس بن وهب عنه. به.

وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه ثلاث علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: مهران؛ له أوهام سيئ الحفظ.

الثالثة: ابن حميد؛ متهم بالكذب.

وعن الحسن؛ قال: لما نزلت: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)} الآية؛ قام المسلمون حولًا؛ فمنهم من أطاقه، ومنهم من لم يطقه، حتى نزلت الرخصة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٨٠): ثنا أبو كريب ثنا وكيع عن المبارك بن فضالة عن الحسن به. وهذا إسناد ضعيف؛ لإرساله، والمبارك مدلس وقد عنعن.

* قوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ} [المزمل: ١٩]، أي:"إن هذه الآيات المخوفة التي فيها القوارع والزواجر عظة وعبرة للناس".

**قال الطبري:**"إن هذه الآيات التي ذكر فيها أمر القيامة وأهوالها، وما هو فاعل فيها بأهل الكفر عبرة وعظة لمن اعتبر بها واتعظ".

قال النحاس:"أي: هذه الأشياء التي تكون في القيامة عظة".

**قال الزمخشري:**"{إِنَّ هذِهِ} الآيات الناطقة بالوعيد الشديد موعظة".

قال القشيري:"يعنى: هذه السورة، أو هذه الآيات موعظة فمن اتعظ بها سعد".

**قال ابن كثير:**"{إِنَّ هَذِهِ}، أي: السورة {تَذْكِرَةٌ}، أي: يتذكر بها أولو الألباب".

عن قتادة، قوله: "{إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ}، يعني: القرآن".

قوله تعالى: {فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} [المزمل: ١٩]، أي:"فمن أراد الاتعاظ والانتفاع بها اتخذ الطاعة والتقوى طريقًا توصله إلى رضوان ربه الذي

=

=

خلقه وربَّاه".

**قال الطبري:**"يقول: فمن شاء من الخلق اتخذ إلى ربه طريقًا بالإيمان به، والعمل بطاعته".

**قال الزمخشري:**"{فَمَنْ شاءَ} اتعظ بها، واتخذ سبيلا إلى الله بالتقوى والخشية. ومعنى اتخاذ السبيل إليه: التقرّب والتوسل بالطاعة".

**قال ابن كثير:**"أي: ممن شاء الله هدايته، كما قيده في السورة الأخرى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: ٣٠]".

قال مقاتل:"يعني: بالطاعة".

عن قتادة، قوله: "{فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا}، بطاعة الله".

**قال الفراء:**"طريقا ووجهة إلى الله".

قال ابن قتيبة:"أي: طريقا ووجهة".

أي: إن هذه السورة وهذه الآيات في ذكر القيامة وأهوالها وأحوالها؟

(تذكرة) يتذكر بها المتقون وينزجر بها المؤمنون. كما قال تعالى (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى).

(فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلًا) أي فمن شاء اتخذ طريقًا يتقرب به إلى الله ﷻ، وذلك بطاعة الله سبحانه وتعالى والعمل بما شرع.

- وفيه إثبات المشيئة للعبد وأنه ليس مجبورًا على أفعاله.

ولا شك أن هذه المشيئة مقهورة بمشيئة الله، فهو أعلم من يستحق الهداية والفضل. كما قال جل ثناؤه: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: ٣٠].

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ} [المزمل: ٢٠]، أي:"إن ربك -أيها النبي- يعلم أنك تقوم

=

للتهجد من الليل أقل من ثلثيه حينًا، وتقوم نصفه حينًا، وتقوم ثلثه حينًا آخر، ويقوم معك طائفة من أصحابك".

**قال الطبري**:"يقول لنبيه محمد ﷺ: إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم أقرب من ثلثي الليل مصليا، ونصفه وثلثه، {وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ}، يعني: من أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا مؤمنين بالله حين فرض عليهم قيام الليل".

**قال ابن كثير**:"أي: تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل؛ لأنه يشق عليكم".

عن قتادة:"{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ} الآية، قال: أدنى من ثُلثي الليل، وأدنى من نصفه، وأدنى من ثُلثه".

قوله تعالى: {وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} [المزمل: ٢٠]، أي:"والله وحده هو الذي يقدِّر الليل والنهار، ويعلم مقاديرهما، وما يمضي ويبقى منهما".

**قال الطبري**: أي:"بالساعات والأوقات".

**قال ابن كثير**:"أي: تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، أو هذا من هذا".

قال عطاء: "{واللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ والنَّهارَ}، يريد: لا يَفوته عِلْمُ ما تَفعلون، أي: أنه يَعلم مقادير الليل والنهار، فيَعلم القَدْر الذي تقومون من الليل".

قوله تعالى: {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ} [المزمل: ٢٠]، أي:"علم الله أنه لا يمكنكم قيام الليل كله، فخفَّف عليكم".

**قال الطبري**: "يقول: علم ربكم أيها القوم الذين فرض عليهم قيام الليل أن لن تطيقوا قيامه {فَتَابَ عَلَيْكُمْ} إذ عجزتم وضعفتم عنه، ورجع بكم إلى التخفيف عنكم".

**قال ابن كثير**:"أي: الفرض الذي أوجبه عليكم".

عن مجاهد: {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ} قال: "علم أن لن تُطيقوا قيام الليل {فَتَابَ عَلَيْكُمْ}".

عن الحسن وسعيد، وسفيان: "{عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ}، أن لن تطيقوه".

عن قتادة: "{عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ}: قيام الليل كتب عليكم".

عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: "خَلتانِ لا يُحْصِيهُما رَجلٌ مُسْلمٌ إلا أدْخَلَتاهُ الجَنةَ، وَهُما يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلْ بِهما قَلِيلٌ، يُسَبِّحُ الله فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ عَشْرا، ويَحْمَدُهُ عَشرا، ويُكَبِّرُهُ عَشْرا" قال: فأنا رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده، قال: "فَتِلكَ خَمْسُونَ وَمِئَةٍ باللِّسانِ، وألْفٌ وخَمْس مِئَةٍ فِي المِيزَانِ، وَإذَا أوَى إلى فِراشِهِ سَبحَ وحَمَد وكَبر مِئَة؛ قال: فَتِلكَ مِئَةٌ باللِّسانِ، وألْفٌ فِي المِيزَانِ، فأيُّكُمْ يَعْمَلُ فِي اليَوْمِ الوَاحِدِ ألْفَينِ وخَمْسَ مِئَةِ سَيِّئَةٍ؟" قالوا: فكيف لا نحصيهما؟ قال: "يأتِي أحَدَكُمُ الشيْطانُ وَهُوَ فِي صَلاتِهِ فَيَقُولُ: اذْكرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا حتى يَنْفَتِلَ، وَلَعَلهُ لا يَعْقِل، ويأْتِيهِ وَهُوَ فِي مَضْجَعِهِ فَلا يَزَالُ يُنَوّمهُ حتى يَنامَ".

قوله تعالى: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} [المزمل: ٢٠]، أي: "فاقرؤوا في الصلاة بالليل ما تيسر لكم قراءته من القرآن".

عن مجاهد: "{فاقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنهُ} قال: أنْ خَفّف عنهم في القيام".

**قال الطبري:** "يقول: فاقرءوا من الليل ما تيسر لكم من القرآن في صلاتكم؛ وهذا تخفيف من الله ﷻ عن عباده فرضه الذي كان فرض عليهم بقوله: {قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا}".

**قال ابن كثير:** "أي: من غير تحديد بوقت، أي: ولكن قوموا من الليل ما تيسر. وعبر عن الصلاة بالقراءة، كما قال في سورة سبحان: {وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ}، أي: بقراءتك، {وَلا تُخَافِتْ بِهَا}".

=

**قال السعدي:**"أي: مما تعرفون ومما لا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأمورا بالصلاة ما دام نشيطا، فإذا فتر أو كسل أو نعس، فليسترح، ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة".

قال القشيري:"من خمس آيات إلى ما زاد. ويقال: من عشر آيات إلى ما يزيد".

قال الشَّافِعِي- رَحِمَهُ اللَّهُ -: فكان بينًا في كتاب الله نسخ قيام الليل ونصفه والنقصان من النصف والزيادة عليه بقول الله: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} الآية".

عن سعيد بن جُبَير: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} :"خمسون آية".

عن أبي رجاء محمد، قال:"قلت للحسن: يا أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه، فلا يقوم به، إنما يصلي المكتوبة، قال: يتوسد القرآن، لعن الله ذاك؛ قال الله للعبد الصالح: {وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ}، {وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ}، قلت: يا أبا سعيد قال الله: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} ـ قال: نعم، ولو خمسين آية".

**قال ابن كثير:**"وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري: أنه كان يرى حقًا واجبًا على حَمَلة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل؛ ولهذا جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام

حتى أصبح، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه»، فقيل معناه: نام عن المكتوبة. وقيل: عن قيام الليل. وفي السنن: «أوتِروا يا أهل القرآن». وفي الحديث الآخر: "من لم يوتر فليس منا».

وأغرب من هذا ما حكي عن أبي بكر عبد العزيز، من الحنابلة، من إيجابه قيام شهر رمضان، فالله أعلم".

وروي عن طاوس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} قال: "مائة آية".

=

=

عن السديّ، في قوله: "{فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}، قال: مئة آية".

قال الحسن:"من قرأ مئة آية في ليلة لم يحاجه القرآن".

قال كعب: "من قرأ في ليلة مئة آية كُتب من العابدين".

وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة، رَحِمَهُ اللَّهُ، بهذه الآية، وهي قوله: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن، ولو بآية، أجزأه؛ واعتضدوا بحديث المسيء صلاته الذي في الصحيحين: "ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن".

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت، وهو في الصحيحين أيضا: أن رسول الله ﷺ قال: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب".

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خِدَاج، فهي خِدَاج، فهي خِدَاج، غير تمام".

وفي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة مرفوعًا: "لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بأم القرآن".

قوله تعالى: {عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى} [المزمل: ٢٠]، أي:"علم الله أنه سيوجد فيكم مَن يُعجزه المرض عن قيام الليل".

قال مجاهد: "ثم أنبأنا الله تعالى بخصال المؤمنين، فقال: {عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضى} إلى آخر الآية".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: علم ربكم أيها المؤمنون أن سيكون منكم أهل مرض قد أضعفه المرض عن قيام الليل".

**قال ابن كثير**:"أي: علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل، من مرضى لا يستطيعون ذلك".

**قال السعدي**:"ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: {عَلِمَ أَنْ

=

=

سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى} يشق عليهم صلاة ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه، فليصل المريض المتسهل عليه، ولا يكون أيضا مأمورا بالصلاة قائما عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها وله أجر ما كان يعمل صحيحا".

قوله تعالى: {وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ} [المزمل: ٢٠]، أي:"ويوجد قوم آخرون يتنقَّلون في الأرض للتجارة والعمل يطلبون من رزق الله الحلال".

**قال الطبري**: يقول: "{وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ} في سفر {يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ} في تجارة قد سافروا لطلب المعاش فأعجزهم، فأضعفهم أيضا عن قيام الليل".

**قال ابن كثير**:"أي: ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر".

**قال السعدي**:"أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة، ليستغنوا عن الخلق، ويتكففوا عن الناس، أي: فالمسافر، حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية".

قوله تعالى: {وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ} [المزمل: ٢٠]، أي:"وقوم آخرون يجاهدون في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته ونشر دينه".

**قال الطبري**: "يقول: وآخرون أيضا منكم يجاهدون العدوّ فيقاتلونهم في نُصرة دين الله، فرحمكم الله فخفف عنكم، ووضع عنكم فرض قيام الليل".

**قال ابن كثير**:"وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله وهذه الآية- بل السورة كلها- مكية، ولم يكن القتال شُرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة".

=

=

**قال الزمخشري:**"وقيل: سوّى الله بين المجاهدين والمسافرين لكسب الحلال. وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا، فباعه بسعر يومه: كان عند الله من الشهداء». وعن عبد الله بن عمر: «ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلىّ من أن أموت بين شعبتى رحل: أضرب في الأرض أبتغى من فضل الله» ".

قوله تعالى: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} [المزمل: ٢٠]، أي:"فاقرؤوا في صلاتكم ما تيسَّر لكم من القرآن".

**قال الطبري**: "يقول: فاقرءوا الآن إذ خفف ذلك عنكم من الليل في صلاتكم ما تيسَّر من القرآن".

**قال ابن كثير:**"أي: قوموا بما تيسر عليكم منه".

**قال السعدي:**"فذكر تعالى تخفيفين، تخفيفا للصحيح المقيم، يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول. وتخفيفا للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة، من قتال أو جهاد، أو حج، أو عمرة، ونحو ذلك، فإنه أيضا يراعي ما لا يكلفه، فلله الحمد والثناء، الذي ما جعل على الأمة في الدين من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم".

عن قتادة، قال: "ثم أنبأ بخصال المؤمنين، فقال: {عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}، قال: افترض الله القيام في أوّل هذه السورة، فقام نبيّ الله ﷺ وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرا في السماء، ثم أنزل التخفيف في آخرها فصار قيام الليل تطوّعا بعد فريضة".

عن مجاهد، في قوله: {طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: ٢]، يعني: «في

=

=

الصلاة». وهو كقوله: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}، قال: «وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة».

قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [المزمل: ٢٠]، أي:"وواظبوا على فرائض الصلاة، وأعطوا الزكاة الواجبة عليكم".

**قال الطبري**: "يقول: وأقيموا المفروضة وهي الصلوات الخمس في اليوم والليلة، وأعطوا الزكاة المفروضة في أموالكم أهلها".

**قال ابن كثير**:"أي: أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم، وآتوا الزكاة المفروضة. وهذا يدل لمن قال: إن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النّصب والمَخْرَج لم تُبَين إلا بالمدينة".

**قال السعدي**:"ثم أمر العباد بعبادتين، هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة، التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، ولهذا قال: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} بأركانها، وشروطها، ومكملاتها".

عن قتادة: "{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}، فهما فريضتان واجبتان، لا رخصة لأحد فيهما، فأدّوهما إلى الله تعالى ذكره".

عن الحسن في قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، قال: "فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالزكاة". وروي عن عطاء بن أبي رباح، وقتادة نحو ذلك.

وعن الحسن في قوله: {وَآتُوا الزَّكَاةَ}، قال: "فريضة واجبة، لا تنفع الأعمال إلا بها مع الصلاة". وروي عن قتادة نحو ذلك.

قال الزهري: "إقامتها: أن يصلي الصلوات الخمس لوقتها".

وعن عكرمة: {وَآتُوا الزَّكَاةَ}، قال: "زكاة المال من كل مائتي درهم خمسة دراهم".

=

=

قوله تعالى: {وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا} [المزمل: ٢٠]، أي:"وتصدَّقوا في وجوه البر والإحسان مِن أموالكم؛ ابتغاء وجه الله".

**قال الطبري**: "يقول: وأنفقوا في سبيل الله من أموالكم".

**قال السعدي**:"أي: خالصا لوجه الله، من نية صادقة، وتثبيت من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا، الصدقة الواجبة والمستحبة".

**قال ابن كثير**:"يعني: من الصدقات، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره، كما قال: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [البقرة: ٢٤٥]".

قال الحسن البصري: "كلّ ما في القرآن مِن القرْض الحسن فهو التطُّوع".

قال ابن زيد:"القرض: النوافل سوى الزكاة".

قوله تعالى: {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ} [المزمل: ٢٠]، أي:"وما تفعلوا مِن وجوه البر والخير وعمل الطاعات، تلقَوا أجره وثوابه عند الله يوم القيامة".

قال مقاتل:"يعني: من صدقة فريضة كانت أو تطوعا، يقول {تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ}".

**قال الطبري**: "يقول: وما تقدّموا أيها المؤمنون لأنفسكم في دار الدنيا من صدقة أو نفقة تنفقونها في سبيل الله، أو غير ذلك من نفقة في وجوه الخير، أو عمل بطاعة الله من صلاة أو صيام أو حجّ، أو غير ذلك من أعمال الخير في طلب ما عند الله، تجدوه عند الله يوم القيامة في معادكم".

**قال ابن كثير**:"أي: جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو خير لكم حاصل".

**قال السعدي**:"حث على عموم الخير وأفعاله فقال: {وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ}".

عن سعيد بن جبير: {مَا تُقَدِّمُوا}، يعني: ما عملوا من الأعمال من الخير في

=

=
الدنيا".
عن أبي العالية، قوله: "{تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ}، يقول: تجدوا ثوابه عند الله". وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك.
قوله تعالى: {هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا} [المزمل: ٢٠]، أي:"تجدوا ذلك الأجر والثواب يوم القيامة خيرًا لكم مما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال".
قال مقاتل:"يقول: أفضل مما أعطيتم من أموالكم، وأكثر خيرا وأفضل خيرا في الآخرة".
**قال الطبري**: يقول: "هو خيرا لكم مما قدمتم في الدنيا، وأعظم منه ثوابا: أي ثوابه أعظم من ذلك الذي قدّمتموه لو لم تكونوا قدّمتموه".
**قال ابن كثير**:"وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا".
**قال السعدي**:"الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. وليعلم أن مثقال ذرة من الخير في هذه الدار، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فواأسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها منها".
قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: "أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟". قالوا: يا رسول الله، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه. قال: "اعلموا ما تقولون". قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله؟ قال: "إنما مال أحدكم ما قَدّم ومال وارثه ما أخر".
قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ} [المزمل: ٢٠]، أي:"واطلبوا مغفرة الله في جميع
=

=

أحوالكم".

**قال الطبري**: يقول: "وسلوا الله غفران ذنوبكم يصفح لكم عنها".

**قال ابن كثير**:"أي: أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها".

**قال السعدي**:"وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلا أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المزمل: ٢٠]، أي:"إن الله غفور لكم، رحيم بكم".

**قال الطبري**:"يقول: إن الله ذو مغفرة لذنوب من تاب من عباده من ذنوبه، وذو رحمة أن يعاقبهم عليها من بعد توبتهم منها".

**قال ابن كثير**:"فإنه غفور رحيم لمن استغفره".

قال محمد بن إسحاق: {إِنَّ اللهَ غَفُورٌ}، أي: يغفر الذنب، {رَحِيمٌ}، قال: يرحم العباد على ما فيهم".

فقوله (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ) أي: إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم مع أصحابك للتهجد والعبادة (أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ) أي: أقل من ثلثي الليل، وتارة تقومون نصفه، وتارة ثلثه.

- قال ابن كثير: أي تارة هكذا وتارة هكذا وذلك كل من غير قصد منكم ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل لأنه يشق عليكم.

(وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) أي تارة يعتدلان وتارة يأخذ هذا من هذا وهذا من هذا.

-قال القرطبي: أي يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، وأنتم تعلمون بالتحرّي والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ.

=

=

(عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ) أي: لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيامَ به، وقيل: أي لن تطيقوا قيام الليل، والأوّل أصح؛ فإنّ قيام الليل ما فُرض كله قط.

والمعنى: علم الله ﷻ أن لن تستطيعوا إحصاء وضبط هذا الوقت والمواظبة عليه من غير زيادة ولا نقصان، نظرًا لاختلاف تقدير الليل والنهار، أي: لن تستطيعوا تقديره، ولن تطيقوا قيامه على التمام.

(فَتَابَ عَلَيْكُمْ) التوبة لغة: الرجوع، أي: فرجع بكم وخفف عنكم بنسخ وجوب قيام الليل إلى استحبابه.

(فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) أي: فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، وعبر عن الصلاة بالقراءة لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، ولأن قراءة القرآن من أعظم أركان الصلاة، وهذا كقوله تعالى ﴿لاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: لا تجهر بقراءتك ولا تخافت بها.

ثم بين سبحانه وتعالى الحكمة في نسخ وجوب قيام الليل فقال تعالى:

(عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى) أي: قد أضعفه المرض عن قيام الليل.

(وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ) أي: يسافرون في الأرض، والضرب في الأرض هو السير والسفر فيها.

(يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ) أي: يطلبون من رزق الله الواسع ليستغنوا عن الخلق، فخفف الله عنهم.

(وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ) أي: وآخرون أيضًا منكم يجاهدون العدو فيقاتلونهم في نصرة دين الله، فرحمكم الله فخفف عنكم ووضع عنكم فرض قيام الليل.

- فهذه الأعذار الثلاثة: المرض والسفر لطلب الرزق والقتال في سبيل الله من أسباب تخفيف حكم قيام الليل من الوجوب إلى الاستحباب.

=

=

- **قال القرطبي**: بيّن سبحانه علة تخفيف قيام الليل، فإن الخَلْق منهم المريض، ويشّق عليهم قيام الليل، ويشقّ عليهم أن تفوتهم الصلاة، والمسافر في التجارات قد لا يطيق قيام الليل، والمجاهد كذلك، فخفّف الله عن الكل لأجل هؤلاء.

(فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) أي: فافعلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، واقرءوا في صلاتكم ما تيسر من القرآن.

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) إقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها، يقال: قام الشيء أي دام وثبت.

- **قال السعدي**: لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون الصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقام الصلاة، إقامتها ظاهرًا بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنًا بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها.

- لم يأمر الله بالصلاة إلا بلفظ الإقامة، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة).

- إقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر).

فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها، (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض: وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر.

(وَآتُوا الزَّكَاةَ) أي: وأعطوا الزكاة لمستحقيها، والزكاة: هي نصيب مقدر شرعًا

=

=

في مال معين يصرف لطائفة مخصوصة.

وسميت بذلك: لأنها تزكي المال، وتزكي صاحب المال، وتطهر نفس الغني من الشح والبخل، وتطهر نفس الفقير من الحسد والضغينة، وتسد حاجة الإسلام والمسلمين.

كما قال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها).

وقال (ما نقصت صدقة من مال) رواه مسلم.

- كثيرًا ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة الزكاة كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة).

قيل: إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين: إخلاصه لمعبوده، وسعيه في نفع الخلق.

وقيل: الصلاة رأس العبادات البدنية، والزكاة رأس العبادات المالية.

وقيل: الصلاة طهارة للنفس والبدن، والزكاة طهارة للمال.

(وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنا) أي تصدقوا في وجوه البر والإحسان ابتغاء وجهه.

- **قال القرطبي**: وسمّي قرضًا؛ لأن القرض أخرج لاسترداد البدل، أي من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدِله الله بالأضعافِ الكثيرة.

- وقال بعض العلماء: وسمي الإنفاق قرضًا حسنًا لله تعالى، مع أن المال ماله، والملك ملكه، والخلق عبيده، حثًا وترغيبًا فيه.

- **قال ابن القيم**: سمى ذلك الإنفاق قرضًا حسنًا، حثًا للنفوس وبعثًا لها على البذل، لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد طوّعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أن المستقرض مليّ وفيّ محسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه، فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره

=

=

حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان، وذلك من ضعف إيمانه.

- قوله تعالى (حسنًا): قال بعض العلماء: القرض لا يكون حسنًا حتى يجمع أوصافًا عشرة:

الأول: أن يكون من الحلال قال عليه الصلاة والسلام (إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب) وقال عليه الصلاة والسلام (لا يقبل الله صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول).

والثاني: أن يكون من أكرم ما يملكه دون أن ينفق الرديء، قال الله تعالى (وَلاَ تَيَمَّمُوا الخبيث مِنْهُ تُنفِقُونَ).

و الثالث: أن تتصدق به وأنت تحبه وتحتاج إليه بأن ترجو الحياة وهو المراد بقوله تعالى: (وآتى المال على حبه) وبقول (وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ) على أحد التأويلات وقال عليه الصلاة والسلام (الصدقة أن تعطي وأنت صحيح شحيح تأمل العيش، ولا تمهل حتى إذا بلغت التراقي قلت لفلان كذا ولفلان كذا).

والرابع: أن تصرف صدقتك إلى الأحوج الأولى بأخذها، ولذلك خص الله تعالى أقوامًا بأخذها وهم أهل السهمان.

**الخامس**: أن تكتم الصدقة ما أمكنك لأنه تعالى قال: {وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقراء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}.

**السادس**: أن لا تتبعها منًا ولا أذى، قال تعالى (لاَ تُبْطِلُوا صدقاتكم بالمن والأذى).

=

=

السابع: أن تقصد بها وجه الله ولا ترائي، كما قال (إِلاَّ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى * وَلَسَوْفَ يرضى). ولأن المرائي مذموم بالاتفاق.

الثامن: أن تستحقر ما تعطي وإن كثر، لأن ذلك قليل من الدنيا، والدنيا كلها قليلة، وهذا هو المراد من قوله تعالى (وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ) في أحد التأويلات.

التاسع: أن يكون من أحب أموالك إليك، قال تعالى: {لَن تَنَالُوا البر حتى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ).

العاشر: أن لا ترى عز نفسك وذل الفقير، بل يكون الأمر بالعكس في نظرك، فترى الفقير كأن الله تعالى أحال عليك رزقه الذي قبله بقوله (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا) وترى نفسك تحت دين الفقير، فهذه أوصاف عشرة إذا اجتمعت كانت الصدقة قرضًا حسنًا.... [مفاتيح الغيب:

وقال ابن القيم: القرض الحسن يجمع أمورًا ثلاثة:

**أحدها**: أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه.

**الثاني**: أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله.

**الثالث**: أن لا يمن به ولا يؤذي.

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا) أي: وما تقدموا- أيها المؤمنون- لأنفسكم في دار الدنيا من صدقة أو نفقة تنفقونها في سبيل الله أو غير ذلك من نفقة في وجوه الخير، أو عمل بطاعة الله من صلاة أو صيام أو حج، أو غير ذلك من أعمال الخير في طلب ما عند الله، تجدوه عند الله يوم القيامة في معادكم هو خيرًا لكم مما قدمتم في الدنيا، وأعظم منه ثوابًا، أي ثوابه أعظم من ذلك الذي قدمتموه لو لم تكونوا قدمتموه.

(وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ) أي: اطلبوا المغفرة من ذنوبكم يغفرها لكم ربكم.

(إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) يغفر الزلات والخطيئات وكل ذلك من فضله ورحمته

=

=

تعالى (تقدم معنى الغفور الرحيم).

**قال السعدي**: وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلًا، أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته فإنه هالك.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: المتشابه في سورة المزمل والمدثر:

غ- قوله تعالى في أولاهما: (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) (المزمل: ١- ٢) إلى ما بعده وقال في أول سورة المدثرتلوها: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ) (المرثر: ١- ٢) إلى ما بعده، للسائل أن يسأل عما ورد في هاتين السورتين من تسميه ﷺ في الأولى بالمزمل وفي الثانية بالمدثر؟ وأمره في الأولى بقايم الليل وما أعقب به ذلك في الثانية بإنذار الخلق ودعائهم إلى الله، ما وجه هذا التخصيص في السورتين بما ذكرنا من التسمية والأمر؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الله سبحانه أمرنا في كتابه العزيز بتعزيز نبينا ﷺ وتوقيره، ونهانا أن نجري في خطابه على حد تخاطبنا فقال تعالى: (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) (النور: ٦٣)، وجرى المسلمون بتوفيق الله على ذلك في دعائهم إياه: يا رسول الله، يا نبي الله، غير رافعي أصواتهم في ندائه ودعائه على مقتضى أمره سبحانه بذلك. ثم إن العرب قد علم من حالهم في ذلك أن السيد خاطب عبده متلطفًا به ومشيرًا إلى مكانته لديه أو قصد تأنيسه خاطبه باسم يشتقه من حال أو صفة يكون العبد عليها، ويعدل عن معروف اسميته ليريه مكانته ويظهر كريم تحفيه به وعظيم تلطفه كقول نبينا ﷺ لعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قضيته المعلومة، وقد وجده نائمًا، وقد أثر التراب في جنبه: قم أبا تراب،

=

=

فعلى ذلك جرى الوارد في نداء نبينا ﷺ في هاتين السورتين بالمزمل والمدثر. وخصت هاتان السورتان بهما لبنائهما على ما ابتدئ به ﷺ.
فأما تعقيب كل من الاسمين في السورتين بما أعقب به فعلى مقتضى كل واحدة من السورتين وما بنينا عليه، أما الأولة فمبناها على أوامر من جليل أعمال الطاعات مما يزلف عند الله سبحانه، من قيام الليل، وترتيل القرآن، والتجلد والتحمل لتلقي أوامر الكتاب ونواهيه المفهوم في قوله تعالى: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) (المزمل: ٥)، والأمر بذكر اسمه تعالى تضرعًا وسءالًا، والتبتل إليه سبحانه، واعتماده تعالى وكيلًا، والصبر على قول الضالين من الكفار، والأمر بجميل هجرهم، فهذه أمور ثمانية بين صريح ومكني. وأما سورة المدثر فمتضمنها من الأوامر دون ما في السورة قبلها عددًا، وليس أكثرها من نمط تلك الأوامر، وهي مع ذلك أوامر أولة في الأكثر، فنوسب بين تلك الأوامر العلية من سورة المزمل وبين ما تقدمها في الترتيب الثابت من قوله تعالى في سورة الجن: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) (الجن: ٢٦- ٢٧) ليعلم نبينا ﷺ أنه أمام المرتضين من أولئك المصطفين بما خص ﷺ من الأمر بقيام الليل والترتيل وجليل التلقي والامتثال لما ألفي عليه اعتناء وتخصيصًا محفوظًا فيه مشيرًا عليه من القول الثقيل، كما نوسب بين أمره، عليه السلام، بالدعاء والإنذار والتأنيس فيمن أفرط تمردًا وعنادًا من عتاة الكفار حين قيل لنبينا ﷺ تهديدًا لعدوه وإعلامًا بما يعقبه كفره: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) (المدثر: ١١) إلى قوله: (سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا) (المدثر: ١٧)، وقوله (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) (المدثر: ٢٦)، فحصل من مجموع متقدم الإنذار والإعلام بعاقبة المعاندين من الكفار ما تحصل من قوله تعالى في سورة الغاشية تعريفًا لنبينا ﷺ: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) (الغاشية: ٢١- ٢٢)، وانتظم أول (هذا)

=

=

الكلام العلي وآخره أجل انتظام، وورد كل على ما يجب، ولا يلائم غيره، والله سبحانه أعلم بما أراد.

الآية الثانية من سورة المدثر- قوله تعالى: (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) (المدثر: ١٨- ٢٠)، للسائل أن يسأل عن تكرر قوله: (قدر) ثلاث مرات في كلام متصل متقارب؟

والجواب، والله أعلم: أن قوله: (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ) إخبار عن حال الوليد المنزل فيه هذا حين قال لقريش: إن الناس يريدون الموسم فليكم قولكم في محمد واحدًا، وفكر في أقرب ما يمكن أن تستمال به العرب وتصدق قريشًا، ورأى الوليد أنهم مكذبون بأول نظر إن قالوا إنه شاعر مجنون أوكاهن أوساحر، ووافقته قريش لوضوح ذلك من أمره، عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع تصميمهم على عناده، وبهذا أنسه تعالى في قوله: (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ) (الأنعام: ٣٣). وروي أن الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى.

ولما كلم قريشًا في شأنه ﷺ قال لهم: (تزعمون أن محمدًا لمجنون فهل رأيتموه يخرق، وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه قط يتكهن، وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرًا قط، وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب، فقالوا في كل ذلك: اللهم لا. وعلى هذا من كلام الوليد ورد الوارد بما جاء بطريقة ما تعجب العرب من مثله من قوله: (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) (المدثر: ١٨- ١٩)، كما تقول (العرب) قاتله (الله) ما أشعره، لا يريدون دعاء على من يقولون له ذلك وإنما يقولون متعجبين، وإنما نزل القرآن بلسانهم، فقوله (فقتل كيف قدر) مناط بمن يصح منه التعجب، والله سبحانه متعال عن

=

=

ذلك، وكأن قد قيل لهم: هذا مما تتعجبون منه وتقولون هذا الكلام، فقوله تعالى: (إنه فكر وقدر) إخبار عن حال الوليد وتفكره فيما يقول وتقديره ما يرد عليه إذ قال بأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ شاعر أو مجنون أو غير ذلك مما رموه به، وأنهم مكذبون في كل ما يرومون رميه به من ذلك لبيان حاله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقوله: (فقتل كيف قدر) تعجب من إصابته في نفي الجنون والتكهن والشعر عنه صلي الله عليه وسلم في قوله: لقد سمعت من محمد كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، فصدق تقديره في هذا لو أتم الله له الأمر. فالأول إخبار أعنى قوله: (إنه فكر وقدر)، والثاني تعجب عن إصابة تقديره بعد الفكر وهو قوله: (فقتل كيف قدر)، والثالث وهو قوله: (ثم قتل كيف قدر) تأكيد للتعجب من حالة في تحويمه لوا سابقة: (سأرهقه صعودًا)، والسابقة هي التي حملته على أدباره واستكباره فقال: (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) (المدثر: ٢٤)، فنكص على عقبيه لما سبق له بعد مقاربته وتحويمه، (وبإزاء) ما تقدم من مقاربته وتحويمه في تنزيهه النبي صلي الله عليه وسلم عما رموه به ورد اتعجب، وفي طي الكلام شديد توعده على كفره بعد أن تبين له الأمر فضل على علم، ومثل هذا التكرار استعظامًا للواقع موجود في فصيح كلامهم، ومنه قول الشاعر:

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي.

وجاء بثم لتحرز نية اعتناء بهذا المعطوف بها وأنه أكد من الأول فوضح وجه ورود ما يتوهم تكرارًا واستدعاء مقصود الكلام إياه، والله سبحانه أعلم.

الآية الثالثة من سورة المدثر قوله تعالى: (كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ) (المدثر٥٣-٥٦)، وقال في سورة الإنسان: (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) (الإنسان: ٢٩- ٣٠).

=

=

للسائل أن يسأل عما بين الآيتين من الاختلاف؟ وورود الضمير في قوله: "إنه " في الأولي مذكرًا وتأنيثه في الثانية؟

والجواب، أن هذا مما لا إشكال فيه لأن المذكر به عظة أو موعظة وهو أيضا وعظ وتنبيه. فتارة تراعى العرب في مثل هذا جهة التذكير وتارة تراعي جهة التأنيث، فتحمل الضمير على ما تقدره من تأنيث وتذكير، وهذا كثير ومنه قول بعض العرب: فلان جاءته كتابي (فمزقها) فيسأل عن التأنيث في قوله: جاءته وفي قوله فمزقها فيقال: أليست بصحيفة، وقال تعالى: (فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى) (البقرة: ٢٧٥).

وأما فواصل الآيتين ومقاطعهما فمراعي فيها موافقة ما اتصل بها للتناسب مع اتحاد المعنى، ألا تري صحة بناء ما في آية الإنسان على ما في آية المدثر لو قيل في الكلام إنه تذكرة فمن شاء ذكره فاتخذ إلى ربه سبيلا بتذكير ما ذكر به، ثم اقتضت الفواصل المناسبة. ولما اكتنفت آية المدثر فواصل تكون في الوقف هاء من لدن قوله تعالى: (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) (المدثر: ٥٠- ٥١) إلى قوله: (هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) (المدثر: ٥٦) ناسبها قوله: (فمن شاء ذكره). وأما آية سورة الإنسان فما قبلها وما بعدها من الفواصل مستدع أيضا ورود الهاء على ما وردت فقيل: (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) ليجري على ما تقدم في قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا) (الإنسان: ٢٣) وما بعد، ولم يكن ليناسب هنا ما ورد في سورة المدثر من قوله تعالى: (فمن شاء ذكره)، كما لا يناسب قوله تعالى: (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) ما ورد في سورة المدثر، فكل هذا لا إشكال فيه لرعي المناسبة وحصولها في كل من السورتين على أتم وجه، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٩١- ٤٩٤).

## سورة المدثر(١)

(١) السّورة مكِّيّة، قاله ابن عباس، وابن الزبير، وحكاه ابن عطية وابن الجوزي عن إجماع المفسرين.
قال ابن عطية:"هي مكية بإجماع من أهل التأويل".
وقيل فيها من المدني آية واحدة، وهي قوله ﷻ: {وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَة} [المدثر: ٣١]. وهذا قول مقاتل، والأول أصح.
* آياتها ست وخمسون فى عدّ العراقى والبَزِّىّ، وخمس فى عدّ المكِّىّ. وكلماتها مائتان وخمس وخمسون. وحروفها أَلف وعشر. المختلف فيها اثنان: {يَتَسَآءَلُونَ عَنِ المجرمين} فواصل آياتها (رُدْنها) على الدّال آية: {ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ}.
* تسمى في كتب التفسير «سورة المدثر» وكذلك سميت في المصاحف، وأريد «المدثر» النبي ﷺ موصوفا بالحالة التي نودي بها، كما سميت بعض السور بأسماء الأنبياء الذين ذكروا فيها، وإما تسمية باللفظ الذي وقع فيها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر: ١]، ونظيره ما تقدم في تسمية «سورة المزمل»، ومثله ما تقدم في سورة «المجادلة» من احتمال فتح الدال أو كسرها
وليست لهذه السورة سوى هذا الاسم الذي اشتهرت به.
* مقصود السّورة: أَمر النبىّ ﷺ بدعوة الخَلْق إِلى الإِيمان، وتقرير صعوبة القيامة على (الكفَّار و) أَهل العصيان، وتهديد وليد ابن مُغيرة بنقض القرآن، وبيان عدد زبانية النِّيران، وأَنَّ كلّ أَحد رَهْن بالإِساءَة والإِحسان، وملامة الكفَّار على إِعراضهم عن الإِيمان، وذكر وَعْد الكريم على التقوى بالرّحمة والغفران، فى قوله: {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَة}.
* المتشابهات: قوله: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} أعاد =

المكية وآياتها ست وخمسون.

## بسم الله الرحمن الرحيم(١)

يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١).

{يَا أَيّهَا الْمُدَّثِّر} النَّبِيّ ﷺ وَأَصْله الْمُتَدَثِّر أُدْغِمَتْ التَّاء فِي الدَّال أَيْ الْمُتَلَفِّف بِثِيَابِهِ عِنْد نُزُول الْوَحْي عَلَيْهِ.

قُمْ فَأَنْذِرْ (٢).

{قُمْ فَأَنْذِرْ} خَوِّفْ أَهْل مَكَّة النَّار إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا.

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣).

{وَرَبّك فَكَبِّرْ} عَظِّمْ عَنْ إشْرَاك الْمُشْرِكِينَ.

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤).

{وَثِيَابك فَطَهِّرْ} عَنْ النَّجَاسَة أَوْ قَصِّرْهَا خِلَاف جَرّ الْعَرَب ثِيَابهمْ خُيَلَاء

---

=

{كَيْفَ قَدَّرَ} مرّتين، وأعاد {قَدَّرَ} ثلاث مرّات، لأَنَّ التقدير: إِنَّه- أى الوليد- فكَّر فى شأن محمّد ﷺ وما أتى [به] وقدّر ماذا يمكنه أن يقول فيهما. فقال الله سبحانه -: {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} أى القولَ فى محمّد ﷺ {ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} أى القولَ فى القرآن.

قوله: {كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ} أى تذكير وعدل إِليها للفاصلة. وقوله: {إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ} وفى عبس {إِنَّهَا تَذْكِرَة} لأَنَّ تقدير الآية فى هذه السّورة: إِنَّ القرآن تذكرة، وفى عبس: إِنَّ آيات القرآن تذكرة، وقيل: حمل التذكرة على التذكير، لأَنَّها بمعناه. بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٨٨).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

فَرُبَّمَا أَصَابَتْهَا نَجَاسَة.

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥).

{وَالرُّجْز} فَسَّرَهُ النَّبِيّ ﷺ بِالْأَوْثَانِ {فَاهْجُرْ} أَيْ دُمْ عَلَى هَجْره

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦).

{وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِر} بِالرَّفْعِ حَال أَيْ لَا تُعْطِ شَيْئًا لِتَطْلُب أَكْثَر مِنْهُ وَهَذَا خَاصّ بِهِ ﷺ لِأَنَّهُ مَأْمُور بِأَجْمَل الْأَخْلَاق وَأَشْرَف الْآدَاب.

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧).

{وَلِرَبِّك فَاصْبِرْ} عَلَى الْأَوَامِر وَالنَّوَاهِي.

فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨).

{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُور} نُفِخَ فِي الصُّور وَهُوَ الْقَرْن النَّفْخَة الثَّانِيَة

فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩).

{فَذَلِكَ} أَيْ وَقْت النَّقْر {يَوْمئِذٍ} بَدَل مِمَّا قَبْله الْمُبْتَدَأ وَبُنِيَ لِإِضَافَتِهِ إِلَى غَيْر مُتَمَكِّن وَخَبَر الْمُبْتَدَأ {يَوْم عَسِير} وَالْعَامِل فِي إِذَا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْجُمْلَة اشْتَدَّ الْأَمْر.

عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠).

{عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْر يَسِير} فِيهِ دَلَالَة عَلَى أَنَّهُ يَسِير عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي عُسْره[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: أحدثكم ما حدثنا رسول الله ﷺ: قال: "جاورت بحراء شهرًا، فلما قضيت جواري؛ نزلت فاستبطنت بطن الوادي، =

=

فنوديت؛ فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أرَ أحدًا، ثم نوديت؛ فنظرت فلم أر أحدًا، ثم نوديت؛ فرفعت رأسي؛ فإذا هو على العرش في الهواء؛ يعني: جبريل عليه السلام؛ فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت: دثروني دثروني"؛ فصبوا عليَّ ماء؛ فأنزل الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)}.

أخرجه البخاري (رقم ٤، ٣٢٣٨، ٤٩٢٢، ٤٩٢٤، ٤٩٢٥، ٤٩٢٦، ٤٩٥٤، ٦٢١٤)، ومسلم (رقم ١٦١/ ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨) وغيرهما.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعامًا، فلما أكلوا؛ قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: ليس بساحر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: ليس بكاهن، وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر، وقال بعضهم: سحر يؤثر، وأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر، فبلغ ذلك النبي ﷺ؛ فحزن، وقنع رأسه وتدثر؛ فأنزل الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)}.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ١٠٢ رقم ١١٢٥٠) من طريق الحسن بن بشر البجلي ثنا المعافى بن عمران عن إبراهيم بن يزيد؛ قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول: سمعت ابن عباس (فذكره) والحديث قال عنهاالهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٣١): "رواه الطبراني؛ وفيه إبراهيم بن يزيد الخوزي وهو متروك". وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٣٢٥)، و"لباب النقول" (ص ٢٢٣) -بعد زيادة نسبته لابن مردويه-: "بسند ضعيف".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قلنا: يا رسول الله! كيف نقول إذا دخلنا في الصلاة؟ فأنزل الله ﷻ: {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣)}؛ فأمرنا رسول الله ﷺ أن نفتتح الصلاة بالتكبير.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" ونسبه لابن مردويه.

=

=

وعن الزهري؛ قال: فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة؛ فحزن حزنًا، فجعل يعدو إلى شواهق رؤوس الجبال؛ ليتردى منها، فكلما أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل عليه السلام، فيقول: "إنك نبيء الله"؛ فيسكن جأشه وتسكن نفسه، فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك، قال: "بينما أنا أمشي يومًا؛ إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء على كرسي بين السماء والأرض، فجئثْت منه رُعبًا؛ فرجعت إلى خديجة، فقلت: زملوني"؛ فزملناه؛ أي: فدثرناه؛ فأنزل الله- تعالي-: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)}. قال الزهري: فكان أول شيء أنزل عليه: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)} حتى بلغ: {مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١ - ٥].

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٩٠، ٩١)، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٣٢٧) عن معمر عنه به. وهو مرسل صحيح، وتقدم موصولًا من حديث جابر من طريق الزهري وهو الأصح.

* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر: ١].

فيها وجهان:

**أحدهما**: يا أيها المتدثر بالنبوة وأثقالها، قاله عكرمة.

قال عكرمة: "دثِّرت هذا الأمر فقم به".

**الثاني**: يا أيها المتدثر بثيابه، قاله قتادة.

**قال الطبري**: "يأيها المتدثر بثيابه عند نومه".

وقال ابن عباس: "يأيها النائم".

قال إبراهيم: "كان متدثرا في قطيفة".

-قال ابن عاشور: والدِّثار: بكسر الدال: الثوب الذي يُلبس فوق الثوب الذي يُلبس مباشِرًا للجسد الذي يسمى شعارًا وفي الحديث (الأنصار شِعَار والناسُ

=

=

دِثَار).

-قال الرازي: أجمعوا على أن المدثر هو رسول الله.

-قال القرطبي: ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله، وعبر عنه بصفته، ولم يقل: يا محمد، ويا فلان، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه.

واختلف الناس في أول ما نزل من كتاب الله تعالى فقال جابر بن عبد الله وأبو سلمة والنخعي ومجاهد هو (يا أيها المدثر).

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن (أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال -وهو يحدث عن فترة الوحى فقال- في حديثه «بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت زملوني. فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر * قم فأنذر) إلى قوله (والرجز فاهجر) فحمى الوحى وتتابع).

وقال والجمهور على أن أول ما نزل هو قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق) لأمور:

**أولا**: لحديث عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه- وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال اقرأ. قال «ما أنا بقارئ». قال «فأخذني فغطني حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ. قلت ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ. فقلت ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال (اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم)» فرجع بها رسول الله يرجف

=

=

فؤاده...) متفق عليه

**ثانيا**: قوله (ما أنا بقارئ) صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئا.

**ثالثا**: أن الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإنذار.

**رابعا**: أن في حديث جابر الذي احتج به صريح في أنه تقدم نزول الملك أولا قبل (يا أيها المدثر) فإنه قال (، فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءني بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فرعبت منه...).

فأول ما أنزل من القرآن (اقرأ باسم ربك الذي خلق) وأول سورة نزلت بعد فتور الوحي سورة المدثر.

**قال ابن كثير**:"ثبت في صحيح البخاري [من حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر أنه كان يقول: أول شيء نزل من القرآن: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}. وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}".

قوله تعالى: {قُمْ فَأَنْذِرْ} [المدثر: ٢].

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قم من نومك فأنذر عذاب الله قومك الذين أشركوا بالله، وعبدوا غيره".

**قال ابن كثير**:"أي: شمر عن ساق العزم، وأنذر الناس. وبهذا حصل الإرسال، كما حصل بالأول النبوة".

قال قتادة:"أي: أنذر عذاب الله ووقائعه في الأمم، وشدّة نقمته".

**قال السعدي**:"أمره هنا بإعلان الدعوة، والصدع بالإنذار، فقال: {قُمِ} [أي] بجد ونشاط {فَأَنْذِرْ} الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه، ليكون ذلك أدعى لتركه".

أي: شمر عن ساق العزم وأنذر الناس، وبهذا حصل الإرسال، ينذر جميع الناس

=

=

أن من كفر وطغى وعصى فهو بالنار، وهو أيضا مبشر لمن آمن وصدق بالجنان.
قال تعالى (إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل).
وقال تعالى (وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا).
وقال تعالى (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين).
وقال تعالى (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا).
وقال تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

- والإنذار الإخبار المقرون بالتخويف.
- وقد أمره الله أن يبدأ بالإنذار بعشيرته الأقربين كما قال تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين).

قوله تعالى: {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} [المدثر: ٣].

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: وربك يا محمد فعظم بعبادته، والرغبة إليه في حاجاتك دون غيره من الآلهة والأنداد".

**قال السعدي**:"أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته".

عن أبي مالك الغفاري:"{وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}، قال: عَظِّم".

أي عظمه بالتوحيد، وخصه بالتقديس والتمجيد، وأفرده بالعظمة والكبرياء.

- قال بعض العلماء: وإنما ذكرت هذه الجملة بعد الأمر بالإنذار تنبيها للنبي على عدم الاكتراث بالكفار، فإن نواصي الخلائق بيد الجبار، فلا ينبغي أن يبالي الرسول بأحد من الخلق.

- **قال ابن عاشور**: فمعنى (وربك فكبر:) صف ربك بصفات التعظيم، وهذا يشمل تنزيهه عن النقائص فيشمل توحيده بالإلهية وتنزيهه عن الولد، ويشمل

=

=

وصفه بصفات الكمال كلها.

ومعنى (كبر): كبره في اعتقادك: وكبره بقولك تسبيحا وتعليما، ويشمل هذا المعنى أن يقول: "الله أكبر" لأنه إذا قال هذه الكلمة أفاد وصف الله بأنه أكبر من كل كبير، أي أجل وأنزه من كل جليل، ولذلك جعلت هذه الكلمة افتتاحا للصلاة.

قوله تعالى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر: ٤].

اختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر: ٤]، على وجوه:

**أحدها**: لا تلبسها على معصية، ولا على غدر. روى هذا المعنى عكرمة عن ابن عباس، ومنه قول غيلان بن سلمة الثقفي:

**وَإني بِحَمْدِ الله لاَ ثَوْبَ فَاجِرٍ... لَبِسْتُ وَلاَ مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ**

قال ابن جريج: "أخبرني عطاء، أنه سمع ابن عباس يقول: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، قال: من الإثم، ثم قال: نقيّ الثياب في كلام العرب".

قال الفراء أي: "لا تكن غادرا فتدنس ثيابك، فإن الغادر دنِس الثياب".

**قال الزجاج**:"أي: لا تكن غادِرًا، يقال للغادر دَنَس الثياب، ويكون {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، أي: نَفْسَك فطهر".

**قال السدي**: "يقال للرجل إذا كان صالحا: إنّه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجرا: إنه لخبيث الثياب".

قال ابن عيينة: "لا تلبس ثيابك على كذب، ولا فجور، ولا غدر، ولا إثم. البسها: وبدنك طاهر".

قال الحسن: يطيب أحدهم ثوبه، وقد أصل ريحه!".

**الثاني**: لا تكن ثيابُك من مكسب غير طاهر، روي عن ابن عباس -أيضًا-.

قال ابن عباس:"لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب".

=

=

**الثالث**: طهر نفسك من الذنب، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وإبراهيم، وعامر، وعطاء. ويشهد له قول عنترة:

**فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ... لَيْسَ الكَرِيمُ عَلَى القَنَا بِمُحرَّمِ**

أي: نفسه، وهذا مذهب ابن قتيبة. قال: المعنى: "أي طهر نفسك من الذنوب. فكنى عنه بثيابه: لأنها تشتمل عليه".

قالت ليلى الأخيلية وذَكَرَتْ إبلًا:

**رَمَوْها بأثواب خِفَافٍ فلا ترى... لَهَا شَبَهًا إلا النَّعَام المُنَفَّرا**

أي: ركبوها، فَرَمَوْها بأنفسهم! والعرب تقول للعفاف: إزارٌ، لأن العفيف كأنه استتر لما عَفَّ.

قال قتادة:"يقول: طهرها من المعاصي، فكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد أنه دَنِسَ الثياب، وإذا وفى وأصلح قالوا: مطهَّر الثياب".

قال قتادة:"هي كلمة من العربية كانت العرب تقولها: طهر ثيابك: أي من الذنوب".

عن ابن عباس، وإبراهيم: "{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، قال: من الذنوب".

عن ابن عباس وإبراهيم: "{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، قال: من الإثم".

وقال عكرمة، والضحاك: "لا تلبس ثيابك على معصية".

عن عامر وعطاء قالا:"من الخطايا".

قال مقاتل:"يقول طهر بالتوبة من المعاصي وكانت العرب تقول للرجل إذا أذنب أنه دنس الثياب، وإذا توقى، قالوا: إنه لطاهر الثياب".

قال سهل:"أي لا تلبس ثيابك على معصية، فطهره عن حظوظك واشتمل به، كما حكت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «كان لرسول الله ﷺ خميصة، فأعطاها أبا الجهم وأخذ إنبجانيته. فقيل: يا رسول الله، إن الخميصة خير من الإنبجانية.

=

=

فقال: إني كنت أنظر إليها في الصلاة» ".

**الرابع**: أن المراد بـ «الثياب»: العمل، والمعنى: وعملك فأصلح، قاله الضّحّاك، ومجاهد-أيضا، وأبو رزين.

قال أبو رَزِين:"عملك فأصلحه، وكان الرجل إذا كان خبيث العمل، قالوا: فلان خبيث الثياب، وإذا كان حسن العمل قالوا: فلان طاهر الثياب".

وروى ابن وهب عن مالك أنه قال: ما يعجبني أن أقرأ القرآن إلا في الصلاة والمساجد، لا في الطريق قال الله تعالى: {وثيابك فطهر} [المدثر: ٤]. يريد مالك أنه كنى بالثياب عن الدين".

**الخامس**: وخُلُقَكَ فَحَسِّنْ، قاله الحسن، والقرظي.

**السادس**: وَثِيَابَك فقصّر وشمّر، لأن تقصير الثياب طهرة لها. قاله طاوس، وهو مروي عن ابن عباس أيضا، وحكى الشافعي نحوه.

**قال الزجاج**:"وقيل {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، أي: ثيابك فقصر، لأن تَقْصِيرَ الثَوبِ أَبعدُ مِنَ النجاسة وأنه إذا انجر على الأرض لم يؤمن أن يُصِيبَه ما ينجسه".

السابع: وقلبك ونيتك فطهر، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ويشهد له قول امرئ القيس:

**فإن تك قَدْ سَاءَتْكِ مِني خَلِيقَةٌ... فَسُلِّي ثِيابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِ**

أي: قلبي من قلبك.

قال الثعلبي:"قال كثير من المفسرين: أراد به قلبك فطهر".

الثامن: معناه: ونفسك فطهر مما نسبك إليه المشركون من شعر أو سحر أو كهانة أو جنون. وهذا معنى قول مجاهد -في إحدى الروايات-

قال مجاهد:"لست بكاهن ولا ساحر، فأعرض عما قالوا".

التاسع: معناه: وأهلك فطهّره من الخطايا بالوعظ والتأديب، والعرب تسمّي

=

=

الأهّل ثوبا ولباسا وإزارا. حكاه الثعلبي.

العاشر: معناه: ونساءك فطهر باختيار المؤمنات العفائف، ومنه قوله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} [البقرة: ١٨٧]. حكاه الماوردي.

الحادي عشر: اغسل ثيابك بالماء، ونقِّها، قاله ابن سيرين، وابن زيد.

واختاره الطبري، والجصاص، والزمخشري، وأبو حيان، وأبو السعود، والشوكاني.

لأن الأصل في الكلام يحمل على حقيقته، ولا يجوز العدول به عنها وله فيها محمل صحيح.

عن محمد بن سيرين: "{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، قال: اغسلها بالماء".

قال ابن زيد:"كان المشركون لا يتطهرون، فأمره أن يتطهر، ويطهِّر ثيابه".

**قال الطبري:**"وهذا القول الذي قاله ابن سيرين وابن زيد في ذلك أظهر معانيه، والذي قاله ابن عباس، وعكرمة وابن زكريا قول عليه أكثر السلف من أنه عُنِيَ به: جسمك فطهر من الذنوب، والله أعلم بمراده من ذلك".

قال أبو حيان: الظاهر أنه أمر بتطهير الثياب من النجاسات، لأن طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة، ويقبح أن تكون ثياب المؤمن نجسة.

**قال ابن كثير:**"وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ أي: اغسلها بالماء. وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر ويطهر ثيابه. وهذا القول اختاره ابن جرير وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب".

وقال ابن العربي: "ليس بممتنع أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز، وإذا حملناها على الثياب المعلومة فهي تتناول معنيين: أحدهما: تقصير الأذيال، فإنها إذا أرسلت تدنست، ولهذا قال عمر بن الخطاب لغلام من الأنصار: وقد رأى ذيله مسترخيا: يا غلام، ارفع إزارك، فإنه أتقى وأنقى وأبقى

=

=

اه. والمعنى الثاني: غسلها من النجاسة، وهو ظاهر منها صحيح فيها".

قال الجصاص:"قوله تعالى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}، يدل على وجوب تطهير الثياب من النجاسات للصلاة، وأنه لا تجوز الصلاة في الثوب النجس، لأن تطهيرها لا يجب إلا للصلاة".

**قال السعدي:**"{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} يحتمل أن المراد بثيابه، أعماله كلها، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شر ورياء، ونفاق، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته. ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصا في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة. ويحتمل أن المراد بثيابه، الثياب المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصا في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأمورا بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن".

قال شيخ الإسلام في شرح العمدة (ص٤٠٤): وقد استدل كثير من المتأخرين من أصحابنا وغيرهم على وجوب تطهير الثياب بقوله سبحانه: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} حملا لذلك على ظاهر اللغة التي يعرفونها فإن الثياب هي الملابس وتطهيرها بان تصان عن النجاسة وتجنبها بتقصيرها وتبعيدها منها وبان تماط عنها النجاسة إذا إصابتها وقد نقل هذا عن بعض السلف لكن جماهير السلف فسروا هذه الآية بأن المراد زك نفسك وأصلح عملك قالوا وكنى بطهارة الثياب عن طهارة صاحبها من الأرجاس والاثام وذلك أن هذه الآية في أول سورة المدثر وهي أول ما نزل من القران بعد أول سورة اقرأ ولعل الصلاة لم تكن فرضت حينئذ فضلا عن اذى الطهارتين التي هي من توابع الصلاة ثم هذه الطهارة من فروع الشريعة

=

=

وتتماتها فلا تفرض إلا بعد استقرار الأصول والقواعد كسائر فروع الشريعة إذ ذاك لم تكن قد فرضت الأصول والقواعد.

ثم أن الاهتمام في أول الأمر بجمل الشرائع وكلياتها دون الواحد من تفاصيلها والجزء من جزئياتها هو المعروف من طريقة القران وهو الواجب في الحكمة ثم ثياب النبي ﷺ لم تعرض لها نجاسة إلا أن تكون في الأحيان فتخصيصها بالذكر دون طهارة البدن وغيره مع قلة الحاجة وعدم الاختصاص بالحكم في غاية البعد وإذا حملت الآية على الطهارة من الرجس والاثم والكذب والغدر والخيانة والفواحش كانت قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة والكناية بطهارة الثياب عن طهارة صاحبها من الفواحش والكذب والخيانة ونحو ذلك مشهور في لسان العرب غالب في عرفهم نظما ونثرا كما قال: ثياب بني عوف طهارى نقية.

وقال الآخر: وإني بحمد الله لا ثوب غادر * لبست ولا من خزية اتقنع.

حتى إذا قيل فلان طاهر الثياب طاهر الذيل لم يفهم منه عند الاطلاق إلا ذلك فيكون قد صار ذلك حقيقة عرفية كما صار المجيء من الغائط حقيقة في قضاء الحاجة وكما صار مسيس النساء ومباشرتهن حقيقة في الجماع فيجب حمل الكلام عليه ولذلك وجهان.

**أحدهما**: أن اللباس يضاف إليه من الحكم ويقصد به الاضافة إلى الإنسان نفسه للعلم بان المقصود من الثوب لا نفس الثوب ويجعل ذلك نوعا من الكناية كما قال الانصار للنبي ﷺ: "لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا".

الثاني أن يراد نفس تطهير الثوب لكن الطهارة في كتاب الله على قسمين طهارة حسية من الاعيان النجسة ومن اسباب الحدث المعلومة، وطهارة عقلية من الاعمال الخبيثة.

فالأول كقوله تعالى: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}

=

=

نزلت في أهل قباء لما كانوا يستنجون من البول والغائط وقوله تعالى: {وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ أن اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}.

والثاني: كقوله سبحانه: {إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ} وقوله تعالى: {صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} وقوله تعالى: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ أنهم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} في غير موضع وقوله سبحانه وتعالى: {هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} وقوله: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهل الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} وقال: {إنما المشركون نجس} وقال: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} إلى غير ذلك من الآيات وإذا كان كذلك فالثوب نفسه يكتسب صفة حقيقية من لابسه أن كان صالحا أو فاسقا حتى يظهر ذلك فيه إذا قوي تاثير صاحبه فيه ويظهر ذلك في مواضع الخير ومواضع الشر ولاجل الارتباط الذي بين اللباس والمقعد وبين صاحبهما أمر بتطهيرهما من النجاسة وكانت طهارة الخفين طهارة للقدمين واستحب تكريم البقاع والثياب التي عملت فيها الصالحات حتى اعد سعد ﵁ جبته التي شهد فيها بدرا كفنا واستوهب بعض أزواج النبي ﷺ منه بردة لتتخذها كفنا.

وهذا كثير فالأمر بتطهير عينه من الانجاس أمر بطهارة صاحبه بالضرورة.

والأشبه والله أعلم أن الآية تعم نوعي الطهارة وتشمل هذا كله فيكون مأمورا بتطهير الثياب المتضمنة تطهير البدن والنفس من كل ما يستقذر شرعا من الاعيان والاخلاق والاعمال لأن تطهيرها أن تجعل طاهرة ومتى اتصل بها وبصاحبها شيء من النجاسة لم تكن مطهرة على الإطلاق فانها متى ازيل عنها نجس دون نجس لم تكن قد طهرت حتى يزال عنها كل نجس بل كل ما أمر الله

=

=

باجتنابه من الارجاس وجب التطهير منه وهو داخل في عموم هذا الخطاب. ا.هـ
وقال ابن القيم: وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب والمراد بالطهارة إصلاح العمل والأخلاق.
والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب. ولا مانع من القولين.
وقد استدل بعض الفقهاء كالشافعي بهذه الآية على وجوب تطهير الثياب من النجاسات، وقد اختلف العلماء في وجوب تطهير الثوب من النجس للصلاة على قولين، وهما قولان في مذهب مالك:
قيل: إن التطهير سنة للصلاة ليس بواجب لها؛ وإنما هو من تمامها وكمالها، ومن صلى بلباس غير طاهر، فصلاته صحيحة؛ وذلك أن من صلى بالاستجمار من غير غسل للمحل، فإن صلاته صحيحة، مع القطع بوجود شيء من النجس الذي يمكن إزالته بالاستنجاء بالماء.
وقال جماعة من الفقهاء -وهو قول الشافعي وأحمد-: إنه يجب تطهيرها؛ لفعل النبي ﷺ حينما خلع نعليه وهو في الصلاة لما أنبأه جبريل أن بهما قذرا؛ كما روى أبو داود؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه، إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم، ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، قال: (ما حملكم على إلقاء نعالكم؟)، قالوا: رأيناك ألقيت نعليك، فألقينا نعالنا، فقال رسول الله ﷺ: (إن جبريل ﷺ أتاني فأخبرني أن فيهما قذرا -أو قال: أذى-)، وقال: (إذا جاء أحدكم إلى المسجد، فلينظر: فإن رأى في نعليه قذرا أو أذى، فليمسحه وليصل فيهما).
وأما الاستجمار، فهذا تخفيف من الشارع في شيء لا ينبغي أن ينقض به الأصل؛ وذلك أن التخفيف فيه كتخفيف الشارع في بول الغلام، وتخفيفه لا يعني حمل

=

=

غيره عليه، ولا أنه في ذاته طاهر.

والتخفيف في الاستجمار أظهر في الحاجة من التخفيف في بول الغلام؛ لعموم البلوى به من كل أحد، والتيسير فيه رحمة ويسر؛ دفعا للحرج والمشقة، وهي من جنس العرايا في البيوع، وإباحتها لا يعني نقض الأصل بها؛ ولكنها تحمل على التيسير والتخفيف.

قوله تعالى: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر: ٥]، أي:"ودُمْ على هَجْر الأصنام والأوثان وأعمال الشرك كلها، فلا تقربها".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر: ٥]، وجوه:

**أحدها**: يعني: الآثام والأصنام، قاله جابر، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والزهري، وابن زيد.

قال ابن قتيبة:"يعني: الأوثان، سمّاها رجزا- والرّجز: العذاب- لأنها تؤدّي إليه".

قال ابن عباس:"يقول: السخط وهو الأصنام".

قال ابن زيد:"الرجز: آلهتهم التي كانوا يعبدون؛ أمره أن يهجرها، فلا يأتيها، ولا يقربها".

عن قتادة: "{وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}: إساف ونائلة، وهما صنمان كانا عند البيت يمسح وجوههما من أتى عليهما، فأمر الله نبيَّهُ ﷺ أن يجتنبهما ويعتزلهما".

قال مقاتل:"يعني الأوثان، يساف ونائلة وهما صنمان عند البيت يمسح وجوههما من مر بهما من كفار مكة فأمر الله- تبارك وتعالى- النبي- ﷺ- أن يجتنبهما،- يعني بـ «الرجز»: أوثان لا تتحرك بمنزلة الإبل-، يعني: داء يأخذها ذلك الداء فلا تتحرك من وجع الرجز فشبه الآلهة بها".

**الثاني**: والشرك فاهجر، قاله ابن جبير.

=

=

**الثالث**: والذنب فاهجر، قاله الحسن.

**الرابع**: والمعصية والإثم فاهجر، قاله الضحاك، وإبراهيم، والسدي.

قال الضحاك:"يقول: اهجر المعصية".

**الخامس**: والعذاب فاهجر، حكاه أسباط، وابن السائب.

**قال الزجاج**:"«الرجز» -في اللغة-: العذاب، قال الله تعالى: {وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ}، فالتأويل على هذا: ما يؤدي إلى عذاب الله فاهجره".

**السادس**: والظلم فاهجر. حكاه الماوردي، ومنه الشاعر:

**كَمْ رَامَنَا مِنْ ذِي عَدِيدٍ مُبْزِ... حَتَّى وَقَمْنَا كَيْدَهُ بِالرِّجْز**

قاله السدي: "«الرَّجز»، بنصب الراء: الوعيد".

قال الثعلبي:"معنى الآية: أهجر ما أوجب لك العذاب من الأعمال، وقيل: أن تسقط حب الدنيا عن قلبك فإنها رأس كلّ خطيئة، وقيل: ونفسك فخالفها".

**قال السعدي**:"يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان، التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة منها ومما نسب إليها من قول أو عمل. ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمرا له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه".

قال القشيري:"يقال: من لا يصحّ جسمه لا يجد شهوة الطعام كذلك من لا يصحّ قلبه لا يجد حلاوة الطاعة".

-قال ابن عاشور: والهجر: ترك المخالطة وعدم الاقتراب من الشيء.

والهجر هنا كناية عن ترك التلبس بالأحوال الخاصة بأنواع الرجز لكل نوع بما يناسبه في عرف الناس.

والأمر بهجر الرجز يستلزم أن لا يعبد الأصنام وأن ينفي عنها الإلهية.

وقيل: الرجز السخط والعذاب.

=

=

أي: اهجر أسباب العذاب المؤدية إليه.

لأن لفظ (الرجز) ورد في القرآن بمعنى العذاب.

-قال الخازن: والمعنى اترك كل ما أوجب لك العذاب من الأعمال والأقوال.

وقيل: الذنوب والمعاصي. والراجح القول الثاني.

لأن تفسير السلف للرجز بمعنى الأوثان أو المعاصي، فهذا التفسير لا يخرج عن المعنى، إذ هو من اختلاف التنوع، وهو تفسير بلازم المعنى، لأن الأوثان والمعاصي سبب للعذاب ففسر اللفظ بلازمه.

قال ابن حجر: قوله (الرجز) هي الأوثان وهو تفسير باللازم لأنها تؤدي إلى الرجز وهو العذاب.

قوله تعالى: {وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ}.

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} [المدثر: ٦]، وجوه من التفسير:

**أحدها**: لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها، قاله ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، ومجاهد، وقتادة، وطاوس، وإبراهيم، وضمرة بن حبيب، وأبو الأحوص.

قال قتادة: "يقول: لا تعطِ شيئا، إنما بك مجازاة الدنيا ومعارضها".

قال الضحاك: "ي للنبيّ ﷺ خاصّة، وللناس عامَّة مُوَسَّع عليهم".

قال الضحاك: "هو الربا الحلال، كان للنبي ﷺ خاصة".

قال مجاهد: "تعطي مالا مصانعة رجاء أفضل منه من الثواب في الدنيا".

قال الضحاك: "هما رِبَوان: حلال، وحرام؛ فأما الحلال: فالهدايا، والحرام: فالربا".

**الثاني**: معناه لا تمنن بعملك تستكثر على ربك، قاله الحسن.

وقال الربيع بن أنس: "لا يكثر عملك في عينك، فإنه فيما أنعم الله عليك وأعطاك

=

=

قليل".

**الثالث**: معناه لا تمنن بالنبوة على الناس تأخذ عليها منهم أجرًا، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"لا تمنن بالنبوّة والقرآن الذي أرسلناك به تستكثرهم به، تأخذ عليه عوضا من الدنيا".

**الرابع**: معناه: لا تضعف عن الخير أن تستكثر منه، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"لا تضعف أن تستكثر من الخير، قال: تمنن في كلام العرب: تضعف".

**قال ابن كثير**: "الأظهر القول الأول".

**قال الطبري**:"وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب في ذلك قول من قال: معنى ذلك: ولا تمنن على ربك من أن تستكثر عملك الصالح، لأن ذلك في سياق آيات تقدم فيهنّ أمر الله نبيه ﷺ بالجدّ في الدعاء إليه، والصبر على ما يَلْقَى من الأذى فيه، فهذه بأن تكون من أنواع تلك، أشبه منها بأن تكون من غيرها. وذُكر عن عبد الله بن مسعود أن ذلك في قراءته «ولا تمنن أن تستكثر»".

**قال السعدي**:"أي: لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتتكثر بتلك المنة، وترى لك الفضل عليهم بإحسانك المنة، بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وانس عندهم إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالى واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء. وقد قيل: إن معنى هذا، لا تعط أحدا شيئا، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصا بالنبي ﷺ".

-قال البغوي: أي لا تعط مالك مصانعة لتعطى أكثر منه، هذا قول أكثر المفسرين.

-وقال ابن كثير: أي ينبغي أن يسدي الإنسان المعروف أيا كان لوجه الله وابتغاء

=

=

مرضاته، لا لأجل أن يرد عليه أكثر من ذلك.

-قال القرطبي بعد أن ذكر أقوالا كثيرة في الآية: فأظهرها قول ابن عباس: لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال؛ يقال: مننت فلانا كذا أي أعطيته.

وعلى هذا القول هو خاص بالنبي ومباح لأمته، لكن لا أجر لهم فيه.

- **قال ابن عاشور**: مناسبة عطف (ولا تمنن تستكثر) على الأمر بهجر الرجز أن المن في العطية كثير من خلق أهل الشرك فلما أمره الله بهجر الرجز نهاه عن أخلاق أهل الرجز نهيا يقتضي الأمر بالصدقة والإكثار منها بطريق الكناية فكأنه قال: وتصدق وأكثر من الصدقة ولا تمنن، أي لا تعد ما أعطيته كثيرا فتمسك عن الازدياد فيه، أو تتطرق إليك ندامة على ما أعطيت.

والمن: تذكير المنعم المنعم عليه بإنعامه.

والاستكثار: عد الشيء كثيرا، أي لا تستعظم ما تعطيه.

قوله تعالى: {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} [المدثر: ٧]،

في الآية وجوه من التفسير:

**أحدها**: فاصْبِرْ على ما لاقيت من الأذى والمكروه. قاله مجاهد، وبه قال الطبري.

عن مجاهد، قوله: "{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}، قال: على ما أوتيت".

قال مقاتل:"يعزي نبيه- ﷺ- ليصبر على الأذى والتكذيب من كفار مكة".

**قال ابن كثير**: "أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك ﷻ".

**الثاني**: على محاربة العرب ثم العجم، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"حمل أمرًا عظيما محاربة العرب، ثم العجم من بعد العرب في الله".

**الثالث**: على الحق فلا يكن أحد أفضل عندك فيه من أحد، قاله السدي.

=

=

**الرابع**: اصبر على عطيتك لله، قاله إبراهيم.

عن إبراهيم: "{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}، قال: اصبر على عطيتك". وفي رواية:"عطيتك اصبر عليها".

**الخامس**: فاصْبِرْ على الوعظ لوجه الله، قاله عطاء.

**السادس**: على انتظام ثواب عملك من الله تعالى، وهو معنى قول ابن شجرة.

السابع: على ما أمرك الله من أداء الرسالة وتعليم الدين، حكاه ابن عيسى.

الثامن: على طاعة الله. قاله النحاس.

أي: ولربك وحده دون سواه فاصبر على كل ما تلقاه في سبيل إبلاغ رسالتك ونشر دعوتك دعوة الخير والكمال.

وإنما أمره بالصبر لأمور:

**أولا**: لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال (واعلم أن النصر مع الصبر).

**ثانيا**: أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات.

**ثالثا**: وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فالشبهات تواجه باليقين، والشهوات تواجه بالصبر.

**رابعا**: وليكون قدوة لغيره.

- قال الثعالبي: (ولربك فاصبر) أي: لوجه ربك وطلب رضاه فاصبر على أذى الكفار، وعلى العبادة وعن الشهوات وعلى تكاليف النبوة.

قال ابن عاشور: هذا تثبيت للنبيء على تحمل ما يلقاه من أذى المشركين وعلى مشاق الدعوة.

والصبر: ثبات النفس وتحملها المشاق والآلام ونحوها.

قال ابن عاشور: فهذه ست وصايا أوصى الله بها رسوله في مبدإ رسالته وهي من

=

=

جوامع القرآن أراد الله بها تزكية رسوله وجعلها قدوة لأمته.

قوله تعالى: {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} [المدثر: ٨].

في تفسيرها وجوه:

**أحدهما**: يعني: نفخ في الصور، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والربيع، وابن زيد.

**قال الفراء**:"يُقال: إنها أول النفختين".

قال ابن قتيبة:"أي: نفخ في الصور أول نفخة".

قال قتادة:"الناقور: الصور، والصور: الخلق".

عن مجاهد، قوله: "{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ}، قال: في الصور، قال: هو شيء كهيئة البوق".

عن ابن عباس، قوله: "{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ}، يقول: الصور".

قال ابن عباس:"هو يوم يُنفخ في الصور الذي ينفخ فيه، قال ابن عباس: إن نبيّ الله ﷺ خرج إلى أصحابه، فقال: "كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ القَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ بأُذُنِهِ يَسْتَمِعُ مَتى يُؤْمَرُ بالصَّيْحَة؟ فاشتدّ ذلك على أصحابه، فأمرهم أن يقولوا: حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، على اللهِ تَوَكَّلْنا".

**الثاني**: أن الناقور: القلب يجزع إذا دعي الإنسان للحساب، حكاه ابن كامل.

**الثالث**: أن الناقور: صحف الأعمال إذا نشرت للعرض. أفاده الماوردي.

روي عن أبي حباب القصاب، قال: "أمّنا زرارة بن أوفى فلما بلغ فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ الآية: خرّ ميتا".

قوله تعالى: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ} [المدثر: ٩].

**قال الطبري**:"فذلك يومئذ يوم شديد".

قال مقاتل:"يعني: مشقته وشدته".

=

=

**قال ابن كثير**: "أي: غير سهل عليهم. كما قال تعالى {يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [القمر: ٨]".

**قال السعدي**:"لكثرة أهواله وشدائده".

عن ابن عباس، قوله: "{فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ}، يقول: شديد".

عن قتادة:"قال الله تعالى ذكره: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ}، فبين الله على من يقع: {عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ}".

- ووصف اليوم بالعسير باعتبار ما يحصل فيه من العسر على الحاضرين فيه.

قال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد).

وقال تعالى (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار).

وقال تعالى في وصف الأبرار (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا).

وقال تعالى (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون).

قال تعالى (القارعة. ما القارعة. وما أدراك ما القارعة. يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش)

وقال تعالى (يصلونها يوم الدين. وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين. يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله).

وقال تعالى (فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى).

وقال تعالى (فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه)

=

=

وقال (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم) رواه مسلم.

قال القحطاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

**يوم القيامة لو علمت بهوله... لفررت من أهل ومن أوطان**

**يوم تشققت السماء لهوله... وتشيب منه مفارق الولدان**

**يوم عبوس قمطرير شره... في الخلق منتشر عظيم الشأن**

- وأسباب النجاة من كرب يوم القيامة كثيرة:

منها: التنفيس عن المسلمين.

لحديث الباب (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة

ومنها: إنظار المعسر أو الوضع عنه.

قال (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينظر معسر أو يضع عنه) رواه مسلم.

ومنها: الوفاء بالنذر، وإطعام الطعام لله.

قال تعالى (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا. فوقاهم الله شر ذلك اليوم...).

قوله تعالى: {عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} [المدثر: ١٠].

قال السمعاني:"غير هين ولا لين".

قال مقاتل:"يعنى: غير هين، ويهون ذلك على المؤمن كأدنى صلاته".

**قال السعدي:**" {عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ}، لأنهم قد أيسوا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والبوار. ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير، كما قال تعالى: {يَقُولُ

=

=

الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ}".

**قال الزمخشري:**"لما قال: {عَلَى الْكَافِرِينَ}، فقصر العسر عليهم، قال: {غَيْرُ يَسِيرٍ}، ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيرا هينا، ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم. ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيرا، كما يرجى تيسر العسير من أمور الدنيا".

قال الرازي: قوله تعالى (عسير) عسر ذلك اليوم على الكافرين لأنهم يناقشون في الحساب ويعطون كتبهم بشمائلهم وتسود وجوههم ويحشرون زرقا وتتكلم جوارحهم فيفتضحون على رؤوس الأشهاد وأما المؤمنون فإنه عليهم يسير لأنهم لا يناقشون في الحساب ويحشرون بيض الوجوه ثقال الموازين، ويحتمل أن يكون إنما وصفه الله تعالى بالعسر لأنه في نفسه كذلك للجميع من المؤمنين والكافرين على ما روى أن الأنبياء يومئذ يفزعون، وأن الولدان يشيبون إلا أنه يكون هول الكفار فيه أشد، فعلى القول الأول لا يحسن الوقف على قوله: {يوم عسير} فإن المعنى أنه: على الكافرين عسير وغير يسير، وعلى القول الثاني يحسب الوقف لأن المعنى أنه في نفسه عسير على الكل ثم الكافر مخصوص فيه بزيادة خاصة وهو أنه عليه غير يسير.

❊❊ مسألة تلخيص فتاوى اللجنة الدائمة في النجاسات.

❊ أفتوا بنجاسة البول كما هو الإجماع.

❊ وأفتوا بوجوب غسل ما أصابه من الثوب أو البدن.

❊ وأفتوا بأن نجاسة الدم والقيح والصديد يعفى عن يسيرها إذا كان خروجها من غير الفرج لوجود المشقة في الاحتراز عن قليلها، وأما غيرها فلا يعفى عن قليلها ولا كثيرها.

❊ وأفتوا بأن بول الغلام الرضيع الذي لم يأكل الطعام يكفي فيه النضح، وأما

=

=

بول الجارية فيغسل مطلقًا.

* وأفتوا بالاكتفاء بصب الماء على الموضع النجس من الأرض كالتراب أو الفرشات ونحوها.

* وأفتوا بأن الأصل في الأشياء الطهارة إلا بدليل.

* وأفتوا بأن سيلان العرق على المخرج بعد الإنقاء بالاستجمار لا يضره.

* وأفتوا بطهارة الدم الباقي في العروق بين اللحم من الحيوان المذكى.

* وأفتوا بنجاسة الدم المسفوح.

* وأفتوا بأن المرأة الحائض ليست بنجسة العين فيجوز مباشرتها إلا في الفرج وتقبيلها ومؤاكلتها والشرب من موضع فيها والأكل مما طبخته ونحو ذلك.

* وأفتوا بأن نجاسة الكفار نجاسة اعتقاد، وأما أعيانهم فطاهرة.

* وأفتوا بطهارة بول ما يؤكل لحمه كالإبل.

* وأفتوا بجواز غسل الرأس المصاب بوزر الإبل أي بأبوالها وأنه لا حرج في الصلاة به بعد ذلك لأنه طاهر.

* وأفتوا بجواز الصلاة في مرابض الغنم لثبوت الأمر بذلك.

* وأفتوا بطهارة سؤر الحمار والبغل وسباع البهائم كالذئب والأسد وكذلك جوارح الطير كالصقر ونحوها.

* وأفتوا بطهارة المني.

* وأفتوا بأن من شك في نجاسة شيء فلا يلتفت إلى هذا الشك لأن الأصل الطهارة.

* وأفتوا بأن إفرازات فرج المرأة لها حكم البول أي في نجاستها ووجوب الاستنجاء منها وأنها تنقض الوضوء.

* وأفتوا بأن من صلى بالنجاسة جاهلًا فلا شيء عليه.

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١).

{ذَرْنِـي} اُتْرُكْنِـي {وَمَـنْ خَلَقْـت} عَطْـف عَلَـى الْمَفْعُـول أَوْ مَفْعُـول مَعَـهُ {وَحِيدًا} حَال مِنْ مَنْ أَوْ مِنْ ضَمِيره الْمَحْذُوف مِنْ خَلَقْت مُنْفَرِدًا بِلَا أَهْل وَلَا مَال هُوَ الْوَلِيد بْن المغيرة المخزومي.

وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢).

{وَجَعَلْت لَهُ مَالًا مَمْدُودًا} وَاسِعًا مُتَّصِلًا مِنْ الزُّرُوع وَالضُّرُوع وَالتِّجَارَة.

وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣).

{وَبَنِينَ} عَشَرَة أَوْ أَكْثَر {شُهُودًا} يَشْهَدُونَ الْمَحَافِل وتسمع شهاداتهم.

وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤).

{وَمَهَّدْت} بَسَطْت {لَهُ} فِي الْعَيْش وَالْعُمُر وَالْوَلَد {تمهيدا}.

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥).

{ثم يطمع أن أزيد}.

كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦).

{كَلَّا} لَا أَزِيدهُ عَلَى ذَلِكَ {إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا} الْقُرْآن {عَنِيدًا} مُعَانِدًا.

سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧).

{سَأُرْهِقُهُ} أُكَلِّفهُ {صَعُودًا} مَشَقَّة مِنْ الْعَذَاب أَوْ جَبَلًا مِنْ نَار يَصْعَد فِيهِ ثُمَّ يَهْوِي أبدا.

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨).

{إِنَّهُ فَكَّرَ} فِيمَا يَقُول فِي الْقُرْآن الَّذِي سَمِعَهُ مِنْ النَّبِيّ ﷺ {وَقَدَّرَ} فِي نَفْسه ذَلِكَ.

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩).

{فَقُتِلَ} لُعِنَ وَعُذِّبَ {كَيْفَ قَدَّرَ} عَلَى أَيِّ حال كان تقديره.

ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠).

{ثم قتل كيف قدر}.

ثُمَّ نَظَرَ (٢١).

{ثُمَّ نَظَرَ} فِي وُجُوه قَوْمه أَوْ فِيمَا يَقْدَح بِهِ فِيهِ.

ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢).

{ثُمَّ عَبَسَ} قَبَضَ وَجْهه وَكَلَّحَهُ ضِيقًا بِمَا يَقُول {وَبَسَرَ} زَادَ فِي الْقَبْض وَالْكُلُوح.

ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣).

{ثُمَّ أَدْبَرَ} عَنْ الْإِيمَان {وَاسْتَكْبَرَ} تَكَبَّرَ عَنْ اتِّبَاع النَّبِيّ ﷺ.

فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤).

{فَقَالَ} فِيمَا جَاءَ بِهِ {إِنْ} مَا {هَذَا إِلَّا سِحْر يُؤْثَر} يُنْقَل عَنْ السَّحَرَة.

إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥).

{إِنْ} مَا {هَذَا إِلَّا قَوْل الْبَشَر} كَمَا قَالُوا إِنَّمَا يُعَلِّمهُ بشر.

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦).

{سَأُصْلِيهِ} أُدْخِلهُ {سَقَر} جَهَنَّم.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧).

{وما أدراك ما سقر} تعظيم لشأنها.

لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨).

{لَا تُبْقِي وَلَا تَذَر} شَيْئًا مِنْ لَحْم وَلَا عَصَب إِلَّا أَهْلَكَتْهُ ثُمَّ يَعُود كما كان.

لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩).

{لَوَّاحَة لِلْبَشَرِ} مُحَرِّقَة لِظَاهِرِ الْجِلْد.

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠).

{عَلَيْهَا تِسْعَة عَشَر} مَلَكًا خَزَنَتهَا قَالَ بَعْض الْكُفَّار وَكَانَ قَوِيًّا شَدِيد الْبَأْس أَنَا أَكْفِيكُمْ سَبْعَة عَشَر وَاكْفُونِي أَنْتُمْ اثْنَيْنِ قَالَ تَعَالَى[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل؛ فأتاه، فقال: يا عم! إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالًا ليعطوكه؛ فإنك أتيت محمدًا تتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا، قال: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك منكر أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله؛ ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله؛ إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر؛ قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره؛ فنزلت {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)}.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٩٥)، والحاكم (٢/ ٥٠٦، ٥٠٧) وعنه البيهقي في "شعب الإيمان" (١/ ٣٩٣، ٣٩٤ رقم ١٣٣)، و"دلائل النبوة" =

=

(٢/ ١٩٨، ١٩٩)- من طريق إسحاق بن إبراهيم نا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب السختياني عن عكرمة عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ إسحاق بن إبراهيم الدبري راوية "مصنف عبد الرزاق" فيه مقال معروف، وسمع من عبد الرزاق بعدما اختلط بآخره.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

وذكر البيهقي في "الدلائل" (٢/ ١٩٩): أن يوسف بن يعقوب القاضي رواه عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة؛ قال: جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله ﷺ، فقال له: اقرأ عليّ، فقرأ عليه: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)} [النحل: ٩٠]

قال: أعد، فأعاد النبي ﷺ، فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر.

وهذا أصح من الذي قبله، وحماد بن زيد من أثبت الناس في أيوب، وفيه أنه قرأ آية النحل، وهو أخصر من الذي قبله.

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٩٨)، وعبد الرزاق في "التفسير" (٢/ ٣٢٨) عن معمر عن عباد بن منصور عن عكرمة: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن؛ فكانه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل؛ فأتاه فقال: أي عم! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا، قال: ولِمَ؟ قال: ليعطوكه؛ فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا، قال: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له، قال: وماذا أقول فيه؟! فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصده، ولا بأشعار

=

=

الجن مني، والله ما يشبه الذي يقول شيء من هذا، والله؛ إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى، فقال: قف، والله لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، قال: فلما فكر؛ قال: هذا سحر يؤثر؛ أي: يأثره عن غيره؛ فنزلت فيه: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)} الآيات.

وهذا مرسل ضعيف بل منكر؛ فإن رواية عباد عن عكرمة على وجه الخصوص منكرة.

• ملاحظة: في "تفسير عبد الرزاق": "عن معمر عن رجل"، وهذا الرجل هو عباد؛ إذ السياق هو هو.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٣٣٠) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي نعيم في "الحلية".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢)}؛ قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه يسأله عن القرآن، فلما أخبره؛ خرج على قريش فقال: عجبًا لما يقول ابن أبي كبشة؛ فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش؛ ائتمروا وقالوا: والله لئن صبأ الوليد؛ لتصبأن قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل؛ قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ قال: ألست أكثرهم مالًا وولدًا؟ فقال أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة؛ لتصيب من طعامه، قال الوليد: أقد تحدثت به عشيرتي فلا يقصر عن سائر بني قصي؟ لا أقرب أبا بكر ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر؛ فأنزل الله على نبيه: {ذَرْنِي وَمَنْ

=

=

خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٩٨)، وابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٣٣٠، ٣٣١) وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وأخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ١٩٩ - ٢٠١)، و"شعب الإيمان" (١/ ٣٩٤ - ٣٩٦) بسند حسن إلى ابن إسحاق ثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس؛ قال: إن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش وكان ذا سن فيهم، وقد حضر المواسم، فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا؛ فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قول بعضكم بعضًا.

فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس! فقل، وأقم لنا رأيًا نقوم به، فقال: بل أنتم فقولوا أسمع، فقالوا: نقول كاهن، فقال: ما هو بكاهن؛ لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكهان، فقالوا نقول: مجنون، فقال: ما هو بمجنون؛ ولقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر؛ قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه؛ فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: فما هو بساحر؛ فقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه وعقده، فقال: ما نقول يا أبا عبد شمس؟! قال: والله؛ إن لقوله حلاوة، وإن أصله لمغدق وإن فرعه لجنا، فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل،

=

=

وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر، فتقولوا: هو ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وبين زوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم من أمره؛ فأنزل الله ﷻ في الوليد بن المغيرة وذلك من قوله: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)}.

وأنزل الله ﷻ في النفر الذين كانوا معه ويصنفون له القول في رسول الله ﷺ فيما جاء به من عند الله: {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)} أي: أصنافًا {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢)} [الحجر: ٩١، ٩٢] أولئك النفر الذين يقولون ذلك لرسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس، قال: وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها. وهذا سند ضعيف؛ شيخ ابن إسحاق مجهول، وهو عند الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٩٦) باختصار.

وعن قتادة؛ قوله: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨)} زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل؛ فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى، وما أشك أنه سحر؛ فأنزل الله فيه: {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩)} الآية {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢)} قبض ما بين عينيه وكلح.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٩٨): ثنا بشر ثنا يزيد ثنا سعيد عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

=

=

وعنه -أيضًا- قال الله -تعالى ذكره-: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩)}؛ فبين الله على من يقع {عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)}، وقوله -تعالى-: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)} يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: كِلْ يا محمد أمر الذي خلقته في بطن أمه وحيدًا لا شيء له من مال ولا ولد إليّ، وذكر أنه عنى بذلك: الوليد بن المغيرة المخزومي.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٩٦) بنفس السند السابق، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٣٢٩) ونسبه لعبد بن حميد.

وعن مجاهد؛ قال: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكذلك في الخلق كلهم: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٩٦): ثنا أبو كريب ثنا وكيع عن محمد بن شريك عن ابن أبي نجيح عنه به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: هذه الآية: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)}؛ أنزلت في الوليد بن المغيرة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩/ ٩٦): ثني يونس نا ابن وهب عن عبد الرحمن به.

وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال.

الثانية: عبد الرحمن؛ متروك الحديث.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما في قوله -تعالى-: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)}؛ قال: إن رهطًا من اليهود سألوا رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم، فجاء رجل فأخبر النبي ﷺ؛ فأنزل الله -تعالى- عليه ساعتئذ: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)}؛ فأخبر أصحابه وقال: "ادعهم، أما إني

=

=

سائلهم عن تربة الجنة إن أتوني، أما إنها درمكة بيضاء"؛ فجاؤوه فسألوه عن خزنة جهنم؛ فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام في الثانية، ثم قال: "أخبروني عن تربة الجنة؟ "، فقالوا: أخبره يا ابن سلام! فقال: كأنها خبزة بيضاء، فقال رسول الله ﷺ: "أما إن الخبز إنما يكون من الدرمك".

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤٧٣)، والبيهقي في "البعث" (ص ٢٦٩ رقم ٤٦٢) من طريقين عن ابن أبي زائدة ثني حريث بن أبي مطر عن عامر الشعبي عن البراء به. وهذا سند ضعيف؛ حريث ضعيف؛ كما في "التقريب".

قال البيهقي: "حديث ابن أبي مطر ليس بالقوي".

وعن السدي؛ قال: لما نزلت: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)}؛ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشدين: يا معشر قريش! لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٣٣٣)، و"لباب النقول" (ص ٢٢٤) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} [المدثر: ١١].

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كِلْ يا محمد أمر الذي خلقته في بطن أمه وحيدًا، لا شيء له من مال ولا ولد إلي".

عن مجاهد: "{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}، قال: خلقته وحده ليس معه مال ولا ولد".

قال مجاهد:"نزلت في الوليد بن المغيرة، وكذلك الخلق كلهم".

عن الضحاك: "{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}، يعني: الوليد بن المغيرة".

=

=

قال سعيد بن جبير:"هو الوليد بن المغيرة بن هشام المخزومي".

قال قتادة:"وهو الوليد بن المغيرة، أخرجه الله من بطن أمه وحيدًا، لا مال لـه ولا ولد، فرزقه الله المال والولد، والثروة والنماء".

عن ابن عباس، قال: "أنزل الله في الوليد بن المغيرة قوله: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}، وقوله: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر: ٩٢]... إلى آخرها".

قال ابن زيد في قوله: "{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا...}، إلى قوله: {إِنْ هَـٰذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ...}، حتى بلغ: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ}، قال: هذه الآية أُنزلت في الوليد بن المُغيرة".

أي: ذرني: أي اتركني، وهي كلمة تحمل التهديد الأكيد والوعيد الشديد، كقوله تعالى: (ذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا). وقوله تعالى (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون).

المعنى: أي دعني يا محمد وهذا الشقي، الذي خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ولا حول له ولا مدد، ولا عيرة، بل ولا ثياب، قال تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة).

وقيل: إن قوله تعالى (وحيدا) يرجع إلى الرب تعالى والمعنى: ذرني وحدي معه فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم.

وقيل: كان يدعى وحيدا.

**قال القرطبي**: والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه، وإنما خص بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول عليه السلام، وكان يسمى الوحيد في قومه.

- **قال الرازي**: أجمعوا على أن المراد ههنا الوليد بن المغيرة.

- **قال ابن عاشور**: والوحيد: المنفرد عن غيره في مكان أو حال مما يدل عليه

=

=

سياق الكلام، أو شهرة أو قصة، وهو فعيل من وحد من باب كرم وعلم، إذا انفرد.

وكان الوليد بن المغيرة يلقب في قريش بالوحيد لتوحده وتفرده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته وهي كثرة الولد وسعة المال، ومجده ومجد أبيه من قبله، وكان مرجع قريش في أمورهم لأنه كان أسن من أبي جهل وأبي سفيان، فلما اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام إيماء إلى الوليد بن المغيرة المشتهر به.

قوله تعالى: {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا} [المدثر: ١٢]، أي:"وجعلت له مالا مبسوطًا واسعًا".

واختلف في مبلغ ماله على أقوال:

**أحدها**: كان ماله ألف دينار، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وإبراهيم بن المهاجر.

وقال الفراء:"ونرى أن الممدود جُعل غاية للعدد، لأن الألف غايةُ العدد، يرجع فِي أول العدد من الألف. ومثله قول العرب: لَكَ عَلَى ألف أقدع، أي: غاية العدد".

وقال أبو عبيدة:"{مالًا مَمْدُودًا} : كثيرا".

وقال ابن قتيبة:"دائما".

وقال الزجاج:"مال غير منقطع عنه".

قال ابن فورك:"أي: مالا كثيرا له مدد يأتي شيء بعد شيء، فوصفه بأنه ممدود يقتضي هذا المعنى".

**الثاني**: أربعة الآف دينار، قاله قتادة، وسفيان.

**الثالث**: ستة الآف دينار، قاله قتادة-أيضا-.

**الرابع**: مائة ألف دينار، قاله مجاهد.

=

=

**الخامس**: الف ألف دينار. قاله سفيان-أيضا-.

**السادس**: أنها أرض يقال لها: ميثاق، قاله النعمان بن سالم، وهو مروي عن مجاهد أيضًا.

السابع: أنها غلة شهر بشهر، قاله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثامن: يعني: بستانه الذي له بالطائف، والممدود الذي لا يتقطع خيره شتاء ولا صيفا، كقوله: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ} [الواقعة: ٣٠]، يعني: لا ينقطع. قاله مقاتل، وحكي الماوردي عن السدي نحوه.

قال يحيى بن سلام:"المد: الذي لا انقطاع له.. يعني لا ينقطع شتاء ولا صيفا".

التاسع: أنها الأنعام التي يمتد سيرها في أقطار الأرض للمرعى والسعة، قاله ابن بحر.

العاشر: العروض والذهب والفضة. قاله الكلبي.

الحادي عشر: سبعة آلاف مثقال فضة. قاله ابن عباس.

الثاني عشر: أن سيتوعب وجوه المكاسب فيجمع بين زيادة الزراعة وكسب التجارة ونتاج المواشي فيمد بعضها ببعض لأن لكل مكسب وقتًا. أفاده الماوري.

وعن ابن عباس-في بعض الروايات-: "كانت له الإبل المؤبلة والخيل المسومة والأنعام من الإبل والبقر والغنم والذهب والفضة وغير ذلك".

وقال سهل: أي:"جعلت له الحرص وطول الأمل".

**قال الطبري**:"الصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله: {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا} وهو الكثير الممدود، عدده أو مساحته".

قيل: المال المدود هو الذي يكون له مدد يأتي من الجزء بعد الجزء على الدوام.

-قال الطبري: وهو الكثير الممدود عدده أو مساحته.

=

-وقال الواحدي: والأولى في تفسير الممدود أن يكون ما يمد له بالزيادة والنماء كالزرع والضرع والتجارة، ويكون له مدد يأتي شيئا بعد شيء.
-وقال القرطبي: والأظهر أنه إشارة إلى ما لا ينقطع رزقه بل يتوالى كالزرع والضرع والتجارة.
قوله تعالى: {وَبَنِينَ شُهُودًا} [المدثر: ١٣]، أي:"وأولادًا حضورًا معه في «مكة» لا يغيبون عنه".
وفي عدد أبنائه، أقوال:
**أحدها**: أنهم كانوا عشرة، قاله مجاهد.
**قال الفراء**:"كَانَ لَهُ عشرة بنين لا يغيبون عنْ عينيه فِي تجارة ولا عمل".
**الثاني**: قال الضحاك: "كان له سبعة ولدوا بمكة، وخمسة ولدوا بالطائف".
**الثالث**: أنهم كانوا ثلاثة عشر رجلًا، قاله ابن جبير.
قال سعيد بن جبير:"هو الوليد بن المغيرة بن هشام المخزومي، وكان له ثلاثة عشر ولدا، كلهم رب بيت".
وفي قوله تعالى: {وَبَنِينَ شُهُودًا} [المدثر: ١٣]، وجوه:
**أحدها**: أنهم حضور معه لا يغيبون عنه، قاله السدي، ومقاتل.
**قال الزجاج**:"أي: شهودٌ معه لا يحتاجون إلى أن يتصرفوا ويغيبوا عنه".
**قال ابن كثير**:"وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده".
قال مقاتل:"يعني: حضورا لا يغيبون أبدا عنه في تجارة ولا غيرها لكثرة أموالهم بمكة وكلهم رجال منهم الوليد بن الوليد، وخالد بن الوليد،- وهو سيف الله أسلم بعد ذلك- وعمارة بن الوليد، وهشام بن الوليد والعاص بن الوليد، وقيس بن الوليد، وعبد شمس بن الوليد".
قال مجاهد: لا يغيبون، أي: حضورا عنده لا يسافرون في التجارات، بل مواليهم =

=

وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم، وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده. قال تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا).

قال ابن فورك:"أي: وبنين بحضرته يستمتع بمشاهدته لهم، فإن متعته بحضورهم خلاف من هو غائب عنهم".

**قال الزمخشري**: أي:"حضورا معه بمكة لا يفارقونه للتصرف في عمل أو تجارة، لأنهم مكفيون لوفور نعمة أبيهم واستغنائهم عن التكسب وطلب المعاش بأنفسهم، فهو مستأنس بهم لا يشتغل قلبه بغيبتهم، وخوف معاطب السفر عليهم ولا يحزن لفراقهم والاشتياق إليهم. ويجوز أن يكون معناه: أنهم رجال يشهدون معه المجامع والمحافل. أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه".

**الثاني**: أنه إذا ذكر ذكروا معه، قاله ابن عباس.

**الثالث**: أنهم كلهم رب بيت، قاله ابن جبير.

**الرابع**: أنهم قد صاروا مثله من شهود ما كان يشهده، والقيام بما كان يباشره. حكاه الماوردي.

وقيل: يجوز أن يكون المراد من كونهم شهودا أنهم رجال يشهدون معه المجامع والمحافل.

-قال البقاعي: ولما كان أول ما يمتد إليه النفس بعد كثرة المال الولد، وكان أحب الولد الذكر، قال (وبنين) ولما كان الاحتياج إلى فراقهم ولو زمنا يسيرا شاقا، وكان ألزمهم له وأغناهم عن الضرب في الأرض نعمة أخرى قال (شهودا) أي حضورا معه لغناه عن الأسفار بكثرة المال وانتشار الخدم وقوة الأعوان، وهم مع حضورهم في الذروة من الحضور بتمام العقل وقوة الحذق، فهم في غاية المعرفة بما يزيدهم الاطلاع عليه حيثما أرادهم وجدهم وتمتع بلقياهم، ومع ذلك فهم أعيان المجالس وصدور المحافل كأنه لا شاهد بها غيرهم.

=

=

قوله تعالى: {وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا}.

**قال الطبري**: يقول:"وبسطت له في العيش بسطًا".

**قال ابن كثير**:"أي: مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك".

عن سفيان: "{وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا}، قال: بسط له".

قال مجاهد:"من المال والولد".

قال القشيري:"أراد: تسهيل التصرّف، أي: مكّنته من التصرّف في الأمور".

قال ابن فورك:"التمهيد: تسهيل التصرف في الأمور".

**قال الزمخشري**: أي:"وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه، فأتممت عليه نعمتي المال والجاه واجتماعهما: هو الكمال عند أهل الدنيا. ومنه قول الناس: أدام الله تأييدك وتمهيدك، يريدون: زيادة الجاه والحشمة. وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم، ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش".

أي: مكنته من الدنيا وأسبابها حتى انقادت له مطالبه، فأعطاه الله من صنوف المال والأثاث وغير ذلك، وحصل له ما يشتهي ويريد.

(ثم) مع هذه النعم والإمدادات: (يطمع أن أزيد).

قوله تعالى: {ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ} [المدثر: ١٥].

**قال الطبري**:"ثم يأمل ويرجو أن أزيده من المال والولد على ما أعطيته".

**قال الزمخشري**:"استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه، يعني أنه لا مزيد على ما أوتى سعة وكثرة. وقيل: إنه كان يقول: إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لي".

فقد اختلف العلماء في معناها:

فقيل: يطمع أن أزيده في الدنيا زيادة على ما هو فيه من المال والبنين مع كفره بي.

وقيل: يطمع أن أزيده في الآخرة ويدخل الجنة، قيل: إنه كان يقول إن كان محمد

=

=

صادقا فما خلقت الجنة إلا لي، ونظيره قوله تعالى (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا).

- قال بعض العلماء: لفظ (ثم) هنا للإنكار والتعجب، كما تقول لصاحبك: أنزلتك داري وأطعمتك وأكرمتك ثم أنت تشتمني.

-قال الرازي: لفظ (ثم) ههنا معناه التعجب كما تقول لصاحبك: أنزلتك داري وأطعمتك وأسقيتك ثم أنت تشتمني، ونظيره قوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون).

قوله تعالى: {كَلَّا} [المدثر: ١٦]،

**قال الطبري:**"يقول: ليس ذلك كما يأمل ويرجو من أن أزيده مالا وولدا، وتمهيدا في الدنيا".

**قال الزمخشري:**"{كَلَّا}: ردع له وقطع لرجائه وطمعه".

قال مجاهد:"فما زال يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك".

قال الرازي: (كلا) وهو ردع له عن ذلك الطمع الفاسد قال المفسرون ولم يزل الوليد في نقصان بعد قوله (كلا) حتى افتقر ومات فقيرا.

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا} [المدثر: ١٦]، أي:"إنه كان للقرآن وحجج الله على خلقه معاندًا مكذبًا".

**قال ابن كثير:**"أي: معاندا، وهو الكفر على نعمه بعد العلم".

**قال الزمخشري:**"تعليل للردع على وجه الاستئناف، كأن قائلا قال: لم لا يزاد؟ فقيل: إنه عاند آيات المنعم وكفر بذلك نعمته، والكافر لا يستحق المزيد".

قال أبو عبيدة:"معاندا لآياتنا، كالبعير العنود".

**قال الطبري:**"يقول: إن هذا الذي خلقته وحيدا كان لآياتنا- وهي حجج الله على خلقه من الكتب والرسل- عنيدا، يعني معاندا للحقّ مجانبا له، كالبعير العنود؛

=

=

ومنه قول القائل:

**إِذَا نزلْتُ فاجْعَلانِي وَسَطا... إنّي كَبِيرٌ لا أُطِيقُ العُنَّدا".**

عن ابن عباس، قوله: "{إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا}، قال: جحودا".

قال قتادة:"كفورا بآيات الله جحودا بها".

عن مجاهد، قوله: "{عَنِيدًا}، قال: معاندا للحقّ مجانبا".

عن مجاهد، قوله: "{إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا}، قال محمد بن عمرو: معاندا لها. وقال الحارث: معاندا عنها، مجانبا لها".

عن سفيان:"{لِآيَاتِنَا عَنِيدًا}، قال: مشاقا".

قال سعيد بن جبير:"فلما نزلت: {إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا} [المدثر: ١٦]، لم يزل في إدبار من الدنيا في نفسه وماله وولده حتى أخرجه من الدنيا".

(إنه كان لآياتنا عنيدا) أي: لأنه معاند للحق، جاحد بآيات الله وهي القرآن الكريم وما جاء فيه من الآيات البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات، مكذب لرسوله، ولم يكفه أنه أعرض عنها وتولى، بل جعل يحاربها ويسعى في إبطالها.

والعنيد: الشديد العناد وهو المخالفة للصواب، وعناده: هو محاولته الطعن في القرآن وتحيله للتمويه بأنه سحر، أو شعر، أو كلام كهانة، مع تحققه بأنه ليس في شيء من ذلك. [قاله ابن عاشور].

قوله تعالى: {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} [المدثر: ١٧].

**قال الطبري**: يقول: "سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له منها".

**قال الزمخشري**:"سأغشيه عقبة شاقة المصعد: وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعد الذي لا يطاق".

عن مجاهد، وقتادة: "{سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا}، قال: مشقة من العذاب".

=

=

قال قتادة:"أي: عذابا لا راحة منه".

قال ابن زيد:"تعبا من العذاب".

قال ابن عباس: "صعود: صخرة في جهنم، يسحب عليها الكافر على وجهه".

عن أبي سعيد، عن النبيّ ﷺ:" {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا}، قال: «هو جبل في النار من نار، يكلّفون أن يصعدوه، فإذا وضع يده ذابت، فإذا رفعها عادت، فإذا وضع رجله كذلك»".

عن أبي سعيد الخدريّ، عن رسول الله ﷺ قال: "الصَّعُودُ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يُصْعَدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا ثُمَّ يَهْوِي كَذلكَ مِنْهُ أَبَدًا".

أي: سأكلفه وأحمله عذابا شاقا نفسيا وبدنيا، حسيا ومعنويا في الدنيا والآخرة.

قيل: جبل في جهنم يصعد فيه الكفار سبعين خريفا.

وقيل: عذابا لا راحة فيه.

-قال البيضاوي: سأغشيه عقبة شاقة المصعد وهو مثل لما يلقى من الشدائد.

-وقال البغوي: سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيها.

-وقال الشوكاني أي: سأكلفه مشقة من العذاب، وهو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الذي لا يطاق. وقيل المعنى: إنه يكلف أن يصعد جبلا من نار، والإرهاق في كلام العرب: أن يحمل الإنسان الشيء الثقيل.

قوله تعالى: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} [المدثر: ١٨]

**قال الطبري**: يقول تعالى ذكره: إن هذا الذي خلقته وحيدا، فكّر فيما أنزل على عبده محمد ﷺ من القرآن، وقدّر فيما يقول فيه".

**قال ابن كثير**:"أي: إنما أرهقناه صعودا، أي: قربناه من العذاب الشاق؛ لبعده عن الإيمان، لأنه فكر وقدر، أي: تَرَوَّى ماذا يقول في القرآن حين سُئل عن القرآن، ففكر ماذا يختلق من المقال، {وَقَدَّرَ}، أي: تروى".

=

=

عن مجاهد، قوله: "{فَكَّرَ وَقَدَّرَ}، قال: الوليد بن المغيرة يوم دار الندوة".

قال ابن قتيبة: أي:"في كيد محمد ﷺ وما جاء به، فقال: "شاعر" مرة، و "ساحر" مرة، و "كاهن" مرة؛ وأشباه ذلك".

قال مقاتل:"فقدر له السحر".

قال السمعاني:"{إنه فكَّرَ}، أي: تدبر، وقوله: {وَقَدَّرَ}، هو بمعنى: التفكر أيضا".

قال بيان الحق: "فكر في القرآن، فقال: ليس بشعر، وله حلاوة وتأثير في القلوب، فقدر في نفسه أنه سحر".

**قال الفراء**:"فذكروا أَنَّهُ جمع رؤساء أهل مكَّة فَقَالَ: إن الموسم قددنا، وَقَدْ فشا أمر هَذَا الرجل فِي النَّاس، ما أنتم قائلون فِيهِ للناس؟ قَالُوا: نقول: مجنون. قَالَ: إذًا يؤتي فيكلّم، فيُرى عاقلًا صحيحًا، فيكذبوكم، قَالُوا: نقول: شاعر. قَالَ: فهم عرب قَدْ رووا الأشعار وعرفوها، وكلام مُحَمَّد لا يُشْبِهُ الشِّعرَ، قَالُوا: نقول: كاهن، قَالَ: فقد عرفوا الكهنة، وسألوهم، وهم لا يقولون: يكون كذا وكذا إن شاء الله، ومحمد لا يَقُولُ لكم شيئًا إلا قَالَ: إن شاء الله، ثُمَّ قام، فقالوا: صبأ الوليد. يريدون أسلم الوليد. فَقَالَ ابْنُ أخيه أَبُو جهل: أَنَا أكفيكم أمره، فأتاه فَقَالَ: إن قريشًا تزعم أنك قَدْ صبوت وهم يريدون: أن يجمعوا لَكَ مالًا يكفيك مما تريد أن تأكل من فضول أصحاب محمد- صلّى الله عليه- فَقَالَ: ويحك! والله ما يَشبعون، فكيف ألتمس فضولهم مَعَ أني أكثر قريش مالًا؟ ولكني فكرت فِي أمر مُحَمَّد- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ-، وماذا نَرُد عَلَى العرب إِذَا سألتنا، فقد عزمْت عَلَى أن أقول: ساحر. فهذا تفسير قوله: «إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ» القول فى محمد صلّى الله عليه".

أي: إنما أرهقناه صعودا، أي قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان، لأنه:

=

=

(فكر) أي: تروى في نفسه وتأمل ماذا يقول في القرآن وبماذا يصفه.(وقدر) أي: تروى في ذلك.

- **قال القرطبي**: يعني الوليد فكر في شأن النبي والقرآن و "قدر" أي هيأ الكلام في نفسه، والعرب تقول: قدرت الشيء إذا هيأته، وذلك أنه لما نزل (حم* تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) إلى قوله: {إليه المصير} سمعه الوليد يقرؤها فقال: والله لقد سمعت منه كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر، فقالت قريش: صبا الوليد لتصبون قريش كلها.

وكان يقال للوليد ريحانة قريش؛ فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه فمضى إليه حزينا؟ فقال له: ما لي أراك حزينا، فقال له: وما لي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما؛ فغضب الوليد وتكبر، وقال: أنا أحتاج إلى كسر محمد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالي، واللات والعزى ما بي حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمدا مجنون، فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا: لا والله، قال: وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا والله، قال: فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذبا قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط، ولقد رأينا للكهنة أسجاعا وتخالجا فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله، وكان النبي يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس، فقال: ما هو إلا ساحر! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟! فذلك قوله تعالى: {إنه فكر} أي في أمر محمد والقرآن {وقدر} في

=

=

نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما.

قوله تعالى: {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} [المدثر: ١٩]، أي:"فَلُعِن، واستحق بذلك الهلاك، كيف أعدَّ في نفسه هذا الطعن؟".

قال محمد بن شهاب الزُّهريّ: "{فَقُتِلَ} عُذّب".

**قال الطبري**: "يقول تعالى ذكره: إن هذا الذي خلقته وحيدا، فكَّر فيما أنزل على عبده محمد ﷺ من القرآن، وقدّر فيما يقول فيه".

**قال الفراء**:"أي: لُعن، وكذلك: {قاتَلَهُمُ اللهُ}، و {قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ}، ذكِر أنهن اللعن".

**قال الزجاج**:"معنى {قُتِلَ} -ههنا-: لُعِنَ، ومثله: {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ}".

**قال السعدي**:"لأنه قدر أمرا ليس في طوره، وتسور على ما لا يناله هو ولا أمثاله".

قال مقاتل:"يعنى: لعن {كَيْفَ قَدَّرَ} لمحمد- ﷺ- السحر".

قال المراغي:"أي: لعنه الله كيف وصل بقوة خياله وسرعة خاطره إلى رميه الغرض الذي كانت تنتحيه قريش".

أي: لعن أشد اللعن وأهلك كيف قدر ذلك التقدير الذي هو قوله (إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر).

قال الشوكاني (فقتل كيف قدر) أي: لعن وعذب كيف قدر، أي: على أي حال قدر ما قدر من الكلام، كما يقال في الكلام: لأضربنه كيف صنع، أي: على أي حال كانت منه.

صح عن ابن عباس أن قتل بمعنى لعن.

قوله تعالى: {ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} [المدثر: ٢٠]، أي:"ثم لُعِن كذلك".

**قال الطبري**: "يقول: ثم لعن كيف قدّر النازل فيه".

=

=

**قال ابن كثير**:"دعاء عليه".

الآية تأكيد لما قبله، أي: ثم لعن وأهلك.

قوله تعالى: {ثُمَّ نَظَرَ} [المدثر: ٢١]، أي:"ثم تأمَّل فيما قدَّر وهيَّأ من الطعن في القرآن".

**قال الطبري**: "يقول: ثم روّى في ذلك".

**قال ابن كثير**:"أي: أعاد النظرة والتروي".

أي: تروى، أي أعاد النظر والتروي.

قوله تعالى: {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ} [المدثر: ٢٢]، أي:"ثم قطَّب وجهه، واشتدَّ في العبوس والكُلُوح لمَّا ضاقت عليه الحيل، ولم يجد مطعنًا يطعن به في القرآن".

قال ابن قتيبة: "أي: قطب وكره".

**قال ابن كثير**:"{ثُمَّ عَبَسَ}، أي: قبض بين عينيه وقطب، {وَبَسَرَ}، أي: كلح وكره".

**قال الطبري**: "يقول: ثم قبض ما بين عينيه وكلح وجهه؛ ومنه قول توبة بن الحُمَيِّر:

**وَقَدْ رَابَنِي مِنْها صُدُودٌ رأَيتُهُ... وإعْراضُها عَنْ حاجَتِي وبُسُورُها"**.

عن الضحاك:"{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}، يعني: الوليد بن المغيرة، دعاه نبي الله ﷺ إلى الإسلام، فقال: حتى أنظر، ففكر {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ}، فجعل الله له سقر".

قوله تعالى: {ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ} [المدثر: ٢٣]، أي:"ثم رجع معرضًا عن الحق، وتعاظم أن يعترف به".

**قال الطبري**:"يقول تعالى ذكره: ثم ولى عن الإيمان والتصديق بما أنزل الله من كتابه، واستكبر عن الإقرار بالحق".

=

=

**قال ابن كثير**:"أي: صُرف عن الحق، ورجع القهقرى مستكبرا عن الانقياد للقرآن".

قوله تعالى: {فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} [المدثر: ٢٤]، أي:"فقال عن القرآن: ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر يُنْقل عن الأولين".

**قال الطبري**:"قال: يأثره عن غيره".

**قال ابن كثير**:"أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره عمن قبله ويحكيه عنهم".

عن أبي رزين: "{إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ}، قال: يأخذه عن غيره".

قوله تعالى: {إِنْ هَـذَا إِلَّا قَـوْلُ الْبَـشَرِ} [المدثر: ٢٥]، أي:"ما هذا إلا كلام المخلوقين تعلَّمه محمد منهم، ثم ادَّعى أنه من عند الله".

**قال الطبري**:"يقول: ما هو إلا كلام ابن آدم، وما هو بكلام الله".

**قال الزجاج**:"أي: ما هذا إلا قول البشر".

**قال ابن كثير**:"أي: ليس بكلام الله".

**قال السعدي**:"أي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضا كلام البشر الأخيار، بل كلام الفجار منهم والأشرار، من كل كاذب سحار، فتبا له، ما أبعده من الصواب، وأحراه بالخسارة والتباب!! كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير كل إنسان، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه، كلام الرب العظيم، الماجد الكريم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟! أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد، على وصفه كلام المبدئ المعيد، فما حقه إلا العذاب الشديد والنكال".

قال الحسن، في قوله: {إِنْ هَـذا إِلا قَـوْلُ البـشر}، يَعنون: "عَدّاسًا غلام عُتْبَة. كقوله: {ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} [النحل: ١٠٣] هو عَدّاس".

قال: بعد أن فكر وقدر. (إن هذا) أي: القرآن. (إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر) أي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضا كلام البشر الأخيار، بل

=

=

كلام الأشرار منهم والفجار، من كل كاذب سحار، فتبا له، ما أبعده من الصواب، وأحراه بالخسارة والتباب، فما حقه إلا العذاب الشديد.

قوله تعالى: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [المدثر: ٢٦]، أي:"سأدخله جهنم؛ كي يصلى حرَّها ويحترق بنارها".

**قال الطبري:**"سأورده بابا من أبواب جهنم اسمه سقر، ولم يُجرَّ سقر لأنه اسم من أسماء جهنم".

**قال ابن كثير:**"أي: سأغمره فيها من جميع جهاته".

قال مقاتل:"فجعل الله له سقر وهو الباب الخامس من جهنم".

أي: سأعذبه فيها وأغمره فيها من جميع جهاته.

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ} [المدثر: ٢٧]، أي:"وما أعلمك أيُّ شيء جهنم؟".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: وأيّ شيء أدراك يا محمد، أيّ شيء سقر".

**قال الزجاج:**"وما أعلمك أي شيء سقر".

**قال ابن كثير:**"وهذا تهويل لأمرها وتفخيم".

وهذا تهويل لأمرها وتفخيم.

قوله تعالى: {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ} [المدثر: ٢٨]، أي:"لا تبقي لحمًا ولا تترك عظمًا إلا أحرقته".

**قال الطبري:** يقول: "هي نار {لا تُبْقي} من فيها حيا، {وَلا تَذَرُ} من فيها ميتا، ولكنها تحرقهم كلما جدّد خلقهم".

**قال ابن كثير:**"أي: تأكل لحومهم وعروقهم وعَصَبهم وجلودهم، ثم تبدل غير ذلك، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون، قاله ابن بريدة وأبو سنان وغيرهما".

عن مجاهد، قوله: "{لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ}، قال: لا تميت ولا تحيي".

=

=

قال الضحاك:"تأكله كلّه، فإذا تَبدّى خَلْقه لم تَذره حتى تقوم عليه".

**قال السدي:**"لا تُبقي لهم لحمًا، ولا تَذر لهم عظمًا".

عن مَزِيدة بن جابر الهجري، قوله: "{لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ}، قال: لا تُبقي منهم شيئًا أن تأكلهم، فإذا خُلِقوا لها لا تَذرهم حتى تأخذهم فتَأكلهم".

أي: لا تبقي لحما ولا تذر عصبا، بل تأتي على الكل (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) لأن أهل النار لا يموتون فيها بل في عذاب مقيم لكن يجدد الجسد ليعذب دائما.

- قال الزمخشري: أي لا تبقي شيئا يلقى فيها إلا أهلكته، وإذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد، أو لا تبقي على شيء، ولا تدعه من الهلاك، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة.

-قال الشوكاني: قال السدي: لا تبقي لهم لحما ولا تذر لهم عظما، وقال عطاء: لا تبقي من فيها حيا ولا تذره ميتا.

وقيل: هما لفظان بمعنى واحد، كررا للتأكيد كقولك: صد عني وأعرض عني.

قوله تعالى: {لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ} [المدثر: ٢٩]، أي:"مغيِّرة للبشرة، مسوِّدة للجلود، محرقة لها".

قال ابن قتيبة: "أي: مغيرة لهم. يقال: لاحته الشمس؛ إذا غيرته".

**قال الطبري:** "يعني جلّ ثناؤه: مغيرة لبشر أهلها".

**قال الزجاج:**"البشر: جمع: بَشَرةٍ، أي: تحرق الجلْدَ حَتَّى يَسْود".

عن مجاهد: "{لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ}، قال: الجلد".

قال قتادة:"أي: حرّاقة للجلد".

قال الضحاك:"يعني: بشر الإنسان، يقول: تحرق بشره".

=

=

قال ابن عباس:"يقول: تحرق بشرة الإنسان". وفي رواية عن ابن عباس:"معرّضة".

قال ابن زيد:"أي تلوَّح أجسادهم عليها".

قال ابن زيد:"تغير البشر، تحرق البشر؛ يقال: قد لاحه استقباله السماء، ثم قال: النار تغير ألوانهم".

قال أبو رزين:"تلفح الجلد لفحة، فتدعه أشدّ سوادا من الليل".

قال أبو رزين:"غيرت جلودهم فاسودّت".

قال عطاء الخراساني:"بَشرة الإنسان تُلَوَّح على النار".

قال زيد بن أسلم:"أي: تُلَوَّح أجسادهم عليها".

قال الحسن:"يعني: تَلوح لهم جهنم حتى يَروها عيانًا".

اختلف العلماء في المراد ب (لواحة للبشر).

قيل: أي تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمها وهولها.

كقوله تعالى: (وبرزت الجحيم لمن يرى) قال الحسن: تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام حتى يرونها عيانا ورجحه القرطبي في تفسيره وكذلك الرازي. (وعلى هذا فالبشر هنا المراد الناس).

وقيل: لواحة للبشر، أي: تحرق الجلد وتغيره وتسوده، فالبشر جميع بشرة وهي جلدة الإنسان الظاهرة، فعلى هذا التفسير معنى (لواحة) تغير الجلد وتحرقه. وهذا قول الجمهور.

-قال أبو حيان: (لواحة للبشر) قال ابن عباس ومجاهد والجمهور، معناه مغيرة للبشرات، محرقة للجلود، مسودة لها، والبشر جمع بشرة، وتقول العرب لا حت النار الشيء إذا أحرقته وسودته.

-قال الشوكاني: أي: ظهر، والمعنى: أنها تظهر للبشر.

=

=

قال الحسن: تلوح لهم جهنم حتى يرونها عيانا كقوله (وبرزت الجحيم لمن يرى).

وقيل: معنى (لواحة للبشر) أي: مغيرة لهم ومسودة.

قال مجاهد: والعرب تقول: لاحه الحر والبرد والسقم والحزن: إذا غيره، وهذا أرجح من الأول، وإليه ذهب جمهور المفسرين.

-قال الآلوسي (لواحة للبشر) قال ابن عباس ومجاهد وأبو رزين والجمهور أي مغيرة للبشرات مسودة للجلود.

والبشر جمع بشرة وهي ظاهر الجلد.

قوله تعالى: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} [المدثر: ٣٠]، أي:"يلي أمرها ويتسلط على أهلها بالعذاب تسعة عشر ملكًا من الزبانية الأشداء".

**قال الطبري:**"يقول تعالى ذكره: على سقر تسعة عشر من الخزنة".

**قال ابن كثير:**"أي: من مقدمي الزبانية، عظيم خلقهم، غليظ خلقهم".

عن ابن زيد:"{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}، قال: خزنتها تسعة عشر".

قال عمرو بن دينار: "{عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ} إنّ واحدًا منهم يَدفع بالدّفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومُضر".

قال قتادة:"قال أبو جهل: يخبركم محمد أن خزَنة النار تسعة عشر، وأنتم الدَّهم ليجتمع كلّ عشرة على واحد".

عن قتادة: "{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}، ذُكر لنا أن أبا جهل حين أُنزلت هذه الآية قال: يا معشر قريش، ما يستطيع كلّ عشرة منكم أن يغلبوا واحدا من خزَنة النار وأنتم الدَّهم؟ فصاحبكم يحدثكم أن عليها تسعة عشر".

أي: على سقر ملائكة يقال لهم الخزنة عدتهم تسعة عشر ملكا، كما قال تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون).

=

=

-قال البغوي: (عليها تسعة عشر) أي: على النار تسعة عشر من الملائكة، وهم خزنتها.

-قال الشوكاني: قال المفسرون: يقول على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها. وقيل: تسعة عشر صنفا من أصناف الملائكة. وقيل: تسعة عشر صفا من صفوفهم. وقيل: تسعة عشر نقيبا مع كل نقيب جماعة من الملائكة، والأول أولى.

- ذهب بعض العلماء إلى أن هؤلاء التسعة عشر، هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها؛ كما قال الله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) واختار هذا القرطبي.

وقيل: تسعة عشر صنفا من الملائكة، والصحيح الأول وهو ظاهر القرآن والله على كل شيء قدير وهو قول الأكثر.

قال ابن جزي: (عليها تسعة عشر) يعني الزبانية خزنة جهنم، فقيل: هم تسعة عشرة ملكا، وقيل: تسعة عشر صفا من الملائكة، والأول أشهر.

(تنبيه): القرآن الكريم كلام الله تعالى... وأن إضافته إليه، إضافة حقيقية، من باب إضافة الكلام إلى قائله، فالله تعالى تكلم به، وهو الذي أنزله على رسوله، ليكون للعالمين نذيرا وهذه الحقيقة قد صرح بها القرآن الكريم، في مثل قوله تعالى: وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ [النمل: ٦]، وقوله تعالى إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا [يوسف: ٢] وصرح بها صاحب الرسالة، ومبلغ القرآن الكريم محمد ﷺ في مثل قوله: ((ما من الأنبياء نبي، إلا أعطي من الآيات، ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا، أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)). وهذا القدر من الأدلة الشرعية كاف في حق من آمن بالله تعالى ربا، وبمحمد بن عبد الله رسولا، وبالإسلام دينا، أن يعرف مصدر القرآن

=

=

الكريم، وأنه من الله تعالى، إذ الإيمان الصحيح يقتضي أن يصدق المؤمن الرسول ﷺ في كل ما يخبر به، وقد أخبر أن هذا الكتاب من عند الله تعالى.

أما غير المؤمن من الناس، ممن يشك في نسبة هذا القرآن إلى الله تعالى، وكونه من كلامه، فمثله: إما أن يضيف القرآن إلى النبي ﷺ، أو إلى بشر يعلمه القرآن، أو إلى جن يدرسه إياه.

أما الأول: وهو كون القرآن من عند محمد ﷺ، وذلك لفرط ذكائه، ونفاذ بصيرته، وشفافية روحه، مما يجعله ينشئ بزعمهم مثل هذا الكلام البديع الرصين، فترده أدلة كثيرة، هذا طرف منها:

١ - أن هذا القرآن الذي أعجز البلغاء والفصحاء، قد قال صاحبه: إنه ليس من عندي، وإنما هو من عند غيري، فكيف ينسب له بعد ذلك؟ إذ أي مصلحة تكون لعاقل يرجو لنفسه الزعامة، ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات، لتأييد دعواه؛ ثم تجده بعد ذلك ينسب بضاعته إلى غيره، وينسلخ عنها انسلاخا، على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها، فيزداد بها رفعة، وعظمة شأن.

٢ - أن الرجل مهما بلغ ذكاؤه، وصفت سريرته، أنى له أن يأتي بذكر لأحوال الأمم الغابرة، ومسائل العقائد والشرائع، وما في الجنة والنار من النعيم والعذاب، ثم يذكر لنا بعض ما سيقع في قابل الأيام والدهور، كل ذلك على نحو من التفصيل والتدقيق، مع تمام السبك، وقوة الأسلوب، ومن غير تضاد ولا اختلاف. يقول الباقلاني (رَحِمَهُ ٱللَّهُ): (ما تضمنه القرآن من قصص الأولين، وأخبار الماضين التي لا يعرفها إلا من أكثر ملاقاة الأمم، ودراسة الكتب، مع العلم بأن النبي ﷺ لم يكن يتلو كتابا، ولا يخالط أهل السير).

٣ - قال تعالى: وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ

=

=

النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [البقرة: ٢٣- ٢٤] فكيف يجرؤ بشر على هذا التحدي العظيم؛ وقد علم ما عليه قومه من البيان والفصاحة؛ بل تحداهم: حاضرا ومستقبلا! لعمر الله، إنها لمخاطرة لا يقدم عليها عاقل يتصور ما يقول، فضلا عن نبي كريم يرجو لرسالته أن تنتصر، ولدعوته أن تنتشر.

٤- التناسب في جميع ما تضمنه القرآن من الأخبار، والعقائد، والأحكام من غير اختلاف ولا تعارض ولا تضاد، الأمر الذي لا ينتظر من بشر، أن يسلم كلامه من الاختلال والاختلاف، قال تعالى: وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [النساء: ٨٢].

٥- الاتفاق التام بين إشارات القرآن الكريم إلى بعض العلوم الكونية وبين معطيات العلم الحديث؛ الأمر الذي أثار دهشة كثير من الباحثين الغربيين المعاصرين، حيث تعرض القرآن الكريم إلى بعض العلوم الكونية وبين معطيات العلم الحديث؛ الأمر الذي أثار دهشة كثير من الباحثين الغربيين المعاصرين، حيث تعرض القرآن الكريم لقضايا علمية دقيقة- نحو ما يتعلق بعلم الأجنة- لم تكتشف وسائل معرفتها إلا بعد عصر نزول القرآن بعدة قرون.

وأما الثاني: وهو أن يكون النبي ﷺ قد تعلم القرآن من غيره، فهذا الغير إما أن يكون إنسيا أو جنيا، والإنسي إما أن يكون من بني قومه أو من أهل الكتاب:

أما كون النبي ﷺ قد تعلم القرآن عند بعض قومه، فهذا فاسد من وجهين:

١- أن النبي ﷺ نشأ أميا، بين ناس أميين، لا يعرفون غير علم البيان، والفصاحة، وما يتصل بهما، وكانوا منعزلين بشركهم عن أهل الكتاب، قال تعالى: تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ [هود: ٤٩] ففي الآية إشارة واضحة إلى أن هذا النوع من العلم

=

=

ما كان عند العرب، وليس لهم به دراية.

٢- لم يدع واحد من العرب- مع شدة تكذيبهم- نسبة هذا القرآن إلى نفسه، ثم إن الله تعالى قد تحدى به بلغاءهم، وفصحاءهم على أن يأتوا بسورة من مثله، فلم يتعرض واحد منهم لذلك، اعترافا بالحق، وربئا بالنفس عن تعريضها للافتضاح؛ وهم أهل القدرة في فنون الكلام نظما ونثرا، وترغيبا وزجرا.

أما كون المعلم من أهل الكتاب، فهذا يرده ما يلي:

١- لم يذكر واحد من المصادر التاريخية جلوس النبي ﷺ بين يدي أحبار اليهود، أو رهبان النصارى، بغية التعلم والمدارسة. أما مقابلته بحيرا الراهب، فقد كانت قبل النبوة بفترة من الزمن، وكانت وجيزة في وقتها؛ لا يعقل أن يتلقى فيها كل هذا العلم، ثم إنها كانت بحضور عمه أبي طالب وغيره، ولو وجدوا في تلك المقابلة ما يبطل دعوى الرسول ﷺ النبوة لأفشوه إلى قريش، بل إن بحيرا لما لاحت له تباشير النبوة، همس بها على أبي طالب، حاثا له على المحافظة على ابن أخيه من يهود. وأما مقابلته ﷺ ورقة بن نوفل- ابن عم زوجه خديجة رضي الله عنها -، وذلك بعد النبوة، فكانت لأجل اطمئنان زوجه عليه، وورقة كان شيخا كبيرا قد عمي، ولم يلبث أن توفي، وذلك قبل فترة الوحي؛ مما يحيل دعوى تعلم الرسول ﷺ منه شيئا.

٢- أن الله تعالى رد على الذين قالوا: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ [النحل: ١٠٣] ذلك حين زعم المشركون في مكة أن النبي ﷺ كان يجلس إلى بعض غلمان النصارى يتعلم منهم، فرد الله عليهم بقوله: لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ [النحل: ١٠٣].

٣- أن القرآن الكريم قد شنع بأهل الكتاب ودحض شبهاتهم وأغاليطهم، ثم دعاهم إلى الإيمان بالرسول الكريم، والاستجابة للذكر الحكيم؛ قال تعالى:

=

=

وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ [التوبة: ٣٠] وقال تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [آل عمران: ٦٤] وقال تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ [المائدة: ٥٩]، فكيف يعقل بعد ذلك أن يكون اليهود والنصارى مصدر القرآن ومنبعه، وهذه حالهم من الإعراض عنه والكفر به، وبمن أنزل عليه؟

أما أن يكون المعلم جنيا، فحال النبي ﷺ بين قومه، ولبوثه فيهم عمرا طويلا، وهو أحسنهم خلقا؛ وأعظمهم عقلا؛ وأثبتهم نفسا؛ وأرسخهم فهما؛ كل ذلك وغيره يحيل أن يكون ﷺ ملاذ الشياطين ومحل وساوسهم، بل الشياطين لأعجز من أن تأتي بهذا الكلام... أما إضافة قريش القرآن إلى السحر والجن، فهذا حينما أعيتهم الحجة، وعجزوا عن الإتيان بمثله، على سبيل الجزم والإيقان.

**مسألة**: القرآن (ليس بمخلوق) كما يقول الزنادقة من الحلولية والاتحادية والجهمية والمعتزلة وغيرهم تعالى الله عن أن يكون شيء من صفاته مخلوقًا قال الله تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا [الشورى:٥٢] وقال الله تعالى: أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْر [الأعراف:٥٤] وقال الله تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون [يس:٨٢] فأخبر تعالى: أن الخلق غير الأمر وأن القرآن من أمره لا من خلقه وقال: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ [النحل:٤٠] فـ كنْ من كلامه الذي هو صفته ليس بمخلوق والشيء المراد المقول له (كن) مخلوق وقال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ

=

تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون [آل عمران:٥٩] فعيسى وآدم مخلوقان بـ كن و (كن) قول الله صفة من صفاته وليس الشيء المخلوق هو كن ولكنه كان بقول الله له كن. وقد انعقد إجماع سلف الأمة الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون على تكفير من قال بخلق القرآن وذلك لأنه لا يخلو قوله من إحدى ثلاث: إما أن يقول إنه خلقه في ذاته أو في غيره أو منفصلا مستقلا وكل الثلاث كفر صريح، لأنه إن قال خلقه في ذاته فقد جعل ذاته محلا للمخلوقات، وإن قال إنه خلقه في غيره فهو كلام ذلك الغير فيكون القرآن على هذا كلام تالٍ له وهذا قول الوليد بن المغيرة فيما حكى الله عنه حيث قال الله تعالى: إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ [المدثر:١٨- ٢٩] الآيات. وإن قال إنه خلقه منفصلا مستقلا فهذا جحود لوجوده مطلقا إذ لا يعقل ولا يتصور كلام يقوم بدون متكلم كما لا يعقل سمع بدون سميع ولا بصر بدون بصير ولا علم بدون عالم ولا إرادة بدون مريد ولا حياة بدون حي إلى غير ذلك تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا، فهذه الثلاث لا خروج لزنديق منها ولا جواب له عنها فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

**مسألة**: وأول ما اشتهر القول بخلق القرآن في آخر عصر التابعين لما ظهر جهم بن صفوان شقيق إبليس لعنهما الله وكان ملحدًا عنيدًا وزنديقًا مبتغيًا غير سبيل المؤمنين لم يثبت أن في السماء ربا ولا يصف الله تعالى بشيء مما وصف به نفسه وينتهي قوله إلى جحود الخالق ﷻ. ترك الصلاة أربعين يوما يزعم يرتاد دينا ولما ناظره بعض السمنية في معبوده قال قبحه الله: هو هذا الهواء في كل

=

مكان وافتتح مرة سورة طه فلما أتى على هذه الآية الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى [طه:٥] قال: لو وجدت السبيل إلى حكها لحككتها، ثم قرأ حتى أتى آية أخرى فقال: ما كان أظرف محمدا حين قالها، ثم افتتح سورة القصص فلما أتى على ذكر موسى جمع يديه ورجليه ثم رفع المصحف ثم قال: أي شيء هذا ذكره ههنا فلم يتم ذكره، وذكره ههنا فلم يتم ذكره. وقد روى عنه غير هذا من الكفريات وهو أذل وأحقر من أن نشتغل بترجمته. وقد يسر الله تعالى ذبحه على يد سالم بن أحوز بأصبهان وقيل: بمرو، وهو يومئذ نائبها رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خيرا. وقد تلقى هذا القول عن الجعد بن درهم لكنه يشتهر في أيام الجعد كما اشتهر عن الجهم، فإن الجعد لما أظهر القول بخلق القرآن تطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة فلقيه الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه ولم يكن له كثير أتباع غيره، ثم يسر الله تعالى قتل الجعد على يد خالد بن عبدالله القسري الأمير، قتله يوم عيد الأضحى بالكوفة، وذلك لأن خالدا خطب الناس فقال في خطبته تلك: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضحٍ بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا. ثم نزل فذبحه في أصل المنبر، روى ذلك البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد)، وهو مشهور في كتب التواريخ وذلك سنة أربع وعشرين ومائة. وقد أخذ الجعد بدعته هذه من بيان بن سمعان، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ وأنزل الله تعالى في ذلك سورة المعوذتين. ثم تقلد هذا المذهب المخذول عن الجهم بن غياث بن أبي كريمة، المريسي المتكلم، شيخ المعتزلة وأحد من أضل المأمون وجدد القول بخلق القرآن ويقال أن أباه كان يهوديا صباغا بالكوفة وروي عنه أقوال شنيعة في الدين

=

=

من التجهم وغيره مات سنة ثماني عشرة ومائتان. ثم تقلد عن بشر ذلك المذهب الملعون قاضي المحنة أحمد بن أبي داود، وأعلن مذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بالقول بخلق القرآن وعلى أن الله لا يرى في الآخرة وكان بسببه ما كان على أهل الحديث والسنة من الحبس والضرب والقتل وغير ذلك، وقد ابتلاه الله تعالى: بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى أهلكه الله تعالى: سنة أربعين ومائتين.

**مسألة**: ما قاله أئمة السنة في القرآن، وحكمهم على من قال بخلق القرآن.

قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: من قال القرآن مخلوق فهو عندنا كافر لأن القرآن من علم الله وفيه أسماء الله، وقال: إذا قال الرجل العلم مخلوق فهو كافر لأنه يزعم أنه لم يكن لله علم حتى خلقه وقال رحمه الله تعالى: من قال القرآن مخلوق فهو عندنا كافر لأن القرآن من علم الله قال الله تعالى: فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ [آل عمران:٦١] ، وقال تعالى: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَائَهُمْ بَعْدَ الذِّي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَالَكَ مِنَ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِير [البقرة:١٢٠] وقال الله تعالى: وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ [البقرة:١٤٥] وقال الله تعالى: أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْر [الأعراف:٥٤] وقال الله تعالى: وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ [هود:١٧] قال أحمد: قال سعيد بن جبير: والأحزاب الملل كلها فَالنَّارُ مَوْعِدُه [هود:١٧] وقال الله تعالى: وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إليه أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ [الرعد:٣٦] وقال الله تعالى: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن

=

=

وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ [الرعد:٣٧] وقال رحمه الله تعالى: من قال ذاك القول لا يصلى خلفه الجمعة ولا غيرها فإن صلي خلفه أعاد الصلاة، يعني: من قال القرآن مخلوق وقال رحمه الله تعالى: إذا كان القاضي جهميا فلا تشهد عنده وقال إبراهيم بن طهمان: الجهمية كفار والقدرية كفار وقال سليمان التيمي رحمه الله تعالى: ليس قوم أشد بُغضا للإسلام من الجهمية والقدرية فأما الجهمية فقد بارزوا الله وأما القدرية فإنهم قالوا في الله. وقال سلام بن أبي مطيع الجهمية كفار لا يصلى خلفهم وقال خارجة: الجهمية كفار بلغوا نساءهم إنهن طوالق وأنهن لا يحللن لأزواجهن لا تعودوا مرضاهم ولا تشهدوا جنائزهم ثم تلا: طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى [طه:١ - ٣] إلى قوله: الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى [طه:٥] وقال مالك رحمه الله تعالى: من قال القرآن مخلوق يوجع ضربا ويحبس حتى يتوب. وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: من زعم أن قول الله: يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [النمل:٩] مخلوق فهو كافر زنديق حلال دمه.

وقال أيضا: من قال إنّ قُلْ هُوَ الله أَحَدْ الله الصَّمَد [الإخلاص:١ - ٢] مخلوق فهو كافر وقال أبو يوسف القاضي: صنفان ما على وجه الأرض شر منهما الجهمية والمقاتلية. قلت: وأظنه يعني بالمقاتلية: أتباع مقاتل بن سليمان البلخي فإنه رماه الإمام أبو حنيفة بالتشبيه فإنه قال أفرط جهم في نفي التشبيه حتى قال إنه تعالى ليس بشيء وأفرط مقاتل في معنى الإثبات حتى جعله مثل خلقه وتابع أبا حنيفة على ذلك جماعة من أئمة الجرح والتعديل من أقرانه كأبي يوسف وغيره فمن بعدهم حتى قال ابن حبان: كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم وكان يشبه الرب بالمخلوق وكذبه وكيع وغيره والله أعلم بحاله. قال وكيع: مات مقاتل بن سليمان سنة خمسين ومائة. اهـ. وقال عبدالله

=

=

بن المبارك: الجهمية كفار. وقال: ليس تعبد الجهمية شيئا وقال من قال القرآن مخلوق فهو زنديق وقال: إنا نستجير أن نحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستجير أن نحكي كلام الجهمية وقال سفيان بن عيينة: القرآن كلام الله من قال مخلوق فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر وقال: من قال القرآن مخلوق يحتاج أن يصلب على ذباب يعني: جبل وقال عبدالله بن إدريس رحمه الله تعالى: وقد سئل ما تقول في الجهمية يصلى خلفهم؟ فقال: أمسلمون هؤلاء؟ أمسلمون هؤلاء؟ لا ولا كرامة لا يصلى خلفهم وقال له رجل: يا أبا محمد إن قبلنا ناسًا يقولون: القرآن مخلوق، فقال: من اليهود؟ قال: لا، قال: فمن النصارى؟ قال: لا، قال: فمن المجوس؟ قال: لا، قال: فمن؟ قال: من الموحدين؟ قال: كذبوا ليس هؤلاء بموحدين، هؤلاء زنادقة هؤلاء زنادقة. وقرأ ابن إدريس بسم الله الرحمن الرحيم فقال الله مخلوق؟ والرحمن مخلوق؟ والرحيم مخلوق؟ هؤلاء زنادقة وسئل عن قوم يقولون: القرآن مخلوق؛ فاستشنع ذلك وقال سبحان الله شيء منه مخلوق؟ وقال وكيع: فإني أستتيبه فإن تاب وإلا قتلته وقال: من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أنه محدث ومن زعم أنه محدث فقد كفر. وقيل له: إن فلانا يقول إن القرآن محدث فقال: سبحان الله هذا كفر. قال السويدي: وسألت وكيعا عن الصلاة خلف الجهمية فقال: لا تصل خلفهم وقال: من زعم أن القرآن مخلوق؛ فقد زعم أنه محدث يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

وقال زهير بن حرب: اختصمت أنا ومثنى فقال مثنى: القرآن مخلوق، وقلت أنا: كلام الله، فقال وكيع وأنا أسمع: هذا كفر، وقال: من قال: القرآن مخلوق هذا كفر؛ فقال المثنى: يا أبا سفيان قال الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء:٥] فإيش هذا؟ فقال وكيع: من قال القرآن مخلوق هذا كفر

=

=

وقال: من قال: القرآن مخلوق؛ فهو كافر وقال رحمه الله تعالى: القرآن كلام الله أنزله جبريل على رسول الله ﷺ كل صاحب هوى يعرف الله ويعرف من يعبد إلا الجهمية لا يدرون من يعبدون بشر المريسي وأصحابه وقيل لوكيع في ذبائح الجهمية قال: لا تؤكل هم مرتدون وقال: من قال: إن كلامه ليس منه فقد كفر، وقال: من قال: إن منه شيئًا مخلوقًا فقد كفر. وقال فطر بن حماد سألت معتمر بن سليمان فقلت: يا أبا محمد إمام لقوم يقول القرآن مخلوق أصلي خلفه؟ فقال: ينبغي أن تضرب عنقه. قال فطر: وسألت حماد بن زيد فقلت: يا أبا إسماعيل إمام لنا يقول: القرآن مخلوق، أصلي خلفه؟ فقال: صل خلف مسلم أحبّ إليّ. وسألت يزيد بن زريع فقلت: يا أبا معاوية إمام يقول القرآن مخلوق أصلي خلفه؟ قال: لا، ولا كرامة وقال عبدالرحمن بن مهدي: من زعم أن الله لم يكلم موسى يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه وقال مرة: لا أرى أن تستتيب الجهمية وقال رحمه الله تعالى: لو كان لي من الأمر شيء لقمت على الجسر فلا يمر بي أحد من الجهمية إلا سألته عن القرآن فإن قال: مخلوق ضربت رأسه ورميت به في الماء وقال أبو بكر بن الأسود: لو أن رجلا جهميا مات وأنا أرثه ما استحللت أن آخذ من ميراثه وقال أبو يوسف القاضي جيئوني بشاهدين يشهدان على المريسي والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط يقول في القرآن يعني: مخلوق وقال يزيد بن هارون وذكر الجهمية فقال: هم والله زنادقة عليهم لعنة الله وقال رحمه الله تعالى: والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة من قال القرآن مخلوق فهو زنديق وسئل عن الصلاة خلفهم قال: لا. وقال معاذ بن معاذ من قال القرآن مخلوق فهو كافر وقال شبابة بن سوار: اجتمع رأيي ورأي أبي النضر هاشم بن قاسم وجماعة من الفقهاء على أن المريسي كافر جاحد نرى أن يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه وكان أبو توبة الحلبي ونعيم بن حماد وإبراهيم بن مهدي

=

=

يكفرون الجهمية وقال بشر بن الحارث: لا تجالسوهم ولا تكلموهم وإن مرضوا لا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم كيف يرجعون وأنتم تفعلون بهم هذا؟!.

قال أبو الأسود النضر بن عبد الجبار: القرآن كلام الله ومن زعم أنه مخلوق فهو كافر هذا كلام الزنادقة وقال عباد بن عوام: كلمت بشر المريسي وأصحابه فرأيت آخر كلامهم ينتهي أن يقولوا: ليس في السماء شيء وقال عمرو بن الربيع بن طارق: القرآن كلام الله من زعم أنه مخلوق فهو كافر وقال هارون أمير المؤمنين: بلغني أن بشرًا المريسي يزعم أن القرآن مخلوق؛ فهو يعبد صنما وقال يحيى بن معين رحمه الله تعالى: من قال القرآن مخلوق فهو كافر وقال رجل لهيثم: إن فلانا يقول القرآن مخلوق؛ فقال: اذهب إليه فاقرأ عليه أول الحديد وآخر الحشر فإن زعم أنهما مخلوقتان فاضرب عنقه وقال أبو هشام الغساني مثله وقال أبو عبيد: من قال القرآن مخلوق فقد افترى على الله وقال عليه ما لم تقله اليهود والنصارى وقال إسحاق بن البهلول لأنس بن عياض أبي ضمرة: أصلي خلف الجهمية قال: لا، وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ [آل عمران:٨٥] وسئل عيسى بن يونس رحمه الله تعالى: عمن يقول القرآن مخلوق؟ فقال: كافر أو كفر؛ فقيل له: تكفرهم بهذه الكلمة. قال: إن هذا أيسر أو أحسن ما يظهرون وكان يحيى بن معين رحمه الله تعالى: يعيد صلاة الجمعة مذ أظهر عبدالله بن هارون المأمون ما أظهر يعني القول بخلق القرآن. وقال الحسين بن إبراهيم بن أشكاب وعاصم بن علي بن عاصم وهارون الفروي وعبد الوهاب الوراق وسفيان بن وكيع القرآن كلام الله وليس بمخلوق. وسئل جعفر بن محمد رحمه الله تعالى: عن القرآن فقال: ليس بخالق ولا بمخلوق ولكنه كلام الله. وروى عن أبيه علي بن الحسين أنه قال في القرآن: ليس

=

=

بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله. وقال الزهري سألت علي بن الحسين عن القرآن؟ فقال: كتاب الله وكلامه وعن إبراهيم بن سعد وسعيد بن عبدالرحمن الجمحي ووهب بن جرير وأبي النضر هاشم بن القاسم وسليمان بن حرب قالوا: القرآن كلام الله ليس بمخلوق. وقال سفيان بن عيينة: لا نحسن غير هذا القرآن كلام الله فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ الله [التوبة:٦] يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ [الفتح:١٥] وقال الإمام مالك بن أنس وجماعة من العلماء بالمدينة وذكروا القرآن فقالوا: كلام الله وهو منه وليس من الله شيء مخلوق.

وقال حماد بن زيد رحمه الله تعالى: القرآن كلام الله أنزله جبريل من عند رب العالمين وقال أبو بكر بن عياش: من زعم أن القرآن مخلوق فقد افترى على الله وقال وكيع: القرآن من الله، منه خرج وإليه يعود وقال يحيى بن سعيد: كيف يصنعون بقل هو الله أحد كيف يصنعون بهذه الآية إِنِّي أَنَا اللهُ [القصص:٣٠] يكون مخلوقا؟ وقال وهب بن جرير ومحمد بن يزيد الواسطي وابن أبي إدريس وأبو بكر بن أبي شيبة وأخوه عثمان بن أبي شيبة وأبو عمر الشيباني ويحيى بن أيوب وأبو الوليد وحجاج الأنماطي ويحيى بن معين وأبو خيثمة وإسحاق بن أبي إسرائيل وأبو معمر: القرآن كلام الله ليس بمخلوق وقال أبو عمرو الشيباني لإسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة وقال: القرآن مخلوق فقال الشيباني: خلقه قبل أن يتكلم به أو بعدما تكلم به؟ قال: فسكت وقال حسن بن موسى الأشيب: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين [الفاتحة:٥] فقال حسن مخلوق هذا؟ وقال محمد بن سليمان: لو أن القرآن كلام الله غير مخلوق ما رأيت أحدًا يقول القرآن مخلوق أعوذ بالله.اهـ.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: في وصيته: القرآن كلام الله غير مخلوق. وقال عفان بن مسلم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ

=

=

[الفتح:١٥] الله لاَ إِلَـهَ إِلا هُـوَ الحَـيُّ القَيُّـوم [البقـرة:٢٥٥] قُـلْ هُـوَ الله أَحُـد [الإخلاص:١] أمخلوق هذا؟ أدركت شعبة وحماد بن سلمة وأصحاب الحسن يقولون: القرآن كلام الله ليس مخلوقا وقال يحيى بن يحيى: من زعم أن من القرآن من أوله إلى آخره آية مخلوقة فهو كافر. وقال هشام بن عبيد الله القرآن كلام الله غير مخلوق؛ فقال له رجل أليس الله تعالى: يقول: مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ [الأنبياء:٢] فقال: محدث إلينا وليس عند الله محدث. وقال إسحاق بن إبراهيم الحنظلي رحمه الله تعالى: ليس بين أهل العلم خلاف أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فكيف يكون شيء خرج من الرب ﷻ مخلوقا؟ وقال أبو جعفر النفيلي: من قال: إن القرآن مخلوق؛ فهو كافر. فقيل: يا أبا جعفر الكفر كفران كفر النعمة وكفر بالرب ﷻ؟ قال: لا بل كفر بالرب ﷻ ما تقول فيمن يقول: الله أَحَد الله الصَّمَد [الإخلاص:١] مخلوق أليس كافر هو؟ وقال عبدالله بن محمد العيشي: يستحيل في صفة الحكيم أن يخلق كلاما يدعي الربوبية يعني: قوله تعالى: إِنَّنِي أَنَا الله [طه:١٤] وقوله: أَنَا رَبُّك [طه:١٢]. قلت: والمعتزلة يقولون إن كلام الله لموسى خلقه في الشجرة فعلى هذا تكون الشجرة هي القائلة: إِنَّنِي أَنَا الله لاَ إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي [طه:١٤] قبحهم الله في الدنيا والآخرة. وقال محمد بن يحيى الذهلي: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع صفاته وحيث تصرف وأما كلام البخاري رحمه الله تعالى ومتانته في هذه المسألة فأشهر من أن يحتاج إلى تعريف وله في ذلك كتاب (خلق أفعال العباد) وقد بوّب في (صحيحه) على جملة وافية تدل على غزارة علمه وجلالة شأنه. وقال أبو حاتم وأبو زرعة: أدركنا العلماء في جميع الأمصار فكان من مذهبهم أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته والقدر خيره وشره من الله تعالى، وأن الله

=

=

تعالى على عرشه بائن من خلقه كما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله بلا كيف أحاط بكل شيء علمًا ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وقال محمد بن أسلم الطوسي: القرآن كلام الله غير مخلوق أينما تلي وحيثما كتب لا يتغير ولا يتحول ولا يتبدل.

وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة رحمه الله تعالى: في كتاب (التوحيد) بعد تبويبه على تكليم الله موسى عليه الصلاة والسلام: وتكليم الله بالوحي وصفة نزول الوحي وتكليم الله عباده يوم القيامة وتقرير البحث في ذلك، ثم قال: باب ذكر البيان في كتاب ربنا المنزل على نبيه المصطفى ﷺ ومن سنة نبينا محمد ﷺ على الفرق بين كلام الله ﷻ الذي به يكون خلقه وبين خلقه الذي يكون بكلامه وقوله والدليل على نبذ قول الجهمية الذين يزعمون أن كلام الله تعالى: مخلوق جل ربنا وعز عن ذلك. قال الله تعالى: أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [الأعراف: ٥٤] ففرق الله تعالى: بين الخلق والأمر الذي به يخلق الخلق بواو الاستئناف وأعلمنا الله جل وعلا في محكم تنزيله أنه يخلق الخلق بكلامه وقوله: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ [النحل: ٤٠] فأعلمنا جل وعلا أنه يكون كل مكون من خلقه بقوله كن فيكون وقوله كن هو كلامه الذي به يكون الخلق وكلامه ﷻ الذي به يكون الخلق غير الخلق الذي يكون مكونا بكلامه فافهم ولا تغلط ولا تغالط ومن عقل عن الله خطابه علم أن الله سبحانه لما أعلم عباده المؤمنين أنه يكون الشيء بقوله: كن أن القول الذي هو كن غير المكون بكن المقول له كن وعقل عن الله أن قوله كن لو كان خلقا على ما زعمت الجهمية المفترية على الله أنه إنما يخلق الخلق ويكونه بخلق لو كان قوله كن خلقا فيقال لهم يا جهلة فالقول الذي يكون به الخلق على زعمكم لو كان خلقا بم يكونه؟ أليس قول مقالتكم التي تزعمون أن قوله: كن

=

=

إنما يخلقه بقول قلبه وهو عندكم خلقه وذلك القول يخلقه بقول قلبه وهو خلق حتى يصير إلى ما لا غاية له ولا عدد ولا أول، وفي هذا إبطال تكوين الخلق وإنشاء البرية وإحداث ما لم يكن قبل أن يحدث الله الشيء وينشئه، وهذا قول لا يتوهمه ذو لب لو تفكر فيه ووفق لإدراك الصواب والرشاد قال الله تعالى: وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ [الأعراف: ٥٤] فهل يتوهم مسلم أن الله تعالى: سخر الشمس والقمر والنجوم مسخرات بخلقه أليس مفهوما عند من يعقل عن الله خطابه أن الأمر الذي سخر به غير المسخر بالأمر وأن القول غير المقول له فتفهموا يا ذوي الحجا عن الله خطابه وعن النبي ﷺ بيانه لا تصدوا عن سواء السبيل فتضلوا كما ضلت الجهمية عليهم لعائن الله فاسمعوا الآن الدليل الواضح البيّن غير المشكل من سنة رسول الله ﷺ بنقل العدل موصولا إليه على الفرق بين خلق الله وبين كلام الله تعالى. ثم ساق الأحاديث في ذكر كلمات الله تعالى إلى الحديث: ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)) ثم قال: أفليس العلم محيطا يا ذوي الحجا أنه غير جائز أن يأمر النبي ﷺ بالتعوذ بخلق الله من شر خلقه هل سمعت عالمًا يجيز أن يقول: أعوذ بالكعبة من شر خلق الله أو يجيز أن يقول أعوذ بالصفا والمروة أو أعوذ بعرفات ومنى من شر ما خلق الله؟ هذا لا يقوله ولا يجيز القول به مسلم يعرف دين الله محال أن يستعيذ مسلم بخلق الله من شر خلقه.

وقال أبو معاوية بن حازم الضرير رحمه الله تعالى: الكلام فيه بدعة وضلالة ما يكلم فيه النبي ﷺ ولا الصحابة رضي الله عنهم ولا التابعون ولا الصالحون رحمهم الله تعالى: يعني قول القرآن مخلوق. وذكر عند أبي نعيم هو الفضل بن دكين من يقول: القرآن مخلوق فقال: والله والله ما سمعت بشيء من هذا حتى خرج ذاك الخبيث جهم وكلام أئمة السنة في هذا الباب يطول ذكره ولو أردنا استيعابه لطال

=

=

الفصل. وقد تكرر نقل الإجماع منهم على إثبات ما أثبت الله ﷻ لنفسه وأثبته رسول الله ﷺ والصحابة فمن بعدهم ونفي التكييف عنها لا سيما في مسألة العلو وفي هذه المسألة مسألة القرآن وتكليم الله تعالى موسى لأنها أول ما جحده الزنادقة قبحهم الله تعالى: وفي ذكر من سمينا كفاية ومن لم نسم منهم أضعاف ذلك ولم يختلف منهم اثنان في أن القرآن كلام الله تعالى: ليس بمخلوق من الله بدأ وإليه يعود، وتقلدوا كفر من قال بخلق القرآن ومنعوا الصلاة خلفه وأفتوا بضرب عنقه وبتحريم ميراثه على المسلمين وحرموا ذبيحته وجزموا بأنها ذبيحة مرتد لا تحل للمسلمين فانظر أيها المنصف أقوالهم ثم اعرضها على نصوص الكتاب والسنة هل تجدهم حادوا عنها قيد شبر أو قدموا عليها قول أحد من الناس كائنا من كان حاشا وكلا معاذ الله بل بها اقتدوا ومنها تضلعوا وبنورها استضاءوا وإياها اتبعوا فهداهم الله بذلك لما اختلفت فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

# الفهرس

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ (٣). ........................................ ٥

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤). ............... ٥

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)........................................................ ١٣

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦). ............................١٧

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧)....................................١٧

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨). ......١٧

قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩). ........................................................................١٧

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠)......................١٨

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١). ..................................١٨

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢). ......................٢٧

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣). ........................٣٤

أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤). .....................................٣٤

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥). ..................................................................٣٩

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦)...............٤٤

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧). ......٤٤

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨)........................ ٤٤
أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩)........................ ٥٣
أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠)........................ ٥٨
أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١)........................ ٥٨
أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢). .٦٢
قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣)........................ ٦٦
قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)........................ ٦٩
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)........................ ٧٣
قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦)........................ ٧٣
فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧). ..٧٣
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨)........................ ٨٠
قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩)......٨١
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)........................ ٨١
سورة ن........................ ٨٨
بسم الله الرحمن الرحيم........................ ٩٠
ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)........................ ٩٠
مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)........................ ٩٠

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣). ........................ ٩٠
وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤). ........................ ٩٠
فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥). ........................ ٩١
بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦). ........................ ٩١
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧). ........................ ٩١
فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨). ........................ ١١٥
وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) ........................ ١١٥
وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠). ........................ ١١٥
هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١). ........................ ١١٥
مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢). ........................ ١١٥
عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣). ........................ ١١٥
أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤). ........................ ١١٦
إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥). ........................ ١١٦
سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦). ........................ ١١٦
إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧). ........................ ١٤٠
وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨). ........................ ١٤٠
فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩). ........................ ١٤٠
فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠). ........................ ١٤٠
فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١). ........................ ١٤٠
أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢). ........................ ١٤٠
فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣). ........................ ١٤٠

أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤). ........................ ١٤١

وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥). ........................ ١٤١

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦). ........................ ١٤١

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧). ........................ ١٤١

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨). ........................ ١٤١

قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩). ........................ ١٤١

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠). ........................ ١٤١

قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١). ........................ ١٤١

عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢). ........................ ١٤١

كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣). ........................ ١٤٢

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤). ........................ ١٦٣

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥). ........................ ١٦٣

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦). ........................ ١٦٣

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧). ........................ ١٦٣

إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨. ........................ ١٦٣

أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩). ........................ ١٦٣

سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠). ........................ ١٦٣

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١). ........................ ١٦٣

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢). ........................ ١٧٤

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣). ........................ ١٧٤

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤). .... ١٧٤

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥). .......... ١٧٥

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦). .......... ١٧٥

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧). .......... ١٧٥

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨). ..... ١٩٧

لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩). .......... ١٩٧

فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠). .......... ١٩٧

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١). .......... ١٩٧

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢). .......... ١٩٨

سُورَة الْحَاقَّة .......... ٢٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم .......... ٢٢٦

الْحَاقَّةُ (١). .......... ٢٢٦

مَا الْحَاقَّةُ (٢). .......... ٢٢٦

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣). .......... ٢٢٦

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤). .......... ٢٢٧

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥). .......... ٢٢٧

وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦). .......... ٢٢٧

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧). .......... ٢٢٧

فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨). .......... ٢٢٧

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩)........................ ٢٢٧
فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠)........................ ٢٢٨
إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)........................ ٢٢٨
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)........................ ٢٢٨
فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣)........................ ٢٥٥
وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤)........................ ٢٥٥
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥)........................ ٢٥٦
وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦)........................ ٢٥٦
وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧)........................ ٢٥٦
يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)........................ ٢٥٦
فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩)........................ ٢٧٠
إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠)........................ ٢٧٠
فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١)........................ ٢٧٠
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢)........................ ٢٧٠
قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣)........................ ٢٧٠
كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)........................ ٢٧٠
وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥)........................ ٢٧١
وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦)........................ ٢٧١
يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧)........................ ٢٧١
مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨)........................ ٢٧١
هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩)........................ ٢٧١

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠). ........................................ ٢٧١
ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١). ........................................ ٢٧١
ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢). .................. ٢٧١
إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ (٣٣). ........................................ ٢٧١
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤). ........................................ ٢٧٢
فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥). ........................................ ٢٧٢
وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦)........................................ ٢٧٢
لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧). ........................................ ٢٧٢
فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨). ........................................ ٢٩٥
وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩)........................................ ٢٩٥
إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)........................................ ٢٩٥
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١)........................................ ٢٩٥
وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢)........................................ ٢٩٥
تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)........................................ ٢٩٦
وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤). ........................................ ٢٩٦
لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥). ........................................ ٢٩٦
ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦). ........................................ ٢٩٦
فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)........................................ ٢٩٦
وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨). ........................................ ٢٩٦
وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩). ........................................ ٢٩٦
وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠). ........................................ ٢٩٦

وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) ........ ٢٩٧
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢). ........ ٢٩٧
سورة المعارج ........ ٣٢٧
بسم الله الرحمن الرحيم ........ ٣٢٨
سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١). ........ ٣٢٩
لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢). ........ ٣٢٩
مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣). ........ ٣٢٩
تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤). ........ ٣٢٩
فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥). ........ ٣٢٩
إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦). ........ ٣٢٩
وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧). ........ ٣٢٩
يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨). ........ ٣٤٢
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩). ........ ٣٤٣
وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠). ........ ٣٤٣
يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١). ........ ٣٤٣
وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢). ........ ٣٤٣
وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣). ........ ٣٤٣
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤). ........ ٣٤٣
كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥). ........ ٣٤٣
نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ (١٦). ........ ٣٤٣
تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧). ........ ٣٤٣

وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨) ........ ٣٤٤
إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) ........ ٣٥٦
إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠). ........ ٣٥٦
وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١). ........ ٣٥٦
إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢). ........ ٣٥٦
الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣). ........ ٣٥٦
وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤). ........ ٣٥٦
لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥). ........ ٣٥٦
وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦). ........ ٣٥٦
وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧). ........ ٣٥٦
إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨). ........ ٣٥٦
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩). ........ ٣٥٧
إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠). ........ ٣٥٧
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١). ........ ٣٥٧
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢). ........ ٣٥٧
وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣). ........ ٣٥٧
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤). ........ ٣٥٧
أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥). ........ ٣٥٧
فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦). ........ ٣٩٩
عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧). ........ ٣٩٩
أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨). ........ ٣٩٩

كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩). .......... ٣٩٩
فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠).......... ٣٩٩
عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١). .......... ٤٠٠
فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢).......... ٤٠٠
يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣). .......... ٤٠٠
خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤). .......... ٤٠٠
سورة نوح.......... ٤٢٤
بسم الله الرحمن الرحيم .......... ٤٢٦
إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) ...... ٤٢٦
قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢).......... ٤٢٦
أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣).......... ٤٢٦
يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤).......... ٤٢٦
قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥). .......... ٤٤٤
فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦). .......... ٤٤٤
وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧). .......... ٤٤٤
ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨).......... ٤٤٤
ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩).......... ٤٤٤
فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠). .......... ٤٤٤
يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١).......... ٤٤٥

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢). .......... ٤٤٥
مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣). .......... ٤٤٥
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤).......... ٤٤٥
أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥). .......... ٤٤٥
وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦).......... ٤٤٥
وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧). .......... ٤٤٥
ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨). .......... ٤٤٥
وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩). .......... ٤٤٥
لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠). .......... ٤٤٦
قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١)..... ٤٦٣
وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢). .......... ٤٦٣
وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣). ٤٦٣
وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤). .......... ٤٦٤
مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا (٢٥).... ٤٦٤
وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦).......... ٤٦٤
إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧).......... ٤٦٤
رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨). .......... ٤٦٤
سُورَة الْجِنّ .......... ٤٨٤
بسم الله الرحمن الرحيم .......... ٥٠٣
قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١).......... ٥٠٣

يَهْدِي إِلَىٰ الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢). ........ ٥٠٤
وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣). ........ ٥٠٤
وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَىٰ اللهِ شَطَطًا (٤). ........ ٥٠٤
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا (٥). ........ ٥٠٤
وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦). ........ ٥٠٤
وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا (٧). ........ ٥٠٤
وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨). ........ ٥٢٩
وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩). .... ٥٢٩
وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠). ........ ٥٢٩
وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١). ........ ٥٤٠
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢). ........ ٥٤٠
وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣). .. ٥٤١
وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤). ...... ٥٤١
وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥). ........ ٥٤١
وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦). ........ ٥٤١
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧). ........ ٥٤١
وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا (١٨). ........ ٥٥٧
وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩). ........ ٥٥٧
قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠). ........ ٥٥٧
قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١). ........ ٥٥٧
قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢). ........ ٥٥٧

إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣). ............ ٥٥٨
حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤)........ ٥٥٨
قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥)........ ٦٥٠
عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦). ........ ٦٥٠
إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧). ..... ٦٥٠
لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨). ............ ٦٥١
سُورَة الْمُزَّمِّل ........ ٦٦٩
بسم الله الرحمن الرحيم ........ ٦٧١
يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١). ........ ٦٧١
قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢). ........ ٦٧١
نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣). ........ ٦٧١
أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)........ ٦٧٢
إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)........ ٦٧٢
إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦). ........ ٦٧٢
إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧). ........ ٦٧٢
وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨). ........ ٦٧٢
رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩). ........ ٦٧٢
وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠). ........ ٧٠٠
وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)........ ٧٠١

إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢). .......................... ٧٠١
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣)........................ ٧٠١
يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤). ............ ٧٠١
إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥). .... ٧٠١
فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦). ........................ ٧٠١
فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧). ........................ ٧٠٢
السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) ........................ ٧٠٢
إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩). ........................ ٧٢٣
إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)........................ ٧٢٣
سورة المدثر ........................ ٧٥١
بسم الله الرحمن الرحيم ........................ ٧٥٢
يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١). ........................ ٧٥٢
قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)........................ ٧٥٢
وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣)........................ ٧٥٢
وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤). ........................ ٧٥٢
وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)........................ ٧٥٣

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)........................................ ٧٥٣
وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)........................................ ٧٥٣
فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨)........................................ ٧٥٣
فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩)........................................ ٧٥٣
عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)........................................ ٧٥٣
ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)........................................ ٧٧٨
وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢)........................................ ٧٧٨
وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣)........................................ ٧٧٨
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤)........................................ ٧٧٨
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥)........................................ ٧٧٨
كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦)........................................ ٧٧٨
سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧)........................................ ٧٧٨
إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨)........................................ ٧٧٨
فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩)........................................ ٧٧٨
ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠)........................................ ٧٧٩
ثُمَّ نَظَرَ (٢١)........................................ ٧٧٩
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢)........................................ ٧٧٩
ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣)........................................ ٧٧٩
فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤)........................................ ٧٧٩
إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)........................................ ٧٧٩
سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)........................................ ٧٧٩

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧). ........................................ ٧٧٩
لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨). ........................................ ٧٧٩
لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩). ........................................ ٧٧٩
عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠). ........................................ ٧٨٠
الفهرس ........................................ ٨٢٢